

الجامع لأحكام القرآن الكريم

القرآن الكريم

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري

















طبعة خاصة  
بتصريح من دار الشعب

يطلب من :  دار الشعب للنشر

دار البيان للطباعة ١٧٧ شارع الورم - ت : ٥٣٦٤٩٩  
بئر الجدة : ٢٠ شارع الكائنات - ت : ٢٥٩١٨٩٢ / ٢٥٩١٨٩١

الجامع لأحكام القرآن الكريم

٢

تفسير  
القرآن

المهنة العامة سنة الأسكندرية

لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

رقم الترخيص

رقم التسجيل ٧ / ١٨٨٨٧

دار الريان للتراث



قوله تعالى : فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْعِرْبَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمِرِمُّ أَتَى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٣٠﴾ هُنَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ في المعنى : سلك بها طريق السعادة ؛ عن ابن عباس . وقال قوم : معنى التَّقبُّل التَّكفُّل في التربية والقيام بإنائها . وقال الحسن : معنى التَّقبُّل أنه ما عَظَمَها ساعةً قطُّ من ليل ولا نهار . ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ في معنى سَوَّى خَلْقَهَا من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام واحد . والتقبُّل والنبات مصدران على غير المصدر ، والأصل تَقَبَّلَ وإنباتا . قال الشاعر :

أَكْفَرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي • وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمَاءِ الرَّيَّانَا

أراد بعد إعطائك ، لكن لما قال « أنبتها » دل على تَبَّتْ ؛ كما قال امرؤ القيس :

فَعَرَمْنَا إِلَى الْحَسَنِ وَرَقَّ كَلَامُنَا • وَرُضْتُ فذلَّتْ صَعْبَةً أَيْ إِذْلَالٍ .

وإنما مصدر ذَلَّتْ ذُلٌّ ، ولكنه رَدَّه على معنى أَذَلَّتْ ؛ وكذلك كل ما يَرِدُ عليك في هذا الباب . فمعنى تَقَبَّلَ وقَبِلَ واحد . فالمعنى تَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ . ونظيره قول رُوَبَّة :

• وَهِيَ تَطْلُوِيْتُ أَنْطَوَاءَ الْحَضْبِ •

لأن معنى تَطْلُوِيْتُ وَأَنْطَوَيْْتُ واحد ؛ ومثله قول القطامي :

وخير الأمر ما استقبلت منه • وليس بأن تَتَّبِعَهُ أَتْبَاعَا

لأن تَتَّبِعْتُ وأتبع واحد . وفي قراءة ابن مسعود « وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ تَتْرِيلًا » لأن معنى نَزَلَ وَأَنْزَلَ واحد . وقال اللُّفْطُصَل : معناه وَأَنْبَتَهَا فَنَبَتْ نَبَاتًا حَسَنًا . ومراجعة المعنى أولي

(١) الحضب (فتح الحاء وكسرها) يكون النناد ؛ ضرب من الحيات . (٢) أنطواء جمعها أنطواء .

كما ذكرنا . والأصل في القبول الضم ؛ لأنه مصدر مثل الدخول والخروج ، والفتح جاء في حروف قليلة ؛ مثل ألوك والوزوع ؛ هذه الثلاثة لا غير . قاله أبو عمرو والكاسي والأئمة . وأجاز الزجاج « بقبول » بضم القاف على الأصل .

قوله تعالى : ( وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ) أي ضمها إليه . أبو عبيدة : ضمن القيام بها . وقرأ الكوفيون « وكفلها » بالتشديد ، فهو يتعدى إلى مفعولين ؛ والتقدير وكفلها ربها زكريا ، أي الزمها كفالتها وفقر ذلك عليه ويسره له . وفي مصحف أبي « وأكفلها » والمهمزة كالتشديد في التصدي ؛ وأيضا فإن قبله « فتقبلها » وأنبتها « فأخبر تعالى عن نفسه بما فعل بها » بفاء « وكفلها » بالتشديد على ذلك . وخففه الباقون على إستاد الفعل إلى زكريا . فأخبر الله تعالى أنه هو الذي تولى كفالتها والقيام بها ؛ بدلالة قوله : « أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » . قال مكّي : وهو الاختيار ؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف ، لأن الله تعالى إذا كفّلها زكريا كفّلها بأمر الله ، ولأن زكريا إذا كفّلها فمن تشيئة الله وقدرته ؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان . وروى عمرو بن موسى عن عبد الله بن كثير وأبي عبد الله المزني « وكفلها » بكسر الفاء . قال الأخفش : يقال كَفَّلَ يَكْفُلُ وَكَفَّلَ يَكْفُلُ ولم أسمع كَفَّلَ ، وقد ذكرت . وقرأ مجاهد « فتقبلها » بإسكان اللام على المسألة والطلب . « ربها » بالنصب نداء مضاف . « وأنبتها » بإسكان التاء « وكفلها » بإسكان اللام « زكريا » بالمد والنصب . وقرأ حفص وحزمة والكاسي « زكريا » بنير مد ولا همزة ومدّه الباقون وهمزوه . وقال الفراء : أهل الجواز يمتدون « زكريا » ويقتصره ، وأهل التجد يحدّثون منه الألف ويصرفونه فيقولون : زكري . قال الأخفش : فيه أربع لغات : المد والقصر ، وزكري بتشديد الياء والصرف ، وذكّر ورأيت زكريا . قال أبو حاتم : زكري بلا صرف لأنه أعجمي وهذا غلط ؛ لأن ما كان فيه « يا » مثل هذا انصرف مثل كرسى ويحيى ، ولم ينصرف زكريا في المد والقصر لأن فيه ألف تأنيث والحجة والتعريف .



قوله تعالى : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ إلى قوله : ﴿يَسْمِعُ الدُّعَاءَ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ المِحْرَابُ في اللغة أكرم موضع في المجلس . وسيأتي له مزيد بيان في سورة «مریم» . وجاء في الخبر : إنها كانت في غرفة كان زكريا يصعد إليها يسلم . قال وضاح الميمني :<sup>(١)</sup>

رَبَّةٌ مِحْرَابٍ إِذَا جَلَّتْهَا ، لَمْ أَقْبَاهَا حَتَّى آرَتْسِي سُلَّاهَا

أي ربّة غرفة . روى أبو صالح عن ابن عباس قال : حملت امرأة عمران بعد ما أسنت فندرت ما في بطنها محررا فقال لها عمران : ويحك ! ما صنعت ؟ أرايت إن كانت أنثى . فأعيا لذلك جميعا . فهلك عمران وحنة حامل فولدت أنثى فقبلها الله بقبول حسن ، وكان لا يُحْزَرُ إلا الغلمان قسام عليها الأخبار بالأفلام التي يكتبون بها الرّوحى ، على ما يأتي . فكشفها زكريا وأخذ لها موضعا فلما أسنت جعل لها محررا لا يرتقى إليه إلا بسلم ، واستاجر لها ظمرا وكان يغلّق عليها بابا ، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبرت ، فكانت إذا حاضت أخرجهن إلى منزله فتكون عنده خالتها وكانت خالتها امرأة زكريا في قول النكّاشي . وقال مقاتل : كانت أختها امرأة زكريا ، وكانت إذا طهرت من حيضتها وأغتسلت ردها إلى المحراب . وقال بعضهم : كانت لا تحيض وكانت مطهرة من الحيض . وكان زكريا إذا دخل عليها يمدّ عندها فأكهة الشتاء في القبط وفاكهة الصيف في الشتاء فقال : يا مريم أتى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله . فمد ذلك طمع زكريا في الولد وقال : إن الذي يأتيها بهذا قادر أن يرزقني ولدا . ومعنى «أتى» من أين ؟ قاله أبو عبيدة . قال النحاس : وهذا

(١) عن قوله تعالى : «خرج على قومك من المِحْرَابِ» آية ١١ .

(٢) في الأصول : «قال على بن زيد» والتصحيح عن الأثافي ولسان العرب وشرح القاموس . وهذا ثابت بن قسيمة لوضاح ابن أوزان : يا أبا الواحد جردى قبا . إن تصريحي قبا أوليا .  
راجع ترجمته في الأثافي ج ٦ ص ٢٠٩ — ٢١٠ طبع دار الكتب المصرية .

فيه تساهل؛ لأن « أين » سؤال عن الموضع و « أتي » سؤال عن المذهب والجهات .  
والمنع من أي المذهب ومن أي الجهات لك هذا . وقد فرق الكُتِب بينهما فقال :

أَيُّ وَمِنْ أَيْنَ إِلَيْكَ الطَّرَبُ • مِنْ حَيْثُ لَا حَبْوَةَ وَلَا رَيْبَ

و « كلما » منصوب بوجد، أي كُلِّ دَخَلَةٍ . ( إِنَّ اللَّهَ يَرِثُ مَنْ يَشَاءُ يُغَيِّرُ حِسَابًا ) قيل :  
هو من قول مرهم ، ويموز أن يكون مستأفًا ؛ فكان ذلك سبب دعاء زكريا وسؤاله الولد .

الثانية - قوله تعالى : ( هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ ) هَٰذَاكَ في موضع نصب ؛ لأنه  
ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصله المكان . وقال المفضل بن سلمة : « هَٰذَاكَ »  
في الزمان و « هَٰذَاكَ » في المكان ، وقد يحمل هذا مكان هذا . و ( هَبْ لِي ) أعطني .  
( مِنْ لَدُنْكَ ) مِنْ عِنْدِكَ . ( ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ) أي نسلًا صالحًا ، والذرية تكون واحدة وتكون  
جمعًا ذكرا وأنثى ، وهو هنا واحد . يدل عليه قوله « هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » ولم يقل  
أولاده وإنما أنت « طَيِّبَةً » ثابت لفظ القرية ؛ كقوله :

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى • وَأَنْتَ خَلِيفَةُ ذَاكَ الْكَلِّ

فَأَنْتَ وَلَدَتْهُ ثَابِتٌ لَفْظُ الْخَلِيفَةِ . وَرُويَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ : « أَيُّ رَجُلٍ مَاتَ وَتَرَكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً أَعْرَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَ أَعْرَاسِهِمْ وَلَمْ يَتَقَنَّ مِنْ  
أَجُورِهِمْ شَيْئًا » . وقد مضى في « البقرة » اشتقاق القرية . و ( طَيِّبَةً ) أي صالحة مباركة .  
( إِنَّكَ تَسْمِعُ النَّفْسَ ) أي قابله ؛ ومنه سمع الله لمن حده .

الثالثة - دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى طَلَبِ الْوَلَدِ وَهِيَ سُنَّةُ الْمُرْسَلِينَ وَالصَّادِقِينَ ، قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى : « وَهَلْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » . وفي صحيح مسلم عن  
سعد بن أبي وقاص قال : أَرَادَ عُمَانُ أَنْ يَتَبَيَّنَ فِتْنَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَوْ أَجَازَ  
لَهُ ذَلِكَ لَأَخْتَصِمْنَا . وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :  
« الْفُكَّاحُ مَنْ سَقَى فَرَسًا لَمْ يَسْمَعْ بَسْمَلًا قَلْبًا مَنِيَّ وَتَزَوَّجُوا بَنَاتِي مَكْثَرًا بِكُمْ الْإِمَامُ وَمَنْ كَانَ

(١) راجع الصفحة خمسة عشرة - ٢٠ - مولانا طيبة آية الله عليه السلام

فَا طَوَّلَ فَلَيْتَكُمْ وَمَنْ لَمْ يَحِدْ فَعَلِيهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ رِيسَاءٌ<sup>(١)</sup> . وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى بَعْضِ حُفَّالِ  
 الْمُتَصَوِّفَةِ حَيْثُ قَالَ : الَّذِي يَطْلُبُ الْوَلَدَ أَحَقُّ ، وَمَا عَرَفَ أَنَّهُ النَّبِيُّ الْآخَرُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى  
 خُبْرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ : « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » وَقَالَ : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ  
 رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيًّا قَرَّةً أَعْيُنَ » . وَقَدْ تَرجم البخاري على هذا « باب  
 طلب الولد » . وَقَالَ صلى الله عليه وسلم لِأَبِي طَالْعَةَ حِينَ مَاتَ أَبْنَاهُ : « أَعْرَسَ اللَّيْلَةَ »<sup>٢</sup>  
 قَالَ نَعَمْ . قَالَ : « بَارَكَ اللَّهُ لَكَمَا فِي غَابِرَيْكُمَا » . قَالَ خُمَلْتُ . فِي الْبُخَارِيِّ : قَالَ سَفِيَانُ  
 فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : فَرَأَيْتُ تِسْعَةَ أَوْلَادٍ كُلَّهُمْ قَدْ قَرَعُوا الْقُرْآنَ . وَتَرجم أَيْضًا « باب  
 الدعاء بكثرة الولد مع البركة » وَسَاقَ حَدِيثَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،  
 خَادِمُكَ أَنَسٌ أَدْعَى اللَّهُ لَهُ . فَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَ » . وَقَالَ  
 صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأَبِي سَلَمَةَ وَأَرْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ وَأَخْلُقْهُ فِي عَشِيرَتِهِ  
 فِي النَّابِرِينَ » . نَحَرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ . وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : « تَزَوَّجُوا الْوُلُودَ ابْنُ دُرْدُودَ  
 فَإِنَّ مَكَاتِرَ بَيْكُمُ الْأُمَمِ » . أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ . وَالْإِسْبَاطُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ نَحْتُ عَلَى صُلْبِ  
 الْوَلَدِ وَتَتَدَبَّرُ إِلَيْهِ مَا يَرْجُوهُ الْإِنْسَانُ مِنْ قَعَمٍ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ . قَالَ صلى الله عليه وسلم :  
 « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ أَقْطَعْ عَمَلَهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ » فَذَكَرَ « أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ » . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ  
 إِلَّا هَذَا الْحَدِيثُ لَكَانَ فِيهِ كِفَايَةٌ .

الرابعة — فَإِذَا بَيَّنَّتْ هَذَا الْوَاجِبَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَضَرَّعَ إِلَى خَالِقِهِ فِي هَدَايَةِ وَلَدِهِ  
 وَزَوْجِهِ بِالتَّوْفِيقِ لَهَا وَالْهَدَايَةِ وَالصَّلَاحِ وَالنَّفَاقِ وَالرِّعَايَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ مُبِينًا لَهُ عَلَى دِينِهِ وَدُنْيَاهِ  
 حَتَّى تَعُظَّمَ مَضْمُونُهُمَا فِي أَوْلَادِهِ وَأَخْرَاجِهِ لَا تَرَى قَوْلَ زَكَرِيَّا « وَأَجْعَلْهُ رَبِّي رِضِيًّا » . وَقَالَ :  
 « ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » . وَقَالَ : « هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيًّا قَرَّةً أَعْيُنَ » . وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ  
 صلى الله عليه وسلم لِأَنَسٍ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ » . نَحَرَجَهُ الْبُخَارِيُّ  
 وَمُسْلِمٌ ، وَغَيْبُكَ .

(١) الرواية : أَنْ تَرْضَى أَنَّهَا اللَّهُ تَعَالَى شَيْدًا يَذْهَبُ شَيْئًا تَنْتَكِحُ . أَوَّلًا أَنْ الْعَزْمُ يَنْطَلِقُ الْفَلَاحَ كَمَا يَنْطَلِقُ الْعَزْمُ .

قوله تعالى : فَادَّعَى الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَمَسِيدًا وَحْصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ( فَادَّعَى الْمَلَائِكَةُ ) قرأ حمزة واليكافى « فناداه » بالألف على التذكير ، ويُحِيلَانِ لِأَن أَوَّلَهَا يَاءٌ ، ولأنها رابعة . وبالألف قراءة ابن عباس وابن مسعود ، وهو اختيار أبي عبيد . وروى عن جرير عن مغيرة عن إبراهيم قال : كان عبد الله يذكر الملائكة في [ كل ] القرآن . قال أبو عبيد : نراه اختار ذلك خلافاً على المشركين لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله . قال النحاس : هذا احتجاج لا يُحْصَلُ منه شيء ؛ لأن العرب تقول : قالت الرجال ، وقالت الرجال ، وكذا النساء . وكيف يحتاج عليهم بالقرآن ، ولو جاز أن يحتاج عليهم بالقرآن بهذا لجاز أن يحتاجوا بقوله تعالى : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » ولكن المجبة عليهم في قوله عز وجل : « أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ » أى فلم يشاهدوا ، فكيف يقولون إنهم إناث فقد علم أن هذا طلق وهوى . وأما « فناداه » فهو جائز على تذكير الجمع ، « وناداه » على تانيث الجماعة . قال مكى : والملائكة من يعقل في التكسير يجرى في التانيث مجرى ما لا يعقل ، تقول : هى الرجال ، وهى المذنوع ، وهى الجمال ، وقالت الأعراب . ويقوى ذلك قوله : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » وقد ذكر في موضع آخر قال : « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ » وهذا إجماع . وقال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ » فتانيث هذا الجمع وتذكيره حسن . وقال السدى : ناداه جبريل وحده ؛ وكذا قراءة ابن مسعود . وفي التنزيل « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ » يعنى جبريل . والروح الوحي . وجائز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع . وجاء في التنزيل « الَّذِينَ قَالُوا لَمْ يَأْتِ الْبَشَرُ مِنْ رَبِّهِمْ » يعنى نعيم بن مسعود ؛ على ما يأتى . وقيل : ناداه جميع الملائكة ، وهو الأنظهر . أى جاء النداء من قِبَلِهِمْ .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي فِي الْحَرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُشْرِكَ ﴾ « وهو قائم » ابتداء وخبر .  
 « يَصَلِّي » في موضع رفع ، وإن شئت كانت نصبا على الحال من المضمرة . « أَنَّ اللَّهَ » أى  
 بأن الله . وقرأ حمزة والكسائي <sup>(١)</sup> « إِنْ » أى قالت إن الله ؛ فالابتداء بمعنى القول . « يَشْرِكُ »  
 بالتشديد قراءة أهل المدينة . وقرأ حمزة « يَشْرُكُ » مخففا ؛ وكذلك حميد بن قيس المكي .  
 إلا أنه كسر الشين وضم الياء وخفف الياء . قال الأخفش : هي ثلاث لغات بمعنى واحد .  
 دليل الأولى وهي قراءة الجماعة أن ما في القرآن من هذا من فعل ماض أو أمر فهو  
 بالتثنية ؛ كقوله تعالى : « فَبَشِّرْ عَادَیْ » « فَبَشِّرْهُم بِمَغْفِرَةٍ » « فَبَشِّرْهُنَّ بِإِحْشَاقٍ » « قَالُوا بُشِّرْنَاكَ  
 بِالْحَقِّ » . وأما الثانية وهي قراءة عبد الله بن مسعود فهي من بشر يشر وهو لغة تهامة ،  
 ومنه قول الشاعر <sup>(٢)</sup> :

بَشَّرْتُ عِبَالِي إِذْ رَأَيْتُ مَحِيضَةً • اسْتُكَّ مِنَ الْحِجَابِ يُبَلِّ كَلْبَهَا  
 وقال آخر :

وَإِذَا رَأَيْتُ الْبَاقِشِينَ إِلَى التَّدْيِ • عُشْبًا أَكْفُهُمْ بِحَاقِ مُبِيلٍ  
 فَأَعْنَهُمْ وَأَبْشَرُ بِمَا يَشْرَوْنَ بِهِ • وَإِذَا هُمْ زُلُّوا بِضَنِّكَ فَأَنْزِلْ  
 وأما الثالثة فهي من أبشر يشر بإشارا قال :

يَا أُمِّ عَمْرٍو أَبْشِرِي بِالْبُشْرَى • مَوْتُ ذُرَيْعٍ وَجَسَادٌ عَظْلُ <sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ﴿ يَحْيَى ﴾ كان اسمه في الكتاب الأول حيا ، وكان اسم سارة زوجة إبراهيم  
 عليه السلام يسارة ، وتفسيره بالعربية لا تلد ، فلما بُشِّرَتْ بإحشاق قبل لها : سارة ، سماها

(١) كما في الأصل وأعراب القرآن للنحاس . والقي في البحر لأبي حيان وغرائب القرآن للسياق وتفسير  
 ابن عطية : « وقرأ ابن مامر حمزة « إِنَّ اللَّهَ » بكسر الهمزة ، وقرأ الباقون بفتح الهمزة » .

(٢) كما في الأصول وسلام التزويل للبغوي . والقي في تفسير البحر وابن عطية : « وفي قراءة عبد الله بن مسعود  
 يشرِكُ بضم الياء وتخفيف التثنية المكسورة من أبشر ، وهكذا قرأ في كل القرآن » .

(٣) هو عطية بن زيد ، وقال ابن زبي هو عبد القيس بن خفاف البجلي . (من اللسان) .

(٤) قال أبو عبيد : يقال للإنسان إذا نظر إلى شيء فأعجبه واشتهاه فتناهله وأسرعه نحوه . يهش إليه .

(٥) جراد مائلة وعطل لا تهيج . في اللسان : « وَأَزَادَ أَنْ يَقُولَ » يَا أُمِّ عَمْرٍو ظم يهشمه البيت فقال يَا أُمِّ عَمْرٍو  
 وَأُمِّ عَمْرٍو كنية الضحى . ومن كلامهم للضحى : أبشري بجراد عطل ، وكم رجال عطل . . . . .

بذلك جبريل عليه السلام . فقالت : يا ابراهيم لم تقص من اسمي حرف ؟ فقال ذلك ابراهيم  
لجبريل عليهما السلام . فقال : " إن ذلك الحرف زيد في اسم ابن لما من أفضل الأنبياء  
اسمه حيي ومُحيي يحيى " . ذكره النقاش . وقال قتادة : سُمي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان  
والنبوة . وقال بعضهم : سُمي بذلك لأن الله تعالى أحياه بالناس بالمهدى . وقال مقاتل :  
أشقى اسمه من اسم الله تعالى حي فسُمي يحيى . وقيل : لأنه أحياه به رحم أنه .

(مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ) بنى عيسى في قول أكثر المفسرين . ومُحيي عيسى كلمة لأنه  
كان بكلمة الله تعالى التي هي « كن » فكان من غير أب . وقرأ أبو السَّمَّال المَدَوِيُّ « بِكَلِمَةٍ »  
مكسورة الكاف ساكنة اللام في جميع القرآن ، وهي لفة فصيحة مثل كفف ونغذ . وقيل :  
سُمي كلمة لأن الناس يتدون به كما يتدون بكلام الله تعالى . وقال أبو عبيد : معنى « بكلمة »  
من الله « بكلم من الله » . قال : والعرب تقول أنشدني كلمة أى قصيدة ؛ كما روى أن  
الحُوَيْرَةَ (١) ذُكِرَ لِحَسَانِ فَقَالَ : لمن الله كلمته ، يعنى قصيدته . وقيل غير هذا من الأقوال .  
والقول الأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر . و « يحيى » أول من آمن بعيسى عليهما السلام  
ومُصَدِّقُهُ ، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين . ويقال بستة أشهر . وكان ابن خنساء ،  
فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمه إليه وهو في حرقه . وذكر الطبري أن مريم لما  
حملت بعيسى حملت أيضا أختها يحيى ؛ فجاءت أختها زائرة فقالت : يا مريم ، أشعرت أنى  
حملت ؟ فقالت لها مريم : أشعرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : وإنى لأجد ما في بطنى  
يسجد لما في بطنك . وذلك أنه روى أنها أحست جنتها يتحرك رأسه إلى ناحية بطن مريم .  
قال السُّدِّي : فذلك قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ » . « ومُصَدِّقًا » نصب على الحال .  
(وَسَيِّدًا) السيد : الذى يسود قومه وَيُنْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ ، وأصله سَيِّدٌ يُقَالُ : فلان أسود من

(١) الحُوَيْرَةُ تخدير الحادرة وهو لقب علي بن أبي طالب ، واسمه قطبة بن محمد بن جبريل . وبنى حسان بن ثابت  
رضي الله عنه قصيدة إلى علي عليه السلام :

بَكَرَتْ نَجْمَةً عَدُوَّةً خَسِيًّا وَغَسَدَتْ غَفَرًا فَارْتَمَتْ بِرَجِيٍّ

(راجع التفضيلات ص ٤٨ طبع أدباً وركاب الأغاني ج ٢ ص ٢٧ طبع دار الكتب المصرية)

فلان، أفضل من الياذة؛ ففيه دلالة على جواز تسمية الإنسان سيّدا كما يجوز أن يسمى عزيزا أو كريما . وكذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لبيّ قُرَيْظَة : " قوموا إلى سيّدكم " . وفي البخاريّ ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحسن : " إن أبني هذا سيّدٌ ولعل الله يصلح به بين فتيْن عظيمتين من المسلمين " . وكذلك كان، فإنه لما قُتل على رضى الله عنه بايعة أكثر من أربعين ألفا وكثير من تخلف عن أبيه وعن نكث بيعته، فبقى نحو سبعة أشهر خليفة العراق وما وراءها من نُرَسان ، ثم سار إلى معاوية في أهل الحجاز والعراق وسار إليه معاوية في أهل الشام ؛ فلما تراءى اتّجعا بموضع يقال له « مسكن » من أرض السّواد بناحية الأنبار كره الحسن القتال لعلمه أن إحدى الطائفتين لا تغلب حتى تهلك أكثر الأخرى فهلك المسلمون ؛ فلم الأمر إلى معاوية على شروط شرطها عليه، منها أن يكون الأمر له من بعد معاوية ؛ فالتمز كل ذلك معاوية فصديق قوله عليه السلام : " إن أبني هذا سيّد " ولا أسود ممن سوّده الله تعالى ورسوله . قال قتادة في قوله تعالى « وسيدا » قال : في العلم والعبادة . ابن جرير والضحاك : في العلم والثّقي . مجاهد : السيّد الكريم . ابن زيد : الذي لا يغلبه الغضب . وقال الزجاج : السيّد الذي يفوق أقرانه في كل شيء من الخير . وهذا جامع . وقال الكسائيّ : السيّد من الميز الميسر . وفي الحديث " تبيّ من الضّان خير من السيّد من الميز " . قال :

سواءٌ عليه شاةٌ عامٍ دنت له • ليذبحها للضيف أم شاةٌ سيّد

(وحصورا) أصله من الحصر وهو الحبس . حصرت الشيء وأحصرت إذا حبستى . قال ابن ميادة :

وما همر ليّل إن تكون تباعدت • عليك ولا أن أحصرتك شقُول

وناقة حصور : ضيقة الإخيل . والحصور : الذي لا يأتي النساء كأنه مجع عنهن ؛ كما قال : رجل حصور وحصير إذا حبس زفده ولم يخرج ما يخرج به يخرج النّداء . يقال : شرب القوم خصر عليهم فلان، أي بخل ؛ عن أبي عمرو . قال الأخطل :

وشارب مُرْمِج بالكأس نادمني \* لا بالحصور ولا فيها يسْؤَار<sup>(١)</sup>  
وفي التتزيل « وَحَمَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » أي عِيسَا . والحصير الملك لأنه محبوب .  
قال لبيد :

وَفُاقِمَ غُيْبَ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ \* جِنٌّ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامُ<sup>(٢)</sup>  
فيجي عليه السلام حصور ، فقول بمعنى مفعول لا يأتي النساء ؛ لأنه ممنوع مما يكون في الرجال ؛  
عن ابن مسعود وغيره . وفول يعني مفعول كثير في اللغة ، من ذلك حلوب بمعنى مخلوبة ؛  
قال الشاعر :

فِيهَا أَكْثَنُ نَافِ وَأَرْبَعِينَ حُلُوبَةً \* سُودًا تَكْفِيهِ الْقِرَابِ الْأَثْمِ<sup>(٣)</sup>  
وقال ابن مسعود أيضا وابن عباس وابن جبير وقادة وعطاء وأبو الشعثاء والحسن والسدي  
وابن زيد : هو الذي يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة . وهذا أصح لوجهين : أحدهما  
أنه مدح وثناء عليه ، والثاء إنما يكون عن الفعل المكتسب دون الجلية في الغالب . الثاني  
أن قولاً في اللغة من صيغ الفاعلين ؛ كما قال :

ضَرُوبٌ يَنْصُلُ السِّيفُ سَوْقَ سِمَانِيَا \* إِذَا عَلِمُوا زَادَا فَإِنَّكَ عَاقِسُرُ<sup>(٤)</sup>  
فاللغى أنه يحصر نفسه عن الشهوات . ولعل هذا كان شرعه ، فاما شرعنا فالنكاح كما تقدم .  
وقيل : الحصور العين الذي لا ذكر له يتأق له به النكاح ولا يُتْرَل ؛ عن ابن عباس أيضا وسعيد  
ابن المسيب والضحاك . وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يقول : « كل ابن آدم يلقي الله بذنب قد أخذنه يمد به عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيي  
عليه »

(١) سوار : مرير وثاب . وقد روى « سَوْر » بوزن سَار ، أي أنه لا يمر في الأمان سَوارا بل يشعه كـ .

(٢) القام من الرجال : السيد الكثير الخير الواسع الفضل . والقائم العدد الكثير .

(٣) البيت لعمرة العيسى في مسقطه . والخوافي : أو أنور ويش الجناح مما يلي القاهر .

(٤) البيت لأبي طالب بن عبد المطلب . مدح وجلا بانكرم فنزل : يضرب سيفه سوق السيف من الإبل  
الأنثى إذا عدوا الواد ولم يظفروا بجواد لشدة الزمان وكثرة ركابهم ، وكانوا إذا أرادوا نحر القاذة ضربوا ساقها بالسيف  
فخرت ثم نحرها . ( عن شرح التواحد ) .



ابن زكريا فإنه كان سيدا وحضورا ونيا من الصالحين" — ثم أورد النبي صلى الله عليه وسلم بيده إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : « كان ذكركم مثل هذه القذاة » . وقيل : معناه الحابس نفسه عن معاصي الله جل وعز . « ونبيّا من الصالحين » قال الزبيح : الصالح الذي يؤدى الله ما أقرض عليه ، وإلى الناس حقوقهم .

قوله تسأل : قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَتِ الْكِبَرَ وَأَمْرًا نِيَّ عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٠﴾

قبل : الرب هنا جبريل ، أى قال لجبريل : ربّ — أى يا سيدى — أنى يكون لى غلام ؟ معنى ولدا ؛ وهذا قول الكلبي . وقال بعضهم : قوله « رب » يعنى الله تعالى . « أنى » بمعنى كيف ، وهو فى موضع نصب على الظرف . وفى معنى هذا الاستفهام وجهان : أحدهما أنه سأل هل يكون له الولد وهو وأمراهته على حالهما أو يُرَدَّانِ إلى حال من يلد ؟ . الثانى سأل هل يُرْزَقُ الولد من أمراهته العاقرة أو من غيرها . وقيل : المعنى بآى متلة استوجب هذا وأنا وأمراهتى على هذه الحال ؛ على وجه التواضع . ويروى أنه كان بين دعائه والوقت الذى بُشِّرَ فيه أربعين سنة ، وكان يوم بشر ابن تسعين سنة وأمراهته قريبة السن منه . وقال ابن عباس والضحاك : كان يوم بشر ابن عشرين ومائة سنة وكانت أمراهته بنت ثمان وتسعين سنة ؛ فذلك قوله « وأمراهتى عاقرة » أى عقيم لا تلد . يقال : رجل عاقرة وامرأة عاقرة بنته العقر . وقد عُقِّرَتْ وعُقِّرَ ( بضم القاف فهما ) تُعْقِرُ عَقْرًا صارت عاقرا ؛ مثل حنثت تمسن حسنا ؛ عن أبى زيد . وعُقْرارة أيضا . وأسماء الفاعلين من نعل فعيلة ؛ يقال : عظمت فهى عظيمة ؛ وظرفت فهى ظرفيسة . وإنما قيل عاقرة لأنه يراد به ذات عُقْرٍ على النسب . ولو كان على الفعل لقال : عقرت فهى عقيمة كأن بها عقرا ، أى كبرا من السن يمتصها من الولد . والعاقرة : العظيم من الرمل لا ينبت شيئا . والعقر أيضا مهر المرأة إذا وطئت على شبهة . وبهضة العقر : زعموا هى بهضة الديك ؛ لأنه يبيض فى عمره بهضة واحدة إلى العلون ؛ وعقر النار أيضا (١) القذاة : ما يقع فى اللبن والماء والشراب من تراب أو تبن أو روث أو غير ذلك .

وسطها ومعظمها . وعُقر الحوض : مؤخره حيث تقف الإبل إذا وردت ؛ يقال : عُقر وعُقر  
مثل عُسر وعُسّر ، والجمع الأعقار فهو لفظ مشترك . والكاف في قوله « كذّك » في موضع  
نصب ، أى يفعل الله ما يشاء مثل ذلك . واللام مشتق من النُلة وهو شدة طُلب النكاح .  
واغتم الفعل غُلة حاج من شهوة الصّراب . وقالت لَيْلُ الأَخِيلَةِ :

شفاها من الباء المضبال الذى بها • غلامٌ إذا حَرَّ الفئاة سَفاها

والغلام الطاز الشارب . وهو بين النُومة والنُوية ، والجمع الغُلة والغُلمات . ويقال :  
إن النّيلم الشاب والجارية أيضا ، والنّيلم : ذكر السّحفاة . والنّيلم موضع . واغتم البحر  
هاج وتلاطمت أمواجه .

قوله تعالى : **قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَسِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿١٠﴾**  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **( قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً )** «جعل» هنا بمعنى صير لتعديه إلى  
مفعولين . و « لى » في موضع المفعول الثانى . ولما بُشِّر بالولد ولم يَبْدُ عنده هذا فى قدره  
الله تعالى طلب آية — أى علامة — يعرف بها صحة هذا الأمر وكونه من عند الله تعالى ؛  
فما فيه الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الآية بعد مُشاهدة الملائكة إياه ؛  
فأله أكثر المفسرين . قالوا : وكذلك إن لم يكن من مرض خرس أو نحوه ففيه على كل حال  
عقاب . قال ابن زيد : إن زكريا عليه السلام لما حملت زوجته منه يحمي أصبح لا يستطيع  
أن يكلم أحدا ، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله ؛ فإذا أراد مناقلة أحد لم يطقه .

الثانية — قوله تعالى : **( إِلَّا رَمْرًا )** الرمز فى اللغة الإيماء بالشئين . وقد يستعمل  
فى الإيماء بالحاجين والعينين واليدين ؛ وأصله الحركة . وقيل : طلب تلك الآية زيادة طمأينة .  
المعنى : تتم النعمة بأن تجعل لى آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة . فقيل له : آيتك

أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَيْ تَمُتُّ مِنَ الْكَلَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، دَلِيلُ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى بِمَدِّ بُشْرَى الْمَلَائِكَةِ لَهُ . « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » أَيْ أَوْجَدْتُكَ بِقُدْرَتِي فَكَذَلِكَ أَوْجَدْتُكَ الْوَلَدَ . وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ النَّحَاسُ وَقَالَ : قَوْلُ قَتَادَةَ بْنِ زَكَرِيَّا عَوِيبَ بَرَكِ الْكَلَامِ قَوْلَ مَرْغُوبٍ عَنْهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُخْبِرْنَا أَنَّهُ أَذْنِبَ وَلَا أَنَّهُ نَهَى عَنْ هَذَا . وَالْقَوْلُ فِيهِ أَيْضًا الْمَعْنَى إِجْعَلْ لِي عَلَامَةً تَدُلُّ عَلَى كَوْنِ الْوَلَدِ ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ مُتَيَّيًّا عَنِّي . « وَرَمَزَا » نَصَبَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ الْمَقْطُوعِ ، قَالَهُ الْأَخْفَشُ . وَقَالَ الْكِسَائِيُّ : وَهَمْزٌ يَرْمِزُ وَيَرْمِزُ . وَفَرَسُ « إِلَّا رَمَزَا » بَفَتْحِ الْمِيمِ وَ « رُمَزَا » بِضَمِّهَا وَضَمُّ الرَّاءِ ، الْوَاحِدَةُ رَمْزَةٌ .

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام وذلك موجود في كثير من السنة . وأكد الإشارات ما حكى به النبي صلى الله عليه وسلم من أمر السوداء حين قال لها : « أين الله ؟ » فاشتارت برأسها إلى السماء فقال : « أعتقها فإنها مؤمنة » ، فأجاز الإسلام بالإشارة الذي هو أصل الديانة الذي يحرز الدم والمال وتُسْتَحَقُّ به الجنة ويُجَنَّبُ به من النار . وحكم بإيمانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ؛ فيجب أن تكون الإشارة عاملة في سائر الديانة ، وهو قول عامة الفقهاء . وروى ابن القاسم عن مالك أن الأنخس إذا أشار بالطلاق أنه يلزمه . وقال الشافعي في الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالأنخس في الرجعة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف ، وإن شك فيها فهذا باطل ، وليس ذلك بقياس وإنما هو استحسان ، والقياس في هذا كله أنه باطل لأنه لا يتكلم ولا يفعل إشارته . قال أبو الحسن بن بطال : وإنما حمل أبو حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السنن التي جاءت بميواز الإشارات في أحكام مختلفة في الديانة . ولسل البخاري حاول بقرينه « باب الإشارة في الطلاق والأمور » الرد عليه . وقال عطاء : أراد بقوله « أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ » صَوْمَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ . وَكَانُوا إِذَا صَامُوا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا رَمَزَا . وَهَذَا فِيهِ بُدٌّ . وَانْهَ أَنْعَلِمَ .

الرابعة - قال بعض من يميز نسخ القرآن بالسنة : إن زكريا عليه السلام منع الكلام وهو قادر عليه ، وإنه منسوخ بقوله عليه السلام : « لَا صُمْتُ يَوْمًا إِلَى الْبَلِيلِ » . وَأَكْثَرُ

العلماء على أنه ليس بمسوخ، وأن ذكرها إنما منع الكلام بأفة دخلت عليه منعه إياه، وتلك الآفة عدم القدرة على الكلام مع الصحة؛ كذلك قال المفسرون. وذهب كثير من العلماء إلى أنه «لا شئت يوما إلى الليل» إنما معناه عن ذكر الله. وأما عن المندروما لا فائدة فيه، فالصمت عن ذلك حسن.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أمره ألا يترك الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه؛ على القول الأول. وقد مضى في البقرة معنى الذكر. قال محمد بن كعب القرطبي: «لو رخص لأحد في ترك الذكر لخص لركبنا بقول الله عز وجل: «ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا وأذكر ربك كثيرا» ولرخص للرجل يكون في الحرب بقول الله عز وجل: «إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا». ذكره الطبري. «وسبح» أي صل؛ شئت الصلاة تسبحة لما فيها من تزيه الله تعالى عن السوء. و«النش» جمع عشة. وقيل: هو واحد. وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب؛ عن مجاهد. وفي الموطن عن القاسم بن محمد قال: ما أدركت الناس إلا وهم يصلون الظهر بنش. «والإبكار» من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمُرُّمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي اختارك، وقد تقدم. ﴿وطهرك﴾ أي من الكفر؛ عن مجاهد والحسن. الزجاج: عن سائر الأنداس من الحيض والنفاس وغيرها. واصطفاك لولادة عيسى. ﴿على نساء العالمين﴾ يعني طالبي زمانها؛ عن الحسن وابن جرير وغيرهما. وقيل: على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصور؛ وهو الصحيح على ما بينه، وهو قول الزجاج وغيره. وكرر الاصطفاء لأن معنى الأول الاصطفاء لبيادته، ومعنى الثاني

لولادة عيسى . وروى مسلم عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كُلُّ  
 من الرجال كثير ولم يُكَلِّم من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وإن فضل  
 عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : الكلال هو  
 التناهي والتماس . ويقال في ماضيه «كُلُّ» بفتح الميم وضمتها ، ويكَلِّم في مضارعها بالضم . ويكَلِّم  
 كل شيء ، بِحَسَبِهِ . والكلال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة . ولا شك أن أكل نوع الإنسان  
 الأثنياء ثم يليهم الأولياء من المستقيمين والشهداء والصالحين . وإذا حرر هذا فقد قيل :  
 إن الكلال المذكور في الحديث يعني به النبوة فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسية  
 نبيين ، وقد قيل بذلك . والصحيح أن مريم نبيّة ؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك  
 كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما هتَمَ وأتَى بيانه أيضا في «مريم» . وأما آسية فلم يرد  
 ما يدل على نبوتها دلالة واضحة بل على صدقيتها وفضلها ، على ما يأتي بيانه في «الحرير» .  
 وروى من طرق صحيحة أنه عليه السلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة : «خير نساء العالمين  
 أربع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة  
 بنت محمد» . ومن حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : «أفضل نساء أهل  
 الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة  
 فرعون» ثم وفي طريق آخر عنه : «سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة» .  
 فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر  
 آسرة تقوم عليها الساعة ؛ فإن الملائكة قد بلغت الوحي عن الله عز وجل بالكيف والإخبار  
 والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء ؛ فهي إذن نبيّة والنبي أفضل من الولي فهي أفضل من كل  
 النساء : الأولين والآخرين مطلقا . ثم بعدها في التفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية . وكذلك  
 رواه موسى بن عتبة عن كُرب عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
 «سبعة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية» . وهذا حديث حسن يرفع  
 الإشكال . وقد خص الله مريم بمنا لم يؤت أحد من النساء ؛ وذلك أن روح القدس كتبها  
 وظهر لها ونفخ في دبرها ودنا منها للشفقة ؛ فليس هذا لأحد من النساء . وضلّت بكلمات

وبها ولم تسأل آية عند ما بُشِّرَتْ كما سأل زكريا صلى الله عليه وسلم من الآية ؛ ولذلك سماها الله في تنزيله صدّيقة فقال : « وأتمه صدّيقة » . وقال : « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا مِنَ الْغَنَاءِ » فشهد لها بالصدّيقية وشهد لها بالتصديق لكلمات البشري وشهد لها بالقنوت . وإمّا بُشِّرَ زكريا بغلام فلعظ الى كبريسته وعفامة ربح أمر أنه فقال : أئن يكون لي غلام وأمرأتى طافرة ؛ فقال آية : وَبُشِّرَتْ مَرْيَمَ بِالْغُلَامِ فلحظت أنها بكرٌ ولم يحسها بشر ثقيل لها : « كذلك قال ربك » فاقصرت على ذلك ، وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية من يعلم كُتِبَ هذا الأمر ، ومن لأمرأة في جميع نساء العالمين من نساء بنات آدم ما لها من هذه المناقب ! . ولذلك روى أنها سبقت السابقين مع الرسل الى الجنة ؛ جاء في الخبر عنه صلى الله عليه وسلم : « لو أفسدت لبرئت لا يدخل الجنة قبل سابقى أمّى إلا بضعة عشر رجلا منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم بنتُ عمران » . وقد كان يحق على من اتحل علم الظاهر واستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنا سيّد ولد آدم ولا فخر » وقوله حيث يقول : « لواء الحمد يوم القيامة بيدي ومفاتيح الكرم بيدي وأنا أوّل خطيب وأوّل شافع وأوّل مُبَشِّرُ أوّل وأوّل » . فلم ينل هذا الوُفْدُ في الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم في الباطن . وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصدّيقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية . ومن قال لم تكن نبيّة قال : إن وُفِيَتْها لَللَّهِ كما روى جبريل عليه السلام في صفة دحية الكلبي حين سؤّله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء . والأوّل أظهر وعليه الأكثر . والله أعلم .

قوله تعالى : يَمْزِجُ مَاءَ حَمِيمٍ وَبَارِدٍ لِرَبِّكَ وَأَجْمَلِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴿١٣﴾

أى أطبل القيام في الصلاة ؛ من جماعده . قنادة : أدبى الطاعة . وقد تختم القول في القنوت . قال الأوزاعي : لما قالت لها الملائكة ذلك قامت في الصلاة حتى وسمت

(١) راجع ج ٢ ص ٨٦ طية ثانية وج ٣ ص ٢١٢ طية أول وثانية .

قدماها وسالت دما وقبها عليها السلام : ( وَأَعْبُدِي وَآرَتِي ) قدم السجود ما هنا على الركوع لأن الواو لا توجب الترتيب ؛ وقد تقدم الخلاف في هذا في البقرة عند قوله تعالى : « إِن الصَّلاَةَ وَالْمُرُوءَ مِنْ شَمَائِلِ اللَّهِ » . فإذا قلت : قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد ، فعل هذا يكون المعنى واركعي وأبجدي . وقيل : كان شرعهم السجود قبل الركوع . ( مع الزاكين ) قيل : معناه أتملي كفضلهم وإن لم تصل معهم . وقيل : المراد به صلاة الجماعة . وقد تقدم في البقرة .<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١١﴾  
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ) أي الذي ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريم عليهم السلام من أخبار الغيب . ( نُوحِيهِ إِلَيْكَ ) فيه دلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب ؛ وأخبر عن ذلك وصدقه أهل الكتاب بذلك ؛ فذلك قوله تعالى : « نوحيه إليك » فرد الكفاية إلى ذلك فذلك ذكر . والإجماع هنا الإرسال إلى النبي صلى الله عليه وسلم . والوحي يكون إلهاما وإيماء وغير ذلك . وأصله في اللغة إعلام في خفاء ؛ ولذلك صار الإلهام يُسمى وحيا ؛ ومنه « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِئِينَ » وقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ » وقيل : معنى « أوحيت إلى الخواريين » أمرتهم ؛ يقال : وصى وأوحى ، وروى وأوحى بمعناه . قال العجاج :  
« أَوْحَى لَهَا الْفَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ »

أي أمر الأرض بالفرار . وفي الحديث : « الْوَحْيُ الْوَحْيُ » وهو السرعة ؛ والفعل منه وَحَّيْتُ وَحْيًا . قال ابن فارس : الوحي الإشارة والكتابة والرسالة ، وكل ما ألقى به إلى غيرك .  
(١) وأما المسألة الخامسة وما فيها من ٢٤ آية آياتها ١٠ آيات .

حتى يلمه وفي كيف كانت . والوحي السريع . والوحي الصوت ؛ ويقال : استوحياهم  
أى استصرخاهم . قال :

• أوجيت ميموتا لها والأزرق •

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ لَنَبِيٍّ ﴾ أى وما كنت يا محمد لنبيهم ، أى بحضرتهم  
وعندهم . ﴿ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا تَهْتَفُونَ ﴾ جمع قلم ؛ من قلبه إذا قطعه . قبل : قلاهم وسباهم •  
وقيل : أفلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة ، وهو أجود ؛ لأن الأعلام قد نسي الله عنها  
تقال « ذَلِكَ فَسَقَ » . إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التى كانت عليها الجاهلية  
تعملها . ﴿ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أى يحضنها ، فقال زكريا : انا أحق بها ، خالتها عندى •  
وكانت عنده أشباخ بنت فاقود أخت حنة بنت فاقود أم مريم . وقال بنو إسرائيل : نحن  
أحق بها ، بنت عاتكة ، فآفترعوا عليها وجاء كل واحد بقلبه ، وانفقوا أن يجعلوا الأعلام فى الماء  
الجارى فن وقف قلبه ولم يجره الماء هو حاضنها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بَجَرَتْ  
الأعلام وعال قلم زكريا » . وكانت آية له لأنه نبي تجرى الآيات على يديه . وقيل غير هذا •  
و « أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » ابتداء وخبر فى موضع نصب بالفعل المضمر الذى دل عليه الكلام ؛  
التقدير : ينظرون أنهم يكفل مريم • ولا يعمل الفعل فى لفظ « أى » لأنها استفهام •

الثالثة - استدلل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة ، وهى أصل فى شرعنا  
لكل من أراد العدل فى القسمة ، وهى سنة عند جمهور الفقهاء فى المستوين فى الجهة لعدل  
بينهم وتطمئن قلوبهم وترفع الظنة عن يتولى قسمتهم ، ولا يفضل أحد منهم على صاحبه  
إذا كان المقسوم من جنس واحد أتباعا للكتاب والسنة ؛ ورد العمل بالقرعة أبو حنيفة  
وأصحابه ، وردوا الأحاديث الواردة فيها ، وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأعلام التى نسي  
الله عنها ، وحكى ابن المنذر عن أبي حنيفة أنه جوزها وقال : القرعة فى القياس لا تستقيم ،  
ولكننا تركنا القياس فى ذلك وأخذنا بالآثار والسنة . قال أبو عبيد : وقد عمل بالقرعة ثلاثة  
من الأنبياء : يونس وزكريا وإسماعيل صلى الله عليه وسلم . قال ابن المنذر : واستعمل القرعة



كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء ، فلا معنى لقول من رذعها . وقد زعم السجاري في آخر كتاب الشهادات ( باب الفسقة في المسكيات وقول الله عز وجل « يدغوبون أفلامهم » ) وساق حديث الثمان بن بشير : « مثل القائم على حدود الله والذين فيها مثل قوم آستهموا على سفينة... » الحديث . وسيأتي في « الأفعال » إن شاء الله تعالى ، وفي سورة « الزحرف » أيضا يقول الله سبحانه . وحديث أم العلاء وأن عثمان بن مظعون طار لهم سهم في السكبي حين اقترعت الأنصار سكبي المهاجرين ، الحديث . وحديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أفرع بين نسائه فأيتن خرج سهمها خرج بها ؛ وذكر الحديث .

وقد اختلقت الرواية عن مالك في ذلك ؛ فقال مرة : يُفرع للحديث . وقال مرة : يسافر بأوقتهن له في السفر . وحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . وكيفية القرعة المذكورة في كتب الفقه والخلاف . واحتج أبو حنيفة بأن قال : إن القرعة في شأن زكريا وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة بلجاز . قال ابن العربي : « وهذا ضعيف ، لأن القرعة إنما فاعلتها استخراج الحكم الخفي عند التشاح ؛ فأما ما يخرج به التراضي [ فيه ] فباب آخر ، ولا يصح لأحد أن يقول : إن القرعة تجري مع موضع التراضي ، فإنها لا تكون أبدا مع التراضي » وإنما تكون فيما يتشاح الناس فيه ويضرب به . وصفة القرعة عند الشافعي ومن قال بها : أن تقطع رقاع صغار مستوية فيكتب في كل رقعة اسم ذى السهم ثم تجعل في بتانق طين مستوية لا تفاوت فيها ثم تحجف قليلا ثم تلبى في ثوب رجل لم يحضر ذلك وينطى عليها ثم به ثم يدخل يده ويخرج فإذا خرج اسم رجل أعطى الجزء الذي أفرع عليه .

(١) كما في نسخ الأصل ، وبغير نقط البخاري عن الثمان في « كتاب الخاتم » . وروايته في « كتاب الشهادات » : « ... مثل المخرج في حدود الله بالبراع فما حل ... » . والمخرج : الذي يرأى . (٢) تتاح الثمان : أراد كل أن يكون هو الطالب . - لا زيادة . - أحكام القرعة لا يراهي .

الراصة - ودلت الآية أيضا على أن الخلالة أحق بالحضانة من سائر القرابات بما عدا  
 الجدة ؛ وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم في ابنة حمزة - واسمها أمة الله - لجعفر وكانت  
 عنده خالتها ، وقال : " إنما الخلالة بمنزلة الأم " وقد تقدمت في البقرة هذه المسألة <sup>(١)</sup> . ونخرج  
 أبو داود عن علي قال : خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بأبنة حمزة فقال جعفر : أنا أخذها  
 أنا أحق بها ابنة عمي وخالتها عندي ، وإنما الخلالة أم . فقال علي : أنا أحق بها ابنة عمي  
 وعندي ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي أحق بها . وقال زيد : أنا أحق بها ، أنا  
 خرجت إليها وسافرت وقدمت بها . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فذكر حديثا قال :  
 " وأما الجارية فاقضى بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الخلالة أم " . وذكر ابن أبي خيثمة  
 أن زيد بن حارثة كان وصي حمزة فتكون الخلالة على هذا أحق من الوصي ويكون ابن العم  
 إذا كان زوجا غير قاطع بالخلالة في الحضانة وإن لم يكن محرما لها .

قوله تعالى : إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِشِرْكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ  
 الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٥﴾  
 وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦﴾

دليل على نبوتها كما تقدم . و « إذ » متعلقة بـ يَخْضَعُونَ . ويجوز أن تكون متعلقة بقوله :  
 « وما كنت لسمي » . « بكلمة منه » قرأ أبو السَّهَل بكلمة منه ، وقد تقدم . « اسمه المسيح »  
 ولم يقل اسمها لأن معنى كلمة معنى ولد . والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصديق ؛ قاله إبراهيم  
 النخعي . وهو نيا يقال مغرب وأصله الشين وهو مشترك . قال ابن فارس : المسيح العرق ،  
 والمسيح الصديق ، والمسيح الدرهم الأطلس لا نقش فيه . والمسيح الجماع ؛ يقال مسحها .  
 والأُمسح : المكان الأملس . والمسحاة المرأة الوحاء التي لا أسْت لها . وبفلان مسحة من  
 من نبال . والمساخ قبيح ، واحتلتها مسيحة . قال :

لَهَا مَسَاحُ زُورٌ فِي مَرَافِضِهَا • لَيْنٌ وَلَيْسَ بِهَا وَهْنٌ وَلَا رَقِيٌّ<sup>(١)</sup>

واختلف في المسيح ابن مريم مما إذا أخذه فقيل : لأنه مسح الأرض، أى ذهب فيها فلم  
يَسْكُنْ بِمَكَّةَ • وروى عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا علة إلا يرى ؛ فكانه سعى  
مسيحا لذلك، فهو على هذا فعيل بمعنى فاعل • وقيل : لأنه ممسوح بطن البركة، كانت  
الأنبياء تُمسح به طيب الرائحة ؛ فلذا مُسح به علم أنه نبى • وقيل : لأنه كان ممسوح  
الأنف • وقيل : لأن الجمال مسحه، أى أصابه وظهر عليه • وقيل : إنما سُمي بذلك  
لأنه مُسح بالطُّهر من الذنوب • وقال أبو الهيثم : المسيح ضد السخ • قال : مسحه الله  
أى خلقه خلقا حسنا مباركا • ومسحه أى خلقه خلقا ملونا قبيحا • وقال ابن الأعرابي :  
المسيح الصديق ، والمسيح الأعور ، وبه سُمي الدجال • وقال أبو عبيد : المسيح أصله  
بالعبرانية مَسِيحا بالثين فمُزب كما عُرِبَ موثى بموسى • وأما الدجال فُسِّي مسيحا لأنه ممسوح  
العينين • وقد قيل في الدجال مَسِيح بكسر الميم وشد السين • وبعضهم يقول كذلك بإثالة  
المتوسطة • وبعضهم يقول مَسِيح بفتح الميم وإثالة والتخفيف ؛ والأول أشهر وعليه الأكثر  
سُمي به لأنه يسبح في الأرض أى يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة ويبيت  
المقدس ؛ فهو فعيل بمعنى فاعل • قاله الجلال يمسح الأرض بحنة، وأبن مريم يمسحها منحة •  
وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول • وقال الشاعر :

• إِنَّ الْمَسِيحَ يَقْتُلُ الْمَسِيحَا •

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس من  
بلد إلا سيطره الدجال إلا مكة والمدينة" الحديث • ووقع في حديث عبد الله بن عمرو  
"إلا الكعبة وبيت المقدس" ذكره أبو جعفر الطبري ؛ وزاد أبو جعفر الطحاوى "ومسجد  
الطور" ، رواه من حديث جنازة بن أبى أمية عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم  
عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفى حديث أبى بكر بن أبى شبة عن سكرة بن جندب عن النبي

(١) زور : جمع زوراء وهى المائة • والرمز والزق : التفتت • (١)

صل الله عليه وسلم " وأنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبیت المقدس وأنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس " وذكر الحديث . وفي صحيح مسلم : " فبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فيقول عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهردتين وإضا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه فطرو وإذا رفعه تحذرو منه بجان كالثلوث فلا يحل لكافر يحد ربح نفسه إلا مات ، ونفسه ينهى حيث يتمى طرفه فيطلبه حتى يدركه باب لد فيقله " الحديث بطوله .<sup>(١)</sup>  
وقد قيل : إن المسيح اسم لميسى غير مشتق سماه الله به . فعلى هذا يكون عيسى بدلا من المسيح من البذل الذي هو هو . وعيسى اسم أعجمي فذلك لم ينصرف . وإن جعلته عربيا لم ينصرف في معرفة ولا نكرة ؛ لأن فيه ألف ثابت . ويكون مشتقا من عاى يعوسه إنثا ساسه وقام عليه . ( وجيا ) أى شريفا ذا جاه وقدر ، وانتصب على الحال ؛ قاله الأخفش .  
( ومن المقرين ) عند الله تعالى وهو معطوف على « وجيا » أى ومقربا ؛ قاله الأخفش .  
و جمع وجيه وجهاء ووجاه . ( ويكلم الناس ) عطف على « وجيا » ؛ قاله الأخفش أيضا .  
و « المهد » مضجع الصبي في رضاعه . ومهدت الأمر حياته ووطائه . وفي التزويل « فلا تسيهم بمهدون » . وامهد الشيء ارتفع كما يمتد سنام البعير . ( وكهلا ) الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة . وامرأة كهلة . واكتهلت الروضة إذا عمها النور . يقول : يكلم الناس في المهد آية ويكلمهم كهلا بالوشى والرسالة . وقال أبو العباس : كلهم في المهد حين برأ أنه فقال : « إني عبد الله » الآية . وأما كلامه وهو كهل فاذا أنزله الله تعالى [ من السماء ] أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم « إني عبد الله » كما قال في المهد .  
فها تان آيتان وحجتان . قال المهدوى : وقائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ويمش إلى أن يكلمهم كهلا ، إذ كانت المادة أن من تكلم في المهد لم يمش .

(١) قوله : مهردتين ، أى في شقين أو لحين . وقيل : الثوب المهرود الذى يصنع بالورس ثم بالزفران .

(٢) الجبان (بسم الجيم وتخفيف الميم) : حيايت من الفضة تصنع على هيئة الزور الكبير .

(٣) لد (ضم اللام وتشديد الدال) : قرية بيت المقدس من نواحي فلسطين .

(٤) وأجمع صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٧٦ طبع بلاق . (٥) الزيادة عن البحر لأبي جيان .

قال الزجاج : « وكهلا » بمعنى ويكلم الناس كهلا . وقال الفراء والأخفش : هو معطوف على « وجيها » . وقيل : المعنى ويكلم الناس صغيرا وكهلا . وروى ابن جرير عن مجاهد قال : الكهل الحليم . الحاس : « هذا لا يُعرف في اللغة ، وإن الكهل عند أهل اللغة من ناهز الأربعين . وقال بعضهم : يقال له حدث إلى ست عشرة سنة . ثم شاب إلى اثنين وثلاثين . ثم يتكلم في ثلاث وثلاثين » قاله الأخفش . « ومن الصالحين » عطف على « وجيها » أى « من العباد الصالحين » . ذكر أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن إدريس عن حصين عن حلال بن يساف . قال : لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى وصاحب يوسف وصاحب جريج ، كذا قال : « وصاحب يوسف » . وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج ... وبينما صمى يرضع من أمه » وذكر الحديث بطوله . وقد جاء من حديث صيب في قصة الأخدود « أن امرأة حجى بها ثلثي في النار على إيمانها ومعها صبي » . في غير كتاب مسلم « يرضع فتاعست أن تقع فيها فقال الغلام يا أمه أصرى فأذكك على الحق » . وقال الضحاك : يتكلم في المهد ستة : شاهد يوسف وصبي ماشطة امرأة فرعون وعيسى ومجي وصاحب جريج وصاحب الجبار . ولم يذكر الأخدود ، فأسقط صاحب الأخدود وبه يكون المتكلمون سبعة . ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة » بالحصر فإنه أخبر بما كان في علمه مما أوحى إليه في تلك الحال . ثم مد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به .

قلت : أما صاحب يوسف فبقي الكلام فيه ، وأما صاحب جريج . صاحب الجبار وصاحب الأخدود فمى صحيح مسلم . وساق قصة الأخدود في سورة « البروج » إن شاء الله تعالى . وأما صبي ماشطة [ امرأة ] فرعون ، فقد ذكر البيهقي عن ابن عباس . النبي صلى الله عليه وسلم : « لما أسرى في سِرتي في راحة طيبة فقا ، ما همم إلا به ما ملوا ماشطة

أبنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يديها فقالت بسم الله فقالت ابنة فرعون أبي قالت ربّي وربّك وربّ أبيك قالت أولئك ربّ غير أبي قالت نعم ربّي وربّك وربّ أبيك الله - قال - فدعاها فرعون فقال ألك ربّ غيري قالت نعم ربّي وربّك الله - قال - فأمر بنفّرة من ثمان فاحيت ثم أمر بها لثقي فيها قالت إن لي إليك حاجة قال ما هي قالت تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع واحد قال ذلك لك لما لك علينا من الحق فأمر بهم فألقوها واحدا واحدا حتى بلغ رضبا فيهم فقال قبيّ يا الله ولا تقاسي فأنا على الحق - قال - وتكلم أربعة وهم صنادق هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم .

قوله تعالى : قَالَتْ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٧﴾

أى يا سيدي . مخاطب جبريل عليه السلام ؛ لأنه لما تمثّل لها قال لها : إنما أنا رسول ربّك لئيب لك غلاما زكيا . فلما سمعت ذلك من قوله استغثت عن طريق الولد فقالت : أنى يكون لي ولد ولم يمسنى بشر ؟ أى بشكاح . « وَلَمْ أَكُ بَشَرًا » ذكرت هذا تأكيدا ؛ لأن قولها « لم يمسنى بشر » يشمل المحرام والحلال . تقول : العادة الجارية التي أبرأها الله في خلقه أن الولد لا يكون إلا عن تكاح أو سفاح . وقيل : ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد : أمين قيل زوج في المستقبل أم يخلق الله ابتداء ؟ فروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها : « كذلك الله يخلق ما يشاء » . « قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ » . نفخ في جيب درعها وثكها ؛ قاله ابن جريج . قال ابن عباس : أخذ جبريل رذّن قميصها بأصبعه فنفخ فيه فخلت من ساعتها بعيسى . وقيل غير ذلك على ما يأتي بيانه في سورتها إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل في رحمها فولدت

بذلك . وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفع جبريل لأنه يصير الولد بعضه ن  
 الملائكة وبعضه من الإنس ، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من  
 قُوتِه بفعل بعض الماء في أصلاب الآباء وبعضه في أرواح الأمهات فإذا اجتمع الماءان  
 سارا ولدا ، وأنت الله تعالى جعل الماءين جميعا في مريم بعضه في رحمها وبعضه في صلبها  
 فنفخ فيه جبريل لتيج شهورها ؛ لأن المرأة ما لم تيج شهورها لا تحبل ، فلما حاجت شهورها  
 بنفخ جبريل وقع الماء الذي كان في صلبها في رحمها فاختلط الماءان فليفث بذلك ؛ فذلك  
 قوله تعالى : « إذا قضى أمرا » يعني إذا أراد أن يخلق خلقا فلما يقول له كن فيكون .  
 وقد تقدم في « البقرة » القول فيه مستوفى<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٥١﴾  
 وَرَسُولًا إِنَّا بُنِىَ إِبْرَاهِيمَ إِيَّا قَدْ جِئْتُمْ بِقَافٍ مِنْ رَبِّكَ إِنِّي أَخْلَقْتُ  
 لَكُمْ مِنَ آدَمِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ  
 الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْرِيُونَ  
 فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ( وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ) قال ابن جرير : الكتاب  
 الكتابة والخط . وقيل : هو كتاب غير التوراة والإنجيل عليه الله عيسى عليه السلام .  
 ( وَرَسُولًا ) أى ونجمله رسولا . أو يكلمهم رسولا . وقيل : هو معطوف على قوله  
 « وجيها » . وقال الأخفش : وإن شئت جعلت الواو في قوله « ورسولا » مفعلة  
 والرسول حالا للهاء ، تقديره ويعلمه الكتاب رسولا . وفي حديث أبي ذر الطويل « وأول أنبياء  
 بنى إسرائيل موسى وأكرمهم عيسى عليهم السلام » . ( إِنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ ) أى أصنؤ وأقدر لكم .  
 ( بَيْنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ) قرأ الأعرج وأبو جعفر « كهية » بالشديد . الباقون بالهمز .

(١) راجع ٢٤ من ٥٧ حكمة تامة .

والطير يزكرو ويؤنث . ( فَأَنْفَخُ فِيهِ ) أى فى الواحد منه أو منها أو فى الطين فيكون طائرا .  
وطائر وطير مثل تاجر ويحرق . قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فلذا غاب عن  
أعينهم سقط ميتا ليميز قتل الخلق من قتل الله تعالى . وقيل : لم يخلق غير الخفاش لأنه أكل  
الطير خلقا ليكون أبلغ فى القدوة ، لأن لها ثديا وأسانا وأذنا ، وهى تحيض وتظهر وتلد .  
ويقال : إنما طلبوا خلق خفاش لأنه أعجب من سائر الخلق ؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير  
بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور ، فيكون له القصر يخرج منه  
اللبن ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما يرى فى ساعتين : بعد غروب الشمس  
ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر جدا ، ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض  
كما تحيض المرأة . ويقال : إن سؤالهم كان له على وجه التعمت فقالوا : أخلق لنا خفاشا  
لأجعل فيه روحا إن كنت صادقا فى مقالتك ؛ فأخذ طليا وجعل منه خفاشا ثم نفخ فيه  
فأذا هو يطير بين السماء والأرض ؛ وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله ، كما أن  
النفخ من جبريل والخلق من الله .

قوله تعالى : ( وَأَبْرَأُ الْآلِهَةِ وَالْأَبْرَصَ وَأَخِي الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ) الآية : الذى يولد .  
أعمى ؛ عن ابن عباس . وكذا قال أبو عبيدة قال : هو الذى يولد أعمى ؛ وأنشد نزهة :  
فَأَرْتَدُّ أَرْتَدَادَ الْآلِهَةِ .

وقال ابن فارس : الكه العمى يولد به الإنسان وقد يمرض . قال سويد :  
كَمَّهَتْ عَيْنَاهُ حَتَّى ابْيَضَّتَا .

بجمله : هو الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل . عكرية : هو الأعمش ، ولكنه فى اللغة  
العمى ؛ يقال كَمَّهَ يَكْمُهُ كَمًّا وَكَمَّهَتْهَا إِذَا أَعْمِيَتْهَا . والبرص معروف وهو بياض يمتري الجلد .  
والأبرص القصر . وسأَمُ الْأَبْرَصَ معروف ، ويجمع على الأبراص . وخَصَّ هَذَانِ بِالَّذِ كَرَأَتْهُمَا  
عياءان . وكان القالب على زمن عيسى عليه السلام القلب فأراه الله المعجزة من جنس ذلك .  
( وَأَخِي الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ) قيل : أحيا أربعة أنفس : العاذر وكان صديقا له ، وأبن المجوز



وابنة الماشر وسام بن نوح ، فله أعلم . فاما الماذر فانه كان توفى قبل ذلك بايام فدعا الله  
فقام بإذن الله وودّكه بقطر مياش وودّله . واما ابن المجوز فانه مر به يُحمل على سريره  
فدعا الله فقام وإيس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله . واما بنت الماشر فكان  
أنى عليها ليلة فدعا الله فماتت بعد ذلك ووُكِّد لها ، فلما راوا ذلك قالوا : إنك تحيي من كان  
موتة قريبا فللمهم لم يموتوا فأصابهم سكتة فاحيي لنا سام بن نوح . فقال لهم : دلّوني على  
قبره فنخرج ونخرج القوم معه حتى انتهى إلى قبره فدعا الله فنخرج من قبره وقد شاب رأسه .  
فقال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانك شيب ؟ فقال : يا روح الله ، إنك  
دعوتني فسمعت صوتا يقول : أجب روح الله . فظننت أن القيامة قد قامت ، فنس حول  
ذلك شاب رأسي . فسأله عن الترع فقال : يا روح الله ، إن مرارة الترع لم تذهب عن  
حنجرتي ، وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة . فقال للقوم : صدقوه  
فإنه نبي ، فأمن به بعضهم وكذبه بعضهم وقالوا : هذا سحر . وروى من حديث إسماعيل  
ابن عيَّاش قال : حدثني محمد بن طلحة عن رجل أن عيسى ابن مريم كان إذا أراد أن يبيي  
الموتى صل ركعتين يقرأ في الأولى «تبارك الذي بيده الملك» . وفي الثانية «تزيّل» السجدة ؛  
فإذا فرغ جده الله وأخى عليه ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم يا خفي يا دائم يا فرد يا تريا أحد  
يا صمد ؛ ذكره البيهقي وقال : ليس إسناده بالقوى<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي بالذي تأكلونه وما تَدَّخِرُونَ . وذلك أنه لما أحياهم الموتى طلبوا منه آية أخرى  
وقالوا : أخبرنا بما نأكل في بيوتنا وما نَدَّخِرُ للند ؛ فأخبرهم فقال : يا فلان أنت أكلت كذا  
وكذا ، وأنت أكلت كذا وكذا وأدَّخِرت كذا وكذا ؛ فذلك قوله «أَنْبِئُكُمْ» الآية . وقروا مجاهد  
والزهري والسَّخَّيَّانِي « وما تَدَّخِرُونَ » بالثقل المجمة مخففا . وقال سعيد بن جبير وغيره :  
كان يخبر الصبيان في الكتاب بما يدَّخِرُونَ حتى منهم آباؤهم من الخلويس منه . فائدة : أخبرهم  
بما أكلوه من المائدة وما أدَّخروه منها خفية .

(١) ما كان لغيره روحه الله أن يذكره .

قوله تعالى : وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُم بَعْضُ  
الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنَّتُمْ بَعَاثَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا  
إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ①

(وَمُصَدِّقًا) عطف على قوله : « ورسولا » . وقيل : المعنى وجئتكم مصدقا .  
(لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ) لما قبل . (وَلَأَحِلَّ لَكُم) فيه حذف ، أى ولأحل لكم جنتكم . (بَعْضُ  
الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) بنى من الأطمعة . قيل : إنما أحل لهم موسى عليه السلام ما حرم عليهم  
بذنوبهم ولم يكن في التوراة نحو أكل الشحوم وكل ذى ظفر . وقيل : إنما أحل لهم أشياء  
حرمتها عليهم الأحبار ولم تكن في التوراة محزنة عليهم . قال أبو عبيدة : يجوز أن يكون  
« بعض » بمعنى كل ؛ وأشد لييد :

تَرَكَ أَمَكْنِي إِذَا لَمْ أَرْضَهَا . أَوْ يَرْتَبُ بَعْضُ النَّفْسِ جَمَاهَا

وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل  
في هذا الموضع ، لأن موسى صلى الله عليه وسلم إنما أحل لهم أشياء مما حرمتها عليهم موسى  
من أكل الشحوم وغيرها ولم يحل لهم القتل ولا السرقة ولا فاحشة . والدليل على هذا أنه  
روى عن قتادة أنه قال : جامع عيسى بالين مما جاء به موسى صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ؛  
لأن موسى جامع بتحريم الإبل وأشياء من الشحوم بجامع عيسى بتحليل بعضها . وقرأ النخعي  
« بعض الذي حُرِّم » مثل كرم ، أى صار حراما . وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا انضمت  
إليه قرينة تدل عليه ؛ كما قال الشاعر ② :

أَبَا مُنْذِرٍ أَنْتَ فَاسْتَبِقْ بَعْضًا • حَتَّائِكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ  
يُرِيدُ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ كُلِّهِ . (وَجَنَّتُمْ بِأَيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) إنما وحدها آيات لأنها جنس  
واحد في التلاوة على رسالته .

(١) هرطقة بن العبد ؛ خاطب به عمرو بن عبد الملك ، وكتبه أبو منصورين أمر به .

قوله تعالى : قَلْبًا أَحْسَنَ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٥﴾  
قوله تعالى : ﴿ قَلْبًا أَحْسَنَ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى من بنى إسرائيل . وأحسن معناه علم ووجد ؛ قتله الزنجار . وقال أبو عبيدة : معنى «أحسن» عرف ، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة . والإحساس : العلم بالشيء ؛ قال الله تعالى : ﴿ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُم مِّنْ أَمِدٍّ وَالْحَسَّ الْقَتْلُ ۚ قُلْ إِنَّهُ تَعَالَىٰ : « إِذْ تَحْصُرُهُمْ بِأَذْنِهِ » . ومنه الحديث في الجراد «إِذَا حَسَّ الْبَرْدُ» . ﴿ مِنْهُمْ الْكُفْرَ ﴾ أى الكفر بالله . وقيل : سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفراء : أرادوا قتله . ﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ استنصر عليهم . قال السُّدِّي والثوري وغيرهما : المعنى مع الله ، فإل بمعنى مع ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ » أى مع . والله أعلم . وقال الحسن : المعنى من أنصارى فى السبيل إلى الله ؛ لأنه دعاهم إلى الله عز وجل . وقيل : المعنى من يَتِمُّ نصرته إلى نصرته الله عز وجل . فإل على حذرن القولين على بابها ، وهو الجِدَّة . وطلب النصرة ليحتسى بها من قومه ويظهر الدعوة ؛ عن الحسن وبجاهد . وهذه سنة الله فى أنبيائه وأوليائه . وقد قال لوط : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أُوَدِّعُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى عشيرة وأصحاب ينصرونى . ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أى أنصاريته ودينه . والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام ، وكانوا اثني عشر رجلا ؛ قاله الكلبي وأبو رزق .

واختلف فى تسميتهم بذلك ؛ فقال ابن عباس : سُمُّوا بذلك لياض ثيابهم ، وكانوا مسيحين . ابن أبى نجيم وابن أرملة : كانوا قصارين فُسِّمُوا بذلك ليرضهم الثياب . قال عطاء : أسلمت مريم عيسى إلى أعمال شقي ، وأحرما دفننه إلى الحواريين وكانوا قمارين وصباغين ، فأراد معلم عيسى السفر فقال لميضى : عندي ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمت الصبغة فأصبغها . فطبخ عيسى جُباً واحداً وأدخل جميع الثياب وقال : كونى بإذن الله على ما أريد منك . فقدم الحواري والثياب كلها فى الحب فلبا وأما قال : قد أسندته ؛ فأخرج عيسى ثوبا أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان كل توب مكتوب عليه حسبه .

فمجب الحوارى ، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به ، فهم الحواريون . فتادة ،  
والضحاك : سموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء ، يريدان أقاء قلوبهم ، وفلس : كانوا  
ملوكا ، وذلك أن الملك صنع طعاما فدعا الناس إليه فكان عيسى على قصعة فكانت لا تنقص ،  
فقال الملك له : من أنت ؟ قال : عيسى ابن مريم . قال : إني أترك ملكي هذا وأتبعك .  
فانطلق بمن آتبه معه ، فهم الحواريون ، قاله ابن عون . وأصل الحوار فى اللغة البيضاء  
وحورت الثياب بيضتها . والحوارى من الطعام ما حور ، أى بيض . وأحور أبيض .  
والحقبة المحورة : المبيضة بالسنام . والحوارى أيضا الناصر ، قال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم : " لكل نبي حوارى وحوارى الزبير " . والحواريات : النساء لياضهن ، وقال :  
فقل للحواريات ، يبيكن غيرنا ، ولا تبكنا إلا الكلاب النواج

قوله تعالى : رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ

الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ( رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ ) أى يقولون ربنا آمنة ، ( بِمَا أُنزِلَتْ ) يعنى  
فى كتابك وما أظهرته من حكك . ( وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ) يعنى عيسى . ( فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ )  
يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، عن ابن عباس . والمعنى أثبت اسمائنا مع اسمائهم وأجعلنا  
من جملةهم . وقيل : المعنى فاكبتنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق .

قوله تعالى : وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ( وَمَكْرُوهًا ) يعنى كفار بنى إسرائيل الذى أحس منهم الكفر ، أى قتله .  
وذلك أن عيسى عليه السلام لما أخرجهم قومه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم مع الحوارين  
وصاح بهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به ، فذلك مكروهم . ومكر الله : استدراج  
لعبادهم من حيث لا يعلمون ، عن الفراء وغيره . قال ابن عباس : كلما أمدتوا خطيئة جددنا  
لهم نعمة . وقال الزجاج : مكر الله بمكرائهم على مكروهم ، فسمى الجزاء باسم الابتداء ، كقوله :

«اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»، «وَهُوَ خَادِعُهُمْ». وقد تقدم في البقرة . وأصل المكر في اللغة الاحتيال والخداع . والمكر : خدالة الساق . وامرأة ممكورة الساقين . والمكر ضرب من الثياب . ويقال : بل هو المكرة ؛ حكاه ابن فارس . وقيل : «مكر الله» إلقاء شبه عيسى على غيره ورفع عيسى إليه . وذلك أن الله لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هاربا منهم فرمته جبريل من الكوة إلى السماء ، فقال بملئكمهم لرجل منهم حيث يقال له يهوذا : ادخل عليه فأقتله ، فدخل الخوذة فلم يجد هناك عيسى وألقى الله عليه شبه عيسى ، فلما خرج رأوه على شبه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه . ثم قالوا : وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا ؛ فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ! وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ! فوقع بينهم قتال قتل بعضهم بعضا ؛ فذلك قوله تعالى : «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ» . وقيل غير هذا على ما يأتي .

(وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَاكِرِينَ) اسم فاعل من مَكَرَ يَمْكُرُ مَكْرًا ، وقد عذبه بعض العلماء في أسماء الله تعالى فيقول إذا دعا به : يا خير الماكرين أمركل . وكان عليه السلام يقول في دعائه : «اللَّهُمَّ امكركل ولا تمكركل» . وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، والله أعلم .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ ارْفَعِي رَوَافِعَكَ إِلَىَّ وَمَطْهَرِيكِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكَ فَأَحْكُرْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ) العامل في «إذ» مكرها ، أو فعل مضمر . وقال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والقرطبي في قوله تعالى : «إني متريك ورافك إلى» على التقديم والتأخير ؛ لأن الأول لا توجب الزينة . والمعنى : إني رافك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتريك بعد أن تنزل من السماء ؛ كقوله : «وَأُولَٰئِكَ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى» . والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل سمي لكان لزاما . قال الشاعر :

ألا يا نخلة من ذات عرق • عليك ورحمة الله السلام

أى عليك السلام ورحمة الله • وقال الحسن وابن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافك الى السماء من غير موت ؛ مثل توفيت مالى من فلان أى قبضته • وقال وهب بن منبه : توفى الله عيسى عليه السلام ثلاث ساعات من نهار ثم رده الى السماء • وهذا فيه بعد ؛ فإنه مع فى الأخير عن النبي صلى الله عليه وسلم نزوله وقتله التجال على ما بيناه فى كتاب التذكرة وفى هذا الكتاب حسب ما تقدم ، وإق • وقال ابن زيد : متوفيك قابضك ، ومتوفيك ورافك واحد ولم يمت بعد • وروى ابن طلحة عن ابن عباس معنى متوفيك يميتك • الربيع ابن أنس : وهى وفاة نوم ؛ قال الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ » أى ييممكم لأن النوم أخو الموت ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم لما سئل : أى الجنة نوم قال : « لا ، النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها » • أخرجه الدارقطني • والصحيح أن الله تعالى رده الى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد ، وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس ، وقوله الضحاك • قال الضحاك : كانت القصة لما أرادوا قتل عيسى أجمع الحواريون فى غرفة وهم اثنا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة ، فأخبرهم إبليس جمع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة • فقال المسيح للحواريين : أياكم يخرج ويقتل ويكون مسمى فى الجنة ؟ فقال رجل : أنا يا بنى الله ؛ فالتقى إليه مدبرة من صوف وعمامة من صوف وثوبه حنظل والثوب عليه شبة عيسى ، فخرج على اليهود فقتلوه وصابوه • وأما المسيح فكساه الله الريش والبه النور وقطع عنه لثة الطعام والمشرب ، فطارح الملائكة • وذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال عن سميح بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله تبارك وتعالى أن يرفع عيسى الى السماء خرج على أصحابه وهم اثنا عشر رجلا من عيين فى البيت ورأسه يقطرماء فقال لهم : أما إن منكم من سيكرهى انتهى عشرة مرة بسد أن آمن بى ، ثم قال : أياكم يلقى عليه شوى فيقتل مكافى ويكون مسمى

في درجتي ؟ فقام شاب من أحدهم فقال أنا . فقال عيسى : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال عيسى : فقال لهم فقام الشاب فقال أنا . فقال لهم أنت ذاك . فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام . قال : ورفع الله تعالى عيسى من روضة كانت في البيت الى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، وكفر به بعضهم اثني عشرة مرة بعد أن آمن به ؛ ففرقوا ثلاث فرق : قالت فرقة : كان فينا الله ما شاء ثم صعد الى السماء ، وهؤلاء اليمقونية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون . فظاهرت الكافران على المسامة فقتلوا ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فقتلوا ؛ فأنزل الله تعالى « فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا » أي آمن أبائهم في زمن عيسى على عديم بإظهار دينهم على دين الكفار « فأصبحوا ظاهرين » . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله ليزلن ابن مريم حكما عادلا فليكبركن الصليب وليقتلن الخنزير وليضمن الجزية ولتتركن الفلاس فلا يسئ عليها وتذهبن الشحاء والتباغض والتحاسد وليدعوهن الى المال فلا يقبله أحد » . وعنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفتح الروحاء حاجا أو معتبرا أو ليثنيهما ولا يترن بفتح مبتدأ فينسخ به شرهتا بل يترن مجددا لما درس منها متبعا » . كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ؟ » وفي رواية : « فأممكم منكم » . قال ابن أبي ذئب . تدرى ما أنتم منكم ؟ . قلت : تحترق . قال : فأممكم بكباب ربكم تبارك وتعالى وبسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد زدنا هذا الباب بيانا في كتاب ( التذكرة ) والمجده . و « متوقك » أصله متوقك حذفت الضمة استعلا

( ١ ) الروضة : الكتوة . ( ٢ ) الفلاس ( بالكسر ) : جمع فلاس وهم الفلاسفة .

( ٣ ) الخ الروحاء : طريق بين مكة والمدينة ، كان طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر وإلى مكة عام الفتح

وعام الحج . ( من معجم باقرت ) .

وهو خبر إن - «وَرَأَيْتُكَ عَطَفَ عَلَيْهِ، وَكَذَا «مُطَهَّرُكَ»، وَكَذَا «وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ» . ويجوز «وجاعل المؤمنين» وهو الأصل . وقيل : إن الوقف السام عند قوله . «وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» . قال النحاس : وهو قول حسن . «وجاعل الذين اتبعوك» ، بإجماع «فوق الذين كفروا» أي بالجهة وإقامة البرهان . وقيل بالمر والفتلة . وقال الضحاك ومحمد ابن إبان : المراد الحوارين . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْتَبْتَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ( فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْتَبْتَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ) يعني بالقتل والصلب والسبي والحزبة ، وفي الآخرة بالنار . ( ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ) في موضع رفع بالابتداء وخبره « نتلوه » . ويجوز : الأمر فلك ، على إضمار مبتدأ .

قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ( إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ) دليل على صحة القياس . والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير آدم ، كآدم ، لا على أنه خلق من تراب . والشيء قد يُشَبَّه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بمد أن يحصهما في وصف واحد ؛ فإن آدم خلق من تراب ولم يخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة ، ولكن شبه ما بينهما أنها خلقا من غير آرب ؛ ولأن أصل خلقتهما كان من تراب لأن آدم لم يخلق من نفس التراب ،

(١) كذا في بعض الأصول وتخاب إعراب القرآن للنحاس . وفي البص الآخر : « وجعل ... » .



ولكنه جعل التراب طينا ثم جمعه صلصالاً ثم خلقه منه، وكذلك عيسى حوله من حال إلى حال، ثم جمعه بشرا من غير أب . ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إِنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ » فقالوا : أَرَبنا عبدا خلق من غير أب ؛ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « آدَمَ مِنْ كَانَ أَبُوهُ اعْبُدْتُمْ مِنْ عِيسَى لَيْسَ لَهُ أَبٌ فَأَدِمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَيْسَ لَهُ أَبٌ وَلَا أُمٌّ » . فذلك قوله تعالى : « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا عِيسَى » . وَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ » في آدَمَ « وَأَحْسَنَ تَخْوِيراً » . وَرَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ لما دعاهم إلى الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك . فقال : « كَذِبْتُمْ يَمُنُّكُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ ثَلَاثُ قَوْلِكُمْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَارْكَعُوا لِحُزْرٍ وَبِجُودِكُمْ لِلصَّليبِ » . فقالوا : مَنْ أَبُو عِيسَى ؟ فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » إلى قوله : « فَتَحَمَلْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » . فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض : إن معلمنا اضطرم الوادي عليكم نارا . فقالوا : أما تعرض علينا سوى هذا ؟ فقال : « الْإِسْلَامُ أَوْ الْحَزْبَةُ أَوْ الْحَرْبُ » فاقفروا بالحزبية على ما يأتي . وتم الكلام عند قوله « آدَمَ » . ثم قال : « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ مَرْكُزْ فَيَكُونُ » أي فكان . والمستقبل يكون في موضع الماضي إذا عُرِفَ المعنى . قال الفراء : « الحق من ربك » مرفوع بإضمار هو . أبو عبيدة : هو استئناف كلام وخبره في قوله « من ربك » . وقيل : هو ضاعل ، أي جاعل الحق . ( فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُخْذِرِينَ ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أنت ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكاً في أمر عيسى عليه السلام .

قوله تعالى : **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَمْرِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَابْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَنِصَابَنَا وَنَفْسَنَا وَنَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبَيِّهَنَّ فَنَقْصِلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** (١١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ حَاجَّتِهِ فِيهِ ﴾ أى جادك وغاصبك يا محمد فيه ،  
أى فى عيسى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَلَاءِ ﴾ بأنه عبد الله ورسوله . ﴿ فَقُلْ تَقَالُوا ﴾  
أى أقبلوا ، وضع لمن له جلالة ورفعة ثم صار فى الاستعمال لكل دافع إلى الإقبال ، وسيأتى  
له مزيد بيان فى « الأنعام » . ﴿ نَدْعُ ﴾ فى موضع جزم . ﴿ أَبْنَاءًا ﴾ دليل على أن أبناء  
النبات يُسمون أبناء ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بالحسن والحسين وفاطمة  
تمشى خلفه وعلى خلفها وهو يقول لهم : « إن أنا دعوت فأتيتوا » وهو معنى قوله ﴿ ثُمَّ تَبْتَلِ ﴾  
أى تنزع فى الدعاء ، عن ابن عباس . أبو عبيدة والكسائى : تبتين . وأصل الابتهاال  
الاجتهاد فى الدعاء باللحن وغيره . قال ليد :

فى كهول سادة من قومه • نظر الدهر إليهم فابتهل

أى اجتهد فى إهلاكهم . يقال : بهله الله أى لعنه . والبتل اللعن . والبتل الماء القليل .  
وأبتهل إذا خلىته وإرادته . وبهله أيضا . وحكى أبو عبيدة : بهله الله بهله بهلة أى لعنه .  
قال ابن عباس : هم أهل نجران : السيد والمقاب وابن الحارث رؤسائهم . ﴿ فَتَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ  
عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

الثانية - هذه الآية من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه دعاهم إلى المباهلة  
فأبوا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كثيرهم المقاب أنهم إن باعوه اضطرم عليهم الوادى  
نارا فإن عدا نبي مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفضل فى أمر عيسى ، فتركوا المباهلة  
وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤتوا فى كل عام ألف حلة فى صفر وألف حلة فى رجب  
فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بدلا من الإسلام .

الثالثة - قال كثير من العلماء : إن قوله عليه السلام فى الحسن والحسين لما باهل  
« ندع أبناءنا وأبنائكم » وقوله فى الحسن : « إن أبى هذا سيد » مخصوص بالحسن والحسين  
أن يسميا أبى النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرهما ، لقوله عليه السلام : « كل سبب وسبب

ينقطع يوم القيامة إلا نسي وسبي . « ولما قال بعض أصحاب الشافعي فيمن أوصى لولد فلان ولم يكن له ولد لعل له ولد أبي وولد أخته إن الوصية لولد الابن دون ولد الأخت ، وهو قول الشافعي . وسيأتي لهذا مزيد بيان في « الأتمام والخرف » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **إِن هَذَا لَمَوْ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَوْ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾**

قوله تعالى : ( **إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَصَصُ الْحَقُّ** ) الإشارة في قوله « إن هذا » إلى القرآن وما فيه من الأقاصيص ، سميت قصصاً لأن المعاني تحتاج فيها ؛ فهو من قولهم : فلان يقص أثر فلان ، أي يتبعه . ( **وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ** ) « من » زائدة للتوكيد ، والمعنى وما إله إلا الله ( **الْعَزِيزُ** ) أي الذي لا يُغلب . ( **الْحَكِيمُ** ) ذو الحكمة . وقد تقدم مثله والمحدثه .

قوله تعالى : **قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٩﴾**

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( **قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ** ) الخطاب في قول الحسن وابن زيد والسدي لأهل نجران . وفي قول قتادة وابن جرير وغيرهما ليهود المدينة ، خوطبوا بذلك لأتهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالأرباب . وقيل : هو لليهود والنصارى جميعاً . وفي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل « بسم الله الرحمن الرحيم — من عند رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من أتبع الهدى [ أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ] **أَتَسْلِمُ** <sup>(١)</sup>

(١) روي عن النبي صلى الله عليه وسلم

« من أتبع الهدى »

(١) زيادة عن صحيح مسلم

[وَأَسْلِمَ] <sup>(١)</sup> يُوْثِقُكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ تَوَابْتَ فَرَاقَ عَلَيْكَ إِيَّاهُ الْأَرِيسِيِّينَ <sup>(٢)</sup> ، وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ - إِلَى قَوْلِهِ: فَقَالُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .  
لفظ مسلم . والسواء العدل والنصفة ؛ قاله قتادة . وقال زهير :

أُرُونِي حُطَّةً لَا حَظَّ فِيهَا • يُسَوِّى بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ

الفراء : وَيُقَالُ فِي مَعْنَى الْعَدْلِ سَوًى وَسَوًى ، إِذَا فَتَحْتَ السِّينَ مَدَدْتَ وَإِذَا كَمَرْتَ أَوْ ضَمَمْتَ فَصَرْتَ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « مَكَانًا سَوًى » . قَالَ : وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ - إِلَى كَلِمَةِ عَدْلٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ • وَقَرَأَ قَتْنَبُ <sup>(٣)</sup> « كَلِمَةً » بِاسْكَانِ اللَّامِ ، الَّتِي حَرَكَةُ اللَّامِ عَلَى الْكَافِ ؛ كَمَا يُقَالُ كَبِدٌ . فَالْمَعْنَى أَجْبِئُوا إِلَى مَا دُعِيتُمْ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الْكَلِمَةُ الْعَادِلَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مِثْلٌ عَنْ الْحَقِّ ؛ وَقَدْ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ » فَوَضَعَ « أَنْ » خَفِضَ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ « كَلِمَةٍ » ، أَوْ رَفَعَ عَلَى إِسْخَارٍ مُبْتَدَأٍ ، التَّقْدِيرُ هِيَ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ . أَوْ تَكُونُ مَقْصُودَةً لَا مَوْضِعَ لَهَا ، وَيُجَوِّزُ مَعَ ذَلِكَ فِي « نَعْبُدَ » وَمَا عَطَفَ عَلَيْهِ الرِّفْعَ وَالْجَزْمَ : فَالْجَزْمُ عَلَى أَنْ تَكُونَ « أَنْ » مَقْصُودَةً بِمَعْنَى أَيْ ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « إِنْ آمَنُتُمْ » وَتَكُونَ « لَا » جَائِزَةً . هَذَا مَذْهَبُ سِيبَوَيْهِ . وَيُجَوِّزُ عَلَى هَذَا أَنْ تَرَفَعَ « نَعْبُدَ » وَمَا بَعْدَهُ يَكُونُ خَبَرًا . وَيُجَوِّزُ الرِّفْعَ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا نَعْبُدَ ؛ وَمِثْلُهُ « أَنْتَ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَكُمُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » . وَقَالَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ : « وَلَا نَشْرُكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا نَتَّخِذُ » بِالْجَزْمِ عَلَى التَّوَهُّمِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ أَنْ .

الثَّانِيَّةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَلَا تَتَّخِذْ بَعْضُنَا آيَاتِنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ) أَيْ لَا نَنْتَهِهِ فِي تَحْلِيلِ شَيْءٍ أَوْ تَحْرِيمِهِ إِلَّا بِمَا حَلَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » مَعْنَاهُمْ أَنَّهُمْ أَتَزَلُّوهُمْ مِثْلَهُ رَبِّهِمْ فِي قَبُولِ تَحْرِيمِهِمْ وَتَحْلِيلِهِمْ لِمَا لَمْ يَحْرِمْهُ اللَّهُ وَلَمْ يَحَلِّهِ اللَّهُ . وَهَذَا يُدِلُّ عَلَى بَطْلَانِ الْقَوْلِ بِالِاسْتِحْصَانِ الْمَجْرَدِ الَّذِي لَا يَسْتَقْدُ إِلَى دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ . قَالَ الْبَيْهَقِيُّ الطَّبْرِيُّ : مِثْلُ اسْتِحْصَانَاتِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي التَّقْدِيرَاتِ الَّتِي قَدَّرَهَا دُونَ مُسْتَدَاتِ بَيْتِهِ ، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الرَّاغِضِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : يَجِبُ قَبُولُ [قَوْلِ] الْإِمَامِ دُونَ إِثْبَاتِهِ

(١) زيادة عن مسيح سلم . (٢) الأريسي : الأكار وهو القناري . (٣) هو أبو الهيثم البغدادي .

مستند شرعي، وأنه يحل ما حرمه الله من غير أن يبين مستندا من الشريعة. وأرباب جمع وب. و «دُون» هنا بمعنى غير.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عما دُعوا إليه. ﴿تَقُولُوا أَتَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي متصفون بدين الإسلام متقادون لأحكامه مستغنون بما لله علينا في ذلك من المن والإلتزام، غير متخذين أحدا رباً لا عيسى ولا عُزْريراً ولا الملائكة؛ لأنهم بشر مثلنا. حدثت كدوشتا، ولا قبل من الزمان شيئاً يجرعهم علينا ما لم يحرمه الله علينا، فنكون قد اتخذناهم أرباباً. وقال عكرمة: معنى «يتخذ» يسجد. وقد تخدم أن السجود كان إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم ماعداً لنا أن يسجد، كما مضى في البقرة<sup>(١)</sup> بيانه. وروى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول الله، أضحى بعضنا لبعض؟ قال «لا» قلنا: أيباق بعضنا بعضاً؟ قال «لا ولكن تصالحوا» أخرجه ابن ماجه في سننه. وسأيت لهذا المعنى زيادة بيان في سورة «يوسف»، وفي «الواقعة»<sup>(٢)</sup> من القرآن أو بعضه على غير طهارة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الأصل «لما» غذفت الالف فرقاً بين الاستفهام والنجير. وهذه الآية نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه، فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده؛ فذلك قوله: «وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ». قال الزجاج: هذه الآية آية حجة على اليهود والنصارى؛ إذ التوراة والإنجيل أنزلا من بعده وليس فيها اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام في كل كتاب. ويقال: كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى أيضاً ألف سنة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ دحوض حجتكم وطلان قولكم والله أعلم.

(١) راجع ج ١ ص ٢٩٢ طبة ثانية آيات ٢٥ - (٢) أراد هذه الجملة هنا غير راجع الثانية.

قوله تعالى : هَاتِئَمْ هَؤُلَاءِ حَتَّيْجْتُمْ فِيَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ  
فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾  
فيه مسائلان :

الأول - قوله تعالى : ( هَاتِئَمْ هَؤُلَاءِ حَتَّيْجْتُمْ فِيَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ )  
لأنهم كانوا يعلمونه فيما يجدون من منه في كلهم فاجأوا فيه بالباطل . ( فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيَا لَيْسَ  
لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ) يعني دعواهم في إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا . والأصل في « هَاتِئَمْ » أأنتم  
فأبدل من المزة الأولى هاء لأنها اختباء عن أبي عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس :  
وهذا قول حسن . وقرا قُتِبِلَ عن ابن كثير « هَاتِئَمْ » مثل هتتم . والأحسن منه أن يكون  
الماء بدلا من مزة فيكون أصله أأنتم . ويجوز أن تكون هاء للتنبيه دخلت على « أأنتم »  
وحذفت الألف لكثرة الاستعمال . وفي « هَؤُلَاءِ » لفتان المد والقصر ومن العرب من  
يقصرها . وأشد أبو حاتم :

لمعرك إنا والأحاليق ماؤلا . لقي بخنة انظرها لم تُقْلَمْ

وهؤلاء هاء هنا في موضع النداء يعني يا هؤلاء . ويجوز هَؤُلَاءِ خبر أأنتم ، على أن يكون أولاء بمعنى  
الذين وما بعده صلة له . ويجوز أن يكون خبر « أأنتم » حاججتهم . وقد تقدم هذا في « البقرة »  
والحمد لله .

الثانية - في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له ، والخطأ على من لا تحقيق  
عنده فقال عز وجل : « هَاتِئَمْ هَؤُلَاءِ حَتَّيْجْتُمْ فِيَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » .  
وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن فقال تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ » . وروى  
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال : يا رسول الله ، إن أصرأني ولدت  
غلاما أسود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جعل لك من إبل ؟ » قال نعم . قال :

«ما ألوانها» ؟ قال حمز : قال . «هل فيها من أوريق» ؟ قال نعم . قال : «فإن أين ذلك» ؟ قال : «لعل عرقاً نزع» . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وهذا التلام لعل عرقاً نزع» . وهذا حقيقة الجدل ونهاية في تبين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : مَا كَانَتْ يَرْجِيهِمْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧﴾

نزع تعالى من دعويهم الكاذبة، وبين أنه كان على الحنفية الإسلامية ولم يكن مشركاً . والحنيف : الذي يوحد ويصح ويصحى ويشتق ويستقبل القبلة . وقد معنى في «البقرة» اشتقاقه . والمسلم في اللغة : للتذلل لأمر الله تعالى المتطاع له . وقد تقدم في «البقرة» معنى الإسلام مستوفى والمحدث .

قوله تعالى : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

قال ابن عباس : قال رؤساء اليهود : والله يا عبد لقد علمت أننا أولى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك، فإنه كان يهودياً وما بك إلا الحسد؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . (أولئك) معناه أحق، قيل : بالمعونة والنصرة . وقيل بالهجرة . (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) على يمينه وسنته . (وهذا النبي) أفرد ذكره تعظيماً له ؛ كما قال «فِيهِمَا قَابُقَهْةٌ وَتَحُلُّ رِوَمَانٌ» وقد تقدم في «البقرة» هذا المعنى مستوفى . و «هذا» في موضع رفع عطوف على الذين ، و «التي» نست لهذا أو عطوف بيان، ولو نصب لكان جائزاً في الكلام عطفاً على المها في «اتبعوه» . (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) أى ناصرهم . وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(١) الأورق : الذي له بين السواد واللبنة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٣٩ طبع ١٤٠٤ .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٣١ طبع ثانية .

«إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ وَإِنْ وَلِيَّيْهِ مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي - ثُمَّ قَرَأَ - إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ» .

قوله تعالى : وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٧﴾

نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بني النضير وفريظة وبني قينقاع إلى دينهم . وهذه الآية نظير قوله تعالى : « وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَيْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا » . و « من » على هذا القول للبعوض . وقيل : جميع أهل الكتاب ، فتكون « من » لبيان الجنس . ومعنى « لو يضلونكم » أى يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له . وقال ابن جرير : « يضلونكم » أى يهلكونكم ؛ ومنه قول الأختل :

كُنْتُ الْفَتَى فِي مَوْجِ أَكْدَرُ مَزِيدٍ \* فَكُنْتُ الْإِنِّي بِهِ فَضْلًا ضَلَالًا

أى هلك هلاكاً . ( وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ) تى وإيجاب . ( وَمَا يَشْعُرُونَ ) أى يَقْطُنُونَ أنهم لا يضلون إلى إضلال المؤمنين . وقيل : « وما يشعرون » أى لا يعلمون بصحة الإسلام وواجب عليهم أن يعلموا ؛ لأن البراهين ظاهرة والجمج باهرة ، والله أعلم .

قوله تعالى : يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسَاهِدُونَ ﴿٦٨﴾

أى بصحة الآيات التى عندكم فى كتبكم ؛ عن قتادة والثدى . وقيل : المعنى وأنت تساهدون بمثلها من آيات الأنبياء التى أنتم مفقرون بها .

قوله تعالى : يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

(١) الآية : كل بيل باق من حيث لا تعلم .



اللبس الخلط، وقد قدم في البقرة . ومعنى هذه الآية والتي قبلها معنى ذلك . ﴿ وَتَكُونُوا  
الْحَقِّ ﴾ ويجوز « تكلموا » على جواب الاستفهام . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة في موضع الحال .

قوله تعالى : وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ  
عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجِهَ النَّهَارِ وَآكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٦﴾

نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وغيرهما قالوا السفلة من قومهم : آمنوا  
بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، يعني أوله . ونسبونها لأنه أحسنه، وأقل ما يواجه  
منه أوله . قال الشاعر :

وَتُضَىٰ فِي وَجْهِ النَّهَارِ مَنِيرَةٌ • بِكَمَانَةِ الْبَحِيرَةِ سُلْ نَظَامُهَا ﴿٧٧﴾

وقال آخر :

من كانت مسرورا بمقتل مالك • قليات نسوبا بوجه نهار

وهو منصوب على الظرف ، وكذلك « آخره » . ومنهجب قتادة أنهم فعلوا ذلك ليشتكوا  
المسلمين . والطائفة الجماعة ، من طائف يظوف ، وقد يستعمل الواحد على معنى نفس طائفة .  
ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض : أظهروا الإيمان بحمد في أول النهار ثم آكفروا  
به آخره ؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ارتياب في دينه . فيرجعون عن دينه إلى دينكم  
ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا . وقيل : المعنى آمنوا بصلاته في أول النهار إلى بيت  
المقدس فإنه الحق ، وآكفروا بصلاته آخر النهار إلى الكعبة لهم يرجعون إلى قبلكم ؛ عن  
ابن عباس وغيره . وقال مقاتل : معناه أنهم جاءوا محمدا صلى الله عليه وسلم أقل النهار ورجعوا  
من عنده فقالوا للسفلة هو حق فاتبعوه ، ثم قالوا : حتى تنظروا في التوراة ثم رجعوا في آخر  
النهار فقالوا : قد نظرت في التوراة فليس هو به . يقولون إنه ليس بحق ، وإنما أرادوا أن  
يكلموا على السفلة وأن يشتكوا فيه .

(١) رابح ص ١ ص ٣٤ طبة غاية أو التوراة .

(٢) الميت إليه . وبالجملة : حجة تصل من القصة كالقصة .

قوله تعالى : وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ يَبْعَ دِينَكَرُ قُلْ إِنْ أَمَلَيْتُمْ هَلْ  
 اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَرَادْتُمْ  
 بِبَيْدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ( وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ يَبْعَ دِينَكُمْ ) هنا نهي ، وهو من كلام اليهود بعضهم  
 لبعض ، أي قال ذلك الرؤساء للفقلة ، وقال الهدي : من قوله يهود خير يهود المدينة . وهذه  
 الآية أشكل ما في السورة ، فروى عن الحسن وعلمه أن معنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ،  
 ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حاجة لهم فإنكم أصح منهم ديناً . و « أن » و « يحاجوكم »  
 في موضع خفض ، أي بأن يحاجوكم أي باحتجاجهم ، أي لا تصدقوهم في ذلك فإنهم لا حاجة لهم .  
 ( أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ) من التوراة والمثل والسلوى وقرى البحر وغيرها من الآيات  
 والفضائل . فيكون « أن يؤتي » مؤخرًا بعد « أو يحاجوكم » ، وقوله « إِنْ أَمَلَيْتُمْ هَلْ أَلِهِ »  
 اعتراض بين كلامين . وقال الأخفش : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن  
 يؤتي أحد مثل ما أوتيتم ولا تصدقوا أن يحاجوكم ؛ يذهب إلى معطوف . وقيل : المعنى  
 ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالمدل الاستفهام أيضاً تأكيد  
 لإنكار الذي قالوه إنه لا يؤتي أحد مثل ما أوتوه ؛ لأن علماء اليهود قالت لهم : لا تؤمنوا  
 إلا لمن تبع دينكم أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ، أي لا يؤتي أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالكلام على  
 نفسه . و « أن » في موضع رفع على قول من رفع في قولك أزيد ضريته ؛ والخبر محذوف تقديره  
 أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ تصدقون أو تقرون أي إيتاء موجود مصدق أو مقرب ،  
 أي لا تصدقون بذلك . ويموز أن تكون « أن » في موضع نصب على إضمار فعل ؛ كما جاز  
 في قولك أزيد ضريته ، وهذا أقوى في العربية لأن الاستفهام بالفعل أولى ، والتقدير أهزون  
 أن يؤتي أو أتيعون ذلك أو أتذكرون ذلك ونحوه . وبالمد قرأ ابن كثير وابن عيسى وحيد .  
 وقال أبو حاتم : « أَنْ » معناه « لأن » ، غلظت لام الجر استغناءً وأبدلت مقه ، كقراءة من

قرأ « أَنْ كَانَ قَا مَالٍ » أى لأن . وقوله « أَوْ يَحْجُوكُمْ » على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين ؛ أو تكون « أو » بمعنى « وأن » لأنهما حرفا شك وجزاء فوضع إحداهما موضع الأخرى .  
وتقدير الآية : وإن يحاجوكم عند ربكم يا مشرك المؤمنين . وقيل : يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه . ومن قرأ بترك المذقال : إن النفي الأول دل على إنكارهم في قولهم ولا تؤمنوا .  
فالمنى أن علماء اليهود قالت لهم : لا تصدقوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتكم ، أى لا إيمان لهم ولا حجة ؛ فلعطف على المنى من العلم والحكمة والكاتب والنجمة والمثل واللقى وثلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات ، أى أنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتكم إلا من تبع دينكم . فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة واللام زائدة . ومن استثنى ليس من الأول ، وإلا لم يحز الكلام . ودخلت « أحد » لأن أول الكلام نفي فدخلت في صلة « أن » لأنه مفعول الفعل المنى ؛ فأن في موضع نصب لعدم الخافض . وقال الخليل : أن في موضع خفض بالخافض المحذوف . وقيل : إن اللام ليست بزايدة ، و « تؤمنوا » محمول على تخزوا . وقال ابن جريج : المنى لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتكم . وقيل : المنى لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لمن تبع دينكم فلا يكون طريقا إلى عبدة الأوثان إلى تصديقه . وقال القرطبي : يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله عز وجل « إلا لمن تبع دينكم » ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم « قل إن الهدى هدى الله » . أى إن اليأس الحق هو بيان الله عز وجل « أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتكم » بين ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتكم ، و « لا » مقدرة ب « أن » أى فلا يؤتى ؛ كقوله « يبين الله لكم أن تقولوا » أى فلا تقولوا ، فلذلك صلح دخول « واحدة » في الكلام .  
و « أو » بمعنى « حتى » . و « إلا أن » ؛ كما قال امرؤ القيس :

فقلت له لا تبك عيني إني . . . . .  
نحاول ملكا أو نموت فنموتا

وقال آخر :

وكنْتُ إذا عَمَزَتْ قنْصَةَ قوم . . . . .  
كسرتُ كعبتي أو قسمتها

ومثله قولهم : لا تلق أو تقوم الساعة ، بمعنى « حتى » أو « إلا أن » ؛ وكذلك مذهب الكسائي .  
وهي عند الأخفش عاطفة على « وَلَا تَوَمَّنُوا » وقد تقدم . أي لا إيمان لهم ولا حجة ؛ فطفت  
على المعنى . ويحتمل أن تكون الآية خطاباً للمؤمنين من الله تعالى على جهة التثبيت لقولهم  
والتشجيع لبصائرهم ؛ لِإِلَّا يَسْكُرُوا عند طمس اليهود ويروهم في دينهم . والمعنى لا تصدقوا  
يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم ، ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل  
والدين ، ولا تصدقوا أن يحاجكم في دينكم عند ربكم من خالفكم أو يقدر على ذلك ، فإن  
المهدي هدى الله وإن الفضل بيد الله . قال الضحاك : إن اليهود قالوا إنا نحتاج عند ربنا من  
خالفتنا في ديننا ؛ فبين الله تعالى أنهم هم الملتصقون بالمعذبين وأن المؤمنين هم الثالوثون . ومحاجتهم  
خصوصتهم يوم القيامة . ففى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن اليهود والنصارى  
يحاجوننا عند ربنا فيقولون أعطيتنا أجراً واحداً وأعطيتهم أجرين فيقول هل ظلمتكم من  
حقوقكم شيئاً قالوا لا قال فإن ذلك فضلي أوتيته من شاء » . قال علماؤنا : فلو علموا أن ذلك  
من فضل الله لم يحاجونا عند ربنا ؛ فاعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم يحاجونكم يوم القيامة  
عند ربكم ثم قال قل لهم « إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » . وقرأ ابن  
كثير « أَنْ يَأْتِيَ » بالمد على الاستفهام ؛ كما قال الاعشى :

أَنْ رَأَتْ رُجُلًا أَعْشَى أَضْرَهُ • رَبُّ الْمُنُونِ وَدَعْرُ مَيْلِ خَيْلٍ<sup>(١)</sup>

وقرأ الباقون بنيرمد على الخبر . وقرأ سعيد بن جبير « أَنْ يَأْتِيَ » بكسر المعزة ، على معنى  
التي ؛ ويكون من كلام الله تعالى كما قال الفراء . والمعنى : قل يا محمد إن المهدي هدى الله إن  
يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجونكم عند ربكم — يعني اليهود — بالباطل فيقولون نحن أفضل  
منكم . ونصب « أَوْ يَحَاجُّوْكُمْ » يعني بإضمار « أَنْ » و « أَوْ » تضمير بعدها « أَنْ » إذا كانت  
بمعنى « حتى » و « إِلَّا أَنْ » . وقرأ الحسن « أَنْ يَأْتِيَ بِكسر اللام وياء مفتوحة ، على معنى أن  
يؤتى أحد أحداً مثل ما أوتيتم ، فحذف المفعول .

قوله تعالى : ( قُلْ إِنْ الْمُدَىٰ هُدًى لِّلَّهِ ) فيه قولان :

أحدهما : أن المُدَى إلى الخبر والدلالة إلى الله عن وجل يده الله جل شأؤه يؤتیه أنيابه ، فلا تنكروا أن يؤتى أحد سواكم مثل ما أوتيتم ، فإن أنكروا ذلك قتل لهم « إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء » . والقول الآخر : قل إن المُدَى هدى الله القى أمناه للمؤمنين من التصديق بحمد صلى الله عليه وسلم لا غيره . وقال بعض أهل الإشارات في هذه الآية : لا تمشروا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقكم فإن من لا يوافقكم لا يرافقكم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٥﴾

أى بنوّته وهديته ، عن الحسن وعجاذه وغيرهما . ابن جرير : بالإسلام والقرآن من يشاء . قال أبو عثمان : أجل القول ليقى معه رجاء الرابى وخوف الخائف ، والله ذو الفضل العظيم .

قوله تعالى : وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأْمَنُوا بَقِطَارٍ يُؤْدِعَهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِيَدِينَا لَا يُؤْدِعُهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ فَايْمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّشْنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾

فيه ثمان مسائل :

الأول — قوله تعالى : ( وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأْمَنُوا بَقِطَارٍ يُؤْدِعُهُ إِلَيْكَ ) مثل عبد الله بن سلام . ( وَمِنْهُمْ مَّنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِيَدِينَا لَا يُؤْدِعُهُ إِلَيْكَ ) وهو نفص بن عازراء اليهودى ، أودعه رجل دينارا فخافه . وقيل : كعب بن الأشرف وأصحابه . وقرأ ابن وثاب والأشهب الثقلى « مَن إِنْ يَخْتَنَهُ » على لغة من قرأ تسعين وهى لغة بكر وتميم . وفى حرف عبد الله « مالك لا يَتَمَتُّ عَلَى يَوْسَفَ » . والباقون بالالف . وقرأ نافع واليكاني « يُؤْدِيهِ » بياء فى الإدراج . قال أبو عبيد : وانفق أبو عمرو والأعشى وعلمم وحمة فى رواية أبى بكر

على وقف الماء، فقموا « يؤدُّه إليك ». قال النحاس : بإمكان الماء لا يجوز إلا في الشعر عند بعض النحويين، وبعضهم لا يجيزه البتة ويرى أنه غلط ممن قرأ به، وأنه توهم أن الجزم يقع على الماء، وأبو عمرو أجل من أن يجوز عليه مثل هذا. والصحيح عنه أنه كان يكسر الماء؛ وهي قراءة يزيد بن القنقاع. وقال الفراء : مذنب بعض العرب يجزمون الماء إذا تحرك ما قبلها، يقولون : ضربته ضربا شديدا؛ كما يسكنون ميم أتم وقيم وأصلها الرفع؛ كما قال الشاعر :

لما رأى الآدعة ولا يشيع \* مال إلى أوطاة حفيف فأضطجع

وقيل : إنما جاز إسكانها. في هذا الموضع لأنها وقعت في موضع الجزم وهي الياء الناهية. وقرأ أبو المنذر سلام والزهرى « يؤدُّه » بضم الماء بغير واو. وقرأ قتادة وحيد ويجاهد « يؤدُّه » بواو في الإدراج، اختير لها الواو لأن الواو من الشفة والماء بيعة المتخرج قال سيوريه : الواو في المذكر بمنزلة الألف في المؤنث ويبدل منها ياء لأن الياء أخف إذا كان قبلها كسرة أو ياء، وتحذف الياء وتبقى الكسرة لأن الياء قد كانت تحذف والفعل مرفوع فاثبتت بحالها.

الثانية - أخبر تعالى أن في أهل الكتاب الخائن والأمين والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغي اجتناب جميعهم. وخص أهل الكتاب بالذكر وإن كان المؤمنون كذلك لأن الخيانة فيهم أكثر، تخرج الكلام على الغالب. وانه أعلم. وقد مضى تفسير القنطار. وأما الدينار فاربعة وعشرون قيراطا والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعير، فجموعه اثنتان وسبعون حبة، وهو مجمع عليه. ومن حفظ الكثير وأداء القليل أولى، ومن خان في اليسير أو منعه فذلك في الكثير أكثر. وهذا أدل دليل على القول بفهوم الخطاب. وفيه بين العلماء خلاف مذكور في أصول الفقه. وذكر تعالى قسمين : من يودى ومن لا يودى إلا بالمالزمة عليه؛ وقد بين من الناس من لا يودى وإن دُمت عليه قائما. فذكر تعالى القسمين لأنه الغالب

(١) الأوطاة : واحدة الأوطى، وهو يجر من حجر الزبل. والحفيف (بالكسر) : ما أعرج من الرمل.

والمعاد والثالث نادر؛ فخرج الكلام على الغالب . وقرا طلحة بن مُعَرِّف وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهما « دِمَتْ » بكسر الدال وهما لغتان، والكسرة لغة أزد السراة؛ من « دِمَتْ تَدِم » مثل خفت تخاف . وحكى الأخفش دِمَتْ تدوم، شاذًا .

الثالثة - استدلل أبو حنيفة على ملازمة التَّوَكُّل بقوله تعالى : « إِنْ مَادَمْتَ عَلَيْهِ قَانِمًا » وأباه سائر العلماء، وقد تقدَّم في البقرة . وقد استدلل بعض البغداديين على حبس الميدان بقوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَبِينِ أَلَّا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمَّتْ عَلَيْهِ قَانِمًا » فإذا كان له ملازمته ومنه من التصرف بآز حبه . وقيل : إن معنى « ما دمت عليه قانمًا » أى بوجهك فيها بك ويسعى منك، فإن الحياء في العيتين؛ ألا ترى إلى قول ابن عباس رضى الله عنه : لا تطلبوا من الأعمى حاجة فإن الحياء في العيتين . وإذا طلبت من أخيك حاجة فانظر إليه بوجهك حتى يستحي فيقضيها . ويقال : « قانمًا » أى ملازمًا له، فإن أنظره أنكره . وقيل : أراد بالقيام إدامة المطالبة لا عين القيام . والبيان أصله دَنَر فَوَضِعَتْ مِنْ إِدَى النَّوْثِينَ يَأْ طَلِبًا لِحَقِّهِ لِكثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِ . يدل عليه أنه يجع دنانير ويصغر دنانير .

الرابعة - الأمانة عظيمة القدر في الدين، ومن عظم قدرها أنها تقوم هى والرحم على جنتي الصراط؛ كما في صحيح مسلم . فلا يمكن من الجواز إلا من حفظهما . وروى مسلم عن حذيفة قال حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة، قال : « ينال الرجل للنومة فتقبض الأمانة من قلبه » الحديث . وقد تقدم بكلام أول البقرة . وروى ابن ماجه حدثنا محمد ابن المصنف حدثنا محمد بن حرب عن شبيب بن سنان عن أبي الزاهرية عن أبي شجرة كثير ابن مرة عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله إذا أراد أن يهلك عبدًا نزعه منه الحياء فإذا نزعه منه الحياء لم تلقه إلا ميتًا مُتَمَتًا فإذا لم تلقه إلا ميتًا مُتَمَتًا نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا حَاشًا مَحْمُوتًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا حَاشًا مَحْمُوتًا نُزِعَتْ مِنْهُ »

(١) في قوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ قَدْرُهُ فَنُفْرَةً ... » ص ٣٧١ طبعه أول أورثانية .

(٢) بنية الراوى (فتح النون) : بناية وناسجه . والنجية (سكون النون) : الناحية ؛ يقال : نزلت على نجية .

أى ناحية . (٣) راجع ١٠٨ من طبعه ثانية أورثانية، وصحيح مسلم ج ١ ص ١٠٨ طبعه بلان .

الرحمة فإذا تُرعت منه الرحمة لم تقه إلا رجيا ملما فإذا لم تقه إلا رجيا ملما زعت منه رقة الإسلام . وقد مضى في البقرة معنى قوله عليه السلام : « أذ الأمانة إلى من ائتمك ولا تخن من خانك » . والله أعلم .

الخامسة - ليس في هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم خلافا لمن ذهب إلى ذلك ؛ لأن فساق المسلمين يوجد فيهم من يؤدى الأمانة ويؤمن على المال الكثير ولا يكونون بذلك عدولا . فطريق العدالة والشهادة ليس يميز فيه أداء الأمانة في المال من جهة المعاملة والودعة ؛ ألا ترى قولهم : « ليس علينا في الأميين سبيل » فكيف يعدل من يتخذ استباحة أموالنا وحريتنا غير حرج عليه ؛ ولو كان ذلك كافيا في تعديلهم لسمعت شهادتهم على المسلمين .

السادسة - قوله تعالى : ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ) بنى اليهود ( ليس علينا في الأميين سبيل ) قيل : إن اليهود كانوا إذا باعوا المسلمين يقولون : ليس علينا في الأميين سبيل - أى حرج في ظلمهم - لمخالفتهم إيانا . وأدعوا أن ذلك في كتابهم ؛ فأكذبهم الله عز وجل ورد عليهم فقال : « بلى » أى بلى عليهم سبيل العذاب بكذبهم واستغلالهم أموال العرب . قال أبو إسحاق الزجاج : وتم الكلام . ثم قال « مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى » . ويقال : إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالا فلما أسلم أرباب الحقوق قالت اليهود : ليس لكم علينا شيء ، لأنكم زكمت دينكم فسطعنا دينكم . وأدعوا أنه حكم التوراة فقال الله تعالى : « بلى » ردا لقولهم « ليس علينا في الأميين سبيل » . أى ليس كما تقولون ، ثم استأنف فقال : « مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى » الشريك فليس من الكاذبين بل يحبه الله ورسوله .

السابعة - قال رجل لأن عباس : إنا نصيب في القصد من أموال أهل الذمة للتجاعة والشاة وقول : ليس علينا في ذلك بأس . فقال له : وهذا كما قال أهل الكتاب « ليس علينا في الأميين سبيل » إنهم إذا أدوا الجزية لم تحمل لكم أموالهم إلا عن طيب



أنفسهم ؛ ذكره عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحاق المصنف عن صعبة أن رجلا قال  
لأبن عباس ، فذكره .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن  
الكافر لا يُعجل أهلا لقبول شهادته لأن الله تعالى وصفه بأنه كذاب . وفيه رد على الكفرة  
الذين يحرّمون ويحلّون غير محرم الله وتحليله ويعملون ذلك من الشرع . قال ابن العربي :  
ومن هذا يخرج الرد على من يحكم بالاستحسان من غير دليل ، ولست أعلم أحدا من أهل  
القبلة قاله . وفي الخبر : لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما شيء كان  
في الباطنية إلا وهو تحت قدس إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر » .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ عَسَىٰ تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾  
« من » رفع بالابتداء وهو شرط . و « أوّل » في موضع جزم . و « اتق » معطوف عليه ،  
أي واتق الله ولم يكذب ما حرّم عليه . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي يحب أولئك .  
وقد تقدّم معنى حب الله لأوليائه . والماء في قوله « بهده » راجعة إلى الله عز وجل . وقد  
جرى ذكره في قوله « وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » ويجوز أن تعود على الموق وتنفى  
الكفر والنجاسة ونقض العهد . والمهد مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ مِنَّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ  
لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾

فيه مسائلان :

الأولى — روي الأئمة عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض  
تحتني فهدمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل

لَكَ يَبْنَءُ ؟ قُلْتُ لَا ، قَالَ الْيَهُودِيُّ : " أَحْلَفُ " قُلْتُ : إِذَا بَخَلَفَ فَيَذْهَبُ بِمَا لِي ، فَأَرْزُلُ  
 اللَّهُ تَعَالَى « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا » إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . وَرَوَى الْأَعْمَةَ أَيْضًا  
 عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ أَقْطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بَيْنَهُ فَقَدْ  
 أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ " . فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : وَإِنْ كَانَ شَيْئًا سِوَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟  
 قَالَ : " وَإِنْ كَانَ قِضِيًّا مِنْ أَرَاكَ " . وَقَدْ مَضَى فِي الْبَقَرَةِ مَعْنَى « لَا يَكْلَهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْتَظِرُ  
 إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْكَبُونَ » .

الثانية - ودلت هذه الآية والأحاديث أن حكم الحاكم لا يُجَلُّ المال في الباطن بقضاء  
 الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانه . وقد روى الأعمة عن أم سامة قالت قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم : " إِنْكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَلِمَلَّ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ الْخُنَّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ  
 وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْكُمْ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا  
 أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأَعْمَةِ ، وَإِنَّمَا نَاقِضُ  
 أَبُو حَنِيفَةَ وَفَلَا فَقَالَ : إِنْ حَكَّمَ الْحَاكِمُ الْمُنَى عَلَى الشَّهَادَةِ الْبَاطِلَةِ يُجَلُّ الْفَرْجُ لِمَنْ كَانَ عِزًّا  
 عَلَيْهِ ، كَمَا تَقْدَمُ فِي الْبَقَرَةِ . وَزَعَمَ أَنَّهُ لَوْ شَهِدَ شَاهِدًا زُورَ عَلَى رَجُلٍ بِطُلُقِ زَوْجَتِهِ وَحَكَّمَ الْحَاكِمُ  
 بِشَهَادَتِهِمَا فَإِنْ فَرَجَهَا يَحِلُّ لِلزَّوْجَةِ مَا مِنْ يَسْلَمُ أَنَّ الْقَضِيَّةَ بَاطِلٌ . وَقَدْ شُتِعَ عَلَيْهِ بِإِعْرَاضِهِ عَنْ  
 هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الصَّرِيحِ ، وَبِأَنَّهُ صَانَ الْأَمْوَالَ وَلَمْ يَرِ اسْتِبَاحَتَهَا بِالْأَحْكَامِ الْفَاسِدَةِ وَلَمْ  
 يَصْنِ الْفُرُوجَ عَنْ ذَلِكَ ، وَالْفُرُوجُ أَحَقُّ أَنْ يَحْتَاطَ لَهَا وَتُصَانَ . وَسَيَأْتِي بَطْلَانُ قَوْلِهِ فِي آيَةِ  
 الْعَمَانِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ السِّتْرَ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ  
 مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ  
 مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٨)

(١) الأراك : مخز من الخس يشاك بقضائه ، الواحدة أراك . (٢) آية ١٧٤ ص ٢ ص ٢٢٤ .  
 طيبة ثانية ١٠ ص ١٠٠ (٣) راجع للمفسر طائفة ص ٢٤٨ طبة ثانية . (٤) آية ٦ سورة النور .

يعنى طائفة من اليهود . وقرأ أبو جعفر وشيبة « يَلُون » على التحدير . والمعنى يعرفون الكلم ويعدلون به عن القصد . وأصل اللّى الليل . لوى يده ، ولوى برأسه إذا أماله ؛ ومنه قوله تعالى : « لَيًّا بالسَّيِّئِ » أى عتادا عن الحق وميلًا عنه إلى غيره . ومعنى « ولا تلون على أحد » أى لا تخرجون عليه ؛ يقال لوى عليه إذا عرج وأقام . واللى المظل . لواه بدنيه يَلويه لِيًّا وَلِيًّا مَطْلَه . قال :

قد كنت ذابنت بها حسنا • عانة الإنلاس واليّا

• يحسن بيع الأصل والعيان •

وقال ذو الرمة :

تريدى لِيًّا وَأَنْتِ مَلِيَّةٌ • وَأَتَّسِنُ يَا ذَاتَ الرِّشَاحِ التَّقَايَا

وفى الحديث « لِيٌّ الْوَاحِدُ يَمِيلُ عِرْضَهُ وَعَقِبَتَهُ » . وأتتبع جمع لسان فى لغة من ذكر ، ومن أنت قال السن .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٦٦﴾

( ما كان ) معناه ما ينبغي ؛ كما قال : و « مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا » و « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ » . و « مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَّكِمَ هَذَا » يعنى ما ينبغي . والشعر يقع الواحد والجمع لأنه بمنزلة المصدر ؛ والمراد به هنا عيسى فى قول الضمك والشذى . والكتاب : القرآن . والحكم : العلم والفهم . وقيل أيضا الأحكام . أى أن الله لا يصطفى لنزوه الكتابة ولو فصل ذلك بشر لسلبه آيات النبوة وعلاماتها . ونصب « ثم يقول » على الاشتراك بين « أَنْ يُؤْتِيَهُ » وبين « يقول » أى لا يجمع لئى إتيان النبوة وقوله : « كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ » . ( وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَكُمْ ) أى ولكن جائز أن يكون النبي يقول لهم

كونوا رباتين . وهذه الآية قيل إنها نزلت في نصارى تَجْرَان . وكذلك روى أن السورة كلها إلى قوله : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ » كان سبب نزولها نصارى تَجْرَان ولكن مُرَجَّح معهم اليهود ؛ لأنهم فعلوا من التَّجْدِ والِنَادِ فَعَلَهُمْ .

والرَّابَّتُونِ واحدُهم رباتي منسوب إلى الرَّبِّ . والرَّباتي الذي يُرَبِّي النَّاسَ بصغار العلم قبل كباره ؛ وكأنه يقتدى بالرَّبِّ سبحانه في تيسير الأمور ؛ روى معناه عن ابن عباس . قال بعضهم : كان في الأصل رَبَّتِي فَأُدْخِلَتْ الْأَلِفُ وَالتَّوْنُ لِلْبَاقَةِ ؛ كما يقال للمُعْظِمِ الهَيْبَةِ : لِحَيَاتِي وَلِعَظِيمِ الْجَبَّةِ جَمَانِي وَلِنَظِيفِ الرِّقَةِ رَقِيَانِي . وقال المبرد : الرَّبَاتِيونَ أرباب العلم ، واحدُهم رَبَاتَن ، من قولهم : رَبَّهُ رَبُّهُ فَهُوَ رَبَاتَن إِذَا دَرَبَهُ وَأَصْلُهُ : فَتَنَاهُ عَلَى هَذَا يَدْبُرُونَ أُمُورَ النَّاسِ وَيَصْلَحُونَهَا . والألف والتون للباقة كما قالوا رَبَاتَن وَعُطْشَان ، ثم ضُمَّتَ إِلَيْهَا ياء النسبة كما قيل : لِحَيَاتِي وَرَقِيَانِي وَجَمَانِي . قال الشاعر :

لَوْ كُنْتُ مُرْتَبَاتِي الْحَقِّ أَتَلَّتِي • مِنْهُ الْحَدِيثُ وَرَبَاتِي أَجَارِي

فمعنى الرَّبَاتِي العالم بدين الرَّبِّ الذي يعمل بعلمه ؛ لأنه إِذَا لم يعمل بعلمه فليس بعالم . وقد تقدم هذا المعنى في البقرة : وقال أبو رزين : الرَّبَاتِي هو العالم الحكيم . وروى شعبة عن عاصم عن زُرَّعٍ عن عبد الله بن مسعود « وَلَكِنْ كُنُوا رَبَاتِينَ » قال : حكاة علماء . ابن جبير : حكاة أعيان . وقال الضحاك : لَا يَفْنَى لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعَ حِفْظَ الْقُرْآنِ جُهْدَهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : « وَلَكِنْ كُنُوا رَبَاتِينَ » . وقال ابن زيد : الرَّبَاتِيونَ الولاءة ، والأخبار العلماء . وقال مجاهد : الرَّبَاتِيونَ فوق الأخبار . قال النحاس : وهو قول حسن ؛ لِأَنَّ الْأَخْبَارَ هم العلماء . والرَّباتي الذي يجمع إلى العلم البصرَ بالسياسة ؛ مأخوذ من قول العرب : رَبَّ أَمْرَ النَّاسِ رَبُّهُ إِذَا صَلَحَ وَقَامَ بِهِ ، فهو رَابٌّ وَرَبَاتِي عَلَى التَّكْثِيرِ . قال أبو عبيدة : سمعت علياً يقول : الرَّبَاتِي العالمُ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، الْعَارِفُ بِأَنْبَاءِ الْأُمَّةِ وَمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ . وقال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس : الْيَوْمَ مَاتَ رَبَاتِي هَذِهِ الْأُمَّةُ . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ ذَكَرَ وَلَا اتَّقَى حَزْناً وَلَا مَمْلُوكٍ إِلَّا وَقَّعَ جَنَّتَ وَجِلَ »

عليه حتى أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه — ثم تلا هذه الآية — ولكن كونوا ربانيين  
الآية . رواه ابن عباس .

قوله تعالى : ( يَا كُتُبُ الْمُتْلُونَ الْكِتَابَ وَيَا كُتُبُ تَدْرُسُونَ ) قرأه أبو عمرو وأهل  
المدينة بالتخفيف من العلم . واختار هذه القراءة أبو حاتم . قال أبو عمرو : وتصديفها  
« تَدْرُسُونَ » ولم يقل « تَتْرُسُونَ » بالتشديد من التدريس . وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة  
« تُمْلُونَ » بالتشديد من التلميم ، واختارها أبو عبيد . قال : لأنها تجمع المعنيين « تملون ،  
وتدرسون » . قال مكي : التشديد البلغ ؛ لأن كل معلم عالم بمعنى يعلم وليس كل من علم شيئا  
مُعَلِّمًا . فالتشديد يدل على العلم والتعليم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط ، فالتعليم البلغ  
وأمدح وغيره البلغ في الذم . احتج من رجع قراءة التخفيف بقول ابن مسعود « كونوا ربانيين »  
قال : حكاه علماء ؛ فيبعد أن يقال كونوا فقهاء حكاه علماء بتعليمكم . قال الحسن : كذا جاء  
علماء بعلومكم . وقرأ أبو حيوة « تدرسون » من أدرس يدرس . وقرأ مجاهد « تملون »  
بفتح التاء وتشديد اللام ، أي تملون .

قوله تعالى : وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَّةَ وَالنَّيْسَ أَرْبَابًا أَيَاْمُرُكُمْ  
بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٥﴾

قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة بالنصب عطفا على « أَنْ يُؤْتِيَهُ » . ويقويه أن اليهود قالت  
للنبي صلى الله عليه وسلم : أتريد أن تتخذك يا عدو ربنا ؟ فقال الله تعالى : « ما كان لبشر  
أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة — إلى قوله : ولا يأمرهم » . وفيه ضمير البشر ، أي  
ولا يأمرهم البشر يعني عيسى وعزرا . وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام  
الأول ، وفيه ضمير اسم الله عز وجل ، أي ولا يأمرهم الله أن تتخذوا . ويقوى هذه القراءة  
أن في مصحف عبد الله « ولن يأمرهم » فهذا يدل على الاستئناف ، والضمير أيضا لله عز  
وجل ، ذكره مكي ، وقاله سيويه والزمجج . وقال ابن جريج وجماعة : ولا يأمرهم بغير علم

السلام . وهذه قراءة أبي عمرو والكسائي وأهل الحرمين : ( أَنْ تَتَّخِذُوا ) أى إِنْ تَتَّخِذُوا الملائكة والنبين أرباباً . وهذا موجود فى النصارى يظنون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم أرباباً . ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بَعْدَ إِذْ أَتَاكُمْ مَسْلُومُونَ ) على طريق الإنكار والتعجب ؛ فخرم الله تعالى على الأنبياء أَنْ يَتَّخِذُوا الناس عباداً يتأخون لهم ولكن ألزم الخلق حرمتهم . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي وَلِيقُلْ قُلَاتِي وَفَتَاتِي وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ رَبِّي وَلِيقُلْ سَيِّدِي » . وفى التبريل « أَذْكَرَنِي عِنْدَ رَبِّكَ » . وهناك يأتى بيان هذا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كُنُوبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

قيل : أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أَنْ يَصَدَّقَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَبِأَمْرِ بَعْضُهُمْ بِالْإِيمَانِ بِبَعْضٍ ؛ فذلك معنى النصرة بالصدق . وهذا قول سعيد بن جبور وقناة وطائوس والسدي والحسن ، وهو ظاهر الآية . قال طائوس : أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء أَنْ يُؤْمِنَ بِمَا جَاءَهُ مِنَ الْآخِر . وقرا ابن مسعود « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . قال الكسائي : يجوز أَنْ يكون « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاق النبيين » بمعنى وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاق الذين مع النبيين . وقال البصريون : إِذَا أَخَذَ اللَّهُ ميثاق النبيين فقد أخذ ميثاق الذين معهم ؛ لأنهم قد أتبعوهم وصتقوهم . و « مَا » فى قوله « لَمَّا » بمعنى الذى . قال سيويه : سألت الخليل ابن أحمد عن قوله عز وجل : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاق النبيين لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » فقال : لَمَّا بمعنى الذى . قال النحاس : التقدير على قول الخليل الذى آتَيْتُكُمْ ؛ ثم حذف

الماء لعل الاسم «و» الذى «رفع بالابتداء وخبره «من كلب وحكمة» . و «من» لبيان الجنس . وهذا كقول القائل : لزيد أفضل منك ؛ وهو قول الأخفش أنها لام الابتداء . قال المهدوى : وقوله «ثم جاءكم» وما بعده جملة معطوفة على الصلة ، والمائد منها على الموصول محذوف ؛ التقدير ثم جاءكم رسول مصدق به .

قوله تعالى : ( ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ) الرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم في قول علي وابن عباس رضى الله عنهما . واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين ؛ كقوله تعالى : «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ آيَةٌ مَطْلُوعَةً» — ال قوله : ولقد جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ . فاخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بحمد عليه السلام وينصروه إن أذكروه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أنفسهم . واللام من قوله «لتؤمن به» جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق ، إذ هو بمثابة الاستعلاف . وهو كما تقول فى الكلام : أخذت ميثاقتك لفضل كذا ، كأنك قلت استمطقتك ، وفصل بين القسم وجوابه بحرف الجر الذى هو «لما» فى قراءة ابن كثير على ما يأتى . ومن فتحها جعلها متقية للقسم الذى هو أخذ الميثاق . واللام فى «لتؤمن به» جواب قسم محذوف ، أى والله لتؤمن به . وقال المبرد والكسائى والزجاج : «ما» شرط دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على إن ، ومما «لما آتيتكم» فوضع «ما» نصب ، وموضع «آتيتكم» جزم ، و «ثم جاءكم» معطوف عليه . ( لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ) اللام فى قوله «لتؤمن به» جواب الجزاء ؛ كقوله تعالى : «وَلَتَنُصِرَنَّكَ لَنَا نَجِّينٌ» ونحوه . وقال الكسائى : لتؤمن به مقسمد القسم فهو متصل بالكلام الأول ، وجواب الجزاء قوله «فَنَنْتَهِ بِذَلِكَ» . ولا يحتاج على هذا الوجه إلى تقدير عائد . وقرا أهل الكوفة «لِأَيَّائِكُمْ» بكسر اللام ، وهى أيضا بمعنى الذى وهى متعلقة بأخذ ، أى أخذ الله ميثاقهم لأجل الذى أتاهم من كلب وحكمة ثم إن جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمن به من بعد الميثاق ؛ لأن أخذ الميثاق فى معنى الاستعلاف كما تقدم . قال الجلس : ولأبى عبيدة فى هذا قول حسن . قال : المنى وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

لِثَمَنٍ بِهِ لِمَا آتَيْتُمْ مِنْ ذِكْرِ التَّوْرَةِ . وَقِيلَ : فِي الْكَلَامِ حَذَفٌ ، وَالْمَعْنَى وَإِنْ أَخَذَ اللَّهُ مِثْلَ  
النَّيِّنِ لِمِثْلِ النَّاسِ لِمَا جَاءَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، وَلِأَخَذَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا . وَدَلَّ عَلَى  
هَذَا الْحَذَفِ « وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكَ إِصْرِي » . وَقِيلَ : إِنْ أَلَامَ فِي قَوْلِهِ « لِمَا » فِي قِرَاءَةٍ مِنْ  
كُسْرُهَا بِمَعْنَى بَعْدَ ، يَعْنِي بَعْدَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ :

تَوَهَّتْ آيَاتُ لِمَا فَمَرَقَتْهَا • لَسْتَ أَعْوَامٌ وَذَا الْعَامُ سَابِعُ

أَيُّ بَعْدَ سِتَّةِ أَعْوَامٍ . وَقَرَأَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ « لِمَا » بِالْتَشْدِيدِ ، وَمَعْنَاهُ حِينَ آتَيْتُمْ . وَاحْتَمَلُ  
أَنْ يَكُونَ أَصْلُهَا التَّخْفِيفُ ، فَزِيلَتْ « مِنْ » عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ يَرَى زِيَادَتَهَا فِي الْوَاجِبِ فَصَارَتْ  
لِمَنْ مَا ، وَغَلَبَتِ النَّوْنُ بِمِثْلِ الْأَدْنَامِ فَاجْتَمَعَتْ ثَلَاثُ مِمَّاتٍ فَحُذِفَتْ الْأَوَّلَى مِنْهُنَّ اسْتِخْفَافًا . وَقَرَأَ  
أَهْلُ الْمَدِينَةِ « آتَيْنَاكُمْ » عَلَى التَّعْظِيمِ . وَالباقون « آتَيْتُمْ » عَلَى لَفْظِ الْوَاحِدِ . ثُمَّ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ  
لَمْ يُؤْتُوا الْكِتَابَ وَإِنَّمَا أَوَى الْبَعْضُ ؛ وَلَكِنْ الْقَلْبَةُ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . وَالْمُرَادُ أَخَذَ مِثْلَ  
جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ فَمَنْ لَمْ يُؤْتَ الْكِتَابَ فَهُوَ فِي حَكْمٍ مِنْ أَوَى الْكِتَابَ لِأَنَّهُ أَوَى الْحُكْمَ وَالنَّبُوَّةَ .  
وَأَيْضًا مَنْ لَمْ يُؤْتَ الْكِتَابَ أَمْرًا بِأَنْ يَأْخُذَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِهِ فَدَخَلَ تَحْتَ صِفَةِ مَنْ أَوَى الْكِتَابَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكَ إِصْرِي ﴾ قَالُوا أَفَرَأَيْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ  
الشَّاهِدِينَ ﴿ هَ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ مِنَ الْإِقْرَارِ ، وَالْإِصْرُ وَالْأَصْرُ لَتَانِ ، وَهُوَ الْعَهْدُ . وَالْإِصْرُ فِي اللُّغَةِ  
الْثَقْلُ ؛ فَسَمِيَ الْعَهْدُ إِصْرًا لِأَنَّهُ مَنَعٌ وَتَشْدِيدٌ . ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا ﴾ أَيُّ اعْلَمُوا ؛ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .  
الرَّجَاحُ : يَتَوَلَّى الشَّاهِدُ هُوَ الَّذِي يَصْطَحُّ دَعْوَى الْمُدَّعِي . وَقِيلَ : الْمَعْنَى انْشَدُوا أَتَمُّ عَا  
أَنْفُسَكُمْ وَعَلِ اتِّبَاعَكُمْ . ﴿ وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمْ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ :  
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْأَنْبِيَاءِ فَاشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ؛ فَتَكُونُ كِتَابَةً عَنْ غَيْرِ مَنْذُورٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٧)

« مَنْ » شَرْطٌ ، فَمَنْ تَوَلَّى مِنْ أَمْرِ الْأَنْبِيَاءِ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ أَخْذِ الْمِيثَاقِ (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

أَيُّ الْخَارِجُونَ عَنِ الْإِيمَانِ . وَالْفَاسِقُ الْخَارِجُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ (١١) .

(١) راجع ج ١ ص ٢٤٤ طبعة ثانية دار الفکر .



قوله تعالى : أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ  
عَلَيْنَا وَمَا أَُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِصْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا  
أُوْنِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالْكَتُبُونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ  
لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ( أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ ) قال الكلبي : إن كعب بن الأشرف وأصحابه  
اختصموا مع النصارى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أينا الحق بين إبراهيم ؟ فقال  
النبي صلى الله عليه وسلم : « كلا الفريقين برئ من دينه » . فقالوا : ما نرضى بقضائك  
ولا نأخذ بكديك ؟ فقال « أفغير دين الله يبتغون » يعني يطلبون . ونصبت « غيره » يبتغون ، أي  
يبتغون غير دين الله . وقرأ أبو عمرو وحده « يبتغون » بإلقاء على الخبر « وإليه ترجعون » بإلقاء  
على المخاطبة . قال : لأن الأول خاص والثنائي عام فصرق بينهما لاقترانهما في المعنى .  
وقرأ حفص وغيره « يبتغون » ويرجعون « بإلقاء فيما » لقوله : « فاولئك هم الفاسقون » .  
وقرأ الباقر بإلقاء فيما على المخاطبة ؛ لقوله « لَمَّا أَتَيْتُكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ وَحُكِّمَ » . والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَلَهُ أَسْلَمَ ) أي استسلم وأقاد وانضم وذلل ، وكل مخلوق فهو مقاد  
مستسلم ، لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه . قال قتادة : أسلم المؤمن طوعًا والكافر عند  
موته كرهًا ولا ينفعه نكاح ، لقوله : « قُلْ يَكُفِّرُ بَعْدَهُمْ مَا رَأَوْا بِأَسَاءَ » . قال مجاهد :  
إسلام الكافر كرهًا بسجوده لغير الله وبعبود ظله ، « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ  
يَتَّبِعُهُ ظِلَّاهُ عَنِ الْعَيْنِ وَالْأَنْبِيَاءُ يُحَدِّثُهُ وَهُمْ لَا يَخْرُجُونَ » . وقوله يسجد من في السموات والأرض  
طوعًا أو كرهًا وظلالهم بالتدوير والآمال . وقيل : المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم ؛  
فهم الحسن والقبيح والطويل والقصير والصحيح والمريض وكلهم مقادون أخطارًا ، فالصحيح  
مقاد طائع يحب لذلك ، والمريض مقاد خاضع وإن كان كارهًا . والطوبى للآخياء والآثام

بسهولة . والكراهة بما كان بمشقة وإيذاء عن النفس . و ( طَوْعًا وَكَرْهًا ) مصدران في موضع الحال ، أى طائعين ومكرهين . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : « وَلَهُ اسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » قال : « الملائكة أطاعوه في السماء والأنصار وعبد القيس في الأرض » . وقال عليه السلام : « لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي فَإِنَّ أَصْحَابِي اسْلَمُوا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ وَاسْلَمَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِ السَّيْفِ » . وقال عكرمة : « طوعا » من اسلم من غير حاجة « وكرها » من اضطرته الحاجة إلى التوحيد . يدل عليه قوله عز وجل : « وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » « وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » . قال الحسن : هو عموم معناه الخصوص . وعنه : « اسلم من في السموات » وتم الكلام . ثم قال : « والأرض طوعا وكرها » . قال : والكراهة المناقبة لا ينفعه عمله . و « طوعا وكرها » مصدران في موضع الحال . عن مجاهد عن ابن عباس قال : إذا استعصبت دابة أحدكم أو كانت تتوأسا فليقرأ في أذنها هذه الآية : « أنصير دين الله يتوفى وله اسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها » إلى آخر الآية .

قوله تعالى : وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٥﴾

« غير » مفعول يتبع ، « دينا » منصوب على التفسير ، ويموز أن يتصب دينا يتبع ، ويتصب « غير » على أنه حال من الدين . قال مجاهد والسدي : نزلت هذه الآية في الحارث بن سويد أخو الجلاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتد عن الإسلام هو وأثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفارا ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة . وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات . ( وهو في الآخرة من الخاسرين )

(١) خست الدابة : شردت وبعثت ظهرها .

قال هشام : أى وهو خاسر فى الآخرة من الخاسرين ؛ ولولا هذا لفرقت بين الصلة والموصول .  
وقال المازنى : الألف واللام مثلها فى الرجل . وقد تقدم هنا فى البقرة عند قوله : « وإنه  
فى الآخرة لمن الصالحين » .

قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . وَشَهِدُوا أَنَّ  
الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٣﴾

قال ابن عباس : إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد ولىق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى  
قومه : سلوا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل فى من توبة ؟ فجاء قومه إلى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فقالوا : هل له من توبة ؟ فقلت « كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم »  
إلى قوله : « غفور رحيم » فأرسل إليه فأسلم . أخرجه الترمذى . وفى رواية : أن رجلا  
من الأنصار ارتد فلقى بالمشركين ، فأنزل الله « كيف يهدي الله قوما كفروا » إلى قوله :  
« إلا الذين تابوا » فبعث بها قومه إليه ، فلما قرئت عليه قال : والله ما كذبى قوما على رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله ، والله عز وجل  
أهدى الثلاثة ؛ فرجع تابيا ، فقيل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه . وقال الحسن : نزلت  
فى اليهود لأنهم كانوا يشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويستفتحون على الذين كفروا ؛  
فلما بعث ما تدوا وكفروا ، فأنزل الله عز وجل « أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة  
والناس أجمعين » . ثم قيل : « كيف » لفظة استنهام ومعناه الجحد ، أى لا يهدي الله .  
وتفطيره قوله : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله » أى لا يكون لهم عهد ،  
وقال الشاعر :

كيف قوى على الفراش ولما . يشمل القوم غارة شعواء

أى لا نوم لى . ( والله لا يهدي القوم الظالمين ) قال : ظاهر الآية أن من كفر بعد  
إسلامه لا يهديه الله ، ومن كان ظالما لا يهديه الله . وقد رأينا كثيرا من المرتدين قد أسلموا

وهداهم الله، وكثيرا من الظالمين تابوا عن الظلم . قيل له : مناه لا يهتد بهم الله ما داموا متقين على كفرهم وظلمهم ولا يُقبلون على الإسلام ؛ فاما إذا أسلموا وتابوا فقد وقَّعهم الله لنلك . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** (٨٧) **خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ** (٨٨) **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (٨٩)

أى إن داموا على كفرهم . وقد تقدم معنى لعنة الله والناس في «البقرة» فلا معنى لإعادته . (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) أى لا يؤخرون ولا يؤجلون ، ثم استثنى الثابطين فقال : «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» هو الحارث بن سويد كما تقدم . ويدخل في الآية بالمضى كل من راجع الإسلام وأخلص . قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ** (٩٠)

قال قتادة وعطاء الخراساني والحسن : نزلت في اليهود كفروا بيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقال أبو العالية : نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنسبه وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم . وقيل : «ازدادوا كفرا» بالذنوب التى اكتسبوها . وهذا اختيار الطبري ، وهى عنده في اليهود : (لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) مشكل لقوله : «تَوْبَةُ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ مِثْلِهِ وَيَسْقُو عَنِ السَّيِّئَاتِ» قيل : المعنى لن تقبل توبتهم عند الموت . قال النحاس : وهذا قول حسن ، كما قال عز وجل : «وَلَقَبَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ» . وروى عن الحسن وقتادة وعطاء . وقد قال صلى الله عليه وسلم : «إن الله

يقبل توبة العبد ما لم يغتر<sup>(١)</sup> . وسيأتى فى « النساء » بيان هذا المعنى . وقيل : « لن تقبل توبتهم »  
 التى كانوا عليها قبل أن يكفروا ؛ لأن الكفر قد أحبطها . وقيل : « لن تقبل توبتهم » إذا  
 تابوا من كفرهم إلى كفر آخر ؛ وإنما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى الإسلام . وقال قطرب .  
 هذه الآية نزلت فى قوم من أهل مكة قالوا : نرى بع محمد ريب المتون ، فإن بدا لنا الرجعة  
 رجعنا إلى قوما . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِسَيِّئِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ يَقْبَلَ  
 تَوْبَتُهُمْ » أى لن يقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر ؛ فسماها توبة غير مقبولة لأنه لم يصح  
 من القوم عزيم ، والله عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صح العزم .

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ  
 مِلٌّ مِنَ الْأَرْضِ ذَهِبًا وَلَوْ أَقْنَدْتُمْ بِهِ » أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من  
 نصيرين<sup>(٢)</sup>

الميل ( بالكسر ) مقدار ما يعلأ الشيء ، والميل ( بالفتح ) مصدر ملأت الشيء ؛ وقال :  
 أعطنى ملاء وملايه وثلاثة أملايه . والواو فى « ولو أقندى به » قيل : هى مقحمة زائكة ؛  
 المعنى : فلن يقبل من أحدهم ملاء الأرض ذهباً لو أقندى به . وقال أهل النظر من  
 الصويين : لا يجوز أن تكون الواو مقحمة لأنها تمل على معنى . ومعنى الآية : فلن يقبل  
 من أحدهم ملاء الأرض ذهباً تبرئاً ولو أقندى به . و « ذهباً » نصب على التفسير فى قول القرطبي .  
 قال المفضل : شرط التفسير أن يكون الكلام تاماً وهو مبهم ؛ كقولك عندى عشرون ؛  
 فالمدد مملوم والمعلوم مبهم ؛ فإذا قلت درهما فستر . وإنما نصب التبرئة لأنه ليس له ما يخففه  
 ولا ما يرفده ، وكان نصب أخف الحركات فجعل لكل ما لا عامل فيه . وقال الكسائى :  
 نصب على إجماع من ، أى من ذهب ؛ كقوله : « أو عسل ذلك صيماً » أى من صيام .  
 وفى البخارى « ومسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ذهباً بالكافر

(١) أى ما لم يتغتر بوجه عقوبته ؛ فيكون بمنزلة الشيء الذى يغتر به المؤمن .

يوم القيامة فيقال له أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكتفتدى به فيقول نعم فيقال له قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك . لفظ البخاري . وقال مسلم بدل " قد كنت ، كذبت ، قد سئلت " .

قوله تعالى : لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾  
فيه مسائل ثلاث :

الأولى — روى الأئمة واللفظ للنسائي عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » قال أبو طلحة : إِنْ رَبَّنَا لِيَسْأَلُنَا مِنْ أَمْوَالِنَا فَانْشُدْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي جِئْتُ أَرْضِيَّكَ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلها في قرابتك في حسان ابن ثابت وأبي بن كعب " . وفي الموطأ « وكانت أحب أمواله إليه يُرحاء » وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . وذكر الحديث ، ففي هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه ؛ فإن الصعابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من خَوَى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك . ألا ترى أبا طلحة حين سمع « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا » الآية ، لم يمتنع أن يقف حتى يرد اليان الذي يريد الله أن ينفق منه عباده بآية أخرى أو سُنَّة مبيّنة لذلك فانهم يحبون أشياء كثيرة . وكذلك فعل زيد بن حارثة ، عَمِدَ مما يجب إلى فرس يقال له " سَبَل " وقال : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تعلم أنه ليس لي مَالٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَرَسِي هَذِهِ ، بَغَاءَ بِنَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال : هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . فقال لأسامة بن زيد " افضه " . فكان زيداً وجد من ذلك في نفسه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ اللَّهُ قَدْ قَبِلَهَا مِنْكَ » . ذكره أسد بن موسى . وأعتق ابنُ عمرَ ثانياً مولاه ، وكان أعطاه فيه عبدُ الله بن جعفر ألف دينار . قالت صفية بنت أبي عبيد : أظنّه تناول قول الله عز وجل « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » . وروى شيبان عن أبي نعيم

(١) يُرحاء : موضع كان لأبي طلحة بالمدينة . ذكره ابن جرير .

عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يتابع له جارية من عسبي جلولاء يوم قسح مدائن كسرى ، فقال سعد بن أبي وقاص : فدعا بها عمر فأعجبته ، فقال إن الله عز وجل يقول : « لن تتألوا البرحتى تنفقوا بما تحبون » فأعطاها عمر رضى الله عنه . ورؤى عن الثوري أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خثيم قالت : كان إذا جاءه السائل يقول لى : يا فلانة أعطى السائل سكرًا ، فإن الربيع يحب السكر . قال سفيان : يتأول قوله جل وعز : « لن تتألوا البرحتى تنفقوا بما تحبون » . ورؤى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالا من سكر ويتصدق بها . فقيل له : هلا تصدقت بقيمتها ؟ فقال : لأن السكر أحب إلى فأردت أن أتحق مما أحب . وقال الحسن : إنكم لن تتألوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تدركون ما تؤثلون إلا بالصبر على ما تكرهون .

الثانية - واختلفوا في تأويل « البر » فقيل الجنة ؛ عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمر بن ميمون والسدى . والتقدير لن تتألوا ثواب البرحتى تنفقوا بما تحبون . والنزال المطأ ، من قولك تولته سويلا أعطيته . ونالني من فلان معروف ينالني ، أى وصل إلى . فالمعنى : لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا بما تحبون . وقيل : البر العمل الصالح . وفي الحديث الصحيح : « عليكم بالصدق فإنه يدعو إلى البر وإن البر يدعو إلى الجنة » .<sup>(١)</sup> وقد مضى في البقرة . قال عطية العوفي : يعنى الطاعة . عطاء : لن تتألوا شرف الدين والتقوى حتى تصدقوا وأتم أحماء أشقاء تأملون العيش وتحشون الفقر . وعن الحسن : « حتى تنفقوا » هى الزكاة المفروضة . مجاهد والكوفي : هى منسوخة ، نسختها آية الزكاة . وقيل : المعنى حتى تنفقوا بما تحبون فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات ، وهذا جامع . ورؤى الساسي عن صمصمة بن معاوية قال : لقيت أبا ذر قال : قلت حدثني قل نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد مسلم يتفق من كل ماله زوجين فى سبيل الله إلا استقبلته حبة الجنة كلهم يدعو إلى ما عنده » . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن

(١) فى قوله مال : « أترك القوم صدقاتهم » ج ٢ ص ٢٤٢ طبع ١٤٢٤ هـ

كانت إبلا فيميرين وإن كانت بقرا فيقرتين . وقال أبو بكر الوراق : دلّم هذه الآية على الفتوة . أي لن تالوا برى بكم إلا يترك بإخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم؛ فإذا فعلتم ذلك نالكم برى وعطى . قال مجاهد : وهو مثل قوله : « وَيُطْعِمُونَ الطَّامَّ عَلَى حَبِّهِ مِسْكِينًا » . « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أي وإذا علم جازى عليه .

قوله تعالى : كُلُّ الطَّامِّ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٧﴾ قُلْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأول - قوله تعالى : ( حِلًّا ) أي جلالا ، ثم استثنى فقال : ( إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ) وهو يعقوب عليه السلام . في الترمذي عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرنا ، ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : « كان يسكن اليد فاشتكى عرق النساء فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحوم الإبل والبأنيا فذلك حرمها » . قالوا : صدقت . وذكر الحديث . ويقال : نذر إن برأ منه ليركز أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل والبأنيا . وقال ابن عباس ومجاهد وقاعدة والذبي : أقبل يعقوب عليه السلام من حران يريد بيت المقدس حين حرب من أخيه عيسو ، وكان رجلا بطشا قويا ؛ فلقبه ملك فظن يعقوب أنه لص فماله أن يضربه ، فتمز الملك فخذ يعقوب عليه السلام ، ثم صعد الملك إلى السماء ويعقوب ينظر إليه فهاج عليه عرق النساء ، ولقي من

(١) النسا (بالفتح مقصور) : عرق يخرج من الورك فيستبدل التحنن ثم يمر بالرقوب حتى يبلغ الحناجر ، فإذا سمعت الدابة أخلق نغذاها يلصحن عليتين وجرى النسا بينهما واستبان ، وإذا هزلت الدابة اضطربت القنذاريات وماجت الرهقان (الربة الهمة للثقة) ونحو النسا (عن الصحاح) .

(٢) برأ من المرض (بالفتح) لغة أهل الحجاز . وسائر العرب يقولون : برئت (بالكسر) .



ذلك بلاه شديداً ، فكان لا ينام الليل من الوجع ويبيت وله بُغْه أي صياحه ، خلف يعقوب عليه السلام إن شفاه الله جل وعمر ألا يأكل عرْفاً ، ولا يأكل طعاماً فيه عِرْقُ خُرْمِها على نفسه ، بفعل بنوه يتيمون بعد ذلك العروق يخرجونها من اللحم . وكان سبب غزاة الملك تغذيه أنه كان نذر إن وهب الله له اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدس محمداً ابن يذبح أحرمهم . فكان ذلك للخروج من بدره ، عن الضمك .

الثانية - واختلف هل كان التحريم من يعقوب بأجتهاد منه أو بانذ من الله تعالى؟ والصحيح الأول ، لأن الله تعالى أضاف التحريم إليه بقوله تعالى : « أَلَا مَا حَرَّمَ » وإن النبي إذا أذاه اجتهاده إلى شيء كان ديناً يلزمنا اتباعه لتقرير الله سبحانه إياه على ذلك . وكما يوحى إليه ويلزم أتباعه ، كذلك يؤذن له ويجتهد ، ويتمن موجب اجتهاده إنفاً قُدْر عليه ، ولولا تقدم الإذن له في تحريم ذلك ما تسوّى على التحليل والتحريم . وقد حرم نبياً صل الله عليه وسلم العسل على الرواية الصحيحة ، أو خادمه مارية فلم يُقْوَ الله تحريمه ونزل « لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » على ما يأتي بيانه في « التحريم » . قال السيكا الطبري : فيمكن أن يقال : مطلق قوله تعالى : « لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » يقتضي ألا يختص بمارية . وقد رأى الشافعي أن وجوب الكفارة في ذلك غير مقبول المعنى ، فجعلها مخصوصاً بموضع النص . وأبو حنيفة رأى ذلك أصلاً في تحريم كل مباح وأجراه مجرى الخمين .

الثالثة - قوله تعالى : ( قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) قال ابن عباس : لما أصاب يعقوب عليه السلام عِرْقُ النسا وصف الأطباء له أن ينبغي لحوم الإبل خرمها على نفسه . فقالت اليهود : إنما نحرم على أنفسنا لحوم الإبل لأن يعقوب حرمها وأنزل الله تحريمها في التوراة؛ فأتى الله هذه الآية . قال الضمك : فكأنهم الله ورد عليهم فقال يا محمد : « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فلم يأتوا . فقال عز وجل : ( فَمَنْ أَكْثَرُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا مِنْ بَدِّ ذَلِكَ فَأَرَأَيْتُ هُمُ الظَّالِمُونَ ) قال الزجاج : في هذه الآية

أعظم دلالة لنبوة محمد نبيًا صلى الله عليه وسلم ، أخبرهم أنه ليس في كتابهم ، وأمرهم أن يأثروا بالثورة فأثروا ، بنى عرفوا أنه قال ذلك بالوحي . وقال عطية القوي : إنما كان ذلك حراما عليهم بتجريم يعقوب ذلك عليهم . وذلك أن إسرائيل قال حين أصابه عرق النسا : والله لئن عافاني الله منه لا يأكل لي ولد ، ولم يكن ذلك محزنا عليهم . وقال الكلبي : لم يحزنه الله عز وجل في الثورة عليهم وإنما حرمة بعد الثورة بظلمهم وكفرهم ، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنبا عظيما حرم الله تعالى عليهم طعاما طيبا ، أو صب عليهم رجلا وهو الموت ؛ فذلك قوله تعالى : « فَيُظْلِمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَايِثٌ أُحْلَتْ لَهُمْ » الآية . وقوله : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلُّ ذِي ظُلْفِيرٍ » الآية — إلى قوله : « ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » .

الرابعة — ترجم ابن ماجه في سننه « دواء عرق النسا » حدثنا هشام بن عمار وراشد ابن سعيد الزمل قال حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا هشام بن حسان حدثنا أنس بن سيرين أنه سمع أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « شفاء عرق النسا آية شاة [أعرابية] تذاب ثم تُجْزَأ ثلاثة أجزاء ثم يشرب على الريق في كل يوم جزء » . وأخرجه الثعلبي في تفسيره أيضا من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرق النسا : « تَأْخُذُ الْيَتَّةُ كَبْشَ عَرَبِيٍّ لَا صَغِيرَ وَلَا كَبِيرَ فَتَقْطَعُ صَبَارًا فَتُخْرِجُ إِهَالَتَهُ فَتَقْسِمُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى رِيقِ النَّفْسِ ثَلَاثًا » قال أنس : فوصفته لأكثر من مائة فبَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى . شعبة : حدثني شيخ في زمن الحجاج بن يوسف في عرق النسا أقسم الله بالله الأعلى لئن لم تنه لا كويتك بنار ولا حلفك بموسى . قال شعبة : قد جرسته بقوله ، ويسح على ذلك الموضع .

قوله تعالى : قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾

(١) زيادة عن ابن ماجه . (٢) الإهالة (الكسر) . الشحم اللدب ، أرغل ما أقدم به من الإدام .

أى قل يا محمد صدق الله بأنه لم يكن ذلك في التوراة محرماً . ( فَأَتُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا )  
أمر باتباع دينه . ( وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ) رد عليهم في دعواهم الباطل كما تقدم .

قوله تعالى : **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾**

فيه خمس مسائل :

الأول - ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر<sup>١</sup> قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض قال : " المسجد الحرام " . قلت : ثم أي ؟ قال : " المسجد الأقصى " . قلت : كم بينهما ؟ قال : " أربعون عاماً ثم الأرض لك مسجد فحينئذ أدركك الصلاة فصل " . قال مجاهد وقادة : لم يوضع قبله بيت . قال علي رضي الله عنه : كان قبل البيت بيوت كثيرة ، والمعنى أنه أول بيت وضع للعبادة . وعن مجاهد قال : قاتر المسلمون واليهود فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة ؛ لأنه مهبط الأنبياء وفي الأرض المقدسة . وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقد مضى في البقرة بيان البيت وأول من بناه . قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بالتي سنة ، وأن قواعد لقي الأرض السابعة السفلى . وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام ؛ كما خرجه النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمر . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل ثلاثاً [ سأل الله عز وجل<sup>(٢)</sup> ] حكماً يصادف حكمه فأنزله وقال الله عز وجل **مَلَكًا**

(١) الهادي (فتح الجبل) : موضع الهادية .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٢٠ طبع في تحقيقه .

(٣) زيادة من سنن النسائي .

« يَفْنَى لِأَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَالَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَبْعِينَ أَلْفَ نَفْسٍ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا رَافِيَةً إِيَّاهُ »  
 لا يميزه إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه فأُوتيه » . بناءً على ذلك قال ابن  
 الجوزي : لأن بين إبراهيم وسليمان آماداً طويلة . قال أهل التواريخ : أكثر من ألف سنة .  
 فقيل : إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جئدا ما كان أسه غيرهما . وقد روى أن  
 أزل من بنى البيت آدم عليه السلام كما تقدم . فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت  
 المقدس من بعده باريسين عاماً ، ويجوز أن تكون الملائكة أيضاً بنته بعد بنائها البيت بأذن الله ؛  
 وكلُّ محتمل . والله أعلم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أمر الله تعالى الملائكة ببناء  
 بيت في الأرض وأبى يطوفوا به ؛ وكان هذا قبل خلق آدم ، ثم إن آدم بنى منه ما بنى  
 وطاف به ، ثم الأنبياء بعده ، ثم أسّم بناه إبراهيم عليه السلام .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بَرْكَاتٌ ﴾ خبر « إن » واللام توكيد . و « بركة » موضع  
 البيت ، ومكة سائر البلد ، عن مالك بن أنس . وقال محمد بن سهاب : بكة المسجد ، ومكة  
 الحرم كله ، تدخل فيه البيوت . قال مجاهد : بكة هي مكة . فالجاء على هذا مبتدأ من البناء ؛  
 كما قالوا : طين لازب ولازم . وقاله الضحاك والمؤرج . ثم قيل : بكة من بلك . وهو الأزدحام .  
 وبالك التوهم ازدحموا . وتبكت بكة لآزدحام الناس في موضع طوهم . والبيت  
 دق العنق . وقيل : تبكت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الحيازة إذا ألحد فيها بظلم . قال  
 عبد الله بن الزبير : لم يقصدها جبار قط . سوء إلا وقصه الله عز وجل . وبما مكة قبل :  
 لأنها تبكت بذلك لأنها تمك المنع من العظم ما ينال فاصدها من المشقة . من قولهم : مككت  
 العظم إذا أخرجت ما فيه . ومك الفصيل ضرع أمه وامتك إذا امتص كبر ما فيه من اللبن  
 وشربه . قال الشاعر :

مككت فلم تبقي في أجوافها دورا .

وقيل : تبكت بذلك لأنها تمك من ظلم فيها ، أي نهلكه وتفسده . وقيل : تبكت بذلك  
 لأن الناس كانوا يمتكون ويضمحكون فيها ؛ من قوله : « وَمَا كَانَ لِأَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا كِبَا » .

وَتَصْدِيقُهُ أَي تَصْدِيقًا وَتَصْفِيًّا ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ لِلتَّصْرِيفِ ؛ لِأَنَّهُ « مَكْتُبٌ » ثَانِي مُضَافٌ .  
و « مَكَاةٌ ثُلَاثِيٌّ مُثَلٌّ » .

الثَّالِثُ : - قَوْلُهُ تَسَالَى : ( بَارَكَ ) جَعَلَ مُبْدَئًا تَضَافُ الْعَمَلُ فِيهِ ؛ فَالْفَرْكَ كَقَوْلِهِ :  
الْمَعْبُودُ ، وَنَحْوَهُ عَلَى الْمَثَلِ مِنَ الْمُتَصَرِّفِ وَ « وَضَعَ » أَوْ بِالْظُّلُوفِ مِنْ « بَكَتْ » . لِلْمَعْنَى : الْقِيَّاسُ  
اسْتَفْرِيغًا بَارَكَ . وَيُجَوِّزُ فِي غَيْرِ الْفَرَاغِ « مَبَارَكٌ » ؛ عَلَى أَنَّ يَكُونُ سَبْرًا ثَانِيًا ، أَوْ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ  
الَّذِي ، أَوْ عَلَى إِنْشَارِ مَبْدَأِ . ( وَهَذَا قَوْلَانِ ) عَطَفَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ مَعْنَى وَهُوَ مَعْنَى الثَّانِيَيْنِ .  
وَيُجَوِّزُ فِي غَيْرِ الْفَرَاغِ « مَبَارَكٌ » بِالْمَعْنَى يَكُونُ مَعْنَى لَيْتَ .

الرَّاسِخَةُ : - قَوْلُهُ تَسَالَى : ( فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ) رَفَعَ بِالْإِسْتِدَاءِ أَوْ بِالصَّفَةِ . وَفَرَأَ أَهْلُ  
سَكَّةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَبِجَاهِدٍ وَسَمِيدُ بْنُ خَيْرٍ « آيَةٌ جَنَّةٌ » عَلَى التَّوْحِيدِ ، يَجْنِي مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَحْدَهُ .  
قَالُوا : أَرَادَ صِفَةَ فِي الْمَقَامِ آيَةُ بَيِّنَةٌ . وَفَرَسَ بِجَاهِدٍ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ بِالْحَرَمِ كَلَامٌ ، فَغَضِبَ إِلَى أَنَّ  
مِنْ آيَاتِهِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ وَالزُّمُرَ وَالْقَامِ . وَابْنُ عَبَّاسٍ بِالْجَمْعِ . أَرَادُوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَالْجَمْعَ الْأَسْوَدَ  
وَالْحَطِيمَ وَزَمَنَهُ وَالْمَشَاعِرَ كُلَّهَا . قَالَ : أَبُو جَعْفَرٍ النَّعَّاسُ : مَنْ قَرَأَ « آيَاتِ بَيِّنَاتٍ » قَدَرَدَتْهُ  
أَيُّنَ ؛ لِأَنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنَ الْآيَاتِ . وَمِنْهَا أَنَّ الْقَارُونَ لَا يَمْلِكُوا الْبَيْتَ مَعِيهَا . وَمِنْهَا أَنَّ الْحَاجَّ  
يَطْلُبُ السُّعُودَ فَإِذَا دَخَلَ الْحَرَمَ زَكَاةً . وَمِنْهَا أَنَّ الْقَيْثَ إِذَا كَانَ نَاحِيَةَ الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ كَانَ الْحَصْبُ  
بِالْيَمَنِ ، وَإِذَا كَانَ بِنَاحِيَةِ الشَّامِ كَانَ الْحَصْبُ بِالشَّامِ ، وَإِذَا كَانَ الْبَيْتُ كَانَ الْحَصْبُ فِي جَمِيعِ  
الْبِلَادِ . وَمِنْهَا أَنَّ الْحَجَّارَ عَلَى مَا يُزَادُ عَلَيْهَا تُرَى عَلَى قَدَرٍ وَاحِدٍ . وَالْقَامِ مِنْ قَوْلِهِ : قُتِّ مَقْلَعًا ،  
وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُقَامُ فِيهِ . وَالْقَامِ مِنْ قَوْلِهِ : قُتِّ مَقْلَعًا . وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي الْبَقَرَةِ ، وَمَعْنَى  
الْخِلَافِ ؛ أَيْضًا فِي الْمَقَامِ وَالصَّحِيحِ مِنْهُ . وَارْتَضَعَ الْمَقَامَ عَلَى الْإِسْتِدَاءِ وَالتَّجَرُّعِ بِخُذُوفٍ ؛ وَالتَّضْدِيرِ  
مِنْهَا بِقَامِ إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ الْأَخْفَشُ . وَكَانَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ : « مَقَامٌ » بِمِثْلِ « آيَاتٍ » .  
وَلَيْسَ قَوْلُ ثَالِثٍ بِمَعْنَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ . وَقَوْلُ الْأَخْفَشِ سَرُوفٌ فِي كَلَامِ الرَّهْبِيِّ كَمَا قَالَ

زَيْدٌ : يَمِينُ :

لَهَا مَتَاعٌ وَأَعْوَانٌ غَدَوْنَ بِهِ \* قَتَبَ وَغَرَّبَ إِذَا مَا أُنْفِرَ أَنْسَحَفَا  
 أى مضى وبُعدَ ميلاته . وقول ابن عباس : إن مقاما بمعنى مقامات ؛ لأنه مصدر . قال الله تعالى : « حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » . وقال الشاعر :  
 \* إن العيون التي في طرفها مرض \*

أى في أطرافها . ويقوى هذا الحديث المروى « الحج مقام إبراهيم »

الخامسة - قوله تعالى : ( وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ) قال قتادة : ذلك أيضا من آيات الحرم . قال النحاس : وهو قول حسن ؛ لأن الناس كانوا يُحْطَفُونَ من حواله ، ولا يصل إليه جبار ، وقد وُصِلَ إلى بيت المقدس وتُرب ، ولم يوصل إلى الحرم . قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ لِأَهْلِ الْبَيْتِ إِحْسَابًا أَفِيلَ » . وقال بعض أهل المعاني : صورة الآية خبر ومعناها أمر ، بقدرها ومن دخله فأتوه ؛ كقوله : « قَلَّا رَقَّتْ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ » أى لا ترفعوا ولا تفسقوا ولا يجادلوا . ولهذا المعنى قال الإمام السابق الثمان بن ثابت : من اقترب ذنباً واستوجب به حداً ثم لحا إلى الحرم عصمه ، [ لقوله تعالى : ] « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » ؛ فأوجب الله سبحانه الأمن لمن دخله . وروى ذلك عن جماعة من السلف منهم ابن عباس وغيره من الناس . قال ابن العربي : « وكل من قال بهذا فقد وهم من جهتين : إحداهما أنه لم يفهم من الآية أنها خير عما مضى ، ولم يقصد بها إثبات حكم مستقبل . الثاني أنه لم يعلم أن ذلك الأمر قد ذهب وأن القتل والقتال قد وقع بعد ذلك فيها ، وخبر الله لا يقع بخلاف مجرته ؛ فدل ذلك على أنه كان في الماضي هذا . وقد ناقض أبو حنيفة فقال : إذا لحا إلى الحرم لا يطعم ولا يُسقى ولا يُعامل ولا يُكلم حتى يخرج فاضطروه إلى الخروج وليس يصح معه أمن . وروى عنه أنه قال : يقع القصاص في الأطراف في الحرم ولا أمن أيضا مع هذا » .

(١) قوله : لها متاع ، أى لهنه الثأنة التي يستق عليها . والقَتَبَ (بالكسر) : جمع أداة السائبة من أعلامها وحبالها . والسائبة : ما يسق عليه الزرع والحيوان من غير غيره . والغرب : الغلو القسوة .

(٢) عبارة ابن العربي في أحكام القرآن له : « ... فاضطراره إلى الخروج ليس صحيح فيه أبين » .

والجهود من العلماء على أن الحدود تُقام في الحرم ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل  
أبنِ خَطْلٍ وهو متعلق بأستار الكعبة .

قلت : وروى التورى عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس : من أصاب حداً أقيم  
عليه فيه ، وإن أصاب في الحِلِّ ولجا إلى الحرم لم يُكَلِّمْ ولم يبيع حتى يخرج من الحرم فيقتل  
عليه الحد ؛ وهو قول الشعبي . فهذه حجة الكوفيين ، وقد فهم ابن عباس ذلك من معنى الآية ،  
وهو خبر الأئمة وعالمها . والصحيح أنه قصد بذلك تنفيذ النعم على كل من كان بها جاهلاً ولما  
منكر من العرب ؛ كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » ؛  
فكانوا في الجاهلية من دخله ولجا إليه آمين من الغارة والقتل ؛ على ما يأتي بيانه في « المسألة »  
إن شاء تعالى . قال قتادة : ومن دخله في الجاهلية كان آمناً . وهذا حسن . وروى أن بعض  
المُحدِّثين قال لبعض العلماء : أليس في القرآن « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » فقد دخلناه وفعلنا كذا  
وكذا فلم يأمن من كان فيه ! قال له : أليس من العرب ! ما الذي يريد القائل من دخل  
داري كان آمناً ؟ اليس أن يقول لمن أطاعه : كُفَّ عنه فقد أئنته وكففت عنه ؟ قال بلى .  
قال : فكذلك قوله « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » . وقال يحيى بن جعدة : معنى « ومن دخله  
كان آمناً » يعني من النار .

قلت : وهذا ليس على عمومهِ ؛ لأن في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري حديث  
الشفاعة الطويل « قَوْلُ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مُنَادٍةً قَدْ فِي اسْتِغْثَاءِ الْحَقِّ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ قَدْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ رَبَّنَا كُنَّا يَوْمَئِذٍ يَصُومُونَ وَمَعْنَاهُ  
وَيُصَلُّونَ وَيُحْجِرُونَ فَيَقَالُ لِمَ أَنْزَلْتُمُوهُمْ مِنَ عَرْقِهِمُ » الحديث . وإنما يكون آمناً من النار من دخله لقضاء  
النُّسْكَ معظماً له عارفاً بحقه متقرباً إلى الله تعالى . قال جعفر الصادق : من دخله على الصفاء

(١) ابن خطل (الضريك) هو عبد الله بن خطل . وحمل من بين يمين علي بن أبي طالب . ثم قتل لأمر كان مسلماً  
فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مصفاً . يدعى به رجلاً من الأنصار وكان معه مولى بمحمد وكان مسلماً فزول منزلاً  
وأمر المولى أن يدبح له دجاجة فصنع له طعاماً فقام ؛ فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فغدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً . راجع  
تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام .

كما دخله الأنبياء والأولياء كان آتانا من عذابه . وهذا ، منى هو له عليه السلام : " من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة " . قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة . وأئند :

يا كعبة الله دعوة الآجي • دعوة مستشعر ومحتاح  
ودع أحبابه ومسكته • بغاء ما بين خائف راج  
إن يقبل الله سعيه كرما • نجا ، وإلا فليس بالناسج  
وأنت من تربي شفاعته • فأعطف على واقد بن حجاج

وقيل : المعنى ومن دخله عام عمرة القضاء مع محمد صلى الله عليه وسلم كان آتانا . دليله قوله تعالى : « لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » . وقد قيل : إن « من » هاهنا لا ينقل ، والآية في أمان الصديق ، وهو شاذ . وفي الترتيل : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُنُّ عَلَى بَيْتِهِ » الآية . قوله تعالى : ( وَبِهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ) فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَبِهِ ) اللام في قوله « وبه » لام الإيجاب والإلزام ، ثم أكد بقوله تعالى : ( عَلَى ) التي هي من أؤكد ألفاظ الوجوب ، فإذا قال العربي : فلان على كذا ، فقد وكده وأوجبه . فذكر الله تعالى الحج بأؤكد ألفاظ الوجوب تأكيداً لحقه وتفظيلاً لمعناه . ولا خلاف في فريضة ، وهو أحد قواعد الإسلام ، وليس يجب إلا مرة في العمر . وقال بعض الناس : يجب في كل خمسة أعوام ، وروى في ذلك حديثاً أسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والحديث باطل لا يصح ، والإجماع عدا في وجوبهم .

قلت : وذكر عبد الرزاق حديثاً سفيان عن العلاء بن المسيب عن أبيه عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الرب جل وعز إن عبداً أوسعت عليه في الرزق فلم يعد إلى في كل أربعة أعوام فحرم " مشهور من حديث العلاء بن المسيب بن رافع الكامل الكوفي من أولاد المحققين ، روى عنه غير واحد منهم من قال : في خمسة أعوام ،



ومنهم من قال : عن الصادق عليه السلام عن يونس بن جبان عن أبي سعيد في غير ذلك من الاختلاف .  
وأكثر المُلِمَّة الخُفَّاءُ : إن فيه تجريد النياب وذلك يخالف الحياء ، والسُّنِّي وهو يناقض  
الوقار ، وروى الجمار لنير مَرَمَى ذلك بضاد المعق ؛ فصاروا إلى أن هذه الأفعال كلها باطلة  
إذ لم يعرفوا لها حكمة ولا علة ، وجهلوا أنه ليس من شرط الموتى مع العبد أن يفهم المقصود  
بجميع ما يأمر به ولا أن يطلع على فائدة تكليفه ، وإنما يَتَمَيَّن عليه الاستئصال ، ويُلْزَمه الاعتقاد  
من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود . ولهذا المعنى كان عليه السلام يقول في تليته :  
« تَيْلِكَ حَقًّا حَقًّا تَبْدًا وَرِقًّا لَيْلِكَ إِلَهَ الْحَقِّ » . وروى الأئمة عن أبي هريرة قال : خطبنا  
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحُجُّوا » . فقال رجل :  
كل عام يا رسول الله ؟ فسَكَتَ ، حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ قُلْتُ  
نَمَ لَوَجِيتُ وَلَمْ اسْتَطِعْ » ثم قال : « فَرُّوْا ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسااتمهم  
واختلافهم على أنبيائهم فلما أصرركم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نبيكم عن شيء فدَعُوْهُ »  
لفظ مسلم . فبين هذا الحديث أن الخطاب إذا توجه إلى المكلفين بفرض أن يكفى منه فعل مرة  
ولا يقتضى التكرار ؛ خلافاً للاستاذ أبي إسحاق الأُسْفرَايْنِي وغيره . وثبت أن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال له أصحابه : يا رسول الله ، أجبنا لعامتنا هذا أم للأبد ؟ فقال : « لا بل للأبد » .  
وهذا نص في الرد على من قال : يجب في كل خمس سنين مرة . وقد كان الحج معلوماً عند  
العرب مشهوراً بينهم ، وكان مما يُرْضَبُ فيه لأسواقها وتبديرها ونعيمها ؛ فلما جاء الإسلام  
خُوطِبُوا بما علموا وأُزْمِوا بما عَرَفُوا . وقد حجَّ النبي صلى الله عليه وسلم قبل حج الفرض ، وقد  
وقف برفة ولم يغير من شَرع إبراهيم ما عَيَّرُوا ؛ حتى كانت قرش تحف بالمشتر الحرام  
ويقولون : نحن أهل الحرم فلا نخرج منه ، ونحن الجنس<sup>(١٢)</sup> . حسب ما تقدم بيانه في « البقرة » .  
قلت : من أعرب ما رأيت أن النبي صلى الله عليه وسلم حجَّ قبل الهجرة مرتين وأن  
الفرض سقط عنه بذلك ؛ لأنه قد أجلب ثلثه إبراهيم حين قيل له : « وَلَئِنْ فِي النَّاسِ

(۱) التبريد: الماء. (۲) الحسب: الأجر. وم قرين ومن فلت قرين وكلة ودية نس: سوا حلالهم نحو ما فيهم، أي تسعدوا. (۳) بائع: من يبيع. طبة: طينة.

بالج . قال الربيع الطبري : وهذا بعيد ، فإنه إذا ورد في شرعه : « وَفِيهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ » فلا بد من وجوبه عليه بحكم الخطاب في شرعه . ولئن قيل : إنما خاطب من لم يحج ، كان تحكما وتخصيصا لا دليل عليه ، ويلزم عليه ألا يجب بهذا الخطاب على من حج على دين إبراهيم ، وهذا في غاية البعد .

الثانية - ودل الكتاب والسنة على أن الحج على الترائي لأهل القور ، وهو تحصيل مذهب مالك فيما ذكر ابن خزيمة متناد ، وهو قول الشافعي ومحمد بن الحسن وأبي يوسف في رواية عنه . ونذهب بعض البغداديين من المتأخرين من المالكيين إلى أنه على القور ، ولا يجوز تأخيره مع القدوة عليه ، وهو قول داود . والصحيح الأول ، لأن الله تعالى قال في سورة الحج : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا » وسورة الحج مكية . وقال تعالى : « وَفِيهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ » الآية . وهذه الآية نزلت عام أحد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ولم يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سنة عشر . أما السنة فحدث ضيام بن ثعلبة السدوسي عن أبي سعد بن بكر فقدم على النبي صلى الله عليه وسلم فساله عن الإسلام فذكر الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج . رواه ابن عباس وأبو هريرة وأنس ، وفيها كلها ذكر الحج ، وأنه كان مفروضا ، وحدث أنس أنها سبأ وأبهما . واختلف في وقت فرضيته ؛ فقيل : سنة خمس . وقيل : سنة سبع . وقيل : سنة تسع ؛ ذكره ابن هشام عن أبي عبيدة الواقدي عام اختلف بعد أنصراف الأعراب . قال ابن عبد البر : ومن الدليل على أن الحج على الترائي لإجماع العلماء على ترك تحقيق القادر على الحج إذا أتته العام والمعين ونحوهما ، وأنه إذا حج من بعد أعوام من حين استطاعته فقد أدى الحج الواجب عليه في وقته . وليس هو عند الجميع كن فاتته الصلاة حتى خرج وقتها فقفها ما بعد خروج وقتها ، ولا كن فاتته صيام رمضان لمرض أو سفر فقفها ، ولا كن أفسد حجه فقفها . فلما أجمعوا على أنه لا يقال لمن حج بعد أعوام من وقت استطاعته : أنت قاض لما وجب عليك ، علمنا أن وقت الحج مؤس فيهِ وأنه على الترائي لأهل القور . قال أبو عمر : كل من قال بالترائي لا يجد في ذلك حجة ، إلا ما روى عن مجنون وقد سئل عن الرجل

يحييه سبحانه يبعث به فيؤخر ذلك إلى سنين كثيرة مع قدرته على ذلك هل يُنسى بتأخير الحج وُزِدَ شهادته؟ قال: لا وإن مضى من عمره ستون سنة، فإنا زائد على الستين نُسَقِّ ووددت شهادته. وهذا توقيف وحّد، والحدود في الشرع لا تؤخذ إلا عن له أن يُشرع.

قلت: وحكاية ابن خُوَيْرِثٍ عن ابن القاسم. قال ابن القاسم وغيره: إن أنحو ستين سنة لم يخرج، وإن أنحو بعد الستين خرج؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعمار أمي ما بين الستين إلى السبعين وقتل من يجاوزها» وكأنه في هذا العشر قد يتضابق عليه الخطاب. قال أبو عمر: وقد يحتج بعض الناس بقوله صلى الله عليه وسلم: «مُتَّكَ أَتَى مِنَ السَّيِّئِ إِلَى السَّيِّئِ وَقَدْ مَلَاحَظَ عَلَيْهِ» ولا تُجْزَأُ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ نَجْرَجٍ مِنَ الْأَغْلَابِ مِنْ أَعْمَارِ أَتَى لَوْ مَعَ الْحَدِيثِ. وفيه دليل على التوسعة إلى السبعين لأنه من الأغلب أيضا، ولا ينبغي أن يقطع بتسقيق من تحت عدائه وأما كتبه بتل هذا من التأويل الضعيف، وبالله التوفيق.

الثالثة - أجمع العلماء على أن الخطاب بقوله تعالى: (وَقَدْ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) عام في جميعهم مُسْتَرسل على جملتهم. قال ابن العربي: «وإن كان الناس قد اختلفوا في مطلق السموات، بيد أنهم اختلفوا على حل هذه الآية على جميع الناس ذكرهم وأنثاهم، خلا الصغير فإنه خارج بالإجماع عن أصول التكليف، وكذلك المبدل لم يدخل فيه؛ لأنه أخرجه عن مطلق السموم قوله تعالى: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» والمبدل غير مستطيع؛ لأن السيد يمتنع لحقونه من هذه العبادة. وقد قدم الله سبحانه حتى السيد على حقه رِقًا بالعبادة ومصلحة لهم. ولا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة، فلا تفرق بما لا تعرف، ولا دليل عليه إلا الإجماع». قال ابن المنذر: أجمع عامة أهل العلم إلا من شذ منهم ممن لا يمتد خلافا على أن الصبي إذا حج في حال صغره والمبدل إذا حج في حال رِقته ثم بلغ الصبي وعق السيد كان عليهما حجة الإسلام إذا وجدا إليها سبيلا. وقال أبو عمر: خالف أبو داود جماعة فقهاء الأمصار وأئمة الأئمة في الملوك وأنه عندهم مخاطب بالحق، وهو عند جمهور العلماء خارج من الخطاب العام في قوله تعالى: (وَقَدْ عَلَى

(١) حج (من باب طم) - أتم حديثه (٢) المرف: شبه القبان من الإجماع بالشيء.

التماس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، بدليل عدم التصرف ، وأنه ليس له أن يخرج من دار  
 سيده ، كما يخرج من خطاب الجمعة وهو قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلْعُمَّةِ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ  
 الْجُمُعَةِ الْآيَةُ - عند طاعة العلماء إلا من شذ . وكذا من خطاب إحياء الشهادة ، قل الله تعالى :  
 « وَلَا يَأْتِ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا نُودُوا » فلم يدخل في ذلك العبد . وجاء خروج العبد من قوله :  
 « وَنُودِيَ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ » وهو من الناس بدليل وقوع الظلم عنه ، ونجرت المرأة من قوله :  
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلْعُمَّةِ أَنْ يَخْرُجُوا » وهي من قبله آمم الإيمان ، وكذلك خروج العبد من  
 الخطاب المسدود . وهو قول فقهاء الجواز والقرآن والقام والمطهر ، وسلكهم لا يجوز عليهم  
 التصرف بأويل الخطاب ، لأن الرق : إذا كان حاضر المسجد الحرام والحق له سيده فلم لا يخرجه الحج ؟  
 قيل له : هذا سؤال على الإجماع وربما لا يقال ذلك ، ولكن إذا ثبت عند الحكم على الإجماع  
 استقلاله به على أنه لا يثبت بعبث في حال الرق عن حجة الإسلام ، وقد روى عن ابن عباس  
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَيُّمَا صَبِيٍّ حَجَّ ثُمَّ أَدْرَكَ عَلَيْهِ أَنْ يَصِغَ حُجَّةً أُخْرَى وَأَيُّمَا  
 أَعْرَابِيٍّ حَجَّ ثُمَّ خَافَ عَلَيْهِ أَنْ يَصِغَ حُجَّةً أُخْرَى وَأَيُّمَا بَدِيٍّ حَجَّ ثُمَّ أَدْرَكَ عَلَيْهِ أَنْ يَصِغَ حُجَّةً أُخْرَى » .  
 قال ابن العربي : « وقد تساءل بعض علمائنا فقال : إنما لم يوجب الحج على العبد . لأن أدن له  
 السيد لأنه كان كافراً في الأصل ولم يكن حج الكافر معتمداً به ، فليس ضرره عليه الرق ، فترى  
 مؤثماً لم يطالب بالحج ، وهذا فاسد من ثلاثة أوجه لا علموه ، أحدها - أن الكفار عندنا  
 ضابطون بدروع الشريعة ، ولا خلاف فيه في قول مالك ، الثاني - أن سائر العبادات تنزه  
 من صلاة وصوم مع كونه وظيفاً ، ولو فعلها في حال كفره لم يفتقر بها ، فربما أن يكون الحج  
 مثلاً . الثالث - أن الكافر قد ارتفع بالإسلام فوجب ارتفاع حكمه . فلو أن المصنف  
 ما ذكرناه من تحريم حقوق السيد . والله الموفق .

الرابعة - قوله تعالى : « مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » « مَنْ » في موضع شفع على بدل  
 الإضمار من الكل ، هذا قول أكثر المحققين . وأجاز الكشاف أن يكون « مَنْ » في موضع رفع  
 صحيح ، تقديره أن حج البيت مَنْ ، وقيل هي شرط . و « استطاع » في موضع بزم ، والجواب

مذوق: أ. من استطاع إليه - يد فعله الخ - زورى الدارقطني عن ابن عباس قال: قيل  
 يا رسول الله: أخرج كل عام، قال: «لا بل حجة»؛ قيل: فما السبيل، قال: «الزاد والراحلة».  
 رواه عن أنس وابن مسعود وابن عمر وجابر وعائشة وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وعن  
 علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «وفد على الناس حج البيت من  
 استطاع إليه سبيلا» قال ففضل عن ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أن تجد ظهر  
 بدير» - وأخرج حديث ابن عمر أيضا ابن ماجه في سننه، وأبو عيسى الترمذي في جامعهم  
 وقال: «ثبت حسن» والمعلل عليه عند أهل العلم أن الرجل إذا ملك رادا وراحلة وجب  
 عليه الحج. وإبراهيم بن يزيد هو الخويزي المكي، وقد تكلم فيه بعض أهل الحديث من قبل  
 حفظه. وأخرجاه عن وكيع والدارقطني عن صفان بن سعيد قالوا: حدثنا إبراهيم بن يزيد  
 عن محمد بن عباد عن ابن عمر قال: قام ريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله،  
 ما يوجب الحج؟ قال: «الزاد والراحلة» قال: يا رسول الله، فما الحاج؟ قال: «الثبث الثقل»<sup>(١)</sup>  
 وقام آخر فقال: يا رسول الله وما الحج؟ قال: «المع والثج» - قال: كم؟ يعني بالمع الصحيح  
 بالثبته والثج بحر البند؛ لفظ ابن ماجه - وهو قال إن الزاد والراحلة شرط في وجوب الحج:  
 عمر بن الخطاب، وأبو عبد الله وعبد الله بن عباس والحسن البصري وسعيد بن جبير وعطاء  
 ومجاهد. وإليه ذهب الشافعي والثوري وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد وإسحاق وعبد العزيز  
 ابن أمة وابن حبيب، وذكر عبدوس مثله عن ثخنون. قال الشافعي: الاستطاعة وجهان:  
 أحدهما أن يكون مستطيعا بدنه واجدا من ماله ما يملكه الحج. والثاني أن يكون معضوبا<sup>(٢)</sup>  
 في بدنه لا يثبت على حركته وهو قادر على من بطيحه إذا أمره أن يخرج عنه بأجرة وبغير أجرة،  
 على ما يأتي بيانه. أما المستطيع بدنه فإنه يلزمه فرض الحج بالكتاب بقوله عز وجل:  
 «من استطاع إليه سبيلا» - وأما المستطيع بالمال فقد لزمه فرض الحج بالنسبة بحديث  
 الخصيمه على ما يأتي. وأما المستطيع بنفسه وهو القوي الذي لا ملحقه مشقة غير محتملة  
 (١) مكرهه يقال سبته - ابن عمر (٢) التمس: طلب الثمرة، الخ: القوي الذي لا ملحقه مشقة غير محتملة.  
 (٣) في بعض الأصول: «غير بدني» - (٤) المعنوي: التمسيد.

في الركوب على الراحلة؛ فإن هذا إنما ملك الزاد والراحلة لزمه فرض الحج بنفسه، وإن لم الزاد والراحلة أو أهداهما سقط عنه فرض الحج؛ فإن كان قادراً على المشي مطيقاً له ووجد الزاد أو قدر على كسب الزاد في طريقه بصنعة مثل الخرز والحجارة أو نحوهما فالتسحب له أن يخرج ماشياً رجلاً كان أو امرأة. قال الشافعي: والرجل أقل عُتْراً من المرأة لأنه أقوى. وهذا عندهم على طريق الاستحباب لا على طريق الإيجاب. فاما إن قدر على الزاد بمسألة الناس في الطريق تركه له أن يخرج لأنه يصير كلاً على الناس. وقال مالك بن أنس رحمه الله: إذا قدر على المشي ووجد الزاد فعليه فرض الحج، وإن لم يجد الراحلة وقدر على المشي نظر؛ فإن كان مالكا للزاد وجب عليه فرض الحج، وإن لم يكن مالكا للزاد ولكنه يقدر على كسب حاجته منه في الطريق نظر أيضاً؛ فإن كان من أهل المروءات ممن لا يكتسب بنفسه لا يجب عليه، وإن كان ممن يكتسب كفايته بتجارة أو صناعة لزمه فرض الحج، وهكذا إن كانت عاداته مسألة الناس لزمه فرض الحج. وكذلك أوجب مالك على المطبق المشي الحج، وإن لم يكن معه زاد وراحلة. وهو قول عبد الله بن الزبير والشَّعْبِيّ وعكرمة. وقال الضحاك: إن كان شاباً قوياً صحيحاً ليس له مال فعليه أن يؤخره بأكله أو عقبه حتى يقضى حجه. فقال له قائل: كلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت؟ فقال: لو أن لأحدهم ميراً بمكة أكان تاركاً؟! بل ينطلق إليه ولو حياً، كذلك يجب عليه الحج. واحتج هؤلاء بقوله عز وجل: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا» أي مشاة. قالوا: ولأن الحج من عبادات الأبدان من فرائض الأعيان، فوجب ألا يكون الزاد من شروط وجوبها ولا الراحلة كالصلاة والصيام. قالوا: ولو مع حديث الخويزي الزاد والراحلة لحناء على عموم الناس والغالب منهم في الأقطار البعيدة. ونروج مطلق الكلام على غالب الأحوال كثيراً في الشريعة وفي كلام العرب وأشعارها. وقد روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب عن مالك أنه سئل عن هذه الآية فقال: الناس في ذلك.

(١) كذا في جميع نسخ الأصل. راجع في تفسير الطبري: «يا كاهن حتى...» وفي تفسير الفخر الرازي والبرهان: «...يا كاهن حتى...»

على بدر طاقهم ويُسرم وجلهم . قال أشهب مالك : أهو الزاد والراحلة ؟ ، قال : لا والله ، ما ذاك إلا على قدر طاقة الناس ، وقد يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على السير ، وآخر يقدر أن يمشى على رجله .

الخامسة — إذا وجدت الاستطاعة وتوجه فرض الحج ففرض الحج ففرض مائع كالغريم بمنه عن الخروج حتى يؤدى الدين ؛ ولا خلاف في ذلك . أو يكون له عيال يجب عليه نفقتهم فلا يلزمه الحج حتى يكون لم نفقتهم مدة غيبته لخطابه ورجوعه ، لأن هذا الإنفاق فرض على القور والحج فرض على الزاني فكان تقديم العيال أولى . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كفى بالمرء إمنا أن يُضيع من يقود " . وكذلك الأيوان يخاف الضيعة عليهما وعدم الموضع في التلطف بهما ، فلا سبيل له إلى الحج ؛ فإن مناه لأجل الشوق والوحشة فلا يلتفت إليه . والمرأة بمنها زوجها ، وقيل لا بمنها . والصحيح المنع ؛ لاسيما إذا قلنا إن الحج لا يلزم على القور . الحر لا يمنع الوجوب إذا كان غايه السلامة — كما تقدم بيانه في البقرة — . وعلم من نفسه أنه لا يئيد<sup>(١)</sup> ، فإن كان الغالب عليه العطش أو المئد حتى يسلط الصلاة فلا ، وإن كان لا يجد موضعا لسجوده لكثرة الزاكب وضيق المكان فقد قال مالك : إذا لم يستطع الركوع والسجود إلا على ظهر أخيه فلا يركبه ، ثم قل : أركب حيث لا يصل ! ويل لمن ترك الصلاة ! . ويسقط الحج إذا كان في الطريق عندو يطلب الأهنس أو يطلب من الأموال ما لم يتحدد بمدة مخصوص أو يتحدد بقدر محجف . وفي سقوطه بغير المحجف خلاف . وقال الشافعي : لا يعطى حبة ويسقط فرض الحج ، ويجب على التسؤل إذا كانت تلك عادته وغلب على ظنه أنه يجد من يعطيه . وقيل لا يجب ، على ما تقدم من مراعاة الاستطاعة .

السادسة — إذا زالت الموانع ولم يكن عنده من التأض ما ينج به وعنده عروض فيلزمه أن يبيع من عروضه للبح ما يباع عليه في الدين . وسئل ابن القاسم عن الرجل تكون له القرية

(١) رابع ج ٢ ص ١٩٤ طبة فائقة . (٢) المساك : الذي يركب البحر حتى يفسد من قن ماء .

(٣) التأض : الغرام والتأخير .

ليه، ثم غيرهما أيدها في حجة الإسلام ويترك ولده ولا شيء لم يمشون به. قال: نعم، فذلك عليه  
ويترك ولده في الصدقة. والصحيح القول الأول؛ لقوله عليه السلام: "كفى بالمرء إثمًا أن  
يُضَيِّعَ مَنْ يَمُوتُ" وهو قول الثاني. والظاهر من مذهبه أنه لا يلزم الحج إلا من له ما يكفيه  
من النفقة فأهبا وراجعا - فله في الإملاء - وإن لم يكن له أهل وعيال. وقال بعضهم: لا يستبر  
الرجوع لأنه ليس عليه كبير مشقة في تركه القيام ببلده؛ لأنه لا أهل له فيه ولا عيال وكل البلاد  
له وطن. والأول أصوب؛ لأن الإنسان يستوحش لفراق وطنه كما يستوحش لفراق سكنه.  
الآثر أن البكر إذا زنا جلد وغُرب عن بلده سواء كان له أهل أو لم يكن. قال الثاني في الأم:  
إذا كان له مسكن وخدم وله نفقة أهله بقدر غيته يلزمه الحج. والظاهر هذا أنه اعتبر أن يكون  
مال الحج فاضلا عن الخادم والسكن؛ لأنه قدمه على نفقة أهله، فكانه قال: بعد هذا كله.  
وقال أصحابه: يلزمه أن يبيع المسكن والخادم ويكتري مسكنا وخادما لأهله. فإن كان له  
بضاعة يقرضها ويبيعها قدر كفايته وكفاية عياله على الدوام، ومضى اتفاق من أصل البضاعة  
اختل عليه وبها ولم يكن فيه قدر كفايته، فهل يلزمه الحج من أصل البضاعة أم لا؟ قولان:  
الأول الجمهور وهو الصحيح المشهور؛ لأنه لا خلاف في أنه لو كان له عمار تكفيه غلته لزمه أن  
يبيع أصل العمار في الحج، فكذلك البضاعة. وقال ابن شريح: لا يلزمه ذلك ويُنقِ البضاعة  
ولا يبيع من أصلها؛ لأن الحج إنما يجب عليه في القاضل من كفايته. فهذا الكلام في الاستطاعة  
بالدين والمال.

السابعة - المريض والمضروب، والنصب القطع ومنه سُمي السيف غنبا، وكان من  
اتى إلى الآفقدان يستمسك على الراحة ولا يثبت عليها بمنزلة من قطعت أعضائه إذ لا يقدر  
على شيء. وقد اختلف العلماء في حكمهما بعد إجماعهم أنه لا يلزمهما المسير إلى الحج؛ لأن الحج  
إنما فرضه الله على المستطيع إجماعا، والمريض والمضروب لا استطاعة لهما. فقال مالك: إذا  
كان مسقويا سقط عنه فرض الحج أصلا، سواء كان قادرا على من ينج عنه بالمال أو غيره  
إسلام، لا يلزمه فرض الحج. ولو وجبت عليه الحج ثم عُصِبَ وزين سقط عنه فرض الحج؛



ولا يجوز أن يُحجَّ عنه في حال حياته بحال، بل إن أوصى أن يُحجَّ عنه بعد موته حُجَّ عنه من الثالث، وكان تطوعاً؛ واحتج بقوله تعالى: «وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَأَى» فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى. فن قال: إن له سعى غيره فقد خالف ظاهر الآية. ويقول تعالى: «وَقَدْ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ» وهذا غير مستطیع؛ لأن الحج هو قصد المكثف للبيت بنفسه، ولأنها عبادة لا تدخلها النيابة مع السجز عنها كالصلاة. وروى محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل يُدخل بالجمعة الواحدة ثلاثة الجنة الميتة والحاج عنه والمغفلة ذلك». نرحم الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد قال حدثنا عمرو بن حصين السدوسي قال حدثنا أبو مسهر عن محمد بن المنكدر؛ فذكره.

قلت: أبو مسهر اسمه نجیح وهو ضعيف عندهم. وقال الشافعي: في المريض الرمن والمضروب والشيخ الكبير يكون قادراً على من يعطيه إذا أمره بالحج عنه فهو مستطیع استطاعة تام. وهو على وجهين: أحدهما أن يكون قادراً على ما يستأجر به من يحج عنه فإنه يلزمه فرض الحج، وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، روى عنه أنه قال لشيخ كبير لم يحج: جئت رجلاً يحج عنك. وإلى هذا ذهب الثوري وأبو حنيفة وأصحابه وابن المبارك وأحمد وإسحاق. والثاني أن يكون قادراً على من يبذل له الطاعة والنيابة فيحج عنه، وهذا أيضا يلزم الحج عند الشافعي وأحمد وابن راهويه، وقال أبو حنيفة: لا يلزم الحج يبذل الطاعة بحال. استدل الشافعي بما رواه ابن عباس أن امرأة من خنثى سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يشهد على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حجة الوداع. في رواية: لا يستطيع أن يستوى على ظهر بعيره. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لخثني عنه أبايت لو كان على أهلك دين أكنيت فانيته»؟ قالت نعم. قال: «فدين الله أحق أن يقضى». فأوجب النبي صلى الله عليه وسلم الحج طاعة الله إياه وبذلها من نفسه له بأن يحج عنه؛ فإنما وجب ذلك

(١) في بعض النسخ: «وممن حجت»

بطاعة البنت له كان بأن يجب عليه بقدرته على المال الذي يستأجره أولى . فاما إن بذل له المال دون الطاعة فالصحيح أنه لا يلزمه قبوله والنجس به عن نفسه ولا يصير ببذل المال له مستطيما . وقال علماؤنا : حديث الخثعمية ليس مقصوده الإيجاب وإنما مقصوده الحث على بر الوالدين والنظر في مصالحهما دُنْيَا وَآخِرَةً وجلب المصلحة إليهما حيلة وشرعا فلما رأى من المرأة انفعالا وطواعية ظاهرة ورجعة صادقة في رعاها بابها وحرصا على إيصال الخير والثواب إليه ، وتأسفت أن تنفقه بركة الحج أجابها إلى ذلك . كما قال للأنصاري التي قالت : إن أتت نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال : " تحجّي عنها أرايت لو كانت على أمك دين أكنيت قاضيه ؟ " قالت نعم . ففى هذا ما يدل على أنه من باب التطوعات وإيصال البر والخيرات للاموات . ألا ترى أنه قد شبه فعل الحج بالدين . وبالإجماع لو مات ميت وعليه دين لم يجب على وليّه قضاؤه من ماله ، فإن تطوع بذلك تأدى الدين عنه ، ومن البلبال على أن الحج في هذا الحديث ليس بفرض على أيها ما صرحت به هذه المرأة بقومنا « لا يستطيع » ومن لا يستطيع لا يجب عليه . وهذا تصريح بنفى الوجوب وبفتح الف. بضمه : فلا يجوز ما انتهى في أول الحديث قطعا أن يثبت في آخره ظنا . بحقه قوله : " فما بين الله أحق أن يقضى " فإنه ليس على ظاهره إجماعا ؛ فإن دين العبد أولى بالقضاء ، وبه يبدأ إجماعا لنفقر الآدمي واستغناء الله تعالى ؛ قاله ابن العربي . وذكر أبو عمر بن عبد البر أن حديث الخثعمية عند مالك وأصحابه مخصوص بها . وقال آخرون : فيه اضطراب . وقال ابن وهب وأبو مصعب : هو حق في الولد خاصة . وقال ابن حبيب : جاءت الرخصة في الحج عن الكبير الذي لا منهض له ولم يحج وعمن مات ولم يحج أن يحج عنه ولده وإن لم يؤمس به ويجزئه إن شاء الله تعالى . فهذا الكلام على المعصوب وشبهه . وحديث الخثعمية أخرجه الأئمة ، وهو يدل على الحسن قوله : إنه لا يجوز حج المرأة عن الرجل .

التاسعة - وأجمع العلماء على أنه إذا لم يكن للكف قوت يتروده في الطريق لم يلزمه الحج . وإن وهب له أجنبي ألا يحج به لم يلزمه قبوله إجماعا ؛ لما يلحقه من الميت في ذلك . فلو كان رجل وهب لأبيه مالا فقد قال الشافعي : يلزمه قبوله ؛ لأن ابن الرجل من نفسه ولا ميتة عليه

في ذلك . وقال مالك وأبو حنيفة : لا يلزمه قبوله ؛ لأن فيه سقوط حرمة الأئمة ، إذ يقال : قد جُزأه وقد وفاه . والله أعلم .

الثامنة - - قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : المعنى ومن كفر بفرض الحج فلم يره واجبا . وقال الحسن البصري وغيره : إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر . وروى الترمذي عن الحارث عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ملك زانا وراحلة يُبْلَغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانياً وذلك أن الله يقول في كتابه **وَقَدْ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ** مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " . قال أبو عيسى : " هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفي إسناده مقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والحارث يُضَعَّفُ " . وروى نحوه عن أبي أمامة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما . وعن عبد الله بن جبير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته : " يا أيها الناس إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أي حال شاء إن شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا إلا أن يكون به عذر من مرض أو سلطان جائرا نصيب له في شفاعتي ولا وُورِدَ حَوْضِي " . وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلغه الحج فلم يحج أو عنده مال تحل فيه الزكاة فلم يزكه سأل عند الموت الرحمة " . فقل يا ابن عباس إنا كنا نرى هذا للكافرين . فقال : أنا أفرأ عليكم به قرأنا " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ** وَمَنْ يَقْعِلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَسْرَعْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ " . قال الحسن بن صالح في تفسيره : فأزكى وأج . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله عن الآية فقال : " من حج لا يرجو ثوابا أو جلس لا يخاف عقابا فقد كفر به " . وروى عن قتادة عن الحسن قال قال عمر رضي الله عنه : لقد هممت أن أبست رجالا إلى الأمصار فيظننهم إلى من كان له مال ولم يحج فيضربون عليه الجزية ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قلت : هذا خرج مخرج التلخيص ؛ ولهذا قال طلائعنا : تضمنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعد يتوجه عليه ؛ ولا يجوز أن يحج عنه غيره ؛ لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعد . والله أعلم . وقال سعيد بن جبير : لو مات جازي وله ميسرة ولم يحج لم أصل عليه .

قوله تعالى : قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ قوله تعالى : ( قُلْ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ) أي تصرفون عن دين الله من آمن . وفرا الحسن تصدون « ضم التاء وكسر الصاد » وهما لفتان : صد وأصد ؛ مثل صد اللهم وأصد إذا أنتن ، وضم وأخم أيضا إذا تغير . ( تَبِعُونَهَا عِوَجًا ) تطيلونها لها ، لحذف اللام ؛ مثل « وَإِنَّا كَالْهَمِّ » . يقال : بيت له كذا أي طلبته . وأبيت له كذا أي اعته . والعراج : الميل والزيج ( بكسر الهمزة ) في الدين والقول والعمل وما يخرج عن طريق الاستواء . و ( بالفتح ) في الحائط والحداد وكل شخص قائم ؛ عن أبي عبيدة وغيره . ومعنى قوله تعالى : « يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ » أي لا يقدرُونَ بِالْأَيُّوجِ عَنْ مَكَانٍ . وعاج بالمكان وعوج أقام ووقف . والمانح الواقف ؛ قال الشاعر :

هل أتم عابجون بنا لننا \* نرى العرسات أو اثر الخيام

والرجل الأعرج : السى الخلق ، وهو بين التوج . والتوج من الخيل التي في أوجها تحنيط . والأعرجية من الخيل تنسب إلى فرس كان في الجاهلية سابقا . ويقال : فرس تحنط إذا كان يبعد ما بين الرجلين غير متحجج ؛ وهو مدحج . ويقال : الحنط أعرج في السابقين . قال الخليل التحنيط يوصف في الشدة ، وليس ذلك بأعرجاج .

(١) لنا : لغة في قل . (٢) العرصة : كل بقعة بين الدروبس فيها بناء . وعرصة الهرة : وسطي .

قوله تعالى : ( وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ) أى عقلاء . وقيل : شهداء أن في التوراة مكتوبا أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام ، إذ فيه نصٌ محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله صل : يَتْلِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اِنْ طَلَبُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
الْكِتَابَ بِرُدُّكُمْ بَعْدَ اِيمَانِكُمْ كُفْرِيْنَ ﴿٥٥﴾

نزلت في يهودى أراد تجديد الفتنه بين الأوس والخزرج بعد انقطاعها بالتي صلى الله عليه وسلم ، فجلس بينهم وأنشدهم شعرا قاله أحد الحيين في حريمهم . فقال الحق الآخر : قد قل شاعرنا في يوم كذا وكذا ، فكلهم دخلهم من ذلك شئ ، فقالوا : تناولوا ترذ الحرب خدعنا كما كانت . فنادى هؤلاء : يا آل أوس . ونادى هؤلاء . يا آل خزرج ، فاجتمعوا واخذوا السلاح واصطفوا للقتال فزلت هذه الآية ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى وقف بين الصفتين فقرأها ورفع صوته ، فلما سمعوا صوته أُنصتوا له وجلسوا يستمعون ، فلما فرغ القوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا ييكون ، من عكرمة وابن زيد وابن عباس . ولقي فصل ذلك شاس بن قيس اليهودى ، دس على الأوس والخزرج من يذكهم ما كان بينهم من الحروب ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم اتهم وذكهم ، فعرف القوم أنها تزيم من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فالتقوا السلاح من أيديهم وبكروا وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع النبي صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، فأنزل الله عز وجل ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا بَنَى الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ فِي إِنْ تَطْلُبُوا فِرْقَانِ الْبَيْنِ أَوْفُوا بِالْكِتَابِ ) بيني شلأ واصحابه . ( يَذُوكُمْ بَعْدَ مَا كُنْتُمْ كَافِرِينَ ) قال جابر بن عبد الله : ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوما إلينا بيده فكففتنا وأصلح الله تعالى ما بيننا ، فإكان نخش أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرايت يوما أفتح ولا أوحش أولأ وأحسن آخرأ من ذلك اليوم .

قوله تعالى : وَيَكْفُرُوا وَاتَّخَذُوا عَلَيْكُمُ الْآيَاتِ اللَّهَ وَيَفْكُرُوا  
رَسُولَهُ . وَمِنْهُمْ مَعْصِمٌ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَىٰ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾

قاله تعالى على جهة التعجب ، أى وكيف تكفرون . ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْتَهِى عَنِ اللَّهِ ﴾ .  
 يعني القرآن . ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ . محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : كان بين الأرض  
 والخروج قتال وشر في الجاهلية ، فذكروا ما كان بينهم فثار بعضهم على بعض بالسيف ، فأبى  
 النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فذهب إليهم ؛ فتركت هذه الآية « وكيف تكفرون  
 وأنتم تَنْتَهِى عَنِ اللَّهِ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ » - إلى قوله تعالى : فَأَهْذَكُم مِّنْهَا « ويدخل في هذه  
 الآية من لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ما نبيهم من سُنَّته يقوم مقام رؤيته ، قال الزجاج :  
 يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد خاصة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيهم  
 وهم يشاهدونه . ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة ؛ لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذى  
 أوتى فيها مكان النبي صلى الله عليه وسلم فيها وإن لم نشاهده . وقال قتادة : في هذه الآية علامة  
 يتبين : كتاب الله ونبي الله ؛ فأما نبي الله فقد مضى ، وأما كتاب الله فقد أبقاء الله بين أظهرهم  
 رحمة ونعمة ؛ فيه حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته . ﴿ وَكَيْفَ ﴾ في موضع نصب ، وفتحت  
 الفاء عند الخليل وسيبويه لالتقاء الساكنين ، واختير لها الفتح لأن ما قبل الفاء ياء فتقل أن  
 يعموا بين ياء وكسرة . قوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ ﴾ أى يتبع ويتمسك بدينه وطاعته . ﴿ فَقَدْ هَدَى ﴾  
 وفق وأرشد ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . ابن جرير « يَتَّبِعُ بِاللَّهِ » يؤمن به . وقيل : المعنى  
 ومن يتبع بالله أى يتمسك بحبل الله ، وهو القرآن . يقال : أعصم به واعتصم ، وعمد  
 واستمسك إذا امتنع به من غيره . واعتصمت فلانا حيات له ما يتيسر به . وكل متمسك  
 بشئ ، مُعَصِمٌ ومُعْتَمِدٌ . وكل مانع شئ فهو عاصم ؛ قال الفرزدق :

أنا ابن العاصمين نبي نعيم \* إذا ما أعظم الحداث نايًا

قال النابغة :

يظل من خوفه الملاح مستحيًا \* بالخير زانة بعد الأيمن والنبي

(١) الخيزرانة : المكان ، يعرف ببقية . ولنجيد ( بالتحريك ) : الفرق من عمل أوركب أو غيره .

وقال آخر :

فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُصِيبٌ • وَالنَّيْ بِأَسْبَلٍ لَهُ وَتَوَكَّلَا  
وعصمه الطعام : منع الجوع منه ؛ تقول العرب : عصمه الطعام أى منعه من الجوع ؛ فكثروا  
السويق بأبي عامر لذلك . قال أحد بن يحيى : العرب تُسمي الخبز عصما وجارا ؛ وأنشد :  
فلا تلويبنى ولوى جارى • بخار كلفنى المواجهرا  
ويُسمونه عامرا . وأنشد .

أبو مالك يتاذى بالطهار • يحيى فلق رحله عند عابر

أبو مالك كنية الجوع .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ  
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٥٦﴾

فيه مسألة واحدة :

روى الناس عن مرة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَقُّ  
تَقَاتِهِ » أن يطاع فلا يعصى وأن يكفر فلا يُكفّر » وقال ابن عباس :  
هو ألا يعصى طرفة عين . وذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله  
من يقوى على هذا ؛ وشق عليهم فأزل الله عز وجل « فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ونسخت هذه  
الآية ؛ عن قتادة والزبيح وابن زيد . قال مقاتل : وليس في آل عمران من المنسوخ شيء  
إلا هذه الآية . وقيل : إن قوله « فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » بيان لهذه الآية . وللعنى :  
فأتقوا الله حق تقاته ما استطعتم ، وهذا أصوب ؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع  
والجمع ممكن فهو أولي ؛ وقد روى عن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قال الله « يَا أَيُّهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ » لم تُنسخ ، ولكن « حَقُّ تَقَاتِهِ » استُبدل بـ « مَا اسْتَطَعْتُمْ »

(١) مراسل بن جرير : كان الناجدة توضع في

جهاده ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، وشعروا بالقسط وار على أنفسكم وإبناكم . قال الناس : وكلما ذكر في الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ . وقد مضى في البقرة معنى قوله تعالى : ( وَلَا تَتَوَكَّلْ إِلَّا وَآنتُمْ سَالِفُونَ )<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : وَأَعِصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ<sup>(٢)</sup>

فيه ثلاثان :

الأول - قوله تعالى : ( وَأَعِصِمُوا ) العِصْمَةُ المُنْعَةُ ؛ ومنه يقال البرزقة : عِصْمَةٌ . والبرزقة : الخفارة القافلة ، وذلك بأن يرسل معها من يجيها بمن يؤفها . قال ابن أبي خالويه : البرزقة لست بعربية وإنما هي كلمة فارسية عربتها العرب ؛ يقال : بث السلطان برزقه مع القافلة .

والحبل لفظ مشترك ، وأصله في اللغة السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة . والحبل : حبل العائق<sup>(٣)</sup> . والحبل : مستطيل من الزبد ؛ ومنه الحديث : والله ما تركت من حبل إلا وقتت عليه ، فهل لي من حج ؛ والحبل الرسن . والحبل العهد . قال الأعمش : وإذا تجوزها جبال قليلة . أخذت من الأخرى إليك جبالها يريد الأمان . والحبل الحاجة ؛ قال كثير :

فلا تميل يا عمر أن تنهني • بنصح أبي الواثون أم محبول

(١) راجع ٢ من ١٣٤ طبة ثانية . (٢) حبل العائق : عصبة بين الشق والكتب .

(٣) في الأصول : « عليه » . والصواب من اللسان وشرح القاموس مادة « حبل » .



والجبال : جبال الصائد . وكلها ليس مراداً في الآية إلا الذي بمعنى العهد ؛ عن ابن عباس :  
وقال ابن مسعود : جعل الله القرآن . ورواه علي وأبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله  
عليه وسلم ، وعن مجاهد وقنادة مثل ذلك . وأبو معاوية عن المجري عن أبي الأحوص عن  
عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن هو جبل الله " . وروى  
تقي بن مخلد حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب عن الشعبي عن  
عبد الله بن مسعود : واعتصموا بجبل الله جيماً ولا تفرقوا . قال : الجماعة ؛ وروى عنه  
من وجوه ، والمعنى كله متقارب متماثل ؛ فإن الله تعالى يأمر بالآفة وبنهى عن الفقة فإن  
الفرقة حكمه والجماعة نجاه . ورحم الله ابن المبارك حيث قال :

إن الجماعة جبل الله فاعتصموا . منه بمروره الوقت لمن دنا

الثانية - قوله تعالى : ( وَلَا تَفْرُقُوا ) كما افرقت اليهود والنصارى في أديانهم ؛  
عن ابن مسعود وغيره . ويعوز أن يكون معناه ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المتبعة ،  
وكونوا في دين الله إخواناً ؛ فيكون ذلك منعاً لهم عن التقاطع والتدابير . ودل عليه ما بعده وهو  
قوله تعالى : " وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْتِهِ  
إِخْوَانًا " . وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع ؛ فإن ذلك ليس اختلافاً إذ الاختلاف  
ما يمتد منه الائتلاف والجمع وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج  
القرائن ودقائق معاني الشرع ؛ وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث ، وهم مع  
ذلك متآلفون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اختلاف أمتي رحمة " وإنما منع الله  
اختلافاً هو سبب الفساد . روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم قال : " فترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وأتتني سبعين فرقة والنصارى  
مثل ذلك وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة " . قال الترمذي : هذا حديث صحيح .  
وأخرجه أيضاً عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تأتني على ما أتني  
(١) المهيري : ياء وهم غرضين ، صفة الجهر - وهو إبراهيم ابن سلم الهذلي . ( عن تهاب التزيبي ) .

على بني إسرائيل حذو النعل بالمثل حتى لو كان منهم من يأتي أمة علانية لكان من أمي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرقت اثنتي وسبعين ملة وعثرت أمي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » .

أخرجه من حديث عبد الله بن زياد الأفرقي عن عبد الله بن يزيد عن ابن عمر ، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . قال أبو عمر : وعبد الله الأفرقي ثقة وثقة قومه وأتوا عليه ، وضعفه آخرون . وأخرجه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم : « قال ألا إن من قبلكم من أهل الكلاب افتروا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الملة ستفرق على ثلاث وسبعين فثلاث وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة وإنه سيخرج من أمي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء كما تجاري الكلب<sup>(١)</sup> بصاحبه لا يتق منه عرق ولا يفصل إلا دخله » . وفي سنن ابن ماجه « عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات والله عنه راض » . قال أنس : وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبيده . عن وهب قبل هرج الأحداث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل ، يقول الله : « قُلْ تَابُوا » قال : خَلَعُوا الْأَوْتَانِ وعبادتها « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ » ، وقال في آية أخرى : « قُلْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَاخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » . أخرجه عن نصر بن علي الجهضمي عن أبي أحمد عن أبي جعفر الرزدي عن الربيع بن أنس عن أنس . قال أبو الفرج البخاري : فإن قيل هذه الفرق معروفة ، فالجواب أنا نعرف الافتراق وأصول الفرق وإن كل طائفة من الفرق انقسمت إلى فرق وإن لم نخط باسماء تلك الفرق ومذاهبها ، فقد ظهر لنا من أصول الفرق الحزبية والتدنية والجهمية والمرجئة والرافضة والجبرية . وقال بعض أهل العلم : أصل الفرق الضلالة هذه الفرق الست . وقد انقسمت كل فرقة منها اثني عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة .

(١) الكلب ( بالريك ) : دا . يمرض الإنسان من عض الكلب فيمضيه شيء الجنون ، فلا يرض أحدا إلا كلب ، وتمرض له أعراض دنية ، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا .

انقسمت الحرورية اثني عشرة فرقة؛ فأولم الأزرقيّة<sup>(١)</sup> - قالوا: لا نعلم أحدا مؤمنا؛ وكفروا أهل القبلة إلا من دان بقولهم. والأباضية - قالوا: من أخذ بقولنا فهو مؤمن، ومن أعرض عنه فهو منافق. والنعلية - قالوا: إن الله عز وجل لم يقض ولم يقدر. والخلازمية - قالوا: لا تدرى ما الإيمان، والخلق كلهم معذورون. والخلفية - زعموا أن من ترك الجهاد من ذكر وأثنى كفر. والكوزية<sup>(٢)</sup> - قالوا: ليس لأحد أن يمس أحدا لأنه لا يعرف الطاهر من النجس ولا أن يؤاكله حتى يتوب ويتنسل. والكترية - قالوا: لا يسع أحدا أن يعطى ماله أحدا؛ لأنه ربما لم يكن مستحقا بل يكفزه في الأرض حتى يظهر أهل الحق. والشمرانية - قالوا: لا بأس بمس النساء الأجانب لأنهم رياحين. والأخفسية - قالوا: لا يلحق الميت بعد موته خير ولا شر. والحكيّة - قالوا: من حاكم إلى مخلوق فهو كافر. والمعتزلة - قالوا: أشبه علينا أسرا على معاوية فنحن سبأ من الفريقين. والميمونية - قالوا: لا إمام إلا برضا أهل محبتنا.

وانقسمت القدرية اثني عشرة فرقة: الاحورية - وهي التي زعمت أن في شرط العدل من الله أن يملك عباده أمورهم، ويحول بينهم وبين معاصيهم. والثنوية - وهي التي زعمت أن الخير من الله والشر من الشيطان. والمعتزلة - وهم الذين قالوا بخلق القرآن ومجدوا الربوبية. والكيسانية - الذين قالوا: لا تدرى هذه الأفعال من الله أو من المباد، ولا نعلم أسباب الناس بعد أو يعاقبون. والشيطانية - قالوا: إن الله تعالى لم يخلق الشيطان، والشريكية - قالوا: إن النيات كلها مقدرّة إلا الكفر. والوهمية - قالوا: ليس لأفعال الخلق وكلامهم ذات، ولا للسنّة والسنة ذات. والزيّرية - قالوا: كل كذاب تزل من عند الله فالعمل به حق، فامتنعوا أو منسوخا. والمسعدية - زعموا أن من عمى ثم تاب

(١) لم نجد بعض أسماء هذه الفرق التي سذكرها المؤلف في كتب الكلام التي بين أيدينا؛ ولعلنا لم نوفق لتحرير هذا البعض. (٢) اضطربت الأصول في رسم هذه الكلمة فمن بعض «الكوزية» يروا ودا. وفي بعض «الكروية» يراء. ولرب.

لم يقبل توبته . والتاكية - زعموا أن من نكث بيمينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا إثم عليه . والفليطية - تبعوا إبراهيم بن النظم في قوله : من زعم أن الله شيء فهو ليس بكافر . وأقسمت الجهمية اثنتي عشرة فرقة : المعطلة - زعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق ، وأن من أذعى أن الله يرى فهو كافر . والمريسية - قالوا : أكتصر صفات الله تعالى مخلوقة . والمترفة - جعلوا الباري سبحانه في كل مكان . والواردية - قالوا لا يدخل النار من صرف ربة ، ومن دخلها لم يخرج منها أبدا . والزنادقة - قالوا : ليس لأحد أن يثبت لنفسه ربا ، لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس ، وما لا يدرك لا يثبت . والحرقية - زعموا أن الكافر تحرقه النار مرة ثم يبقى عتقا أبدا لا يحذر النار . والمخلوقة - زعموا أن القرآن مخلوق . والغانية - زعموا أن الجنة والنار يغنيان ، ومنهم من قال لم يخلقا . والبيدية - زعموا أن الرسل وقالوا إنما هم حكاة . والواقفية - قالوا : لا تقول إن القرآن مخلوق ولا غير مخلوق . والقبرية - يتكبرون عذاب القبر والشفاعة . واللفظية - قالوا : لفظنا بالقرآن مخلوق .

واقسمت المرجئة اثنتي عشرة فرقة : التاكية - قالوا : ليس لله عز وجل على خلقه فريضة سوى الإيمان به ، فمن آمن فليعمل ما شاء . والسايبة - قالوا : إن الله سبب خلقه ليعملوا ما شاءوا . والزاجية - قالوا : لا يسمى الطائع طائعا ولا العاصي عاصيا ، لأننا لا ندرى ما له عند الله تعالى . والسالية - قالوا : الطاعة ليست من الإيمان . والبيشية - قالوا : الإيمان علم ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر . والعملية - قالوا : الإيمان عمل . والمنقوصية - قالوا : الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمستثنية - قالوا : الاستثناء من الإيمان . والمثبته - قالوا : بصر كصبر ويديك . والحشوية - قالوا : حكم الأحداث كلها واحد ، فندم أن تارك القتل تشارك الفرض . والظاهرية - الذين فوا القياس . والبدعية - أول من ابتاع الأحداث في هذه الأمة .

(١) اضطرت الأصول في وصف هذه الكلمة « غير مضى » القبرية « وفي مضى الآخر » البشيرية .

واقسمت الراضة اثنتي عشرة فرقة : القلوية — قالوا : إن الرسالة كانت إلى عليٍّ وإن جبريل أملاً . والأمرية — قالوا : إن علياً شريك محمد في أمره . والشيعية — قالوا : إن علياً رضي الله عنه وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم وزلي من بعده ، وإن الأمة كفرت بما يمايه غيره . والإسماعيلية — قالوا : إن النبوة متصلة إلى يوم القيامة ، وكل من يعلم علم أهل البيت فهو نبي . والتاوسية — قالوا : علي أفضل الأمة ، فمن فضل غيره عليه فقد كفر . والإمامية — قالوا : لا يمكن أن تكون الدنيا غير إمام من ولد الحسين ، وإن الإمام يعلمه جبريل عليه السلام ، فإذا مات بطل غيره مكانه . والزيدية — قالوا : ولد الحسين كلمة أئمة في الصلوات ، فلي وجد منهم أحد لم تجز الصلاة خلف غيرهم ، برهم وقايرهم . والعباسية — زعموا أن عباس كان أولى بالخلافة من غيره . والتنجية — قالوا : الأرواح تتنازع ، فمن كان أحسنها خرجت روحه فدخلت في خلق يسعد بعيشه . والرعية — زعموا أن علياً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا ، وينقمون من أعدائهم . واللاعة — يلمنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشة وغيرهم . والمتربعة — تشبهوا بزي النساك ونصبوا في كل عصر وجلاً ينسبون إليه الأمر ؛ يزعمون أنه مهدي هذه الأمة ، فإذا مات نصبوا آخر .

ثم انقسمت الجبرية اثنتي عشرة فرقة : ففهم المضطربة — قالوا : لا فعل للادى ، بل الله يفعل الكل . والأفعالية — قالوا : لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها ، وإنما نحن كالبهايم نقاد بالهبل . والمفروغية — قالوا : كل الأشياء قد خلقت ، والآن لا يخلق شيء . والتجارية — زعمت أن الله تعالى يعذب الناس على فعله لا على فعلهم . والمثانية — قالوا : عليك بما يحظر بقلبك ، فاضل ما توسمت منه الخير . والكسبية — قالوا : لا يكتسب البعد ثواباً ولا عقاباً . والسابقة — قالوا : من شاء فليفعل ومن شاء لم يفعل ، فإن السعيد لا تضره ذنوبه والشقي لا ينفعه بره . وألحية — قالوا : من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان . والخوفية — قالوا : من أحب الله تعالى لم يسه أن يخافه لأن الحبيب لا يخاف حييه . والفكرية<sup>(١)</sup> — قالوا : من ازداد علماً سقط عنه بقدر ذلك من العبادة .

(١) اضطرت الأمور في رسم هذه الكلمة ؛ فمن بعض : « النكرة » ، ومن بعض : « الفكرة » .



وَأَنقَى عَلَى النَّاسِ أَشْرَفَ عَلَيْهِ ؛ وَمَنْ أَشْفَى الْمَرِيضَ عَلَى الْمَوْتِ . وَبَاقِي مِنْهُ إِلَّا شَفَاءَ أَيْ قَلِيلٍ . قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ : قَالَ الرَّبِيعُ عِنْدَ مَوْتِهِ وَالْقَمَرُ عِنْدَ أَتَمِّهِ وَالشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا : مَا بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا شَفَاءُ ، أَيْ قَلِيلٌ . قَالَ الصَّبَّاحُ :  
وَمَرَدًا عَلَى لَبْسٍ تَشْرِيقًا . أَشْرَقَتْهُ بِلَا شَيْءٍ أَوْ بِشَيْءٍ

قوله « وَلَا شَيْءَ » أَيْ غَابَتِ الشَّمْسُ . « أَوْ بِشَيْءٍ » وَقَدْ بَقِيَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . وَهَذَا مِنْ ذَوَاتِ الْيَاءِ ، وَفِيهِ لَفْظٌ أَنَّهُ مِنَ الْوَاوِ . وَقَالَ النَّحَّاسُ : الْأَصْلُ فِي شَفَاءَ شَفَوْا ، وَلِهَذَا يُكْتَبُ بِالْأَلْفِ وَلَا يَمَلُ . وَقَالَ الْأَخْفَشُ : لَمَّا لَمْ يَجْزِ فِيهِ الْإِمْلَاءُ عُرِفَ أَنَّهُ مِنَ الْوَاوِ ، وَلِأَنَّ الْإِمْلَاءَ بَيْنَ الْيَاءِ ، وَتَشْبِيهُ شَفَوَانِ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ : وَهَذَا تَمْثِيلٌ يُرَادُ بِهِ خُرُوجُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ .  
قوله تسأل : وَلَكِنْ مَنَكُمُ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخُلْعِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ . وَ« مِنْ » فِي قَوْلِهِ « مَنَكُمُ » لِلتَّبْيِضِ . وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْأَمْرَيْنِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَا عِلَاءً وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَيْهِمَا . وَقِيلَ : لِيَأْنِ الْجُلُوسِ . وَلِلنَّهْيِ لَتَكُونُوا كُلُّكُمْ كَذَلِكَ .

قلت : القول الأول أصح ؛ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرَضَ عَلَى الْكِنَايَةِ ، وَقَدْ عَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : « الَّذِينَ إِنْ مَنَّكُمُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ » الْآيَةَ . وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ مُبَكَّنًا . وَهَذَا ابْنُ الزَّيْدِ : « وَلَكِنْ مَنَكُمُ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخُلْعِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَسْتَبِينَونَ اللَّهُ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » . قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ : وَمَعْنَاهُ الزِّيَادَةُ تَقْسِيرًا مِنْ ابْنِ الزَّيْدِ ، وَكَلَامٌ مِنْ كَلَامِهِ غَلَطَ فِيهِ بَعْضُ الْبَاقِينَ فَخَلَفَهُ بِالْفَاظِ الْقُرْآنِ ؛ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا أَصَفَ الْحَدِيثُ الَّذِي حَدَّثَنِيهِ أَبِي حَدَّثَنَا ابْنُ عَرَبَةَ حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ عَنْ أَبِي عَاصِمٍ عَنْ ابْنِ عَوْنٍ عَنْ صَبِيحٍ قَالَ : سَمِعْتُ عُمَانَ بْنَ عَفَّانَ يَقْرَأُ « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » وَيَسْتَبِينَونَ اللَّهُ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » ؛ فَمَا يَشْكُ عَاقِلٌ فِي أَنَّ عُمَانَ لَا يَتَقَدَّرُ فِيهِ الزِّيَادَةُ مِنْ

القرآن ، إذ لم يكتب في مصحفه الذي هو لإمام المسلمين ، وإنما ذكرها وأعطأ بها ومؤكدا  
ما تقدمها من كلام رب العالمين جل وعلا .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ  
الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٥﴾

• معنى اليهود والنصارى في قول جمهور المفسرين . وقال بعضهم : هم المبتدعة من هذه  
الأمة . وقال أبو أمامة : هم الحرورية ، وثلا الآية . وقال جابر بن عبد الله : « الذين تفرقوا  
واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » اليهود والنصارى . « جامع » مذكر على الجمع ،  
وجاءهم على الجماعة .

قوله تعالى : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ  
وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٥٦﴾  
وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٧﴾  
فيه ثلاث مسائل .

الآولى - قوله تعالى : ( يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ) معنى يوم القيامة . حين  
يشنون من قلوبهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة ووجوه الكافرين مسودة . ويقال : إن  
ذلك عند قراءة الكتاب ، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى في كتابه حسنة استبشر وأبيض وجهه ،  
وإذا قرأ الكافر والمتناقض كتابه فرأى فيه سيئة أسود وجهه . ويقال : إن ذلك عند الميزان  
إذا رجحت حسنة أبيض وجهه ، وإذا رجحت سيئة أسود وجهه . ويقال : ذلك عند  
قوله : « وَأَمَّا يَوْمَ الْفَتْحِ نَبَأُ الْفَائِزِينَ » . ويقال : إذا كان يوم القيامة يؤمر كل فريق بأن  
يخضع إلى صبيبه فلما انتهوا إليه حزنوا وأسودت وجوههم ، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب  
الناشقون ، فيقول الله تعالى للمؤمنين : « مَنْ رَبِّكُمْ ؟ » فيقولون : « رَبَّنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » فيقول



لم . « أترفونه إذا رأيتموه » . فيقولون : سبحانه ! إذا أعترف عرفناه . فبرونه كما شاء الله . فيختر المؤمنون محبة الله ، فتصير وجوههم مثل الطلج بيضاء ، ويبقى المنافقون وأهل الكتاب لا يقدرّون على السجود فيحزنوا وتسود وجوههم ؛ وذلك قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » . ويحسوز « تبيض وتسود » بكسر التاءين ؛ لأنك تقول : ابيضت ، فكسر التاء كما تكسر الألف . وهي لغة تميم وبها قرأ يحيى بن وثّاب . وقرأ الزمخري « يوم تبيض وتسود » ويحسوز كسر التاء أيضا . ويحسوز « يوم يبيض وجوه » بالياء على تكثير الجمع . ويحسوز « أجوه » مثل أقتت . وأبيضاض الوجوه إشراقها بالنعيم . وأسودادها هو ما يرهقها من المذاب الأليم .

الثانية — واختلفوا في التمين ؛ فقال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة .

قلت : وقول ابن عباس هذا زواه مالك بن سليمان المروزي أخو غسان عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » قال : « يعني تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة » ذكره محمد ابن علي بن ثابت الخطيب . وقال فيه : « منكر من حديث مالك . قال عطاء : تبيض وجوه المهاجرين والأنصار ، وتسود وجوه بني قريظة والنضير . وقال أبي بن كعب : الذين أسودت وجوههم الكفار ، وقيل لم : « أكفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أنزجتم من ظهر آدم كالنزة هذا اختيار الطبري . الحسن : الآية في المنافقين . قتادة : في المرتدين . عكرمة : هم قوم من أهل الكتاب كانوا مصدقين بآياتهم مصدقين بحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث عليه السلام كفروا به ؛ فذلك قوله : « أكفرتم بعد إيمانكم » . وهو اختيار الزجاج . مالك بن أنس : هي في أهل الأخوة . أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم : هي في الحرورية . وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال : « هي في القدرية » . روى الترمذي عن (١) هذه عبارة ابن الأثير ، أي إذا وصف نفسه جفة تخفف بها عرفاء . وفي الأصول : إذا « عرفناه » .

أبي غالب قال : رأى أبو أمامة رعوياً منصوباً على باب دمشق<sup>(١)</sup> ، فقال أبو أمامة : كلاب النار شرُّ قتل تحت أديم السماء ، خير قتل من قتله - ثم قرأ - « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه »  
 إلى آخر الآية . قلت لأبي أمامة : أنت سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو لم أسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً حتى عد سبعا ما حدثتكموه .  
 قال : هذا حديث حسن . وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني فرطكم على الحوض من مرة على شربون شرب لم يظما أبداً ليردن على أقوام أعيرهم ويمرّفوني ثم يحال بيني وبينهم » . قال أبو حازم : فسمعت الثّمان بن أبي عياض فقال : هكذا سمعت من سهل بن سعد ؟ قلت نعم . قال : أشهد على أبي سعيد الخدريّ لسمعه وهو يزيد فيها : « فأقول إنهم متى يقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول محققاً محققاً لمن غيري بعدى » . وعن أبي هريرة أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يرد على الحوض يوم القيامة رطط من أحمأبي فيجولون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أديابهم القهقريّ » . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . فمن يذل أو غير أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم ياذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبيدين منه المسودى الوجوه ، وأشدّهم طرداً وإساداً من خالف جماعة المسلمين وقاروق سبلهم ؛ كالخوارج على اختلاف فرقها والروافض على تباين ضلالها والمعتزلة على أصناف أهوائها ؛ فهؤلاء كلهم مبدلون ومبتدعون . وكذلك الظّامة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم ، والمعتنون بالكنائر المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزينة والأهواء والبدع ؛ كلّ يخاف عليهم أن يكونوا عنراً بالآية ، والخبر كما بينا . ولا يتخذ في النار إلا كائناً جاحداً ليس في قلبه منقلابة حية تحريك من إيمان . وقد قال ابن القاسم : وقد يكون من غير أهل الأهواء من هو شر من أهل الأهواء . وكان يقول : تمام الإخلاص تجنب المعاصي .

(١) . في صحيح القرطبي : « على دوج مسجد دمشق » . (٢) القرطبي (بختين) : إلى القى يقيم  
 الرازيين ليعلم لم الحياض . (٣) أبو حازم هو سبط بن دينار ، أحد رجال سنة هذا الحديث .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَسَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ في الكلام حذف ، أى يقال لم أكفرتم بعد لإيمانكم ، يعنى يوم الميثاق وسين قالوا بلى . ويتال : هذا لليرد وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به . وقال أبو العالية : هذا للنافقين ، يقال أكفرتم في السر بعد إقراركم في العلانية . وأجمع أهل العربية على أنه لا بد من النفاء في جواب « أما » لأن المعنى في قولك : « أما زيد فتطلق » مهما يكن من شيء فزيد منطلق . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْغَضَتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ هؤلاء أهل طاعة الله عز وجل والوفاء بعهده . ﴿ فَنَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ عَنْهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى في جته ودار كرامته خالدون باقون . جعلنا الله منهم وجنبا طريق البدع والضلالات ، ووفقنا لطريق الدين آمنو وعملوا الصالحات . آمين .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ۝١٨٠ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝١٨١ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ ابتدله وخبره معنى القرآن . ﴿ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ يعنى تترتل عليك جبريل فيقرؤها عليك . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقال الزجاج : « تلك آيات الله » المذكورة مبيح الله ودلائله . وقيل : « تلك » بمعنى هذه ولكنها لما انقضت صارت كأنها بعدت ف قيل « تلك » . ويجوز أن تكون « آيات الله » بدلا من « تلك » ولا تكون متالا لأن المبيهم لا يثبت بالمضاف . ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعنى أنهم لا يعذبهم بنيرانهم . ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال المهدوي : وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظلما للعالمين وصله بذكر آتساع قدرته وغناه عن الظلم يكون ما في السموات وما في الأرض له حتى يسأله ويعبدوه ولا يعبدوا غيره .

قوله تعالى : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى - زوى الترمذى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » قال : « أُمّتٌ تُحْمَوْنَ سَبْعِينَ أُمَّةً أُمّتٌ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ ». وقال : هذا حديث حسن . وقال أبو هريرة : نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام . وقال ابن عباس : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بدرًا والحدبية . وقال عمر بن الخطاب : من فعل فعلهم كان مثاهم . وقيل : هم أمة عبد الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى الصالحين منهم وأجل الفضل ؛ وهم الشهداء على الناس يوم القيامة ؛ كما تقدم في الفقرة . وقال مجاهد : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » على الشرائط المذكورة في الآية . وقيل : معناه في اللوح المحفوظ . وقيل : كُنْتُمْ مَذْأَمَتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ . وقيل : جاء ذلك لتقدم البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأتته . قاله المعنى كُنْتُمْ عِنْدَ مَنْ تَتَمَكَّمُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ خَيْرَ أُمَّةٍ . وقال الأخفش : يريد أهل أمة ، أى خير أهل دين ؛ وأنشد :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريةً • وهبل يا مَن ذُو أُمَّةٍ وهو طائعٌ<sup>(١)</sup>

وقيل : هى كان التامة ، والمعنى خلفتم ووجدتم خير أمة . « بغير أمة » حال . وقيل : كان زائدة ، والمعنى أُمّتٌ خَيْرُ أُمَّةٍ . وأنشد سيوطي :

• وسيعبرن لنا كانوا كرام<sup>(٢)</sup> •

(٢) البيت لقائمة القتيلى .

• فكيف إذا رأيت ديار قوم •

(١) راجع ج ٢ ص ١٥٤ طبع ثانية .

(٢) هذا بحريث القرظى . ومدره •

وبشله قوله تعالى : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا » . وقوله : « وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَفَكَّرْتُمْ » . وقال في موضع آخر : « وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ » . وروى سفيان بن عيينة الأثجبي عن أبي حازم عن أبي هريرة « كنتم خیر أمة أنشئت للناس » قال : يَحْزُونُ الناس بالسلال إلى الإسلام . قال النعاس : والتقدير على هذا كنتم للناس خیر أمة . وعلى قول جاهد : كنتم خیر أمة إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وقيل : إنما صارت أمة عبد الله صلى الله عليه وسلم خیر أمة لأن المسلمين منهم أكثر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمهم أنشأ . قيل : هذا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « خير الناس قرني » أي الذين بعثت فيهم .

الثانية — وإذا ثبت بنص التبريل أن هذه الأمة خير الأمم فقد روى الأئمة من حديث عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم » . وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل ممن بعدهم ، وإلى هذا ذهب معظم العلماء . وأن من يحب النبي صلى الله عليه وسلم ورآه ولو مرة في عمره أفضل ممن يأتي بعده ، وإن فضيلة الصحبة لا يتعدا عمل . ونهـب أبو عمر بن عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة ، وأن قوله عليه السلام : « خير الناس قرني » ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من القاضل والمفضول . وقد جمع قرنه جماعة من المناقذين المظهرين للإيمان وأهل الكبار الذين أقام عليهم أزعل بعضهم الحدود ، وقال لهم : ما تقولون في السارق والشارب والزاني . وقال مواجهة لمن هو في قرنه « لا تسبوا أصحابي » . وقال خالد بن الوليد في عمار : « لا تسب من هو خير منك » . وروى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « طوبى لمن رأى وأمن بي وطوبى من سب حرات لمن لم يرفى وأمن بي » . وفي مسند أبي داود الطيالسي عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أتدرون أي أئمة ألتقى أفضل إيمانا » قلنا الملائكة . قال : « وحق لمن بل غيرهم » قلنا الأنبياء . قال : « وحق

لم بل غريم" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضل الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني يحدون ورقاً فيعملون بما فيها وهم أفضل الخلق إيماناً" . وروى صالح بن جبير عن أبي جعدة قال : قلنا يا رسول الله ، هل أحد خير منا ؟ قال : "نعم قوم يمشون من بعدكم فيجدون كتاباً بين لوحين فيؤمنون بما فيه ويؤمنون بي ولم يروني" . وقال أبو عمر : وأبو جعدة له صحبة واسمه حبيب بن سيابغ ، وصالح بن جبير من ثقات التابعين . وروى أبو ثعلبة الخشني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن أمامكم أياماً الصابر فيها على دينه كالقائض على البحر العامل فيها أجرحسين رجلاً يعمل مثل عمله" قيل : يا رسول الله ، من هم ؟ قال : "بل منكم" . قال أبو عمر : وهذه اللفظة « بل منكم » قد سكت عنها بعض المحذئين فلم يذكرها . وقال عمر بن الخطاب في تأويل قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » قال : « من قبل مثل فيلكم كان مثلكم . ولا تمارض بين الأحاديث لأن الأول على الخصوص ، والله الموفق .

وقد قيل في توجيه أحاديث هذا الباب : إن قرئته إنما أفضل لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم ، وإن أواخر هذه الأمة إذ أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر والفسق والمهرج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك أيضاً غرباء ، وزكّت أعمالهم في ذلك الوقت كما زكّت أعمال أوائهم . ويشهد له قوله عليه السلام "بدأ الإسلام غربياً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء" . ويشهد له أيضاً حديث أبي ثعلبة ويشهد له أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : "أنتي كالملط لا يدرى أوله خير أم آخره" ذكره أبو داود الطيالسي وأبو عيسى الترمذي ، ورواه هشام بن عبيد الله الزاوي عن مالك عن الزهري عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنتي مثل الملط لا يدرى أوله خير أم آخره" ذكره الدارقطني في مسند حديث مالك . قال أبو عمر : هشام بن عبيد الله ثقة لا يحتفون في ذلك . وروى أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن أكتب إلى سيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها ، فكتب إليه سالم : إن علمت بسيرة عمر فانت أفضل من عمر ، لأن زمانك ليس

كرمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر . قال : وكتب إلى فقهاء زمانه ، فكتبهم كتب إلى بمثل قول سالم . وقد عارض بعض الجلة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : " خيرُ الناس قرني " بقوله صلى الله عليه وسلم : " خيرُ الناس من طال عمره وحسن عمله وشرُ الناس من طال عمره وساء عمله " . قال أبو عمر : فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها . والمعنى في ذلك ما تقدم ذكره من الإيمان والعمل الصالح في الزمان الفاسد الذي يرفع فيه من أهل العلم والدين ، ويكثر فيه الفسق والهرج ، ويبتذل المؤمن ويُسْرِ الفاجر ويهود الدين غريباً كما بدا ، ويكون القائم فيه كالفاسق على الجمر . فيستوى حينئذ أول هذه الأمة بآخرها في فضل العمل إلا أهل بدر والحديبية . ومن تدبر آثار هذا الباب بان له الصواب ، والله يؤتي فضله من يشاء .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ تَسْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك وأنصفوا به ؛ فإذا تركوا التنفير وتواطعوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم ، وكان ذلك سبباً لحلاكهم . وقد تقدم الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أول السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أخبر أن إيمان أهل الكتاب بالنبي صلى الله عليه وسلم خير لهم ، وأخبر أن منهم مؤمناً وفاسقاً ، وأن الفاسق أكثر .

قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُلَاقُواكَمُ الْأَذْيَارَ لَمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ يعني كذبهم وتجريفهم وبهتهم ؛ لا أنه تكون لهم العتبة ؛ عن الحسن وقادة . فالاستثناء متصل ، والمعنى لن يضرركم إلا ضرراً يسيراً ؛ فوقع الأذى موقع المصدر . فالآية وعدٌ من الله (رسوله صلى الله عليه وسلم وللؤمنين ، وأن أهل الكتاب لا ينلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام إلا إيهاء باليهت

والبحر، وأما العاقبة فتكون للؤمنين . وقيل : هو مقطوع ، والمعنى لن يضروكم ألبتة ، لكن يؤذونكم بما يُسمعونكم . قال مقاتل : إن رموس اليهود : كعب وعدي والنهان وأبو رافع وأبو ياسر وكثانة وابن صوريا عملوا إلى مؤمنتهم : عبدالله بن سلام وأصحابه فانهم لإسلامهم : فازل الله تعالى : « لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى » يعنى باللسان ، وتم الكلام . ثم قال : ( وَإِنْ يَأْتِلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْيَارَ ) يعنى منزهين ، وتم الكلام . ( ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ) متأنف ؛ فذلك ثبت فيه التون . وفى هذه الآية معجزة للنبي عليه السلام ؛ لأن من قاتله من اليهود والنصارى ولاه دُبره .

قوله تعالى : ضَرَبَ عَلَيْهِمُ اللَّهُ أَلِيلَةً آتَيْنَ مَا تُخَفُّوْنَ إِلَّا بِجَبَلٍ مِّنَ اللَّهِ وَجَلَّ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بَانْتِهِمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١١﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ( ضَرَبَ عَلَيْهِمُ اللَّهُ ) يعنى اليهود . ( أَلِيلَةً تُخَفُّوْنَ ) أى وجدوا وتفرقا ، وتم الكلام . وقد مضى فى البقرة معنى ضَرَبَ الألة عليهم . ( إِلَّا بِجَبَلٍ مِّنَ اللَّهِ ) استثناء مقطوع ليس من الأول . أى لكنهم يتعصمون بجبل من الله . ( وَجَلَّ مِنَ النَّاسِ ) يعنى الذمة التى لهم . والناس : محمد والمؤمنون يؤذون إليهم الخراج فيؤمنونهم . وفى الكلام



اختصار ، والمعنى : إلا أن يتصموا بإجل من الله ، فحذف ؛ قاله القراء . ﴿ وَيَأْمُرُوا بِتَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى رجعوا . وقيل اجتمعوا . وإصله فى اللغة أنه لزمهم ؛ وقد مضى فى البقرة . ثم أخبر لم فعل ذلك بهم ؛ فقال ، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْآيَاتِةَ ﴾ يغير حتى ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴿ وقد مضى فى البقرة مستوفى . ثم أخبر فقال : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ وتم الكلام . والمعنى : ليس أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم سواء ؛ عن ابن مسعود . وقيل : المعنى ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواء . وذكر أبو خيثمة زعيم بن حرب حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا شيان عن عاصم عن زر عن ابن مسعود قال : أتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء ثم خرج إلى الناس فإذا الناس ينظرون الصلاة فقال : " إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى فى هذه الساعة غيركم " قال : وأنزلت هذه الآية وليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة — إلى قوله : والله أعلم بالمتقين » وروى ابن وهب مثله . وقال ابن عباس : قول الله عز وجل « من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » من آمن مع النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن إسحاق عن ابن عباس : لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سمية ، وأسيد بن سمية ، وأسيد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود ، قَامُوا وَصَدَّقُوا وَرَغِبُوا فى الإسلام ورسخوا فيه قالت أخبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ؛ فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قوله « لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ » إلى قوله : وَلَوْلَيْكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وقال الأخفش : التقدير من أهل الكتاب ذو أمة ، أى ذو طريقة حسنة . وأنشد :

\* وهل ياتمن ذو أمة وهو طائع \*

(١) سمية : بالسين والعين المهملين ويا ، بالثنتين .

(٢) فى الاستيعاب فى ترجمة أسيد هذا : « ذوا أسيد بن بكر بن ابن إسحاق (أسيد) بفتح الحزة وكر السين ، وكذلك قال الراعى . وفى رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق (أسيد) بالغيم . وفتح عنهم أحم » .

وقيل : في الكلام حذف ؛ والتقدير من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة ، فترك  
الأخرى اكتفاء بالأولى ؛ كقول أبي ذؤيب :

عصائى إليها القلب إلى لأمره • مطيح لما أدرى أرشد طلابها

أراد : أرشد أم عتي ، حذف . قال الفراء : « أنثى » رفع يسوله ، والتقدير : ليس يستوى  
أمة من أهل الكتاب قائمة بتلون آيات الله وأمة كافرة . قال النحاس : هذا قول خطأ من  
جنيات : إحداهما أنه رفع « أمة » بسواء فلا يعود على اسم ليس شيء ، ويرفع بما ليس جاريا  
على الفعل ويضمير مالا يحتاج إليه ؛ لأنه قد تقدم ذكر الكافرة فليس لإضمار هذا وجه .  
وقال أبو عبيدة : هذا مثل قولهم : أكلوني البراغيث ، وذهبوا أصحابك . قال النحاس :  
وهذا غلط لأنه قد تقدم ذكرهم ، وأكلوني البراغيث لم يتقدم لم ذكر . و ( أَنَاءَ اللَّيْلِ )  
ساعاته . واحدنا إلى وإلى ، وهو منصوب على الظرف . و ( يَسْجُدُونَ )  
يُصَلُّونَ ؛ عن الفراء والزجاج ؛ لأن التلاوة لا تكون في الركوع والسجود . نظيره قوله :  
« وَهَـؤُلَاءِ يَسْجُدُونَ » أى يُسَلُّونَ . وفي الفرقانية : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ » وفي النجم :  
« فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » . وقيل : يراد به السجود المعروف خاصة . وسبب التزول برذءه ،  
وأن المراد صلاة القنم كما ذكرنا عن ابن مسعود ؛ فعبدت الأوثان ناموا حيث جرت عليهم الليل ،  
والموحدون قيام بين يدي الله تعالى في صلاة المشاء بتلون آيات الله ؛ ألا ترى لما ذكر قيامهم  
قال « وهم يسجدون » أى مع القيام أيضا . التورى : هى الصلاة بين المشاءين . وقيل :  
هى في قيام الليل . وعن رجل من بني شعبة كان يدرس الكتب قال : إنا نحمد كلاما من  
كلام الرب عز وجل : يُحْسِبُ رَاعِي إِبِلٍ أَوْ غَنَمٍ إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ أَنْخَزَلَ كَنَّهُ هُوَ قَائِمٌ وَسَاجِدٌ أَنَاءَ  
الَّيْلِ . ( يَوْمَتُونَ يَأْفَهُ ) بنى يقرنون بالله ويحمد صلى الله عليه وسلم . ( وَيَسْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ )  
قيل هو عزم . وقيل : يراد به الأمر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم . ( وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ )  
والنهي عن المنكر انتهى عن مخالفته . ( وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ) التي يعملونها مبادرين غير  
(١) في الأصول : • سميت إليها القلب إلى لأمرها • وهو صواب عن ديوان أبي ذؤيب . يقول : تمناني  
القلب رذهب إليها فانا أتبع ما بأمرى به . (٢) أنزل : انقرد .

مُتَنَاقِلِينَ لِمَرَقَتِهِمْ بِقَدَرِ ثَوَابِهِمْ. وَقِيلَ : يَأْدُرُونَ بِالْعَمَلِ قَبْلَ الْقَوْتِ : ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾  
 أى مع الصالحين ، وهم أصحاب عهد صلى الله عليه وسلم في الجنة . ﴿وَمَا يَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَهُمْ  
 بِكُفْرِهِمْ﴾ قَرَأَ الْأَعْمَشُ وَأَبْنُ وَثَّابٍ وَحُمَزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَحَقُّصٌ وَخَلْفٌ بِالْيَاءِ فِيهَا ؛ إِخْبَارًا  
 عَنْ الْأُمَّةِ الْقَائِمَةِ . وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبْنِ عَبَّاسٍ وَآخِيَارِ أَبِي عُيَيْدٍ . وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِاللَّامِ فِيهَا عَلَى  
 الْخَطِّاطِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» . وَهِيَ اخْتِيَارُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَكَانَ  
 أَبُو عَمْرٍو يَرَى الْقُرَّاءَتَيْنِ جَمِيعًا بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ . وَمَعْنَى الْآيَةِ : وَمَا فَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُجْعَلُوا  
 ثَوَابُهُ بِلِ يَسْتَكْرَ لَكُمْ وَتُجَازَوْنَ عَلَيْهِ .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ**  
**مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اسم إن ، والخبر «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ  
 اللَّهِ شَيْئًا» . قَالَ مَقَاتِلٌ : لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكَلْبِ ذَكَرَ كِفَارَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ «إِنَّ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا» . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : جَعَلَ هَذَا ابْتِدَاءً فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ كَثْرَةُ  
 أَمْوَالِهِمْ وَلَا كَثْرَةُ أَوْلَادِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئًا . وَخَصَّ الْأَوْلَادَ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ أَنْسَابِهِمْ إِلَيْهِمْ .  
 ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ابْتِدَاءً وَخَبَرٌ ، وَكَذَا وَ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ : وَقَدْ تَقَدَّمَ جَمِيعُ هَذَا .

قوله تعالى : **مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا**  
**صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ**  
**أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴿١١٧﴾

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ «مَا» تَصْلُحُ أَنْ  
 تَكُونَ مُصَدَّرَةً ، وَتَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الَّذِي وَالْعَائِدُ مَحذُوفٌ ، أَيْ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَهُ . وَمَعْنَى  
 «كَمَثَلِ رِيحٍ» كَمَثَلِ مَهَبٍ رِيحٍ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَالصَّرُّ الْبُرْدُ الشَّدِيدُ . قِيلَ : أَصْلُهُ مِنَ الصَّرِّ

الذي هو الصوت ، فهو صوت الريح الشديدة . الزجاج : هو صوت لهب النار التي كانت في تلك الريح . وقد تقدم هذا المعنى في البقرة . وفي الحديث : إنه نهي عن الجراد الذي قتله الصر . ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقت فاهلكته ، فلم ينفع أصحابه شيء بعد ما كانوا يرجون فائدة ونفعه . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمصيبة وسبغ حق الله تعالى . وقيل : ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير وقت الزراعة أو في غير موضعها فأذبحهم الله تعالى لوضعهم الشيء في غير موضعه ؛ بحكمة الملهدي .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا بِطَانَةٍ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - أتد الله تعالى الزجر عن الركون إلى الكفار . وهو متصل بما سبق من قوله : «إِنْ يُطِيعُوا قَوْلًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» . وبالبطانة مصدر ، يُسمى به الواحد والجمع . وبطانة الرجل خاصته الذين يستبطنون أمره ، وأصله من البطن الذي هو خلاف الظهر . ويطن فلان بفلان يطن بطناً ويطانة إذا كان خاصاً به . قال الشاعر :

أولئك خلصاني تم ويطاى • وهم عييتي من دون كل قريب

الثانية - نهي الله عز وجل المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء ووطءاً ، يفادونهم في الآراء ، ويسندون إليهم أمورهم . ويقال : كل من كان على خلاف مذهبك ودينك لا ينبغي لك أن تتأد به . قال الشاعر :

من المرء لا تسال وسل عن قريشه • فكل قرين بالمقارن يقتل

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » . وروى عن ابن مسعود أنه قال : اعتبروا الناس بإخوانهم . ثم بين تعالى المعنى الذي لأجله نهي عن المواصله فقال : « لَا يَأْلُوْنَكُمْ خِيَالًا » يقول فسادا . يعني لا يتركوا الجهد في فسادكم ، يعني أنهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركوا الجهد في المكر والخديعة ، على ما يأتي بيانه . وروى عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُوْنَكُمْ خِيَالًا » قال : « هم الخوارج » . وروى أن أبا موسى الأشعري استكتب ذيقيا فكتب إليه عمر رضي الله عنه عليه هذه الآية . وقدم أبو موسى الأشعري على عمر رضي الله عنه بحساب فرضه إلى عمر فاعجبه . وجاء عمر كلاب فقال لأبي موسى : أين كتبك يقرأ هذا الكلاب على الناس ؟ فقال : إنه لا يدخل المسجد . فقال : لم ! أجنب هو ؟ قال : إنه نصراني ؛ فاستهزه وقال : لا تدينهم وقد أنصاهم الله ، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله ، ولا تأمنهم وقد خونهم الله . وعن عمر رضي الله عنه قال : لا تستعملوا أهل الكلاب فإنهم يستحلون الرضا ، واستعينوا على أموركم وعلى رعييتكم بالذين يخشون الله تعالى . وقيل لعمر رضي الله عنه : إن ههنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أكذب منه ولا أخطأ بقلم أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا أخذ بطانة من دون المؤمنين . فلا يجوز استكتاب أهل الذمة ، ولا غير ذلك من تصرفاتهم في البيع والشراء والاستئابة إليهم .

قلت : وقد اقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكلاب كعبة وأثناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء . روى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه والمصوم من عبده الله » . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تضيئوا نار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم غريبا » . فسر الحسن بن أبي الحسن فقال : أراد عليه

السلام لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم، ولا تنبشوا في خواتمكم محمداً. قال الحسن :  
وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِلَطَانَةِ مَنْ دُونَكُمْ » الآية .  
الثالثة - قوله تعالى : ( مِنْ دُونِكُمْ ) أى من سواكم . قال الفراء : « وَيَمْلِكُونَ عَمَلًا

دُونَ ذَلِكَ » أى سوى ذلك . وقيل : « مِنْ دُونِكُمْ » يعنى في السير وحسن المذهب . ومعنى  
« لَا بِالْوَيْلِ خَبَالًا » لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم . وهو في موضع الصفة لبطانة من  
دونكم . يقال : لا ألو جهدا أى لا أقصر . وَأَلَوْتُ أَلَوْتُ أَقْصَرْتُ ؛ قال امرؤ القيس :  
وما المرء ما دامت حُشاشة نفسه \* بمُذْرِكِ أطراف الخطوبِ ولآلِ

والمُخَالِ الخبل . والمُخَالِ الفساد ؛ وقد يكون ذلك في الأفعال والأبدان والعقول .  
وفي الحديث : « من أصيب بدم أو خبل أى جرح يفسد العضو . والخبل فساد الأعضاء ؛  
ورجل خبل ومُخْبِلٌ ، وخبله الحب أى أفسده . قال أوس :

أبْنِي لَيْتِي لَسْتُ بِسَيْدٍ \* إِلَّا يَدَا عَجُولَةِ الْمُضِدِّ<sup>(١)</sup>

أى فاسدة المضد . وأنشد الفراء :

تَظُنُّرَيْنُ سَعِيدَ نَفْرَةٍ وَبَتَّ<sup>(٢)</sup> بِهَا \* كَانَتْ لَصَحْبِكَ وَالْمَطِيَّ خَبَالًا

أى فسادا . وانتصب « خبالا » بالمفعول الثاني ؛ لأن الألو يمتدى إلى مفعولين ، وإن شئت  
على المضدر ، أى يخبلونكم خبالا ؛ وإن شئت بقرع الخفافض ، أى بالخبال ؛ كما قالوا : أوجعته  
ضربا . « وما » فى قوله : « وَدُّوْا مَا عَيْتُمْ » مصدرية ، أى ودُّوا عَيْتَكُمْ . أى ما يشق عليكم .  
والفتى المشقة ، وقد مضى فى « البقرة » معناه .

الرابعة - قوله تعالى : ( قَدْ بَدَلَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَضْوَاهِمُ ) يعنى ظهرت العداوة  
والتكذيب لكم من أضواءهم . والبغضاء : البغض ، وهو ضد الحب . والبغضاء مصدر مؤنث .  
وحصن تعالى الأضواء بالذكر دون الأكلة إشارة إلى تشققهم وثرثرهم فى أقوالهم هذه ، فهم

(١) الذى فى ديوانه \* إلا يدا ليست لما عشد \* (٢) الوب : التيقظ لخدمة فى الحرب .

(٣) راجع ٢٦٣ ص ٦٦ طيبة أول أرثانية .

فوق المستر الذي تبدو للبغضاء في عينه . ومن هذا المعنى نته عليه السلام أن يتنهي الرجل فاه في عرض أخيه ، معناه أن يفتح ؛ يقال : تنحى الجوفاء بالنيق ، ونحى النهم نفسه . وتنحى الجاهم ثم القوس تنحياً ، وجاءت الخيل شواحي : فانتحيت أفواهها . ولا يفهم من هذا الحديث دليل خطاب على الجواز فيأخذ أحد في عرض أخيه هماً ؛ فإن ذلك محرم باتفاق من العلماء . وفي التبريل « وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » . فذكر الشجر إنما هو إشارة إلى التشقق والانبساط . فاعلم .

الخامسة — وفي هذه الآية دليل على أن شهادة المدعو على عدوه لا تجوز ، وبذلك قال أهل المدينة وأهل الحجاز ؛ ورؤى عن أبي حنيفة جواز ذلك . وحكى ابن بقال عن ابن شيان أنه قال : أجمع العلماء على أنه لا تجوز شهادة المدعو على عدوه في شيء . وإن كان عدلاً ، والعداوة تزيد المدالة فكيف بعداوة كافر .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ إخبار وإعلام بأنهم يطنون من البغضاء أكثر مما يظهرهم بأفواههم . وقرا عبد الله بن مسعود : « قد بدا البغضاء » بتذكير الفعل ؛ لما كانت البغضاء بمعنى البغض .

قوله تعالى : هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ مُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ مُحِبُّوهُمْ ﴾ بمعنى المنافقين ؛ دليله قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَمَنَّا » ؛ قاله أبو العالية ومقاتل . والمحبة هنا بمعنى المصافاة ، أى أتم إليها المسلمون تصافوهم ولا يضافونكم لضافهم . وقيل : للمنى تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر . وقيل : المراد لليهود ؛ قاله الأكثر . والكذب اسم جنس ؛ قاله ابن عباس . ينى

بالحسب، واليهود يؤمنون بالعض؛ كما قال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحِيدٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ » . ( وَإِنَّا نَقُورُكُمْ قَالُوا آمَنَّا ) أى بحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا خلوا فيما بينهم عضوا عليكم الأنامل، أى أطراف الأصابع من النيط والحقن عليكم؛ فيقول بعضهم لبعض : لا تزولوا إلى هؤلاء ظهرها وكثروا . والمعض عبارة عن شدة النيط مع عدم القدرة على إنقاذه؛ ومنه قول أبي طالب :  
 \* يعضون غيظاً خلقت بالأنامل \*

وقال آخر :

إذا رأيته أطال الله غيظهم \* عضوا من النيط أطراف الأباهيم  
 يقال : عض مضعضاً وعضيضاً . والمعض (بضم العين) : علف دواب أهل الأمصار مثل الكسب والثرى المرضى؛ يقال منه : أععض القوم، إذا أكلت إبلهم المعض . وسير عضاضى، أى سمين كأنه منسوب إليه . والمعض (بالكسر) : التماس من الرجال والبالغ المنكر . وعض الأنامل من فعل المضغب الذى فاته مالا يقدر عليه، أو نزل به مالا يقدر على تغييره . وهذا المعض هو بالأسنان كمض اليد على فانت قريب الفوات . وكقرع السن النادمة، إلى غير ذلك من عند الحصى والخط في الأرض لهموم . ويكتب هذا المعض بالضاد الساكنة، وعطف الزمان بالفاء المشالة؛ كما قال :

وعطف زمان يابن مروان لم يدع \* من السال إلا مسعاً أو جلف<sup>و</sup>

وواحد الأنامل أتملة (بضم اللام) ويقال بفتحها، والضم أشهر . وكان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية قال : هم الأباضية . قال ابن عطية : وهذه الصفة قد ترتب في كثير من أهل البدع إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ( قُلْ مُوتُوا بِحَقِّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ) إن قيل : كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشيء : كن فيكون . قيل عنه جوابان : أحدهما - قال فيه الطبري وكثير

(١) البيت لقرظوق . والرواية المعروفة كما في اللسان والناقص : «وعرض زمان» بالفاء بدل الفاء . وهذه الكلمة في هذا المعنى يقال بالضاد وبالظاء . كما في الثمازوس . والمسحت : المستعمل . والجلف : الذى جهت به بقية .



من المفسرين : هو دواء عليهم . أى قل يا محمد أدام الله عظيمكم إلى أن تموتوا . قول هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة بخلاف الأمة .

الثانى - أن المعنى أخبرهم أنهم لا يتركون ما يؤمنون ، فإن الموت دون ذلك . فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقي معنى التعرّيج والإغاطة . ويمرر هذا المعنى مع قول مسأور ابن أبى عمرو :

وَبَقِيَ فِي أُرُومَتَا • وَفَقَا عَيْنٍ مِنْ حَدَا

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّيِّئِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ » .

قوله تعالى : إِنْ تَمَسَّكُ حَسَنَةً تَنْوُومُ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبرُوا وَتُنتَقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : « إِنْ تَمَسَّكُ حَسَنَةً تَنْوُومُ » قرأ السلى بإلواء والباقون بالباء . واللفظ عام في كل ما يحسن ويسوء . وما ذكره المفسرون من الغضب والحسب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم إلى غير ذلك من الأقوال أمثلة وليس باختلاف . والمعنى في الآية : أن من كانت هذه صفته من شدة العداوة والحقد والفرح بترويل الشدائد على المؤمنين لم يكن إحلا لأن يتخذ طائفة ، لا سيما في هذا الأمر الجسم من الجهاد الذى هو بلاك الدنيا والآخرة . ولقد أحسن القائل في قوله :

كَلَّ الْعَدَاوَةُ قَدْ تَرَجَّسَ إِفْتَابَهَا • إِلَّا عَدَاوَةً مِّنْ عَادَاكَ مِنْ حَدَا

(وَأَنْ تُصِبرُوا) أى على أذنامهم وعلى الطاعة وموالاة المؤمنين . (وَتُنتَقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) يقال : ضاربه يضربه ويضربه ضيراً وضوراً ؛ فشرط تعالى قى ضررهم بالصبر والتقوى ، فكان ذلك تسلياً للمؤمنين وقوية لقلوبهم .

قراءات - 'قرأ الحريّان وأبو عمرو « لا يَضْرُكُم » من ضار يضرك كما ذكرنا ؛ ومنه قوله « لا ضَرَّ » ، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين ؛ لأنك لما حذفت الضمة من الزاء بقيت الزاء ساكنة والياء ساكنة فحذفت الياء ، وكانت أولى بالحذف لأن قبلها ما يبدل عليها . وحكى اليكساني أنه سمع « ضاره يَضُورُه » وأجاز « لا يَضْرُكُم » وزعم أن في قراءة أبي بن كعب « لا يَضْرُكُم » . ويجوز أن يكون مرغوما على تقدير إضمار الفاء ؛ والمعنى : فلا يضركم . ومنه قول الشاعر :  
 مَنْ فَعَلَ الْمَسْنِئَاتِ اللَّهُ يَضْرُكُهَا •

هذا قول اليكساني والقرءاء . أو يكون مرغوما على نية التقديم ؛ وانتهى سيويه :  
 إِنَّكَ إِنْ يُصْرِعْ أَخُوكَ تُصْرِعْ •<sup>(١)</sup>

أي لا يضركم أن تصيروا وتنقوا . ويجوز أن يكون مجزوما ، وضمت الزاء لالتقاء الساكنين على إنباع الضم . وكذلك قراءة من فتح الزاء على أن الفعل مجزوم ، وفتح « يَضْرُكُم » لا لالتقاء الساكنين بلغة الفصح ؛ ورواه أبو زيد عن الفضل بن عاصم ، حكاه المهيدي . وحكى النحاس : وزعم الفضل الضبي عن عاصم « لا يَضْرُكُم » بكسر الزاء لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ( وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ) المائل في « إذ » فعل مضارع تقديره : واذكر إذ غدوت ، يعني خرجت بالصبح . ( مِنْ أَهْلِكَ ) من مترك من عند عائشة . ( تُبَوِّئُ ) للمؤمنين مقاعد للقتال ( وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ) هذه غزوة أُحُدَ وفيها نزلت هذه الآية كلها . وقال جل جلالته والحسن ومقاتل والكلبي : هي غزوة الخندق . وعن الحسن أيضا : يوم بدر . والمجهور على أنها غزوة أُحُدَ ؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا » وهذا إنما كان يوم أُحُدَ ، وكان للمشركون قصدوا المدينة في ثلاثة آلاف رجل لياخذوا نأرم

(١) حسان بن ثابت رضي الله عنه - وقامه : • والشر بالله عند الله حسان

(٢) هذا مجرب بلرب بن عبد الله - وصلوه : • يا أفرح بن حابس يا أفرح

في يوم بدو؛ فقتلوا عند أحد على شَيعِ الوادي بَقَاءَ مُقَابِلِ المدينة يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة على رأس أحد وثلاثين شهرا من الهجرة ، فاقاموا هناك يوم الخميس والجمعة صلى الله عليه وسلم بالمدينة ؛ فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه أن في سيفه ثلثة وأن بقرا له تدج وأنه أدخل يده في درج حصينة؛ فأولها أن قرا من أصحابه يقتلون وأن رجلا من أهل بيته يُصاب وأن الذروع الحصينة المدينة . أخرجه مسلم . فكان كل ذلك على ما هو معروف مشهور من تلك الفترة . وأصل التبوّه اتخاذ للقتل . يؤاؤه مقلدا إذا أسكتته إياه؛ ومنه قوله عليه السلام : "من كَذَبَ على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" أي ليتخذ فيها مثلا . فبني تبوؤ المؤمنين تُفْعَذُ لم مصاف . وذكر البيهقي من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت فيما يرى النائم كأنني مُرْدِفُ كِبْشَا وكان ضبة سبني انكسرت فأولت أني أقتل كبش القوم وأولت كسر ضبة سبني قتل رجل من عَشْرَقَ " . قُتِلَ حَزْزٌ وقُتِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم طلعة ، وكان صاحب اللواء . وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب : وكان حامل لواء المهاجرين رجُلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا عاصمُ إن شاء الله لما معي؛ فقال له طلعة بن عثان أخو سعيد ابن عثمان الحمصي : هل لك يا عاصم في المبارزة؟ قال نعم؛ فبدره ذلك الرجل فضرب بالسيف على رأس طلعة حتى وقع السيف في لحية فقتله؛ فكان قتل صاحب لواء المشركين تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم "كأنني مردف كبشا" .

قوله تعالى : إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٦﴾

العامل في «إذ» تبويء أو «سميع علم» . والطائفتان : بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وكانا جناسي السكر يوم أحد . ومعنى (أَنْ تَفْشَلَا) ان هُزِمَا . وفي البخاري عن جابر قال : فبنازلت «إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا» قال نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نُحِبُّ أنها لم تنزل لقول الله عز وجل : «والله وليهما» . وقيل :

ثم بنو الحارث وبنو الخرج وبنو النخيت ، والنخيت هو عمرو بن مالك من بني الأوس  
والنخل عبارة عن الجبن ، وكذا هو في اللغة . وألم من الطائفتين كان بسد الخرج لما  
رجع عبد الله بن أبي بن ممة من المنافقين فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا ؛ فلذلك قوله تعالى :  
«وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا» يعني حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا المم . وقيل : أرادوا التقاعد عن الخروج  
وكان ذلك صغيرة منهم . وقيل : كان ذلك حديث قس منهم خطر بالعلم وأطلع الله نية عليه  
السلام عليه فازدادوا بصيرة ؛ ولم يكن ذلك الجور مكتسباً لهم فقصه الله ، وذم بعضهم  
بعضاً ، ونهضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أطل  
على المشركين ، وكان خروجه من المدينة في ألف ، فرجع عبد الله بن أبي بن سلول ثلاثمائة  
رجل غاضباً ؛ إذ خولف رأيه حين أشار بالقمود والقتال في المدينة إن نهض إليهم العدو ،  
وكان رأيه وافق رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى ذلك أكثر الأنصار ، وسيأتي .  
ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين فأستشهد منهم من أكرمه الله بالشهادة  
قال مالك رحمه الله : قُتل من المهاجرين يوم أحد أربعة ، ومن الأنصار سبعون رضى الله عنهم .  
والمقاعد : جمع مقعد وهو مكان القعود ، بمنزلة مواقف ، ولكن لفظ القمود دال على الثبوت ؛  
ولا سيما أن الزمّة كانوا قومودا . هذا منى حديث غزاة أحد على الاختصار ، وسنأتي من  
تفصيلها ما فيه شفاء . وكان مع المشركين يومئذ مائة فرس عليها خالد بن الوليد ولم يكن مع  
المسلمين يومئذ فرس . وفيها جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه وكسرت رباطه  
اليمنى السفلى بمجر وهشمت البيضة من على رأسه صلى الله عليه وسلم ، وجرّاه من أخته نودينه  
بافضل ما يجزى به نيا من أنبيائه على صبره . وكان الذي تولى ذلك من النبي صلى الله عليه  
وسلم عمرو بن قنينة القنيني ، وعجبة بن أبي وقاص . وقد قيل : إن عبد الله بن شهاب جد  
الفقهاء محمد بن مسلم بن شهاب هو الذي سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جبهته . قال  
الواقدي : والثابت عندنا أن الذي رمى في وجه النبي صلى الله عليه وسلم ابن قنينة ، والذي

(١) هكذا في الأصول . (٢) البيضة : الخوذة ، وهي زرد ينجح على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة

أدعى شقته وأصاب رِباعيته حبة بن أبي وقاص . قال الواقدي : بإسناده عن تابع بن جبير  
 قال : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أحدا فنظرت إلى النبل تأتي من كل ناحية  
 ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل [ذلك] <sup>(١)</sup> يصرف عنه . ولقد رأيت عبد الله بن  
 شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد دلوني على محمد ، فلا تجوز إن نجا . [وإن] <sup>(١)</sup>  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه ، فتابه في ذلك صفوان فقال :  
 والله ما رأيته ، أحلف بالله إنه ميتا ممنوع ! خرجنا أربعة تماهدنا وتماهدنا على قتله [فلم نخش  
 إلى ذلك] . وأبكت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط في حفرة كان أبو عامر  
 الزاهد قد حفرها مكيدة لمسلمين ، فخر عليه السلام على جنبه واحتضنه طلعة حتى قام ،  
 ومضى مالك بن نسيان والله أبي سعيد الخدري من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الدم .  
 وتسببت حلقتان من درع المغيرة في وجهه صلى الله عليه وسلم فأقرعهما أبو عبيدة بن الجراح  
 وعرض عليهما بنيه فسقطا ؛ فكان أتم يزينة حمته رضى الله عنه . وفي هذه الفزة قتل حمزة  
 رضى الله عنه ، قتله وحشي ، وكان وحشي مملوكا لجبير بن مطعم . وقد كان جبير قال له :  
 إن قتلت محمدا جعلنا لك أمة الخيل ، وإن أنت قتلت علي بن أبي طالب جعلنا لك مائة ناقة  
 كلها سود الحديق ، وإن أنت قتلت حمزة فانت حر . فقال وحشي : أما بعد فمليح حائط  
 من الله لا يخاف إليه أحد . وأما علي ما برز إليه أحد إلا قتله . وأنا حمزة فرجل شجاع ،  
 وعسى أن أصادفه فاقته . وكانت هند كلما تبا وحشي أو مرمت به قالت : يا أبا دثمة  
 أشف واستشف . فكأن له خلف حفرة وكان حمزة حمل على القوم من المشركين ؛ فلما رجع  
 من حملته ومرة بوحشي زرقة بالزراق فأصابه فسقط منها ، رحمه الله ورضي عنه . قال ابن  
 إسحاق : فبقرت هند عن كبد حمزة فلا كتبها ولم تستطيع أن تسيطع أن تسيطعها فلقتها ثم علت على حفرة  
 مشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحن بزيئناكم بيوم بدر • والحرب بعد الحرب ذلت سمر

ما كان عن عتبة لي من خير • ولا أئني وعمه وبكرى

شَفِيتُ هَنِي وَفَضِيتُ تَدْرِي • شَفِيتُ وَخَشِيتُ قَلِيلَ صَدْرِي  
نَشْكُرُ وَخَشِيتُ عَلَى عَمْرِي • حَتَّى تَرَىمَ اعْطَى فِي قَبْرِي

فاجابها هند بنت أُنَاسَةَ بن عَمَاد بن المطلب فقالت :

تَزِيَّتُ فِي بَدْرِ وَبَسَدَ بَدْر • يَا بَنَتْ وَقَاعَ عَظِيمِ الْكَفْرِ  
صَحَّكَ اللَّهُ غَدَاةَ الْفَجْرِ • مَلْهَاتِيْمِينَ الْعِلْوَالِ الزَّمْرِ  
بِكُلِّ قَطَاعٍ حُسَامٍ يَمْرِي • حَمْرَةٌ لَيْثِي وَعَلَّ صَفْرِي  
إِذْ رَامَ شَيْبَ وَابْرِكَ غَدْرِي • نَفَضَ مِنْهُ ضَوَائِي النَّحْرِ  
وَنَدَّرَكَ السَّوَاءَ فَتَرْتَدِر •

وقال عبد الله بن رَوَاحَةَ يَمِي حَمْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا • وَمَا يُفْنِي الْبُكَاءُ أَوْ الْعَيْلُ  
عَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا • أَحْمَرَةٌ نَأْكُمُ الرَّجُلَ الْفَيْلُ  
أَصِيبُ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعًا • هُنَاكَ، وَقَدْ أَصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ  
أَبَا بَقْلٍ لَكَ الْأَرْكَانُ هُنْتُ • وَأَنْتِ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُولُ  
عَلَيْكَ سَلَامٌ رَمَكُ فِي جَنَانٍ • غَالِطُهَا تَسْمِيٌّ لَا يَزُولُ  
أَلَا يَا هَاتِمَ الْأَخْيَارِ صَبْرًا • فَكُلُّ فَعَالِكُمْ حَسَنٌ جَبِلُ  
رَسُولُ اللَّهِ مُصْطَفَى كَرِيمٍ • بِإِمرِ اللَّهِ يَنْطِقُ إِذَا يَقُولُ  
أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي لَوْيَا • قَبْلَ الْيَوْمِ دَائِلَةٌ تَدُولُ  
وَقَبْلَ الْيَوْمِ مَا عَرَفُوا وَنَاقُوا • وَقَانِمَا بَهَا يُشْنَى الْفَيْلُ  
تَسِيمُ ضَرْبَنَا يَقْلِبُ بَدْر • غَدَاةَ أَنَا كُمْ أَلَمْتُ الْعَجِلُ  
غَدَاةَ تَوَى أَبُو جَهْلٍ صَرِيمًا • عَلَيْهِ الْعَلِيَّةُ حَائِجَةُ تَجْوَلُ  
وَعَبِيَّةٌ وَأَبْنَاهُ خَرًّا جَمِيعًا • وَشَيْئُهُ عَضَهُ السِّيفُ الصَّقِيلُ

(١) ارادت شيبه بن ربيعة أحاطة بربيعة أبا هند . وقد روى عن أبي عبد الله . لصدرة الشعر .

(٢) القلب (بفتح أوله وكسر ثانيه) : القبر المأدبة القديمة التي لا يعلم لها ربي ولا حافر تكون في البراري . يذكر ويؤنس .

وَمَرْكَأَ أَيْمَةً مُجْلِبًا ۖ وَفِي حَيْوَتِهِ لَعْنٌ نَّيْلٌ <sup>(١)</sup>

وَهَامَ بَنِي زَيْمَةَ سَائِلُهَا ۖ قَتَلَ أَسْيَافًا مِنْهَا قَوْلُ

أَلَا يَأْخُذُ لَأَيْدِي قَتْلَانَا ۖ حِزْمَةٌ إِنْ عَزَمَكُمُ ذَيْلُ

أَلَا يَأْخُذُ قَابِكُمْ لَأَتَمَلَّ ۖ قُلْتُ الْوَالِهُ السَّجَرُ الْمَهْبُولُ <sup>(٢)</sup>

وَرَوَّهَ أَيْضًا أَخُو صَفِيَّةَ، وَذَلِكَ مَذْكُورٌ فِي السِّيَرَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالِ اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهي بيان التوكل. والتوكل في اللغة إظهار الجزوالاعتماد على الغير . ورأى كل فلان إذا ضج أمره متكللاً على غيره .

واختلف العلماء في حقيقة التوكل؛ فسل عنه سهل بن عبد الله فقال: قالت فرقة الرضا بالضمان، وقطع القطع من المخلوقين، وقال قوم: التوكل ترك الأسباب والركون إلى سبب الأسباب؛ فإذا شغل السبب عن المسبب زال عنه التوكل. قال سهل: من قال التوكل يكون بترك السبب فقد طعن في صحة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فالغنيمة اكتساب . وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا فَوَقَّ الْأَعْيَاقِ وَأَصْبِرُوا مِنْهُمْ كُلِّ بَنَانٍ﴾ فهذا عمل . وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب العبد المحترف".

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرضون على السرية <sup>(٣)</sup> . قال غيره: وهذا قول عامة الفقهاء . وأما التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاء ماض، وأتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب ومحرز من عدو وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى للمتادة . وإلى هذا ذهب عُمَرُو الصُّوفِيُّ؛ لكنه لا يستحق اسم التوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والألتفات إليها بالقلوب؛ فإنها لا تجلب نفعا ولا تلحق ضرراً بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكُلُّ منه وبمشيئته؛ ومتى وقع من المتوكل ركون إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم . ثم المتوكلون على

(١) المجلب: المصروع إمامياً وإماماً صراطاً شديداً . (٢) المحروم: وسط الصدور بما يقيم عليه الحرام .  
واللذن: الزرع . (٣) الميل من النساء: التناول . (٤) السرية: طاعة من الجيش يبلغ أعضاها أربعمائة؛ سموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة السكر وخيامهم، من التي السرى الفخيس .

حالين : الأول - حال للتمكن في التوكل فلا يفتقر إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر . الثاني - حال غير للتمكن وهو الذي يضع إليه الالتفات إلى تلك الأسباب أحيانا غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية ، والبراهين القطعية ، والأذواق الحالية ؛ فلا يزال كذلك إلى أن يرقبه الله فيجوده إلى مقام المتوكلين التامين ، ويلحقه بدرجات العارفين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّبَعُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ يَقُولُ لِ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٦٧﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ قُدُورِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٦٨﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ) كانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان يوم جمعة ثمانية عشر شهرا من الهجرة ، وبدر ماء هناك وبه سُمي الموضع . وقال السُّعْفِيُّ : كان ذلك الماء لرجل من جهة يسمى بدرا ، وبه سُمي الموضع . والأوّل أكثر . قال الواقدى وغيره : بدر أسم لموضع غير مقول . ويتأني في قصة بدر في « الأخال » إن شاء الله تعالى . و ( أَذِلَّةٌ ) معناها قليلون ؛ وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلا . وكان عدوهم ما بين التسعمائة إلى الألف . و « أَذِلَّةٌ » جمع ذليل . واسم الذل في هذا الموضع مستعار ، ولم يكونوا في أنفسهم إلا إمزة ، ولكن يهتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار في أنظار الأرض تحتضى عند التأمل ذلّهم وأنهم يظنون . والنصرُ النون ؛ فنصرهم الله يوم بدر وقتل فيه صناديد المشركين ، وعلى ذلك اليوم أبُتِيَ الإسلام ، وكان أوّل قتال قاتله النبي صلى الله عليه وسلم . وفي صحيح مسلم عن بريدة قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة قاتل في خمسٍ منهن . وفيه عن ابن إسحاق قال : أُنْصِفَتْ



زيد بن أرقم قتل له : كم غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قمع عشرة غزوة .  
 قتل : فكم غزوت أنت منه ؟ فقال : سبع عشرة غزوة . قال قتل : فما أول غزوة  
 غزاه ؟ قال : ذات السَّيَر أو العسير . وهذا كله مخالف لما عليه أهل التواريخ والسَّيَر . قال  
 محمد بن سعد في كتاب الطبقات له : إن غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع وعشرون  
 غزوة ، وسراياه ست وخمسون ، وفي رواية ست وأربعون<sup>(١)</sup> ، والتي قاتل فيها رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم بدر واحد والمريسيع والخندق وخيبر وقرظة والفتح وحنين والطائف . قال ابن  
 سعد : هذا الذي أجمع لنا عليه . وفي بعض الروايات : أنه قاتل في بني النضير وفي وادي  
 القُرَى مُتَصَرِّفَهُ مِنْ خَيْرٍ وفي النابة<sup>(٢)</sup> . وإنا نقر هذا فنقول : زيد وبريدة إنما أخبر كل  
 واحد منهما بما في علمه أو شاهده . وقول زيد « إن أول غزوة غزاه ذات العشرة » مخالف  
 أيضا لما قال أهل التواريخ والسَّيَر . قال محمد بن سعد : كان قبل غزوة العشرة ثلاث  
 غزوات ، يعني غزاه بنفسه . وقال ابن عبد البر في كتاب الدرر في المنازى والسَّيَر ، أول غزاة  
 غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة ودَّان غزاه بنفسه في صفر ، وذلك أنه وصل  
 إلى المدينة لانتفى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، أقام بها بقية ربيع الأول وباقي العام كله  
 إلى صَفَر من سنة اثنين من الهجرة ، ثم خرج في صفر المذكور واستعمل على المدينة سعد بن  
 حُباب حتى بلغ ودَّان فوادع بني ضمرة<sup>(٣)</sup> ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حربا ، وهي المهمة بغزوة  
 الأبروه . ثم أقام بالمدينة إلى [شهر] ربيع الآخر من السنة المذكورة ، ثم خرج فيها واستعمل  
 على المدينة السَّابَّ بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بواط من ناحية رَضْوَى ، ثم رجع إلى المدينة

(١) الذي في كتاب الطبقات لابن سعد : « وكانت سراياه التي بعث بها وأربعين سرية » .

(٢) النابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام . (٣) ودان (فتح الواو وشدة الهمزة) : قرية تابعة من

أهملات القرى من عمل القرع . وقيل : وادي في الطريق يقطعه المصدرون من حجاج القبية . (عن شرح المواهب) .

(٤) المروضة : المصالحة . - (٥) بواط (فتح الموحدة وقد تسم وتخفيف الواو وأكثره طاء معلقة) :

جبل من جبال جهة يربغ يقع على أربعة برد من المدينة . (٦) رَضْوَى (فتح الزاء وسكون المعجمة

مقصود) : جبل بالمدينة ، وهو على مسيرة يوم من يربغ وعلى سبع مراحل من المدينة .

ولم يلق حرباً ، ثم أقام بها بقية ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى ، ثم خرج غازياً واستخلف على المدينة إبا سامة بن عبد الأسد ، وأخذ على طريق ملك إلى العسيرة .

قلت : ذكر ابن إسحاق عن عمار بن ياسر قال : كنت أنا وعلى بن أبي طالب رفيقين في غزوة العسيرة من بطن يثع فأنزلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهراً فصالح بها بني مدليج وحلفهم من بني خثرة فوادعهم ، فقال لي علي بن أبي طالب : هل لك أبا اليقظان أن تأتي هؤلاء ؟ ففكر من بني مدليج في عين لم تنظر كيف يعملون . فأتيتهم فنظروا إليهم ساعة ثم غشيت النجوم فعمدنا إلى صور بين النخل في دقءاء من الأرض فبنينا فيه ؛ فوآله ما أحبنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدمه ؛ فجلسنا وقد ترتبنا من تلك الدقءاء فيؤمئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : « مالكت يا أبا تراب » ؛ فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال : « ألا أخبركم بأشئ الناس رجلين : فلما يلى يارسول الله ؛ فقال : « أحجيرُموهُ الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذه - ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسه - حتى يسبل منها هذه » ووضع يده على لحيته . فقال أبو عمر : فأقام بها بقية جمادى الأولى وليالٍ من جمادى الآخرة ، ووادع فيها بني مدليج ثم رجع ولم يلق حرباً . ثم كانت بعد ذلك غزوة بدر الأولى بإمام قلائل ، هذا الذي لا يشك فيه أهل التواريخ والسير ، وزيد بن أرقم إنما أخبر عما عنده . والله أعلم . وقال : ذات العسير بالسين والشين ، ويزاد عليها هاء يقال : العسيرة . ثم غزوة بدر الكبرى وهي أعظم المشاهد فضلاً لمن شهدها ، وفيها أمد الله بملأكته نبيه والمؤمنين في قول جماعة العلماء ، وعليه يدل ظاهر الآية ، لا في يوم أحد . ومن قال : إن ذلك كانت يوم أحد جعل قوله تعالى : « وَلَقَدْ تَنَكَّرَ اللَّهُ بِبَدْرٍ » إلى قوله : « تَشْكُرُونَ » اعتراضاً بين الكلامين . هذا قول عامر الشعبي ، وخالفه الناس . وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقالت ؛ ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شيداً

(١) ملك (بالكسر) المكنون والكائن : واد بركة .

(٢) الصدور : جماعة النخل الصنارة لا واحدة من ثقله .

يَدْرُ : لَوْ كُنْتُ مَعَكُمْ الْآنَ يَدْرُ وَمَعِيَ بَصْرِي لِأَرَيْتُكُمْ الشَّيْبَ الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ ،  
لَا أَشْكُ وَلَا أَتَمْرِي . رواه عقيل عن الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي حَازِمٍ سَلَمَةَ بْنِ دِينَارٍ . قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ :  
لَا يُعْرِفُ لِلزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي حَازِمٍ غَيْرُ هَذَا الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ ، وَأَبُو أُسَيْدٍ يُقَالُ إِنَّهُ أَتَمَرٌ مِنْ مَاتَ  
مِنْ أَهْلِ بَدْرَ ، ذَكَرَهُ أَبُو عَمْرٍو فِي الْإِسْتِيعَابِ وَغَيْرِهِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ  
الْخَطَّابِ قَالَ : « لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ  
وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةُ عَشَرَ رَجُلًا ، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِتْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ  
بِجَلِّيلٍ يَتَيْفُ بَرِيَّةٍ : « اللَّهُمَّ أَجْعَلْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ لَيْتَ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ  
الْمَصَابِيءُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُبْقِدْ فِي الْأَرْضِ » لَمَّا زَالَ يَتَيْفُ بَرِيَّةٍ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِتْلَةِ  
حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَنَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَاخْذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، ثُمَّ التَّرِيهَ مِنْ وَرَائِهِ  
وَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ رَبِّكَ ، فَإِنَّهُ سَيُجِيزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :  
« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجِبْ لَكُمْ أَنِّي مُسْتَجِيبٌ لِمَنِ يَأْتِيهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِدِينَ » فَأَمَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى  
بِالْمَلَائِكَةِ . قَالَ أَبُو زَيْلٍ : فَخَذَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ : بَيْنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَسْتَدْفِي أَمْرَ  
رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةَ بِالْسُوطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ : أَقْدِمُ حَيْرُومَ<sup>(١)</sup> ؛  
فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَاذْهَبَ قَدْ خُطِمَ أَفْهَ وَشَقَّ وَجْهُهُ [كَضَرْبَةِ السُّوطِ]  
فَاخْضَرَ ذَلِكَ أَجْمَعُ . بَغَاءُ الْأَنْصَارِ : فَخَذْتُ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :  
« صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّيِّئَةِ الْثَالِثَةِ » فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ . وَذَكَرَ الْحَدِيثُ .  
وَسَيَاتِي قَتَامَهُ فِي آخِرِ « الْأَنْفَالِ » إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . فَتَظَاهَرَتِ السُّنَّةُ وَالْقُرْآنُ عَلَى مَا قَالَهُ  
الْجُمْهُورُ ، وَالْحَدِيثُ . وَعَنْ خَارِجَةَ بِنِ ابِرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
لِجَبْرِئِيلَ : « مَنَى الْقَاتِلُ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَقْدِمُ حَيْرُومَ » ؟ فَقَالَ جَبْرِئِيلُ : « يَا مَعْزُومَ كُلِّ سَمَاءٍ  
أَعْرِفْ » . وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ خَاطَبَ النَّاسَ فَقَالَ : بَيْنَا أَنَا أَفْضَحُ مِنْ قَلْبٍ بَدْرُ جَمَاعَتِ  
رَجِيحٍ شَدِيدَةٍ لَمْ أَرُ مِثْلَهَا قَطُّ ، ثُمَّ ذَهَبَتْ ، ثُمَّ جَمَاعَتِ رَجِيحٍ شَدِيدَةٍ لَمْ أَرُ مِثْلَهَا قَطُّ إِلَّا الَّتِي كَانَتْ

(١) الشَّيْبُ (بِالْكَسْرِ) : الْخَرَقُ فِي الْبَلْبَلِ . (٢) أَبُو زَيْلٍ (بِالتَّصْغِيرِ) هُوَ سَمَّاكُ بْنُ الْوَلِيدِ . (تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ) .

(٣) حَيْرُومَ : اسْمُ فَرَسٍ مِنْ خَيْلِ الْمَلَائِكَةِ . (٤) ذِكْرُ إِزَادَةٍ عَنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ .

قلها . قال : وأتته ذكر : ثم جاءت زيج شديدة ، فكانت الريح الأولى سيوريل تزل في ألف من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الريح الثانية ميكائيل تزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو بكر عن يمينه ، وكانت الريح الثالثة إسرائيل تزل في ألف من الملائكة عن يسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة . وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال : لقد رأيتنا يوم بدر وأن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده نبال أن يصل إليه . وعن الزبيدي بن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتل الملائكة من قتلهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به ؛ ذكر جيمع النبي رحمه الله . وقال بعضهم : إن الملائكة كانوا يقاتلون وكانت علامة ضريبهم في الكفار ظاهرة ؛ لأن كل موضع أصابت ضربتهم اشتعلت النار في ذلك الموضع ، حتى أن أبا جهل قال لابن مسعود : أنت قتلتني ؟ إنما قتلتني الذي لم يصل سنانى إلى سنبك فرسه وإن آجهدت . وإنما كانت القائمة في كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين ، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة ؛ فكل عسكر صبر واحتسب تأتتهم الملائكة ويقاتلون معهم . وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنما يكونون عددا أو مددا . وقال بعضهم : إنما كانت القائمة في كثرة الملائكة أنهم كانوا يدعون ويسبحون ، ويكثرون الذين يقاتلون يومئذ . فقل هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر وإنما حضروا للدعاء بالثبوت ، والأول أكثر . قال قتادة : كان هذا يوم بدر ، أمدم الله بالي ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ؛ فذلك قوله تعالى : « إِذْ تَسْتَبِيحُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنَّى يُعِدُّكُمْ يَالَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » وقوله : « أَلَّنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ » وقوله : « بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » فصر المؤمنين يوم بدر وأتوا الله فأممهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدم ، فهذا كله يوم بدر . قال الحسن : فهؤلاء الخمسة آلاف يؤدُّه للمؤمنين إلى يوم القيامة . قال الشعبي : بلغ النبي

صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن تركز بن جابر المخزومي يريد أن يمدّ المشركين فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ؛ فانزل الله تعالى ﴿ أَلَنْ يَخْفِكُمْ - إلى قوله : مُسَوِّمِينَ ﴾ فبلغ كُرْزًا الغزوة فلم يُعْتَمِ ووجع ، فامدّهم الله أيضا بالخمسة آلاف ، وكانوا قد مكّوا بألف . وقيل : إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته ، وأتقوا عارمه إن يعتم أيضا في حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم يتقوا عارمه إلا في يوم الأحزاب ، فامدّهم حين حاصروا قريظة . وقيل : إنما كان هذا يوم أحد ، وعدم الله للمدّ إن صبروا ، فاصبروا فلم يمدّوا بملك واحد ، ولو أمّدوا لما هزموا ؛ قاله عكرمة والضحاك . فإن قيل : فقد ثبت عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال : رأيت عن عيين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يوم بدر رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عليه أشد قتال ، ما رأيتما قبل ولا بعد . قيل له : لعل هذا مختص بالنبي صلى الله عليه وسلم ، خصه بملكين يقاتلان عنه ولا يكون هذا إمدادا للصحابه . والله أعلم .

الثانية - نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى ، وإنما يحتاج إليه المخلوق فليعلق القلب بالله وليتق به ، فهو الناصر بسبب وبغير سبب ؛ « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » . لكن أخبر بذلك ليتل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد حلت من قبل ، « ولئن تجدد لسنة الله تبديلا » ، ولا يقدح ذلك في التوكل . وهو يرد على من قال : إن الأسباب إنما سُنّت في حق الضمقاء لا للأقوياء ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضمقاء ؛ وهذا واضح . وهذه في الشر و« أمة » في الخير . وقد تقدّم في البقرة . وقرأ أبو حيوة « متريين » بكسر الزاي خفقا ، يني متريين النصر . وقرأ ابن عاصم مشقة الزاي مفتوحة على التكثير . ثم قال : ( على ) وتم الكلام . ( إن تصبروا ) شرط ، أي على لقاء العدو . ( وتلقوا ) عطف عليه ، أي معصيته . والجواب ( يمددكم ) . ومعنى ( من يورهم ) من وجههم . هذا عن عكرمة وقادة والحسن

والزنج والسدي وابن زيد . وقيل : من غضبهم ، عن مجاهد والضحاك . كانوا قد غضبوا يوم أحد يوم بدرم لقوا . وأصل الثور القصبة إلى الشيء ، والأخذ فيه يجيد ، وهو من قولهم : فارت القدر ثور ثورا وثورا إذا غلت . والقور التليان . وفار غضبه إذا جاش . وقوله من ثوره أى قبل أن يسكن . والقزاة ما ثور من القدر . وفي التتيل « وقار الثور » . قال الشاعر :

• ثور طينا قد رم فديعها •

الثالثة — قوله تعالى : ( مُسَوِّينَ ) بفتح الواو اسم مفعول ، وهى قراءة ابن عامر وحزرة والكسائي ونافع . أى مُمَلِّينَ بعلامات . و«مُسَوِّينَ» بكسر الواو اسم فاعل ، وهى قراءة أبى عمرو وابن كثير وعاصم ؛ فيحتل من المعنى ما تقدم ، أى قد أعلموا أنفسهم علامة ، وأعلموا خيلهم . ورجح الطبري وغيره هذه القراءة . وقال كثير من المفسرين : مسوون أى مرسلين خيلهم فى النار . وذكر المهدوي هذا المعنى فى «مُسَوِّينَ» بفتح الواو ، أى أرسلهم الله تعالى على الكفار . وقاله ابن فورك أيضا . وعمل القراءة الأولى اختلقوا فى سماء الملائكة ؛ فروى عن على بن أبى طالب وابن عباس وغيرهما أن الملائكة أحتت بهائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم ؛ ذكره البيهقي عن ابن عباس ، وحكاه المهدوي عن الزجاج . إلا جبريل فإنه كان بهيمة صفراء على مثال الزبر بن العوام ، وقاله ابن إسحاق . وقال الربيع : كانت سحاجم أنهم على خيل بئى .

قلت : ذكر البيهقي عن سهيل بن عمرو رضى الله عنه قال : لقد رأيت يوم بدر رجلا يضا على خيل بئى بين السماء والأرض مُمَلِّينَ يقتلون ويأسرون . فقوله «مُملِّينَ» دل على أن الخيل البئى ليست السببا . والله أعلم . وقال مجاهد : كانت خيلهم تحزوزة الأذنان والأعراف مُعلنة النواحي والأذنان بالصوف والعين . وروى عن ابن عباس : تسومت الملائكة يوم بدر بالصوف الأبيض فى نواحي الخيل وأذناها . وقال عباد بن عبد الله بن الزبير بعشام بن عروة الكوفي : نزلت الملائكة فى سماء الزبير عليهم عمامة صفراء على أكتافهم . وقال ذلك عبد الله وعروة ابنا الزبير . وقال عبد الله : كانت ملاة صفراء أعتم بها الزبير رضى الله عنه .

(١) العين : الصوف المصبوغ الوانا .

قلت : ودلت الآية - وهي الرابعة - على اتخاذ العلامة للقبائل والكتائب يحملها السلطان لم تشيخ كل قبيلة وكتيبة من غيرها ضد الحرب ، وعلى فضل الخليل الباقي لقول الملائكة عليها .

قلت : - ولعلها زلت عليها موافقة لفرس المقداد ، فإنه كان باقى ولم يكن لم فرس غيره ، فزلت الملائكة على الخليل الباقي إكراما للمقداد ، كما زل جبريل معتجراً بهمة صفراء على مثال الزبير . والله أعلم .

ودلت الآية أيضا - وهي الخامسة - على لباس الصوف وقد لبسه الأنبياء والصالحون . وروى أبو داود وابن ماجه واللفظ عن أبي بردة عن أبيه قال قال لي أبي : لو شهدتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصابتنا السماء لحبست أن ريمحنا ربح الضبان . وليس صلى الله عليه وسلم جبة رومية من صوف ضيقة الكتفين ، رواه الأئمة . ولبسها يونس عليه السلام ، رواه مسلم . وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان في «التحل» إن شاء الله تعالى .

السادسة - قلت : وما ذكره جلعند من أن خيلهم كانت محروزة الأذن . والأعراف فبيد ، فإن في مصنف أبي داود عن جبة بن عبد السلى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تحضروا نواصي الخيل ولا مطرفها ولا أذنها فإن أذنها مذلها ومطرفها دغلها ونواصيها معقود فيها الخير » . فقول جلعند يحتاج إلى توقيف من أن خيل الملائكة كانت على تلك الصفة . والله أعلم .

ودلت الآية على حسن الأبيض والأسفر من الألوان لتزول الملائكة بذلك ، وقد قال ابن عباس : من لبس نلأ أصفر قضيت حاجته . وقال عليه السلام : « البسوا من ثيابكم البياض فإنه من خير ثيابكم وكفتموا فيه موتاكم وأما العمام فتيبان العرب ولبسها » . وروى وكأنه وكان صارع النبي صلى الله عليه وسلم فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم ، قال وكأنه : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « فرق ما بيننا وبين المشركين العمام على القلائس » أخرجه أبو داود . قال الثماني : إسناده مجهول لا يعرف سماع بعضه من بعض .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۖ  
وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٦٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَقًا مِنَ الَّذِينَ  
كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى : ( وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ) المنة للعد ، وهو الملائكة . أو الوعد  
أو الإمداد ، ويدل عليه « بمددكم » أو للتسويم أو الإزالة أو العمد على المعنى ؛ لأن خمسة  
آلاف عدد . ( وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ) الام لا م كي ، أي ولتطمئن قلوبكم به جملة ؛ كقوله :  
« وَزَيْنَا السَّيِّئَةُ اللَّهُمَّ بِمَصَابِيحٍ وَحَقَّقَا » أي حفظا لما جعل ذلك . ( وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ )  
يعني نصر المؤمنين ، ولا يدخل في ذلك نصر الكافرين ؛ لأن ما وقع لهم من غلبة إنما هو إغلاء  
عُفُوفٌ يَهْدِلَانِ وَسُوءُ عَاقِبَةٍ وَخُسْرَانٍ . ( لِيَقْطَعَ طَرَقًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ) أي بالقتل . ونظم  
الآية : ولقد نصركم الله بيدر لقطع . وقيل : والمعنى وما النصر إلا من عند الله لقطع .  
ويجوز أن يكون متعاقبا بمددكم ، أي بمددكم لقطع . والمعنى : من قتل من المشركين يوم بدر ؛  
عن الحسن وغيره . السدى : يعني به من قتل من المشركين يوم أحد وكانوا ثمانية عشر رجلا .  
وسمى ( يَكْبِتُهُمْ ) يمزقهم ؛ والمكبوكة المزقونة . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى  
أبي طلحة فرأى أبنته مكبوتا فقال : « ما شأنه ؟ » . فقيل : مات بغيره . وأصله فيما ذكر  
بعض أهل اللغة « يكيدهم » أي يصيبهم بالحرز والنيظ في أبادهم ، فأبدلت الدال تاء ،  
كما قلت في سبب رأسه وسببه أي حلقه . كتبت الله المدوكة إذا صرفته وأثله ، وكيدته  
أصابه في كيدته ؛ يقال : أحرقت الحرز كيدته ، وأحرقت المدواة كيدته . وتقول العرب للمدو :  
أسود الكيد ؛ قال الأعشى :

فما أبجست من إتيان قوم • هم الأعداء فالأباد سود

كان الأباد لما احترقت بشدة المدواة أسودت . وقرأ أبو حمزة « أويكيدهم » بالمدال . والخائب :  
المقطع الأمل . خاب يخيب إذا لم يزل ما طلب . والخائب : القذح لا يورى .

(١) أبجست : كتبت على شقة .



قوله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ  
فَأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن  
يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى :- ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كُتِرَ رِبَاعِيَةٌ يَوْمَ أُحُدٍ ،  
وُتِّجَ فِي رَأْسِهِ ، فَبَغَلَ يَسْلُتُ الدَّمُ عَنْهُ وَيَقُولُ : « كَيْفَ يُضْلَعُ قَوْمٌ تَحْتُوا رَأْسَ نَبِيِّهِمْ وَكُسِرُوا  
رِبَاعِيَةً وَهِيَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . الضحاك :  
« هُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » .  
وقيل : استأذن في أَنْ يَدْعُوَ فِي اسْتِثْنَائِهِمْ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلِمَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ سَيُطْلَعُ وَقَدْ آمَنَ  
كَثِيرٌ مِنْهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرُهُمْ ، وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ  
عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو عَلَى أَرْبَعَةٍ قَرَأَ فَانْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ  
« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . فَهَذَا هُوَ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ . وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ  
صَحِيحٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قِيلَ : هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى « لَيُفْطَحَنَّ طَرَفَاهُ » . وَالْمَعْنَى :  
لَيُقْتَلَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَوْ يَحْزَنَهُمْ بِالْغَزِيَّةِ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ . وَقَدْ تَكُونُ « أَوْ » هَاهُنَا بِمَعْنَى  
« حَتَّى » وَ « إِلَّا أَنْ » . قَالَ أَحْمَدُ وَالثَّقَفِيُّ :

« ... أَوْ نُمُوتَ فَنُكْدَرَا »

قال علامنا : قوله عليه السلام : « كَيْفَ يُضْلَعُ قَوْمٌ تَحْتُوا رَأْسَ نَبِيِّهِمْ » استبعاد لئوفيق  
من فعل ذلك به . وقوله تعالى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » تقريب لما استبعدناه وإطراح  
في إسلامهم ، ولما أطيع في ذلك قال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »  
كما في صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : كَانَ أَنْظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي نِيًّا  
مِنَ الْإِنِّيَاءِ ضَرْبُهُ قَوْمَهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : « رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ

لا يعلمون". قال علياؤنا : فالخاكي في حديث ابن مسعود هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو الحكيم عنه ؛ بدليل ما قد جاء صريحا بيننا أنه عليه الصلاة والسلام لما كسرت رابعيته وشج وجهه يوم أحد شتى ذلك على أصحابه شقا شديدا وقالوا : لو دعوت عليهم ! فقال : " إني لم أبست لَمَاتًا ولكن بعتُ دَاعِيًا وَرَحْمَةً اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " . فكانه عليه السلام أوحى إليه بذلك قبل وقوع قِصَّةِ أُحُدٍ ، ولم يُعَيِّنْ له ذلك الشيء ؛ فلما وقع له ذلك تَمَيَّنَ أنه المُعَيَّنُ بذلك بدليل ما ذكرنا . وسينته أيضا ما قاله عمر له في بعض كلامه : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد دعا نوح على قومه فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَارًا » الآية . ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا ؛ فلقد وُطِنَ ظهورك وأدْمَى وجهك وكسرت رابعيتك فابيت أن تقول إلا خيرا ، فقلت : « رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » . وقوله : « اشتد غضب الله على قوم كسروا رابعة نبيهم » يعنى بذلك المباشر لذلك ، وقد ذكرنا اسمه على اختلاف في ذلك ، وإنما قلنا إنه خصوص في المباشر لأنه قد أسلم جماعة من شهد أحدا وحسن إسلامهم .

الثانية - زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخة للقنوت الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله بعد الركوع في الركعة الأخيرة من الصبح ، واحتج بحديث ابن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال : « اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ » - ثم قال - « اللَّهُمَّ أَلْنِ فَلَانًا وَفَلَانًا » فانزل الله عز وجل « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ » الآية . أخرجه البخاري ، وأخرجه مسلم أيضا من حديث أبي هريرة أتم منه . وليس هذا موضع نسخ وإنما نبه الله تعالى نبيه على أن الأمر ليس إليه ، وأنه لا يعلم من النبى . شيئا إلا ما أعلمه ، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء ويسجل العقوبة لمن يشاء . والتقدير : ليس لك من الأمر شيء . والله ما في السموات وما في الأرض دوتك ودونهم ينفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء . فلا نسخ ، والله أعلم . وبين بقوله : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » أن الأمر بقضاء الله وقدره ودأ على القدرية وغيرهم .

الثالثة - واختلف العلماء في القنوت في صلاة الفجر؛ فجع الكوفيون منه في الفجر  
 ونحوه. وهذا مذهب الأئمة ويحيى بن يحيى الأئمة صاحب مالك، وأثره الشعبي.  
 وروى الموطأ عن ابن عمر: أنه كان لا يقنّت في شيء من الصلاة. وروى السائي أنبأنا ثقيفة عن  
 حنبل عن أبي مالك الأشجعي من أبيه قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقنّت،  
 وصليت خلف أبي بكر فلم يقنّت، وصليت خلف عمر فلم يقنّت، وصليت خلف عثمان فلم يقنّت،  
 وصليت خلف علي فلم يقنّت، ثم قال: يا بني إنها بدعة. وقيل: يقنّت في الفجر دائما وفي ما  
 من الصلاة إذا نزل بالمسلمين نازلة؛ قاله الشافعي والطبري. وقيل: هو مستحب في صلاة  
 المعجر، وروى عن الشافعي. وقال الحسن ومحمد بن: إنه سنة. وهو مقتضى رواية علي بن  
 زنا عن مالك بإعادة تركه للصلاة عمدا. وحكى الطبري الإجماع على أن تركه غير مفسد  
 للصلاة. وروى الحسن: في تركه سجود السهو؛ وهو أحد قول الشافعي. وذكر الدارقطني عن سعيد  
 ابن عبد العزيز فيمن نسي القنوت في صلاة الصبح قال: يسجد سجدتي السهو، واختار مالك.  
 قول الركوع؛ وهو قول إمامنا. وروى أيضا عن مالك بعد الركوع، وروى عن الخليل،  
 الأربعة، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق أيضا. وروى عن جماعة من الصحابة التخيّر  
 في ذلك. وروى الدارقطني بإسناد صحيح عن أنس أنه قال: ما زال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم يقنّت في صلاة الفداء حتى فارق الدنيا. وذكر أبو داود في المراسيل عن خالد بن  
 أبي عمران قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على مضر إذ جاءه جبريل فأومأ إليه  
 أن: "سكّ فسكت؛ فقال: "يا محمد إن الله لم يبعثك سبّابا ولا لئاما وإنما بعثك رحمة ولم يبعثك  
 عذبا، ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يمسهم فأنهم ظالمون" قال: ثم علمه  
 هذا القنوت فقال: "اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونخضع لك ونخلع ونترك من  
 يكفرك اللهم إياك نعبد ولك نصل ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخاف عذابك  
 الجِدْ إنا عذابك بالكافرين ملحق".

- (١) المتروك: المتروك والقل. (٢) الحلف (بفتح نون): الإصرار في العمل والخلة.  
 (٣) الرواية بكسر الحاء، أي من نزل به عذابك ألحقه بالكفار. وقيل: هو بمعنى لائق، لغة في الحق.  
 وروى فتح الحلاء على القول، أي إن عذابك يلحق بالكفار ويصير به. (عن ابن الأثير).

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً  
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٥١﴾  
وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٢﴾

قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ) هذا التي عن أكل  
الربا افتراض بين إثبات قصة أحد . قال ابن عطية : ولا احفظ في ذلك شيئا مَرَوِيًّا .

قلت : قال مجاهد : كانوا يبيعون البيع إلى أجل ، فلما حل الأجل زادوا في الثمن على أن  
يُؤْتَرُوا ؛ فانزل الله عز وجل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » . وإنما خص  
الربا من بين سائر المعاصي لأنه الذي أذن فيه بالحرب في قوله : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ  
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » والحرب يؤذن بالقتل ، فكانه يقول : إن لم تتقوا الربا هُزِمْتُمْ وقُتِلْتُمْ ، فامرهم  
بترك الربا لأنه كان معمولاً به عندهم . والله أعلم . و ( أَضْعَافًا ) نصب على الحال و ( مُضَاعَفَةً )  
نعتة . و قرئ « مضعفة » ومعناه : الربا الذي كانت العرب تضعف فيه الدين ، فكان الطالب  
يقول : أَتَعْصِي أَم تَرْبِي ؟ كما تقدم في « البقرة » . و ( مُضَاعَفَةً ) إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً  
بعد عام كما كانوا يصنعون ، فدلّت هذه العبارة المؤكدة على شدة فعلهم وقبحه ولذلك ذكرت  
حالة التضعيف خاصة .

قوله تعالى : ( وَاتَّقُوا اللَّهَ ) أي في أموال الربا فلا تأكلوها . ثم حذّره فقال : ( وَاتَّقُوا النَّارَ  
الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ) قال كثير من المفسرين : وهذا الوعيد لمن استحل الربا ، ومن استحل  
الربا فإنه يكفر . وقيل : معناه اتقوا العمل الذي يترع منكم الإيمان فتسوجبون النار ؛ لأن من  
الذنوب ما يستوجب به صاحبه ترع الإيمان ويخاف عليه ؛ من ذلك عقوق الوالدين . وقد جاء  
في ذلك أثر : أن رجلاً كان عاقاً لوالديه يقال له علقمة ؛ فعيل له عند الموت : قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ،  
فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمه فرضيت عنه . ومن ذلك قطعة الرّحم وأكل الربا والخيانة

في الأمانة . وذكر أبو بكر الزقاق عن أبي حنيفة أنه قال : أكثر ما يتزعج الإيمان من العبد عند الموت . ثم قال أبو بكر : فظننا في الذنوب التي تتزعج الإيمان فلم نجد شيئا أسرع تزجاً للإيمان من ظلم العباد . وفي هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة ردّاً على الجهمية لأن المعلوم لا يكون معلوماً . ثم قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ في الفرائض ﴿ وَالرَّسُولَ ﴾ في السنن . وقيل : « أطيعوا الله » في تحريم الربا « وَالرَّسُولَ » فيما يلزمكم من التحريم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ أي كي يرحمكم الله . وقد تقدم .

قوله تعالى : **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴿١٢٢﴾  
فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر « سارعوا » بغير واو ؛ وكذلك في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام . وقرأ باقي السبعة « وسارعوا » بالواو . وقال أبو علي : كَلَّا : لأمر من شائع مستقيم ؛ فمن قرأ بالواو فلائنه عطف الجملة على الجملة ، ومن ترك الواو فلائنه الجملة الثانية ملتبسة بالأولى مستغنيةً بذلك عن المطفف بالواو . والمساواة بالمادة ، وهي المخلطة . وفي الآية حذف ، أي سارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهي الطاعة . قال أنس ابن مالك ومكحول في تفسير « سارعوا إلى مغفرة من ربكم » : معناه إلى تكمية الإحرام . وقال علي بن أبي طالب : إلى أداء الفرائض . عثمان بن عفان : إلى الإخلاص . الكلبي : إلى التوبة من الربا . وقيل : إلى الثبات في القتال . وقيل غير هذا . والآية عامّة في الجميع ، ومعناها معنى « فَاسْتَبِقُوا الْغَيْرَاتِ » وقد تقدم .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تقديره كعرض حفيف المضاعف ؛ كقولهم : « مَا خَلَقْتُكُمْ وَلَا بَشَرْتُكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَاحِدَةٍ » أي إنا تكلّفنا نفس واحدة وبشيتها . قال الشاعر :

(١)

حَيْثُ بُنِيَ رَاحَتِي عَنَّا \* وَمَا هِيَ وَبَعْدَ غَيْرِكَ بِالْمَتَّاقِ

يريد صوت عناق ، نظيره في سورة الحديد « وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

واختلف العلماء في تأريه ؛ فقال ابن عباس : تُقَرَّنُ السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض ؛ فذلك عَرْضُ الجنة ، ولا يعلم طولها إلا الله . وهذا قول الجمهور ، وذلك لا ينكر ؛ فإن في حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرمي إلا كدرهم ألقيت في فلاة من الأرض وما الكرشي في العرش إلا كحفلة ألقيت في فلاة من الأرض » . فهذه مخلوقات أعظم بكثير جداً من السموات والأرض ، وقدره الله أعظم من ذلك كله . وقال الكلبي : الجنة أربعة : جنة عدن وجنة المأوى وجنة الفردوس وجنة النعيم ، وكل جنة منها كمرض السماء والأرض لو وصل بعضها ببعض . وقال إسماعيل السدي : لو كسرت السموات والأرض وصرت نردلا ، فيكَلَّ نردلة جنة عرضها كمرض السماء والأرض . وفي الصحيح : « إِنْ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مِثْلَةَ مَنْ يَتَنَبَّأُ وَيَتَنَبَّأُ حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأُمَانُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَكَ ذَلِكَ وَعِشْرَةُ أَمْثَالِهِ » . ورواه أبو سعيد الخدري ، ترجمه مسلم وغيره . وقال يعلى بن أبي مرة : لَقِيتُ التَّوْحِيْدَ رَسُولَ هِرَقْلَ ابْنِ الْبَيْتِ مَلِ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَحْصٍ شَيْئاً كَبِيراً قَالَ : قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكُتَابِ هِرَقْلَ ، فَنَاقِلُ الصَّحِيفَةِ رَجُلَانِ يَسَارُهُ ؛ قَالَ : قُلْتُ مَنْ صَاحِبُكَ الَّذِي يَقْرَأ ؟ قَالُوا : مُعَاوِيَةُ ؛ فَإِذَا كُتِبَ صَاحِبِي : إِنَّكَ كُتِبْتَ تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فَايْنَ النَّارُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَبْحَانَ اللَّهِ فَايْنَ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ » . وَمِثْلُ هَذِهِ الْحِجَةِ اسْتَدَلَّ الْفَارُوقُ عَلَى الْيَهُودِ حِينَ قَالُوا لَهُ : أَرَأَيْتَ قَوْلَكُمْ « وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ » فَايْنَ النَّارُ ؟ قَالُوا لَهُ : لَقَدْ نَزَعَتْ بِهَا فِي الثَّوْرَةِ . وَنَبِيَهُ تَعَالَى بِالْعَرْضِ عَلَى الطُّولِ لِأَنَّ النَّالِبَ أَنَّ الطُّولَ يَكُونُ أَكْثَرَ مِنَ الْعَرْضِ ، وَالطُّولُ إِذَا ذَكَرَ لَا يَدُلُّ عَلَى قَدَرِ

(١) بنام الثامنة : صوت لا تفصح به . والمتاق (بالفتح) : الأنثى من المهر . وريب : بمعنى ويل . واليت قتي

اليتقن الطهورى يعالج ذنبا به في طريقه . (عن الحسن) . (٢) نزع بها في الثوراة : بحت بها بسببها .

المرض . قال الزهرى : إنما وصف عَرَضَهَا ، فأما طولها فلا يعلمه إلا الله ؛ وهذا كقوله تعالى : « مُتَكِنِينَ عَلَى قُرُوشٍ بَطَائِنًا مِنْ مِزْبَاقٍ » فوصف البطانة بأحسن ما يعلم من الزينة ، إذ معلوم أن القواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن . وتقول العرب : بلادٌ عريضة ، وفلاة عريضة ، أى واسعة ؛ قال الشاعر :

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ هِيَ عَرِيضَةٌ \* عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كَفَّةٌ حَائِلٌ

وقال قوم : الكلام جارٍ على مقطع العرب من الاستعارة ؛ فلما كانت الجنة من الأنساع والانسحاق في غاية قُصْوَى حُسْنِ العبارة عنها بعرض السموات والأرض ؛ كما تقول للرجل : هذا بحر ، ولشخص كبير من الحيوان : هذا جبل . ولم تقصد الآية تعديد المرض ، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه . وطامة العلماء على أن الجنة مخلوقة موجودة ؛ لقوله « أَعْلَتْ لِأُتَقِينَ » وهو نص حديث الإسراء وغيره في الصحيحين وغيرهما . وقالت المعتزلة : إنها غير مخلوقة في وقتنا ، وإن الله تعالى إذا طوى السموات والأرض أبدأ خلق الجنة والنار حيث شاء ، لأنهما دارُ جزاء بالثواب والعقاب ، تخلقتا بعد التكليف في وقت الجزاء ؛ لتلاصق دار التكليف ودار الجزاء في الدنيا ، كما لم يجتمعا في الآخرة . وقال ابن فورك : الجنة يزداد فيها يوم القيامة . قال ابن عطية : وفي هذا متعلق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال : إن الجنة لم تخلق بعد . قال ابن عطية وابن فورك : « يزداد فيها » إشارة إلى موجود ، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العثر في الزيادة .

قلت : صدق ابن عطية رضي الله عنه فيما قال . وإذا كانت السموات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى الكرسي كدراهم أُلْقِيَتْ في فلاة من الأرض ، والكرسي بالنسبة إلى العرش كحلبة ملقاة بأرض فلاة ؛ فالجنة الآن على ما هي عليه في الآخرة عرضها كعرض السموات والأرض ؛ إذ العرش سَقْفُهَا ، حسب ما ورد في صحيح مسلم ، ومعلوم أن السقف يحتوى على ما تحته وي زيد . وإذا كانت المخلوقات كلها بالنسبة إليه كالحلقة فمن ذا الذي يقدره ويصل طولها وعرضه إلا الله خالقها الذي لا نهاية لقدرته . ولا غاية لسعة ملكته ، سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : الَّذِينَ يُتَّقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَنَظِمِ وَالْفَيْظِ  
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (الَّذِينَ يُتَّقُونَ) هذا من صفة المتقين الذين أُعِدَّتْ لهم الجنة .  
وظاهر الآية أنها مدحٌ بفعل المندوب إليه . و (السراء) اليسر (والضراء) العسر ؛ قاله ابن  
عباس والكسبي ومقاتل . وقال عبيد بن عمير والضعاك : السراء والضراء الرخاء والشدة .  
ويقال في حال الصحة والمرض . وقيل : في السراء في الحياة ، وفي الضراء يعني يوصى بعد  
الموت . وقيل : في السراء في العرس والولائم . وفي الضراء في التوايب والمآثم . وقيل :  
في السراء النعمة التي تسركم ، مثل النعمة على الأولاد والقرابات ، والضراء على الأعداء . ويقال :  
في السراء ما يضيف به القى ويهدى إليه . والضراء ما ينفقه على أهل الضر ويتصدق به عليه .  
قلت : - والآية تتم . ثم قال تعالى : (وَالْكَنَظِمِ الْفَيْظِ) وهي المسألة :

الثانية - وكظم الفَيْظَ رَدُّهُ في الجوف ؛ يقال : كَظَمَ غَيْظَهُ أى سَكَتَ عَلَيْهِ ولم يظهره  
مع قدرته على إيقاعه بدهوه . وكظمتُ السَّقاءَ أى مَلَأْتُهُ وسدَدْتُ عَلَيْهِ . والكِنَظَامُ ما يُسَدُّ به  
مجرى الماء ؛ ومنه الكِنَظَامُ للسير الذي يُسَدُّ به فم الزَّقِّ والقِرْبَةِ . وكظمَ البعيرُ جِرَّتَهُ إذا رَتَّحَهَا <sup>(١)</sup>  
في جوفه ؛ وقد يقال لحبسه الحَزْوَ قَبْلَ أَنْ يَرْسُلَهَا إِلَى فِيهِ : كظمَ ؛ حكاه الزجاج . يقال : كَظَمَ  
البعيرُ والناقةُ إذا لم يَحْتَرَا ؛ ومنه قول الراعي :

فَأَفْضَنَ بَسْدَ كُظُومِهِنَّ بِحَسْرَةٍ \* مِنْ ذِي الْأَبَارِقِ إِذْ رَمَى حَبِيلًا

الحَبِيلُ : موضع . والحَبِيلُ نَبْتُ . وقد قيل : إنها تفعل ذلك عند الفزع والجهد فلا تَجْتَرُّ .  
قال أَعْنَى بِأَهْلَةٍ يَصِفُ رَجُلًا تَحَارًا لِلْإِبِلِ فَهِيَ تَفْزَعُ مِنْهُ :  
قَدْ تَكْظُمُ الْبَرْقُ مِنْهُ <sup>(٢)</sup> حِينَ تُبْصِرُهُ \* حَتَّى تَقْطَعَ فِي أَجْوَافِهَا الْحُرُورَ

(١) الحِرْزُ (بالكسر) : ما يحزبه البعير من بطنه ليحميه ثم يلهه .

(٢) البرق (بضم نون) : جمع بازل ، وهو البعير الذي استكمل النامه وطمن في النامه وفطر بابه .



ومنه : رجل كظيم ومكظوم إذا كان ممثلاً عاماً ومزناً . وفي التبريل : « وَأَيَّضْتُ عَيْنَهُ  
مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ » . « ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » . « إِذْ تَأَذَّى وَهُوَ مُكَظَّمٌ » . والقيظ  
أصل الغضب ، وكثيرا ما يتلازمان لكن فرقان ما بينهما أن القیظ لا يظهر على الجوارح ،  
بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ما ولا بد ؛ ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله  
تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم . وقد فسر بعض الناس القیظ بالغضب ؛  
وليس بجيد . والله أعلم .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ ) المَفْو عن الناس أجل ضرر فيل  
الخبر ؛ حيث يجوز للإنسان أن يَمْفُو حيث يَجْه حقه . وكل من استحق عقوبة فترك له  
فقد عُفِيَ عنه . واختلف في معنى « عَنِ النَّاسِ » ؛ فقال أبو العالية والكأبي والزجاج : « والمافين  
عن الناس » يريد عن المالك . قال ابن عطية : وهذا حسن على جهة المثال ؛ إذ هم الخفمة  
فهم يذنبون كثيرا والقُدرة عليهم متيسرة ، وإفاد المَقوبة سهل ؛ فلذلك مثل هذا المفسر .  
وروى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحيفة فيها مِرْقَة حارة ، وعنده  
أضياف فَعَرَّتْ نصبت للمِرْقَة عليه ، ذرأ ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يا مولاي ، استعمل  
قول الله تعالى : « وَالكَاطِمِينَ أَلْيَظْ » . قال لما : قد فعلت . فقالت : اعمل بما بعده « والمافين  
عن الناس » . فقال : قد عفوتُ عنك . فقالت الجارية : « والله يجب المحسِنين » . قال ميمون :  
قد أحسنتُ إليك ، فانتِ حُرّة لوجه الله تعالى . وروى بن الأحنف مثله . وقال زيد بن  
أسلم : « والمافين عن الناس » عن ظلمهم وإساستهم . وهذا علم ، وهو ظاهر الآية . وقال  
مقاتل بن حيان في هذه الآية : بَلَّغْنَا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك :  
« إِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ أُمَّتِي قَلِيلٌ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا فِي الْأَثَمِ الَّتِي مَضَتْ » . فذبح  
الله تعالى الذين يَفْخرون عند الغضب واتخى عليهم فقال : « وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » ، وأثنى  
على الكاطمين القیظ بقوله : « والمافين عن الناس » ، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك .  
وزُردت في كَقْظَم القیظ والمَفْو عن التامن وملك النفس عند الغضب أحاديث ؛ وذلك من

أَعْظَمُ الْعِبَادَةِ وَجِهَادِ النَّفْسِ ؛ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَوْ سِئِلْتُ الشَّدِيدَ بِالصَّرْعَةِ <sup>(١)</sup> وَلَكِنِ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ " . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : " مَا مِنْ جُرْمَةٍ يَتَوَعَّظُ بِهَا الْعَبْدُ خَيْرًا لَهُ وَأَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ جُرْمَةٍ غِيْظَ فِي اللَّهِ " . وَرَوَى أَنَسُ بْنُ رَجَلًا قَالَ : يَارَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَشَدُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟ قَالَ : " غَضَبُ اللَّهِ " . قَالَ فَمَا يُجَنَّبِي مِنْ غَضَبِ اللَّهِ ؟ قَالَ : " لَا تَغْضَبْ " . قَالَ الرَّسُولُ :

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُورًا كَانِظًا • الْغِيْظُ بُصْرٌ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ  
فَكَتَفَى بِهِ شَرْقًا تَصْبُرُ سَاعَةً • يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الْإِلَهُ وَتُرْفَعُ

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الزَّيْرِ فِي الْعَفْوِ :

لَنْ يَبْلُغَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ شَرُّوْا • حَتَّى يَذُلُّوا وَإِنْ عَزَّوْا لِأَقْرَامٍ  
وَيُسْتَمَوْا قَتَرَى الْأَلْوَانُ مُشْرِقَةً • لَا عَفْوَ ذُلٌّ وَلَكِنْ عَفْوَ إِرَامٍ

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَأَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ مَعَاذٍ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ كَظُمَ غِيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغْفِدَ <sup>(٢)</sup> عَاهُ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَمُوسٍ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيَّرَ فِي أَى الْحَوَارِ شَاءَ " قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ عَرِيبٌ . وَرَوَى أَنَسُ بْنُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فَلْيَدْخُلْ الْجَنَّةَ يُقَالُ مَنْ ذَا الَّذِى أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فَيَقُومُ الْعَاقِبُونَ عَنِ النَّاسِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ " . ذَكَرَهُ الْمَاورِدُ . وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ : كُنْتُ عِنْدَ الْمَنْصُورِ جَالِسًا فَأَمَرَ بِقَتْلِ رَجُلٍ ؛ فَفَلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ كَانَتْ لَهُ يَدٌ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَتَقَدَّمْ فَلَا يَتَقَدَّمُ إِلَّا مَنْ عَفَا عَنْ ذَنْبٍ " ؛ فَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ .

الرَّابِعَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَى يُشَبِّهُهُمْ عَلَى إِحْسَانِهِمْ . قَالَ سَرِيُّ السَّقَطِيُّ : الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ وَقْتُ الْإِمْكَانِ ، فَلَيْسَ كُلُّ وَقْتٍ يَمُكِّنُ الْإِحْسَانَ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

(١) الْبَصَرَةُ (بِزَمِّ السَّادِ وَدَوْنِ الرَّاءِ) : الْمَالِغُ فِي السَّرْعِ الَّذِى لَا يُنْطَلَبُ ؛ فَقُلْتُ : إِلَى الَّذِى يُنْطَلَبُ نَفْسُهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَيُنْهَرُ مَا .

بِإِدْرَاجِهِ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَسِرًا \* فَلَيْسَ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْتَ مُقْتَدِرٌ

وقال أبو العباس الجُمَانِيُّ فاحسن :

ليس في كل ساعة وأوانٍ \* تنبهاً صنائع الإحسانِ

وإذا أمكنت فإدراج إليها \* حنراً من تدبير الإسكانِ

وقد مضى في «البقرة» القول في المحسن والإحسان فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ يُبْرَأْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُبْصَرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (١٢٥)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)** ذكر الله تعالى في هذه الآية صنفاً دون الصنف الأول فالخفهم به برحمته ومنه ؛ فهؤلاء هم التوابون ، قال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت هذه الآية في نَبَّانِ التَّيَّارِ — وكنته أبو مقبل — أخته امرأة حسنة باع منها تمراً ، فضعها إلى نفسه وقبلها فقدم على ذلك ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فنزلت هذه الآية . وذكر أبو داود الطيالسي في مسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : حدثني أبو بكر — وصدق أبو بكر — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له — ثم تلا هذه الآية — وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ — الآية ، والآية الأخرى — وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ » .** وخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . وهذا عام . وقد نزل الآية بسبب خاص ثم تناول جميع من فعل ذلك وأكثرت منه . وقد قيل : إن سبب نزولها أن ثقيفاً خرج في غزاة وخلف صاحباً له أنصارياً على أهله ، فخاف فيها أن

أَتَمَّعَ عَلَيْهَا فَذَعَفَتْ عَنْ نَفْسِهَا قَبْلَ يَدَيَّاهُ ، فَخَدَمَ عَلَى ذَلِكَ فَخَرَجَ يَبِيعُ فِي الْأَرْضِ نَادِمًا تَائِبًا ؛  
 بِخِطَاءِ التَّغْفِيْ فَخَابِرَتُهُ زَوْجَتُهُ بِفَعْلٍ صَاحِبِهِ ، فَخَرَجَ فِي طَلَبِهِ فَأَتَى بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرَوْرَجَاهُ أَنْ  
 يَحْسُدَ عِنْدَهُمَا فَرِيًّا ؛ فَوَيْحَاهُ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَابِرَهُ بِفَعْلِهِ ؛ فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ .  
 وَالْمَوْمُ أَوَّلُ لِلْحَدِيثِ . وَرَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ الصَّامِيَةَ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَانَتْ  
 بَنُو إِسْرَائِيلَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مَنًّا ، حَيْثُ كَانَ الْمَذْنِبُ مِنْهُمْ يُصْبِحُ عَقُوبَتُهُ عَلَى بَابِ دَارِهِ .  
 وَفِي رِوَايَةٍ : كَهَافَةُ ذَنْبِهِ مَكْتُوبَةٌ عَلَى عِثَةِ دَارِهِ : إِبْدَعْتَ أَفْئَكَ ، إِبْقَعْتَ أَذْنَكَ ، أَفْعَلْتُ كَذَا ؛ فَانْزِلْ  
 اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ تَوَسُّعًا وَرَحْمَةً وَعَوَظًا مِنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ بَنُو إِسْرَائِيلَ . وَيُرْوَى أَنَّ إِبْلِيسَ  
 بَكَى حِينَ زَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَالْفَاحِشَةُ تَطْلُقُ عَلَى كُلِّ مَعْصِيَةٍ ، وَقَدْ كَثُرَ اخْتِصَابُهَا بِإِزْنًا حَتَّى  
 فَتَرَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالسُّدِّيُّ هَذِهِ الْآيَةَ بِإِزْنًا . وَ« أَوْ » فِي قَوْلِهِ « أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » قِيلَ  
 هِيَ بِمَعْنَى الْوَارِ ، وَالْمُرَادُ مَا دُونَ الْبَكَاةِ . ( ذَكِّرُوا اللَّهَ ) بِمَعْنَاهُ بِالْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهِ وَالْحَيَاءِ مِنْهُ .  
 الصَّعَالُ : ذِكْرُكَ التَّرَضُّ الْأَكْبَرَ عَلَى اللَّهِ . وَقِيلَ : تَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ سَأَلَهُمْ عَنْهُ ؛  
 قَالَهُ الْكَلْبِيُّ وَمَقَاتِلٌ . وَعَنْ مَقَاتِلٍ أَيْضًا : ذَكِّرُوا اللَّهَ بِاللِّسَانِ عِنْدَ الذَّنُوبِ . ( فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ )  
 طَلِبُوا الْغُفْرَانَ لِأَجْلِ ذُنُوبِهِمْ . وَكُلُّ دُعَاءٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَوْ لِقَظُهُ فَهُوَ اسْتِغْفَارٌ . وَقَدْ تَقَدَّمَ  
 فِي صَبْرِ هَذِهِ السُّورَةِ سَيِّدُ الْاسْتِغْفَارِ ، وَأَنْ وَقْتَهُ الْإِسْحَارُ . فَالْاسْتِغْفَارُ عَظِيمٌ وَثَوَابُهُ جَسِيمٌ ،  
 حَتَّى لَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ قَالَ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ الَّذِي  
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ قَرَأَ مِنَ الرَّحْفِ » . وَرَوَى مُكْحُولٌ  
 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ اسْتِغْفَارًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَالَ مُكْحُولٌ .  
 مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ اسْتِغْفَارًا مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَكَانَ مُكْحُولٌ كَثِيرَ الْاسْتِغْفَارِ . قَالَ عَلَمَاؤُنَا :  
 الْاسْتِغْفَارُ الْمَطْلُوبُ هُوَ الَّذِي يَحْتَلُّ عَقْدُ الْإِصْرَارِ وَيُثَبِّتُ مَعْنَاهُ فِي الْإِنْفَانِ ، لَا التَّلَقُّظُ بِاللِّسَانِ .  
 فَمَا مِنْ قَالٍ لِلسَّابِقِ : اسْتَغْفَرَ اللَّهَ ، وَقَلْبُهُ مُصَرٌّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاسْتَغْفَرَهُ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِغْفَارٍ ،  
 وَصَغِيرَةٍ لِأَحَقَّةِ الْبَكَاةِ . وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : اسْتَغْفَارًا يَحْتَاجُ إِلَى  
 اسْتِغْفَارٍ .

قلت : هذا يقوله في زمانه ، فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان ميّكاً على الظلم ! حرصاً عليه لأبليح ، والسبحة في يده زاعماً أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف . وفي التنزيل « وَلَا تَحْذَرُوا آيَاتِ اللَّهِ هُرُوراً »<sup>(١)</sup> . وقد تقدم .

الثانية - قوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعُرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ » أي ليس أحد يفغر المصيبة ولا يُزيل عقوبتها إلا الله . « وَلَمْ يُصْرُوا » أي ولم يشعروا وبسزموا على ما فعلوا . وقال بجاحدة : أي ولم يعضوا . وقال معبد بن صبيح : صليت خلف عثمان وعلى إلى جاني ، فأقبل طينا فقال : صليت بغير وضوء ثم ذهب فتوضأ وصلى . « وَلَمْ يُصْرُوا عَلَى مَا قَعَلُوا وَهُمْ يَسْمُونَ » . الإصرار هو العزم بالقلب على ترك الأمر والإقلاع عنه . ومنه صر الدائير أي التزبط عليها . قال الخطيب يصف الخليل :

عوايس بالثمت الكأه إذا آبتوا \* عللتها بالمحصيات أصرت  
أي ثبتت على عدوها . وقال قتادة : الإصرار الثبوت على المعاصي ؛ قال الشاعر :

يُصِرُّ بالبيل ما تنقئ شواكله \* يا ويح كل مُصِرِّ القلب ختار<sup>(٢)</sup>

قال سهل بن عبد الله : الجاهل ميت ، والناسي نائم ، والعاصي سكارف ، والمُصِرُّ هالك . والإصرار هو التسويف ، والتسويف أن يقول أتوب غدا ؛ وهذا دعوى النفس ، كيف يتوب غدا وغدا لا يملكه ! . وقال غير سهل : الإصرار هو أن ينسوى ألا يتوب فإن نوى التوبة خرج عن الإصرار . وقول سهل أحسن . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا توبة مع الإصرار » .

الثالثة - قال علماؤنا : الباعث على التوبة وحل الإصرار إدانة الفكر في كتاب الله العزيز النفاذ . وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنحة ووعد به المطيعين ، وما وصفه من

(١) راجع ١ ص ٤٦ طبع ثانية أو ثالثة ، ج ٣ ص ١٥٦ طبع أول أو ثانية .

(٢) اللامعة (بالهمزة) : بنية برى القوس . والمحصيات : البياض للقنوية . (٣) الشواكل : القرد المشتمة على الطريق الأعظم . (٤) الخمر : شبيه بالقدور والهدية . وقيل : هو أسوأ التدويرات . و« ختار » لباقية .

مذاب النار وتهتد به العاصين ، ودام على ذلك حتى قوى خوفه ورجاؤه فدعا الله رجاءاً ورجاءاً ، والزَّعْبَةَ والرهبةَ مُسْمَرَةً الخوف والرجاء ، يخاف من العقاب ويرجو الثواب ، والله الموفق للصواب . وقد قيل : إن الباعث على ذلك تبيهُهُ إِلَهُيُ يَبْسُهُ به من أراد سعادته ؛ لِقُبْح الذنوب وضررها إذ هي سموم مهلكة .

قلت : وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى ، فإن الإنسان لا يَتَفَكَّر في وعد الله وعيده إلا بتنبهه ؛ فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشحونةً بذنوبٍ اكتسبها وسيئات اقترفها ، وأثبت منه التَّذَمُّع على ما نُقِط ، وترك مثل ما سبق مخافة عذوبة الله تعالى صدَّق عليه أنه تائب . فإن لم يكن كذلك كان مُصِرّاً على المعصية وملازماً لأسباب المهلكة . قال سهل بن عبد الله : علامة التائب أن يشمله الذنب على الطعام والشراب ؛ كالثلاثة الذين خَلَقُوا<sup>(١)</sup> .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ فيه أقوال . فقيل : أى يذكرون ذنوبهم فينبون منها . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقيل : « وهم يعلمون » أى أعاقب على الإصرار . وقال عبد الله بن عُبيد بن عُمر : « وهم يعلمون » أنهم إن تابوا تاب الله عليهم . وقيل : « يعلمون » أنهم إن استغفروا غُفِرَ لهم . وقيل : « يعلمون » بما حُرِّت عليهم ؛ قاله ابن إسحاق . وقال ابن عباس والحسن ومقاتل والكوفي : « وهم يعلمون » أن الإصرار ضارٌّ ، وأن تركه خيرٌ من التَّكَادِي . وقال الحسن بن الفضل : « وهم يعلمون » أن لهم ربّاً يغفر الذنب .

قلت : وهذا أخذه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يَمَكِّي عن ربه عز وجل قال : « أَذْنِبَ عَبْدٌ ذَنْباً فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنِبَ عَبْدِي ذَنْباً فَلَمْ يَنْ لَه رُبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنِبَ فَقَالَ أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي - فذكر مثله مرتين ، وفي آخره : يا عَمَل ما شئت فقد غفرت لك » أخرجه مسلم .

(١) حم كعب بن مالك ، وملاذ بن أبية ، وسراوة بن الربيع . تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ؛ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه لا تكلنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة ؛ إل أن تقيم قوله تعالى : « وعل الثلاثة الذين خلفوا ... » آية ١١٨ سورة التوبة ، وراجع سيرة ابن هشام في الكلام .  
... توبك ( ص ٨١٣ طبع أروا ) .

وفيه دليل على صحة التوبة بعد تقضها بمعاودة الذنب؛ لأن التوبة الأولى طاعة وقد انقضت وصحت، وهو محتاج بعد موافقة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة، والمواد إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه أضاف إلى الذنب قصص التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه أضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الكرم وأنه لا غار للذنوب سواء. وقوله في آخر الحديث "اعمل ما شئت" أمرٌ بمعناه الإكرام في أحد الأقوال؛ فيكون من باب قوله: «أخلوها بسلام». وآخر الكلام أخبر عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، وعفوف أن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه. ودلت الآية والحديث على عظم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه؛ قال صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه" أخرجاه في الصحيحين. وقال: يستوجب العبدُ العفو إذا اعترف بما جنى من الذنوب وأقرّف. وقال آخر:

أقِرْ بِذَنْبِكَ ثُمَّ أَطْلُبْ تَجَاوَزَهُ • إِنَّ الْجُودَ يَجُودُ الذَّنْبَ ذَنْبَانِ

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تُدْنِوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يُذنبون ويستغفرون فيُغفر لهم". وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفار والتواب، على ما بيناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى

الخامسة — الذنوب التي يُتاب منها: الكفر أو غيره؛ فزوبة الكافر إيمانه مع تقيمه على ما سلف من كفره، وليس يجزئ الإيمان نفس توبة. وغير الكافر إيمانه حق لله تعالى، وإما حقٌ لغيره؛ فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه الترك؛ غير أن منها ما لم يكن في الشرع فيها يجزئ الترك بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحنث في الإيمان والظهار وغير ذلك. وإنا حقوق الآدميين فلا بُدَّ من إصالحها إلى مستحقها، فإن لم يوجدوا تُصَلَّقَ عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فَعَفُو الله ما بول، وفضله مبدول؛ فكم حَقَّن من التَّعَاتِ وبَقِل من السيئات بالحسنات. وستأتي زيادة بيان لهذا المعنى.

السادسة - ليس على الإنسان إذا لم يذكر ذنبه ويعلمه أن يتوب منه بيته، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنباً تاب منه . وقد تأول كثير من الناس فيها ذكر شيخنا أبو عبد الله المعطى الأسكندراني رضي الله عنه أن الإمام المحاسبي رحمه الله يرى أن التوبة من أجلّ الناس المعاصي لا تصح، وأن الندم على جملتها لا يكفي، بل لابد أن يتوب من كل فعل يمارحته وكل عقد قبله على التمين . ظنوا ذلك من قوله، وليس هذا مراده، ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلف إذا عرف حكم أفعاله، وصرف المعصية من غيرها صححت منه التوبة من جملة ما عرف؛ فإنه إن لم يعرف تكون فعله الماضي معصية لا يمكنه أن يتوب منه لاعلى الجملة ولا على التفصيل . ومثاله رجل كان يتطاعى باباً من أبواب الربا ولا يعرف أنه ربا فإذا سمع كلام الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّكُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » عظم عليه هذا التهديد، وظن أنه سالم من الربا . فإذا علم حقيقة الربا الآن، ثم تفكر فيما مضى من أيامه وعلم أنه لا بأس منه شيئا كثيرا في أوقات متقدمة، صح أن يندم عليه الآن جملة، ولا يلزمه تمين أوقاته . وهكذا كل ما وقع من الذنوب والسيئات كالنية والنية وغير ذلك من المحرمات التي لم يعرف كونها محرمة، فإذا فقه الله وتنفذ ما مضى من كلامه تاب من ذلك جملة، وندم على ما قوط فيه من حق الله تعالى . وإذا استعمل من كان ظاهرا فحاله على الجملة وطابت نفسه بترك حقه جاز؛ لأنه من باب هبة المجهول . هذا مع فتح العبد وحرمه على طلب حقه، فكيف بأكرم الأكرمين المتفضل بالطاعات وأسبابها والغفور عن المعاصي صفارها وكبارها . قال شيخنا رحمه الله تعالى : هذا مراد الإمام، والذي يدل عليه كلامه لمن تنفذه وما ظنّه به الظان أن أنه لا يصح الندم إلا على فعل قبل وحركة حركة وسكنة سكنة على التمين هو من باب تكليف ما لا يطاق، الذي لم يقع شرطا وإن جاز عقلا، ويلزم عنه أنه يعرف كم جرمة جرعه في شرب الخمر، وكم حركة تحركها في الزنا، وكم خطوة مشاهدا إلى محرم، وهذا ما لا يطيقه أحد، ولا يتأتى منه توبة على التفصيل . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان من أحكام التوبة وشروطها في «النساء» وغيرها إن شاء الله تعالى .



السابعة - في قوله تعالى : ( وَلَمْ يَصْرُواْ ) حُجَّةً وَاحِدَةً ودلالة قاطعة لما قاله سيف  
السنَّة، ولسان الأمة القاضي أبو بكر بن الطيب : أن الإنسان يؤاخذ بما وطَّن عليه ضميره،  
وعزَّم عليه بقلبه من المصيبة .

قلت : وفي التفسير « وَمَنْ يُؤْذِ فِيهِ بِالْحَدِّ يُطْلَمُ نَفْسُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ » وقال :  
« فَأَصْبَحَتْ كَالْمَيْرِمِ » . فزوقوا قبل فعلهم بزمهم وسباق يمانه . وفي البخاري « إِنْ أَلْفَى  
الْمُسْلِمَانِ بَيْنَهُمَا قَاتِلًا وَالْمَقْتُولَ فِي النَّارِ » قالوا : يا رسول الله هذا القاتل ، فأبال المقتول ؟  
قال : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » . فأتى الوعيد على الحرص وهو العزم وأتت إظهار  
السلامة . وأما من هذا ما خرجه الترمذي من حديث أبي كُبَيْشَةَ الْأَعْمَرِيِّ وَصَحَّه مَرْفُوعًا  
« إِنْ أَلْفَى الدُّنْيَا لأَرْبَعَةٍ غَيْرِ رَجُلٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعَلِمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَجُلَهُ وَيَعْلَمُ فِيهِ  
حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَازَلِ . وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَهُوَ [ صَادِقُ النِّبْيِ ] يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي  
مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِمِثْلِ فُلَانٍ فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَجُلَهُمَا سِوَاهُ . وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ  
[ يَخْطِئُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ] لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ بِهِ رَجُلَهُ وَلَا يَسْلَمُ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَازَلِ .  
وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِمِثْلِ فُلَانٍ فَهُوَ يَتَّقِي  
فِيهِ رَجُلَهُمَا سِوَاهُ » . وهذا الذي صار إليه القاضي هو الذي عليه طائفة السلف وأهل العلم من  
الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، ولا يُخْفَى إلَّا خلاف من زعم أن ما يَمُتُّ الإنسان به وإن وطَّن  
عليه [ نفسه ] لا يؤاخذ به . ولا حُجَّة في قوله عليه السلام : « مَنْ حَمَلَ بَسِطَةً فَلَمْ يَسْلَمْهَا لَمْ يَحْمِلْ بِهَا »  
عليه فإنَّ حملها كُتِبَتْ سِيئَةً واحدة « لأنَّ معنى « ظمَّ يَسْلَمُهَا » ظمَّ يَزِمُّ على عملها بدليل ما ذكرناه ،  
ومعنى « ظمَّ يَحْمِلُهَا » أي أظهرها أو حمَّز عليها بدليل ما وصفنا . وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ جَنَّةٍ مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَفِيهَا أَمْحَرُ السَّيِّئِينَ ﴿١٦٦﴾

رَبِّ تَعَالَى بفضله وكرمه تُغْفَرُ الْقُتُوبُ لمن أخلص في توبته ولم يُصِرَّ على ذنبه . ويمكن  
أن يتصل هذا بقصة أحد ، أي من قرئتم تاب ولم يُصِرَّ فله مغفرة الله .

(١) زيادة من سنن ترمذي .

قوله تعالى : قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكَ سِنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَذَابَ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٢٧﴾

هذا تسلية من الله تعالى للمؤمنين ، والسَّن جمع سَنَة وهي الطريق المستقيم . وفلان على السَّنَة أى على طريق الاستواء لا يميل إلى شيء من الأهواء ؛ قال المذنب :

فَلَا تَجْزَمَنَّ مِنْ سَنَةِ أَنْتَ مِرْتَبَهَا • فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مِنْ يَسِيرِهَا

والسَّنَة : الإمام المتبع للوُحْم به ؛ يقال : سَنَ فلان سُنَّةً حسنةً وَسُنَّةً لئلا يعمل عملاً اقتدى به فيه من خير أو شر ؛ قال لبيد :

مِنْ مَعْبِرَاتٍ لَمْ أَبَاؤُهُمْ • وَلَكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

والسَّنَة الأئمة ، والسَّن الأئمَّة ، عن المفضل . وأشد :

مَا عَيْنُ النَّاسِ مِنْ فَضْلِي كَفَضْلِهِمْ • وَلَا رَأَوْا مِثْلَهُمْ فِي سَالِفِ السَّنِ

قال الزجاج : والمعنى أهل سنن ، تخفف المضاعف . وقال أبو زيد : أمثال . عطاء . شرايع . مجاهد : المعنى « قد خلت من قبلك سنن » يعنى بالهلاك فيمن تكذب قبلكم كتماناً وعمود . والناقبة : آخر الأمر ؛ وهذا في يوم أُحد . يقول فانا أمهالهم وأُملي لهم وأستدرجهم حتى يبلغ الكُلاب أجله . يعنى بنصرة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهلاك أعدائهم الكافرين .

قوله تعالى : هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

يعنى القرآن ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : هذا إشارة إلى قوله : « قد خلت من قبلك

سن » . والموعظة للوعظ . وقد تقدم .

قوله تعالى : وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٩﴾

عزائمهم وسلام بما نالهم يوم أُحد من القتل والجراح ، وحثهم على قتال عدوهم ونهائم عن المعز والقتل فقال « وَلَا تَهِنُوا » أى لا تضعفوا وَلَا تَحْزَنُوا يَا أَصْحَابَ مَعْدَن عن جهاد أعدائكم لما

أصابكم . ولا تحزنوا ، على ظهوركم ، ولا على ما أصابكم من المزية والسمية . واثم لأطون :  
 أي لكم تكون العاقبة بالنصر والفقر . إن كنتم مؤمنين ، أي بصدق وعدي . وبيل :  
 « إن » بمعنى « إذ » . قال ابن عباس : لنهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد  
 فينضم كلهم إذ أقبل خالد بن الوليد بجبل من المشركين ، يريد أن يكلوهم الجبل ، فقال  
 النبي صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ لَا يَلْنْ طِيَابُ اللَّهِمْ لَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ اللَّهُمَّ لَسْ بِبَدِكَ  
 يَهْذُ الْبَلْدَةُ نِيْرُ حَوْلَا الْفَر » . فأقبل الله هذه الآيات . وبات قر من المسلمين ومائة نصيبوا  
 الجبل ودموا خيل المشركين حتى من موم ، فذلك قوله تعالى : « وَاتَّمَّ الْأَطْفَالُ » يعني  
 الفتيان على الأمل بعد أحد . فلم يجرؤوا بعد ذلك سركا إلا ظفروا في كل سكر كان  
 في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي كل سكر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 وكان فيه واحد من الصحابة كان الظفر لم ، وهذه البلدان كلها إنما اختصت على عهد أصحاب  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد انقراضهم ما انتصت بلدة على الوجه كما كانوا يختصرون  
 في تلك الوقت . وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة لأه طابهم بها طاب . وأولها  
 لأه قال لموسى : « إِنَّكَ أَنْتَ الْأَوَّلُ » . يقال لهذه الأمة : « وَأَنْتُمْ الْأَطْفَالُ » . وهذه الكلمة  
 مشتقة من اسمه لأهل فهو سبحانه القبل . وقال قومين : « وَأَنْتُمْ الْأَطْفَالُ » .

قوله تعالى : **إِنْ يَسْكُرْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ** . وَيَكُنِ  
 الْأَيَّامُ تَدْوِيًا بَيْنَ أَتْنَسٍ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَخْلِدَ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ  
 وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : **( إِنْ يَسْكُرْ قَرْحٌ )** القرح الجرح . والضم والفتح فيه لغتان من الكساف  
 والأخش ، مثل غر وطر . القراء : هو بالفتح الجرح ، والضم لله . والمضى : إن يسكم  
 يوم أحد قرح قد مس القوم يوم بدر قرح مثله . وقرا محمد بن السبيعي « قرح » بفتح

القاف والراء على المصدر . ( وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تَتَاوَلَتْ بَيْنَ النَّاسِ ) قيل : هذا في الحرب ، تكون مرة للمؤمنين لينصر الله دينه ، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنين ليبيطهم ويخص ذنوبهم ؛ فأما إذا لم يعصوا فإن حزب الله هم الغالبون . وقيل : « تداولوا بين الناس » من فرح وغم وصحة وسقم وغنى وفقر . والدولة الكرة ؛ قال الشاعر :

فيم كُنّا ويوم كُنّا • ويوم كُنّا ويوم نُبّر

قوله تعالى : ( وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ) معناه وإنما كانت هذه المداولة ليرى المؤمن من المنافق فيسير بعضهم من بعض ؛ كما قال : « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَلَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَاقَوْا » . وقيل : ليعلم صبر المؤمنين ، العلم الذي يقع عليه الجزاء كما علمه غيا قبل أن كفهم ، وقد هُدم في « البقرة » هذا المعنى .

قوله تعالى : ( وَتَتَخَذَ مِنْكُمْ سُوءَ بَالٍ ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « وَتَتَخَذَ مِنْكُمْ سُوءَ بَالٍ » أي يكرهكم بالشهادة ؛ أي ليقول فوم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل لهذا : قيل شهيد . وقيل : سُمي شهيدا لأنه مشهود له بالجنة . وقيل : سُمي شهيدا لأن أرواحهم أحضرت دار السلام ، لأنهم أسياء عند ربهم ، وأرواح غيرهم لا تفصل إلى الجنة ؛ فالشهيد بمنى الشاهد أي الحاضر بالجنة . وهذا هو الصحيح على ما يأتي . والشهادة فضلها عظيم ، ويكفيك فيها قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ » الآية . وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُخْصِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » إلى قوله : « ذَلِكَ الْقَوْلُ الْعَلِيمُ » . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يجيد الشهيد من القتل إلا كما يجيد أحدكم من القُرعة » . وروى النسائي عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يُجتنون في بيوتهم إلا الشهيد ؟ قال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » . وفي البخاري : « مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

يوم أحد<sup>(١)</sup> منهم حزة وآتيان والنضربين أنس ومُصعب بن عمير، حدثني عمرو بن علي أن ماذا ابن هشام قال حدثني أبي عن قتادة قال : ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أعز يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : وحدثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أحد سبعون ، ويوم بئر معونة سبعون ، ويوم اليمامة سبعون . قال : وكان بئر معونة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيكة الكذاب . وقال أنس : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بل بن أبي طالب وبه ثياب وستون حُرانة من طمئة وضربة ورمية ، بفعل النبي صلى الله عليه وسلم يسحقها وهي تلم بلذ الله تعالى حتى كان لم تكن .

الثانية - في قوله تعالى : ( وَتَجِدُ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ ) دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقوله أهل السنة ؛ فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين حزة وأصحابه وأراد قتلهم ، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأرادته فواقه آدم . وعكسه أنه أمر إبليس بالسجود ولم يرده فأتع منه ؛ وعنه وقعت الإشارة بقوله الحق : « وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ تَبَعًا لَهُمْ » . وإن كان قد أمر جميعهم بالجهاد ولكنه خلق الكسل والأسباب القاطعة عن المسير فقدموا .

الثالثة - روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال له : « خَيْرَ أَصْحَابِكَ فِي الْأَسَارَى إِنْ شَاءُوا الْقَتْلَ وَإِنْ شَاءُوا الْفِدَاءَ عَلَى أَنْ يُقْتَلَ مِنْهُمْ عَامُ الْقَبْلِ مِثْلُهُمْ قَالُوا الْفِدَاءَ وَيُقْتَلَ مِثْلُ مَا » أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . فأنجز الله وعده بشهادة أوليائه بعد أن خیرهم فاختاروا القتل . ( وَأَنَّ لَهُ لَا يَجِبُ الْفَلَاحِينَ ) أي للمشركين ، أي وإن أنال الكفار من المؤمنين فهو لا يجهم ، وإن أحل المسلم بالمؤمن فإنه يجب المؤمنين .

قوله تعالى : وَلِيَمِصْحَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

(١) التي في شرح التفسير على صحيح البخاري : « وأنس بن النضر » وهو من أنس بن مالك كما ذكره أبو نعيم وابن عبد البر وغيرهما . ولأبي ذر « النضر بن أنس » وهو خطأ ، والصواب الأول . »

فيه ثلاثة أقوال : يُخَصَّصُ يَخْتَرُ - الثاني - يطهر؛ أى من ذنوبهم فهو على حذف مضاف .  
 المعنى : ويخص الله ذنوب الذين آمنوا؛ قاله الفراء . الثالث - يُخَصَّصُ يَخْلَصُ ؛ فهذا أغربها .  
 قال الخليل : قال : يحص الحبل يُخَصَّصُ عَصَا إِذَا اقْطَع وَبَرَّهُ ؛ ومنه «اللَّهُمَّ حَصَّ عَا ذُنُوبَنَا»  
 أى خلصنا من عقوبتها . وقال أبو إسحاق الزجاج : قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل :  
 التخصيص التخليص . يقال : عَصَّه عَصَا إِذَا خَلَّصَهُ ؛ فالمعنى عليه ليحلل المؤمنين لثيبتهم  
 ويخلصهم من ذنوبهم . ( وَيَمَحِّقُ الْكَافِرِينَ ) أى يستأصلهم بالهلاك .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا  
 مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١١٦﴾

« أم » بمعنى بل . وقيل : ألم زائدة ، والمعنى أحسبتم بامن انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة  
 كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا  
 صبرهم لا حتى ( يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ) أى علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء . والمعنى :  
 ولم تجاهدوا فيعلم ذلك منكم ؟ فلما معنى لم . وقرئ سيويه من « لم » و « لمها » ، فزعم أن  
 « لم يفعل » قى فعل ، وإن « لمسا يغفل » نقي فذوق . ( وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ ) منصوب بإخضار  
 أن ، عن الخليل . وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر « يعلم الصابرين » بالجزم على النسق . وقرئ  
 بالرفع على القطع ، أى وهو يعلم . وروى هذه القراءة عبد الوارث عن أبي عمرو .  
 وقال الزجاج : الواو هنا بمعنى حتى ، أى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم حتى يعلم صبرهم  
 كما تقدم أنفا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ  
 رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١١٧﴾

أى الشهادة من قبل أن تلقوه . وقرأ الأعمش « من قبل أن تلقوه » أى من قبل  
 القتل . وقيل : من قبل أن تقوا أسباب الموت ؛ وذلك أن كثيرا ممن لم يحضر بئرا كانوا

يبتزون يوما يكون فيه قتل ؛ فلما كان يوم أُسد انهمزوا ، وكان منهم من تجلّد حتى قتل ، ومنهم أنس بن الضُرَّم أنس بن مالك ؛ فإنه قال لما انكشف المسلمون : اللَّهُمَّ إِنِّي أَرَا إِلَيْكَ جَاءَ جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ ، وَبَاشَرَ الْقِتَالَ وَقَالَ : لَهَا إِنِّهَا رَجَعَ الْجَنَّةُ ! إِنِّي لِأَجِدُهَا ، وَمَضَى حَتَّى اسْتَشِيدَ . قَالَ أَنَسٌ : فَمَا عَرَفْنَاهُ إِلَّا بِبَنَاتِهِ وَوَجِدْنَا فِيهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ جِرَاحَةً . وَفِيهِ وَفِي أَمْثَالِهِ نَزَلَ « وَجَاءَ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » . فَالْآيَةُ عِتَابٌ فِي حَقِّ مَنْ أَتَاهُمْ ، لِأَسِيًّا وَكَانَ مِنْهُمْ حَمْلٌ لِلنَّهْيِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَسِيقَاتِي . وَتَقَى الْمَوْتَ يَرْجِعُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى تَمَتُّى الشَّهَادَةِ الْمُبِينَةِ عَلَى الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ ، لَا إِلَى قَتْلِ الْكُفَّارِ لَمْ ؛ لِأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ وَكَفَرٌ وَلَا يَحُوزُ إِزَادَةَ الْمَعْصِيَةِ . وَعَلَى هَذَا يَحْمَلُ سُؤَالَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَرْزُقَهُمُ الشَّهَادَةَ ، فَيَسْأَلُونَ الصَّبَرَ عَلَى الْجِهَادِ وَإِنْ أَتَى إِلَى الْقَتْلِ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ قال الأخفش : هو تكرير بمعنى التأكيد لقوله : « فقد رأيتموه » مثل « وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » . وقيل : معناه وأنتم بصراء ليس في أعينكم على ؛ تقول : قد رأيت كذا وكذا وليس في عينيك عنه ؛ أى فقد رأيته رؤية حقيقية ؛ وهذا راجع إلى معنى التوكيد . وقال بعضهم : « وأنتم تنظرون » إلى عهد صلى الله عليه وسلم . وفى الآية إختصار ، أى فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلم أنهمزتم .

قوله تعالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَلْقَلْبَتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١١﴾  
فيه خمس مسائل :

الأولى - روى أنها نزلت بسبب أنهمز المسلمون يوم أُحد حين صاح الشيطان : قد قُتل محمد . قال عطية التوفي : قال بعض الناس : قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانكم . وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى

تلقوا به ؛ فأزل الله تعالى في ذلك « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » إلى قوله :  
« فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَرَابُ الدُّنْيَا » . وما تافية ، وما بعدها ابتداء وخبر ، ويطل عمل ما . وقرأ ابن عباس  
« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ رُسُلٌ » بغير ألف ولا ياء . فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست  
بباقية في قومها أبداً ، وأنه يجب التحك بما أتت به الرسل وإن فقد الرسول بموت أو قتل  
وأكرم نبيه صلى الله عليه وسلم بأسمين مشفقين من أمته : محمد وأحمد ، يقول العرب : رجل  
مجود ومحمد إذا كثرت خصاله الحمودة ؛ قال الشاعر :

مَجُودٌ وَمُحَمَّدٌ إِذَا كَثُرَتْ خِصَالُهُ الْحَمُودَةُ ؛  
إِلَى الْمَسَاجِدِ الْقَرَمِ الْجَوَادِ الْمُحَمَّدِ<sup>(١)</sup> .

وقد مضى هذا في الفاتحة<sup>(٢)</sup> . وقال عباس بن مرداس :

بِاخْتِمَامِ النَّبَاءِ الْبَاقِ مُرْسَلٌ . بِالْخَيْرِ كُلِّ هُدًى السَّبِيلِ هُدًى  
إِنَّ إِلَهَ بَنِي عَلِيٍّ عَجَبٌ . فِي خَلْقِهِ وَمُحَمَّدًا سَمَكًا

فهذه الآية من بَيِّنَةِ الْإِتِّبَابِ مع المنزيمين ، أي لم يكن لهم الإكترام وإن قُتل محمد ، والنزوة  
لا تندر الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء ، والله أعلم .

الثانية - هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجرأته ؛ فإن الشجاعة والجرأة  
حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب ، ولا مضية أعظم من موت النبي صلى الله عليه وسلم  
كما تقدم بيانه في « البقرة »<sup>(٣)</sup> فظهرت عنده شجاعته وعلمه . قال الناس : لم يمُت رسول الله صلى  
الله عليه وسلم ؛ منهم عمر ، وخرس عثمان ، واستخفى علي ، وأضطرب الأمر فكشفه الصديق  
بهذه الآية حين قدمه من مكانه بالسج ، الحديث ؛ كما في البخاري . وفي سنن ابن ماجه عن  
عائشة قالت : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر عند أمراته أبنية خارجة  
بالنوال ، فجعلوا يقولون : لم يمُت النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو بعض ما كان يأخذه عند

(١) هذا مجزئ للأشئ ، ومصدره : • إِلَيْكَ أَيْتُ الْغَنِّ كَانَ كَلَامًا •

(٢) راجع - ١ ص ١٢٢ طية ثانية أو ثالثة . (٣) راجع المسئلة الثالثة - ٢ ص ١٧٦ طية ثانية .

(٤) السج (ضم) أنه وسكون الراء وقد تقدم : موضع من أطراف المدينة ، وهي منازل بني الحارث ابن  
الخرزج بمرال المدينة ، وبينها أربعين منزلاً النبي صلى الله عليه وسلم قبل .



الروحى . بغاء أبو بكر تكشف عن وجهه وقبل بين عينيه وقال : أنت أكرم على الله أن يميتك !  
 مرتين . قد والله مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر في ثلحية المسجد يقول : والله ما مات  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . قام  
 أبو بكر فصعد المنبر فقال : من كان يبعد الله فإن الله حى لم يميت ، ومن كان يبعد محمداً فإن محمداً  
 قد مات ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل إنا أن مات أو قتل آقلمت على أعقابكم ومن  
 يتقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » . قال عمر : فلكأنى لم أقرأها  
 إلا يومئذ . ورجع عن مقاله التي قالها فيما ذكر الوائلى أبو نصر عيد الله في كتابه الإبانة .  
 من أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بويع أبو بكر في مسجد رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وأستوى على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد قبل أبي بكر فقال : أنا بعد  
 فإنى قلت لكم أمس مقالة وإنها لم تكن كما قلت ، وإنى والله ما وجدت المقالة التي قلت  
 لكم في كتاب أنزل الله ولا في عهد عهده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى كنت أرجو  
 أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يدبرنا — يريد أن يقول حتى يكون آخرنا موتاً —  
 فأختر الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندهم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به  
 رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الوائلى أبو نصر :  
 المقالة التي قالها ثم رجع عنها هي « أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يميت ولن يموت حتى يقطع  
 أيدي رجال وأرجلهم » وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه ، وخشى الفتنة وظهور المنافقين ،  
 فلما شاهد قوة يقين الصديق الأكبر أبى بكر وقهره بقول الله عز وجل : « كل نفس  
 ذائقة الموت » وقوله : « إنا يميت » وما قاله ذلك اليوم قبة وثبت وقال : كأنى لم  
 أسمع بالآية إلا من أبى بكر . وخرج الناس يتلون في سيكك المدينة كأنها لم تتل قط إلا ذلك  
 اليوم . ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا اختلاف ، في وقت دخوله المدينة في هجرته  
 حين اشتد الصفاء ، ودفن يوم الثلاثاء وقيل ليلة الأربعاء . وقالت صفية بنت عبد المطلب  
 رثى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الا يا رسول الله كنت رجلاً . وكنت يساً . ولم تك جانياً  
 وصككت رجلاً هادياً ومسلماً . ليك عليك اليوم من كان بائناً  
 لمسررك ما أبكى النبي لقده . ولكن لما اختفى من الهرج أتياً  
 كأن على قلبي لذكر عبيد . وما خفت من بعد النبي المكروباً  
 اناطم صلى الله رب محمد . على جنت أنسى ينزرت ثوباً  
 فدى رسول الله أمي وخالي . وعمي وأبائي وقسي ومالي  
 صدقت وبلغت الرسالة صادقاً . ومث صليب العود أبق صافياً  
 فلو انت رب الناس أتني نيتاً . سبغنا ، ولكن أمره كان ماضياً  
 عليك من الله السلام نجية . وأدخلت جنات من المدن راضياً  
 أرى حساً أجتته وزكته به . مكر ويدعو جده ليوم ناعياً

فان قيل وهي :

الثالثة - فلم أتردق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال لأهل بيت أنخروا دفن  
 بينهم : "تجملوا دفن جيفتكم ولا تزعروها" . فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول - ما ذكرناه  
 من عدم اعتناقهم على موته . الثاني - لأنهم لا يسلون حيث يدفنون . قال قوم في القبيح .  
 وقال آخرون في المسجد . وقال قوم : يحبس حتى يحمل إلى أبيه إبراهيم . حتى قال العالم  
 الأكبر سمته يقول : " ما دفن نبي إلا حيث يموت " ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرها .  
 الثالث - أنهم اشتغلوا بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البعثة ، فظفروا فيها  
 حتى استتب الأمر واستظم الشمل واستوت الحال ، واستقرت الخلافة في نصلها فاجموا  
 أبابكر ، ثم بايروه من القديمة أخرى عن ملاءمتهم ورضاً ، فكشف الله به الكربة من أهل  
 الردة ، وقام به الذين ، والحمد لله رب العالمين . ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم  
 فظفروا في دفنه وضلوه وكفثوه . والله أعلم .

الرابعة - وأُخْتُفِلَ هل صَلَّى عليه أم لا؟ فَنَهَمَ من قال : لم يُصَلِّ عليه أحد، وإنما وقف كل أحد يدعو؛ لأنه كان أشرف من أن يُصَلِّى عليه . وقال ابن العربي : وهذا كلام ضعيف، لأن السنة تقوم بالصلاة عليه في الحائِزَة، كما تقوم بالصلاة عليه في النساء؛ فيقول : اللهم صل على محمد إلى يوم القيامة . وذلك مفعلة لنا . وقيل : لم يُصَلِّ عليه لأنه لم يكن هناك إمام . وهذا ضعيف؛ فإن الذي كان يقيم بهم الصلاة القرىضة هو الذي كان يُؤْتَمُّ بهم في الصلاة . وقيل : صلى عليه الناس أفراداً؛ لأنه كان آخر الهدى به، فأرادوا أن يأخذ كل أحد بركته مخصوصاً دون أن يكون فيها تاباً لغيره . والله أعلم بصحة ذلك .

قلت : قد نرجح ابن ماجه بإسناد حسن بل صحيح من حديث ابن عباس وفيه : فلما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء وُضِعَ على سريره في بيته، ثم دخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالاً<sup>(١)</sup> يصلون عليه، حتى إذا فرغوا أدخلوا النساء، حتى إذا فرغوا أدخلوا الصبيان، ولم يُؤْتَمِ الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد . نرجحه عن نصرين على الجهتَين . أتينانا وحب بن جرير حدثنا أبي عن محمد بن إسحاق قال حدثني حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس؛ الحديث بطوله .

الخامسة - في تغيير الحال بعد النبي صلى الله عليه وسلم عن أنس قال : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما تَقَضَّتْ عن النبي صلى الله عليه وسلم الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا . أخرجه ابن ماجه وقال : حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كنا نَسْتَعِي الكَلَامَ والابتناس إلى نساء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة أن يترل فينا القرآن، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمنا . وأُسْتُدْعِ عن أم سلمة بنت أبي أمية زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام المصلي<sup>(٢)</sup> لم يَدَّ بصر أحد لهم موضع قميصه؛

(١) أرسالا : أتوايا ورفقا خفلة بينهم يغربوا؛ واحدهم رسل، يفتح الراء والسين .

(٢) زيادة عن ابن ماجه .

فَتَوَقَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصل لم يمد بصر أحدكم موضع جيبه، فتوق أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصل لم يمد بصر أحدكم موضع القبلة؛ فكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة فلفت الناس في الصلاة ميماً وشمالاً.

قوله تعالى: ( أَتَأْتُونَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَهْلَيْكُمْ عَلَى أَهْقَابِكُمْ ) شرط، «أو قُتِلَ» عطف عليه، والجواب «انقلبتم». ودخل حرف الاستفهام على حرف الجزاء لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة وخبراً واحداً. والمعنى: أنتقلون على أعقابكم إن مات أو قُتِل. وكذلك كل استفهام دخل على حرف الجزاء؛ فإنه في غير موضعه، وموضعه أن يكون قبل جواب الشرط. وقوله: «أهلبتم على أعقابكم» تمثيل، ومعناه أردتكم كفاراً بعد إيمانكم؛ قاله قتادة وغيره. ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه: أقلب على عقبيه؛ ومنه نكص على عقبيه. وقيل: المراد بالانقلاب هنا الانهزام؛ فهو حقيقة لا مجاز. وقيل: المعنى فلم فعل المرتين وإن لم يكن ردة.

قوله تعالى: ( وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ) بل يضره الله شيئاً. وبمعناه للمعصية لغناه. (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) أي الذين صبروا وباعدهوا واستشهدوا. وجاء «وسيجزي الله الشاكرين» بعد قوله: «فإن يضر الله شيئاً» وهو اتصال ومعد بوجد.

قوله تعالى: ( وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدُّ ثَوَابَ الْذُنُوبِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرُدُّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ) وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٦﴾

قوله تعالى: ( وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا ) هذا حصص على الجهاد، وإعلام أن الموت لا بد منه، وأن كل إنسان مقدر أو غير مقدر ميت إن بلغ أجله المكتوب له؛ لأن معنى «موجلاً» إلى أجل. ومعنى «بإذن الله» بقضاء الله وقدره. «وكتبت» نصب على المصدر، أي كتب الله كتاباً موجلاً. وأجل الموت هو الوقت الذي

في معلومه سبحانه ؛ لأن روح الحى تقارق جسده ، متى قُتل البعد علمنا أن ذلك أجله  
ولا يصح أن يقال : لو لم يقتل لماش . والدليل عليه قوله : « كِتَابًا مُّؤْتِيًّا » « إِذَا جَاءَ  
أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْسِمُونَ » « إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ » « لِكُلِّ أَمَلٍ كِتَابٌ » .  
والمعتقلى يقول : يتقدم الأجل ويتأخر ، وأن من قُتل فإمّا يحل قبل أجله ، وكذلك كلما  
ذبح من الحيوان كانت هلاكه قبل أجله ؛ لأنه يجب على القاتل البتّان والذّية . وقد بين  
التمتلى في هذه الآية أنه لا تمليك نفس قبل أجلها . وسيأتى لهذا مزيد بيان في « الأعراف »  
إن شاء الله تعالى . وفيه دليل على كُتِبَ العلم وتدوينه . وسيأتى بيانه في « طه » عند قوله :  
« قَالَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ » <sup>(١)</sup> إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ( وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ) معنى النعمة . نزلت في الذين تركوا  
المركز طلبا للنعمة . وقيل : هى عاقبة فى كل من أراد الدنيا دون الآخرة ؛ والمعنى نُؤْتِهِ مِنْهَا  
ما قسم له . وفى التفسير « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » . ( وَمَنْ  
يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ) أى نُؤْتِهِ جزاء عمله ، على ما وصف الله تعالى من تضعيف الحسنات  
لمن يشاء . وقيل : المراد بهذا عبد الله بن جبير ومن لزم المركز معه حتى قُتلوا . ( وَسَجِزَى  
الشَّاكِرِينَ ) أى نُؤْتِهِم الثواب الأبدى جزاء لهم على ترك الانهماك ؛ فهو تأكيد لما تقدم  
من إنشاء مزيد الآخرة . وقيل : « وَسَجِزَى الشَّاكِرِينَ » من الوزن فى الدنيا لتلايتهم  
أن الشَّاكِر يُعْرَم مما أُسْم له مما يناله الكافر .

قوله تعالى : وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا  
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ <sup>(١١٧)</sup>  
وَمَا كَانَ قَوْلُكُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا  
وَتَبِّتْ أَدْمَانَا وَأَنْصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ <sup>(١١٨)</sup>

قوله تعالى : ( وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلِ سُدَّ رِيُونَ كَثِيرٌ ) قال الزمخري : صاح الشيطان يوم أُسِدَّ : قيل عمد ، فأنهزم جماعة من المسلمين ، قال كعب بن مالك : فكنت أفل من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأيت عليه من تحت الغنتر ترعرعان ، فغلبت بأعلى صوتي : وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إلى أن أسكت ، فأُتِلَ الله عز وجل : « وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلِ سُدَّ رِيُونَ كَثِيرًا وَهُوَ لِيَأْصَابُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا » الآية . « وَكَانَ » بمعنى كم . قال الخليل وسيوئ : هي أي دخلت عليها كاف التشبيه وبُيُتِ سها فصار في الكلام متى كم ، وسُورَت في المصنف قولاً لأنها كلمة قُلْتُ عن أصلها غير لفظها لتغير مقامها ، ثم كثر استعمالها قُلْتُ بها العرب وتعرفت فيها بالقلب والحذف لحصل فيها ثلث أربع قُرئ بها . وقرأ ابن كثير « وَكَانَ » مثل وكان ، على وزن فاعل ، وأصله كَيَّ : قَالَتِ الْيَاءُ أَلَاءَ ، كما نلت في يَأْسٌ قِيلَ يَأْسٌ ؛ قال الشاعر :

وَكَانَ بِالْجَلْعِ مِنْ صِدْقِي • يَأْسِي لَوْ لَسْتُ هُوَ الْمَصَابِي

وقال آخر :

وَكَانَ رَدْفًا عَنْكَ مِنْ حُجْجِي • هِيَ أَلَمُ الْوَكْبِ يَدْوِي مَقْدَمًا

وقال آخر :

وَكَانَ فِي الْمَسَائِيرِ مِنْ أَلْسِنِ • أَخْصَمَ غَوْضِهِمْ وَمِنْ كَرَمٍ

وقرأ ابن جنيح « وَكُنْ » مهوراً محصوراً مثل وَكَيْنَ ، وهو من كان خفت الله . و« وَكَانَ » أيضاً « وَكَانَ » مثل وَكَيْنَ وهو مطلوب كَيَّ الخفيف . وقرأ الباقون « كَانِ » بالتشديد مثل كَيْمٍ وهو لأصل ؛ قال الشاعر :

وَكَانَ مِنْ أَلْسِنِ لَمْ يَرْفُوا • أَخْصَمَ غَوْضِهِمْ وَمِنْ كَرَمٍ

(١) القلب في ذلك على لغة من قلب حرف لغة لساكن المتحرك بألفه أَلَاءَ ، وهي لغة بلطارت بن كعب ونعيم وزيد ومقاتل من اليمن ، كما ذكره الراعي في سبكه في تفسير قوله تعالى « إِنَّ هَذَانِ لَشَرَانِ » .

(٢) يدوي : يضيئ الزيات ( بالحرارة ) وهو ضرب من النسي في تيجر . والفتح : الذي تنبع بالصلاح كالخفة والمفر .

وقال آخر:

كَأَيِّنْ أَبَدًا مِنْ عَدُوِّ مِرْزَا • وَكَأَيِّنْ أَجْزَاءً مِنْ ضَعِيفٍ وَحَائِفٍ

يجمع بين لعتين: كَأَيِّنْ وَكَأَيِّنْ، ولغة خاصة كَيِّنْ مثل كَيِّنْ، وكأنه مخفف من كَيْءٍ مقلوب كَأَيِّنْ. ولم يذكر الجوهرى غير لعتين: كَأَيِّنْ مثل كَأَيِّنْ، وَكَأَيِّنْ مثل كَيِّنْ، يقول: كَأَيِّنْ رِيلاً لَيْقِيَتْ؛ بنصب ما بعد كَأَيِّنْ على التمييز. وتقول أيضاً: كَأَيِّنْ مِنْ رَجُلٍ لَيْقِيَتْ؛ وإدخال يَنْ بعد كَأَيِّنْ أكثر من النصب بها وأجود. وبكأَيِّنْ تتبع هذا الثوب، أى بكم تتبع؛ قال ذو الرمة: وَكَأَيِّنْ ذَعْرًا مِنْ مَهَابَةٍ وَرَاحٍ • بِلَادِ الْعَبْدِ لَيْسَتْ لَهُ بِلَادٌ

قال النحاس: ووقف أبو عمرو «كأَيِّنْ» بغير نون؛ لأنه تنوين. وروى ذلك سودة ابن المبارك عن اليكساني. ووقف الباقون بالنون اتباعاً لخط المصحف. ومعنى الآية تشجيع المؤمنين، والأمر بالاعتدال بين تقدم من خيار أتباع الأنبياء؛ أى كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثير، أو كثير من الأنبياء قُتلوا فأرثتهم أممهم؛ قولان: الأول الحسن وسعيد بن جبیر. قال الحسن: ما قُتل نبي في حرب قط. وقال ابن جبیر: ما سمعنا أن نبياً قتل في القتال. والثاني عن قتادة وعكرمة. والوقف على هذا القول على «قاتل» جاز، وهى قراءة نافع وابن جبیر وأبى عمرو ويعقوب. وهى قراءة ابن عباس وأختارها أبو حاتم. وفيه وجهان: أحدهما أن تكون «قاتل» واقفاً على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله «قاتل» ويكون في الكلام إضمار؛ أى ومعه ربيون كثير؛ كما يقال: قاتل الأمير ومعه جيش عظيم. وحرجت مى تجارة؛ أى ومى. الوجه الثاني أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الربيون، ويكون وجه الكلام قتل بعض من كان معه؛ تقول العرب: قتلنا نبي نعيم ونجى بلى، وإنما قتلوا بعضهم. ويكون قوله «فأوهنا» راجعاً إلى من بقى منهم.

قلت: وهذا القول أشبه بقول الآية وأنسب، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتل وقُتل معه جماعة من أصحابه. وقرأ الكوفيون وابن عامر «قاتل». وهى قراءة ابن مسعود، واختارها

(١) المأية: البقرة الوحشية. والراح: القود الوحشية؛ لأن قرنه بمنزلة الرخ فهو راح، والمضى: لا يقيم مع الإعراب في مكان. ويرى: «بلاد البرية ليست له بلاد».

أبو عبيد وقال : إن الله إذا حَمد من قاتل كان من قُتل داخل فيه ، وإذا حَمد من قُتل لم يدخل فيه غيرهم ، فقاتل أعم وأمدح . و « الرِّيُون » بكسر الراء قرنة الجهور . وقراءة على رضى الله عنه بضمها . وابن عباس بفتحها ، ثلاث لغات . والرِّيُون الجماعة الكثيرة ؛ عن جليد وقادة الضمك وعكرمة . وأحدم رُبِّي بضم الراء وكسرهما ، منسوب إلى الرُّبَّة بكسر الراء أيضا وضمها ، وهى الجماعة . وقال عبد الله بن مسعود : الرِّيُون الألوف الكثيرة . وقال ابن زيد : الرِّيُون الأتباع . والأول أعرف فى اللغة ؛ ومنه يقال للفرقة التى تُجمع فيها القيداح : رِبَّة ورِبَّة . والرِّيَاب قبائل تجمت . وقال أبان بن ثعلب : الرُّبُّ عشرة آلاف . وقال الحسن : هم العلماء الصُّبَر . ابن عباس ومجاهد وقادة والريح والشدى : الجمع الكثير ؛ قال حسان :

وَإِذَا مَشَرْتُمْ جَاوُوا عَنْ الْحَقِّ حَلَا طَيْسَمِ رِيَا

وقال الزجاج : هاهنا قرأتان « رِيُون » بضم الراء « وريُون » بكسر الراء ، أما الرِّيُون (بالضم) : الجماعة الكثيرة . ويقال : عشرة آلاف .

قلت : وقد روى ابن عباس « رِيُون » بفتح الراء منسوب إلى الرُّب . قال الخليل : الرُّبُّ الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء ، وهم الرَّايتُون نسبوا إلى التَّاء والعبادة ومعرفة الربوبية لله تعالى . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ « وهنوا » أى ضعنوا ، وقد تقدم . والوَهْن : انكسار الحَدِّ بالخوف . وقرأ الحسن وأبو السَّيَّال « وَهْنًا » بكسر الهاء وضمها ، لغتان عن أبى زيد . ومن النِّسْبَيْنِ وَهْنًا . وأوهته أنا ووقته ضفته . والواهنة : أسفل الأضلاع وقصارها . والوَهْن من الإبل الكَثِيف . والوَهْن ساعة تغشى من الليل ، وكذلك المؤمن . وأوهته ضربت فى تلك الساعة ؛ أى ما وهنوا لقتل نبيهم أو لقتل من قُتل منهم ، أى ما وهن بإقيهم ؛ خفف المضاعف . ﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ أى عن عدوهم . ﴿ وَمَا أَسْتَكَوْا ﴾ أى لما أصابهم من الجهاد . والاستكاة : القلة والخضوع ؛ وأصلها « استكوا » على اتعلوا ؛ فأشيت فتحة الكاف فتولدت منها ألف . ومن جعلها من الكون فهى استعملوا ؛



وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ بِمَعْنَى الْآيَةِ . وَقُرِئَ « مَا وَهَنُوا وَمَا ضَعُفُوا » بِإِسْكَانِ الْمَاءِ وَالْمِينِ . وَحَكَى  
 الْكِتَابِيُّ « ضَعُفُوا » بِفَتْحِ الْمِينِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ أَوْ قُتِلَ نَبِيهِمْ  
 بِأَنَّهُمْ صَبَرُوا وَلَمْ يَفْزُوا وَوُطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْمَوْتِ ، وَاسْتَفَرُّوا لِيَكُونَ مَوْتُهُمْ عَلَى التَّوْبَةِ مِنْ  
 الذُّنُوبِ إِنْ وَزَعُوا الشَّهَادَةَ ، وَدَعَا فِي الثَّبَاتِ حَتَّى لَا يَنْهَزَمُوا ، وَبِالنَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ . وَخَصَّصُوا  
 الْأَقْدَامَ بِالثَّبَاتِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْجَوَارِحِ لِأَثَرِ الْإِعْتَادِ عَلَيْهَا . يَقُولُ : فَهَلَّا قُتِلَمْ وَقُتِلَمْ  
 مِثْلَ ذَلِكَ يَا أَصْحَابَ عَمِيدٍ فَاجَابَ دَعَاءَهُمْ وَأَعْطَاهُم النَّصْرَ وَالظَّفَرَ وَالْفَتْمَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
 فِي الْآخِرَةِ إِذَا صَارُوا إِلَيْهَا . وَهَكَذَا يَفْعَلُ اللَّهُ مَعَ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ التَّائِبِينَ الصَّادِقِينَ النَّاصِرِينَ  
 لِدِينِهِ ، التَّائِبِينَ عِنْدَ لِقَاءِ عَذَرِهِ بِوَعْدِهِ الْحَقِّ ، وَقَوْلِهِ الصِّدْقِ ( « وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » ) بِمَعْنَى  
 الصَّابِرِينَ عَلَى الْجِهَادِ . وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ « وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ » بِالزَّيْعِ ، جَعَلَ الْقَوْلَ اسْمًا لِكُلِّ مَا يَكُونُ  
 مَعْنَاهُ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا قَوْلُهُمْ : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا » . وَمَنْ قَرَأَ بِالنَّصْبِ جَعَلَ الْقَوْلَ  
 خَبَرًا كَانَ . وَاسْمُهَا « إِلَّا أَنْ قَالُوا » . ( « ذُنُوبُنَا » ) بِمَعْنَى الصَّغَاوَةِ ( وَإِسْرَافًا ) بِمَعْنَى الْكِبَارِ .  
 وَإِلِلِ الْإِسْرَافِ : الْإِفْرَاطُ فِي الشَّيْءِ ، وَمَجَاوِزَةُ الْحَدِّ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنْ  
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي  
 فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ » وَذَكَرَ الْحَلِيتُ . فَعَلِيَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَسْتَمْلَ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ  
 وَصَحِيحِ السُّنَنِ مِنَ الدُّعَاءِ وَيَدَّعِ مَا سِوَاهُ ، وَلَا يَقُولَ أَخْتَارَ كَذَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اخْتَارَ  
 لِنَبِيِّهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَعَلَمَهُمْ كَيْفَ يَدْعُونَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : فَغَفَرْنَا لَهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ  
 يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

أَيَّ أَعْطَاهُمْ ثَوَابَ الدُّنْيَا ، بِمَعْنَى النَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى عَدُوِهِمْ . ( « وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ » )  
 بِمَعْنَى الْجَنَّةِ . وَقَرَأَ الْمُجَدْرِيُّ « فَأَلْبِهِمُ اللَّهَ » مِنَ الثَّرَابِ . ( « وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » ) قَدَّمَ .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يردُّوكُمْ عَلَىٰ  
 أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٣١﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٣٢﴾  
 لما أمر الله تعالى بالافتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر طاعة الكافرين ؛ يعنى  
 مشرك العرب : أباسيان وأحبابه . وقيل : اليهود والنصارى . وقال على رضى الله عنه :  
 يعنى المنافقين فى قولهم للؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دين آبائكم . ﴿ يردُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾  
 أى إلى الكفر . ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى قهرجوا مغبوتين . ثم قال : ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾  
 أى مؤنَّوكم نصركم وحفظكم إن أخطئتموه . وقرئ « بلى الله » بالنصب ، على تقدير بل وأطيعوا  
 الله مولاكم .

قوله تعالى : سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ  
 مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْتَى الظَّالِمِينَ ﴿١٣١﴾  
 نظمهم « وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » . وقرأ ابن عامر واليكاني « الرُّعْبَ » بضم العين ؛  
 وهما لسان . والرُّعْبُ الخوف ؛ يقال : رَعِبَتْ رُعْبًا ورُعْبًا ، فهو مَرْعُوبٌ . ويجوز أن يكون  
 الرُّعْبُ مصدرًا ، والرُّعْبُ الاسم . وأصله من الملء ؛ يقال : سبيل راعب يملأ الوادى .  
 ورَعِبَتْ الحوضُ ملاءً . والمعنى : سنلأ قلوب المشركين خوفًا وفزعًا . وقرأ السخنيان  
 « سَلْقِي » بالياء ، والباقون بنون العظمة . قال السُّدِّي وغيره : لما أدرج أبو سفيان  
 والمشركون يوم أُحُد متوجهين إلى مكة انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق نيموا وقالوا :  
 بئس ما صنعنا ؛ فقلناهم حتى لم يبق منهم إلا الثريد تركلهم ، ارجعوا فاستأصلوهم ؛ فلما  
 عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرُّعْبَ حتى رجعوا عما هموا به . والإلقاء يستعمل حقيقة  
 فى الأجسام ؛ قال الله تعالى : « وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ » « فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصَمَهُمْ » « فَأَلْقَى مُوسَى  
 عَصَاهُ » . وقال الشاعر :

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَنْزَلَهَا النَّوَى .

ثم قد يستعمل مجازا كما في هذه الآية . وقوله : « وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ نَحْمٌ مِنِّي » . والتي عليك مسألة .

قوله تعالى : ﴿يَا أَشْرَكُوا لَا تَعْلِلُوا﴾ تعليل ؛ أى كانت سبب إلقاء الرعب فى قلوبهم  
 إنشراحهم ؛ فما للصدر . ويقال : أشرك به ، أى عئل به غيره ليجعله شريكا .

قوله تعالى : ( مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ ) حجة وبيانا ، وعذرا وبرهانا ؛ ومن هذا قيل  
لأبي سلطان ، لأنه حجة الله عز وجل في الأرض . ويقال : إنه مأخوذ من اللَّيْط وهو  
ما يضاء به السراج ، وهو دُهن السَّم ، قال امرؤ القيس :  
« أَحَانِ اللَّيْطُ بِالذَّبَالِ الْمُقْتَلِ »

فالسُّلطان يستضاء به في إظهار الحق وقبح الباطل . وقيل : السُّلَيط الحديد . والسُّلَاطة الحِدة . والسُّلَاطة من التَّسْلِيط وهو القهر؛ والسُّلطان من ذلك ، فالنون زائدة . فاصل السُّلطان القوة ، فإنه يُقهر بها كما يُقهر بالسُّلطان . والسُّلَيطَةُ المرأة الصَّغَابَة . والسُّلَيطُ الرجلُ الفصيح اللسان . ومعنى هذا أنه لم تثبت عبادة الأوثان في شيء من الملل ، ولم يدل عقل على جواز ذلك . ثم أخبر تعالى عن مصيرهم ومزجهم قتل : ﴿ وَمَا لَهُمُ النَّارُ ﴾ ثم ذمّه فقال : ﴿ وَبِئْسَ تَبَوُّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ والمتنوى المكان الذي يُقام فيه ؛ يقال : تَوَيَّ تَبَوُّهُ . والمتنوى كل مكان يرجع إليه شيء لئلا أوْهَرَا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخَذْتُم بِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا عَنْ آبَائِكُمْ وَإِذَا قُلْتُمْ لَهُمْ يَأْتِكُمْ مِنْكُمْ مَدِينَةٌ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَمْ تَزِدْهُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أُرْسِلْتُمْ أَنْ تَبْجُورَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٧﴾

قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أحد وقد أصبحوا قال بعضهم لبعض: من ابن أصحابنا هذا وقد وعدنا الله النصر! فقتلت هذه

الاية . وذلك أنهم قتلوا صاحب لواء المشركين وسبعة نفر منهم بعدة على اللواء، وكان الظفر  
استداء للسليخ غير أنهم اشتغلوا بالفتنة وترك بعض الرماة أيضا مكرهم طلبا للفتنة فكان  
ذلك سبب الهزيمة . روى البخاري عن البراء بن عازب قال : لما كانت يوم أُحُد وقلينا  
المشركين أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أناسا من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير  
وقال لهم : " لا تبرحوا من مكانكم [ ان رأيتموا ظهرا عليهم فلا تبرحوا ]<sup>(١)</sup> وإن رأيتموهم قد ظهروا  
علينا فلا تمينوا عليهم " قال : فلما اتى القوم وهم من المسلمين حتى نظرنا إلى النساء يستبدن<sup>(٢)</sup>  
في الجبل ، وقد رفن عن سورتهم قد بدت خلخلتهن فجعلوا يقولون : النعمة النعمة . فقال  
لم عبد الله : أمهلوا ! أما عهد إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تبرحوا ؛ فانطلقوا فلما  
أتوهم صرف الله وجوههم وقتل من المسلمين سبعون رجلا . ثم إن أبا سفيان بن حرب أشرف  
علينا وهو في تيز فقال : أفي القوم عهد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحبوه " .  
حتى قالوا ثلاثا . ثم قال : أفي القوم ابن أبي شاة ؟ ثلاثا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :  
" لا تحبوه " . ثم قال : أفي القوم عمر ؟ ثلاثا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :  
" لا تحبوه " . ثم انفتحت إلى أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا . فلم يملك عمر رضي الله عنه  
نفسه دون أن قال : كذبت يا عدو الله ! قد أتى الله لك من يُخزيك به . فقال : أعل هبل<sup>(٣)</sup> ؟  
مرتين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أجيبوه " قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال :  
" قولوا الله أعل وأجل " . قال أبو سفيان : لنا المزى ولا عزي لكم . فقال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : " أجيبوه " . قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : " قولوا الله مولانا ولا مولى  
لكم " . قال أبو سفيان : يومٌ بيوم بدر ، والحرب يحبال ، أما إنكم ستجدون في القوم مثله لم  
أمر بها ولم تسؤي . وفي البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : رأيت عن يمين  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يتأتلان عن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم أشد التأتل . وفي رواية عن سعد : عليهما ثياب بيض ما رأيتها قبل

(١) زيادة عن صحيح البخاري . (٢) أي يبرمن المشي . (٣) أي أظهر دينك ، أزد قوا ،  
أولئك أمرك ويزد دينك قد غلبت . (٤) الهزى : اسم ضم قريش .

ولا يبدؤ . يعني يجرى بل ويسكتيل . وفي رواية أخرى : يقاتلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد القتال ما رأتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده . وعن مجاهد قال : لم يقاتل الملائكة معهم يومئذ ، ولا قبله ولا بعده إلا يوم بدر . قال البيهقي : إنما أراد مجاهد لم يقاتلوا يوم أُحُد عن القوم حين عصوا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به . وعن عروة بن الزبير قال : وكان الله عز وجل وعدهم على الصبر والتقوى أن يُعْطِيَهُمْ بِمِثْلِ نَجْمَةِ الْآلِفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وكان قد فعل ؛ فلما عصوا أمر الرسول وتركوا مصافقتهم وترك الرماة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ألا يرحلوا من منازلهم ، وأرادوا الدنيا ، رفع عنهم مِئَّةَ الْمَلَائِكَةِ ، وأُزِلَ اللهُ عَنْهُمْ صِدْقُهُمُ اللهُ وَعَدُهُ إِذْ أَخْبَسَهُمْ يَأْتِيهِمْ فَفَصَلَقَ اللهُ وَعْدَهُ وَأَوْرَاهُمُ الْفِتْنَةَ ، فلما عصوا أعقبهم البلاء . وعن محمد بن إسحاق قال : لما كان يوم أُحُدْ أَنْكَشَفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وسدَّ يمينه يمين يديه ، وقبض يمينه له ، كما ذهبت نبيلة أمه بها . قال : أُرْبِحُ أَبَا إِسْحَاقَ . فلما فرغوا نظروا من الشاب ؛ فلم يروه ولم يعرفوه . وقال محمد بن كعب : ولما قُتِلَ صَاحِبُ لَوَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وسقط لوائهم رفعتهم حمرة بنت عَقْمَةَ الْحَارِثِيَّةُ ؛ وفي ذلك يقول حسان :

فَلَوْلَا لَوَاءُ الْحَارِثِيَّةِ أَصْبَحُوا • يُبَاعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ بَيْعَ الْخِلَابِ

( إِذْ أَخْبَسَهُمْ ) مناهة تقتلونهم وتساصلونهم ؛ قال الشاعر :

حَسَنَاتُهُمُ بِالْبَيْفِ حَسًّا فَاصْبَحَتْ • يَبِيتُهُمْ قَدْ شُرِدُوا وَتَبَدُّوا

وقال جرير :

تَحْمُسُهُمُ السُّيُوفُ كَمَا تَسَامَى • حَرِيقُ النَّارِ فِي أَيْمِ الْحَمِيدِ

قال أبو عبيدة : الحُسُّ الاستئصال بالقتل ؛ يقال : جراد حُسُوسٌ إذا قُتِلَ البرد . والبرد عَصَا للنبت ؛ أي حُرِّقَتْ لَهُ ذَاهِبَةٌ بِهِ . وَسَنَةٌ حُسُوسٌ أَي جَدْبَةٌ تَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ ؛ قال رؤبة :

إِذَا شَكُوْنَا سَنَةً حُسُوسًا • تَأْكُلُ بَعْدَ الْأَخْضَرِ الْيَسَا

• أصله من الحُسِّ الذي هو الإدراك بالحاسة . فعني حسه أذهب حسه بالقتل . ( يَأْتِيهِ ) بعبه أو بقضائه وأمره . ( حَتَّى إِذَا قُتِلْتُمْ ) أَي جَبْتُمْ وَضَعْتُمْ . يقال : قَتَلَ يَغْتَلُ فَيُؤْ

قِيلَ وَفُتِلَ . وجواب «حتى» عذوف، أى حتى إذا فُتِلْتُمْ أَتَيْتُمْ . ومثل هذا جائز كقوله :  
« فَإِنْ أَتَيْتُمْ أَنْ تَجْتَنِي فَقَدْ فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَمًا فِي السَّيِّئَةِ » فاضل . وقال القراء : جواب «حتى»  
وتأزعم « والواو مقحمة زائدة » كقوله : « فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَكَلَّ لِلْعَجِينِ . وَتَأْتِيَانَهُ » أى تأتياه .  
وقال امرؤ القيس :

• فلما أجزنا ساحة الحى وأتتهى •

أى أتتهى . وعند هؤلاء يجوز لحاق الواو من «وعصيتهم» . أى حتى إذا فُتِلْتُمْ وتأزعم عصيتهم .  
وعلى هذا فيه تقديم وتأخير، أى حتى إذا تأزعت وعصيت فُتِلْتُمْ . وقال أبو علي : يجوز أن  
يكون الجواب «صرفكم عنهم» ، ثم زائدة ، والتقدير حتى إذا فُتِلْتُمْ وتأزعت وعصيت صرفكم  
عنهم . وقد أشهد بعض التحويين في زيادتها قول الشاعر :

أراي إنا مايت يت على هوى • فتم إذا أصبحت أصبحت عديا

وجوز الأخفش أن تكون زائدة ؛ كما في قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ  
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ » . وقيل : «حتى» بمعنى  
«إلى» وحيد لا جواب له ؛ أى صدقكم الله وعده إلى أن فُتِلْتُمْ ، أى كان ذلك الوعد بشرط  
النياب . ومعنى «تأزعتهم» اختلفت ؛ بمعنى الرماة حين قال بعضهم لبعض : نلحق الغنم . وقال  
بعضهم : بل ثبت في مكاننا الذى أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بالثبوت فيه . ( وَعَصَيْتُمْ )  
أى خالفتم أمر الرسول في الثبوت . ( زَيْنٌ بَعِيدٌ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا يُحْبَوْنَ ) بمعنى من الغلبة التى كانت  
للمسلمين يوم أحد أول أمرهم ؛ وذلك حين صرع صاحب لواء المشركين على ما تقدم . وذلك  
أنه لما صرع انتشر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وصاروا كتابين متفرقة غاصوا<sup>(١)</sup> المدو  
ضربا حتى أجهضوهم عن ألقامهم . وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مررات كل  
ذلك تُصَفِّحُ بِالْبَلِّ قَرَجَ مَنُوبَةٍ ، وجل المسلمون فهكؤهم قلا . فلما أبصر الرماة الخمسون  
أن الله من وجل قد قبح لإخوانهم قالوا : والله ما نجلس هنا لشيء ، قد أحلك الله المدو

(١) الحرس : شدة الانحطاط ومداركة الضرب . أى بانوا النكالية فيه .

(٢) أى تحوم حياءا زلزم .

وإخراجه عنكم المشركين . وقال طوائف منهم : علام تقف وقد هزم الله العدو، فتركوا منازلهم التي عهد إليهم النبي صلى الله عليه وسلم ألا يتركوها ، وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول فاقبضت الخيل فيهم قلا . وألفاظ الآية تقتضي التوبيخ لهم ، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر فكان الواجب أن يعلموا أن عام النصر في الثبات لا في الانهزام . ثم بين سبب التنازع فقال : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ يعني الغنيمة . قال ابن مسعود : مَا شَرَعْنَا أَنْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدَ الدُّنْيَا وَعَرَضَهَا حَتَّى كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ وهم الذين يَتَوَاتَرُ في مراكزهم ، ولم يخالفوا أمر نبيهم صلى الله عليه وسلم مع أميرهم عبيد الله بن جبير ، فحمل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل عليه ، وكانا يومئذ كافرين بقتلوه مع مَنْ بَقِيَ ، رحمهم الله . والكتاب مع من أنهزم لا مع مَنْ ثَبَتَ ، فإن من ثَبَتَ فاز بالنواب ، وهذا كما أنه إذا حُلَّ بقوم عقوبة علمة فأهل الصلاح والصبيان يهلكون ؛ ولكن لا يكون ما حُلَّ بهم عقوبة ، بل هو سبب المثوبة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ أى بعد أن استوليت عليهم ودكم عنهم بالانهزام . ودل هذا على أن المعصية مخلوقة لله تعالى . وقالت المعتزلة : المعنى ثم انصرفتم ؛ فإضافته إلى الله تعالى بإخراجه الرعب من قلوب الكافرين من المسلمين ابتلاء لهم . قال القشيري : هذا لا يُغْنِيهِمْ ، لأن إخراج الرعب من قلوب الكافرين حتى يستخفوا بالمسلمين قبيحٌ عندهم ، ولا يجوز أن يقع من الله قبيح ، فلا يبق لقوله : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ معنى . وقيل : معنى « صرفكم عنهم » أى لم يكفكم طلبهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لم يستاصلكم بعد المعصية والمخالفة . والخطاب قيل هو للجميع . وقيل : هو للرعاة الذين خلفوا ما أسروا به ؛ واختاره النحاس . وقال أكثر المفسرين : ونظير هذه الآية قوله : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالعفو والمغفرة . وعن ابن عباس قال : مَا نُصِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم في موطن كما يُصر يوم الأحد . وأُنكر ذلك . فقال ابن عباس : بني وبين من أنكر ذلك كَلَبُ الله عز وجل ، إن الله عز وجل يقول في يوم الأحد : « وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخَذْتُم مِّنْ يَّأْنِيهِ - يقول ابن عباس : والحسن القتل - حَتَّى إِذَا قُتِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَصَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَأَيْتُمْ أَن تُمِيتُوا مِّنْكُمْ مَّنْ يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَّنْ يُّرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَمَّا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » وإنما عني بهذه الرماة . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أقامهم في موضع ثم قال : « أَحْوَا ظَهْرَنَا فَإِنْ رَأَيْتُمَا قُتِلَ فَلَا تَنْصُرَا وَإِنْ رَأَيْتُمَا قَدْ غَنِمَا فَلَا تَشْرِكُوا » . فلما غَنِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباحوا عسكر المشركين انكفأت الرماة جميعا فدخلوا في السكرك يتهبون ، وقد التقت صفوفُ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فهم هكنا - وشبك أصابع يديه - واكتسوا . فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب بعضهم بعضا والتبسا ، وقُتِلَ من المسلمين ناسٌ كثير ، وقد كان (رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه) أوّل النهار حتى قُتِلَ من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المسلمون نحو الجبل ، ولم يبلغوا حيث يقول الناس : (٢) النار ، إنما كانوا تحت المهراس (٣) وصاح الشيطان : قتل محمد . فلم يَسْك فيه أنه حق ، فازلنا كذلك ما نَسْك أنه قُتِلَ حتى طَلَعَ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السَّعْدَيْنِ ، فرفعه بَنَكْفِيهِ إِذَا مَشَى . قال : ففريحنا حتى كأننا لم يُصَبْنَا ما أصابنا . قال : فَرَّقَ نَحْوَنَا وهو يقول : « اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَوْا وَجْهَهُ نَيْيَمٌ » . قال كعب بن مالك : أَنَا كُنْتُ أَوَّلُ مَنْ عَرَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين ، عَرَفْتَهُ بَيْنَهُ مِنْ تَحْتِ الْمِنْفَرِ تَزْمُرَانِ فَتَادَيْتِ بِأَعْلَى صَوْتِي : يَا مُعْتَمِرَ الْمُسْلِمِينَ ! ابْشِرُوا ، هَذَا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أَقْبَلَ . فأنشأ إلى بَأْنٍ اسكت .

(١) أخل بالمكان وبمركة : ناب عنه وتركه . والخلة : الطريق . (٢) كنا في الأصول . والله في القوم المتفرق في الغيرة بالأنفوس ، والمستدرك على الصَّحَابِ لَهَا لَمْ يَتَّبِعُوا : « ... أَنَاب » بالياء بدل الزا .  
(٣) المهراس : ما يجعل أحد . (٤) السطدان : سعد بن مسعود بن عباد .  
(٥) الكنفز : التمايل إلى تقدم كما تنكفأ الغنبة في جريها .



قوله تسلك : إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ  
فِي أُثْرِكُمْ فَأَتْبِئْكُمْ غَمًّا بَعْدَ لَيْلٍ لَا تُخَزِّنُوا عَلَى مَا قَاتَكُم وَلَا مَا أَصْبَحَكُمْ  
وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾

« إِذْ » متعلق بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ » . وقراءة السامة « تُصْعِدُونَ » بضم اللام وكسر  
العين . وقرا أبو ربيعة المطايردي وأبو عبد الرحمن السلمي والحسن وقشادة بفتح اللام والعين ،  
يبنى تصعدون الجبل . وقرا ابن محيصن ويشيل « إِذْ يَصْعَدُونَ وَلَا يَلْوُونَ » بإيالة فهما .  
وقرا الحسن « تَلْوُونَ » بواو واحدة . وروى أبو بكر بن عياش عن قاصم « وَلَا تَلْوُونَ » بضم  
اللام ؛ وهي لغة شاذة ذكرها النحاس . وقال أبو حاتم : أصحمت إذا مضيت حبال وجهك ،  
وصيدت إذا أرقيت في جبل أو غيره . فالإصعاد : السير في مستو من الأرض وطول الأودية  
والشعاب . والصعود : الارتفاع على الجبال والسطوح والسلالم والمرتج . فيحتمل أن يكون  
صعودهم في الجبل بعد إصعادهم في الوادي ؛ فيصح المعنى على قراءة « تُصْعِدُونَ »  
و « تُصْعِدُونَ » . قال قتادة والربيع : أصعدوا يوم أُحُد في الوادي . وقراءة أبي « إِذْ تُصْعِدُونَ  
فِي الْوَادِي » . قال ابن عباس : صعدوا في أُحُد فرارا . فكثرت القراءات صواب ؛ كأن التهذيب  
يؤيد مصيد وصاعد . والله أعلم . قال القتيبي والمبرد : أصعد أبعد في الذهاب وأبعد فيه ؛  
فكان الإصعاد إبعاد في الأرض كإبعاد الارتفاع ؛ قال الشاعر <sup>(١)</sup> :

أَلَا أَيُّهَا السَّائِلُ إِنِّي أَصْعَدْتُ \* فَإِنَّ لَنَا مِنْ بَطْنِ قُرَيْبٍ مَوْعِدَا <sup>(٢)</sup>

وقال القراء . الإصعاد الابتداء في السفر ، والاعتدال الرجوع منه ؛ يقال : أصعدنا من بغداد  
إلى مكة وإلى خراسان وأشباه ذلك إذا خرجنا إليها وأخذنا في السفر ، واعتدنا إذا رجعنا .  
وأشد أبو عبيدة :

فَدَكُنْتُ تَبْكِينَ عَلَى الْإِصْعَادِ \* قَالِيَوْمَ سُرَّحَتْ وَصَاحَ الْحَادِي

(١) هراغني قيس . (٢) الذي في ديوان الأعمى ربيعة ابن حنبل ص ٢٥٥ طبع أوروبا ؛

« أَيْنَ يَمُت » . واليت من تصيد يدح يا أي على الله عليه وسلم ، وحطها :

أَلَمْ تَنْتَضِ عَيْنَاكَ لِيْلَةِ أُرْدَا \* وَنَاظَرَكَ مَا لَدِ السَّيْمِ الْمَدَا

وقال المفضل : صَيد وأصعد وصعد بمعنى واحد . ومعنى « تَلَوُّونَ » تَمْرُجُونَ وَتَقِيمُونَ ،  
أى لا يُلْغِتْ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ هَرَبًا ؛ فَإِنَّ الْمُرَجَّ عَلَى الشَّيْءِ يُلْوِي إِلَيْهِ عَقْبَهُ أَوْ عِيَانِ دَابَّتِهِ .  
( عَلَى أَحَدٍ ) يريد محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ قاله الكلبي . ( وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ )  
أى فى آخركم ؛ قال : جاء فلان فى آخر الناس وآخر الناس وآخرى الناس وأخرى الناس .  
وفى البخارى « أخراكم » تأييد آخركم : حدثنا عمرو بن خالد حدثنا زهير حدثنا أبو إسحاق قال  
سمعت البراء بن عازب قال : جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الزجالة يوم أُحُد عبد الله بن  
جبير وأقبلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسول فى أخراهم . ولم يبق مع النبي صلى الله عليه  
وسلم غير اثني عشر رجلا ، قال ابن عباس وغيره : كان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم  
« أَيْ عِبَادَ اللَّهِ ارْجِعُوا » . وكان دعاؤه تغيرا للفرق ، ومحال أن يرى عليه السلام المنكر وهو الاتزام  
ثم لا ينهى عنه .

قلت : هذا على أن يكون الاتزام بمعصية وليس كذلك ، على ما أتى بيانه إن شاء الله تعالى .  
قوله تعالى : ( فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ) الغم فى اللغة التغطية . غَمَّتِ الشَّيْءُ غَطِيَتْهُ . ويوم  
غَمٍّ وِلِيَّةٌ غَمَّةٌ إِذَا كَانَ مَظْلَمِينَ . ومنه غَمُّ الْحَلَالِ إِذَا لَمْ يُرَوْغَمْنِ الْأَمْرَ بِغَمٍّ . قال مجاهد وقتادة  
وغيرهما : الغم الأول القتل والجراح ، والغم الثانى الإرجاف بقتل النبي صلى الله عليه وسلم .  
إذ صاح به الشيطان . وقيل : الغم الأول ما قلنهم من الظفر والنيمة ، والثانى  
ما أصابهم من القتل والمزينة . وقيل : الأول المزينة ، والثانى إشراف أبي سفيان وخالد  
عليهم فى الجبل ؛ فلما نظر إليهم المسلمون غمهم ذلك ، وظنوا أنهم يملكون عليهم فيقتلونهم  
فأناسهم هذا ما نالهم ؛ فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ لَا يَغْلُ عَلَيْنَا » كما تقدم .  
والياء فى « يَغْمُ » على هذا بمعنى على . وقيل : هى على ليها ، والمعنى أنهم غموا النبي صلى الله  
عليه وسلم بخالفهم إياه ، فأنابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم . وقال الحسن : فأنابكم غمًّا يوم  
أُحُدَ يَغْمُ يَوْمٌ بَدَلَ لِّلشَّرِكِينَ . ومضى الغم ثوبا كما سُمِّيَ جزاء الذنب ذنبا . وقيل : وقفهم الله على  
عقوبهم فشنلوا . فذلك عما أصابهم .

قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الآية متعلقة بقوله : «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ» وقيل : هي متعلقة بقوله : «فَاتَابَكُمْ غَمًّا بِمِ» أى كَانَ هَذَا الْغَمُّ بعد التَّوْبَةِ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَ مِنَ النِّعْمَةِ ، وَلَا مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْمُزْعَةِ . وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ . و « مَا » فِي قَوْلِهِ « وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » فِي مَوْضِعِ خَفَضٍ : وَقِيلَ : « لَا » صِلَةٌ . أَيْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ، وَمَا أَصَابَكُمْ عِقَابُهُ لَكُمْ فِي عَاقِلَتِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : « مَا مَنَعَكَ الْأَتَسْبُحُ إِذَا أَمَرْتُكَ » أَيْ أَنْ تَسْبُحَ . وَقَوْلُهُ : « لِكَيْلَا يَسْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » أَيْ لِيَسْلَمَ ؛ وَهَذَا قَوْلُ الْمُفَضَّلِ . وَقِيلَ : أَرَادَ بِقَوْلِهِ « فَاتَابَكُمْ غَمًّا بِمِ » أَيْ تَوَلَّى عَلَيْكُمْ الْقُتُومَ ، لِئَلَّا تَسْتَفْزِلُوا بِمَدِّ هَذَا بِالنَّاسِ . « وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » فِيهِ مَعْنَى التَّحْذِيرِ وَالرَّوْعِ .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْإِيمَانِ أَنْتُمْ نِعَاسًا يُغَشِّي ظِلَافَةً مِّنْكُمْ وَظِلَافَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْإِيمَانِ أَنْتُمْ نِعَاسًا ﴾ الآية والآية والأمر سواء . وقيل : الآية إنما تكون مع أسباب الخوف ، والأمن مع عدمه . وهي منصوبة بانزله ، و « نِعَاسًا » بدل منها . وقيل : نصب على المفعول له ؛ كَأَنَّهُ قَالَ : أُنْزِلَتْ عَلَيْكُمُ الْآيَةُ نِعَاسًا . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ « أَمَةٌ » بِكَوْنِ الْمَيِّ . فَغَضَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْقُتُومِ فِي يَوْمِ أُبُدٍ بِالنَّاسِ حَتَّى نَامَ أَكْثَرُهُمْ ؛ وَاجْتَمَعَ مِنْ يَأْمَنَ وَالْمُخَافَةِ لَا يَشَامُ . وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ

أبا طلحة قال : غَشِيَ النَّاسَ وَغَمَّ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ ، قَالَ : جَعَلَ سِنِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي ،  
وَأَخَذَهُ وَيَقْطُ ، وَأَخَذَهُ . ﴿ يَنْتَنِي ﴾ قَرِئَ بِالْيَاءِ وَالنَّاءِ . الْيَاءُ لِلنَّاسِ ، وَالنَّاءُ لِلْأَمْتِ . وَالطَّائِفَةُ  
يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ . ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَهْمُهُمْ ﴾ بَنِي الْمُنَافِقِينَ : مُعْتَبٌ بِن قَشِيرٍ  
وَأَصْحَابِهِ ، وَكَانُوا نَجْرُوا طُلُعَا فِي النِّعْمَةِ وَخَوْفِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ يَنْتَهَبِ الْعَاسِ وَجَعَلُوا يَتَأَسَّفُونَ  
عَلِ الْحُضُورِ ، وَيَقُولُونَ الْأَفَاوِيلُ . وَمَعْنَى « قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَهْمُهُمْ » حَمَلَتْهُمْ عَلَى الْهَمِّ ، وَالْهَمُّ  
مَا هَمَّتْ بِهِ ، يُقَالُ : أَهَمَّنِي الشَّيْءُ أَيِ كَانُ مِنْ هَمِّي . وَأَمْرٌ مُهِمٌّ شَدِيدٌ . وَأَهْمَنِي الْأَمْرُ  
أَفْلَقَنِي ، وَهَمَنِي أَذَانِي . وَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ « وَطَائِفَةٌ » وَوَالْحَالُ بِمَعْنَى إِذْ ، أَيِ إِذْ طَائِفَةٌ يَظُنُّونَ  
أَنْتَ أَمْرٌ مَحْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بَاطِلٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ . ﴿ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ ﴾ أَيِ ظَنَّ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ،  
فَذَبَّ . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ لِقِطْعَةِ اسْتِفْهَامٍ وَمَعْنَاهُ الْإِجْحَادُ ، أَيِ مَا لَنَا شَيْءٌ  
مِنَ الْأَمْرِ ، أَيِ مِنْ أَمْرِ الْخُرُوجِ وَإِنَّمَا خَرَجْنَا كَرَاهٍ . يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ :  
« لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا » . قَالَ الزَّيْرُ : أُرْسِلَ عَلَيْنَا النَّوْمُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ،  
وَإِنِّي لَأَسْمَعُ قَوْلَ مُعْتَبِ بْنِ قَشِيرٍ وَالنَّعَاسِ يَنْشَأُنِي : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا .  
وَقِيلَ : الْمَعْنَى يَقُولُونَ لَيْسَ لَنَا مِنَ الظُّفْرِ الَّذِي وَعَدَنَا بِهِ مُحَمَّدٌ شَيْءٌ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ فَرَأَى أَبُو عَمْرٍو وَيَقُوبُ « كُلَّهُ » بِالرَّغَمِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ ،  
وَخَبَرَهُ « اللَّهُ » ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ « إِنْ » . وَهُوَ كَقَوْلِهِ : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ  
وَوَجْهَهُمْ مُسْوَدٌّ » . وَالْيَاقُونُ بِالنَّصْبِ ، كَمَا قَوْلُ : إِنَّ الْأَمْرَ أَجْمَعُ لِلَّهِ . فَهُوَ تَوْكِيدٌ ،  
وَهُوَ بِمَعْنَى أَجْمَعَ فِي الْإِحَاطَةِ وَالشُّمُومِ ، وَأَجْمَعَ لَا يَكُونُ إِلَّا تَوْكِيدًا . وَفِيلٌ : نَعَتْ لِلْأَمْرِ .  
وَقَالَ الْأَخْفَشُ : بَدَلُ ، أَيِ النَّصْرِ يَبْدُ اللَّهُ يَنْصُرُ مِنْ يَسَاءٍ وَيَخْذُلُ مِنْ يَسَاءٍ . وَقَالَ جُوَيْرِ  
عَنِ الضَّحَّاكِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ « يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ » بِمَعْنَى التَّكْذِيبِ  
بِالْقَدَرِ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيهِ ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ » بِمَعْنَى الْقَدَرِ حَبْرَهُ  
وَشَرَهُ مِنْ اللَّهِ . ﴿ يَحْفَونَ فِي أَهْمِهِمْ ﴾ أَيِ مِنَ الشَّرِّ وَالْكَفْرِ وَفِي التَّكْذِيبِ . ﴿ مَا لَا يَدُونُ لَكَ ﴾

يظهرون لك. ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي ما قُتِلَ عَشَارَتَنَا . قيل : إن المنافقين قالوا لو كان لنا عقل ما خرجنا إلى قتال أهل مكة ، ولما قُتِلَ رؤسنا . فرد الله عليهم فقال : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ أي نلجأ . ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾ أي فرض . ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ أي في اللوح المحفوظ . ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي مصارعهم . وقيل : « كتب عليهم القتل » أي فرض عليهم القتال ؛ فبر عنه بالقتل لأنه قد يؤول إليه . وقرأ أبو حنيفة « لَبَرَزَ » بضم الباء وشدة الراء ، بمعنى يُجعل يخرج . وقيل : لو تحققتم أيها المنافقين لبرزتم إلى موطن آخر غيره تُصرعون فيه حتى يتسلى الله ما في الصدور ويظهره للؤمنين . والواو في قوله ﴿وَلِيَبْلِغْ﴾ مقحمة كقوله : « وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أي ليكون ، وحذف الفعل الذي مع لام كي . والتقدير ﴿وَلَيَبْلِغْ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيَمْلَأَنَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أحد ليختبر صبركم ولَيَمْلَأَنَّ عنكم سيئاتكم إن كنتم وأخلصتم . وقيل : معنى « ليبلِغْ » ليملأكم معاملة المختبر . وقيل : ليقع منكم مشاهدة ما علمه غيباً . وقيل : هو على حذف مضاف ، والتقدير ليبلِغ أولياء الله تعالى . وقد تقدم معنى التمهيص . ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي ما فيها من خير وشر . وقيل : ذات الصدور هي الصدور ؛ لأن ذات الشيء نفسه .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُم يَوْمَ النَّحْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥)  
قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ هذه الجملة هي خبر « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا » . والمراد من تولى عن المشركين يوم أحد ؛ عن عمر رضي الله عنه وغيره . السدى : يعني من هرب إلى المنسة في الهزيمة دون من صمد الجبل . وقيل : هي في قوم بأعينهم تخلد ؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم في وقت هزيمتهم ثلاثة أيام ثم انصرفوا . ومعنى « استزلم الشيطان » استدعى زللهم بأن ذكروهم خطايا سلفت منهم ، فكروها النوبت لئلا يُقتلوا .

وهو معنى «ينفض ما كسبوا» - وقيل : «استسلم» حملهم على الزلل ؛ وهو استسلم من الزلة وهي الخطيئة - وقيل : زَلَّ وأزَلَّ بمعنى واحد - ثم قيل : كرهوا القتال قبل إخلاص التوبة ؛ فإنما تولوا لهذا ، وهذا على القول الأول - وعلى الثاني بمعصيتهم النبي صلى الله عليه وسلم في تركهم المركز وميلهم إلى التهمة - وقال الحسن : «ما كسبوا» قَبُولُهم من إبليس ما وسوس إليهم ، وقال الكلبي : زين لهم الشيطان أعمالهم - وقيل : لم يكن الانتهزام معصية لأنهم أرادوا التحصن بالمدينة ، فيقطع المدوّ طمعه فيهم لما سمعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قُتِلَ - ويموز أن يقال : لم يسمعوادعاء النبي صلى الله عليه وسلم للهول الذي كانوا فيه - ويموز أن يقال : زاد عند المدوّ على الضعف لأنهم كانوا سبعة مائة والمدوّ ثلاثة آلاف - وعند هذا يميز الانتهاء ولكن الانتهاء عن النبي صلى الله عليه وسلم خطأ لا يميز ، ولعلهم توجهوا أن النبي صلى الله عليه وسلم انحاز إلى الجبل أيضا - وأحسنها الأول - وعلى الجملة فإن حمل الأمر على ذنب محقق فقد عفا الله عنه ، وإن حمل على انتهاء مسوّغ فالآية فيمن أبعد في المزعمة وزاد على القدر المسوّغ - وذكر أبو الليث السمرقندي نهرين محمد بن إبراهيم قال : حدثنا الخليل ابن أحمد قال حدثنا السراج قال حدثنا قتيبة قال حدثنا أبو بكر بن غيلان عن جرير : أن عثمان كان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ؛ فقال له عبد الرحمن بن عوف : أنبئني وقد شهدت بدرا ولم تشهد ، وقد بايعة تحت الشجرة ولم تباع ! وقد كنت توتلي مع من توتلي يوم الجمل ، يعني يوم أحد - فرد عليه عثمان فقال : أما قولك : أنا شهدت بدرا ولم تشهد ؛ فإنني لم أعب عن شيء شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مريضة وكنت معها أمرتها ، ففرض لي رسول الله صلى الله عليه وسلم سهما في سهام المسلمين - وأمابيعة الشجرة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني ربيعة على المشركين - الربيعة هو الناظر - ففرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وشماله خير لي من يميني وشماله - وأما يوم الجمل فقال الله تعالى : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » فكنت فيمن عفا الله عنه - حجج عثمان عيد الرحمن -

قلت : وهذا اللقي صحيح أيضا عن ابن عمر ؛ كما في صحيح البخاري قال : حدثنا عبدان أخبرنا أبو حمزة عن عثمان بن مَوْهَب قال : بيا رجل حجَّ أليتَ فرأى قوما جلوسا فقال : من هؤلاء القعود ؟ قال : هؤلاء قريش . قال : من الشيخ ؟ قالوا : ابن عمر ؛ فأتاه فقال : إني سألتك عن شيء أُنحَدِّثُني ؟ قال : أنشدك بحُرْمَةِ هذا البيت ، أتعلم أن عثمان بن عفان قَرِيبٌ مُحَدِّثٌ ؟ قال نعم . قال : فعلمته تَتَبَّعَ عن بدر فلم يشهدا ؟ قال نعم . قال : فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدا ؟ قال نعم . قال : فكبر . قال ابن عمر : قال لا تخبرك ولا يبين لك عما سألتني عنه ؛ أنا فراره يوم أحد فاشهد أن الله عفا عنه . وأما تقيته عن بدر فإنه كان تحته بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لك أحرص رجل من شهيد بدرًا وسهمه " ، وأما تقيته عن بيعة الرضوان فإنه لو كان أحدًا أعزَّ بطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه ، فبعث عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم بيده النبي : " هذه يد عثمان " فضرب بها على يده فقال : " هذه لعثمان " . أذهب بهذا الآن معك .

قلت : ونظير هذه الآية توبة الله على آدم عليه السلام . وقوله عليه السلام : " فخرج آدم موسى " أي غلبه بالجمَّة ؛ وذلك أن موسى عليه السلام أراد توبيخ آدم ولومه في إخراج نفسه وذريته من الجنة بسبب أكله من الشجرة ؛ فقال له آدم : " أفتلوني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة تلعب عليّ منه ومن تاب عليه فلا ذنب له ومن لا ذنب له لا يتوجه عليه لوم " . وكذلك من عفا الله عنه . وإنما كان هذا الإخباره تعالى بذلك ، وخبره صِدْقٌ . وغيرهما من المذنبين الذين يرجون رحمة ويخافون عذابه ، فهم على وجل وخوف ألا تُقبل توبتهم ، وإن قبلت فالتخوف أغلب عليهم إذ لا يعلم لهم بذلك . فأعلم .

(١) قال : أشعر . والرب يحمل القول عبارة عن جمع الأفعال وتعلقه على غير الكلام واللسان ؛ فنقول : قال بيده أي أخذ ، وقال يرحله أي حشى ، وقال يتوجه أي رفضه . وكل ذلك على الاتباع والنجاز . ( عن نهاية ابن الأثير ) .  
(٢) أي اليسرى . (٣) في رواية " يا " أي بالأجرة التي أجبتهك بها حتى يزول عنك ما كنت تتعده من حجب عياني . ( عن القسطلاني )

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا  
لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا  
وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُجِيبُ وَيُخَيِّتُ وَاللَّهُ  
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ) يعني المنافقين . ( وَقَالُوا  
لِإِخْوَانِهِمْ ) يعني في اتفاق وفي النسب في السرايا التي يموت النبي صلى الله عليه وسلم إلى  
بشر ممتونة . ( لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ) فهي المسلمون أن يقولوا مثل قولهم . وقوله :  
( إِذَا ضَرَبُوا ) هو لما مضى ، أي إذ ضربوا ، لأن في الكلام معنى الشرط من حيث  
كان « الذين » بهما غير موقت ، فوقع « إذا » موقع « إذ » كما يقع الماضي في الجزاء  
موضع المستقبل . ومعنى ( ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ) سافروا فيها وساروا لتجارة أو غيرها فماتوا .  
( أَوْ كَانُوا غُرًى ) غزاة فقتلوا . والغزى جمع منقوص لا يتغير لفظها في رفع وخفض ،  
واحدهم غاز ، كراحم وركم ، وصائم وصوم ، ونائم وقوم ، وشاهد وشهد ، وغائب وغييب .  
ويجوز في الجمع غزاة مثل قضاة ، وغزاة بالمد مثل ضرباب وصومام . ويقال : غزى جمع  
الغزاة - قال الشاعر :

• قل للقوائل والغزى إذا غزوا •

وروى عن الرهري أنه قرأه « غزى » بالتحفيف . والمغزاة المرأة التي غزا زوجها . وأما  
مغزاة متأخرة التاج ثم تنجح . وأغزرت الناقة إذا عسر لقاها . والغزو قصد الشيء . والمغزى  
المقصود . ويقال في النسبة إلى الغزو غزوي .

(١) في اللسان مادة «غزا» أنه جمع لما مثل ساج وحيج وقامل ونظير وما دى وداغ ونمى

(٢) هو زياد الألف . وقيل : هو تصغير نفيدى ، ونماح كافي الساد :

• والباكرين والمبدا الزاح •



قوله تعالى : ( لِيَجْزَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ) يعني ظنهم وقولهم . والآدم متعلق بقرله « قالوا » . أى ليجمل ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قُتِلُوا . « حيرة » أى ندامة في قلوبهم . والحسرة الإحتمام على فائت لم يُقدَّر بلوغه ؛ قال الشاعر :

فواحسرتنى لم أقض منها بُيُوتى \* ولم أمتنع بالجار وبالغريب

وقيل : هى متعلقة بمحذوف ، والمعنى : لا تكونوا مثلهم ليجمل الله ذلك القول حسرة في قلوبهم ؛ لأنهم ظهروا فناءهم . وقيل : المعنى لا تصدقوه ولا تلتفتوا إليهم ؛ فكان ذلك حسرة في قلوبهم . وقيل : ليجمل الله ذلك حسرة في قلوبهم يوم القيامة لما هم فيه من الخزي والتندبة ، ولما فيه المسلمون من النعم والكرامة .

قوله تعالى : ( وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ) أى يقدر على أن يحيى من يخرج إلى القتال ، ويميت من أقام في أهله . ( وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) قرئ بالياء والتاء . ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيل الله والموت فيه خير من جميع الدنيا .

قوله تعالى : وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

جواب الجزاء محذوف ، استغنى عنه بجواب القسم في قوله : ﴿ لَمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ ﴾ . وكان الاستثناء بجواب القسم أولى لأن له صدر الكلام ، ومعناه ليفترق لكم . وأهل الجواز يقولون : مِتُّم ، بكسر الميم مثل نَحِمُّم ، من مات يمات مثل خفت يخاف . وسُئِلَ مضر يقولون : مِتُّم ، بضم الميم مثل صمتم ، من مات يموت . كقولك كان يكون ، وقال يقول . هذا قول الكوفيين وهو حسن . وقوله : ﴿ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وعُظِّمَ . وعظَّم الله بهذا القول ، أى لا تغزوا من القتال وما أمركم به ، بل فزوا من عقابه وأليم عذابه ، فإن مردكم إليه لا يملك لكم أحد ضراً ولا نقماً غيره . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى : فِيمَا رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَظِرُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاتَّعَفَوْا عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

« ما » صلة فيها معنى التأكيد، أى برحمة؛ كقوله : « عما قليل » « فَيَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ »  
« جند ما هناك مهزوم » . وليست بزيادة على الإطلاق، وإنما أطلق عليها سيويه معنى الزيادة  
من حيث زال عملها . ابن كيسان : « ما » نكرة فى موضع جر بالباء ( ورحمة ) بدل منها .  
ومعنى الآية : أنه عليه السلام لما رفق بين تولى يوم أحد ولم يستغفِرَ مِنَ الرَّبِّ تعالى أنه إنما  
فعل ذلك بتوفيق الله تعالى إياه . وقيل : « ما » استغفاهم . والمعنى : فبأمر رحمة من الله لَئِنْ  
لَمْ يَنْتَظِرُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاتَّعَفَوْا عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ  
يَلِينُ لِيَّاءُ الْفَتْح . وَالْفَطُّ الْغَلِيظُ الْخَافِي . فَطَطَّتْ تَفْطُ فَطَاطَةً وَفَطَاطًا فَانْتَ فَطَّ . وَالْأَثَى  
فَطَّةٌ وَالْجَمْعُ أَنْطَاطٌ . وفى صفة النبي عليه السلام ليس بفَطَّ وَلَا غَلِيظٌ وَلَا حَصْبٍ فى الأسواق؛  
وَأَشَدُّ الْمُفَضَّلِ فى المَذَكَّرِ :

ليس بِفَطَّ فى الْأَثَى وَالْأَثَى • يُؤْمُونَ بِجَدْوَاهُ وَلَكِنَّهُ سَهْلٌ  
وَفَطَّ عَلَى أَعْدَائِهِ بِحَدْرُوهُ • فَسَطَوْتُهُ حَتْفٌ وَنَائِلُهُ جَزَلٌ

وقال آخر فى الْمُؤَنَّثِ :

أَمُوتُ مِنَ الضَّرِّ فى مَتَلَى • وَغَيْرَى بِمُوتٍ مِنَ الْكَلْهَةِ  
وَدُنْيَا بِمُجُودٍ عَلَى الْبَاطِلِينَ • وَهَى عَلَى ذِي النَّهْيِ فَطَّهَ

وَعَلَّطُ الْقَلْبِ عِبَارَةٌ عَنْ تَجَهُّمِ الْوَجْهِ، وَقَلَّةِ الْإِصْمَالِ فى الرِّغَائِبِ، وَقَلَّةِ الْإِشْفَاقِ وَالرَّحْمَةِ؛ وَمِنْ  
ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

يَسْكُنُ عَلَيَّ وَلَا يَسْكُنُ عَلَى أَحَدٍ • لَتَمُنَّ أَعْلَظُ أَجْدَادًا مِنَ الْإِبِلِ

وَسَمِعَ (لَا تَقْضُوا) لَتَقْضُوا؛ فَضَمُّهُمْ فَاقْضُوا، أَيْ قَرَّبَهُمْ فَتَقَرَّبُوا؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ  
أَبِي النَّجْمِ يَصِفُ إِبِلًا :

(١) (٢) سَمِعِلَاتُ الْقَيْضِ غَيْرُ جَرِيْدٍ • يَغْفُصُ عَنْهُنَّ الْحَمَى بِالْصَّدِّ (٣)

وَأَصْلُ الْغَفْصِ الْكِبَرُ؛ وَمَنْهُ قَوْلُهُمْ : لَا يَغْفُضُ اللَّهُ قَالَكَ . وَالْمَعْنَى : يَا عَجُولًا لَوْلَا رَفَقَتُ لَمَتَّهِمُ  
الْإِحْتِيَامُ وَالْهَيْبَةُ مِنَ الْقُرْبِ مِنْكَ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَاتَفَ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ فِيهِ ثَمَانُ سَأَلَاتٍ :

الأولى — قَالَ الْعَلَاءُ : أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ  
بِتَدْرِجٍ يَلِيغُ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَمَرَهُ بِأَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ مَا لَهُ فِي خَاصَّتِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ تَبِعَةٍ ؛ فَلَمَّا صَارُوا  
فِي هَذِهِ الدَّرَجَةِ أَمَرَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِيَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَبِعَةٍ أَيْضًا ؛ فَلَمَّا صَارُوا فِي هَذِهِ الدَّرَجَةِ  
صَارُوا أَهْلًا لِلْإِسْتِشَارَةِ فِي الْأُمُورِ . قَالَ أَهْلُ الْفَنَةِ : الْإِسْتِشَارَةُ مَاخُودَةٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ :  
شُرْتُ الدَّابَّةَ وَشَوَّرْتُهَا إِذَا عَلِمْتَ خَبَرَهَا بِمَجْرَى أَوْ غَيْرِهِ . وَيُقَالُ لِلْوَضْعِ الَّذِي تَرْكُضُ فِيهِ :  
مِشْوَارٌ . وَقَدْ يَكُونُ مِنْ قَوْلِهِمْ : شُرْتُ السَّلَّ وَاشْتَرْتُهُ فَهُوَ مَشُورٌ وَمِشَارٌ إِذَا أَخَذْتَهُ مِنْ  
مَوْضِعٍ ؛ قَالَ عَدِي بْنُ زَيْدٍ :

فِي سَمَاعٍ إِذْنُ الشَّيْخِ لَهُ • وَحَدِيثٌ مِثْلُ مَاذِي مُشَارٍ (١)

الثانية — قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَالشُّورَى مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ وَعِزَّتِ الْأَحْكَامُ ،  
مِنْ لَا يَسْتَشِيرُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْبَيِّنَ قَوْلُهُ وَاجِبٌ . هَذَا مَا لَا يَخْلَافُ فِيهِ . وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ  
بِقَوْلِهِ : « وَأَسْرَهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : مَا غُفْتُ قَطُّ حَتَّى يَتَّبِنَ ثَوْبِي . قِيلَ :  
وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لَا أَتَمَلَّ شَيْئًا حَتَّى أَشَاوِرَهُمْ . وَقَالَ ابْنُ خُوَيْرِثٍ مُتَقَلِّدٌ : وَاجِبٌ عَلَى

(١) كَذَا فِي الْأُمُورِ بِإِقْفَافٍ وَلِإِلَاءِ التَّنَادِ ، وَلَهُ صَحِيفَةٌ عَنْ « الْغَفْصِ » بِالْقَافِ وَلِإِلَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَهُوَ السُّورَى  
السُّورِجُ ، وَإِنَّمَا السُّورُ السُّورِجُ فِيمَا لَأَنَّ السَّاقِي لِلْإِبِلِ يَغْفِضُهَا أَيْ يَجْعَلُهَا إِذَا أَرَادَ مَوْضِعًا فَكَذَا اشْتَرَتْ عَلَيْهِ تَعْدُو  
سَوْنَهَا . (٢) كَذَا فِي الْأُمُورِ بِالطَّيْعِ الْمَقْبُوعَةِ ، وَلَهُ تَصْحِيفٌ عَنْ « حَرَدٍ » بِإِلَاءِ الْمُهْمَةِ ، وَالْمُرَادُ فِي الْبَصَرِ  
أَنْ تَنْقَطِعَ صَبَّةُ ذُرَاهُ فَتَسْتَرَى يَدَهُ فَلَا يَزَالُ يَنْتَقِظُ بِهَا أَبَدًا . (٣) الْعَمْدُ : الْمَكَانُ النَّظِيفُ الْمُرْتَقِعُ مِنْ  
الْأَرْضِ لَا يَلِجُ أَنْ يَكُونَ جَبَلًا . (٤) بِإِذْنٍ : بِسَمْعٍ . وَالْمَعْنَى : السَّلَّ الْأَبْيَضُ . وَالْمِشَاوَرُ : الْمُجْتَمِعُ

الرَّوَاةُ مُشَاوِرَةُ الْعُلَمَاءِ فِيهَا لَا يَتْلَمُونَ، وَمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، وَوُجُوهِ الْخَيْشِ فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَرْبِ، وَوُجُوهِ النَّاسِ فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَصَالِحِ، وَوُجُوهِ الْكُتُبِ وَالْوَرَدِ وَالْعُلَّالِ فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ الْبِلَادِ وَعِمَارَتِهَا. وَكَانَ يُقَالُ: مَا نَعَمَ مِنْ اسْتِشَارٍ. وَكَانَ يُقَالُ: مَنْ أَغْنَيْتَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يدلُّ على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذ بالتقنون مع إمكان الوحي؛ فإن الله أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم في ذلك. واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر الله نبيه عليه السلام أن يشاور فيه أصحابه؛ فقالت طائفة: ذلك في مكائيد الحروب، وعند لقاء العدو، وتطليبا لنفوسهم، ووقفاً لأعدائهم، وتألفاً على دينهم؛ ولما كان الله تعالى قد أغناهم عن رأيهم بوجهه. روى هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافعي. قال الشافعي: هو كقوله "وَالْيَكْرُتَسَامَرُ" تطليبا لقلوبها؛ لأنه واجب. وقال مقاتل وقاتلة والربيع: كانت سادات العرب إنما يشاوروا في الأمر شتى عليهم؛ فامر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يشاورهم في الأمر؛ فإن ذلك أعطف لهم وأذهب لأضغانهم، وأطيب لنفوسهم. فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم. وقال آخرون: ذلك فيما لم يأمره الله به. روى ذلك عن الحسن البصري والضحاك قالا: ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أئمة من بعده. وفي قراءة ابن عباس: «وشاورهم في بعض الأمي». ولقد أحسن القائل:

شاور صديقك في الخفي المشكل • وأقبل نصيحة ناصح متفضل

فإنه قد أوصى بذلك نبيه • في قوله شاورهم وتوكل

الرابعة - جاء في مصنف أبي داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْمُسْتَشَارُ مُؤَمَّنٌ». قال العلماء: وصفة المستشار إن كان في الأحكام أن يكون علياً ديناً. وتدل ما يكون ذلك إلا في طافل. قال الحسن: ما تكل دين أمري ما لم يكل

عَلَّهِ . فَإِذَا اسْتَشِيرَ مِنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَاجْتَهَدَ فِي الصَّلَاحِ وَبَدَّلَ جِهَهُ فَوَقَّعَتِ الْإِشَارَةُ خَطَأً  
فَلَا غَرَامَةَ عَلَيْهِ ؛ قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ .

الخامسة — وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً جُزْئياً وأدناً في المستشار . قال :  
• شاورَ صديقَكَ في الخفي - المشكل •

وقد تقدم . وقال آخر :

وإنْ بَابُ أَمْرِ عَلَيْكَ التَّوَى • فَتَسَاوِرْ لَيْبًا وَلَا تَقْصِرْ

في أبيات . والثوري برَّكه . وقال عليه السلام : " مَا نَيْمٌ مَنِ اسْتَشَارَ وَلَا خَابٌ مَنِ اسْتَشَارَ " .  
وروي سهل بن سعد الساعدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَا شَيْءٌ قَطُّ عَبْدٌ بِمَشُورَةٍ  
وَمَا سَعِدَ بِاسْتِغْنَاءٍ رَأَى " . وقال بعضهم : شاورَ من جَرَّبَ الْأُمُورَ ؛ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ  
مَا وَضَعَهُ عَلَيْهِ نَالِبًا وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ بِجَنَاحَاتِهِ . وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحِلَافَةَ  
— وهي أعظمُ التَّوَارِيلِ — سُورَى . قال البخاري : وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم  
يَسْتَشِيرُونَ الْأَنْسَاءَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ لِأَخْذِهَا بِاسْهَلِهَا . قال سفيان الثوري : ليكن  
أهلُ مشورتك أهلُ التَّوَى والأمانة ، ومن يخشى الله تعالى . وقال الحسن : وإِذَا مَا تَسَاوَرَوْا  
قَوْمٌ بَيْنَهُمْ إِلَّا هَدَاهُمْ لِأَفْضَلِ مَا يُعْضِرُهُمْ . وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ قَوْمٍ كَانَتْ لَهُمْ مَشُورَةٌ فَخَضَرُ مَعَهُمْ مِنْ اسْمِهِ أَحَدٌ  
أَوْ عَمِدٌ فَأَدْخَلُوهُ فِي مَشُورَتِهِمْ إِلَّا خَيْرَ لَهُمْ " .

السادسة — والثوري مبيحة على اختلاف الآراء ، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ،  
وينظر أقربها قولاً إلى الكتاب والسنة إن أمكنه ؛ فإذا أُرْشِدَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى مَا شَاءَ مِنْهُ عَزَمَ

(١) وقيل هذا البيت :

إِذَا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ مَرْسَلًا • طَوَّسَ حَكِيمًا وَلَا نَوْمَ

وبعد . ونص الحديث إلى أهله • قالوا الرِّفْقَةُ شَيْءٌ نَفْسَ

إِذَا الْمَرْءُ أَخْشَرَ خَوْفَ الْإِلَهِ • تَرَى ذَكَرَ فِي شَيْءٍ

عليه وافقه متوكلاً عليه ، إذ هذه غاية الاجتهاد المطلوب ؛ وبهذا أمر الله تعالى ، نيه في هذه الآية .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ قال قتادة : أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يَتَوَكَّلَ فيه ويتوكل على الله ، لا على مشاورتهم . والعزم هو الأمر المُرَوَّى للمنتج . وليس ركوب الرأى دون روية عزماً ، إلا على مقطع المشيعين من فُؤَادِ العرب ؛ كما قال :

إِذَا هُمُ إِلَى بَيْنِ عَيْنَيْهِ عَزَمْتُ ، وَتَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبًا  
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ . وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَاتِمَ الْيَقِيفِ صَاحِبًا

وقال القاسم : العزم والحزم واحد ، والماء ميلة من العين . قال ابن عطية : وهذا خطأ ؛ فالحزم جودة النظر في الأمر وتقيقه والحدُّ من الخطأ فيه . والعزم قصد الإمضاء ؛ والله تعالى يقول : « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِذَا عَزَمْتَ » . فالمشاورة وما كان في معناها هو الحزم . والعرب تقول : قد أَعَزَّمْتُ لَوْ أَعَزَّمْتُ . وقرا جعفر الصادق وجابر بن زيد « فَإِذَا عَزَمْتُ » بضم التاء . سب العزم إلى نفسه سبحانه إذ هو بهدياته وتوفيقه ؛ كما قال : « وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » . ومعنى الكلام أى عَزَمْتُ لك ووقفتك وأرشدتك « فتوكل على الله » . والباقون بفتح التاء . قال المَهَلَّبُ : وامتل هذا النبي صلى الله عليه وسلم من أمر ربه فقال : « لَا بِنَبِيٍّ لِنَبِيٍّ يَلِيسَ لَأَمَّتْهُ أَنْ يَضْعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ » . أى ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف ؛ لأنه نقص للتوكل الذى شرطه الله عز وجل مع العزيمة . فُلِبَّه لَأَمَّتْهُ صلى الله عليه وسلم حين أشار عليه بالخروج يوم أُحُدٍ مَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ فِيهِ ، وَهُمْ صَلَاحَةُ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّنْ كَانَ فَاتَسَّهَ بِدَرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ بِنَا إِلَى عِدْوَتِنَا ؛ دَالٌّ عَلَى الْعَزِيمَةِ . وَكَانَ

(١) هو سعد بن ثابت المازنى (عن الكامل للبرد ونزاة الأدب للبيدائى) .

(٢) بقول : أعرف وجه الحزم ؛ فإن عزمت فأعفيت الرأى فأنا حازم ، وإن تركت الصواب وأنا أواه وضعت العزم لم يفتنى حزمى . (عن الكامل للبرد) .

(٣) الأمانة : الموع ، وقيل : السلاح . ولأمة الحرب : أداة . وقد يترك الحزم تحقيقاً .

صلى الله عليه وسلم إشار بالعمود ، وكذلك عبد الله بن أبي أشار بذلك وقال : أقيم يا رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس ، فإن هم أقاموا أناموا بشرّ مجلس ، وإن جاءوا إلى المدينة قاتلناهم في الأفيّة وأفواه السكك ، وورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام ؛ فوالله ما حاربنا قطّ مدوّق هذه المدينة إلا غلبناه ، ولا خرجنا منها إلى مدوّق إلا غلبنا موآبي هذا الرأي من ذكرنا ، وشجعوا الناس ودّعوا إلى الحرب . فصل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة ، ودخل إثر صلاته بيته وليس سلاحه . فتقدم أولئك القوم وقالوا : أكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما خرج عليهم في سلاحه قالوا : يا رسول الله ، أقيم إن شئت فإننا لا نريد أن نكرهك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يفتى لبيّ إذا ليس سلاحه أن يضمها حتى يقاتل " .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ التوكل الاعتماد على الله مع إظهار الجز ، والأنس التكلان . يقال منه : أتكلت عليه في أمرى ، وأصله « أوتكلت » قلبت الولوىء لانكسار ما قبلها ، ثم أبدلت منها التاء وأدغمت في تاء الاتصال . ويقال : وكلته بأمرى توكيلا ، والاسم التوكالة بكسر الواو وفتحها .

واختلف العلماء في التوكل ؛ فقالت طائفة من المصوّفة : لا يستحقه إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله من سبّ أو غيره ، حتى يترك السبى في طلب الرزق لضمان الله تعالى . وقال عامة الفقهاء : ما تقدم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . وهو الصحيح كما بيناه . وقد خاف موسى وخارون بإخبار الله تعالى عنها ؛ في قوله « لا تخافا » . وقال : « فَأَوْجَسَ فِي قَلْبِهِ خِيفَةٌ مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ » . وأخبر عن إبراهيم بقوله : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ » . فإذا كان اللّيل والكليم قد خافا — وحسبك بهما — فغيرهما أولى . وسيأتى بيان هذا المعنى .

قوله تعالى : إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَحْذِلْكُمْ فَنَدَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٧﴾

(١) الآطام ( جمع أطعمتين ) : الأفيّة المرتمة كالحمون . وقيل : حمون مبنية بحجارة .

قوله تعالى : ( إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا قَالَبَ لَكُمْ ) أى عليه توكلوا فإنه إن ينصركم ويمنعكم من عدوك لن تضلوا . ( وَإِنْ يَخْلُقْكُمْ ) يترككم من معونته . ( فَنَ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ) أى لا ينصركم أحد من بعده ، أى من بعد خذلانه إياكم ؛ لأنه قال : « وإن يخذلكم » والمخذلان ترك المؤمن . والمخذول : المترك لا يميناً به . وخذلت الوحشة أمانت على ولدها في المرعى وركت صواحبها ؛ فهي خذول . قال طرفة :

خَذُولُ تُرَايَ دَرِيًّا بِحَيْلَةٍ • تَتَاوَلُ أَطْرَافَ الْبَرِيرِ وَتَرْتَدِي <sup>(١)</sup>

وقال أيضا :

نظرت إليك بين جارية • خذلت صواحبها على طفل  
وقيل : هذا من المقلوب لأنها هي المخذولة إذا تركت . وتخاذلت رجلاه إذا ضمعتا . قال :  
• وَخَذُولِ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِ كَسَحٍ •  
ورجل خذلة للذي لا يزال يخذل . والله أعلم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَفْغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ <sup>(٢)</sup>

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - لما اخل المرأة يوم أحد بمراكرهم - على ما تقدم - خوفاً من أن يستولى المسلمون على النخبة فلا يصرف إليهم شيء من الله سبحانه أنه النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز في القصة ؛ فساكان من حكم أن تهموه . وقال الضحاك : بل السبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحث طلائع في بعض غزواته ثم غتم قبل مجيئهم ؛ فقسم للناس ولم يقسم للطلائع ؛ فانزل الله عليه عاباً « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ » أى يقسم لبعض ويترك بعضاً . ورؤي نحو هذا القول عن ابن عباس . وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة وابن جبير

(١) الرب : القلع من قبر الوحش والقباب وغير ذلك . التيلة : الأرض السهلة التي ذات الشجر . البرير :

نمر الأولك . (٢) هذا مجزئ من الأضغى ، ومصدره : • كل وشاح كريم بده •



وغيرهم : تزلت بسبب قطيفة حرارة فُقدت في المغام يوم بدر؛ فقال بعض من كان مع النبي صلى الله عليه وسلم : لعل أنت يكون النبي صلى الله عليه وسلم أخذها ؛ فزلت الآية أخرجه أبو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن غريب . قال ابن عسبة : قيل كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنوا أن ذلك جرماً . وقيل : كانت من المنافقين . وقد روي أن المفقود كان سيفاً . وهذه الأقوال تُخرج على قراءة « يَنْقُل » بفتح الياء وضم النون . وروى أبو صخر عن محمد بن كعب « وَمَا كَانَ لَنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ » قال : تقول وما كان لَنَبِيِّ أَنْ يَكْتُمَ شيئاً من كتاب الله . وقيل : اللام منقولة ، أى وما كان نَبِيٌّ لِيَقُلَ ، كقوله : « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ » . أى ما كان الله ليتخذ ولداً . وقرئ « يَقُل » بضم الياء وفتح النون . وقال ابن السكيت : [ لم نسمع في اللغَم إلا غَلَ غُلُولاً ، وقرئ <sup>(١)</sup> ] مَا كَانَ لَنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ وَيَقُلَ . قال : فمعنى « يَقُل » يَحْنُ ، ومعنى « يَقُل » يَحْنُ ، ويَحْتَمِل معنيين : أحدهما يَحْنُ أى يؤخذ من غنيمته ، والآخر يَحْنُ أَنْ يُنْسَب إلى الغُلُول . ثم قيل : إن كل من غَلَ شيئاً في خفاء فقد غَلَ يَغْلُ غُلُولاً . قال ابن عرفة : سُمِّيَتْ غُلُولاً لَأَنَّ الْيَدِيَّ مَقُولَةٌ مِنْهَا ، أى ممنوعة . وقال أبو عبيد : الغُلُول من اللغَم خاصة ، ولا نزاه من الخيانة ولا من الحيفد . ومما يبين ذلك أنه يقال من الخيانة : أَغْلَى يَغْلِي ، ومن الحيفد : غَلَ يَغْلُ بالكسر ، ومن الغُلُول : غَلَ يَغْلُ بالضم . وغَلَ البعير أيضاً [ يَقُلُ غَلَةً <sup>(٢)</sup> ] إذا لم يَقْضِ ربه . وأغَلَ الرجل خاناً ؛ قال الأثير :

جزى الله عنا حمزة ابنه توفيل : جزأه يُغْلُ بالأمانة ككاذب

وفى الحديث : لا إغْلَال ولا إسلال . أى لا خيانة ولا سرقة ، ويقال : لا رِشْوة . وقال شُريح : ليس على المستجير غير المئيل حمان . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثٌ لَا يُبْلُ عَلَيْنِ قَلْبٌ مُؤْمِنٌ » من رواه بالفتح فهو من الضَّغْن . وغَلَ [ دخل ] يتعدى ولا يتعدى ؛ يقال :

(١) زيادة من الصحاح والمسان . (٢) زيادة عن كتب اللغة . (٣) كما في الأصول واللسان ، وفي الصحاح للجوهري « حمزة » بالفتح المحببة والراء . (٤) أى بفتح الياء .

عَلَّ فَلَانَ الْمَافُوزَ ، أَيْ دَخَلَهَا وَتَوَسَّطَهَا . وَقَالَ مِنَ الْمَنَمِ غُلُولًا ، أَيْ خَانَ . وَقَالَ الْمَاءُ بَيْنَ  
الْأَشْجَارِ إِذَا جَرَى فِيهَا ؛ يُقَالُ بِالضَّمِّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ . وَقِيلَ : الْقَوْلُ فِي اللَّفْظِ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْمَنَمِ  
شَيْئًا يَسْتَرُهُ عَنْ أَصْحَابِهِ ؛ وَمِنْهُ تَنَقَّلَ الْمَاءُ فِي الشَّجَرِ إِذَا تَحَلَّلَهَا . وَالْقَوْلُ : الْمَاءُ الْجَارِي  
فِي أَصُولِ الشَّجَرِ لِأَنَّهُ مُسْتَرٌّ بِالْأَشْجَارِ ؛ كَمَا قَالَ :

لَيْبَ السُّوْلِ بِهِ فَاصْبِحْ مَاءُ . فَلَا يَقْطَعُ فِي أَصُولِ الْجُرُوعِ

وَمِنْهُ الْفَلَاةُ لِلثَّوْبِ الَّذِي يُلْبَسُ تَحْتَ الثَّيَابِ . وَالْقَالَ : أَرْضٌ مَطْمَئِنَّةٌ ذَاتُ شَجَرٍ . وَمُنَابِتُ  
السُّمِّ وَالطَّلْحِ يُقَالُ لَهَا : غَالٌ . وَالْقَالَ : أَيْضًا تَبَّتْ ، وَاجْتَمَعَ غُلَانٌ بِالضَّمِّ . وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ :  
إِنْ مَعْنَى « يُقَالُ » يَوْجِدُهَا ؛ كَمَا يَقُولُ : أَحَدُتِ الرَّجُلَ وَجَدْتُهُ مَجْهُودًا ، فَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ عَلَى هَذَا  
الْأَوَّلِ تَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى « يُقَالُ » بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّ النَّيْنِ . وَمَعْنَى « يُقَالُ » عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ  
أَيْ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ ، أَيْ يَخْتَرِعَ فِي النِّعْمَةِ ، فَالْآيَةُ فِي مَعْنَى تَهَيُّ النَّاسِ عَنِ الْقَوْلِ فِي الْفَتَاوَى ،  
وَالْتَوَعُّدُ عَلَيْهِ . وَكَمَا لَا يَحُوزُ أَنْ يُحَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَحُوزُ أَنْ يُحَانَ غَيْرُهُ ، وَلَكِنْ  
خَصَّهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ الْخِيَامَةُ مَعَهُ أَشَدُّ وَقَمًا وَأَعْظَمُ وَزْرًا ، لِأَنَّ الْمَاضِيَ تَعَظَّمَ بِمَحْضَرَتِهِ لَتَمَيَّنَ  
تَوْفِيهِ . وَالْوَلَاءُ إِعْسَامٌ عَلَى أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَهُمْ حَقُّهُمْ مِنَ التَّوْفِيقِ . وَقِيلَ :  
مَعْنَى « يُقَالُ » أَيْ مَا عَلَيَّ نَبِيٌّ قَطُّ ، وَلَيْسَ الْفَرْضُ النَّبِيُّ .

الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَمَنْ يَقُولُ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) أَيْ يَأْتِي بِهِ حَامِلًا لَهُ عَلَى  
ظَهْرِهِ وَرَقَبَتِهِ ، مُعَذِّبًا بِجَهْلِهِ وَيَتَقَلَّهِ ، وَمَرَعُوًّا بِصَوْتِهِ ، وَمُرَبِّحًا بِإِظْهَارِ خِيَانَتِهِ عَلَى رِعْوَسِ  
الْأَشْهَادِ ، عَلَى مَا يَأْتِي . هَذِهِ الْقَضِيحَةُ الَّتِي يُوقَعُهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَالَ نَظِيرُ الْقَضِيحَةِ الَّتِي تُوقَعُ  
بِالنَّادِرِ ، فَإِنْ يُنْصَبُ لَهُ لِرِوَاءِ عِنْدَ أَسْتِهِ بِقَدْرِ قَدَرَتِهِ . وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْمَعَاقِبَاتِ  
حَسَبًا يَهْدِيهِ الْبَشَرُ وَيُفْهَمُونَهُ ؛ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ :

أَسْمَى وَتَحَكَّ هَلْ سَمِعْتَ وَتَدْرِي . رُفِيعَ الْوَزْنِ لَنَا بِهَا فِي الْجَمْعِ

وكانت العرب ترفع للنادر لواءه، وكذلك يَطْلُبُ بالحناني مع جنائته . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر التَّوَلَّى فطَمَنَهُ وعظَّم أمره ثم قال : « لا أَتَيْنَ أَحَدَكُمْ بِمِثْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقَبَتِهِ سِوَهُ رِغَاءٍ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولَ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَنْتُكَ لَا أَتَيْنَ أَحَدَكُمْ بِمِثْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقَبَتِهِ قِرْسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولَ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَنْتُكَ لَا أَتَيْنَ أَحَدَكُمْ بِمِثْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثَنَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولَ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَنْتُكَ لَا أَتَيْنَ أَحَدَكُمْ بِمِثْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِلَحٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولَ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَنْتُكَ لَا أَتَيْنَ أَحَدَكُمْ بِمِثْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَحْفِيقٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولَ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَنْتُكَ لَا أَتَيْنَ أَحَدَكُمْ بِمِثْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقَبَتِهِ صَامِتٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولَ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَنْتُكَ » . وروى أبو داود عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصاب غَنِيمةً أمر يَلَاً ينادي في الناس فجيئون بضائهم فيَحْمِسُهُ وَيَقْسِمُهُ ، فجاء رجل يوماً بعد النداء يزعم من الشَّعْرَ قَالَ : يا رسول الله هذا كان فيما أصبناه من الغنينة . فقال : « أَسَمِعْتَ يَلَاً ينادي ثلاثاً ؟ » قال نعم . قال : « فما سمعتَ أن تجيء به ؟ » فَأَعْتَذَرَ إِلَيْهِ . فقال : « كَلَّا أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ » . قال بعض العلماء : أراد يُوَاقِي بوزر ذلك يوم القيامة ، كما قال في آية أخرى « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » . وقيل : الخبر محمول على شهرة الأمر ، أي يأتي يوم القيامة قد شهِرَ اللَّهُ أَمْرَهُ كَمَا يُشْهَرُ لَوْ حَمَلَ بَعِيرًا لَهُ رِغَاءٌ أَوْ قِرْسًا لَهُ حَمْحَمَةٌ .

قلت : وهذا عدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز والتشديد ، وإذا دَارَ الْكَلَامُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ فَالْحَقِيقَةُ الْأَصْلُ كَمَا فِي كُتُبِ الْأَصُولِ . وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالحقيقة ، ولا

(١) حمحة القرس : صرته دون الصبيل . (٢) الرقاع (بالكسر جمع رقة بالغيم) دس إلى تكبي .

وأراد بها ما يلجأ من الحقن المكثرة . وغفرها : تركها . (٣) العاصت : القهق والقضة ،

خلاف الملق وهو الحبران . (٤) في سنن أبي داود : « عن عبد الله بن عمرو » ، وكذا في مسند الإمام

أحمد بن حنبل . (٥) في سنن أبي داود « كَلَّا أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ » .

عَطَّرَ بَدَنَهُمْ . وَيُقَالُ : إِذَا مِنْ غَلٍّ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا يُتَمَلَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : أَنْزِلْ إِلَيْهِ تَقَدُّمًا ، فَيُعْطَى إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَتَى إِلَيْهِ حَلَّهُ ، حَتَّى إِذَا أَتَى إِلَى الْبَابِ سَقَطَ عَنْهُ إِلَى أَسْفَلِ جَهَنَّمَ ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ فَيَأْخُذُهُ ، لَا يَزَالُ هَكَذَا إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ . وَيُقَالُ : «يَأْتِي بِمَا عَلَى» . يَنْبَغِي تَشَهُدُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِذَلِكَ الْحَيَاةِ وَالْعُلُولِ .

الثالثة - قال العلماء : وَالْعُلُولُ كَثِيرَةٌ مِنَ الْكَبَائِرِ يُدَلِّلُ هَذَا آيَةً وَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَلِيَّةِ أَبِي مُرَّةٍ : أَنَّهُ يَحِلُّ عَلَى شَعْبِهِ . وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَدِينَةٍ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ الشُّعْلَةُ الَّتِي أَخَذَ يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغْنَمِ لَمْ تُصَبِّهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَمِلَ عَلَيْهِ نَارًا» . قَالَ : فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ ذَلِكَ جَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ» . أَخْرَجَهُ الْمُوطَّأُ . فَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» وَأَشْتَأُهُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى مَنْ غَلَّ دَلِيلٌ عَلَى تَعْظِيمِ الْعُلُولِ وَتَعْظِيمِ الذَّنْبِ فِيهِ وَأَنَّهُ مِنَ الْكَبَائِرِ ، وَهُوَ مِنْ حَقِّقِ الْآدَمِيِّينَ وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الْقَصَاصِ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ صَاحِبِهِ فِي الْمَشِيطَةِ . وَقَوْلُهُ : «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ» مِثْلُ قَوْلِهِ : «أَدُو الْحَيَاطِ» وَالْحَيْطُ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ لَا يَحِلُّ أَخْذُهُ فِي الْقَزْوِ قَبْلَ الْمَقَاسِمِ . إِلَّا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ مِنْ أَكْلِ الْمَطَاعِمِ فِي أَرْضِ الْقَزْوِ مِنَ الْأَخْطَابِ وَالْأَصْطِيَادِ . وَقَدْ رَوَى عَنْ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : لَا يُؤْخَذُ الطَّعَامُ فِي أَرْضِ الْمَدَنِيِّ إِلَّا بِإِذْنِ الْإِمَامِ . وَهَذَا لَا أَصْلَ لَهُ ؛ لِأَنَّ الْأَثَرِ مُخَالَفَهُ ، عَلَى مَا يَأْتِي . قَالَ الْحَسَنُ : كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَوْهُ الْمَدِينَةَ أَوْ الْحَصْنَ أَكَلُوا مِنَ السُّويِّقِ وَالنَّبِيْقِ وَالسَّمْنِ وَالسَّلِّ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : كَانُوا لَا يَكُونُونَ مِنْ أَرْضِ الْمَدَنِيِّ الطَّعَامِ فِي أَرْضِ الْحَرْبِ وَيَطْفُونَ قَبْلَ أَنْ يَتَسَوَّأُوا . وَقَالَ عَطَاءُ : فِي النَّزَاةِ يَكُونُونَ فِي السَّرِيَّةِ فَيَصْبِيُونَ أَكْخَاءَ السَّمْنِ وَالسَّلِّ وَالطَّعَامِ فَيَأْكُلُونَ ، وَمَا بَقِيَ رَدُّهُ إِلَى إِمَامِهِمْ ؛ وَعَلَى هَذَا جَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ .

(١) مدح : عبد أسود أهداه وقاعة بن زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غير . (٢) الخياطتها الخيط . والخيط : الإبرة . (٣) أخاء : جمع نهي بالكسر وهو وزن السن . وقيل مطلقا .

الرابسة - وفي هذا الحديث دليلٌ على أن النعال لا يُحرق بِناءه ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُحرق متاع الرجل الذي أخذ الشملة ، ولا أحرَق متاعَ صاحب الخمرات الذي ترك الصلاة عليه . ولو كان حرق متاعه واجبا لقوله صلى الله عليه وسلم ، ولو فعل لثقل ذلك في الحديث . وأما ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا وجدتم الرجل قد غل فأحرقوا متاعه وأضرُّوه " . قوله أبو داود والترمذي من حديث صالح ابن محمد بن زائدة ، وهو ضعيف لا يُحتج به . قال الترمذي : سألت محمدا - يعني البخاري - عن هذا الحديث فقال : إنما روى هذا صالح بن محمد وهو أبو واقد الليثي وهو منكر الحديث . وروى أبو داود أيضا عنه قال : غزونا مع الوليد بن هشام ومعاذ بن عبد الله بن عمرو وعمر بن عبد العزيز ، فقتل رجل متاعا فاحرق الوليد بِناءه فأحرق ، ويطف به ولم يُعطه سهمه . قال أبو داود : وهذا أصح الحديثين . وروى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر حرقوا متاع النعال وضربوه . قال أبو داود : وزاد فيه علي بن حجر عن الوليد - ولم أَسمه منه - : ومثوه سهمه . قال أبو عمر : قال بعض رواة هذا الحديث : وأضرُّوا عقه وأحرقوا متاعه . وهذا الحديث يدور على صالح ابن محمد وليس ممن يُحتج به . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يحل دمُ أمرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث " وهو يتنفي القتل في النلول . وروى ابن جرير عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس على الخسائن ولا على المتَّهب ولا على المختلس قطعٌ " . وهذا يمارض حديثَ صالح بن محمد وهو أقوى من جهة الإسناد . النعال خائن في التهمة والشرعية وإذا انتفى عنه القطع فأحرى القتل . وقال الطحاوي : لو صح حديثُ صالح المذکور احتمال أن يكون حين كانت المقوبات في الآه وال؛ كما قال في مانع

(١) صاحب الخمرات : رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم يسه أبو داود في سنه) توفي يوم غير ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ملوا على صاحبكم " فغيرت وجهه الناس لذلك ، فقال : " إن صاحبكم حل في سبيل الله " فنهض متاعه فوجدنا نحرزا من نرزة يهود لا يسارى درمين (عزم من أبي داود) .

الزكاة : « إِنَّا أَخَذْنَاهَا وَنَسَطَرْنَا بِهَا عِزْمَةً مِنْ عَزَمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى » . وكذا قال أبو هريرة في ضالة الإبل المكتومة : فيها غرامتها ومثلها معها . وكذا روى عبد الله بن عمرو بن العاص في التمر المعلق غرامة مثلية وجهلها نكيل . وهذا كله منسوخ ، والله أعلم .

الخامسة - فإذا غل الرجل في الميت ووجد أخذ منه ، وأدب وعوقب بالعزير . وعند مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم والليث : لا يحرق متاعه . وقال الشافعي والليث ودาวود : إن كان علما باللهي عوقب . وقال الأوزاعي : يحرق متاع النبال كله إلا سلاحه وثيابه التي عليه وسريره ، ولا تُنزع منه ذابته ، ولا يُحرق الشيء الذي غل . وهذا قول أحمد وإسحاق ، وقوله الحسن : إلا أن يكون حيوانا أو مصحفا . وقال ابن خزيمة متلدا : ورؤي أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ضربا النبال وأحرقا متاعه . قال ابن عبد البر : ومن قال يحرق رجل النبال ومتاعه مكحول وسعيد بن عبد العزيز . وحجة من ذهب إلى هذا حديث صالح المذكور . وهو عندنا حديث لا يجب به آتراك حرمة ، ولا إنفاذ حكم ، لما يمارضه من الآثار التي هي أقوى منه . وما ذهب إليه مالك ومن تابعه في هذه المسألة أشع من جهة النظر وصحیح الآخر . والله أعلم .

السادسة - لم يختلف مذهب مالك في العقوبة على البدن ، فأما في المال فقال في الدمي يبيع الخمر من المسلم : تراق الخمر على المسلم ، ويُترع الثمن من يد الدمي عقوبة له ، وللا يبيع الخمر من المسلمين . فعل هذا يجوز أن يقال : تجوز العقوبة في المال . وقد أروا . وعمر رضي الله عنه ليثا شيب بجمه .

السابعة - أجمع العلماء على أن لقتال أن يرد جميع ما غل إلى صاحب المقتايم قبل أن يترق الناس إن وجد السبل إلى ذلك ، وأنه إذا فعل ذلك فهي توبة له ، ونخرج عن ذنبه .

(أ) في نهاية ابن الأثير : « قال الحزبي غنط الراوي في لفظ الرواية ، بإجماعهم وشطرا له شطرين ، أي يجعل ماله شطرين ، ويخير عليه الصدق فأخذ للصدقة من خير الصنفين عقوبة لمنه الزكاة فأما ما لا يترجمه كلامه . وعزومة : سن من حقوقه وواجب من واجباته .

واختلفوا فيما يفعل به إذا اترق أهل السكرو لم يصل إليه؛ فقال جماعة من أهل العلم: نفع إلى الإمام نَحْمُه ويصدق بالباقي. هذا مذهب الزُّهْرِيِّ ومالك والأَوْزَاعِيِّ والليث والتورثي؛ ورؤى عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وسماوية والحسن البصري. وهو يُسَبِّحُ مَذْهَبَ ابْنِ مَسْعُودٍ وابن عباس؛ لأنهما كانا يَرَيَانِ أَنْ يُتَصَدَّقَ بِالمَالِ الَّذِي لَا يُرْفَقُ صَاحِبُهُ؛ وهو مذهب أحمد ابن حنبل. وقال الشافعي: ليس له الصدقة بمال غيره. قال أبو عمر: فهذا عندي فيما يمكن وجود صاحبه والوصول إليه أو إلى ورثته. وأما إن لم يكن شيء من ذلك فإن الشافعي لا يكره الصدقة حينئذ إن شاء الله. وقد إجمعوا في القُطْعَةِ على جواز الصدقة بها بعد التعريف وانقطاع صاحبها، وجملوه إذا جاء غيرًا من الأبر والضيان، وكذلك المنصوب. وبالله التوفيق. وفي تحريم القُولِ دليل على اشتراك النائم في النسيئة، فلا يحل لأحد أن يستأثر بشيء منها دون الآخر؛ فمن غَصَبَ شيئًا منها أدَّبَ أخفاها، على ما تقدم.

الثامنة - وإن وطئ جارية أو سرق نصابًا فأختلف العلماء في إقامة الحد عليه؛ فرأى جماعة أنه لا قطع عليه.

التاسعة - ومن القُولِ هدايا الغنل، وحُكِّمَ في الفضيحة في الآخرة حُكْمُ الغنل. روى أبو داود في سننه ومسلم في صحيحه عن أبي حنيفة الساعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً من الأزد يقال له ابن اللثية<sup>(١)</sup> على الصدقة، فجاءه فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: "ما بالُ العامل نَبَتْهُ فيجزي فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي ألا جالس في بيت أمه أو أبيه فينظر أيدي له أم لا. لا يأتني أحد منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة إن كان بغيراً أو بقرعة فلهما خوار أو شاة<sup>(٢)</sup> تبيغ<sup>(٣)</sup> - ثم رفع يديه حتى رأينا خفرتي<sup>(٤)</sup> إبطيه ثم قال: - اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ".

(١) ابن القتيبة (بضم فسكون) هو عبد الله بن الحُبَيْبِ الصَّامِي، والقبيلة أمه. ومنهم من يفتح الاسم والمثناة، وفي بعض الروايات الألفية بالهمزة، وفي بعض فتح كهزبة. (عن شرح القاموس وشرح المصاب).

(٢) البارد (بضم الياء) : حوت النعم والمهزى. يمرت بفتح العين تيمر بالكسر والفتح يبارا بالنم.

(٣) البقرة (بضم فسكون) : يائز لوسي بالخاص الشديد، ولكن تكون عفر الأرض وهو رويها.

وروى أبو داود عن بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من آتَمَلَّهُ على عمل  
فَرَزَقَهُ رِزْقًا فَا آخَذَ بِدَنَكٍ فَهُوَ غُلُولٌ " . وروى أيضا عن أبي مسعود الأنصاري قال : بشئ  
رسول الله صلى الله عليه وسلم سائعا ثم قال : " انطلق أبا مسعود ولا أَلَيْفُكَ يوم القيامة تأتي على  
ظهرك بغير من إبل الصدقة له رَغَاءٌ قد عَلَلَّتْهُ " . قال : إذا لا انطلق . قال : " إذا لا أكرهك " .  
وقد قيد هذه الأحاديث ما رواه أبو داود أيضا عن المستورد بن شداد قال : سمعت النبي صلى الله  
عليه وسلم يقول : " من كان لنا عاملا فَلْيَكْتَسِبْ زَوْجَةً فَإِنْ لم يكن له خادم فَلْيَكْتَسِبْ خادما  
فإن لم يكن له سكن فَلْيَكْتَسِبْ مَسْكًا " . قال قال أبو بكر : أُنْصِرْتُ أَنْ النبي صلى الله عليه  
وسلم قال : " من آخَذَ غير ذلك فهو ظَلٌّ أو سارق " . والله أعلم .

العائسة - ومن التلؤلؤ حبس الكعب عن أصحابها ، ويدخل فيها في معناها . قال  
الزَّهيرى : إِيَّاكَ وَغُلُولَ الْكُعب . قيل له : وما غُلُولُ الْكُعب ؟ قال : حبسها عن أصحابها .  
وقد قيل في تأويل قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لَنِي أَنْ يَقُولَ » أن يكتم شيئا من الوتر رغبة  
أو رغبة أو مداهنة . وذلك أنهم كانوا يكرهون ما في القرآن من عيب دينهم وسب أئمتهم ،  
فسألوه أن يطوي ذلك ؛ فأنزل الله هذه الآية ؛ قاله محمد بن بشر . وما بدأنا به قول الجمهور .  
الحادية عشرة - قوله تعالى : ( ثُمَّ تَوَلَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ) تقدم  
القول فيه .

قوله تعالى : ( اٰمَنَ اَتَّبَعَ رَضُوْنَ اللّٰهَ كُنْ بَاِءٌ سَخَطَ مِنْ اللّٰهِ وَمَاوَهُ  
جَهَنَّمَ وَيُسَاسِ الْمَصِيْرُ ) (١١٦) هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ بَصِيْرٌ بِمَا يَعْمَلُوْنَ (١١٧)  
قوله تعالى : ( اٰمَنَ اَتَّبَعَ رَضُوْنَ اللّٰهِ ) يريد بترك التلؤلؤ والصبر على الجهاد . ( كُنْ بَاِءٌ )  
يَسَخَطُ مِنْ اللّٰهِ ) يريد بكفر أو غُلُول أو تَوَلَّى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحرب . ( وَمَاوَهُ  
جَهَنَّمَ ) أى متواه النار أى إن لم يَبْ أو يَسْعَوْ الله عنه . ( وَيُسَاسِ الْمَصِيْرُ ) أى للرجوع . وقضى



رِضْوَانٌ يَكْفُرُ الْإِثْمَ وَحَتْمًا كَالْمُدَوَانِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أَيْ لَيْسَ مِنْ تَجَرُّدِ رِضْوَانِ اللَّهِ كَنَّى بِهِ بِسَطَاطِهِ . قِيلَ : « هُم دَرَجَاتٌ » مُتَفَادِيَةٌ ، أَيْ هُمْ يُعْطَوْنَ الْمُنَازِلَ عِنْدَ اللَّهِ ؛ فَلَمَّا تَجَرَّدَ رِضْوَانُهُ الْكَرَامَةُ وَالنَّوَابُ الْعَظِيمُ ، وَلَمَّا بَدَأَ بِسَطَاطِهِ الْمَهَانَةُ وَالْعَذَابُ الْأَلِيمُ . وَمَعْنَى « ثُمَّ دَرَجَاتٌ » أَيْ ذَوُو دَرَجَاتٍ . أَوْ عَلَى دَرَجَاتٍ ، أَوْ فِي دَرَجَاتٍ ، أَوْ لَمْ دَرَجَاتٌ . وَأَهْلُ النَّارِ أَيْضًا ذَوُو دَرَجَاتٍ ؛ كَمَا قَالَ : « وَجَدْتُهُ فِي تَعَمُّرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى مَخْضَاحٍ »<sup>(١)</sup> . فَلِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ لِيَسْتَوِيَا فِي الدَّرَجَةِ ؛ ثُمَّ الْمُؤْمِنُونَ يَخْتَلِفُونَ أَيْضًا ، فَبَعْضُهُمْ أَرْفَعُ دَرَجَةً مِنْ بَعْضٍ ، وَكَذَلِكَ الْكَافِرُونَ . وَالدَّرَجَةُ الرَّبِّيَّةُ ، وَمِنَ الدَّرَجِ ؛ لِأَنَّهُ يُطَوَّى رُبِّيَّةٌ بِدَرَجَةٍ . وَالْأَشْهُرُ فِي مَنَازِلِ جَهَنَّمَ دَرَكَاتٌ ؛ كَمَا قَالَ : « إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » فَلَمَّا لَمْ يَتَلَّ دَرَجَاتٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَلَمَّا غَلَّ دَرَكَاتٌ فِي النَّارِ . قَالَ أَبُو عِيْثَةَ : جَهَنَّمَ أَدْرَاكٌ ، أَيْ مَنَازِلٌ ؛ يُقَالُ لِكُلِّ مَقْدَلٍ مِنْهَا : دَرَكٌ وَدَرَكٌ . وَالدَّرَكُ إِلَى أَسْفَلٍ ، وَالدَّرَجُ إِلَى أَعْلَى .

قوله تعالى : لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَّالِينَ<sup>(٢)</sup>

يَنْ لَّهُ تَعَالَى عَظِيمٌ مَنَّةٌ عَلَيْهِمْ بَعَثَهُمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلِلْمَنَّةِ فِي الْمَنَّةِ فِيهِ أَقْوَالٌ : مِنْهَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أَيْ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ . فَلَمَّا أَظْهَرَ الْبَرَامِينَ وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . وَقِيلَ : « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » مِنْهُمْ . فَتَشَرَّفُوا بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانَتْ تِلْكَ الْمَنَّةُ . وَقِيلَ : « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » لِيَعْرِفُوا حَالَهُ وَلَا يَخْشَى عَلَيْهِمْ طَرِيقَتَهُ . وَإِنَّمَا كَانَ عَلَيْهِمْ هَذَا كَمَا أَنَّ أَحَدًا بَانَ بِأَهْلِيهِ عَنْهُ وَلَا يَنْهَزُوا دُونَهُ . وَفَرَّقَ فِي الشَّوَادِ « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » (بَفَتْحِ الْقَافِ) بِمَعْنَى مَنْ أَسْرَفَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَنِي هَانِمَ ، وَبَنُو هَانِمَ أَفْضَلُ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَقُرَيْشٌ أَفْضَلُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَالْمَرْبُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ . ثُمَّ قِيلَ : لَفْظُ الْمُؤْمِنِينَ عَامٌّ وَمَعْنَاهُ حَاصِرٌ

(١) المَخْضَاحُ : مَا وَدَّ مِنَ الْمَاءِ عَلَى رِجْلِهِ الْأَرْضَ وَلَا يَبْلُغُ الْكَبِيرَ ، فَاسْتَوْدَعَهُ لِقَارِ .

في العرب؛ لأنه ليس حتى من إحياء العرب إلا وقد ولده صلى الله عليه وسلم، ولم فيه نسب؛  
إلا بنى قَلْبٍ فإنهم كانوا نصارى فطهره الله من دنس النصرانية . وبيان هذا التأويل قوله  
تعالى : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ » . وذكر أبو محمد عبد الغنى قال : حدثنا  
أبو أحمد البصري حدثنا أحمد بن علي بن سعيد القاضي أبو بكر المروزي حدثنا يحيى بن معين  
حدثنا هاشم بن يوسف عن عبد الله بن سليمان التوافي عن الزهري عن عروة عن عائشة  
رضي الله عنها « لقد مات الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم » قالت : هذه  
للرب خاصة . وقال آخرون : أراد به المؤمنين كلهم . ومعنى « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أنه واحدٌ  
منهم وبشّرهم ، وإنما امتاز عنهم بالوحي ؛ وهو معنى قوله « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ  
أَنْفُسِكُمْ » وخص المؤمنين بالله كراتهم المستقيمون به ، فإلته عليهم أعظم . وقوله تعالى :  
( يَتْلُو عَلَيْهِمْ ) « يتلو » في موضع نصب تحت لرسول ، ومعناه يقرأ . والتلاوة القراءة .  
( وَيَسْمَعُ الْكَلَامَ وَالْحِكْمَةَ ) تقدم في « البقرة » . ومعنى ( وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ) أي ولقد  
كانوا من قبل ، أي من قبل محمد . وقيل : « إِنْ » بمعنى ما ، واللام في الخبر بمعنى  
إلا ، أي وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين . ومثله « وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ »  
وما كنتم من قبله إلا من الضالين . وهذا مذهب الكوفيين . وقد تقدم في « البقرة » معنى  
هذه الآية .

قوله تعالى : أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا  
قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)

الأنف للاستفهام ، والاولو للعطف . ( مِصْبِيَةً ) أي غلبة . ( قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا ) يوم  
بدر بأن قتلتم منهم سبعين وأسرتم سبعين . والأسير في حكم المقتول ؛ لأن الأسير يقتل  
أسيره إن أراد . أي هزتهم يوم بدر ويوم أحد أيضا في الابتداء ، وقتلتم فيه قريبا من

عشرين . قتلهم منهم في يومين ، وقالوا منكم في يوم واحد . قتلهم : ( أَيْ هَذَا ) أى من أين أصابنا هذا الالتزام والقتل ، ونحن قاتل في سبيل الله ، ونحن مسلمون ، وفينا النبي والوحي ، وهم مشركون . ( قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ) يعنى مخالفة الرأى . وما من قوم أطاعوا نبيهم في حرب إلا نُصروا ؛ لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله ، وحزب الله هم الطالبون . وقال قتادة والزيغ بن أنس : يعنى سؤلهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج بعد ما أراد القيام بالمدينة . وتأولوا في الرؤيا التي رآها حصناً حصيناً . على بن أبى طالب رضى الله عنه : هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل . وقد قيل لهم : إن فاديتهم الأسارى قُتل منكم على عتيتهم . روى البيهقي عن علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم في الأسارى يوم بدر : " إن شتمت فقتلهم وإن شتم فاديتهم وأستمتعت بالفداء واستشهد منكم بصلتهم " . فكان آخر السبعين ثابت بن قيس قُتل يوم البسامة . فعنى « مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ » على القولين الأولين بلنوبكم . وعلى القول الأخير باختياركم .

قوله تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْقِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَثْكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١١٧﴾

يعنى يوم أخذ من القتل والجرح والمزيمه . ( فَيَا ذُنَّ اللَّهِ ) أى بعله . وقيل : بقضائه وقدره . قال الفقهاء : أى فبخطيئته بينكم وبينهم ، لا أنه أراد ذلك . وهذا تأويل المعتزلة . ودخلت الفاء في « فَيَا ذُنَّ اللَّهِ » لأن « ما » بمعنى الذى . أى والذى أصابكم يوم التقي الجمعان فَيَا ذُنَّ اللَّهِ ؛ فاشبه الكلام معنى الشرط ، كما قال سيوطه : الذى قام فله درهم . ( وَلَيَعْلَمَ

الْمُؤْمِنِينَ وَيَلْمِ الَّذِينَ نَادَوْا أَي لِيُتَبَيَّنَ . وَقِيلَ لِيَرَى . وَقِيلَ : لِيُظْهِرَ إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِينَ شِدَّتَهُمْ فِي الْقِتَالِ ، وَلِيُظْهِرَ كُفْرَ الْمُنَافِقِينَ بِإِظْهَارِهِمُ الشَّكَّاءَ فَيَعْلَمُونَ ذَلِكَ . وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ نَادَوْا وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ هِيَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَاصْحَابِهِ الَّذِينَ أَصْرَفُوا مَعَهُ عَنْ نُصْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانُوا ثَلَاثَةً ، وَمَشَى فِي أَثَرِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ حِرَامِ الْأَنْصَارِيِّ ، أَوْ جَابِرُ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَقَالَ لَمْ : أَتَقُولُ اللَّهُ وَلَا تَتْرَكُوا نَبِيَكُمْ ، وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، وَخَوَّاهُ مِنْ الْقَوْلِ . فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي : مَا أَرَى أَنْ يَكُونَ قِتَالُ ، وَلَوْ عَلِمْنَا أَنْ يَكُونَ قِتَالُ لَكُنَّا مَعَكُمْ . فَلَمَّا بَيَّنَّ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ قَالَ : إِذْهَبُوا أَعِدَّ اللَّهُ فَيُخَيِّئُ اللَّهُ رَسُولَهُ عَنْكُمْ . وَمَضَى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَشْهَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ ادْفَعُوا ﴾ فَقَالَ الشُّدِّي وَابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمَا : كَثُرُوا سَوَادُنَا وَإِنْ لَمْ يَخَالُوا مَعًا ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ دَفْعًا وَقِيَامًا لِلدَّفْعِ ؛ فَإِنَّ السَّوَادَ إِذَا كَثُرَ حَصَلَ دَفْعُ الْعَدُوِّ . وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : رَأَيْتُ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ الْإِنْعَمَى وَعَلَيْهِ دِرْعٌ يَمِيزُ أَطْرَافَهَا ، وَبِيَدِهِ رَايَةُ سُودَاءَ ؛ فَقِيلَ لَهُ : [ أَلَيْسَ ] قَدْ أَتَزَلَّ اللَّهُ عَنكَ ؟ قَالَ : بَلَى ! وَلَكِنِّي أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ بِنَفْسِي . وَرُوي عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : فَكَيْفَ إِسْوَادِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ! وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو الْأَنْصَارِيُّ : مَعْنَى « أَوْ ادْفَعُوا » رَابِطُوا . وَهَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ . وَلَا عَمَلَةَ أَنْ لِلرَّابِطِ مَدَافِعَ ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا مَكَانُ الْمُرَابِطِينَ فِي التَّنَوُّرِ لَجَاءَهَا الْعَدُوُّ . وَذَهَبَ قَوْمٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو « أَوْ ادْفَعُوا » إِنَّمَا هُوَ اسْتِدْعَاءٌ إِلَى الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهِيَ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَمَلُ . فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى ذَلِكَ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الرَّجْعَةُ الَّتِي يَحْتَمِلُهَا وَيَسْتَأْتِيهَا . أَيْ أَوْ قَاتِلُوا دَفْعًا عَنِ الْحَوْزَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّ قُرْآنًا قَالَ : وَلَقَدْ مَا قَاتَلْتَ إِلَّا عَن أَهْوَائِهِمْ قَوْمِي . وَأَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ الْأَنْصَارِ قَالَ يَوْمَ أُسُدٍ مَا رَأَى

(١) هُوَ قُرْآنُ بْنُ الْحَارِثِ السَّيِّدِيِّ الْمَدَنِيِّ الَّذِي تَالَفِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ اللَّهَ لَيُزِيدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّابِلِ الْغَائِبِ " .

قريشا قد أرسلت الظهور في زروع قتاة ، أنزعى زروع بنى قبلة ولما فضاير؟ والمضى لمن لم  
تقاتلوا في سبيل الله فقاتلوا دفعا عن أنفسكم وحريمكم .

قوله تعالى : ﴿مَنْ لِكُفْرٍ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أى يتوا سالم ، وهتكوا أنظرم ،  
وكشفوا عن فانيهم لمن كان يظن أنهم مؤمنون ؛ فصاروا أقرب إلى الكفر فى ظاهر الحال ،  
وإن كانوا كافرين على التحقيق . وقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ يَا هَؤُلَاءِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾  
أى أظهروا الإيمان ، وأخبروا الكفر . وذكر الأتواء تأكيد ؛ مثل قوله : «يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ» .

قوله تعالى : الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ  
قَادَرْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ معناه لأجل إخوانهم ، وهم المشبهة المقتولون من  
الخرج ؛ وهم إخوة نسب وإخوة ، لا إخوة الدين . أى قالوا لهؤلاء الشهداء : لو قعدوا ،  
أى بالمدينة ما قتلوا . وقيل : قال عبد الله بن أبى وأصحابه لإخوانهم ، أى لأشكلم من  
المتأقين : لو أطاعونا هؤلاء الذين قتلوا لما قتلوا . وقوله ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يريد فى ألا يخرجوا  
إلى قريش . وقوله : ﴿وَقَعَدُوا﴾ أى قالوا هذا القول وقعدوا بأنفسهم عن القتال ، فرد  
الله عليهم بقوله : ﴿قُلْ قَادَرْتُمْ﴾ أى قل لم يا عد : إن صدقتم فادفصوا الموت عن  
أنفسكم . والبرء الدفع . بين بهذا أن الحذر لا يمنع من القدر ، وأن المقتول قتل بأجله ،  
وما علم الله وأخبر به كائن لا محالة . وقيل : مات يوم قيل هذا سبعون متافا . وقال أبو الليث  
السمرقندى : سمعت بعض المبشرين بسرقند يقول : لما نزلت الآية «قُلْ قَادَرْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ» مات يومئذ سبعون نفسا من المتأقين .

(١) الظهور : الركاب التى تحمل الأنفال فى السفر ؛ حلها بإياها على ظهورها . (٢) قتاة : راد بالمدينة ،  
ومنى أحد أوديتها الثلاثة ، على حوت ومال . قال الداني : وفتاة بآى من اللطائف ويصوب ق الأوسية وفرقة  
الكدر ثم بآى بمرحومة ، ثم يمر على طرف القدم فى أصغر نهر الشهداء بأجد . (من سبم للهدان) .  
(٣) فتة : أم الأوس والمرج ؛ ومنى نية بنت كهل بن طرفة فضاغية . ويقال : بنت بضفة ، ضفة .  
بن شرح القاموس) .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ  
عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٦﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ  
بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٧﴾  
فيه ثمان مسائل :

الأولى - لما بين تعالى أن ما كان يوم أحد كان أمماتاً يميز الملائق من الصادق، بين  
أن من لم يتوهم قتل له الكرامة والحياة عنده . والآية في شهداء أحد . وقيل : نزلت في شهداء  
بدر مرمونة . وقيل : بل هي عاتمة في جميع الشهداء . وفي مصنف أبي داود بإسناد صحيح  
عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أصيب إخوانكم بأحد جعل  
الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأتي إلى قتاديل من  
ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم وشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ  
إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة يرزقون لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكفوا عند الحرب فقال الله  
سبحانه أنا ألبنهم عنكم - قال - فأنزل الله " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ... " إلى  
آخر الآيات . وروى ياقوت بن محمد عن جابر قال : لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :  
" يا جابر مالي أراك منكماً مهتماً ؟ " قلت : يا رسول الله ، استشهد أبي وترك عيلاً وعليه دين ؟  
فقال : " ألا أبشرك بما لي الله عز وجل به أباك ؟ " قلت : بلى يا رسول الله . قال : " إن الله أحيأ  
أباك وكله كيفاً وما لکم أحداً قط . إلا من وراء حجاب فقال له يا عبدی ممن أعطاك قال يا رب  
فردني إلى الدنيا فأقتل نيك ثانية فقال الرب تبارك وتعالى إنه قد سبق مني أنهم [اليها] (١)  
لا يرجعون قال يا رب فأبلغ من ورائي فأزل الله عز وجل " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ  
الله " الآية . أخرجه ابن ماجة في سننه ، والترمذي في جامعه وقال : هذا حديث حسن  
غريب . وروى وكيع عن سالم بن الأفطس عن معبد جبير " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ

(١) كفاسا (بكر الكاف) أي مواجهة ليس فيها حجاب ولا رسول .

(٢) زيادة من سنن الترمذي وابن ماجة .

الله أمواتاً بل أحياء» قال : لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ومُصعب بن عمير ورأوا ما رزقوا من الخير قالوا : ليت إخواننا يصلون ما أصابنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رغبةً ؛ فقال الله تعالى أنا ابنهم عنكم ، فأزل الله تعالى : « ولا تحبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً — إلى قوله : لَا يُضِجُ أُنْبَرُ الْمُؤْمِنِينَ » . وقال أبو الفُضْحى : نزلت هذه الآية في أهل أحد خاصة . والحديث الأول يقتضى صحة هذا القول . وقال بعضهم : نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً ؛ ثمانية من الأنصار ، وستة من المهاجرين . وقيل : نزلت في شهداء بدر مضمونة ، وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن اسحاق وغيره . وقال آخرون : إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابهم نعمة وسرور تحسروا وقالوا : نحن في النعمة والسرور ، وآباؤنا وأبنائنا وإخواننا في القصور . فأزل الله تعالى هذه الآية تنقيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم .

قلت : وبالمجمل وإن كان يحتمل أن يكون القول بسبب المجموع فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياء في الجنة يرزقون ، ولا محالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب ، وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين ، وقُضِلوا بالرزق في الجنة من وقت القتال حتى كأن حياة الدنيا دأمة لهم .

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى . فالذى عليه المعظم ما ذكرناه وأن حياة الشهداء حقيقة . ثم منهم من يقول : تَرَدَّ إليهم الأرواح في قبورهم فينعمون ، كما يحيا الكفار في قبورهم فيُعذبون . وقال مجاهد : يرزقون من تمر الجنة ، أى يمدون ريمها وليسوا فيها . وصار قوم إلى أن هذا مجاز ، والمعنى أنهم في حكم الله مستحقون للثمن في الجنة . وهو كما يقال : مات فلان ، أى ذكره من ؛ كما قيل :

مَوْتُ النَّسِيِّ حَيَاةٌ لَا فَنَاءَ لَهَا . قد مات قوم وهم في الناس أحياء

فَاللَّهُ أَنَّهُمْ يَرْزُقُونَ الثَّانَةَ الْجِيلَ . وقال آخرون : أرواحهم في أجواف طير خضر وأنهم يَرْزُقُونَ في الجنة ويأكلون ويتنعمون . وهذا هو الصحيح من الأقوال ؛ لأن ما سمع به القل فهو الواقع . وحديث ابن عباس نص يفرض الخلاف . وكذلك حديث ابن مسعود خبره مسلم . وقد أتينا على هذا المعنى ميّناً في كتاب «التذكيرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» . والحمد لله . وقد ذكرنا هناك كم الشهداء ، وأنهم يختلفوا الحال . وأما من تأول في الشهادة أنهم أحياء بمعنى أنهم سيحيون فيعيد يده القرآن والسنة ؛ فإن قوله تعالى : « بَلْ أَحْيَاءُ » دليل على حياتهم ، وأنهم يَرْزُقُونَ ولا يَرْزُقُ إلا حي . وقد قيل : إنه يكتب لهم في كل سنة ثواب غزوة ، ومُتْرَكُونَ في ثواب كل جهاد كان يندم إلى يوم القيامة ؛ لأنهم سَنُوا أمر الجهاد . تَطْلِيهِ قوله تعالى : « مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا » . على ما يأتي يساهم هناك إن شاء الله تعالى . وقيل : لأن أرواحهم تركب وتسجد تحت العرش إلى يوم القيامة ، كأرواح الأحياء المؤمنين الذين يأتوا على وضوء . وقيل : لأن الشهيد لا يبل في القبر ولا تأكله الأرض . وقد ذكرنا هذا المعنى في «التذكيرة» وأن الأرض لا تأكل الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤذنين المحسنين وحمة القرآن .

الثانية - إذا كان الشهيد حياً حُكِمَ فلا يُصلّى عليه ، كالحى - حساً . وقد اختلف العلماء في غسل الشهداء والصلاة عليهم ؛ فذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة واليوتري إلى غسل جميع الشهداء والصلاة عليهم ؛ إلا قتل المُتْرَكُ في قتل العدو خاصة ؛ لحديث جابر قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ادفونهم بدمائهم » يعني يوم أُحُد ولم يُصلِّهم ، رواه البخاري . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل أحد أن يترع عنهم الحديد والجلود وأن يدفنوا بدمائهم ويهاشمهم . وبهذا قال أحمد وإسحاق والأوزاعي وداود بن علي وجماعة فقهاء الأمصار وأهل الحديث وابن علية . وقال سعيد بن المسيب والحسن : يُسألون . قال أحدهما : إنما لم تُسَلَّ شهيداً أحد لكثرةهم والشغل عن ذلك . قال أبو عمر : ولم يقل بقول سعيد والحسن هذا أحد من فقهاء الأمصار إلا عبيد الله بن الحسن السعدي ، وليس



ما ذكروا من الشغل عن غسل شهيد أحد علة ؛ لأن كل واحد منهم كان له ولي يستحل به ويقوم بأمره . والله في ذلك - والله أعلم - ما جاء في الحديث من دلتهم "أنها تأتي يوم القيامة كرجل المسك" فإِنَّ أَنَّ العلة ليست الشغل كما قال من قال في ذلك وليس لهذه المسألة مدخل في القياس والنظر، وإنما هي مسألة أتباع لأثر الذي قبله الكفاية في قتل أحد لم يقتلوا . وقد احتج بعض المتأخرين بمن ذهب مذهب الحسن بقوله عليه السلام في شهيد أحد : "أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة" . قال : وهذا يدل على خصوصهم وأنه لا يشركهم في ذلك غيره . قال أبو عمر : وهذا يشبه الشذوذ ، والقول بترك غسلهم أولى ؛ لثبوت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل أحد وغيره . وروى أبو داود عن جابر قال : ربي رجل بسم في صدره أو في حلقه ثات فأدريج في ثيابه كما هو . قال : وعجب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالثة - وأما الصلاة عليهم فاختلف العلماء في ذلك أيضا ؛ فذهب مالك وأبي الثوري والشافعي - وأحمد وداود إلى أنه لا يصل عليهم ؛ لحديث جابر قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتل أحد في نوب واحد ثم يقول : "أيُّهما أكثر أخذًا للفرق" ؟ فإذا أُنشِر له إلى أيدهما قدسه في التمدد وقال : "أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة" وأمر بدفنه بدمائهم ولم يُسَلِّوا ولم يصل عليهم . وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشافعي : يصل عليهم . ورووا آثارا كثيرة أكثرها مراسيل أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على حمزة وعلى سائر شهداء أحد .

الرابعة - وأجمع العلماء على أن الشهيد إذا حُمل حيا ولم يمِت في المتحرك وعاش وأكل فإنه يصل عليه ؛ كما قد صُنِعَ بعمر رضى الله عنه .

واختلفوا فيما قُتل مظلوما كقتل الخوارج وقطاع الطريق وشبه ذلك ؛ فقال أبو حنيفة والثوري : كل من قتل مظلوما لم يُقتل ؛ ولكن يصل عليه وعلى كل شهيد ؛ وهو قول سائر أهل العراق . ورووا من طرق كثيرة صحاح عن زيد بن صوحان ، وكان قتل يوم الجمل ؛ لا تترعوا عني ثوبا ولا نسيلا عني ثوبا . وروى عن عمار بن ياسر أنه قال مثل قول زيد

ابن موحان . وقُتل عمار بن ياسر بصيحين ولم يغسله علي . ولشافى قولان : أحدهما - يُغسل بجميع الموتي إلا من قُتله أهل الحرب ؛ وهذا قول مالك . قال مالك : لا يُغسل من قُتل الكفار ومات في المُعترك . وكل قتل غير قتل المُعترك - قتل الكفار - فإنه يُغسل ويصلى عليه . وهذا قول أحمد بن حنبل رضى الله عنه . والقول الآخر للشافى - لا يُغسل قتل البُناة . وقول مالك أصح ؛ فإنَّ غُسل الموتي قد ثبت بالإجماع وقيل الكفاية . فواجبُ غُسل كل ميت إلا من أنجره إجماع أو سنة ثابتة . والله التوفيق .

الخامسة - المدو إذا صبح قوما في منزلهم ولم يعلموا به قُتل منهم فهل يكون حكمه حكم قتل المُعترك ، أو حكم سائر الموتي ؛ وهذه مسألة نزلت عندنا بِقُرْطُبة أعادها الله : أغار العدو - قصصه الله - صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وستمائة والناس في أجزائهم على غفلة ، فقتل وأسّر ، وكان من جُلة من قُتل والذي رحمه الله ؛ فسالت شيخنا المرقئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجة فقال : غُسله وصل عليه ، فإن أبالك لم يُقتل في المُعترك بين الصَّيْن . ثم سألت شيخنا ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع ابن أبي فقال : إن حكمه حكم القتل في المُعترك . ثم سألت قاضى الجماعة أبا الحسن علي بن قطرال وجعله جماعة من الفقهاء فقالوا : غُسله وكفنه وصل عليه ؛ ففعلت . ثم بعد ذلك وقفت على المسألة في «البصرة» لأبي الحسن التميمي وغيرها ، ولو كان ذلك قبل ذلك ما غُسله ، وكنت دفنته بدمه في ثيابه .

السادسة - هذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل في سبيل الله والشهادة فيه حتى أنه يكفر الذنوب ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : «القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين» كذلك قال لي جبريل عليه السلام آتفا . قال علماؤنا : وذكر الدين شبيه على ما في معناه من الحقوق المتعلقة بالقامة ، كالنصب وأخذ المال بالباطل وقتل الممد وجراحه وغير ذلك من النِّجَاحات ، فإن كل هذا أولى ألا يُنفَر بالجهاد من الدين فإنه أشد ، والقصاص في هذا

كله بالحنسات والبيئات حسبا وردت به السنة الثابتة . روى عبد الله بن أنيس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : <sup>(١)</sup> "يحشر الله العباد— أو قال الناس، شكهم، وأوما بيده إلى الشام — عُرّة غُرْلًا <sup>(٢)</sup> . قلنا : ما هم ؟ قال : ليس معهم شيء فيتأديهم بصوت يسمعه من قُرب ومن يمد أنا الملك أنا الذي لا يبنى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ولا يبنى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى الظلمة . قلنا : كيف وإنا أتى الله حُفّة عُرّة غُرْلًا . قال : بالحنسات والبيئات . أخرجه الحارث بن أبي أسامة . وفي صحيح مُسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أندرون ما المُفْلِس . قالوا : المُفْلِس فينا من لا يدرهم له ولا متاع . قال : "إن المُفْلِس من أتى من أتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقَتَفَ هذا وكلّ مال هذا وسَفَكَ دَمَ هذا وضرب هذا فَيُعْطَى هذا من حسنة وهذا من حسنة فإن قَبِيتَ حسنة قبل أن يُقَضَى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار . وقال صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسى بيده لو أن رجلا قُتِلَ في سبيل الله ثم أُسِيَّ ثم قُتِلَ ثم أُحْيِيَ ثم قُتِلَ وطيه دين ما دخل الجنة حتى يُقَضَى عنه " . وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نفس المؤمن معلقة ما كان عليه دين " . وقال أحمد بن زهير : سئل يحيى بن معين عن هذا الحديث فقال : هو صحيح . فإن قيل : فهذا يدل على أن بعض الشهداء لا يدخلون الجنة من حين القتل ، ولا تكون أرواحهم في جوف طير كما ذكرتم ، ولا يكونون في قبورهم ، فأين يكونون ؟ قلنا : قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أرواح الشهداء على نهر ياب الجنة يقال له يارق يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا" فطعمهم هؤلاء . والله أعلم . ولهذا قال الإمام أبو محمد بن عطية : وهؤلاء طبقات وأحوال مختلفة يجمعها أنهم « يَرْزُقُون » . وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في مسنده عن

(١) هو مام بن يحيى ، أحد رجال هذه الحديث .

(٢) القتل (بضم فكركن) : جمع الأغرل ، وهو الأنف .

سليم بن عطاء قال سمعت أبا أمامة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
 "شيد البحر مثل شيد البر ولما كد في البحر كلُّتَشَحَطٌ<sup>(١)</sup> في دمه في البروما بين للموحين  
 كقطاع الدنيا في طاعة الله وإن الله عز وجل وكل ملك للوث قبض الأرواح إلا شيد  
 البحر فإنه يتولى قبض أرواحهم ويغفر لشيد البر الذنوب كلها إلا الذين وشيد البحر  
 الذنوب والذين".

السابعة - الذين الذين يؤمن به صاحبه عن الجنة - والله أعلم - هو الذي قد  
 ترك له وفاء ولم يؤمن به . أو قدر على الأداء فلم يؤته ، أو آذانه في سرف أو في سفه ومات  
 ولم يؤفه . وأما من آذانه في حق واجب لقافة وعسر ومات ولم يترك وفاء فإن الله لا يمسه  
 عن الجنة إن شاء الله ؛ لأن على السلطان فرضاً أن يردى عنه دينه ، إما من جملة الصدقات ،  
 أو من سهم التارمين ، أو من القىء الراجع على المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : "من ترك  
 ديناً أو ضياعاً صلى الله ورسوله ومن ترك مالا فلورثته" . وقد زدنا هذا الباب بياناً في كتاب  
 ( التذكرة ) والمحدثه .

الثامنة - قوله تعالى : ( عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ) فيه حذف مضاف تقديره عند  
 كرامة زبهم . و "عند" هنا تعني غاية القرب ، فهي كلدي ولذلك لم تصغر فيقال : عِندِ  
 قاله سيويه . فهذه عندية الكرامة لا عندية المسافة والقرب . و "يرزقون" هو الرزق المعروف  
 في العادات . ومن قال هي حياة الذكر قال : يرزقون التاء الجليل . والأول الحقيقة .  
 وقد قيل : إن الأرواح تدرك في تلك الحال التي يسرحون فيها من روائح الجنة وطيبها ونعيمها  
 يسرورهم ما يلقى بالأرواح ؛ مما ترزق ومحص به . وأما الذات الجسمانية فإذا أعيدت تلك  
 الأرواح إلى أجسادها استوتت من النعم جميع ما أعد الله لها . وهذا قول حسن وإن كان فيه  
 نوع من المجاز فهو الموافق لما اخترناه . والموفق الإله . و ( فرحين ) نصب في موضع الحال

(١) المساءة : الذي يدار رأسه من دج البرء واضطراب السقية بالأرواح .

(٢) شَطَطُ الغرل في دمه تحيط به واضطرب وترغ . (٣) الضياع : (فتح أراه) : الغيال .

من المصمق « يزقون » . ويجوز في الكلام « فرثون » على التثنية لأحياء . وهو من  
الفرح بمعنى السرور . والفضل في هذه الآية هو التعميم المذكور . وقرأ ابن السكيت « قاريين »  
بالألف وهما لثان كالفاء والقارء ، والحند والحاذر ، والطمع والطامع ، والبخل والباخل .  
قال النحاس : ويجوز في غير القرآن رفعه يكون ثمة لأحياء .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ للمنى لم يلحقوا بهم  
في الفضل ، وإن كان لم يفضل . وأصله من الإشارة ؛ لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور  
في وجهه . وقال السدي : يؤتى الشهيد يكذب فيه ذكر من يقدم عليه من إخوانه ، فيستبشر  
كما يستبشر أهل الغائب بقدومه في الدنيا . وقال قتادة وابن جرير والتزم وغيرهم : استبشارهم  
بأنهم يقولون : إخواننا الذين تركنا خلفنا في الدنيا يقاتلون في سبيل الله مع ثيهم ، فيستشهدون  
فينالون من الكرامة مثل ما نحن فيه ، فيسرون ويفرحون لم بذلك . وقيل : إن الإشارة بالاستبشا،  
للذين لم يلحقوا بهم إلى جميع المؤمنين وإن لم يقتلوا ، ولكنهم لما عاينوا ثواب الله وضع اليقين  
بأن دين الإسلام هو الحق الذي يشيب الله عليه ، فهم فرحون لأحسبهم بما آتاهم الله من فضله ،  
مستبشرون للمؤمنين بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ذهب إلى هذا المنى الزجاج وآبن  
فورك :

قوله تعالى : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ

أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧١)

أي بجنة من الله . ويقال : بجنة من الله . ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ هذا زيادة البيان . والفضل  
داخل في النعمة ، وفيه دليل على اتساعها ، وأنها ليست كسهم الدنيا . وقيل : جاء الفضل  
بعد النعمة على وجه التأكيد . وروى الترمذي عن المقدم بن عبدكرب قال قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : " للتبشير عند الله ست خصال - كذا في الترمذي وابن ماجه - ست ،

وفي البعد سج - ينقر له في أول دُفَّة ويرى مقعده من الجنة ويحار من عذاب القبر وأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوفاق اليقوتة منها خير من الدنيا وما فيها وزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ويُشَفَّع في سبعين من أقاربه قال : هذا حديث حسن صحيح غريب . وهذا تفسير التهمة والفضل . والآثار في هذا المعنى كثيرة . وروى عن مجاهد أنه قال : السبب مفتاح الجنة . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أكرم الله تعالى الشهداء بحس كرامات لم يُكرم بها أحدنا من الأنبياء ولا أنا أحدها أن جميع الأنبياء قبض أرواحهم ملك الموت وهو الذي سيقبض رُوحى وأما الشهداء فالله هو الذي يقبض أرواحهم بتقدوته كيف يشاء ولا يُسلط على أرواحهم ملك الموت . والثاني أن جميع الأنبياء قد غسلوا بعد الموت وأنا أغسل بعد الموت والشهداء لا يُغسلون ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا . والثالث أن جميع الأنبياء قد كُفَّنوا وأنا أُكفَّن والشهداء لا يُكفَّنون بل يُدفنون في ثيابهم . والرابع أن الأنبياء لما ماتوا سُمُّوا أمواتا وإن مات الشهداء لا يُسمَّون مَوْتَى . والخامس أن الأنبياء تُعطى لهم الشفاعة يوم القيامة وشفاعتي أيضا يوم القيامة وأما الشهداء فلم يشفَعون كل يوم فيمن يشفعون » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّكَ فَرَاةٌ لِّكَايَ بِكْرِ الْاَلَفِ ، وَالْباقون بالنصب ؛ فنقرأ بالنصب ثمانية يستبشرون بنعمة من الله ويستبشرون بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . ومنقرأ بالكسر فعل الابتداء . ودليله قراءة ابن مسعود « والله لا يضيع أجر المؤمنين » .

قوله تعالى : الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

(١) في حاشية السبكي على سنن ابن ماجه : « قوله ست شمال الله كرويات سبع إلا أن يجعل الإجابة والأمن من الفزع واحدة » . (٢) دُفَّة : قال الهميري ضبطه في جامع القرطبي بضم الهمزة ، وكذلك قال طاهر اللقى ؛ الدُفَّة بالضم ما دفع من إنا ، أو سقاء ، فأصيب بجره ؛ وكذلك الدُفَّة من المطر وغيره مثل الدُفَّة بالثاقف . وأما الدُفَّة بالفتح فهي المرة الواحدة فلا يصلح هنا » .

«الذين» في موضع رفع على الابتداء، وخبره «من بعد ما أصابهم القرح». ويجوز أن يكون في موضع خفض بدل من المؤمنين، أو من «الذين لم يلحقوا». (استجابوا) بمعنى أجابوا، والسين والتاء زائدتان. ومنه قوله :

• فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذلك مُجِيبٌ<sup>(١)</sup> •

وفي الصحيحين عن عروة ابن الزبير قال قالت لى عائشة رضى الله عنها : كات أبوك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح . لفظ مسلم . وعنه عن عائشة : يا ابن أخي كان أبوك - بنى الزبير وأبا بكر - من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، قالت : لما انصرف المشركون من أحد وأصاب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما أصابهم خاف أن يرجعوا فقال : «من يَتَلَبَّسْ لِهَؤُلَاءِ حَتَّى يَسْلَمُوا أَنْ بِنَا قُوَّةً» فانتدب أبو بكر والزبير سبعين ، فخرجوا في آثار القوم ، فسمعوا بهم وأنصرفوا بنعمة من الله وفضل . وأشارت عائشة رضى الله عنها إلى ما جرى في غزوة حراء الأسد ، وهى على نحو ثمانية أميال من المدينة ؛ وذلك أنه لما كان يوم الأحد ، وهو الثاني من يوم أحد ، نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بإتباع المشركين ، وقال : «لا يخرج معنا إلا من شهد بها بالأس» تنهض معه مائتا رجل من المؤمنين . في البخارى فقال : «من يذهب في إثرهم» فانتدب منهم سبعون رجلا . قال : كان فيهم أبو بكر والزبير على ما تقدم ، حتى بلغ حراء الأسد ، مُرْهِباً للعدو ؛ فربما كان فيهم المُتَّقِلُّ بالجراح لا يستطيع المشى ولا يحد مرْكوباً ، فربما يحمل على الأعناق ؛ وكل ذلك استأثر لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغبة في الجهاد . وقيل : إن الآية نزلت في رجلين من بنى عبد الأشهل كانا مُتَخَيِّرينَ بالجراح ؛ يتوكأ أحدهما على صاحبه ، وخرجا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما وصلوا حراء الأسد ، لقيهم ثَمِمْ بن مسعود فأنخبرهم أن أبا سفيان ابن حرب ومن معه من قريش قد جمعوا جُوعَهُمْ ، وأجمعوا رأيهم على أن يأتوا إلى المدينة

(١) هذا مجزئ لكعب بن سعد الفزرى يذكى أخاه أبا المنقر؛ وصدوره :

• وداع دعا يا من يجيب إلى النبى •

فَيَسْأَلُوا أَهْلَهُا؛ قَالُوا : مَا أَخْبَرَنَا اللهُ عَنْهُمْ ؟ وَخَبَرَنَا اللهُ عَنْهُمْ الْوَيْلُ . • فَيُنَادِي قُرَيْشُ قَدْ  
 أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ إِذْ جِئْتُمْ بِمَعْبِدِ الْجُرْعَمِيِّ ، وَكَانَتْ نِسْرَةً حَلْفَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِيَّةٌ  
 نُسَمَّى ، وَكَانَ قَدْ رَأَى حَالِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ ؛ وَلَمَّا رَأَى عِزَمَ  
 قُرَيْشٍ عَلَى الرَّجُوعِ لِيَسْأَلُوا أَهْلَ الْمَدِينَةِ احْتِمَالَهُ خَوْفُ ذَلِكَ ، وَخَالَصَ نَصِيحَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ  
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ عَلَى أَنَّ خَوْفَ قُرَيْشٍ أَنَّ قَالَ لَمْ : قَدْ تَرَكْتُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ يَجْرَاءُ الْأَسَدَ  
 فِي بَيْتِ عَظِيمٍ ، قَدْ اجْتَمَعَ لَهُ مَنْ كَانَ يَخْشَى عَنْهُ ، وَهُمْ قَدْ تَحَرَّفُوا عَلَيْكُمْ ؛ فَالْتَجَاءُ الْفِتْنَاءُ ! فَنَادَى  
 أَنَّهُكَ عَنْ ذَلِكَ ، فَوَلَّاهُ لَقَدْ حَلَقَى مَا رَأَيْتُ أَنْ تَلُتُ فِيهِ آيَاتًا مِنَ الشَّعْرِ . قَالَ : وَمَا قُلْتَ ؟  
 قَالَ : قُلْتَ :

كَانَتْ بُدَّةٌ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاجِعِي • إِذْ سَالَتِ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبْيَاسِ<sup>(١)</sup>  
 تَرْدِي بِأَسَدٍ كَرَامٍ لَا تَسَابِلِي • عِنْدَ الْفَقَاءِ وَلَا يَسِيلُ مَعَارِيزِي<sup>(٢)</sup>  
 فَتَلَّتْ عَدَاؤُنَا الْأَرْضَ مَائِلَةً • لَمَّا تَحَمَّوْا بَرِيضَ غَيْرِ حَمُولٍ  
 قُلْتُ وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ قَائِكُمْ • إِنَّا تَقَطَّعَتِ السُّبُحَاءُ بِالْحَيْلِ<sup>(٣)</sup>  
 إِنِّي نَذِيرُ لَأَهْلِ الْبَيْتِ ضَاحِيَةً • لَعَلَّ ذِي إِزْدِيَّةٍ مِنْهُمْ وَمَقُولٍ  
 مِنْ بَيْتِ أَحْمَدٍ لَا وَخْشَ قَنَائِكُمْ • وَلَيْسَ يَوْصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقَيْلِ<sup>(٤)</sup>

قَالَ : فَتَنَى ذَلِكَ أَبَا سَعِيدٍ وَمَنْ مَعَهُ ، وَقَذَفَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، وَرَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ  
 خَائِفِينَ مَسْرِعِينَ ، وَرَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ مُنْصَوْرًا ؛ كَمَا قَالَ  
 اللهُ تَعَالَى : « فَأَقْبَلُوا بِمِخْنَةٍ مِنَ اللهِ وَقُضِيَ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » أَيْ قَاتَلَ وَرُغِبَ . وَأَسْتَأْذِنَ

- (١) عية (اليل) : موضع سره . (٢) الجرد : خيل صغيرة شرب الجبل . والأبْيَاسُ : جماعة في قفرة ؛  
 واحداها يَيْل . (٣) دنت الخيل دنا ودونا : رجت الأرض بموافقتها في سبيلها وضوعها .  
 وقنائة : قنائة ؛ واحدهم قنائة . والأيَّسِلُ : الذي يميل على السرج في جانب ولا يستوي عليه . وقلي : هو  
 الكسل الذي لا يحسن الركوب وهو رومية . والمنازلي : القوم ليس معهم سلاح ؛ واحدهم منزال .  
 (٤) قال صاحب الرُّضِ الْأَخْفِ : « تَقَطَّعَتِ السُّبُحَاءُ : قطع مستار عن النطقة ، وهو حوت غلمان القدر .  
 قوله (الخيل) يسيل الرَّدَفُ حرف لين ، والآيات كلها مرادة الرَّدَفُ بحرف مَدٍّ ولين ، وهذا هو السادة .  
 (٥) الرعش : رذال الناس وسفاهتهم . والقنائل : الطائفة من الناس ومن الخيل ، الواحدة قنيلة .



جابر بن عبد الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الخروج معه فأذن له . وأخبرهم تعالى أن  
 الأجر العظيم قد حصل لهم بهذه القفلة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنها غزوة" .  
 هذا تفسير الجمهور لهذه الآية . وشذ مجاهد وعكرمة وجهما الله تعالى فقالا : إن هذه الآية من  
 قوله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ — إلى قوله : — عظيم » إنما نزلت في خروج النبي صلى الله  
 عليه وسلم إلى بدر الصغرى . وذلك أنه خرج إلى ميقات أبي سفيان في أحد ، إذ قال : موعدنا  
 بدر من العام المقبل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "قولوا نعم" فخرج النبي صلى الله عليه  
 وسلم قبل بدر ، وكان بها سوق عظيم ، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه دراهم ،  
 وقرب من بدر بغناه . ثم بن مسعود الأشجعي ، فأخبره أن قريشا قد اجتمعت وأقبلت لحربه  
 هي ومن أضاف إليها ، فاشفق المسلمون من ذلك ، لكنهم قالوا : «حسبنا الله ونعم الوكيل»  
 فصمموا<sup>(١)</sup> حتى أتوا بدر فلم يجدوا أحدا ، ووجدوا السوق فاشترى بدرهمهم أدنا وتجارة ،  
 وأقبلوا ولم يبقوا كيتا ، ورمحوا في تجارتهم ؛ فذلك قوله تعالى : « فَأَقْبَلُوا بِنِصَّةٍ مِنَ اللَّهِ  
 وَفَضْلٍ » أي وفضل في تلك التجارات . والله أعلم .

قوله تعالى : الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ فَاخْشَوْهُمْ

فَرَادَهُمْ يُعْمِنُوا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

اختلف في قوله تعالى : ( الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ) فقال مجاهد ومقاتل وعكرمة والشكفي :  
 ثم بن مسعود الأشجعي . واللفظ عام ومعناه خاص ؛ كقوله : « أَمْ يَحْشُدُونَ النَّاسَ »  
 يعني يحدا صلى الله عليه وسلم . السدي : هو أعرابي جيل له جيل على ذلك . وقال  
 ابن إسحاق وجماعة : يريد بالناس ركب عبد القيس ، مرؤا بأبي سفيان فذهبهم إلى المسلمين  
 ليضطروهم . وقيل : الناس هنا المنافقون . قال السدي : لما تجهز النبي صلى الله عليه وسلم  
 وأصحابه لسير إلى بدر الصغرى لم يجدوا في ريان أناسا المنافقون وقالوا : نحن أصحابك الذين

هناكم عن الخروج إليهم وعصيتونا ، وقد قاتلوكم في دياركم وظفروا ؛ فإن أتيتوهم في ديارهم فلا يرجع منكم أحد . فقالوا : « حينئذ الله ونعم الوكيل » . وقال أبو معشر : دخل ناس من هذيل من أهل تيمامة المدينة ، فسالم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي سفيان فقالوا : « قد جمعوا لكم » جموعا كثيرة « فأخشوهم » أى نفاقهم وأحزروهم ؛ فإنه لا طاقة لكم بهم . فالتاس على هذه الأقوال على بابها من الجمع . والله أعلم .

قوله تعالى : ( فَرَادَهُمْ إِيمَانًا ) أى فرادهم قول الناس إيمانا ، أى تصديقا وبقينا في دينهم ، وإقامة على نصرتهم ، وقوة وبراعة واستعدادا . فزيادة الإيمان على هذا هى فى الأعمال . وقد اختلف العلماء فى زيادة الإيمان وتقصانه على أقوال . والنفيدة فى هذا على أن نفس الإيمان الذى هو تاج واحد ، وتصديق واحد بشئ تاء ، إيماء هو منى فرد ، لا يدخل معه زيادة إذا حصل ، ولا يبقى منه شئ إذا زال ؛ فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والتقصان فى متعلقاته دون ذاته . فذهب جمع من العلماء إلى أنه يزيد ويتقص من حيث الأفعال الصادرة عنه ، لا سيما أن كثيرا من العلماء يوقعون اسم الإيمان على الطاعات ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وسبعون بابا فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » أخرجه الترمذى ، وزاد مسلم « والحياة شعبة من الإيمان » . وفى حديث على رضى الله عنه : إن الإيمان ليلو لمطة بيضاء فى القلب ، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللطة . وقوله « لمطة » قال الأعمشى : اللطة مثل التكنة ونحوها من البياض ؛ ومنه قيل : فرس المطة ، إذا كان يمحقله شئ من بياض . والمحدثون يقولون « لمطة » بالفتح . وأما كلام العرب فالضم ؛ مثل شعبة ودمعة ونمرة . وفيه شجة على من أنكر أن يكون الإيمان يزيد ويخص . ألا تراه يقول : كلما ازداد الإيمان ازدادت اللطة حتى يبيض القلب كله . وكذلك النفاق يسدو ليطئة سوداء فى القلب كلما ازداد النفاق أسود القلب حتى يسود القلب كله . ومنهم من قال : إن الإيمان عرس ، وهو لا يثبت زمانين ؛ فهو لئى صلى الله عليه وسلم وللأئمة متعاقب ، فيزيد باعتبار توالى أمثاله على قلب المؤمن ، وباعتبار دوام حضوره .

وينقص بتوالي السَّفَلات على قلب المؤمن . أشار إلى هذا أبو المالح . وهذا المعنى موجود في حديث الشفاعة ، حديث أبي سعيد الخدري أخرجه مسلم . وفيه : " يقول المؤمنون يا ربنا إخواننا كانوا يصومون ويصَلُّون ويَصْبِرُونَ فَيَقَالُ لَمْ أُخْرِجُوا مِنْ عِرْقِهِمْ فَحَرَّمْ صُورَهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاعِيَةٍ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَا بَقِيَ فَبِهَا أَحَدٌ مِنْ أَمْرَتِنَا بِهِ يَقُولُ أَرْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ يَتَقَالُ دِينَارَ مِنْ خَيْرِ فَائِزِيهِ فَخُذُوا مِنْ خَيْرِ فَائِزِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مَنْ يَتَقَالُ دِينَارَ مِنْ خَيْرِ فَائِزِيهِمْ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مَنْ أَمْرَتِنَا أَحَدًا ثُمَّ يَقُولُ أَرْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ يَتَقَالُ دِينَارَ مِنْ خَيْرِ فَائِزِيهِمْ " وذكر الحديث . وقد قيل : إن المراد بالإيمان في هذا الحديث أعمال القلوب ، كالتوبة والإخلاص والخوف والتسبيح وشبه ذلك . وسماها إيماناً لكونها في عمل الإيمان أو عن الإيمان ، على عادة العرب في تسمية الشيء باسم الشيء إذا جاوره ، أو كان منه بسبب . دليل هذا التأويل قول الشافعين بعد إخراج من كان في قلبه يَتَقَالُ دِينَارَ مِنْ خَيْرِ : " لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا " مع أنه تعالى يُخْرِجُ بِسَبَبِ ذَلِكَ جَمْعًا كَثِيرًا مِنْ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وهم مؤمنون قطعاً ، ولو لم يكونوا مؤمنين لما أخرجهم . ثم إن عِلْمَ الوجود الأول الذي يُرَكَّبُ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ لم يكن زيادة ولا نقصان . وفقد ذلك في الحركة . فإن الله سبحانه إذا خَلَقَ عِلْمًا قَرِيبًا وَخَلَقَ مَعَهُ مِثْلَهُ أَوْ أَمثالَهُ مَعْلُومَاتٍ فَقَدْ زَادَ عَلَيْهِ ، فَإِنْ أَعْدَمَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ فَقَدْ قُصَّ ، أَيْ زَالَتْ الزِّيَادَةُ . وكذلك إذا خَلَقَ حَرَكَةً وَخَلَقَ مَعَهَا مِثْلَهَا أَوْ أَمثالَهَا . وَذَهَبَ قَوْمٌ مِنَ السَّلَامَةِ إِلَى أَنَّ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ وَحَقَّهُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْأُثْلَةِ ، فَتَرِيدُ الْأُثْلَةَ عِنْدَ وَاحِدٍ يَقَالُ فِي ذَلِكَ : إِنَّمَا زِيَادَةُ الْإِيمَانِ ، وَبِذَا الْمَعْنَى — عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ — فَضَّلَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَى الْخَلْقِ ، فَإِنَّهُمْ عِلْمُهُ مِنْ وَجْهِهِ كَثِيرٌ ، أَكْثَرُ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي عَلَيْهِ الْخَلْقُ بِهَا . وَهَذَا الْقَوْلُ خَارِجٌ عَنْ مَقْصُودِ الْآيَةِ ، إِذْ لَا يُصَوِّرُ أَنْ تَكُونَ الزِّيَادَةُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ الْأُثْلَةِ . وَذَهَبَ قَوْمٌ : إِلَى أَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْإِيمَانِ إِنَّمَا هِيَ بِزُولِ الْفِرَاقِ وَالْأَخْبَارِ فِي مَدَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفِي الْمَعْرِفَةِ بِهَا بَدَلِ الْجَهْلِ غَايَرًا لِلْقَهْرِ .

وهذا إنما هو زيادة إيمان؛ فالقول فيه إنه الإيمان يزيد قول مجازي، ولا يتصور فيه  
القصص على هذا الحد، وإنما يتصور بالإضافة إلى من علم . فاعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ أي كافينا الله . وحسب مأخوذ من  
الإحساب، وهو الكفاية . قال الشاعر :

فَمَلَأْ بَيْنَنَا إِنْطِلًا وَسَمًا • وَحَبُّكَ مِنْ غَيِّ شَيْعٍ وَرَى

روى البخاري عن ابن عباس قال في قوله تعالى : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا  
لَكُمْ - إلى قوله : - وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » قالوا إبراهيم الخليل عليه السلام حين  
أُتِيَ فِي النَّارِ . وقالوا عند صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم .  
والله أعلم .

قوله تعالى : فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّهِ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا  
رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧١﴾

• قال تلمذاذا : لما قَرَضُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَيْهِ، وَاعْتَصَدُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَيْهِ، أعطاهم من الجزاء  
أربعة مائة : النعمة، والفضل، وصرف السوء، وأتباع الرضا . فَرْضَاهُمْ عَنْهُ، ورضى عنهم .

قوله تعالى : إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ  
وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾

قال ابن عباس وغيره : المعنى يخوفكم أوليائه ؛ أي بأوليائه، أو من أوليائه؛ فحذف  
حرف الجر ووصل الفعل إلى الأسم نصب . كما قال تعالى : « لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا » أي لينذركم  
ببأس شديد ؛ أي يخوف المذنبين بالكافر . وقال الحسن والسدي : المعنى يخوف أوليائه  
المنافقين ؛ ليقصدوا من حال المشركين . نأما أوليائه الله فلنهم لا يخافونه إذا خزفهم . وقد

قيل: إن المراد هذا الذي يخوفكم بجمع الكفار شيطان من شياطين الإنس؛ إنما نعيم بن مسعود أو غيره، على الخلاف في ذلك كما تقدم. (فَلَا تَخَافُوهُمْ) أى لا تخافوا الكافرين المذكورين في قوله: «إن الناس قد جمعا لكم». أو يرجع إلى الأولياء إن قلت: إن المعنى يخوف بأوليائه أى يخوفكم أوليائه.

قوله تعالى: (وَخَافُونَ) أى خافون في ترك أمرى إن كنتم مصدقين بوعدى. والخوف في كلام العرب اللُّعْم. وَخَافَتِي فلان نَفَعْتُ، أى كُتُّ أشدَّ خوفاً منه. والخوفُ المَقَاظَةُ لا ماء بها. ويقال: نَافَةٌ خَوْفًا وهى الجرَّاء. والخالفة كالخرطة من الأدم يُشَارُفُهَا السَّل. قال سهل بن عبد الله: اجتمع بعض الصديقين إلى إبراهيم الخليل فقال: ما الخوف؟ فقال: لا تأمن حتى تبلغ الأمن. قال سهل: وكان الربيع بن خيثم إنما مَرَّ بِبَكْرِ يَفْتَسِي عليه؛ فقيل لعلَّ ابن أبى طالب ذلك؟ فقال: إنا أصابه ذلك فأعلموني. فأصابه فأعلموه، فقام فادخل يده في قميصه فوجد حركته عالية فقال: أشهد أن هذا أخوف زمانك. فالخائف من الله تعالى هو أن يخاف أن يَاقِبَهُ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ؛ ولهذا قيل: ليس الخائف الذى يسكى ويمسح عينه، بل الخائف الذى يترك ما يخاف أن يُعْلَبَ عليه. ففرض الله تعالى على البعاد أن يخافوه فقال: «وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» وقال «وَلِإِمَّا يَنْفَرُ جُودٌ». ومدح المؤمنين بالخوف فقال: «يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ». ولأرباب الإشارات في الخوف عبارات مرجعها إلى ما ذكرنا. قال الأستاذ أبو جيل الدقاق: دخلت على أبى بكر بن فورك رحمه الله عائداً، فلما رأى دمعاً عيناه، قلت له: إن الله بما تكلم ويخفيك. فقال لى: أترأى أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت. وفي سنن أبى ماجه عن أبى ذر قال

(١) يقال مغارة حواء (والغاف لا بالغاء) أى واسعة الجوف أو لا ماء بها؛ كما يقال ناقة خرواء (بالقاف كقاف) أى جرباء (انظر اللسان مادة حوق) وليس فيه ولا في كتاب أكثر من كسرة الله هذان المعنيان من مادة «حوق»؛ ١٣١.  
(٢) الكبير: كبير المسند، وهو رافد أوجه غليظ ذو سمات؛ وهو المعروف الآن بالمفاتيح. وأما الكور فهو

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُنِيَ أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَاسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَتَّى لَمَّا أَنْ تَبْطَأُ مَا فِيهَا مَوْضِعَ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكَ وَاضِعٌ جِهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَنَسِجْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّثْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ وَلَغَرَجْتُمْ إِلَى الصُّلْعَاتِ <sup>(١)</sup> تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ لَوَدِدْتُ أَنْ كُنْتُ شَجَرَةً تُنْفَذُ <sup>(٢)</sup> . نَحَرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ . وَيُرْوَى مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ أَنْ أَبَا ذَرٍّ قَالَ : " لَوَدِدْتُ أَنْ كُنْتُ شَجَرَةً تُنْفَذُ " . وَاقَّةٌ أَعْلَمُ .

قوله تعالى : وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ الْأَبْجَلِ لَهُمْ حَقٌّ فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ <sup>(٣)</sup> قوله تعالى : ( وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ) هؤلاء قوم أسلموا ثم آرتبوا خونا من المشركين ، فَأَغَمَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : " وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ " . وقال الكلبي : يعني به المنافقين ورؤساء اليهود ، كَسَمُوا صَفَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْكُتُبِ نَزَلَتْ . ويقال : إن أهل الكتاب لما لم يؤمنوا شق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لِأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ ؛ فَلَوْ كَانَ قَوْلُهُ حَقًّا لَأَسْبَوهُ ، فَتَزَلَّتْ « وَلَا يَحْزُنُكَ » . قراءة نافع بضم الياء وكسر الزاي حيث وقع إلا في - الأنياء - « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفِرْعُ <sup>(٤)</sup> الْأَكْبَرُ » فإنه يفتح الياء ويضم الزاي . وضده أبو جعفر . وقرأ ابن محيٍس كلَّها بضم الياء والزاي . والباقيون كلَّها بفتح الياء ، وضم الزاي .

(١) الأطيط : موت الأناب ، وأطيط الأيل : أصواتها رحينا . أي إن كثرة ما في الدنيا من الملائكة قد انتلها حتى أُلحَتْ . وهذا مثل وإذا ان بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثم أطيط ، وإضا هو كلام تعريب أريد به تقرير ضلة الله عز وجل (عن ابن الأثير) - (٢) الصلعات : الطرق ، وهي جمع صلد ؛ كقرون وطرفات . وقيل : جمع صلدة ؛ كقطة وهي قناب ، باب الدار ، ومن الناس من يديه - (٣) جبار القوم جزارا : وضوا أصواتهم بأدعاء منصرمين . (٤) فرج : قطع بالمشقة ؛ والمضقة والمضاد مثل المنيل يقطع به الشجر .

وهما لثان : حَزَنِي الْأَمْرَ حَزَنِي ، وَأَحْزَنِي أَيْضًا وَهِيَ قَلِيلَةٌ ؛ وَالْأَوَّلُ أَنْصَحُ اللَّتَيْنِ ؛ قَالَ النَّحَّاسُ . وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي « أَحْزَنَ » :

• مَضَى صَحْبِي وَأَحْزَنِي الدِّيَارَ •

وقراءة العامة « يُسَارِعُونَ » . وقرأ طلحة « يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ » . قَالَ الضَّحَّاكُ : هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ . وَقَالَ غَيْرُهُ : هُمْ الْمُنَافِقُونَ . وَقِيلَ : هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ . وَقِيلَ : هُوَ عَامٌ فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ . وَسَارِعْتُهُمْ فِي الْكُفْرِ الْمَظْهَرَةُ عَلَى عَجْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ الثَّوْرِيُّ : وَالْحُزْنَ عَلَى كُفْرِ الْكَافِرِ طَاعَةً ؛ وَلَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُغْرِطُ فِي الْحُزْنِ عَلَى كُفْرِ قَوْمِهِ ، فَفِيهِ عَنْ ذَلِكَ ؛ كَمَا قَالَ : « فَلَا تَدْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٌ » وَقَالَ : « فَلَمَّا بَايَعْتُ نَفْسَكَ عَلَى اتَّابِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(إِنَّهُمْ لَنْ يَسْرُوا اللَّهَ شَيْئًا) أَي لَا يُنْقِصُونَ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ شَيْئًا ؛ يَعْنِي لَا يَنْقُصُ بِكُفْرِهِمْ . وَكَأَيُّ رُؤْيٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : « يَا عِبَادِي إِنِّي حَزَمْتُ الظُّلُمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُ بَيْنَكُمْ وَمِثْلَ مَا قَالُوا . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَوَّنْتُهُ فَاسْتَكُونُوا أَكْسِكُمْ . يَا عِبَادِي أَنْتُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ . يَا عِبَادِي أَنْتُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَضُرُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا غَمِّي فَتَغْمُونِي . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ كَانُوا عَلَى أَثَقِي قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ كَانُوا عَلَى أَثَقَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا قَصَّ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ كَانُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَالْتَوَى فَاعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ . يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا هِيَ وَبَعْدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَبَعْدَ غَيْرِ ذَلِكَ فَلَا يُلَوِّسُ إِلَّا نَفْسَهُ » . خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا ، وَهُوَ حَدِيثٌ عَظِيمٌ فِيهِ طَوْلٌ

يَكْتُبُ كُلَّهُ . وَقِيلَ : مَعْنَى (لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا) أَيْ لَنْ يَضُرُّوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ حِينَ تَزْكُوا نَصْرَهُمْ إِذْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصُرُهُمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لِمَنْ هَظًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) أَيْ نَصِيحًا . وَالْهَظُّ النَّصِيبُ وَالْجَدُّ . يُقَالُ : فُلَانٌ أَحَظَّ مِنْ فُلَانٍ ، وَهُوَ مَحْظُوطٌ . وَجَمَعَ الْهَظُّ أَحَاطَ عَلَى فِرْقَاسٍ . قَالَ أَبُو زَيْدٍ : يُقَالُ رَجُلٌ حَظِيظٌ ، أَيْ جَدِيدٌ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ الرِّزْقِ . وَتَحَظَّطْتُ فِي الْأَمْرِ أَحَظَّ . وَرَبَّمَا جُمِعَ الْهَظُّ أَحْطَاءً . أَيْ لَا يَجْعَلُ لِمَنْ نَصِيحًا فِي الْجَنَّةِ . وَهُوَ نَصٌّ فِي أَنْ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنْ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ) هَتَمَ فِي الْبَقَرَةِ . ﴿١٧٧﴾ (لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا) كَرَّرَ التَّكِيدَ . وَقِيلَ : أَيْ مِنْ سُوءِ تَدْبِيرِهِ اسْتِبْدَالَ الْإِيمَانَ بِالْكَفْرِ وَبِيعَهُ بِهِ ؛ فَلَا يَخَافُ جَانِبَهُ وَلَا تَدْبِيرَهُ . وَاتَّصَبَ « شَيْئًا » فِي الْمَوْضِعِ لَوْ قُوعَهُ مَوْعِ الْمَصْدَرِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ : لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ ضَرًّا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا . وَيُحْزَنُ اتِّصَابُهُ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْبَاءِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ : لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكَ تُمْلِي لَهُمْ خَيْرًا لِأَنفُسِهِمْ إِنَّكَ تُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكَ تُمْلِي لَهُمْ خَيْرًا لِأَنفُسِهِمْ) الْإِمْلَاءُ طَوْلُ الْعَمْرِ وَرَعْدُ الْعِيشِ . وَالْمَعْنَى : لَا يَحْسَبُنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخَوِّفُونَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ

(١) قَالَ الْبُخَارِيُّ : كَانَ جَمْعُ أَهْلِ . قَالَ ابْنُ بَرٍ : وَقَوْلُهُ «أَسَاطِلُ عَلَى فِرْقَاسٍ» وَمَعْنَاهُ ، بَلْ أَهْلُ أَهْلِ أَهْلٍ وَأَهْلُهُ أَهْلُ أَهْلٍ قَالَتِ الْفَتَاةُ بِأَنَّ ضَمًّا أَهْلًا ، ثُمَّ جُمِعَتْ عَلَى أَهْلٍ . (عَنِ السَّائِغِ) .

(٢) رَابِعٌ ص ١٠ ص ٢١٠ طَبْعَةٌ ثَانِيَةٌ أَوْ ثَلَاثَةٌ .



على إهلاكهم، وإنما يطول أعمارهم ليعملوا بالمعاصي، لآلئهم خير لهم. ويقال: «أما  
 نعلي لهم» بما أصابوا من القفس يوم أُخذ لهم ذلك خيرا لأنفسهم؛ وإنما كان ذلك  
 ليزدادوا عقوبة. وروى عن ابن مسعود أنه قال: ما من أحد برؤا ناجر إلا والموت  
 خير له؛ لأنه إن كان برأ فقد قال الله تعالى: «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ» وإن كان ناجرا  
 فقد قال: «إِنَّمَا نُعَلِّيْ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا». وقرأ ابن عباس وعاصم «لَا يَحْسِبَنَّ» بإياء  
 ونصب السين. وقرأ حمزة: بالياء ونصب السين. والياقوت: بإياء وكسر السين. فن  
 قرأ بإياء فالذين فاعلون. أى فلا يحسن الكفار. و«أَمَا نُعَلِّيْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ» تَسَدَّدَ  
 للمفعولين. و«ما» بمعنى الذى، والمائد محذوف، و«خير» خير «أَنْ» - ويجوز أن تحذف  
 «ما» والفعل مصدرى والتقدير ولا يحسن الذين كفروا أن إملأنا لهم خيرا لأنفسهم. ومن قرأ  
 بالياء فالفاعل هو المخطب، وهو محمد صلى الله عليه وسلم. والذين» نصب على المفعول الأول  
 لتعصب. وأن وما بعدها بدل من الذين، وهى تَسَدَّدَ المفعولين، كما تسد لو لم تكن بدلا.  
 ولا يصلح أن تكون «أَنْ» وما بعدها مفعولا ثانيا لتعصب؛ لأن المفعول الثانى فى هذا الباب  
 هو الأول فى المعنى؛ لأن حَسِبَ وأخواتها داخلة على المبتدأ والخبر؛ فيكون التقدير: ولا تحسبن  
 أنما نعلى لهم خيرا. هذا قول الزجاج. وقال أبو علي: لو صحَّ هذا لقال «خيرا» بالنصب؛ لأن  
 «أَنْ» تعصب بدلا من «الذين كفروا»؛ فكانه قال: لا تحسبن إملأنا الذين كفروا خيرا؛ فقله  
 «خيرا» هو المفعول الثانى لحسب. فإننا لا يجوز أن يقرأ «لا تحسبن» بالياء إلا أن تكسر «أَنْ»  
 فى «أَمَا» وتصب خيرا، ولم يرد ذلك عن حمزة، والقراءة عن حمزة بالياء؛ فلا تصح هذه  
 القراءة إذا. وقال القزواء والكسائى: قراءة حمزة جائزة على التكرير؛ تقديره ولا تحسبن الذين  
 كفروا، ولا تحسبن أنما نعلى لهم خيرا؛ فَتَدَّتْ «أَنْ» مَبْدَأَ المفعولين لتعصب الثانى، وهى  
 وما عملت مفعول ثانٍ لتعصب الأول. قال التَّشْيِيرِى: وهذا قريب مما ذكره الزجاج  
 فى دعوى البدل، والقراءة صحيحة. فإنما غرض أبى على تَطْلِيْعُ الزجاج. قال النحاس: وزعم  
 أبو حاتم أن قراءة حمزة بالياء هنا، وقوله: «ولا يحسبن الذين يظنون» لجن لا يجوز. وبيته  
 على ذلك جماعة.

قلت : وهذا ليس بشيء ؛ لما تقدم بيانه من الإعراب ، ولصحة القراءة وشبهتها قلا .  
 وقرأ يحيى بن وثاب « إنما نعى لهم » بكسر إن فيها جيم . قال أبو جعفر . وقراءة يحيى  
 حسنة . كما تقول : حيث عمرا أبوه خالد . قال أبو حاتم : وسمت الأخفش يذكر كسر  
 « إن » يحتاج به لأهل القدر ؛ لأنه كان منهم . ويجعل على التقديم والتأخير « ولا يحبب الدين  
 كفروا إنما نعى ليزدادوا إنما نعى لهم خير لأنفسهم » . قال : ورأيت في مصحف في المسجد  
 الجامع قد زادوا فيه حرفا نصار « إنما نعى لهم إيمانا » فنظر إليه يعقوب القارئ فتبين  
 القرآن حكمة . والآية نص في بطلان مذهب القدرية ؛ لأنه أخبر أنه يطيل أعمارهم ليزدادوا  
 الكفر بعمل المصاحي ، وتولى أمثاله على القلب . كما قدم بيانه في ضده وهو الإيمان .  
 وعن ابن عباس قال : ما من بر ولا فاجر إلا وللوت خير له ثم تلا « إنما نعى لهم ليزدادوا إيمانا »  
 وتلا « وما عند الله خير الأبرار » أخرجه وزين .

قوله تعالى : مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ  
 الْخَبِيثَاتِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي  
 مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا فَتُكْفَرْ  
 أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٨﴾

قال أبو العالية : سأل المؤمنون أن يطبوا علامة يفرقون بها بين المؤمنين والمنافق ؛ فانزل الله  
 عز وجل ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ۚ الْآيَةُ ۚ وَاسْتَخْلَفُوا مِنَ الْخَاطِبِ بِالْآيَةِ  
 عَلَى أَقْوَالٍ . فقال ابن عباس والضحاك ومقاتيل والكوفي وأكثر المفسرين : الخطاب للكفار  
 والمنافقين . أي ما كان الله ليدرك المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والتناق وعداوة النبي صلى  
 الله عليه وسلم . قال الكوفي : إن قريشا من أهل مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : الرجل  
 ما نزع منه في النار ، وأنه إذا ترك ديننا وأتبع دينك قلت هو من أهل الجنة ! فأخبرنا عن هذا  
 من أين هو ؟ وأخبرنا من يأتيك ما ؟ ومن لم يأتك ؟ . فانزل الله عز وجل « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ

الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَاقِ «حَتَّى يَمِيزَ الْخَلِيقَ مِنَ الطَّيِّبِ» . وقيل : هو خطاب للمشركين . والمراد بالمؤمنين في قوله : «لَيَذَرُ الْمُؤْمِنِينَ» من في الأصلاب والأرحام ممن يؤمن . أى ما كان الله ليدر أولادكم الذين حكم لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك ، حتى يفرق بينكم وبينهم ؛ وعلى هذا ( وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُطْلِمُكُمْ ) كلامٌ مستأنف . وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين . وقيل : الخطاب للمؤمنين . أى وما كان الله ليدركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق ، حتى يميز بينكم بالحنّة والكليف ، فتعرفوا المنافق الخليط ، والمؤمن الطيب ، وقد ميّز يوم أحد بين الفريقين . وهذا قول أكثر أهل المأبى . ( وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُطْلِمُكُمْ عَلَى الْقَتِيبِ ) يا معشر المؤمنين . أى ما كان الله ليعين لكم المنافقين حتى تعرفوهم ، ولكن يظهر ذلك لكم بالكليف والحنّة ، وقد ظهر ذلك في يوم أحد ؛ فإن المنافقين تخلفوا وأظهروا الشبهة ، فما كنتم تعرفون هذا التيب قبل هذا ، فالآن قد أطلع الله محمدا عليه السلام وصحبه على ذلك . وقيل : معنى «لِيُطْلِمُكُمْ» أى وما كان ليُسلمكم ما يكون منهم . فقوله : « وما كان الله يُطْلِمُكُمْ » هل هذا متصل ، وعلى القولين الأولين متقطع . وذلك أن الكفار لما قالو : لم لم يوح إلينا ؟ قال : « وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُطْلِمُكُمْ عَلَى الْقَتِيبِ » أى على من يستحق النبوة ، حتى يكون الوحي باختياركم . ( وَلَكِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ) أى يختار ( مِنْ رَسُولِهِ ) لإصلاح غيره ( مَنْ يَشَاءُ ) يقال : طَلَعْتُ عَلَى كَذَا وَطَلَعْتُ ، وَطَلَعْتُ عَلَيْهِ غَيْرِي ؛ فهو لازمٌ ومُتَعَدٍّ . وقرئ «حَتَّى يَمِيزَ» بالتشديد من ميّز ، وكذا «فِي الْأَفْخَالِ» وهى قراة حمزة . والباقون « يميز » بالتخفيف من ماز يميز . يقال : مِزْتُ الشَّيْءَ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ أَمِيزُهُ مِيزًا ، وَمِيزَتُهُ تَمِيزًا . قال أبو معاذ : مِزْتُ الشَّيْءَ أَمِيزُهُ مِيزًا إِذَا فَرَّقْتُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ . فإذا كانت أشياء قلت : مِيزَتُهَا تَمِيزًا . ومثله إذا جمعت الواحد شيئين قلت : فَرَّقْتُ بينهما ، مخففا ؛ ومنه فرق الشعر . وإن جمعته أشياء قلت : فرقته تفريفا .

قلت : ومنه أمتاز القوم ، تميز بعضهم عن بعض . وتكاد يميز : متقطع ؛ وهذا تفسير قوله تعالى : « تَكَادُ تَمِيزُ مِنَ النَّطِيطِ » وفى الخبر « مَنْ مَلَكَ أَدَى عَنِ الطَّرِيقِ فَهُوَ صَدَقَ » .

قوله تعالى : ( فَأَيُّوْا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ ) قَالَ : إِنْ الْكُفَّارُ لَمَّا سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يبينَ لَهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ ، فَأَمَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، بَنَى لَا تَسْتَأْذِنُوا بِنَا لَا يَسْتَأْذِنُ ، وَاسْتَأْذِنُوا بِنَا يَسْتَأْذِنُ وَهُوَ الْإِيمَانُ . ( فَأَيُّوْا ) أَيُّ صَدَقُوا ، أَيُّ طَلَبُوا الصَّدِيقَ لَا التَّشَوُّفَ إِلَى اطَّلَاعِ النَّيْبِ . ( وَإِنْ تَوَّعُّتُمْ فَأَنذَرْنَاكُمْ أَلَمًا عَظِيمًا ) أَيُّ الْحَسَةِ . وَبَدَّرَ أَنْ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ الْحِجَاجِ بْنِ يُوْسُفَ التَّحْقِيقَ مُعْجَبًا ، فَأَخَذَ الْحِجَاجُ حَصِيَّاتٍ بِيَدِهِ فَقَدْ عَرَفَ عَيْنَهَا فَقَالَ لِقَسِيمٍ : كَمْ فِي يَدِي ؟ فَحَسَبَ فَأَصَابَ الْمَنَحَمَ . فَأَغْلَقَهُ الْحِجَاجُ وَأَخَذَ حَصِيَّاتٍ لَمْ يُعْطَ فَقَالَ لِقَسِيمٍ : كَمْ فِي يَدِي ؟ فَحَسَبَ فَأَخْطَأَ ، ثُمَّ حَسَبَ أَيْضًا فَأَخْطَأَ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، أَظُنُّكَ لَا تَعْرِفُ مَدَدَ مَا فِي يَدِكَ ؟ قَالَ لَا . قَالَ : فَا لْفَرْقَ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : إِنْ ذَاكَ أَحْصَيْتَهُ فَخَرَجَ عَنْ حَدِّ النَّيْبِ ، فَحَسَبْتُ فَاصِئًا ، وَإِنْ هَذَا لَمْ تَعْرِفْ مَدَدَهَا فَصَارَ غَيًّا ، وَلَا يَعْلَمُ النَّيْبُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى . وَبَيَّنَّ هَذَا الْبَابُ فِي « الْأَمَامِ » إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قوله تعالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَبْخُلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٥٠﴾  
فِي أَرْبَعِ مَاقِلَ :

الأولى - قوله تعالى : ( وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ ) فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ ، وَالْفِعْلُ الْأَوَّلُ مَحذُوفٌ . قَالَ الْخَلِيلُ وَسِيبُوهِ وَالْقَرَّاءُ : الْمَعْنَى الْبَخْلُ خَيْرًا لَهُمْ ، أَيْ لَا يَحْسَبَنَّ الْبَاخِلُونَ الْبَخْلَ خَيْرًا لَهُمْ . وَاعْتَبَا حَذْفَ لَدَلَالَةِ يَخْلُونَ عَلَى الْبَخْلِ ؛ وَهُوَ كَقَوْلِهِ : مَنْ صَدَقَ كَانَ خَيْرًا لَهُ . أَيْ كَانَ الصَّدَقُ خَيْرًا لَهُ . وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :

إِذَا نُبِيَ السَّيْفُ جَرَى إِلَيْهِ • وَخَالَفَ وَالسَّيْفُ إِلَى خِلَافِ  
فَالْمَعْنَى : جَرَى إِلَى السَّيْفِ ؛ فَالسَّيْفُ دَلٌّ عَلَى السُّقَاةِ . وَأَمَّا قِرَاءَةُ حَمْزَةً بِأَلَاءٍ فَبِمَعْدَةِ جَدًّا ؛  
قَالَ النَّمَاسُ . وَجَوَازُهُمَا أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ : لَا تَحْسَبَنَّ الْبَخْلَ الَّذِينَ يَخْلُونَ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ .

قال الزجاج : وهي مثل « وأسأل القرية » . و « هو » في قوله « هو خير لم » قاصلة عند البصريين ، وهي البلاد عند الكوفيين . قال النحاس : ويجوز في الرئية « هو خير لم » ابتداء وخبر .

الثانية - قوله تعالى : ( يَلْهُوْا سِرًّا ) ابتداء وخبر ، أي البخل سر لم . والسين في « سَيَطُوقُونَ » سين الوعيد ، أي سوف يَطُوقُونَ ، ظاه المبرك . وهذه الآية نزلت في البخل بالمال والإخفاق في سبيل الله ، وأداء الزكاة المفروضة . وهذا كقوله : « وَلَا يَتَّقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » الآية . ذهب إلى هذا جماعة من المتأولين ، منهم ابن مسعود وابن عباس وأبو رائل وأبو مالك والسدي والشَّيْبَانِي قالوا : ومعنى ( سَيَطُوقُونَ مَا يَنْتَظِرُونَهُ ) هو الذي ورد في الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من آتاه الله مالا فلم يُؤدِّ زكاته مثل له يوم القيامة نُجَاعًا أَقْرَعُ لَهُ زَيْبَتَانِ يَطُوقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِرِجْلَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَزَكْرٌ - ثم تلا هذه الآية - « وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ » الآية انحره السائي . ونسبه ابن ماجة عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحدٍ لا يُؤدِّي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة نُجَاعٌ أَقْرَعٌ حَتَّى يَطُوقَ بِهِ فِي عَقْدِهِ » ثم قرأ علينا النبي صلى الله عليه وسلم مصلاته من كتاب الله تعالى « وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ بِمَا أَنْتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » الآية . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من ذي رحيم يأتي ذَا رَحِمَةٍ فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِ مَا عِنْدَهُ فَيَبْخُلُ بِهِ عَلَيْهِ إِلَّا أُتْرَجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُجَاعٌ مِنَ النَّارِ يَلْبِطُ حَتَّى يَطُوقَهُ » . وقال ابن عباس أيضا : إنما نزلت في أهل الكلب ويحمله بيان ما طهوه من أمر عهد صلى الله عليه وسلم . وقال ذلك مجاهد وجماعة من أهل

(١) الشجاع (بالفتح) : الحية الذكورة أو الذي يقوم على ذنبه ويوابس الزواجل والفقارس . (٢) الأقرع : هو الذي تمرط بجلده رأسه ؛ لكثرة سمه وطول عمره . (٣) الزيبتان : الكتان السوداوان فوق عينيه ، وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبره . وقيل : هما زيبتان في شفق الحية . (٤) الهزبان : شدة . وقيل : هما ظلمات تآكلان في العين تحت الأذنين . (٥) هذا رواية البيهقي عن أبي هريرة . ونقله . أما ما نسبه السائي فيلفظ أنزع من ابن مسعود . راجع صحيح البخاري وسنن النسائي في باب الزكاة . (٦) غلظت الحية : أترعت لسانها كلفظ الأكل .

السلم : ومعنى « سَيَطُوقُونَ » على هذا التأويل سَيَحْمِلُونَ عِقَابَ مَا بَجَلُوا بِهِ ؛ فهو من الطائفة كما قال تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ » وليس من التطويق . وقال إبراهيم التيمي : معنى « سَيَطُوقُونَ » سَيَحْمِلُ لِمِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ طَوْقٌ مِنَ النَّارِ . وهذا يجري مع التأويل الأول ؛ [أى] قول السدى . وقيل : يُزِمُونَ أَعْمَالَكُمْ كما يَزِمُ الطَّوْقُ الْمُتَّقِ ؛ يقال : طَوَّقَ فُلَانٌ عَمَلَهُ طَوْقَ الْحِمَاةِ ، أَيْ أَلَزَمَ عَمَلَهُ . وقد قال تعالى : « وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمَتْهُ ظَلَامَةُ فِي عُنُقِهِ » . ومن هذا المعنى قول عبد الله بن جحش لأبي سفيان :

أَلَمَخْ أَبَا سَفْيَانَ عَنْ . أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ نَدَامَةٌ  
دَارُكَنَ عَمَّكَ يَتَبَا . تَغْضِي بِهَا عَنْكَ الْفَرَامَةُ  
وَحَلِيقُكُمْ بِاللَّهِ رَبِّ النَّاسِ مَجْتَهِدُ الْقَسَامَةِ  
إِنْ هَبَ بِهَا إِنْ هَبَ بِهَا . طَوْقَهَا طَبُوقُ الْحِمَاةِ

وهذا يجري مع التأويل الثانى . والبخل والبخل فى اللغة أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه . فإما من منع مالا يجب عليه فليس يبخل ؛ لأنه لا يَدُمُ بذلك . وأهل الحجاز يقولون : يَبْخُلُونَ وقد بَخَلُوا . وسائر العرب يقولون : يَبْخُلُونَ بَخْلًا ؛ حكاة النحاس . ويَبْخُلُ يَبْخُلُ بَخْلًا وَيَبْخُلًا ؛ عن ابن فارس .

الثالثة - فى ثمرة البخل وفائدته . وهو ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأَنْصَارِ : « مَنْ سَيِّدُكُمْ » ؟ قالوا : الْحَدَّادُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى بَخْلٍ فِيهِ . فقال صلى الله عليه وسلم : « وَأَيُّ أَدْوَى مِنْ الْبَخْلِ » . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إِنْ قَوْمًا تَزَلُوا بِسَاسِلِ الْبَحْرِ فَكَمْ هُوَ الْيَنْخَلُ مِنْهُمْ زَوَلُ الْأَضْيَافِ بِهِمْ فَقَالُوا : لِيَعِدَ الرِّجَالُ مَنَاءً عَنِ النِّسَاءِ حَتَّى يَتَذَكَّرَ الرِّجَالُ إِلَى الْأَضْيَافِ يَتَذَكَّرُ النِّسَاءُ بِتَذَكُّرِ الرِّجَالِ ؛ فَعَمَلُوا وَطَلَّ ذَلِكَ بِهِمْ فَاشْتَفَلَ الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ » . ذكره الماوردي فى كتاب « أدب الدنيا والدين » . والله أعلم .

(١) لما طاهر بن جحش من مكة إلى المدينة تركوا دُرْهَمَ هَمْرَةٍ مَلَقَةً ، لِسِ نِيَّاسَاكَزْ ؛ مَابِغْ ؛ أَبُو سَفْيَانَ مِنْ عَمْرِو بْنِ لُطَيْفَةَ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَفْيَانَ هَذِهِ الْآيَاتُ بِدَفْعِ مَكَّةَ . (رابع سيرة ابن هشام ص ٣٣٩ طبع أمود) .  
(٢) أى أى عيب أتبعه .

**الرابعة -** واختلف في البخل والشح، هل هما بمعنى واحد أو بعينين . فقيل : البخل الامتناع من إخراج ما حصل عندك . والشح : الحرص على تحصيل ما ليس عندك . وقيل : إن الشح هو البخل مع حرص . وهو الصحيح لما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة وآتواوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماهم وأستحلوا محارمهم " . وهذا يرد قول من قال : إن البخل منع الواجب ، والشح منع المستحب . إذ لو كان الشح منع المستحب لما دخل تحت هذا الوعد العظيم ، والتم الشديد الذي فيه هلاك الدنيا والآخرة . ويؤيد هذا المعنى ما رواه النسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " لا يجمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في متخري رجل مسلم أبدا ولا يجمع شح وإيمان في قلب رجل مسلم أبدا " . وهذا يدل على أن الشح أشد في القلب من البخل ؛ إلا أنه قد جاء ما يدل على مساواتهما وهو قوله - وقد سئل : أياكون المؤمن نجسلا ؟ قال : " لا " . وذكر الماوردي في كتابه « أدب الدنيا والدين » أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأَنْصار : " من سَدَّكم " قالوا : الجَدَّ بن قيس هل يُبخل فيه ؛ الحديث . وقد قدم .

قوله تعالى : ﴿ وَفِيهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أخبر تعالى ببقائه ودوام ملكه ، وأنه في الأبد كهو في الأزل غني عن العالمين ، فبُعث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم ، تبقى الأملاك والأموال لا مدعى فيها . بغري هذا مجرى الوراثة في عادة الخلق ، وليس هذا بميراث في الحقيقة ؛ لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئا لم يكن ملكه قبل ، والله سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض وما بينهما ، وكانت السموات وما فيها ، والأرض وما فيها له ، وأن الأموال كانت عارية عند أربابها ؛ فإذا ماتوا رُدَّتْ السارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل . ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَمَنْ عَلَيْهَا الْآيَةُ . والمعنى في الآيتين أن الله تعالى أسر عباده يأن يُنقوا ولا يتحلوا قيل أن يمتروا ويتركوا ذلك ميراثا لله تعالى ، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا .

قوله تعالى : لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونُوا عَذَابَ الْخَالِقِينَ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

قوله تعالى : ( لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ) ذكر تعالى فيجيب قول الكفار لا سيّما اليهود ، وقال أهل التفسير : لما أنزل الله « مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قَرْضًا حَسَنًا » قال قوم من اليهود - منهم حُجَي بن أخطب - في قول الحسن . وقال عكرمة وغيره : هو فئاص بن مازوراء - « إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ يقرضُ منا . وإنا قالوا هذا بموتنا على ضمانهم ، لا أنهم يتقدون هذا ؛ لأنهم أهل كتاب . ولكنهم كفروا بهذا القول ؛ لأنهم أرادوا تسليك الضمفاء منهم ومن المؤمنين ، وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم . أى أنه فقير على قول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه اقترض منا . ( سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ) سنجازيهم عليه . وقيل : سنكتبه في صحائف أعمالهم ، أى نأمر الحفظة بطلبات قولهم حتى يقرره يوم القيامة في كتبهم التي يؤتونها ؛ حتى يكون أوكده للجنة عليهم . وهذا كقوله : « وَأَنَّا لَهُ كَاتِبُونَ » . وقيل : مقصود الكتابة الحفظ ، أى سنحفظ ما قالوا لنجازيهم . « وما » في قوله « ما قالوا » في موضع نصب بسنكتب . وقرأ الأعمش وحمة « سيكتب » بالياء ؛ فيكون « ما » اسم ما لم يسم فاعله . واعتبر حمة ذلك براءة ابن مسعود « ويقال ذوقوا عذاب الحسريين » .

قوله تعالى : ( وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ) أى ونكتب قتلهم الأنبياء ، أى رضاعهم بالقتل . والمراد قتل أسلافهم الأنبياء ؛ لكن لما رضوا بذلك تحت الإضافة إليهم . وحسن رجل عند الشعبي قتل عثمان رضي الله عنه فقال له الشعبي : شَرِكْتَ في دمه . فجعل الرضا بالقتل قتلاً ؛ رضى الله عنه .

قلت : وهذه مسألة عظيمة ، حيث يكون الرضا بالمعصية معصية . وقد روى أبو داود عن الثوري بن عتبة الكندي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّا عَمِلْنَا بِالْخَطِيئَةِ »



في الأرض كان من شهدها فكرها - وقال مرة فأنكرها - كمن غاب عنها ومن غاب عنها  
فرضها كان كمن شهدها . وهذا نص .

قوله تعالى : ﴿ يَغِيْرُ حَتَّى ﴾ تقدم معناه في البقرة . <sup>(١)</sup> ﴿ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾  
أى يقال لهم في جهنم ، أو عند الموت ، أو عند الحساب هذا ، ثم هذا القول من الله تعالى ،  
أو من الملائكة ؛ قولان . وقراءة ابن مسعود « ويقال » . والحريق اسم للثوب من النار .  
والنار تشمل الملتببة وغير الملتببة . ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ ﴾ أى ذلك العذاب بما سلف  
من الذنوب . وخَصَّ الأَيْدِي بِالذِّكْرِ لِدَلِّلِ مَل تَوَلَّى الْعَمَل وَمَبَاشَرَتِهِ ؛ إذ قد يضاف الفعل  
إلى الإنسان بمعنى أنه أمر به ؛ كقوله : « يُذَيِّعُ أَيْتَانَهُمْ » وأصل « أَيْدِيَكُمْ » أَيْدِيَكُمْ خَفِضْتُ  
الضمة لنقلها . والله أعلم .

قوله تعالى : الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى  
يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ  
وَالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ  
كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ﴾ في موضع خفض بدلا من « الذين » في قوله عز وجل « لقد  
سمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا « أَوْنَمْتُ « للميد ، أو خبر ابتداء ، أى هم الذين قالوا . وقال الكلبي  
وغیره . نزلت في كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وهب بن يهودا ، وفضاس  
ابن عازورا وجساعة أتوا النبي صل الله عليه وسلم ؛ فقالوا له : أترع أن الله أرسلك إلينا ،  
وأنه أنزل علينا كتابا عهد إلينا فيه ألا تؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقرآن  
تأكله النار ؛ فإن جئنا به صدقتك . فأنزل الله هذه الآية . فقيل : كان هذا في التوراة ، ولكن  
كان تمام الكلام : حتى يأتاكم المسيح ومحمد فاذا أتياكم قاموا بهما من غير قرآن . وقيل :

(١) راجع ص ١٥٣١ طبعة ثانية أو ثالثة .

كان أمر القرايين ناسا إلى أن نُسخ على لسان عيسى بن مريم . وكان النبي منهم يَدْعُ  
ويدهو فتَزل نار سفيها لما دوىء وحيف لادخان لما ، فتا كل القرايين . فكان هذا القول  
دعوى من اليهود ؛ إذ كان تم استثناء فأخفوه ، أو نسخ ، فكانوا في تمسكهم بذلك ، متمسكين ،  
ومسجرات النبي صلى الله عليه وسلم دليل قاطع في إبطال دعواهم ، وكذلك معجزات عيسى ؛  
ومن وجب صدقه وجب تصديقه . ثم قال تعالى : إقامة للحجة عليهم : ( قُلْ ) يا عباد ( قد جاءكم )  
يا معشر اليهود ( رُسُلٌ مِنْ قَبْلِ يَالْيَنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ ) من القرايين ( قُلْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ ) يعني زكريا ويحيى وشعيا ، وسائر من قُتلوا من الأتقياء عليهم السلام ولم يؤمنوا بهم .  
أراد بذلك أسلافهم ، وهذه الآية هي التي تلاها طاهر الشعبي رضى الله عنه ، فاحتج بها  
على الذي حسن قتل عثمان رضى الله عنه كما بناء . وإن الله تعالى سقى اليهود قتلة رضاهم بفعل  
أسلافهم ، وإن كان بينهم نحو من سبعمائة سنة . والقرايين ما يُستزب به إلى الله تعالى من  
نُك وسدقة وعمل صالح ، وهو مُفْلان من القرية . ويكون أسما ومصدرا ، فثالث الاسم  
السلطان والبُرهان . والمصدر المُتدوان والمُتسران . وكان عيسى بن عمر يقرأ « قُرايين » بضم  
الراء أتباعا لضمه القاف ؛ كما قيل في جمع ظلمة : ظُلُمات ، وفي حجرة حُجرات ، ثم قال تعالى معزيا  
لنبيه ومُنسبا له : ( إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْيَنَاتِ ) أى بالدلالات .  
( وَالزُّبُرِ ) أى الكتب المزبورة ، معنى المكتوبة . والزُّبر جمع زبور وهو الكتاب ، وأصله من  
زَبَرْت أى كتبت . وكل زبور فهو كتاب ؛ قال أمرؤ القيس :

لِنْ طَلَّلْ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي \* نَخَطُ زَبُورِي عَصِيْبِيَمَانِي <sup>(١)</sup>

وأنا أعرف تَرْيَقُ أى كَتَبْتِ . وقيل : الزُّبور من الزُّبر بمعنى الزُّبر . وَزَبَرْتُ الرِّمْلَ أَتَهَرْتُ .  
وَزَبَرْتُ البُرْ : سلويتها بالجسارة . وقرأ ابن عباس « وَالزُّبُرُ وَالْكِتَابُ الْمُتِير » بزيادة ياء  
في الكلمتين . وكذلك هو في مصاحف أهل الشام . ( وَالْكِتَابُ الْمُتِير ) أى الواضع المُتير ؛  
من قولك : أَتَرْتُ الشيءَ أَمِيرَه ، أى أَوْضَعْتَه . يقال : نَارُ الشيءِ وَأَنَارُهُ وَتَوَرَّدَ وَأَسْتَارَهُ بِمَعْنَى

(١) السبب : صف النخل الذي يرد عنه شوكه ، ومن الجريدة .

وكل واحد منهما لازم ومتعد، وجمع بين الزبر والكباب - وهما بمعنى - لاختلاف لفظهما، وأصلهما كما ذكرنا .

قوله تعالى : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ الْغُرُورِ ﴿١٥٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأول - لما أخبر جل وتعالى عن الباطنين وكفرهم في قولهم : « إِنَّ اللَّهَ قَبِيرٌ وَتَحَرُّرٌ أَغْنِيَاءُ » وأمر المؤمنين بالصبر على أذاهم في قوله « لَتُبْلَوْنَ » الآية - بين أن ذلك بما يقتضى ولا يدرهم ، فإن آمد الدنيا قريب ، ويوم القيامة يوم الجزاء ، و( ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ) من التوق ، وهذا بما لا يحصى عنه للإنسان ، ولا يحيد عنه حيوان . وقد قال أمية بن أبى الصلت :  
من لم يمت عطلة يمت هرباً • ليلوت كأم والمسرّة ذاتها  
وقال آخر :

الموت باب وكل الناس داخله • فليت شعري بعد الباب ما التار

الثانية - قراءة العامة « ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » بالإضافة . وقرا الأعمش ويحيى وابن أبى إسحاق « ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » بالتثنية ونصب الموت . قالوا : لأنها لم تثق بعد . وذلك أن اسم الفاعل على ضربين : أحدهما أن يكون بمعنى المفعول . والثاني بمعنى الاستقبال ؛ فإن أردت الأول لم يكن فيه إلا الإضافة إلى ما بعده ؛ كقولك : هذا ضارب زيد أميس ، وقائل بكر أميس ؛ لأنه يجري مجرى الاسم الجامد وهو العلم ، نحو فلام زيد ، وصاحب بكر . قال الشاعر :  
الحافظ عذرة المشيرة لاني • تيمم من من ورائهم وقف

(١) مات مية : أى ثاباً ، وقيل ثاباً جميعاً .

(٢) الركن : العيب . واليت لمرور بن أمية القيس ، ويقال قيس بن الخليم . ( عن الحسن )

وإن أردت الثاني جاز الجز . والنصب والتتوين فيا هذا سبيله هو الأصل ؛ لأنه يجري مجرى الفعل المضارع . فإن كان الفعل غير متعد لم يتعد ، نحو قائمٌ زيدٌ . وإن كان متعديا عذبت به ونصبت به ، فتقول : زيدٌ ضاربٌ عمروا بمعنى يضرب عمروا . ويموز حذف التتوين والإضافة تخفيفا ، كما قال المزار :

سَلِّ الْمَوْتِ بِكُلِّ مَيْتٍ رَأْسَهُ \* نَاجِ مَحَالِيطَ ضُبَيْبَةٍ مُتَمِيسٍ<sup>(١)</sup>  
مُتَمِيتٍ أَجْبَلِهِ مَيْتٍ عَقْبَهُ \* فِي مَنِيكِ زَبَنٍ مَطِيٍّ عَرَّتَيْسٍ<sup>(٢)</sup>

الثالثة - أعلم أن الموت أسبابا وأمارات ؛ فمن علامات موت المؤمن عرق الجبين . أخرجه النسائي من حديث بريدة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " المؤمن يموت بقرق الجبين " . وقد بيناه في "الذكرة" فإذا احتضر لقن الشهادة ؛ لقوله عليه السلام : " لقنوا موتاكم لا إله إلا الله " لتكون آخر كلامه فيختم له بالشهادة ؛ ولا يباد عليه منها لئلا يضره . ويستحب "قراءة" بس ذلك الوقت ؛ لقوله عليه السلام : " اقرأوا يس هل موتاكم " . أخرجه أبو داود . وذكره الأجرى في كتاب النصيحة من حديث أم الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من ميت يقرأ عنده سورة يس إلا هون عليه " . فإذا قضى وتيسر البصر الروح - كما أخبر صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم - وارضعت العبادات ، وزال التكليف ، توجهت كل الأحياء أحكام ؛ منها تضيئته ، وإعلام إخوانه الصلحاء بموته ؛ وكرهه قوم وقالوا : هو من النبي . والأول أصح . وقد بيناه في غير هذا الموضع . ومنها الأخذ في تجهيزه بالنقل والتفنن . لئلا يسرع إليه التغير ؛ قال صلى الله عليه وسلم لقوم أخرجوا دفن ميتهم : " عجّلوا بدفن جيفتكم " ؛ وقال : " أسرعوا بالجنازة " الحديث ، وسأيت . فأما غسله وهي

(١) قوله سَلِّ رَأْسَهُ ، أى ذلول . وناج : سريع . والنصيبة : أن يضرب يمينه إلى الحرة . والمحييس والأبيس : الأيضر ، وهو أفضل الزوان الإبل . والمحيي : مل موتك اللازمة لقراق من تهوى وبأيه عك بكل مبر رحله السفر .  
(٢) وصف بيرا بنظم الجوف ؛ فإذا شد رحله عليه اغتال أحبله (جمع سبل) واسترقاها فسلم جوفه . والاختيال : الهجاب بالثوب . والمين : العين الطول . وزبن : زاحم ودفع . والمتردس : المشديد . وبرى : متين عتق .  
(عن شرح النوادر للشنفرى)

— الثالثة — فهو سُنَّةُ جميع المسلمين حاشا التَّوْبَةَ على ما تقدم . وقيل : غسله واجب ؛  
 قاله القاضي عبد الوهاب . والأول من ذهب الكتاب ، وعلى هذين القولين الأولين العلماء .  
 وسبب الخلاف قوله عليه السلام لَأَمْ عَظِيَّةٌ فِي غَسَلِهَا ابْنَةُ زَيْبٍ ، على ما في كتاب مسلم .  
 وقيل : هي أُمُّ كُلثُومٍ ، على ما في كتاب أبي داود : ” أَغْسَلْتُهَا ثَلَاثًا أَوْ خَمْسًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ  
 إِنْ رَأَيْتُ ذَلِكَ ” الخليفة . وهو الأصل عند العلماء في غسل الموتى . فقيل : المراد بهذا الأمر  
 بيانُ حكم النسل فيكون واجبا . وقيل : المقصود منه تعليم كيفية الغسل فلا يكون فيه ما يدل  
 على الوجوب . قالوا ويدل عليه قوله : ” إِنْ رَأَيْتُ ذَلِكَ ” وهذا يقتضى إخراج ظاهر الأمر  
 من الوجوب ؛ لأنه تَوْضِيحٌ إِلَى تَطَرُّفِهِمْ . قيل لم : هذا فيه بُدْءٌ ؛ لِأَنَّهُ وَقَدْ ” إِنْ رَأَيْتُ ”  
 إِلَى الْآخِرِ ، لَيْسَ السَّابِقُ إِلَى الْفَهْمِ بَلِ السَّابِقُ رَجُوعٌ هَذَا الشَّرْطُ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكَورٍ ، وَهُوَ  
 ” أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ” أَوْ إِلَى التَّخْيِيرِ فِي الْأَعْدَادِ . وعلى الجملة فلا خلاف في أَنَّ غَسْلَ الْمَيِّتِ  
 مشروعٌ معمولٌ به في الشريعة لا يترك . وصفته كصفة غسل الجنابة على ما هو معروف .  
 ولا يماز السج غسلات في غسل الميت بإجماع ؛ على ما حكاه أبو عمر . فإن خرج منه شيء  
 بعد السج غسل الموضع وحده ، وحكمه حكم الجنب إذا أحدث بعد غسله . فإذا فرغ من  
 غسله كفَّته في ثيابه وهي :

الزَّامَةُ — والتَّكْفِيْنِ واجب عند عامة العلماء ، فإن كان له مال فن رأس ماله  
 عند طاعة العلماء ، إلا ما حكى عن طاوس أنه قال : من التَّكْفِيْنِ كان للمال قليلا أو كثيرا .  
 فإن كان الميت ممن تَزِمُ غَيْرُهُ نَفَقَتَهُ فِي حَيَاتِهِ مِنْ سَيِّدٍ — إِنْ كَانَ عَبْدًا — أَوْ أَبِي أَوْ زَوْجٍ  
 أَوْ ابْنٍ ؛ فَعَلِ السَّيِّدُ بِإِتْفَاقٍ ، وَعَلَى الزَّوْجِ وَالْأَبِ وَالْإِبْنِ بِاخْتِلَافٍ . ثم على بيت المال أو على  
 جماعة المسلمين على الكفاية . والذي يَتَّبَعُ مِنْهُ بِتَمَيُّنٍ الْقَرْضُ سَرَّ الْمَوْتَةِ ؛ فَإِنْ كَانَ فِيهِ فَضْلٌ  
 غَيْرُ أَنَّهُ لَا يَمِمْ جَمِيعَ الْجَسَدِ غُطِّيَ رَأْسُهُ وَوَجْهُهُ ؛ إِكْرَامًا لَوَجْهِهِ وَسَرًّا لِمَا يَتَّخِرُ مِنْ تَقْدِيرِ  
 حَاسِنِهِ . وَالْأَصْلُ فِي هَذَا قِصَّةُ مُصْعَبِ بْنِ عُثْمَرَ ، فَاتَهُ تَرَكَّ يَوْمَ أُحُدٍ تَمْرَةً كَانَ إِذَا غُطِّيَ رَأْسُهُ

(١) التمرة (بفتح تاء) : شجرة فيها خلوط بيض وسود ، أو بركة من صوف ؛ سبب الأعراب ؛

نرجعت رجلاه، وإذا غطى رجلاه نزع رأسه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضعوها  
تحت يدي رأسه وأجعلوا على وجهه من الإذخر" <sup>(١)</sup> أخرج الحديث مسلم. والوتر مستحب عند كافة  
العلماء في الكفن، وكلهم يجمعون على أن ليس فيه حد. والمستحب منه اليأس؛ قال صلى  
الله عليه وسلم: "البسوا من ثيابكم اليأس فإنها من خير ثيابكم وكفونوا فيها موتاكم" أخرجه  
أبو داود. وكفن صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب بيض مضمومة من كسف <sup>(٢)</sup>. والكفن  
في غير اليأس جائز إلا أن يكون حريرا أو ثرا. فان تشاح الورثة في الكفن فغنى عليهم  
في مثل لباسه في جمته وأعياده؛ قال صلى الله عليه وسلم: "إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن  
كفته" أخرجه مسلم. إلا أن يوصى بأقل من ذلك. فإن أوصى بشرف قيل: يطل  
الزائد. وقيل: يكون في التلث. والأقل أصح؛ لقوله تعالى: «وَلَا تُسْرِفُوا». وقال أبو بكر:  
إنه للهالة. فإذا فرغ من غسله وتكفينه ووضع على سريره واحتمله الرجال على أعناقهم وهي:

الخامسة - فالحكم الإسراع في المني؛ لقوله عليه السلام: "أسرعوا بالجنازة فان تأخر  
صاحبة تغيرت قدموها إليه وإن تكن غير ذلك فسرّ تضعونه عن رقابكم". لا كما يفعله اليوم  
الجهال في المني وريدا، والوقوف بها المزة بعد المزة، وقراءة القرآن بالأطمان إلى ما لا يصلح  
ولا يجوز حسب ما يفعله أهل الديار المصرية بموتاهم. روى النسائي أخبرنا محمد بن عبد الأعلى  
قال حدثنا خالد قال أنبأنا عيينة بن عبد الرحمن قال سمعت أبي قال: شهدت جنازة  
عبد الرحمن بن حمزة ونزع زياد يمشي بين يدي السرير، يفصل رجل من أهل عبد الرحمن  
ومواليهم يستقبلون السرير ويمشون على أعقابهم ويقولون: رويدا رويدا، بارك الله فيكم!  
فكانوا يدبّون ذبيبا، حتى إذا كان ببعض طريق المريد لحقت أبو بكر رضي الله عنه على بغلة فلما

(١) الإذخر (بكر المزة): حشيشة طيبة الرائحة، يوقف بها البيوت فوق الشعب. قوله: (٢)

مضمومة، يروي بنع العين وضما؛ فالفتح مشوب إلى السحول، وهو القصد لأنه يسهل أي يسهلا، أو إلى محول  
وهي قرية باليمن. وأما الضم فهو جمع محمل، وهو الثوب الأبيض النقي: ولا يكون إلا من ظن. والكسف كسر:

المدار (٣) الهلة (مطلة الميم): الفتح والصديد الذي يتوب فيسيل من الجسد.

(٤) المريد قديم: موضع قرب المدينة.



قوله تعالى : ( وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ تُجَادُّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) فاجر المؤمنين نواب ، واجر الكافر عقاب ، ولم يمتد بالعمة واليلة في الدنيا ابجاء وجزاء ؛ لأنها عزيمة القناء . ( قن زحج عن النار ) اى أبعد . ( وأدخِل الجنة قَدْ قَارَ ) ظفر بما يرجو ، ونجا بما يخاف . وروى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من سره أن يخرج عن النار أن يدخل الجنة فلتأته منته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويأتى إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه " . من أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقموا إن شئتم " قن زحج عن النار وأدخِل الجنة قَدْ قَارَ " .

( وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ) اى تمر المؤمنين وتمتدته فيظن طول البقاء وهى قاتية . والمتاع ما يتجعب به ويضع ، كالقاس والقدر والقصة ثم يزول ولا يبقى ملكه ؛ قاله أكثر المفسرين . قال الحسن : تكسرة النبات ، ولعب النبات لا حاصل له . وقال قتادة : وهى متاع متروك توشك أن تضيع بأهلها ؛ فينبى الإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع . ولقد أحسن من قال .

مى البار دار الأذى والقدى . ودار القناء ودار النير

فلو قتها بهذا فبرها . لمت ولم تقض منها للوطر

أيا من يؤمل طول الجلود . وطول الخلود عليه ضرر

إن أنت شئت وإن الشيب . فلا خير في العيش بعد الكبر

والفسور (فتح النين) الشيطان ؛ يفر الناس بالتمية والمواعيد الكاذبة . قال ابن عرفة : الفسور ما رأيت له ظاهرا تحبه ، وفيه باطن مكروه أو مجهول . والشيطان غرور ؛ لأنه يعمل على محاب النفس ، ووراء ذلك ما يسوء . قال : ومن هذا بيع القرو ، وهو ما كان له طاهر بيع يترق باطن مجهول .



قوله تعالى : لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ  
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْيَ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا  
وَتَسْتَقِيمُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٥١﴾

هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمه . والمعنى : لتُخْبِرَنَّ وتُحْتَنَنَنَّ في أموالكم  
بالمصائب والأرزاء وبالإفلاق في سبيل الله وسائر تكاليف الشرع . والابتلاء في الأنفس بالموت  
والأمراض وفقد الأحباب . وبدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بها . ( وَلَتَسْمَعَنَّ )  
إن قيل : لم ثبت الروا في «تبلوون» وحذفت من «ولتسمعن» ؟ فالجواب أن الروا في «تبلوون»  
قبلها نعمة لحزكت لانتفاء الساكنين ، وحُصِتْ بالضممة لأنها واو الجمع ، ولم يحز حذنها لأنه  
ليس قبلها ما يدل عليها ، وحذفت من «ولتسمعن» لأن قبلها ما يدل عليها . ولا يجوز  
حز الروا في «تبلوون» لأن حركتها عارضة ؛ قاله النحاس وغيره . ويقال للواحد من المذكر :  
تَبَيَّنَ يَتَبَيَّنُ بِأَرْجُلٍ . وللتين : تَبَيَّنَا بِأَرْجُلَانِ . وللماعة الرجال : تَبَلُّوْهُ . وزلت بسبب أن أبا بكر  
رضي الله عنه سمع يهوديا يقول : إن الله فقير ونحن أغنياء . ردّا على القرآن واستخفافا به حين  
أنزل الله « مَنْ ذَا الَّذِي يَحْرِضُ اللَّهُ قَرْعًا حَسَنًا » فظلمه ؛ فشكاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم  
فقرئت . قيل : إن قائلها فنعاص اليهودي ؛ عن عكرمة . الزهري : هو كعب بن الأشرف  
زلت بسببه ؛ وكان شاعرا ، وكان يحجو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ويؤلَّب عليه كفار  
قريش ، ويُسَبَّب فيه المؤمنون حتى مات رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة وأصحابه  
فقتله القتيبة المشهورة بالسَّيْرُ ومصحح الخبر . وقيل غير هذا . وكان صلى الله عليه وسلم لما قدم  
المدينة كان بها اليهود والمشركون ، فكان هو وأصحابه يسمعون أذى كثيرا . وفي الصحيحين  
أنه عليه السلام مرَّ بِأَبْنِ أَبِي وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى حِمَارٍ فَدَعَاهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَقَالَ ابْنَ أَبِي :  
إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا ! إِرْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ ، فَمِنْ جَانِبِكَ فَأَقْصِصْ  
عَلَيْهِ . وقبض على أنفه لئلا يصيبه غبار الحمار ، فقال ابن رواحة : نعم يا رسول الله ،

(١) راجع سيرة ابن هشام ص ٤٨ طبع أدريا .

فَأَفْشَتْ فِي جِبَالِنَا نَجَبَ ذَلِكَ . وَأَسْتَبَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ ابْنِ أَبِي وَالمَسَامُونِ ،  
وما زال النبي صلى الله عليه وسلم يسكنهم حتى سكنوا . ثم دخل على سعد بن عبيدة يهوده  
وهو مريض ، فقال : " ألم تسمع ما قال فلان " فقال سعد : أعف عنه وأصغح ، فوالذي  
أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي تزل ، وقد اصططح أهل هذه البصرة على أن  
يتوجه ويمصبوه بالعصاية ، فلما رآه الله ذلك بالحق الذي أعطاك شريك به ، فذلك فعل به  
ما رأيت . فمعا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزلت هذه الآية . قيل : هذا كان  
قبل نزول القتال ، وتنب الله عباده إلى الصبر والتغوى وأخبر أنه من هزم الأمور . وكذا  
في البخاري في سياق الحديث ، أن ذلك كان قبل نزول القتال . والأظهر أنه ليس بمنسوخ ؛  
فإن الحدال بالأحسن والملازمة أبدا متدوب إليها ، وكان عليه السلام مع الأمر بالقتال يوادع  
اليهود ويُدَارِيهِمْ ، ويصنع عن المتأقين ، وهذا بين . ومعنى ( عَزَمَ الْأُمُورَ ) شَدَّهَا  
وَصَلَبَهَا . وقد تَهَمَّ .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ  
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا  
فَيَسِسَ مَا يَأْتِرُونَ ﴿١٥٧﴾  
فيه مسائلان :

الأول - قوله تعالى : ( وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ) هذا متصل بدكر  
اليهود ؛ فانهم أُمرُوا بالإيمان بحمد عليه السلام وبين أمره ، فكتموا عنه . فالآية توبيخ لهم ،  
ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم . قال الحسن وقادة : هي في كل من أوتي علم شيء من  
الكتاب . فن لم شيئا قليله ، وإياكم وكتبان السلم فإنه هلكت . وقال محمد بن كعب :  
لا يحل لعالم أن يسكت على علمه ، ولا لجاهل أن يسكت على جهله ؛ قال الله تعالى « وَإِذْ أَخَذَ

الله يَتَّقِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ الآية . وقال : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .  
 وقال أبو هريرة : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثكم بشيء ، ثم تلا هذه الآية  
 « وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . وقال الحسن بن عمار : آيت الزمري بعد  
 ما ترك الحديث ، فالفيتة على بابها قلت : إني رأيت أن تحدثني . قال : أما علمت أني تركتُ  
 الحديث ؟ قلت : إنا أن تحدثني وإنا أن أحدثك . قال حدثني . قلت : حدثني الحكم  
 ابن عتيبة عن يحيى بن الجزار قال سمعت علي بن أبي طالب يقول : ما أخذ الله على الجاهلين  
 أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا . قال : لحديثي أربعين حديثا .

الثانية - الماء في قوله : ( لَتُبَيِّنَنَّ ) ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإن لم يحمله  
 ذكر . وقيل : ترجع إلى الكتاب ؛ ويدخل فيه بيان أمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه  
 في الكتاب . وقال : ( وَلَا تَكْفُرُوا ) ولم يقل تكفروا لأنه في معنى الحال ، أي لتبينه غير  
 كاتين . وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وأهل مكة « لَتُبَيِّنَنَّ » بالناء على حكاية  
 الخطاب . والباقون بالياء لأنه غيب . وقرأ ابن عباس « وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » .  
 فيجيء قوله « فَيُبَيِّنُهُ » عائد على الناس الذين لم يؤمنوا بالأنبياء . وفي قرأته ابن مسعود  
 « لَتُبَيِّنَنَّ » دون النون الثقيلة . والبيد الطرح . وقد تقدم بيانه في « البقرة » . ( وَرَأَى  
 طُغْيَانَهُمْ ) مبالغة في الأطراح ؛ ومنه « اتَّخَذُوهُ وَرَاءَهُمْ طُغْيَانًا » وقد تقدم في « البقرة » بيانه  
 أيضا . وتقدم معنى قوله : ( وَاشْتَرَوْا بِهِ مَثَقًا ضَالًّا ) في « البقرة » فلا معنى لإعادته . ( فَيَقْسُ  
 مَا يَشْتَرُونَ ) تقدم أيضا . والحمد لله .

قوله تعالى : لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا  
 بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢٢﴾

(٢) راجع ج ١ ص ٢٢٢ طبة ثانية أروقة .

(١) راجع ج ٢ ص ٤٠ طبة ثانية .

(٢) راجع ج ٢ ص ٢٧ طبة ثانية .

« أَيْ بِمَا فَعَلُوا مِنَ التَّفْعُدِ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ التَّزَوُّجِ بِمَا بِهِ مِنَ الذَّنْبِ - ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ  
عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ  
إِذَا نَجَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى التَّزَوُّجِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ وَفَرَحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَقُوا ، وَاجْتَبَا أَنْ  
يُجَدُّوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ؛ فَزَلَّتْ <sup>(١)</sup> «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَفْعَلُوا»  
الآيَةَ . وَفِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ حَمْرَوَانَ قَالَ لِبُزَابِهِ : اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ لَهُ : لَنْ  
كَانَ كُلُّ أَمْرٍ مَنَّا فَرَحَ بِمَا أَتَيْنَا ، وَأَمَّا أَنْ يُجَدَّ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مَعْدِيًّا ، لَتُعَذِّبُنِي أَجْمَعُونَ . فَقَالَ  
ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ الْآيَةِ ! إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ . ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ « وَإِذَا  
أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ » وَ «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ  
بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَفْعَلُوا» . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ  
شَيْءٍ فَكْتُمُوهُ إِيَّاهُ ، وَآخِرُهُ بَيِّنَةٌ ، فَخَرَجُوا وَقَدْ أَرَوْهُ أَنَّ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَاسْتَحْمَدُوا  
بِذَلِكَ إِلَيْهِ ، وَفَرَحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كِتَابِهِمْ إِيَّاهُ ، وَمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْكَعْبِ الْقُرْظِيُّ :  
نَزَلَتْ فِي عِلَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَتَمُوا الْحَقَّ ، وَأَتَوْا مُلُوكَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَوَاقِفُهُمْ فِي بَاطِلِهِمْ ،  
« وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » أَيْ بِمَا أَعْطَاهُمُ الْمُلُوكُ مِنَ الدُّنْيَا ؛ فَقَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
«لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَفْعَلُوا» تَحْسَبُهُمْ بِمَقَارِفَةٍ مِنَ  
الْكُذْبِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . فَأَخْبَرْتُ لَمْ عَذَابًا إِلَّا بِمَا أَفْسَدُوا مِنَ الدِّينِ عَلَى عِبَادِ  
اللَّهِ . وَقَالَ الصَّحَابُ : إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ لِلْمَلِكِ إِنَّا نَجِدُكَ فِي كِتَابِنَا أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ نَبِيًّا  
فِي آخِرِ الزَّمَانِ يُبَيِّنُ بِهِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ سَأَلَهُ الْمُلُوكُ أَوَ هَذَا الَّذِي تَعْبُدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ ؟  
فَقَالَ الْيَهُودُ طُعْمًا فِي أَمْوَالِ الْمُلُوكِ : هُوَ غَيْرُ هَذَا ، فَأَعْطَاهُمُ الْمُلُوكُ الْخِزَانَتِ ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى :  
«لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا» لِلْمُلُوكِ مِنْ الْكُذْبِ حَتَّى يَأْخُذُوا عَرَضَ الدُّنْيَا .  
وَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ خِلَافَ مُقْتَضَى الْحَدِيثِ الثَّانِي . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نَزُولُهَا عَلَى السَّبِينِ

(١) حَمْرَوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ الْعَاصِ ، وَكَانَ يَرْثُ أَبَاهُ عَلَى الْهَيْبَةِ مِنْ قَبْلِ سَادِيَةِ . (عَنْ شَرْحِ الْقَطْلَانِيِّ) .

لا اجتماعهما في زمن واحد، فكانت جواباً للفرقين . وإليه أعلم . وقوله : واستحمدوا بذلك إليه ، أي طلبوا أن يحمدوا . وقول مروان : لئن كان كل أمرئ مما اطلع دليل على أن للموم صيغاً محصورة ، وإن « الذين » منها . وهذا مقطوع به من فهم ذلك من القرآن والسنة . وقوله تعالى : « وَيُحْيُونَ أَنْ يُحْبَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » إذا كانت الآية في أهل الكتاب لا في المنافقين المتخفين ؛ لأنهم كانوا يقولون : نحن على دين إبراهيم ولم يكونوا على دينه ، وكانوا يقولون : نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب ؛ يريدون أن يُحمدوا بذلك . و« الذين » فاعل يحسب بالياء . وهي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وابن عمرو ؛ أي لا يحسب الفارحون فرحهم منجياً لهم من العذاب . وقيل : المفعول الأول محنوف ، وهو أنفسهم . والثاني « بمقازة » . وقرأ الكوفيون « تحسب » بالناء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي لا تحسب يا محمد الفارحين بمقازة من العذاب . وقوله « فَلَا تَحْسَبُهُمْ » بالناء وفتح الباء ، إعادة تأكيد . ومفعوله الأول الماء والميم . والمفعول الثاني محنوف ؛ أي كلاك ، ولفاء عاطفة أو زائدة على بدل الفعل الثاني من الأول . وقرأ الضحاك وعيسى بن عمر بالناء وضم الباء « فَلَا تَحْسَبُهُمْ » أراد بها صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقرأ مجاهد وابن كثير وأبو عمرو ويحيى بن يعمر بالياء وضم الباء خبراً عن الفارحين ؛ أي فلا يحسب أنفسهم ؛ « بمقازة » المفعول الثاني . ويكون « فَلَا يَحْسَبُهُمْ » تأكيداً . وقيل : الذين فاعل يحسب ومفعولها محنوفان لدلالة يحسبهم عليه ؛ كما قال الشاعر :

بأي كتاب أم بآية آية \* ترى حبيهم عزاً على وتحسب

استثنى بذكر مفعول الواحد عن ذكر مفعول الثاني ، و« بمقازة » الثاني . وهو بدل من الفعل الأول فاغنى لإبداله منه عن ذكر مفعوله ، ولفاء زائدة . وقيل : قد تجيء هذه الأفعال ملنة لا في حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر :

وما حلت أُنَى بيننا من مودة \* عراض المذاكي السيفات القلائصا

الْمَلَأَ كِي : الخليل التي قد أتى عليها بعد فروعها سنة أو سنتان ؛ الواحد مُدَّةٌ ، مثل المُخْلِيفِ ،  
من الإبل ؛ وفي النمل جَرَى الْمُدَّيَاتِ غَلَابٌ . وللمسفات اسم مفعول ؛ يقال : سَفَتَ  
البعير أَسْفَهَ سَفًا إذا كَفَفْتَهُ بِزِمَامِهِ وَأَتَتْ رَاكِبَهُ . وأسَفَ البعير لُفَةً في سَفِهِ . وأسَفَ  
البعير بِنَفْسِهِ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ ؛ يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى . وكانت العرب تَرْكَبُ الْإِبِلَ وَيَتَجَنَّبُ الْخِلَالَ ؛  
تَقُولُ : الْحَرْبُ لَا تُتَّقَى مُودَةً . وقال كعب بن أبي سلمى :

أَرْجُو وَأُمَلِّ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتَهَا \* وَمَا إِخْلَالَ لَدُنْيَا مِنْكَ تَتَوَيْلُ

وقرأ جمهور التزاء السبعة وغيرهم «أتوا» بقصر الألف، أى بما جاءوا به من الكذب والكتمان،  
وقرأ سمرعان بن الحكم والأعشى وإبراهيم التيمي «أتوا» بالمد، بمعنى أعطوا . وقرأ سعيد  
ابن جبير «أتوا» على ما لم يسم فاعله ؛ أى أعطوا . والمفاضة المتعاطفة، مفعلة من فاز يفوز إذا  
نجا ؛ أى ليسوا بفائزين . وسمى موضع الخفاف مفاضة على جهة التفاضل ؛ قاله الأصمعي . وقيل :  
لأنها موضع تفوز وميظنة هلاك ؛ تقول العرب : فوز الرجل إذا مات . قال قطب : حكيت  
لأبن الأعرابي قول الأصمعي فقال أخطأ ، قال لى أبو المكارم : إنما سُمِّيت مفاضة ؛ لأن من  
قطعها فاز . وقال الأصمعي : سُمِّيَ الْأَدْيَغُ سَلِيًّا تَفَاوُلًا . قال ابن الأعرابي : لأنه يستسلم  
لأصابه . وقيل : لا تحسبهم بمكان بعيد من العذاب ؛ لأن الفوز التباعذ عن المكروه .  
والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ ﴿١٥٥﴾

هذا احتجاج على الذين قالوا إن الله فقير وغني أغنياء ، وتكذيب لهم . وقيل : المعنى  
لَا تَقْنَنُ الْفَرَحِينَ يَغْنُونَ مِنَ الْعَذَابِ ؛ فَإِنَّ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ ، وهم في قبضة القدير ؛ فيكون  
مطلوقا على الكلام الأول ، أى أنهم لا ينجون من عذابه ؛ يأخذهم متى شاء . ( وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ ) أى مُكْنٍ ( قَدِيرٌ ) وقد مضى في «البقرة» .

(١) الغلاب : الغلبة . أى أن الملك يغالِبُ بغيره قِبْلَةَ قُوَّتِهِ .

(٢) رابع ج ١ ص ٢٤٤ طبع ثانية أو ثالثة .

قَوْلَهُ تَعَالَى : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ  
 لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ  
 وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ  
 قَبْنًا عَذَابِ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ  
 مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ  
 فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبِرَارِ ﴿١٩٣﴾  
 رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ  
 الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ مِّنْكُمْ مَنْ  
 ذَكَرَ أَوْ أُنْثِيَ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ  
 وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَ لَهُمْ  
 جَنَّتِ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ  
 الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغْرَنَكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعْ قَلِيلٌ  
 ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ آتَقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ  
 تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا تَزِلَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ  
 خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ  
 إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا  
 أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ شَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا أَصَابُوا وَصَابَرُوا وَرَاطَبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

فيه خمس وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هدم معنى هذه الآية في «البقرة» في غير موضع . نغم تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته ؛ إذ لا تصدر إلا عن حقٍّ قويمٍ قد برئ قلوبنا من غشٍّ عن العالمين ؛ حتى يكون إيمانهم مستنداً إلى اليقين لا إلى التقليد . ﴿ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الذين يستعملون عقولهم في تأمل الدلائل . وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم قام يصلي ، فأتاه بلالٌ يُؤذنه بالصلاة فراه يسكي فقال : يا رسول الله ، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ! فقال : « يا بلال ! أفلا أكون عبداً شكوراً » ولقد أنزل الله على البيلة آية « إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » - ثم قال : - وَيَلْ لَّنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا

الثانية - قال العلماء : يستحب لمن أتته من نومه أن يسبح على وجهه ، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر الآيات اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما وسأقي ؛ ثم يصلي ما كتب له ، فيجمع بين التفكر والعمل ، وهو أفضل العمل على ما يأتي بيانه في هذه الآية بعد هذا . وروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة « آل عمران » كل ليلة ، خرج أبو نصر الباقلي السجستاني الحافظ في كتاب « الإمامة » من حديث سليمان بن موسى عن مظاهر بن أسلم المخزومي عن المقرئ عن أبي هريرة . وقد هدم أول السورة عن عثمان قال : من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ذكر تعالى ثلاث هيات لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره ، فكانها تحصر زمانه . ومن هذا المعنى قول عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل



أحيائه . أخرجه مسلم . فدخل في ذلك كونه على الخلاء وغير ذلك . وقد اختلف العلماء في هذا ؛ فأجاز ذلك عبد الله بن عمرو بن ميمون والنخعي ، وكره ذلك ابن عباس وعطاء والشَّيْ . والأذول أصح لعموم الآية والحديث . قال النخعي : لا بأس بذكر الله في الخلاء فإنه يصعد . المعنى : تصعد به الملائكة مكتوباً في صحفهم ؛ لحذف المضاف . دليله قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » . وقال : « وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ » . ولأن الله عز وجل أمر عباده بالذكر على كل حال ولم يشتر فقال : « وَادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » وقال : « فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » وقال : « إِنَّا لَا نَنْسِيُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » نعم . فذاكر الله تعالى على كل حال له ثواب ما جود إن شاء الله تعالى . وذكر أبو سعيد قال : حدثنا أبو بكر بن مالك حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبي قال حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان عن عطاء بن أبي حريز عن أبيه عن كعب الأحبار قال قال موسى عليه السلام : « يَا رَبِّ أَقْرَبُ أَنْتَ فَأَجِيبْ أَمْ بَعِيدُ فَأُثْبِتْ » قال يا موسى أنا جالسٌ مَنْ ذَكَرَنِي قَالَ يَا رَبِّ فَإِنَّا نَكُونُ مِنَ الْخَالِ عَلَى حَالِ نَحْمُكَ وَنُطْمِئِنُّكَ أَنْ تَذْكُرَكَ قَالَ وَمَا هِيَ قَالَ الْجَنَابَةُ وَالْعَاطَفُ قَالَ يَا مُوسَى إِذْ كَرَنِي عَلَى كُلِّ حَالٍ . « وكراهية من كره ذلك إما لثبته ذكر الله تعالى في المواضع المرغوب عن ذكره فيها ككراهية قراءة القرآن في الحمام ، وإما لإبقاء على الكرام الكاثنين على أن يخلطهم موضع الأفتار والأنجاس لكاتبه ما يلفظ به . والله أعلم . و ( قِيَامًا وَقُومًا ) نصب على الحال . ( وَعَلَى جُتُوبِهِمْ ) في موضع الحال ؛ أي مضطجعين . ومثله قوله تعالى : « دَعَا لِحَبَّتِهِ يُورْقَاعًا أَرْقَامًا » على العكس ؛ أي دعانا مضطجعين على جنبه . وذهب جماعة من المفسرين منهم الحسن وغيره إلى أن قوله « بَدَّكُرُوا اللَّهَ » إلى آخره ؛ إنما هو عبارة عن الصلاة ؛ أي لا تضييعوها ، ففي حال السجود يصلونها قعوداً وعلى جنوبهم . وهي مثل قوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُومًا وَعَلَى جُتُوبِهِمْ » في قول ابن مسعود على ما يأتي سائنه . وإذا كانت الآية في الصلاة ففقهها أن الإنسان يصل قِيَامًا ، فإن لم يستطع قاعداً ، فإن لم يستطع ساجداً ؛ كما ثبت عن عمران

ابن حُصَيْن قال : كُتِبَ إِلَى الْبَوَائِرِ فَسَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلَاةِ نَعْمًا :  
 "صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ قَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلِّي حَتْبًا" ، يَرَاهُ الْأَثَمَةُ - وَقَدْ رَوَاهُ : صَلَّى  
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَلِّ قَاعِدًا قَبْلَ مَوْتِهِ بِبَابٍ فِي الْبَاقِلَةِ ؛ عَلَى مَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ . وَرَوَى النَّسَائِيُّ  
 عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِّي مُتَرَبِّعًا . قَالَ  
 أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ : لَا أَعْلَمُ أَحَدًا رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ غَيْرَ أَبِي دَاوُدَ الْجَفَرِيِّ <sup>(١)</sup> وَهُوَ ثَقَّةٌ ، وَلَا أَحْسَبُ  
 هَذَا الْحَدِيثَ إِلَّا خَطَأً . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الرابعة - واختلف العلماء في كيفية صلاة المريض والقاعد وهيتها ؛ فذكر  
 ابن عبد الحكم عن مالك أنه يترجى في قيامه ، وقاله الْيَوْعَلِيُّ عَنْ الشَّافِعِيِّ . فَإِذَا أَرَادَ السُّجُودَ  
 تَبَيَّنًا لِلسُّجُودِ عَلَى قَدَرِ مَا يَطِيقُ ، قَالَ : وَكَذَلِكَ الْمُنْتَظِلُ وَغَوَاهُ . قَالَ الثَّوْرِيُّ : وَكَذَلِكَ قَالَ اللَّيْثُ  
 وَاحْمَدُ وَإِسْحَاقُ وَأَبُو يُونُسَ وَعَمَدُ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي رِوَايَةِ الْمُزْنِيِّ : يَجْلِسُ فِي صَلَاةٍ كُلِّهَا  
 بِكُلُّوسٍ التَّشَهُّدِ . وَرَوَى هَذَا عَنْ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ ؛ وَالْأَوَّلُ الْمَشْهُورُ وَهُوَ ظَاهِرُ الْمَدُونَةِ . وَقَالَ  
 أَبُو حَنِيفَةَ وَزُفَرٌ : يَجْلِسُ بِكُلُّوسٍ التَّشَهُّدِ ، وَكَذَلِكَ يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ .

الخامسة - فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْقَعُودَ صَلَّى عَلَى جَنْبِهِ أَوْ ظَهْرَهُ عَلَى التَّخِيرِ ؛ هَذَا مَذْهَبُ  
 الْمَدُونَةِ . وَحَكَى ابْنُ حَبِيبٍ عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ بِصَلِّ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلِّي جَنْبَهُ الْأَيْمَنِ  
 ثُمَّ عَلَى جَنْبِهِ الْأَيْسَرِ . وَفِي كِتَابِ ابْنِ الْمَوَازِ سَكُّهُ ، بِصَلِّ عَلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ ، وَإِلَّا فَصَلِّ الْأَيْسَرِ ،  
 وَإِلَّا فَعَلِّي الظَّهْرَ . وَقَالَ مُنْهَوْنٌ : بِصَلِّ عَلَى الْأَيْمَنِ كَمَا يُجْعَلُ فِي الْحَدِّ ، وَإِلَّا عَلَى ظَهْرِهِ وَإِلَّا  
 فَصَلِّ الْأَيْسَرِ . وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ : إِذَا سَلَّ مُضْطَجِعًا تَكُونُ رِجْلَاهُ مِمَّا يَلِي الْقِبْلَةَ .  
 وَالشَّافِعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ : بِصَلِّ عَلَى جَنْبِهِ وَوُجْهُهُ إِلَى الْقِبْلَةِ .

السادسة - فَإِنْ قَوِيَ لُحْفَةُ الْمَرَضِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ ؛ قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : أَنَّهُ يَقُومُ فَيُحَاوِلُ  
 بَقِيَّةَ صَلَاتِهِ وَيَتَنَبَّهُ عَلَى مَا مَعْنَى ؛ وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَزُفَرٍ وَالْعَطْرِيِّ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ

(١) أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ : كُنْيَةُ الشَّافِعِيِّ .

(٢) الْحَقَرِيُّ (يُنْتَخَبُ الْجَمْعَةُ وَتَقَامُ فِيهِ الْمَوْشَعُ بِالْمَكَّةِ) وَاسْمُهُ عَمْرُو بْنُ سُلَيْمٍ .

وصاحبه - يعقوب ومحمد - فيمن صل مضطجعا ركعة ثم صحح : إنه يستقبل الصلاة من أقبله .  
ولو كان قاعدا ، يركع ويستجد ثم صحح يحيى في قول أبي حنيفة : ولم ين في قول محمد . وقال  
أبو حنيفة وأصحابه : لذا أفتح الصلاة قائما ثم صار إلى حد الإيماء قتيين ؛ ورؤى عن  
أبي يوسف . وقال مالك في المريض الذي لا يستطيع الركوع ولا السجود وهو يستطيع القيام  
والجلوس : إنه يصل قائما ويؤمى إلى الركوع ، فإذا أراد السجود جلس وأومأ إلى السجود ؛  
وهو قول أبي يوسف وقياس قول الشافعي . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يصل قائما .

السابعة - وأما صلاة الرافد الصحيح فرؤى من حديث عمران بن حصين زيادة  
ليست موجودة في غيره ، وهي « صلاة الرافد مثل نصف صلاة القاعده » . قال أبو عمر : وجهه  
أهل العلم لا يميزون النافلة مضطجعا ؛ وهو حديث لم يروه إلا حسين للمعلم وهو حسين  
ابن ذكوان عن عبد الله بن بريدة عن عمران بن حصين ، وقد اختلف على حسين في إسناده  
ومثته أختلافا يوجب التوقف عنه ، وإن صحح فلا أدري ما وجهه ؛ فإن كان أحد من أهل  
المعلم قد أجاز النافلة مضطجعا لمن قدر على القعود أو مل القيام فوجهه هذه الزيادة في هذا  
التخير ، وهي حجة لمن ذهب إلى ذلك . وإن أجمعوا على كرامة النافلة رافدا لمن قدر على القعود  
أو القيام فحديث حسين هذا إما غلط وإما منسوخ . وقيل : المراد بالآية الذين يستدلون  
بحق السموات والأرض على أن المتغير لا بد له من متغير ، وذلك للمغير يجب أن يكون قادرا  
على الكمال ، وله أن يبعث الرسل ، فإن بعث رسولا ودل على صدقه بمعجزة واحدة لم يبق  
لأحد عذر ؛ فهو لاء هم الذين يذكرون الله على كل حال . والله أعلم .

الثامنة - قوله تعالى : ( وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) قد بينا أن معنى  
« يذكرون » وهو إما ذكر باللسان وإما الصلاة فرضها وغفلها ؛ فطفت تعالى عبادة أخرى  
على إحداها بعبادة أخرى ، وهي التفكير في قدرة الله تعالى وخلقاته والبر الذي نبه به ليكون  
ذلك أزيد في بصائرهم ، في كل شيء له آية بتل على أنه واحد . وقيل : « يتذكرون » عطف  
على الحال . وقيل : يكون مضطجعا ؛ والأول أشبه . والفكرة : تردد القلب في الشيء ؛

يقال : تَفَكَّرَ ، ورجلٌ يَفَكِّرُ كثيرَ الفكر . ومَنْزَ النبي صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون في الله تعالى : " تَفَكَّرُوا في الخلق ولا تَفَكَّرُوا في الخالق فإنكم لا تَقْدُرُونَ قُدْرَهُ وإِنَّمَا التَّفَكُّرُ والأَعْبَارُ وَأَنْبَاطُ الذَّهْنِ في المخلوقات كما قال : « وَبَتَّفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وحكى أن سفیان التَّوْرِي رضى الله عنه صلى خاف المقام ركعتين ، ثم رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء ، فلما رأى الكواكب غشى عليه ، وكان يقول التَّم من طول حزنه وفكره . وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بَيْنَا رَجُلٌ مُسْتَقْبِلٌ عَلَى فَرَّاشَةٍ إِذْ رَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَى النُّجُومِ وَإِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّ لَكَ رَبًّا وَخَالِقًا اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي فَنَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فَنَفَرَ لَهُ " . وقال صلى الله عليه وسلم : " لَا عِبَادَةَ كَتَفَكَّرَ " . وروى عنه عليه السلام قال : " تَفَكَّرُ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ " . وروى ابن القاسم عن مالك قال قيل لأمِّ البرداء : ما كان أكثرُ شأن أبي البرداء ؟ قالت : كان أكثرُ شأنه التَّفَكُّرَ . قيل له : أقرى التَّفَكُّرِ عمل من الأعمال ؟ قال نعم ، هو اليقين . وقيل لابن المسيَّب في الصلاة بين الظهر والعصر . قال : ليست هذه عبادة ، إنما العبادة الورع عما حرم الله والتَّفَكُّرُ في أمر الله . وقال الحسن : تَفَكَّرُ ساعة خير من قيام ليلة ؛ وقاله ابن عباس وأبو البرداء . وقال الحسن : الفكرة مرآة المؤمن ينظر فيها إلى حسنه وسيئاته . ومما يتفكر فيه مخاوف الآخرة من الحشر والنشر والجنة ونعيمها والنار وعذابها . ويروى أن أبا سليمان التماري رضى الله عنه أخذ قدح الماء ليتوضأ للصلاة الليل وعنده ضيف ، فراه لما أدخل أصبعه في أذن القدح أقام لذلك متفكراً حتى طلع الفجر ، فقال له : ما هذا يا أبا سليمان ؟ قال : إني لما طرحت أصبعي في أذن القدح تَفَكَّرْتُ في قول الله « إِذَا الْأَفْئَالُ فِي أَغْنَاهِمُ وَالسَّلَاسِلُ يُسَبِّحُونَ » تَفَكَّرْتُ في حالي وكيف أتلقى النسل إن طرِح في حتى يوم القيامة ، فما زلت في ذلك حتى أصبحت . قال ابن عطية : « وهذا نهاية الخوف ، وخير الأمور أوساطها . وليس علماء الأئمة الذين هم أجلة على هذا المنهاج . وقراءة علم كتاب الله تعالى ومعاني ستة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن تخمهم وَيُزَيِّعُ قَمَهُ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا » . قال ابن العربي : اختلف الناس أَى

العلمين أفضل : التفكير الصلاة : فذهب الصوفية إلى أن التفكير أفضل ؛ فإنه غير المعرفة وهو أفضل المقامات الشرعية . وذهب الفقهاء إلى أن الصلاة أفضل ؛ لما ورد في الحديث من الحديث عليها والدعاء لها والقرع فيها . وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه بات عند خاتمه ميمونة ، وفيه : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصح التزم عن وجهه ثم قرأ الآيات المشترحات من سورة آل عمران ، وقام إلى شئ معلق فوضاً وضواً خفيفاً ثم صلى ثلاث عشرة ركعة ، والحديث . فأنظر رحمك الله إلى جمع بين التفكير في المخلوقات ثم إقباله على صلاته يده ، وهذه السنة التي يُتَمَدُّ عليها . فاما طريقة الصوفية أن يكون الشيخ منهم يومه وليله وشهره مفكراً لا يفتر؛ طريقةً بعيدة عن الصواب غير لائقة في البشر، ولا مستمرة على السنن . قال ابن عطية : وحدثني أبي عن بعض علماء المشرق قال : كنت بائناً في مسجد الأندلس بمصر فصليت العتمة فرأيت رجلاً قد اضطجع في كسائه مسجياً بكائه حتى أصبح ، وصليتنا نحن تلك الليلة ؛ فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلى مع الناس ، فاستعظمت جراحته في الصلاة بغير وضوء ؛ فلما فرغت الصلاة خرج فحبسه لأعظمه ؛ فلما دفنوه منه سمعته يُشدُّ شراً :

مَسْجَى الْجِسْمِ غَائِبٌ حَاضِرٌ • مُتَبِّهِ الْقَلْبِ صَائِتٌ ذَاكِرٌ  
مُقْبِضٌ فِي الْغُيُوبِ مُنْبِطٌ • كَذَلِكَ مَنْ كَانَ عَارِفاً ذَاكِرٌ  
يَبِيتُ فِي لَيْلِهِ أَمَّا فِكْرٌ • فَهُوَ مَدَى اللَّيْلِ تَأْمُّ سَاهِرٌ

قال : فعلت أنه ممن يتباعد بالتفكير فانصرفت عنه .

التاسعة - قوله تعالى : ( رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ) أى يقولون : ما خلقت عبثاً وهزلاً ، بل خلقت دليلاً على قدرتك وحكمتك . والباطل : الزائل الناهب ؛ ومنه قول لبيد :

• أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَقَ اللَّهُ بَاطِلٌ •

(١) الشن : القربة . (٢) مسجد الأندلس : مسجد كان بمكة مصر العتمة قريباً من سفينة ابن طولون .

راجع للمقريزى ج ٢ ص ٤٤٥ طبع بدار

أى زائل . و « باطلا » نصيب لأنه تمت مصدر محذوف ؛ أى خلقا باطلا . وقيل .  
 انتصب على زرع الخافض ، أى ما خلقها للباطل . وقيل : على المقبول الثانى ، ويكون  
 خلق بمعنى جمل . ( سُبْحَانَكَ ) أسند التحاسن عن موسى بن طلحة قال : سئل رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم عن معنى « سبحان الله » فقال : « تزيه الله عن سوءه » وقد تقدم  
 فى « البقرة » معناه مستوفى . ( وَفُتِنَا عَذَابَ النَّارِ ) أخرجنا من عذابها ، وقد تقدم .  
 العائشة - قوله تعالى : ( رَبَّنَا إِنَّكَ مَن لَّمْ يُخْلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ) أى أذلتها وأهنته .  
 وقال المفضل : أهلكته ؛ وأشد :

أخزى الإله من الصليب عبيده . والآيسين فلانيس الربان

وقيل : أفضحت وأبدته ؛ يقال : أخزاه الله أبدته ومقتة . والأسم الحزى . قال ابن  
 السكيت : خَزَى يَخْزِي خَزْيًا إذا وقع فى بلية . وقد تمسك بهذه الآية أصحاب الوعيد وقالوا  
 من أدخل النار ينجى إلا يكون مؤمنا ؛ لقوله تعالى : « فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ » ؛ فإن الله يقول  
 « يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ » . وما قالوه مردود ؛ لقيام الأدلة على أن من  
 ارتكب كبيرة لا يزول عنه اسم الإيمان ، كما تقدم وباتى . والمراد من قوله : « مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ »  
 من تخلف فى النار ؛ قاله أنس بن مالك . وقال قتادة : تَدْخِلُ مقلوب تخلف ، ولا يقول كما  
 قال أهل حروراء . وقال سعيد بن المسيب : الآية خاصة فى قوم لا يخرجون من النار ؛  
 ولهذا قال : « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » أى الكفار . وقال أهل المعاني : الخزى يحتمل أن  
 يكون بمعنى الحياة ؛ يقال : خَزَى يَخْزِي خَزَايَةً إذا استعجا ؛ فهو خَزِيَان . قال ذو الرمة :

خَزَايَةً أَدْرَكْتُهُ عِنْدَ جَوْتَيْهِ : مِنْ جَانِبِ الْحَيْلِ مَخْلُوطًا بِهَا النَّظَبَ

تخزى المؤمنين يومئذ استعياؤهم فى دخول النار من سائر أهل الأديان إلى أن يخرجوا  
 منها . والخزى للكافرين هو إهلاكهم فيها من غير موت ؛ والمؤمنون يموتون فامتروا . كذا  
 ثبت فى صحيح السنة من حديث أبى سعيد الخدرى ، أخرجه مسلم . وقد تقدم .

(١) راجع ١ ص ٢٧٦ طبع ثانية أدراكه . (٢) راجع ٢ ص ١٢٢ طبعه .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ( رَبَّنَا إِنَّا أَمَدْنَا بِمَا نَبِيَّ الْإِيمَانِ ) أى محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين . وقال قتادة ومحمد بن كعب القرظي : هو القرآن ، وليس كلهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم . دليل هذا القول ما أخبر الله تعالى عن مؤمنى الجن إذ قالوا : « سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » . وأجيب الأولون فقالوا : من سمع القرآن فكأنما لقي النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا صحيح معنى . و«أَن آمَنُوا» في موضع نصب على حذف حرف النقص ، أى بآن آمنوا . وفي الكلام تقديم وتأخير ، أى سمعنا مُنادياً للإيمان ينادى ؛ عن أبي عبيدة . وقيل : اللام بمعنى إلى ، أى إلى الإيمان ؛ كقوله : « ثُمَّ يَوْمُئِذٍ لِمَا نُهُوا عَنْهُ » . وقوله : « يَا أَيُّهَا لَوْحٌ مَّا » . وقوله : « أَلَمْ تَجِدْ أَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ هَذَا الْكَلِمَةَ » أى إلى هذا ، ومثله كثير . وفيل : من لأم أجل ، أى لأجل الإيمان .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ( رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ) تأكيد ومبالغة في الدعاء . ومعنى اللقطين واحد ؛ فإن النفر والكفر السر . ( وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ) أى إيرادنا مع الأنبياء ، أى في جنتهم . واحدم برؤا وأصله من الاتساع ؛ فكان البرمئيع في طاعة الله وسعة رحمة الله .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ( رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ) أى على أئمة رسلك ؛ مثل « وَأَسْأَلُ الْقُرْآنَ » . وقرأ الأعمش والأزهري « وَرُسْلِكَ » بالتحفيف ، وهو ما ذكر من استغفار الأنبياء والملائكة للمؤمنين ؛ والملائكة يستغفرون لمن في الأرض . وما ذكر من دعاء نوح للمؤمنين ودعاء إبراهيم واستغفار النبي صلى الله عليه وسلم لأمته . ( وَلَا تَحْزِنَا ) أى لا تقلبنا ولا تهلكنا ولا تقصصنا ، ولا تنها ولا تبعدنا ولا تحزننا يوم القيامة ( إِنَّكَ لَا تَخْلُقُ الْمِيعَادَ ) . إن قيل : ما وجه قولهم « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ » وقد علموا أنه لا يخلف الميعاد ؛ فالجواب من ثلاثة أوجه :

الأنزل - أن الله سبحانه وعد من آمن بالجنة ، فسألوا أن يكونوا من وعد بذلك دون  
الآخر والعقاب .

الثاني - أنهم دعوا بهذا الداء على جهة العبادة والخضوع ؛ والدعاء بخ العبادة . وهذا  
كقوله : « قُلْ رَبِّ أَحْكَمْ بِالْحَقِّ » وإن كان هو لا يقضى إلا بالحق .

الثالث - سألوا أن يسطوا ما وعدوا به من النصر على عدوهم معجلاً ؛ لأنها حكاية عن  
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله ذلك إعراباً للدين . والله أعلم . وروى أنس بن  
مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من وعد الله نزع وجل على عمل ثواباً فهو  
مُتَجَرِّلُهُ رَحْمَةً مِنْ وَعْدِهِ عَلَى عَمَلٍ عَقَاباً فَهُوَ فِيهِ بِأَخْيَارٍ » . والعرب تنم بالخالف في الوعد  
وتدح بذلك في الوعد ؛ حتى قال قائلهم <sup>(١)</sup> :

وَلَا يَرَعْبُ ابْنُ آدَمَ مَا عَشْتُ صَوْتِي ، وَلَا أَحْتِي مِنْ خَشْيَةِ الْمَتَّهِدِ  
وَلَمَّا بَانَ أَوَعْدُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ . تُخَلِّفُ إِمَائِي وَمُتَجَرِّزُ مَوَاعِيدِي

الرابعة عشرة - قوله تعالى : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ » أي أجابهم . قال الحسن : ما زالوا  
يقولون ربنا ربنا حتى استجاب لهم . وقال جعفر الصادق : من حربه أمر فقال خمس مرات  
ربنا أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : إقربوا إلى شتم  
« الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ » - إلى قوله : إِنَّكَ لَا تُخَلِّفُ الْمِيعَادَ » .

الخامسة عشرة - قوله (أَيُّ) أي بآتي . وقرأ عيسى بن عمر « أَيُّ » بكسر الهمزة ،  
أي يقال إني . وروى الحاكم أبو عبد الله و صحيحه عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ،  
ألا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بذي ؟ فأنزل الله تعالى « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْ لَا أُنْصِبُ  
عَمَلٌ عَامِلٌ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرِ أَوَاتِي » الآية . وأخرجه الترمذي . ودخلت « من » لتأكيد لأنها  
حرف تقي . وقال الكوفيون : هي للتفسير ولا يجوز حذفها ؛ لأنها دخلت للمعنى لا يصلح  
الكلام إلا به ، وإنما تحذف إذا كانت تأكيداً للبعد . (بُضْكُمُ مِنْ سَبْحٍ) ابتداء وخبره ،

(١) هو عاصم بن الضيل . كان ينادي  
(٢) حبه الأمر : إذا نزل به سهم أو أسابه فـ



أَي دِينِكُمْ وَاحِدٌ . وَقِيلَ : بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فِي التَّوَابِ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَفْضَلُ وَشِبْهُ ذَلِكَ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : رَجَالُكُمْ شَكْلُ نَسَائِكُمْ فِي الطَّاعَةِ ، وَنَسَائِكُمْ شَكْلُ رَجَالِكُمْ فِي الطَّاعَةِ ؛ نَظِيرُهَا قَوْلُهُ عَزَّ رَجُلٌ : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » . وَيُقَالُ : مَلَأَ مِئِي ، أَي عَلَى مَنَهِى وَخُلُقِي .

السَّادِسَةُ عَشْرَةَ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ ابْتِدَاءً وَخَبَرٌ ، أَي هَجَرُوا أَوْطَانَهُمْ وَسَارُوا إِلَى الْمَدِينَةِ . ﴿ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . ﴿ وَقَاتِلُوا ﴾ أَي وَقَاتِلُوا أَعْدَائِي . ﴿ وَقَاتِلُوا ﴾ أَي فِي سَبِيلِ . وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبْنُ حَاسِرٍ : « وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا » عَلَى التَّكْثِيرِ . وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ : « وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا » لِأَنَّ الْوَاوَ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنْفٍ الثَّانِي بَعْدَ الْأَوَّلِ . وَقِيلَ : فِي الْكَلَامِ إِضْمَارُ فَدَ ، أَي قَاتِلُوا وَقَدْ قَاتِلُوا ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

« تَصَابِي وَأَمْسَى عَلَاهُ الْكِبَرُ »

أَي قَدْ عَلَاهُ الْكِبَرُ . وَقِيلَ : أَي وَقَاتِلْ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ ؛ فَقَاتَلَ ابْنُ تَيْمٍ ، وَابْنُ قَتَلَ بَعْضُهُمْ . وَقَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

« فَإِنْ قَاتَلُوا قَاتِلَكُمْ »

وَقَرَأَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : « وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا » خَفِيفَةً بِمِثْلِ الْب . ﴿ لَا تَكْفُرْ عَنْهُمْ بِطَانِهِمْ ﴾ أَي لَا تَسْتَرْهَبْهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، فَلَا أَوْ يَتَّخِذُوا مِنْهُمْ بَرًّا وَلَا أَعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا . ﴿ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ مُصَدِّرٌ مُؤَكَّدٌ عِنْدَ الْبَصَرِيِّ ؛ لِأَنَّ مَعْنَى « لَا تَدْعُهُمْ جَنَاتُ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » لِأَنَّهُمْ تَوَابًا ، الْكَسَائِيُّ : أَنْتَضَبَ عَلَى الْقَطْعِ . الْفَرَّاءُ : عَلَى التَّفْسِيرِ . ﴿ وَأَقْبَلَهُ عِنْدَهُ حَسَنُ التَّوَابِ ﴾ أَي حَسَنُ الْجَزَاءِ ، وَهُوَ مَا يَرْجِعُ عَلَى الْعَامِلِ مِنْ جَزَاءِ عَمَلِهِ ؛ مِنْ تَابِ يَتَوَبُّ .

السَّابِعَةُ عَشْرَةَ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَفْرَقَنَّ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ قِيلَ : الْخُلُطَابُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالرَّادِ الْأُمَّةُ . وَقِيلَ : لِهَجْعٍ . وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا : هَؤُلَاءِ الْكَافِرَاتُ لَمْ تَجَارُوا أَمْوَالًا وَاضْطُرَابًا فِي الْبِلَادِ ، وَقَدْ هَلَكَا نَحْنُ مِنَ الْجُوعِ ؛ فَتَوَلَّتْ

هذه الآية . ( لا يترككم ) سلامتهم يتعلمهم في أسفارهم . ( متاع قليل ) أى تعلمهم متاع قليل . وقرأ يعقوب « يترككم » ناسكة التون؛ وانشد :

لَا يَتْرُكُ عَيْنًا سَاكِنًا . قد يُوَاقِي بِالْمَيَاتِ السَّحَر

ونظير هذه الآية قوله تعالى : « فَلَا يَتْرُكُ تَعْلَمُهُمْ فِي الْبِلَادِ » . والمتاع : ما يُسَبَّلُ الاستفاح به؛ وسماء قليلا لأنه فان ، وكل فان وإن كان كثيرا فهو قليل . وفي صحيح الترمذي عن المستورد القهري قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في التيم فليظفر بيمرجع » . قيل : « يرجع » بالياء والياء . ( وَيَسَّسَ الْمِهَادُ ) أى بنس ما مهلوا لأنفسهم بكفرهم ، وما مهد الله لهم من النار .

الثامنة عشرة - في هذه الآية وأمثالها كقوله : « إِنَّمَا تَعْمَلُ لَمْ خَيْرًا » الآية . « وأولى لهم أن يكدى متين » . « أَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُعْلَمُونَ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ » . « وَسَتَسْتَرْجِعُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَأْمَنُونَ » دليل على أن الكفار غير متم عليهم في الدنيا ؛ لأن حقيقة النعمة انخلوص من شوائب الضرر العاجلة والآجلة ، ونعم الكفار مشوبة بالآلام والمعقوبة ، فصار كن قدم بين يدي غيره حلالة من عمل فيها السم ، فهو وإن استند آكله لا يقال أنهم عليه ؛ لأن فيه هلاك روحه . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء ، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري . وذهب جماعة منهم سيف السنة ولسان الأمة القضاي أبو بكر : إلى أن الله أتم عليهم في الدنيا . قالوا : وأصل النعمة من النعمة بفتح التون ، وهى لين العيش ؛ ومنه قوله تعالى : « وَنَمِيَّةٌ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ » . يقال : دقيق ناعم ، إذا بولغ في لطيفته وأعيد تحمقه . وهذا هو الصحيح ، والدليل عليه أن الله تعالى أوجب على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المكلفين فقال : « فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ » . « وَأَشْكُرُوا اللَّهَ » والشكر لا يكون إلا على نعمة . وقال : « وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » وهذا خطاب لقارون . وقال : « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً » الآية . فنبه سبحانه أنه قد أتم عليهم نعمة دنيوية فمخدوها . وقال : « يَرْفِقُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ بِكُمْ فَشَكَرُونَهَا » وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » . وهذا عام

في الكفار وغيرهم . أما إذا قدم لغيره طعاماً فيه سمٌ فقد رُفِيَ به في الحال ؛ إذ لم يُجرعه السمٌ بما يَئِيلُ دَمَهُ في الحلاوة ؛ فلا يستبعد أن يقال قد أُنِمْ عليه . وإذا ثبت هذا فالتمم ضربان :  
فيمُ تَقَعُ وَيَمُ تَقَعُ ؛ فَيَمُ الضَّيْعُ ما وُصِلَ إليهم من فنون اللذات . ويَمُ الضَّيْعُ ما صُرِفَ عنهم من أنواع الآفات . فعل هذا قد أُنِمْ على الكافرين الدُّفْعُ قولاً واحداً ؛ وهو ما زُوِيَ عنهم من الآلام والأقام ، ولا خلاف بينهم في أنه لم يُنِمْ عليهم نعمة دينية . والحمد لله .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ( لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ ) استدراك بعد كلام عَظِمَ فيه معنى التَّيْنِ ؛ لأن معنى ما تقدم ليس لم في قلوبهم في البلاد كثيرة الانتفاع ، لكن التَّيْنُ لم الانتفاع الكثير والتخلد الدائم . فوضع « لَكِنَّ » رفعٌ بالابتداء . وقرأ يزيد بن أَلْفَعَاءِ :  
« لَكِنَّ » بفتح اللام .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ( تَزُولُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ) تَزُولُ مثل تَوَابَا عند البصريين ، وعند الكسائي يكون مصدرًا . والقراء : هو مفسر . وقرأ الحسن والفتح بن جعفر الزبيدي استقلاً لِيَضْمَتَيْنِ ، وقلة الباقون . والتَّزَلُّ : ما يُبَيِّأُ للتزِيلِ والتَّزِيلُ الضَّيْعُ . قال الشاعر :

تَزِيلُ الْقَوْمِ اعْظَمُهُمْ حَقْوًا • وَحَقُّ اللَّهِ فِي حَقِّ التَّزِيلِ

فالجمع الأتزال . وحظَّ زِيلٌ : مُجْتَمِعٌ . والتَّزَلُّ : أيضاً الرِّيحُ ؛ يقال ، طلع كُثير التَّزَلُّ والتَّزَلُّ .

الحادية والعشرون — قلت : ولعل التَّزَلُّ — والله أعلم — ما جاء في صحيح مسلم من حديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث الخبر الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أين يكون الناس يوم يُنْفَخُ الأَرْضُ غير الأرض والسماوات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هم في الظلمة دون الحِمْسِ » قال : فمن أول الناس إجابة ؟ قال : « فقراء المهاجرين » قال اليهودي : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال « زيادة كبد النون » قال : فما غذؤهم على إثرها ؟ فقال : « يُخْرَجُ قُورُ الْجَنَّةِ التي كان يأكل من أطرائها » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « من بين فيها تُسَمَّى سَلْسِيلًا » وذكر الحديث . قال أهل

اللغة : والشفقة ما يُخَفَّف به الإنسان من التواكل . والطرف عَاشَتُهُ ومَلَأَتُهُ ، وهذا مطابقٌ  
 لما ذكرناه في القزل ، والله أعلم . وزيادة الكيد : قطعة منه كالأصبع . قال المروزي :  
 « نَزَلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أى تَوَابَا . وقيل رَزَقَا . ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّائِزِينَ ﴾ أى مما يَتَقَلَّب به  
 الكفار في الدنيا . والله أعلم .

الثانية والعشرون - قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ الآية .  
 قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقائدة والحسن : نزلت في النجاشي ، وذلك أنه لما  
 مات تمّاه خبيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه :  
 « قَوْمُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمُ النَّجَاشِي » ، فقال بعضهم لبعض : يا مَرءَا أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى عُلُوجٍ  
 الحبيشة ، فانزل الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ وَمَا أُنْزِلَ  
 إِلَيْهِمْ . قال الضعباك : « وما أُنْزِلَ إِلَيْهِمُ » القرآن . « وما أُنْزِلَ إِلَيْهِمُ » التوراة والإنجيل .  
 وفي التنزيل : « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ » . وفي صحيح مسلم : ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ  
 - فذكر - رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بِنبيِّه ثم أدرك النبي صلى الله عليه وسلم فأمن به  
 وأتبعه وصدقه فله أَجْرَانِ « وذكر الحديث . وقد تقدم في « البقرة » الصلاة عليه وما للعلماء  
 في الصلاة على الميت الغائب ، فلا معنى للإعادة . وقال مجاهد وابن جريج وابن زيد : نزلت  
 في مؤمنين أهل الكتاب ، وهذا عام والنجاشي واحد منهم . وأسمه أَقْنَسَةُ ، وهو بالعربية  
 عَطِيَّة . و« حَاشِيَيْنِ » أُنْثَى ، ونصب على الحال من المضمَر الذي في « يُؤْمِنُ » . وقيل : من  
 الضمير في « إِلَيْهِمُ » أو في « إِلَيْكَ » . وما في الآية بين ، وقد تقدم .

الثالثة والعشرون - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ﴾ الآية . ختم تعالى السورة  
 بما تضمنته هذه الآية المباشرة من الوصاة التي جمعت الظهور في الدنيا على الأعداء والفرز  
 بنعيم الآخرة ؛ فخص على الصبر بالطاعات وعن الشهوات . والصبر الحليس ، وقد تقدم  
 في « البقرة » بَيَانُهُ . وأمر بالمصابرة قيل : معناه مصابرة الأعداء ؛ قاله زيد بن أسلم .

وقال الحسن : على الصلوات الخمس . وقيل : إدامة خالفة النفس على شهوراتها فهي كدور وهو يتبع . وقال عطاء والقرطبي : صابروا الوعد الذي وعدتم . أى لا تياسوا وانتظروا الفرج ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " أنتظار الفرج بالصبر عبادة " . وأختار هذا القول عمر رضى الله عنه . والأثر قول الجمهور ؛ ومنه قول عتقة :

فلم أرَ حياً صابراً مثلَ صبرنا • ولا كالحقِّ مثلَ الذين نكأُ

فقوله « صابروا مثل صبرنا » أى صابروا الصدوقى الحرب ولم يسد منهم حين ولا خور . والمكافئة : المواجهة والمقابلة فى الحرب ؛ ولذلك اختلفوا فى معنى قوله « ورابطوا » فقال جمهور الأمة : رابطوا أعداءكم بالليل ، أى أربطوها كما يربطها أعداؤكم ؛ ومنه قوله تعالى : « وَبَيْنَ رِباطِ الْخَيْلِ » . وفى الموطأ عن مالك عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو حنيفة بن الحجاج الى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الرِّوم وما يتخفف منهم ؛ فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنه مهما يتل بعد مؤمن من منزل شدة يجعل الله له بعدها فرجاً ، وإنه لن يطلب عُسْرُيَئرين ، وإن الله تعالى يقول فى كتابه « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . وقال أبو سامة بن عبد الرحمن : هذه الآية فى أنتظار الصلاة بعد الصلاة ، ولم يكن فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم غَزْوٌ يُرابط فيه ؛ رواه الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه . وأحجج أبو سامة بقوله عليه السلام : " أَلَا أدُلُّكُمْ على ما يعو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلك الرِّباط " ثلاثاً ، قاله مالك . قال ابن عطية : والقول الصحيح هو أن الرِّباط الملازمة فى سبيل الله . أصلها من ربط الخيل ، ثم سُمي بكل ملازم لتتبر من ثغور الإسلام مُرابطاً ، فأرسل كان أو راجلاً . واللفظ مأخوذ من الرِّبط . وقول النبى صلى الله عليه وسلم " فذلك الرِّباط " إنما هو تشبيه بالرِّباط فى سبيل الله . والرِّباط الثبوتى هو الأول ؛ وهذا كقوله : " ليس الشديد بالصرعة " وقوله " ليس المسكين بهذا الطواف " إلى غير ذلك .

قلت : قوله « والرباط اللغوي هو الأول » ليس بمسلم ، فإن الخليل بن أحمد أحد أئمة اللغة وحقها قد قال : « الرباط ملازمة الثغور ، ومواظبة الصلاة أيضا ، فقد حصل أن تستظار الصلاة رباط لغوي حقيقة » كما قال صلى الله عليه وسلم . وأكثر من هذا ما قاله الشيباني أنه يقال : « رباطك دائم لا يرحل » حكاه ابن فارس ، وهو يقتضي صلة الرباط لغة إلى غير ما ذكرناه . فإن المراقبة عند العرب : المقعد على الشيء حتى لا يتخلل فيعود إلى ما كان صبر عنه فيحبس القلب على النية الحسنة والجسم على فعل الطاعة . ومن أعظمها وأهمها ارتباط الخليل في سبيل الله كما نص عليه في التزليل في قوله : « ومن رباط الخليل » على ما يأتي . وأرباط النفس على الصلوات كما قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه أبو هريرة وبارد بن ربيعة ، ولا عطر بعد عروس .

الرابعة والعشرون - المراقبة في سبيل الله عند الفقهاء هو الذي يتخصص إلى تفرغ من الثغور ليرابط فيه مدة ما ، قاله محمد بن المواز وداود . وأما سكان الثغور دائما بأهلهم الذين يسمرون ويكسبون هناك فهم وإت كانوا حماة فليسوا بمراقبين ، قاله ابن عطية . وقال ابن خزيمة متناد : « والرباط حالتان : حالة يكون الثغر مأمونا متينا يجوز سكناه بالأهل والولد . وإن كان غير مأمون جاز أن يربط فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال ، ولا ينقل إليه الأهل والولد فلا يظهر الملقب يسمى ويسترق . والله أعلم .

الخامسة والعشرون - جاء في فضل الرباط أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخاري عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رباط يوم في سبيل الله خير عند الله من الدنيا وما فيها » . وفي صحيح مسلم عن سلمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان<sup>(١)</sup> » . وروى أبو داود في سننه عن فضالة

(١) الفتان : الشيطان . ويرى فتح القاد وشيخه . فن رواه بالغصب فهو واحد ، لأنه جناس من العين . ومن رواه بالغصب فهو جمع فان ؛ أي يمارن أحدهما الآخر على الذين يغفلون الناس عن الحق ويغشونهم .

ابن مبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كل الميت يُنتم على عمله إلا للرباط فإنه ينموله بماله إلى يوم القيامة ويؤمن من ثَنان القبر " . وفي حديثين الحديثين دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي بين ثوابها بعد الموت ؛ كما جاء في حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا مات العبد أقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم يُنفع به أو ولد صالح يدمر له " وهو حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم ؛ فإن الصدقة الجارية والعلم المنتفع به والولد الصالح الذي يدمر لأبيه ينقطع ذلك بتفاد الصدقات وذهاب العلم وموت الولد . والرباط يُضاعف أجره إلى يوم القيامة ؛ لأنه لا معنى للثأب إلا للمضاعفة ، وهي غير موقوفة على سبب فتقطع باقطاعه ، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة . وهذا لأن أعمال البر تكملها لا يُمكن منها إلا السلامة من العذو والتحرز منه بحراسة بيضة الدين وإقامة شعار الإسلام . وهذا العمل الذي يجرى عليه ثوابه هو ما كان يعمل من الأعمال الصالحة . نرجه ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من مات مرابطا في سبيل الله أجرى الله عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن من الشيطان وبشبه الله يوم القيامة ثَمًا من الفزع " . وفي هذا الحديث قيد ثان وهو الموت حالة الترابط . والله أعلم .

وروى عن عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من رباط ليلة في سبيل الله كانت له كألف ليلة صبرها وقيامها " . وروى عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين مُحتسباً من غير شهر رمضان أعظم أجراً من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ورباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين مُحتسباً من شهر رمضان أفضل عند الله وأعظم أجراً " . رواه قال : - ، عبادة ألف سنة صيامها وقيامها ؛ فإن رزقه الله إلى أهله سلفاً لم تكتب عليه عبادة ألف سنة ويكتب له من السنوات ويُجرى عليه أجر الرباط إلى يوم القيامة .

وقد هذا الحديث على أن يربط يوم في شهر رمضان يحصل له من الثواب الدائم وإن لم يمت مرابطاً . والله أعلم . وعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «تسرس ليلة في سبيل الله أفضل من صيام رجل وقيامه في أهله ألف سنة السنة ثلاثمائة يوم واليوم كالف سنة» .

قلت : وجاء في انتظار الصلاة بعد الصلاة أنه يربط ؛ فقد يحصل المتخير الصلوات ذلك الفضل إن شاء الله تعالى . وقد روى أبو نعم الحافظ قال حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا علي بن عبد العزيز قال حدثنا تميم بن المثلح<sup>(١)</sup> ح وحدثنا أبو بكر بن مالك قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبي قال حدثني الحسن بن موسى قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي أيوب الأزدي عن ثوبان اليماني عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى ذات ليلة المغرب فصلينا معه فمكث من عكف ورجع من رجع ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يتوجه الناس لصلاة العشاء ، فقام وقد حضره الناس واقفاً وأصبحه وقد عقد تسماً وعشرين يُشير بالسبابة إلى السماء فحسرت نوبة عن ركبته وهو يقول : «أشعروا مشعر المسلمين هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء يُباهي بكم الملائكة يقول يا ملائكتي أنظروا إلى عبادي هؤلاء قضوا فرصة وهم ينظرون أخرى» . ورواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن مطرف بن عبد الله أن ثوباناً وعبد الله ابن عمر اجتمعا لحديث ثوبان عن التوراة وحدث عبد الله بن عمر بهذا الحديث عن النبي صلى

(١) برت عادة المحدثين أنه إذا كانت الحديث إسناداً أو أكثره كثيراً منه الاختلاف من إسناد إلى إسناد «مدح» وهي صاه مهمة مفردة . واختار أنها مأخوذة من القول لتخوله من إسناد إلى إسناد ، وأنه يقول الثاني إذا انتهى إليها : «ح» ويستقر قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين التبيين إذا جاز ؛ لكونها حالت بين الإسنادين ، وأنه لا يحفظ عند الانتهاء إليها شيء ، وليست من الرواية . وقيل : إنها من القول ؛ الحديث . وأن أهل المغرب كلهم يقولون إذا وسلا إليها . الحديث . ثم هذه الحاء تروى في كتب المنابر كثيراً وهي كثيرة في صحيح مسلم فليق في صحيح البخاري . (راجع مقدمة الترمذي على صحيح مسلم) .



الله عليه وسلم . ( وَأَتُوا اللَّهَ ) أى لم تؤمروا بالجهاد من غير تقوى . ( لَتَكُنَّ خَالِدُونَ )  
 لتكونوا على رجاء من الفلاح . وقيل : لعل بمعنى لكن . والفلاح البقاء ، وقد مضى هذا كله  
 في « البقرة » مستوفى<sup>(١)</sup> ، والحمد لله .

تُجَزِّزُ تفسیر سورة آل عمران من جامع أحكام القرآن والمبین لما تضمن من معاني السنة  
 وآى القرآن بحمد الله وعونه .

---

(١) راجع ص ١٦١ ، ١٨٢ ، ٢٢٧ طبع ثانية أمانة .



# بسم الله الرحمن الرحيم

## سورة النساء

وهي مدنية، الآية واحدة نزل بمكة عام الفتح في عتبان بن طلحة الحبشي وهي قوله :  
 « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » على ما يأتي بيانه . قال النحاس : وقيل  
 نزلت عند هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . وقد قال بعض الناس : إن  
 قوله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » حيث رفع إنما هو مكّي ، وقاله عكمة وغيره . فيشبه أن  
 يكون صدر السورة مكّي وما نزل بعد الهجرة وإنما هو مدني . وقال النحاس : هذه  
 السورة مكية .

قلت : والصحيح الأول، فإن في صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت : ما نزلت سورة  
 النساء إلا وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهي قد أتت بها . ولا خلاف بين العلماء  
 أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أتى بعائشة بالمدينة . ومن تبيين أحكامها علم أنها مدنية  
 لا شك فيها . وأما من قال : إن قوله « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » مكّي حيث وقع فليس بصحيح ؛  
 فإن البقرة مدنية وفيها قوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » في موضعين ، وقد تقدم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ  
 وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ  
 الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①

(٢) آية ٢١ و ١٦٨ من هذه السورة .

(١) آية ٥٨ من هذه السورة .

## فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ قد مضى في « البقرة » اشتقاق « الناس » ومعنى التقوى والرب والخلق والزوج والت ، فلا معنى للإعادة . وفي الآية تنبيه على الصانع . وقال « واحدة » على تانيث لفظ النفس . ولفظ النفس يؤث وإن عني به مدكر . ويجوز في الكلام « من نفس واحد » ، وهذا على مراعاة المعنى ؛ إذ المراد بالنفس آدم عليه السلام ، قاله مجاهد وقادة . وهي قراءة أن أبي عتبة « واحد » غيرها . ( وبث ) ترق ونشر في الأرض ، ومنه « وزرأني ميثرتي » وقد تقدم في « البقرة » . ( بينهما ) يعني آدم وحواء . قال مجاهد : خلقت حواء من قصبري آدم . وفي الحديث « خلقت المرأة من ضلع عرجل » ، وقد مضى في البقرة . ( رجالا كثيرا ونساء ) حفر ذريتهما في نوحين ؛ فاقضى أن النسل ليس بنوع ، لكن له حقيقة تزده إلى هذين النوعين وهي الآدمية فيلحق بأحدهما ، على ما تقدم ذكره في « البقرة » من اعتبار قصص الأعداء وربادتها .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِينَ تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ كثر الالتقاء بكيدا وتبنيها لنفوس المأمورين . و « الذي » في موضع نصب على التثنية . « والأرحام » معطوف . أي اتقوا الله أن تعصوه ، وأتقوا الأرحام أن تعطلوها . وقرأ أهل المدينة « تساءلون » بإدغام التاء في السين . وأهل الكوفة تحذف التاء ، لاجتماع تامين ، وتغقف السين لأن المعنى يعرف ؛ وهو كقوله : « وَلَا تَسَاءَلُوا عَلَى الْإِيمِ » و « نَزَلَ » وشبهه . وقرأ النحويون : إبراهيم النخعي « وتساءدوا والأشمس وحسرة » والأرحام بالخص . وقد تكلم النحويون في ذلك . فاما البصريون فقالوا وسأهم : هو لمن لا تحمل القراءة به . واما الكوفيون فقالوا : هو فيج ، ولم يزيدوا على هذا ولم يذكروا الله فيج ؛ قال النحاس : فيها علمت .

(١) راجع ج ١ ص ١٢٦ و ١٦١ و ٢٢٦ و ٣٠١ طبة ثانية أرثاقه ج ٢ ص ١٩٦ طبة ثانية .

(٢) التميمي : أسفل الأضلاع . وقيل : الفلج إلى ثلث الكاكة بين الحب والجل .

(٣) راجع ج ١ ص ٣٠٦ طبة ثانية أرثاقه .

وقال سيويو : لم يطف على المضمر المفعول لأنه بمنزلة التنوين ، والتنوين لا يطف عليه . وقال جماعة : هو معطوف على المكشوف ؛ فانهم كانوا يسألون بها ، يقول الرجل : سألك بالله والرحم ؛ هكذا فسره الحسن والتخني وباعده ، وهو الصحيح في المسألة ، على ما يأتي . وضحف أقدام منهم الزجاج ، وقالوا : يفتح عطف الظاهر على المضمر في الخفض إلا بإظهار الخافض ؛ كقوله « نَفَسْنَا بِهِ وَيَدَّاهِ الْأَرْضَ » ويصح « مَرَدَتْ بِهِ وَزَيْدٌ » . قال الزجاج عن المازني : لأن المطوف والمطوف عليه شريكان ، يمل كل واحد منهما على صاحبه ؛ فكلا لا يجوز « مَرَدَتْ زَيْدٌ وَكَ » كذلك لا يجوز « مَرَدَتْ بِكَ وَزَيْدٌ » . وأما سيويو فهو عنده قبيحة ولا يجوز إلا في الشعر ؛ كما قال :

فَالْيَوْمَ قَرَبْتُ نَهْجِي وَتَشَيْتُهَا . فَانْهَبْ فَا بَكَ وَالْأَيَّامُ مِنْ عَجَبٍ

عطف « الأيام » على الكاف في « بك » بنبر الباء للضرورة . وكذلك قال الأعرابي : نَلَقْتُ فِي مِثْلِ السَّوَارِي سَيُوقَنَا . وما بيننا والكعب مَهْوًى فَاقِفُ<sup>(١)</sup>

عطف « الكعب » على الضمير في « بينها » ضرورة . وقال أبو علي : ذلك ضعيف في القياس . وفي كتاب التذكرة المهدية عن الفارسي أن أبا العباس المبرد قال : لو حَلَّتْ خَلْفَ إِمَامٍ قَرَأَ « مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِئِينَ » و « أَخْبَرُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْأَلُونَ بِهِ وَالْأَرْصَامَ » لأَعْذَتْ نَعْلِي وَمَضَيْتُ . قال الزجاج : قراءة حمزة مع ضمها وقباحتها في العربية خطأ عظيم في أصول أمر الدين ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا تَخْلُقُوا بَابَانَكُمْ » فلما لم يحز الحليف بشير الله عظيم ، وأنه يجوز بالزجر . ورأيت إسماعيل بن إسحاق يذهب إلى أن الحليف بشير الله أمر عظيم ، وأنه خاص لله تعالى . قال النحاس : وقول بعضهم « وَالْأَرْصَامَ » قسم خطأ من المعنى والإعراب ؛ لأن الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يدل على النصب . وروى شعبة عن عوف بن

(١) المعوى والمعواة : ما بين الجبلين نحو ذلك . والفنف : المواء . وقيل : المراء بين التين ؛ وكل شيء بين وبين الأرض مهوى فهو قف . وقد ورد :

« وما بيننا والأرض غوط قاف »

ولفرط (بفتح اللين) : المتسع من الأرض مع طابعية . (٢) في بعض الأصول : المهنية .

أبي جحيفة عن المغيرة بن برزخ عن أبيه قال : « كما عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى جاء قوم من مضر حُفَّاءُ عُرَاءُ ، فرأيت وبه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغير لَبًا رأى من قاتلهم ؟ ثم صلى الظهر وخطب الناس فقال : " يا أيها الناس اتقوا أربكم ، إلى : والأربحام " . ثم قال : " تصلى رجل بديناره وتصلى رجل بديناره وتصلى رجل بصاع نمره " وذكر الحديث .<sup>(١)</sup> فمضى هذا على التصب ؛ لأنه حضمهم على صلة أربامهم . وأيضاً قد سمع عن النبي صلى الله عليه وسلم " مَنْ كَانَ حَاقِلًا فَلْيُحَلِّطْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصُمْتَ " . فهذا يرد قول من قال : المعنى أسألك بالله وبالزح . وقد قال أبو إسحاق : معنى « تسألون به » يعني تطالبون حقوقكم به . ولا معنى للقبض أيضاً مع هذا .

قلت : هذا ما وقفت عليه من القول لطباء اللسان في منع قراءة « والأربحام » بالخفض ، واختاره ابن عطية . ورواه الإمام أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم القشيري ، واختاره المصنف فقال : ومثل هذا الكلام محدود عند أئمة الدين ؛ لأن القراءات التي قرأ بها أئمة الفراء ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم وتواتراً يعرفه أهل الصنعة ؛ وإذا ثبت شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم فمن رد ذلك فقد رد على النبي صلى الله عليه وسلم ، واستفح ما قرأ به . وهذا مقام محذور ولا يخلو فيه أئمة اللغة والنحو ؛ فإن للمرية نُتْلَقُ من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يشك أحد في فصاحته . وأما ما ذكر في الحديث فيه نظر ؛ لأنه عليه السلام قال لأبي السَّريَّة : " وأبيك لو طلعت في حاصره " . ثم انتهى إسناده في الحليف بنير الله ، وهذا توسل إلى التبرع بالزح فلا ينهى فيه . قال القشيري : وقد قيل هذا إقسام بالزح ، أي أقوال الله وحق الزح ؛ كما يقول : ائمنل كذا وحق أبيك . وقد جاء في التبريل : « والتعجب ، والعلو ، والثين ، لمرسك » وهذا تكلف .

قلت : لا تكلف فيه ؛ فإنه لا يبعد أن يكون « والأربحام » من هذا القليل ، فيكون قسم كما أقسم بخلوقاته الذالة على وحدانيته وقدرته تأكيداً لما حتى قرن بها بنفسه . والله أعلم .

(١) راجع صحيح مسلم كتاب الزكاة . (٢) في تهذيب التهذيب : « أبو الفراء الدار من أبيه من النبي صلى الله عليه وسلم " لو طلعت في غلظها لأبراك " » .

وَقَدْ أَنْ يُقَسِّمَ بِمَا شَاءَ وَيُعْجِ مَا شَاءَ ، فَلَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ قَسْمًا . وَالْعَرَبُ تَقْسِمُ بِالرَّحِمِ . وَبَصَحَ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ مَرَادَةً لَخَذَتْهَا كَمَا خَذَتْهَا فِي قَوْلِهِ :

مَشَائِمُ لَبَسُوا مُصْلِعِينَ عَشِيرَةً • وَلَا نَاصِبَ إِلَّا بَيْنَ عَرَائِبِهَا  
بَغْزِوَانٍ لَمْ يَنْقُصْ بَاءً • قَالَ ابْنُ الْقَتَّانِ أَبُو عَبْدِ سَعِيدٍ بَنَ الْمُبَارَكِ : وَالْبَكْرِيُّ يُبَيِّنُ عَطْفَ الظَّاهِرِ عَلَى الْخَيْرِ وَلَا يَجْعَلُ مِنْهُ • وَمِنْهُ قَوْلُهُ :

أَبَاكَ أَيُّهُ فِي أَوْ مُصَدِّرٍ • مِنْ حُسْرِ الْجَلَّةِ جَانِبُ حَشَوْرٍ<sup>(١)</sup>

ومنه :

• فَاذْهَبْ فَإِنَّكَ وَالْأَيَّامُ مِنْ عَجَبٍ •

وقال آخر :

• وَمَا بَيْنَهَا وَالْكَتَبِ غَوُطٌ قَتَائِفٌ •

وقال آخر :

• فَسَبَّكَ وَالضَّمْلِكِ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ •

وقول الآخر :

وَقَدْ رَامَ آفَاقَ السَّمَاءِ فَلَمْ يَجِدْ • لَهُ مَصْعَدًا فِيهَا وَلَا الْأَرْضُ مَقْعَدًا

وقال الآخر :

مَا إِنْ تَبَا وَلَا الْأُمُورُ مِنْ تَلَفٍ • مَا حُجَّ مِنْ أَمْرِ غِيَةٍ وَقَسَا

وقال آخر :

أَمْرٌ عَلَى الْحَكِيمَةِ لَسْتُ أَدْرِي • أَحْسَنِي كَانَ فِيهَا أَمْ سَوَاءًا

« فسواها » مجرور الموضع بـ « وعلى هذا حل بعضهم قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشًا وَمَنْ لَسَمَ لَهُ يَبَازِغِينَ » تعطف على الكفاف والميم . وقرأ عبد الله بن زيد « وَالْأَرْحَامُ »

(١) أَبَاكَ : مثل رَيْكَ . وَالْأَيَّامُ : الدهاء . قَالَ : أَيُّهُ بِالْإِيمِلِ إِذَا صَحَّتْ بِهَا . وَالْمَصْدَرُ : التَّشْدِيدُ الْمَصْدَرُ . وَالْجَانِبُ : تَلَفِيطٌ . وَالْحَشَوْرُ : الْكَفَيْفُ . وَالْبَاءُ : الْهَاءُ . وَاسْتَعْدَا جَلِيلٌ . وَالتَّامِدُ فِي هَلَفٍ « الْحَشَوْرُ » عَلَى الْمَفْصَلِ الْخَيْرِ دُونَ إِجَادَةِ الْجَارِ .

بالرفع على الاشتداد، والخبر مقدر هديره : والأرحامُ أهلُ أن تُوصَلَ . ويحتمل أن يكون إضرأء؛ لأن من العرب من يرفع المُتَرَى . وأشد :

إن قومًا منهم عُمرٌ وأشباء . \* عُمرٌ ومنهم السَّفاحُ  
بلجديرون بالفتح إذا قا . أي أخو الوحدة السَّفاحُ اللامع

وقد قيل . إن « والأرحام » ما نصب عطف على موضع به ؛ لأن موضعه نصب ؛  
وسه قوله :

• فَلَسَّ بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَيْدِثِ<sup>(١)</sup> •

وكانوا يقولون : أنشدك بالله والزَّحَمَ . ولا يظهر أنه نصب بإضمار قيل كما ذكرنا .

الثالثة - آتفت الملة على أن صلة الزَّحَمِ واجبة وإن قطعتها عزمة . وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأسماء وقد سأله : "صلي أمك" فأمرها بصلتها وهي كاترة . فلما كيدما دخل الفضل في صلة الكافر، حتى آتته الحلال بأبي حنيفة وأصحابه فقالوا بتوارث ذوى الأرحام إن لم يكن عصبه ولا فرضٌ مسمى ، ويتقون على من أشترلهم من ذوى زحمتهم لحُرمة الزَّحَمِ . وعَضِدُوا ذلك بما رواه أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ مَلَكَ ذَا رَحِمٍ عَرَّمَهُ نَهْرٌ" ، وهو قول أكثر أهل العلم . روى ذلك عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعبد الله بن مسعود، ولا يُعرف لما يخالف من الصحابة . وهو قول الحسن البصري وجابر بن زيد وعطاء والشَّعْبِيّ والزُّهْرِيُّ ، وإليه ذهب الثَّوْرِيُّ وأحمد وإسحاق . ولعلنا نأتي في ذلك ثلاثة أسئلة : الأول - أنه مخصوص بالأباء والأجداد . الثاني - الجناحان يعني الإخوة . الثالث - كقول أبي حنيفة . وقال الشافعي : لا يمتنع عليه إلا أولاده وأبناؤه وأمهاته ، ولا يمتنع عليه إخوته ولا أحد من ذوى قرابته ونسبه . والصحيح الأول للحديث الذي ذكرناه وأخرجه الترمذي والشافعي وأحسن طرقه رواية الشافعي له ؛ رواء من حديث صفرة عن صفيان عن عبد الله بن دينار عن أبي عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه

(١) هذا مجزئ لغوية الأسدي ، وصدره : • حاوى إنا بشر ذميج •

أراد حاوية بن أبي صفيان . شكايته يسود عماله . وجميع : سهل وأدنى .



وسلم : « بَيْنَ مَلِكٍ فَارِجٍ مَحْرَمٍ فَقَدْ عَقِيَ عَلَيْهِ » : وهو حديث ثابت يَتَقَلُّ الْمَدْلُ عَنْ الْمَدْلِ ، ولم يَحْدِثْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْأَتَمَةِ بِطَلْعِ تَرْجِيحِ تَرْكِهِ . غيرَ أَنَّ النَّسَائِيَّ قَالَ فِي آخِرِهِ : هَذَا حَدِيثٌ مُتَكَوَّنٌ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : تَمَزَّجَ بِهِ خَمْرَةٌ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمُشْكِرِ وَالشَّاذِ فِي أَصْلَاحِ الْحَدِيثِ . وَخَمْرَةٌ مَدْلٌ خَمْرٌ ، وَأَيْتَرَادُ الْخَمْرَةِ بِالْحَدِيثِ لَا يَضُرُّهُ . وَانْهَ أَهْلُ .

الرابعة — واختلفوا في هذا الباب في ذَوِي الْحَارِجِ مِنَ الرِّضَاعَةِ . فَقَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ : لَا يَدْخُلُونَ فِي مَقْصُودِ الْحَدِيثِ . وَقَالَ شُرَيْكُ الْقَاضِي بِمَقْصِدِهِمْ . وَذَهَبَ أَهْلُ النَّظَامِ وَبَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَى أَنَّ الْأَبَ لَا يَتَقَيُّ عَلَى الْإِبْنِ إِذَا مَلَكَ ، وَأَحْتَجَّوا بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَا يَتَقَرَّى وَلَدًا وَالْأَبُ إِلَّا أَنْ يَحْمِدَهُ عَمَلُكَ فَيَشْتَرِيهِ فَيَعْتَقَهُ » . قَالُوا : فَلَنَا حَقُّ الشِّرَاءِ قَدْ ثَبَتَ لِلْمَلِكِ ، وَلِصَاحِبِ الْمَلِكِ الْقَصْرُ . وَهَذَا جَهْلٌ مِنْهُمْ بِمَقَاصِدِ الشَّرْعِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : « وَإِلَى الْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » قَدْ فُتِيَ بَيْنَ عِبَادَتِهِ وَبَيْنَ الْإِحْسَانِ لِلْوَالِدَيْنِ فِي الرَّجُوبِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْإِحْسَانِ أَنْ يَتَقَيَّ وَالِدُهُ فِي مِلْكِهِ وَتَحْتَ سُلْطَانِهِ ، فَإِذَا حُجِبَ عَلَيْهِ حَقُّهُ إِنَّمَا لِأَجْلِ الْمَلِكِ عَمَلًا بِالْحَدِيثِ « فَيَشْتَرِيهِ فَيَعْتَقَهُ » ، أَوْ لِأَجْلِ الْإِحْسَانِ عَمَلًا بِالْآيَةِ . وَمَعْنَى الْحَدِيثِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْوَلَدَ لَا تَسْبَبُ إِلَى عِتْقِ أَبِيهِ بِاشْتِرَائِهِ نَسَبَ الشَّرْعِ الْمَقِيَّ إِلَيْهِ نِسَبَةَ الْإِقْبَاعِ مِنْهُ . وَأَمَّا اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِيمَنْ يَتَقَيُّ بِالْمَلِكِ فَوَيْسُهُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَعْنَى الْكَلْبِ وَالنَّسَبِ ، وَهِيَ الثَّانِي الْخَلْقُ الْقَرَابَةُ الْقَرِيبَةُ الْمُحْزَمَةُ بِالْأَبِ لِلذَّكَورِ فِي الْحَدِيثِ ، وَلَا أَقْرَبَ لِلرَّجُلِ مِنْ أَبِيهِ فَيَحْمِلُ عَلَى الْأَبِ ، وَالْأَخْ يُخَارِبُهُ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ يُدْبِلُ بِالْأَوَّلَةِ ، فَانْه يَقُولُ : إِنَّا آبَنَ أَبِيهِ . وَإِنَّمَا الْقَوْلُ الثَّلَاثُ فَتَمَلَّكْهُ حَدِيثُ خَمْرَةٍ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ . وَانْه أَهْلُ .

الخامسة — قوله تعالى : ( وَالْأَرْحَامَ ) الرَّحِمُ أَسْمُ لِكَلْفَةِ الْأَقْرَابِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ ابْتِحْرَامِ وَغَيْرِهِ . وَأَبُو حَنِيفَةَ يَتَبَرَّكُ الرَّحِمَ الْمُحْرَمَ فِي مَنَعِ الرَّجُوعِ فِي الْمَهْبَةِ ، وَيُحَرِّزُ الرَّجُوعَ فِي حَقِّ بَنِي الْأَعْمَامِ مَعَ أَنَّ الْقَطِيعَةَ مَوْجُودَةٌ وَالْقَرَابَةُ حَاصِلَةٌ ، وَلِذَا تَلَقَّى بِهَا الْإِرْثُ وَالْوَلَايَةُ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَحْكَامِ . فَاعْتَبَارُ الْمُحْرَمِ زِيَادَةً عَلَى نَصِّ الْكَلْبِ مِنْ غَيْرِ مُسْتَنَدٍ . وَهُمْ يَرَوْنَ ذَلِكَ نَسَبًا ، سِمَاءً وَفِيهِ إِشَارَةٌ لِلِلَّحْلِ بِالْقَطِيعَةِ ، وَقَدْ جُوزَ مَا فِي حَقِّ بَنِي الْأَعْمَامِ وَالْأَخْوَالِ وَالْخَالَاتِ . وَانْه أَهْلُ .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمٌ رَقِيبًا ﴾ أي جليلاً ، عن ابن عباس  
وجاهد ، ابن زيد : عليا ، وقيل : « رقيباً » حافظاً ، قيل بمعنى فاعل ، فالزبيب من  
صفات الله تعالى ، الزبيب الحافظ والمُنْتَظَرُ ، يقول : رَقِيتْ أَرْقُبُ رَقِبةً وَرَقِيبَاتاً إِذَا اسْتَظَرْتَنَّهُ  
وَالْمَرْقَبُ : المكان العالي المشرف ، يقف عليه الزبيب . والزبيب : السهم الثالث من السبعة  
التي لما أوصياء .<sup>(١)</sup> ويقال : إن الزبيب ضرب من الجليات ، فهو لفظ مشترك . والله أعلم .

قوله تعالى : وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوهَا خَلِيبًا بِالْخَلِيبِ  
وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ خُورًا كَبِيرًا ﴿١١﴾  
فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ وأراد باليتامى الذين كانوا إيتاماً ،  
كقوله : « فَأَتَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ » ولا يبرع السجود ، فكذلك لا يتم مع البلوغ .  
وكان يقال لليتي صلى الله عليه وسلم : « يَتِيمٌ أَبِي طَالِبٍ » استصحباً لما كان . « وأتوا »  
أي أعطوا . والإيتاء الإعطاء . ولفلان أئو ، أي عطاه . أبو زيد : أئوت الرجل أئوته إئادةً ،  
وجز الرثوة . واليتم من لم يبلغ الحلم ، وقد تقدم في « البقرة » مستوفى . وهذه الآية  
خطابٌ للأولياء والأوصياء . نزلت في قول مُقَاتِلٍ وَالْكَلْبِيِّ فِي رَجُلٍ مِنْ غَطَفَانَ عَنْده مَالٌ  
كثير لا ين أخ له يَتِيمٌ ، فلما بلغ اليتمُ طلب المال فتمه عنه ، فَنَزَلَتْ فَقَالَ الْعَم : « مَوَدَّ بَاقِهِ  
مِنَ الْمُحِبِّ الْكَبِيرِ ! » ورد للمال . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يُوَقِّحْ تَمِةً  
وربح به حكماً فإنه يحل داره يعني جثته » . فلما قبض الفتى للمال آفته في سبيل الله ، فقال  
عليه السلام : « تَبَّتْ الْجُرُومُ وَبَقِيَ الْيَزُورُ » . قيل : كيف يا رسول الله ؟ فقال : « بَيَّتَ  
الْأَجْرُ لِلْعَلَامِ وَبَقِيَ الْيَزُورُ عَلَى وَالِدِهِ » لأنه كان مشركاً .

(١) دم : الله ، التوام ، الزبيب ، المجلس ، الفخر ، السيل . راجع ج ٣ ص ٥٨ طبع أول وثانية .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٤ طبع ثانية . (٣) المحرب : الماتم .

الثانية - وإتاء اليتامى أموالهم يكون بوجهين : أحدهما - إجره الطعام والكسوة .  
 مادامت الولاية إذ لا يمكن إلا ذلك لمن لا يستحق الأخذ الكفى والاستبداد كالصغير والسفيه  
 الكبير . الثاني - الإتاء بالتكفل وإسلام المال إليه ، وذلك عند الإيتاء والإرشاد ،  
 وتكون تسميته مجازاً ، المعنى : الذي كان يتيماً ، وهو استصحاب الأسم ، كقوله تعالى : « فَأَلْفَيَّ  
 السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ » أى الذين كانوا سحرة . وكأنت يقال للتي صلى الله عليه وسلم : « يتيم  
 أبى طالب » ، فإذا تحقق الولي - رشده حرم عليه إسلاك ماله عنه وكان عاصياً . وقال أبو حنيفة :  
 إذا بلغ خمساً وعشرين سنة أعطى ماله كله على كل حال ، لأنه يصير جذاً .

قلت : لما لم يذكر الله تعالى في هذه الآية إيتاء الرشد وذكره في قوله تعالى :  
 « وَآتُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » . قال  
 أبو بكر الرازي الحنفى : في أحكام القرآن : لما لم يُقيد الرشد في وضع وقيد في موضع وجب  
 استعملها ، فأقول : إذا بلغ خمساً وعشرين سنة وهو سفيه لم يؤنس منه الرشد وجب دفع  
 المال إليه ، وإن كان دون ذلك لم يجب ، عملاً بالآيتين . وقال أبو حنيفة : لما بلغ أشده  
 وصار يصلح أن يكون جذاً فإذا صار يصلح أن يكون جذاً فكيف يصلح إعطاؤه المال بطلا  
 اليم وباسم اليم ؟ وهل ذلك إلا في غاية البعد . قال ابن العربي : وهذا باطل لا وجه له ؛  
 لا سيما على أصله الذي يرى المتقدرات لا تثبت قياساً وإنما تؤخذ من جهة النص ، وليس  
 في هذه المسألة . وسياق ما للعلماء في الخبر إن شاء الله تعالى .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَلَا تَبْذُلُوا أَنْفُسَكُمْ بِالطَّيِّبِ ) أى لا تبتذلوا الشاة  
 السنية من مال اليم بالمزيلة ، ولا التوهم الطيب بالزف . وكانوا في الجاهلية لعدم الدين  
 لا يخرجون عن أموال اليتامى : فكانوا يأخذون الطيب والجيد من أموال اليتامى ويبتلون  
 بالردى من أموالهم ، ويقولون : آسَمُ بِأَسَمِ رَأْسٍ بِرَأْسٍ فنهام الله عن ذلك . هذا قول  
 سعيد بن المسيب وزهيرى وثعلب ونضلة وهو ظاهر الآية . وقيل : المعنى لا تأكلوا  
 أموال اليتامى وهي عزمة خبيثة وندبة الطيب وهو الحليم . وقال مجاهد وأبو صالح وإباض :  
 لا تتعجلوا أكل الحبيب من أموالهم وتدعوا انتظار الترزق الحلال من الله . وقال ابن زيد :

كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر الميراث . عطاء : لا ترجع على  
يقيمك الذى عندك وهو غرض خفي . وهذان القولان خارجان عن ظاهر الآية ؛ فإنه يقال :  
تبدل الشيء بالشيء أى أخذه مكانه . ومنه البدل .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ) قال مجاهد : هذه الآية  
ناهية عن الخلط في الإحراق ؛ فإن العرب كانت تخلط فقهها بنفقة إيتائها فتهوا عن ذلك ،  
ثم نسخ بقوله « وَإِنْ تَخَالَطَوْمْ فَأَخَوانُكُمْ » . وقال ابن قزوك عن الحسن : تأول الناس في هذه  
الآية النهى عن الخلط فأجنبوه من قبل أنفسهم تخفف عنهم في آية البقرة . وقالت طائفة  
من التابعين : إن « إله » بمعنى مع ؛ كقوله تعالى « مَنْ أَصْبَارِي إِلَى آفِهِ » . وأشد الغيبي :  
يسدون أبواب القباب بضئير . إلى عُنْ سُتْرَهَاتِ الْأَوَامِرِ

وليس يبيد . وقال الحذاق : « إله » على بابها وهى تتضمن الإضافة ، أى لا تضيقوا  
أموالكم وتضموها إلى أموالكم في الأكل . فتهوا أن يتفقدوا أموال البناى كأموالهم فيفسدوا  
عليها بالأكل والانتفاع .

الخامسة - قوله تعالى : ( إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ) « إنه » أى الأكل . « كان حوبا  
كبيرا » أى إنما كبرا ؛ عن ابن عباس والحسن وغيرهما . يقال : حاب الرجل يحوب حوبا  
إذا اثم . وأصله الجرجل ؛ فسمي الإثم حوبا لأنه يزجره وبه . ويقال في الدعاء : اللَّهُمَّ  
أَغْفِرْ حَوْبِي ؛ أى ائمني . والحوبة أيضا الحسابة . ومنه في الدعاء : إليك أرفع حَوْبِي ؛  
أى حاجتي . والحوب الوحشة ؛ ومنه قوله عليه السلام لأبي أيوب : « إن طلاق أم أيوب  
لحوب » . وفيه ثلاث لئلت « حوبا » بضم الحاء وهى قرارة العامة ولغة أهل الحجاز . وقرا  
الحسن « حوبا » بفتح الحاء . وقال الأخفش : وهى لفظة عجم . ومقابل : لفظة الحبش .

(١) آية ٢٢٠ من ٣٢ طعة أول أو ثالثة . (٢) لبيت لينة بن الحزب يصف الحبل ،

يريد شيلا وبيت بانثيم . والذين : كيف سترت بها الحبل من الزرع والورد . والأوامر : الأوامر والأوامر  
واحداً امرأة . وهو حيل تنهى المرأة في حبسها . (عن اللسان مادة أمر) .

والحُوب للمصدر، وكذلك الحَيَاة، والحُوب الاسم. وقرأ آتِي بن كعب «حايًا» على المصدر مثل القَال. ويعوز أن يكون اسمًا مثل الزاد. والحُوب (بهمزة بعد الواو): المكان الواسع. والحُوب ماء أيضًا. وقال: أَلْحَقَ اللهُ بِهِ الْحَوْبَةَ، أى المسكنة والحاجة؛ ومنه قولهم: بات بحِبة سُرَّة. وأصل الياء الواو. وتحوب فلان أى تعبد وإلى الحُوب عن نفسه. والتحوب أيضا التحزن. وهو أيضا الصلاح الشديد، كالزير. وفلان يحُوب من كذا أى يتوَجع. قال طُفَيْل:

فَدُرُّوْا كَمَا دُرُّنَا غَدَةً مَحْجِرٍ <sup>(١)</sup> مِنْ تَيْسِطٍ فِي أَكْبَدِنَا وَالتَّحُوبِ

قوله تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْتَيْنِ فَاذْكُرُوا مَا طَلَبَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبْعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدَقُّ أَلَّا تَعْدِلُوا ②

فيه أربع عشرة مسألة:

الأول — قوله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ) شرط، وجوابه «فَاذْكُرُوا». أى إن خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا في مهورهن وفي النفقة طهين (فَاذْكُرُوا مَا طَلَبَ لَكُمْ) أى فبرهن. وروى الأئمة واللفظ لمسلم عن عروة بن الزبير عن عائشة في قوله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْتَيْنِ فَاذْكُرُوا مَا طَلَبَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبْعٍ) قالت: يابن أختي هي البتمة تكون في حبر ولها تشاركه في ماله فيُحببه مالهًا وجمالًا فيريد ولها أن يتزوجها من غير أن يُحِيط في صداقتها بغيرها مثل ما يعطيه غيره فتهوا أن يتكهنن أن أَلَّا يُعْطِزَ المَن ويُلْقُوا مِن أَعْل سَتَرٍ من الصداق وأسرارًا أن يتكهنوا ما طاب لهم من النساء سواهن. وذكر الحديث. قال ابن خُوَيْرِمَتَداد: ولهذا قلنا إنه يجوز أن يشتري الوصي من مال اليتيم لنفسه، ويبيع من نفسه من غير عاتاة. وللكلام النظر في ما اشتريه لغيره أو باع منها. والسلطان النظر فيما يفعله

(١) محبر اكلمه - (٢) (٣) اسم سورج -

الوصى من ذلك . فأنما الأب ليس لأحمد عليه نظراً لم تظهر عليه العناية فيعرض عليه  
السلطان حينئذ . وقد مضى في «البقرة» القول في هذا . وقال الضمك والحسن وغيرهما : إن  
الآية ناسخة لما كان في الجاهلية وفي أول الإسلام ؛ من أن الرجل أن يزوج من الحرائر منشاء ،  
فتصر في الآية على أربع . وقال ابن عباس وابن جبير وغيرهما : المسمى وإن ختمت ألا تقبضوا  
في النبي كذلك خالفوا في النساء ؛ لأنهم كانوا يتزوجون في النساء ، ولا يتزوجون في النساء .  
و «ختمت» من الأضداد ؛ فإنه يكون الخوف منه معلوم الوقوع ، وقد يكون مظلوماً ؛ فلذلك  
اختلف العلماء في تفسير هذا الخوف . فقال أبو عبيدة : «ختمت» بمعنى أختتم . وقال آخرون :  
«ختمت» ظنتم . قال ابن عطية : وهذا الذي اختاره الحنذاق ، وأنه على يابه من الظن  
لأن المؤمنين . التمدد من قلب على ظنه التقصير في القسط للتيمة فيعدل عنها ، و «تقسطوا»  
منه تدلوا . يقال : أقسط الرجل إذا عدل . وقسط إذا جار وعظم صاحبه . قال الله تعالى :  
«وَأَمَّا الْقَائِلُونَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا» . يعني الجاثرون . وقال عليه السلام : «المقسطون  
في الدين على منابر من نوريوم القيامة» . يعني المادلين . وقرأ ابن عباس والتخمي «تقسطوا»  
بفتح التاء من قسط على تخدير زيادة «لا» ؛ كأنه قال وإن ختمت أن تجوروا .

الثانية - قوله تعالى : (فَاتَّقُوا مَا طَافَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) إن قيل : كيف جاءت «ما»  
للآمين وإنما أصلها لما لا يسل ؛ فنه أجوبة خمسة : الأول - أن «من» و «ما» قد يتمايان ؛  
قال الله تعالى : «وَالنِّسَاءُ وَمَا بَنَاهَا» أي ومن بناتها . وقال «فَتَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِهِ عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ  
مَنْ يَتَّبِعُ عَلَى رَجُلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ عَلَى أَرْبَعٍ» . فما ههنا لمن يعقل وعن النساء ؛ لقوله بعد ذلك  
«من النساء» ميتا لهم . وقرأ ابن أبي عميلة «من طاب» على ذكر من يعقل . الثاني - قال  
البصريون : «ما» تنوع التعود كما تنوع لما لا يعقل ؛ يقال : ما عندك . فيقال : غريب وكرم .  
فالمتى فانكحوا الطيب من النساء ؛ أي الحلال ، وما حرّمه الله فليس طيب . وفي التزيل  
«وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» فأجابه موسى على وثني ما سأل ؛ وسيأتي . الثالث - حكى بعض

الناس إن «ما» في هذه الآية ظرفية، أي مادمت تستحسنون النكاح . قال ابن خزيمة : وفي هذا الموضع ضعف . جواب رابع - قال الفراء : «فما» ههنا مصدر . وقال التبرجس : «وهذا جيد جداً» لا يصح فأنكحوا الطيبة . قال الجوهري : طالبت الشيء تطيب طيبة وتطايأ . قال علقمة :  
 • كَأَنَّ تَطْيِيبَهَا فِي الْأَقْبِ مَشْمُومٌ •

جواب خامس - وهو أن المراد بما هنا العقد؛ أي فأنكحوا نكاحاً طيباً . وقرئ  
 ابن أبي عمير تَرَدُّ هذه الأقوال الثلاث . وحكى أبو عمرو بن السَّلاء أن أهل مكة إذا سمعوا  
 الرعد قالوا : سبحان ما سبَّح له الرعد . أي سبحان من سبَّح له الرعد ، ومنه قولهم : سبحان  
 ما سحر كُنْنا . أي من سحر كُنْ . وأخفق كل من يُعاني الصلوة على أن قوله تعالى : «وَأَن  
 يَخْتِمُوا الْأَفْئِدَةَ بِآيَاتِنَا» ليس له مفهوم ؛ إذ قد أجمع المسلمون على أن من لم يخف الفسْط  
 في البيت له أن يتكلم أكثر من واحدة ؛ أختين أو ثلاثاً أو أربعاً كما نحن نعلم من أن الآية  
 نزلت جواباً لمن خاف ذلك ، وأن حكماً أهم من ذلك .

الثالثة - تنقح أبو حنيفة هذه الآية في نحو نكاح البتمة قبل البلوغ . وقال : إنما  
 تكون بئمة قبل البلوغ ، وبعد البلوغ هي امرأة مطلقة لا بئمة ؛ بدليل أنه لو أود البتمة  
 لما نهى عن حطها عن صداق مثلها ؛ لأنها تختار ذلك فيجوز لإحاطة . وذهب مالك  
 والشافعي والجمهور من العلماء إلى أن ذلك لا يجوز حتى تبلغ وتنتهر ؛ لقوله تعالى :  
 «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ» والنساء اسم يطلق على الكبار كالرجال في الذكورة ، واسم الرجل  
 لا يتناول الصغير ؛ فكذلك اسم النساء والمرأة لا يتناول الصغيرة . وقد قال : «في يتأني النساء»  
 والمراد به هناك اليتامى هنا ؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها . فقد دخلت اليتيمة الكبيرة  
 في الآية فلا تُرْجى إلا بإذنها ، ولا تُنكح الصغيرة إلا إذا لماء ، فإذا بلغت جاز نكاحها لكن  
 لا تُرْجى إلا بإذنها . كما رواه الثاقفي من حديث محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال :  
 زوجني خال قدامة بن مظعون بنت أختة عثمان بن مظعون فدخلت المغيرة بن شعبه على أمها

خارجها في المال وخطبها إليها، فبرقع شئها للنبي صلى الله عليه وسلم فقال قدامة: يا رسول الله، أبتة أمي وأنا وصي أيتها ولم أقصر بها، زوجتها من قد علمت فضله وقرابته. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنها يتيمة والييمة أولى بأمرها». فبرعت مني وزوجها المغيرة ابن شعبة. قال النازقني: ولم يسمعه محمد بن إسحاق من نافع وإنما سمعه من عمر بن حسين عنه. ورواه ابن أبي ذئب عن عمر بن حسين عن نافع عن عبد الله بن عمر: أنه تزوج بنت خاله عثمان بن مظعون قال: فذهبت أمها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أبتى بترك ذلك. فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يفارقها ففارقها. وقال: «ولا تنكحوا اليتامى حتى تستامروهم فإذا سكتن فهو إذهب». فزوجها بعد عيد الله المغيرة بن شعبة. فهذا رذ ما يقوله أبو حنيفة من أنها إذا بلغت لم تحتج إلى ولي، بناء على أصله في عدم اشتراط الولي في صحة النكاح. وقد مضى في «البقرة» ذكره فلا معنى لقولهم: إن هذا الحديث محمول على غير البالغة لقوله «إلا بإذنها» فإنه كان لا يكون لذكر اليتيم معنى. والله أعلم.

**الرابعة** - وفي تفسير عائشة لآية من الفقهاء ما قال به مالك من صدق المثل، والرد إليه فيما فسد من الصداق ووقع التين في مقدارها، لقولها: بأذن من ستة صداقها. فوجب أن يكون صدق المثل معروفا لكل صنف من الناس على قدر أحوالهم. وقد قال مالك: الناس متاح عرفتم وعرفوا لها. أي صدقات وأكفاه. وسئل مالك عن رجل زوج أخته [غنية] من ابن أخ له فقير فأعترضت أمها فقال: إني لأرى لها في ذلك متكلما. فسرع لها في ذلك الكلام حتى يظهر هو من نظره ما يسقط اعتراض الأم عليه. وروى «لا يرى» زيادة ألف، والأول أصح. وجاز لنفير اليتيمة أن تنكح بأذن من صدق مثلها؛ لأن الآية إنما خرجت في اليتامى. هذا مفهومها وغير اليتيمة بخلافها.

**الخامسة** - فإذا بلغت اليتيمة وأقسط الولي في صداقها جاز له أن يزوجه، ويكون هو النكاح والمنكح على ما فسرته عائشة. وبه قال أبو حنيفة والأوزاعي والثوري وأبو ثور،

(١) راجع ج ٢ من ٧٢ ملحة أول أدبانية . (٢) زيادة من أحكام القرآن لأبي المبرور .



وقاله من التابسين الحسن وربيعة، وهو قول الآيث . وقال زُفر والشافعي : لا يحوزها أن يزوجها إلا بإذن السلطان، أو يزوجها منه ولئى لها هو أقعد بها منه ، أو مثله في العقد؛ وأما أن يتولى طرف العقد بنفسه فيكون نكاحاً منكهما فلا . واحتجوا بأن الولاية شرط من شروط العقد لقوله عليه السلام: "لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل"، فتعديد النكاح والمتكح والشهود واجب؛ فإذا أتحد اثنان منهم سقط واحد من المذكورين . وفي المسألة قول ثالث، وهو أن يجعل أمرها إلى رجل يزوجها منه . روى هذا عن المغيرة بن شعبة، وبه قال أحمد، ذكره ابن المنذر .

السادسة - قوله تعالى : (وَمَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) مناه ما حل لكم؛ من الحسن وآين جبير وغيرهما . واكتفى بذكر من يجوز نكاحه؛ لأن المهرمات من النساء كثير . وقرأ ابن إسحاق والبخاري والبخاري وحزمة «طاب» بالإمالة، وفي مصحف أبي «طيب» بإياء، فهذا دليل الإمالة . «من النساء» دليل على أنه لا يقال نساء إلا بان بلغ الحلم . وواحد للنساء نسوة؛ ولا واحد لنسوة من لفظه، ولكن يقال امرأة .

السابعة - قوله تعالى : (وَمَتْنِي ثَلَاثَةً) وروى «وَبَاعَ» وموضعها من الإعراب نصب على البدل من «ما» وهي نكرة لا تنصرف؛ لأنها معدولة وصفة؛ لذا قال أبو علي، وقال الطبري: هي معارف؛ لأنها لا يدخلها الألف واللام، وهي بمنزلة عمر في التعريف؛ قاله الكوفي، وخطأ الزجاج هذا القول . وقيل : لم ينصرف؛ لأنه معدول عن لفظه ومنه، فأحد معدول عن واحد واحد، ومتني معدولة عن اثنين اثنين، وثلاث معدولة عن ثلاثة ثلاثة، وروى عن أربعة أربعة . وفي كل واحد منها لثتان : مُعَال وَمَقْعَل؛ يقال : أسد ومُسَحَدٌ وشئ ومُتْنِي وثلاث ومَتْنٌ وروى «وَمَتْنٌ» وكذلك إلى عشر وعُشْر . وحكى أبو إسحاق التلمي لغة تالته : أَحَدٌ وَتْنِي وَتَلْتِ وَرُبْعٌ مِثْلُ عَمْرٍ وَزُفَرٌ . وكذلك قال النخعي في هذه الآية . وحكى

(١) أقعد : أقرب إلى الجسد الأكبر .

(٢) العقد (بضم القاف) وضع اليد وضعا : أملك القربة في النسب

المهدوي عن النخعي وابن وثاب « ثلاث وربيع » غير ألف في ربيع ، فهو مقصور من ربيع .  
استخفافا ، كما قال :   
...  
قال النخعي : ولا يراد من هذا البناء على الأربعة إلا ليت جاء عن الكيت :  
ولم يستريشوك حتى رميت \* مت فوق الرجال خصالا عتارا

بني طمنت عشرة . وقال ابن الدعان : وبعضهم يقف على المسموع وهو من أحاد إلى ربيع ولا يعتبر باليت لشذونه . وقال أبو عمرو بن الحاجب : ويقال أحاد وموحد وثناه وثني وثلاث وثملت ورباع وصرع . وهل يقال فيا عدها إلى التسعة أو لا يقال ، فيه خلاف أصحها أنه لم يثبت . وقد نص البخاري في صحيحه على ذلك ، وكونه مددولا عن معناه أنه لا يستعمل في موضع تستعمل فيه الأعداد غير المعدلة ، تقول : جاءني اثنان وثلاثة ، ولا يجوز مني ثلاث حتى يتقدم قبله جمع ، مثل جاءني القوم أحاد وثناه وثلاث ورباع من غير تكرار . وهي في موضع الحال هنا وفي الآية ، وتكون صفة . ومثال كون هذه الأعداد صفة يتبين في قوله تعالى : « أُولَىٰ أُحْجِجَةٍ مِّنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ » فهذه صفة للأجنحة نكرة . وقال ساعدة بن جؤية :

ولكننا أهمل يوراد أليسهُ \* ذئابٌ تبتى الناسَ متى وموحدٌ

وأنشد الفراء :

قلنا به من بين متى وموحد \* بأربعة متكم وآخر خامس

نوصف ذئابا وهي نكرة مبتنى وموحد ، وكذلك بيت الفراء ، أي قلنا به ناسا فلا تتصرف إذا هذه الأسماء في معرفة ولا نكرة . وأجاز الكسائي والنزاه صرفة في العدد على أنه نكرة . وزعم الأخفش أنه إن سمي به صرفة في المعرفة والنكرة ، لأنه قد زال عنه العدد .

(١) مرد يجر بالكره حذا : تصد . قول الريل : مردت حركت : أي تصدت فضلك .

(٢) تبتى الناس : ظلم .

الثالثة بسايعهم أن هذا العدد مثنى وثلاث ورباع لا يدل على إباحة تسع كما قاله من  
 بعد فهمنا للحديث والنسبة وأعراض عما كان عليه تناف هذه الأمة، وزعم أن الواو جامعة؛  
 وقصد ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم تكح تسعاً، وجمع بينهما في إحصائه، والذي صار  
 إلى هذه الجملة؛ وقال هذه المقالة الرافضة وبعض أهل الظاهر؛ فعملوا مثنى مثل اثنين،  
 وكذلك ثلاث ورباع. وذهب بعض أهل الظاهر أيضاً إلى أقبح منها، فقالوا بإباحة  
 الجمع بين ثمان عشرة؛ ثمسكاً منه بأن العدد في تلك الصيغة يبعد التكرار والواو للجمع؛ فجعل  
 مثنى يعني اثنين اثنين وكذلك ثلاث ورباع. وهذا كله جهل باللسان والسنة، وخلافة  
 لإجماع الأمة، إذ لم يُسمع عن أحد من الصحابة ولا التابعين أنه جمع في عصمته أكثر من  
 أربع. وأخرج مالك في الموطأ، والنسائي، والدارقطني في سندهما أن النبي صلى الله عليه وسلم  
 قال لثعلبة بن أمية الثقفي: «قد أسلم وتمتعه عشر نسوة: «أخترت منهن أربعا وقاروق سائرهن».  
 وفي كتاب أبي داود عن الحارث بن قيس قال: أسلمت وعندى ثمان نسوة، فذكرت ذلك  
 للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أخترت منهن أربعا». وقال مقاتل: إن قيس بن الحارث  
 كان عنده ثمان نسوة حرائر؛ فلما نزلت الآية أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلق أربعا  
 ويمسك أربعا. وكذا قال: «قيس بن الحارث»، والصواب أن ذلك كان حارث بن قيس  
 الأسدي كما ذكر أبو داود. وكذا روى محمد بن الحسن في كتاب السير الكبير أن ذلك كان حارث  
 ابن قيس، وهو المعروف عند الفقهاء. وأما ما أبيع من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فذلك من  
 خصوصياته؛ على ما يأتي بيانه في «الأحزاب». وأما قولهم: إن الواو جامعة؛ فقد قيل ذلك،  
 لكن الله تعالى خاطب العرب بأفصح اللغات. والعرب لا تدع أن تقول تسعة وتقول اثنين  
 وثلاثة وأربعة. وكذلك تستصح من يقول: أعط فلانا أربعة ستة ثمانية، ولا يقول ثمانية  
 عشر. وإنما الواو في هذا للوضع بدل؛ أي اتكفوا ثلاثا بدلا من مثنى، ورباع بدلا من  
 ثلاث؛ ولذلك عطف بالواو ولم يعطف بأو. ولو جاء بأولحنز ألا يكون لصاحب المثنى  
 ثلاث، ولا لصاحب الثلاث رباع. وأما قولهم: إن مثنى تقتضي اثنين، وثلاث ثلاثة،

ورباع أربعة، فصَحَّحَ بما لا يوافقهم أهل اللسان عليه، وجهالة منهم، وكذلك جهله الآخرون؛ لأنَّ منى تقتضى اثنين اثنين، وثلاث ثلاثة ثلاثة، ورباع أربعة أربعة، ولم يعلموا أن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، وحصر للمدد. ومنى وثلاث ورباع بخلافها. ففى التمدد الممدول عند العرب زيادة معنى ليست فى الأصل؛ وذلك أنها إذا قالت: جاءت الخيل منى، إنما تعنى بذلك اثنين اثنين؛ أى جاءت مزدوجة. قال الجوهري: وكذلك معدول المدد. وقال غيره: فإذا قلت جاءنى قوم منى أو ثلاث أو أحاد أو عشار، فأنما تريد أنهم جاءوك واحدا واحدا، أو اثنين اثنين، أو ثلاثة ثلاثة، أو عشرة عشرة، وليس هذا المعنى فى الأصل؛ لأنك إذا قلت جاءنى قوم ثلاثة ثلاثة، أو قوم عشرة عشرة، فقد حصرت مئة القوم بفوك ثلاثة عشرة. فإذا قلت جاءونى رُباع وثنا فلم تحصر مئتهم. وإنما تريد أنهم جاءوك أربعة أربعة أو اثنين اثنين. وسواء كثر عندكم أو قلَّ فى هذا الباب فقصهم كل صيغة على أقل ما تقتضيه بزعمه تحكّم.

وأما اختلاف علماء المسلمين فى الذى يتزوج خمسة وعنده أربع وهى :

التاسعة - فقال مالك والشافعى : عليه الحد إن كان علما . وبه قال أبو ثور .  
وقال الزهرى : يُرجم إن كان علما ، وإن كان جاهلا أدنى الحدين الذى هو الجلد ، ولما مهرها وُفِرَّقَ بينهما ولا يجتمعان أبدا . وقالت طائفة : لا حدّ عليه فى شيء من ذلك .  
هذا قول الثمان . وقال يسقوب ومحمد : يُحدّ فى ذات المحرم ولا يحدّ فى غير ذلك من النكاح .  
وذلك مثل أن يتزوج بحبيبة أو خمسة فى عُقْدَةٍ أو تزوج معتدة أو تزوج بنير شهود ، أو أمة تزوجها بنير إذن مولاه . وقال أبو ثور : إذا علم أن هذا لا يحمل له يجب أن يُحدّ فيه كله إلا التزوج بنير شهود . وفيه قول ثالث قاله النخعيّ فى الرجل ينكح الخامسة متعمدا قبل أن تنقضى عدة الرابعة من نسائه : جلدًا مائة ولا ينفى . فهذه ثنيتا علمائنا فى الخامسة على ما ذكره ابن المنذر فكيف بما فوقها .

العاشرة — ذكر الزبير بن بكار حديثي إبراهيم الخزازي عن محمد بن معن النفازي قال :  
 أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إن زوجي يصوم  
 النهار ويقوم الليل وأنا أكره أن أشكوه ، وهو يعمل بطاعة الله عز وجل . فقال لها : نعم  
 الزوج زوجك . فجلست تكرر عليه القول وتكرر عليها الجواب . فقال له كعب الأسدي :  
 يا أمير المؤمنين ، هذه المرأة تشكو زوجها في ميعادته إياها عن فراشه . فقال عمر : كما فهمت  
 كلامها فأقض بينهما . فقال كعب : حل زوجها ، فأني به فقال له : إن أمرأك هذه  
 تشكو . قال : أفي طعام أو شراب ؟ قال لا . فقالت للمرأة :

يا أيها القاضي الحكيم رشده • ألقى خليلي من فراشي مسجده  
 زعمه في مضجعي تمسده • فأقض القضاء كعب ولا تردده  
 نهاره وليله ما يرقدده • قلت في أمر النساء أحده

فقال زوجها :

زعمني في فرشها وفي الحمل • أنني أمرؤ أنفعلي ما قد نزل  
 في سورة النمل وفي السبع الطول • وفي كتاب الله تحويف جلال

فقال كعب :

إن لها عليك حقاً يا رجل • نصيبها في أربع لمن عقل  
 • فأعطها ذلك ودع عنك الليل •

ثم قال : إن الله عز وجل قد أحل لك من النساء متى وملاث وزياع ، فك ثلاثه أيام  
 وليلتين تعبد فيهن ربك . فقال عمر : والله ما أدرى من أي أمرئك أعجب ؟ أمن فهمك  
 أم من حكمتك بينهما ؟ أذهب فقد ولّيتك قضاء البصرة . وروى أبو هذبة إبراهيم

(١) الجمل : جامع حجة مختصين ، وهي بيت يزعم للعروس بالجاب والأسرة والسنور .

(٢) السبع الطول من سور القرآن سبع سور وهي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف .  
 واختصوا في السابعة منهم من قال السابعة برأية والأحوال وعددها سورة واحدة ، ومنهم من جعلها سورة بئتين . والطول  
 جمع الطول .

ابن حبة حدثنا أنس بن مالك قال : أتت النبي صلى الله عليه وسلم امرأة تستسدي زوجها ، فقالت : ليس لي ما النساء زوجي يصوم الدهر . قال : « لك يوم وله يوم » فبأنه يوم وقراءة يوم .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ( فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ) قال الضحاك وضعه في الليل والمحبة والجماع والبشرة والقسم بين الزوجات الأربع والثلاث والاثنتين فواحدة . فنع من الزيادة التي تؤدي إلى ترك العدل في القسم وحسن البشارة . وذلك دليل على وجوب ذلك ، والله أعلم . وقرئ بالرفع ، أي فواحدة فيها كفاية أو كافية . وقال الكسائي : فواحدة تمنع . وقرئت بالنصب بإيجاز فعل ، أي فأنكحوا واحدة .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ( أَوْ بَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ) يريد الإماء . وهو عطف على واحدة . أي إن خاف ألا يعدل في واحدة لما ملكت يمينه . وفي هذا دليل على الأحق للملك اليمين في الوطء ولا القسم ، لأن المعنى « فإن خفتم ألا تعدلوا » في القسم « فواحدة » أو ما ملكت أيمانكم « فجعل ملك اليمين كله بمنزلة واحدة فاستثنى بذلك أن يكون للإماء حق في الوطء أو في القسم . إلا أن ملك اليمين في العدل قائم بوجوب حسن الملكة والرفق بالرفيق . واستند تعالى الملك إلى اليمين لأنه صفة مدح ، واليمين مخصوص بالخاصة فتحكمها . ألا ترى أنها المنقصة ، كما قال عليه السلام : « حتى لا تصل شماله ما شفق يمينه » وهي المعاهدة المباحة ، وبها سميت الآية يميناً ، وهي المنقبة لآيات المبدأ ، كما قال :

إذا مارأية رُفعت لحدٍ • نقاهها عرابة باليمين

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ( ذَلِكَ أدنى أَلَّا تَمُوتُوا ) أي ذلك أقرب إلى ألا تموتوا عن الحق وتجوروا ، عن ابن عباس وعاصم وغيرهما . يقال : حال الرجل يموت إذا جار ومال . ومنه قولهم : حال السهم عن الهدف مال عنه . قال ابن عمر : إنه لعائل الجبل والوزن ، قال الشاعر :

(١) ليت التباخ ، يمدح عرابة الأوس . وله :

وأبت عرابة الأوس يسو • ال الخيرات مقطع القرن

عليه السلام : « قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَطَرُّهُ » . قَوْلُ الرَّسُولِ وَعَالِيهِ الْوِزِينَ :

أَيُّ نَجَارَةٍ ؟ وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ :

يَعْنِيَانِ صِدْقَ لَا يُقَالُ شَيْئَةٌ . لَهُ شَاهِدٌ مِنْ قِسْمِهِ فَيْرُ مَائِلٍ

يُرِيدُ فَيْرُ مَائِلٍ . وَقَالَ آخَرُ :

ثَلَاثَةُ أَهْمِينَ وَثَلَاثُ ثَوْدٍ . قَسَدَ مَالِ الزَّمَانِ عَلَى عِيَالٍ

أَيُّ جَارٍ وَمَالٍ . وَمَالُ الرَّجُلِ يُعِيلُ إِذَا اكْتَفَرَ قَصَارَ عَالَةٍ . وَمَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَإِنْ نَحْنُمْ

عِيَالَهُ » . وَمَنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

وَمَا يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِيَابُهُ . وَمَا يَدْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يُعِيلُ

وَعُو مَائِلٌ وَقَوْمُ عِيَالَةٍ . وَالْعِيَالَةُ وَالْعَالَةُ الْفَاقَةُ . وَعَالِي الشَّيْءِ يُعُولِي إِذَا غَلِيَتْهُ وَقُلْتُ مَلَّ .

وَمَالُ الْأَمْرِ اسْتَدْرَجَتْهُ وَخَافَتْ . وَقَالَ الثَّانِي : « أَلَا تَمُوتُوا » أَلَا تَكْثُرُ عِيَالُكُمْ . قَالَ الثَّلَاثِي :

وَمَا قَالَ هَذَا فِيرُهُ ، وَإِنَّمَا يَقَالُ أَعَالُ يُعِيلُ إِذَا كَثُرَ عِيَالُهُ . وَزَعَمَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ أَنَّ هَذَا عَلَى

سَبْعَةِ مَحَانٍ لَا تَمُنُّ لَهَا ، يَقَالُ : مَالُ مَالٍ ، الثَّانِي زَادَ ، الثَّالِثُ جَارٌ ، الرَّابِعُ اكْتَفَرَ ، الْخَامِسُ

أَتَقَلُّ ، حِكَاةُ ابْنِ دُرَيْدٍ . قَالَتْ الْخَلِيسَاءُ :

• وَيَكُنَى الْعَشِيرَةُ مَا عَالِمَا •

السَّادِسُ مَالٌ قَامَ بِمُتُونَةِ الْعِيَالِ ؛ وَمَنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَأَبْدَأُ بِمَنْ يُعُولُ » . السَّابِعُ مَالٌ

غَلِبَ ؛ وَمَنْهُ عِيلٌ صَبْرُهُ . أَيْ غَلِبَ . وَيُقَالُ : أَعَالُ الرَّجُلِ كَثُرَ عِيَالُهُ . وَأَمَّا مَالٌ بِمَعْنَى كَثُرَ

عِيَالِهِ فَلَا يَصِحُّ .

(١) فِي السَّانِ مَادَّةُ عُولَ : إِذَا تَبَا ... الخ . (٢) لَيْتَ لَهْلُيَةٍ . وَفِيهِ شَاهِدٌ آخَرُ ، وَهُوَ تَذَكُّرُ

الثَّلَاثَةِ وَإِنْ كَانَتْ لِنَفْسٍ مَوْتَةً ؛ لِأَنَّهُمْ حَمَلُوا عَلَى مَعْنَى النَّفْسِ وَهُوَ تَذَكُّرُ . وَالْقَوْدُ مِنَ الْإِثْلِ ؛ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْفَتْحِ .

وَالثَّلَاثُ ثَوْدٌ ؛ ثَلَاثُ أَثَوْدٍ كَانَتْ يَتَوَقَّعُ أَلْبَانُهَا وَتَقْرَمُ بِهَا عَلَى عِيَالِهِ فَتَلْتَلِيهِ . وَابْتَدَأَ اسْمُ وَاحِدٍ مَوْتُهُ مَقُولٌ مِنْ

الْمَصْدُوقِ عَلَى الْجَمْعِ فَيُضَافُ الْفَعْدُ إِلَيْهِ كَمَا يَضَافُ إِلَى الْجَمْعِ . (مَنْ شَرَحَ التَّوَاهِدَ) .

(٣) لَيْتَ لِأَجِبَةِ ابْنِ بُلْعَجٍ . وَبَعْدَهُ : وَمَا تَكُونُ إِذَا أَزْمَتْ أَمْرًا • بِأَيِّ الْأَرْضِ يَتَوَكَّلُ الْقَبِيلُ بِأَيِّ الْأَرْضِ يَتَوَكَّلُ الْقَبِيلُ

قلت : أما قول الثعلبي : « ما قاله غيره » فقد استند الثعلبي في سنته عن زيد بن أسلم ، وهو قول جابر بن زيد ، فهذا إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم فقد نبهنا الشافعي إليه ؛ وأما ما ذكره ابن العربي من الخصر وعدم الصحة فلا يصح . وقد ذكرنا : قال الأمر أشد وثاقم ، حكاه الجوهري . وقال المروزي في غررته : « وقال أبو بكر : يقال عال الرجل في الأرض يعيل فيها إذا ضرب فيها . وقال الأحمر : يقال عالى الشيء يعلى عيلاً وميلاً إذا عجزك » . وأما عال كثر عياله فذكره الكسائي وأبو عمر الدويري وابن الأعرابي . قال الكسائي أبو الحسن مل بن حمزة : العرب تقول عال يعول وأعال يعيل أى كثر عياله . وقال أبو حاتم : كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا ، ولعله لئس . قال الثعلبي المفسر : قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب : سألت أبا عمر الدويري عن هذا وكان إماماً في اللغة غير مدائع فقال : هي لغة حمير ، وأنشد :

وإن الموت يأخذ كل حي • بلا شك وإن استنى وعالا

يعنى وإن كثرت ماشيته وعباله . وقال أبو عمرو بن السلاء : لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن أخذ عل لاحق لحناً . وقرأ طلحة بن مصرف « ألا تميّلوا » وهي حجة الشافعي رضى الله عنه . قال ابن عطية : وقدح الزجاج وغيره في تأويل عال من العيال بأن قال : إن الله تعالى قد أباح كثرة السراى وفي ذلك تكثير العيال ، فكيف يكون أقرب إلى ألا يكثر العيال . وهذا القدح غير صحيح ؛ لأن السراى إنما هي مال يُصرف فيه بالبيع ، وإنما القادح الحرائر ذوات الحقوق الواجبة . وحكى ابن الأعرابي أن العرب تقول : عال الرجل إذا كثر عياله .

الرابعة عشرة — تعاقب هذه الآية من أجاز للملوك أن يتزوج أربعا ، لأن الله تعالى قال : « قَاتِبْكُمَا مَا طَافَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » يعنى ما حل « مَتْنِي وَبَلَّات وَدَبَّاع » ولم يخص مبدا من حر . وهو قول داود والطبري ، وهو المشهور عن مالك وتحصيل مذهبه على ما في موطنه ، وكذلك روى عنه ابن القاسم وأشهب . وذكر ابن الموزان أن ابن وهب روى عن مالك أن العبد لا يتزوج إلا اثنتين ؛ قال وهو قول الليث . قال أبو عمر : قال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابهما والنورى



والنكاح برأ سعيد إلا يترجح البعد أكثر من اثنين؛ وبه قال أحمد وإسحاق . وروى عن عمر  
ابن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف في البعد لا ينكح أكثر من اثنين .  
ولا أعلم لهم مخالفا من الصحابة . وهو قول الشعبي وعطاء وابن سيرين ، والحسن وإبراهيم .  
والجدة لهذا القول القياس الصحيح على طلاقه واحدة . وكل من قال حله نصف جده الحر  
وطلاقه طليقتان ، وإلاؤه شهران ، ونحو ذلك من أحكامه فغير بعيد أن يقال تناقض في قوله  
« ينكح أربعة » والله أعلم .

قوله تعالى : **وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِن طِبَن لِّكَرَّ عَنْ فَتْنٍ  
مِّنْهُنَّ فَكُلُوهُنَّ حَنِيفًا مَّرْفُوعًا** ①

فيه عشر مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **( وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ )** الصَّدَقَتان جمع ، الواحدة صَدَقَةٌ .  
قال الأخفش : وبنو تميم يقولون صَدَقَةٌ والجمع صَدَقَات ، وإن شئت فقلعت وإن شئت  
أسكنت . قال المازني : يقال صداق المرأة ، ولا يقال بالفتح . وحكى يعقوب وأحمد بن  
يحيى بالفتح عن العباس . والخطاب في هذه الآية للأزواج ؛ قاله ابن عباس وتادة وابن زيد  
وابن جريح . أمرهم الله تعالى أن يتبرعوا بإعطاء المهور بنحلة منهم لأزواجهم . وقيل : الخطاب  
للأولياء ؛ قاله أبو صالح . وكان الولي يأخذ مهر المرأة ولا يعطيها شيئا ؛ فنهوا عن ذلك وأمروا  
أن يدفعوا ذلك إليهن . قال في رواية الكشي : إن أهل الجاهلية كان الولي إذا زوجها  
فإن كانت معه في العشرة لم يعطها من مهرها كثيرا ولا قليلا ، وإن كانت غريبة حلها على  
بغير مالي زوجها ولم يعطيها شيئا غير ذلك البعير ؛ فقل « وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً » .  
وقال المفسر ابن سليمان عن أبيه : زعم حضرمي أن المراد بالآية المتشاغرون الذين كانوا  
يتزوجون أسرا بآخرى ، فأمروا أن يضربوا المهور . والأول أظهر ؛ فإن النكاح واحدة وهي

يحللتها للأزواج فهم المراد؛ لأنه قال: «وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسِطُوا فِي الْبَيْنَاتِ» إلى قوله: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتَيْنِ نَحْلَةً»، وذلك يوجب تاسق الضار وإن يكون الأول فيها هو الآخر؛  
 الثانية - هذه الآية تدل على وجوب المصداق للزوجة، وهو مجمع عليه لا خلاف فيه إلا ما روى عن بعض أهل العلم من أهل العراق أن السيد إذا زوج عبده من أمته أنه لا يجب فيه صداق؛ وليس بشيء لقوله تعالى: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتَيْنِ نَحْلَةً» فهم: وقال: «فَأَنْكِحُوهُنَّ بِأَنْفُسِكُنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ». وأجمع العلماء أيضا أنه لا حد لكثيره، واختلوا في قليله على ما يأتي بيانه في قوله: «وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِطَارًا». وقرأ الجمهور «صَدُقَاتَيْنِ» فتح الصاد وضم الدال. وقرأ قنادة «صَدُقَاتَيْنِ» بضم الصاد وسكون الدال. وقرأ النخعي وابن وثاب بضمهما والتوحيد «صَدُقَتَيْنِ».

الثالثة - قوله تعالى: (نَحْلَةً) النحلة والنحلة، بكسر النون وضمها لنتان. وأصلها من العطاء؛ نَحَلْتُ فلانا شيئا أعطيته. فالصداق عطية من الله تعالى للزوجة. وقيل: «نَحْلَةً» أي عن طيب نفس من الأزواج من غير تنازع. وقال قنادة: معنى «نَحْلَةً» فريضة واجبة. ابن جرير وابن زيد: فريضة مسجلة. قال أبو عبيدة: ولا تكون النحلة إلا مسجلة معلومة. وقال الزبيدي: «نَحْلَةً» تدبثا. والنحلة الديانة والملة. يقال: هذا نحلت أي دبه. وهذا حسن مع كون الخطاب للأولياء الذين كانوا يأخذونه في الجاهلية، حتى قال بعض النساء في زوجها: لا يأخذ الخلوأين من بنتنا. تقول: لا يفعل ما يفعله غيره. فاقترعه الله منهم وأمر به للنساء. و«نَحْلَةً» منصوب على أنها حال من الأزواج بإشمار فعل من لفظها، تشديداً لخلوها من نَحْلَةٍ. وقيل: هي نصب على التفسير. وقيل: هي مصدر على غير المصدر في موضع الحال.

الرابعة - قوله تعالى: (فَإِنْ طَبِقَ لَكُم مِّنْهُنَّ نَفْسٌ) مخاطبة للأزواج، ويدل بمجموعه على أن حبة المرأة صداقها لزوجها بكذا كانت أو ميتا جائزة، وبه قال جمهور الفقهاء. ومنع مالك من حبة الزكرك الصداق لزوجها وجعل ذلك الولي مع أن الملك لها.

دوَّعَمَ الفراء أنه بمطالبة للأولياء ؛ لأنهم كانوا يأخذون الصداق ولا يُسْطَون المرأة منه شيئا ،  
 فلم يَجْعَلْ لهم منه إلا ما طابت به نفس المرأة . والقول الأول أصح ؛ لأنه لم يتقدم للأولياء ذكر ،  
 والصحيح في « منه » حائد عن الصداق . وكذلك قال عكرمة وغيره . وسبب الآية فيما ذكر أن  
 قوماً مخزبوا أن يبيع إليهم شيء مما دفعوه إلى الزوجات فزلزلت « فَإِنْ طِبَنَ لَكُمْ » .

الخامسة - وأخفى العلماء على أن المرأة المالككة لأمر نفسها إذا وهبت صداقها لزوجها  
 فقد ذكَّ طعنا ، ولا رجوع لها فيه . إلا أن شريحاً رأى الرجوع لها فيه ، وأصح بقوله :  
 « فَإِنْ طِبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْ نَفْسِهَا » وإذا كانت طالبة له لم تطب به نفسها . قال ابن العربي :  
 وهذا باطل ، لأنها قد طابت وقد أكل فلا كلام لها ، إذ ليس المراد صورة الأكل وإنما هو  
 كتابة عن الإحلال والاستحلال ، وهذا بين .

السادسة - فإن شرطت عليه عند عقد النكاح أنه لا يتزوج عليها ، وحلت عنه ذلك  
 شيئا من صداقها ، ثم تزوج عليها فلا شيء لها عليه في رواية ابن القاسم ؛ لأنها شرطت عليه  
 مالا يجوز شرطه . كما اشترط أهل بريدة أن تنقها عائشة والولاء لبايعها ، فصَحَّحَ النبي صلى الله  
 عليه وسلم المقد وأبطل الشرط . كذلك ههنا يصح إسقاط بعض الصداق عنه ويبطل  
 ما التزمه . وقال ابن عبد الحكم : إن كان بين من صداقها مثل صداق مثلها أو أكثر لم يرجع  
 عليه بشيء ، وإن كانت وضعت عنه شيئا من صداقها فترزوج عليها وجعت عليه تمام صداق  
 مثلها ؛ لأنه شرط على نفسه بشرط وأخذ عنه عوضا كان لها واجبا أخذه منه ، فوجب عليه  
 الوفاء لقوله عليه السلام : « الْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ » .

السابعة - وفي الآية دليل على أن العتق لا يكون صداقا لأنه ليس بمال ، إذ لا يمكن  
 المرأة هبته ولا الزوج أكله . وبه قال مالك وأبو حنيفة ووُزَّرَ ومحمد والشافعي . وقال أحمد  
 ابن حنبل وإسحاق ويعقوب : يكون صداقا ولا مهر لها غير العتق ؛ على حديث صفية رَوَاهُ  
 (١) بريدة : مولاة عائشة رضي الله عنها كانت لعتبة بن أبي لب . وقيل لبني بن حلال ، فتأثيرهما ثم باعها

فأشترتها عائشة ، وبها الحديث في عائشة أن الولد ابن أخت .

(٢) هي صفية بنت حنن بن أعطب ، سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم .

«دلائمة أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتقها وجعل عتقها صدقاً» فذروني فمن آمن أنه قبله ،  
 ذكروا راوي حديث صفيّة ، وأجاب الأولون بأن قالوا لا حاجة في حديث صفيّة ، لأن النبي  
 صلى الله عليه وسلم كان مخصوصاً في النكاح بأن يتزوج بغير صداق ، وقد أراد زينب حرمت  
 على زيد فدخل عليها بغير ولي ولا صداق . فلا ينبغي الاستدلال بمثل هذا والله أعلم .  
 الثامنة - قوله تعالى : ﴿ نَفْسًا ﴾ قيل : هو منصوب على اليان ، ولا يحيز مسيو به  
 ولا الكوفيون أن يتقدم ما كان منصوباً على اليان ، وأجاز ذلك المازني وأبو العباس المبرد  
 إذا كان العامل فعلاً . وأشد :

• وما كان نفساً بالفراق تطيب •

وفي التزيل « خُشماً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ » فلي هذا يحوز « نَفْسًا تَهْتَكَات . ووجهها حُشِنَتْ » .  
 وقال أصحاب مسيو به : إن « نفساً » منصوبة بإضمار فعل تقديره أعنى نفساً ، وليست  
 منصوبة على التمييز ، وإذا كان هذا فلا حاجة فيه . وقال الزجاج . الرواية :

• وما كان نفسى ... •

وأعنى الجميع على أنه لا يحوز تقديم الميز إذا كان العامل غير متصرف كشرين درهم .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوهُ ﴾ ليس المقصود صورة الأكل ، وإنما المراد به  
 الاستباحة بأى طريق كان ، وهو المعنى بقوله في الآية التى بعدها « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ  
 آلِبَتَائِهِمْ خُلَعًا » . وليس المراد نفس الأكل ؛ إلا أن الأكل لما كان أَوْفَى أنواع التمتع بالمال  
 عُبر عن التصرفات بالأكل . وظاهر قوله تعالى : « إِنَّا نُوَدِّى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاتَّعَوْا  
 إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » يعلم أن صورة البيع غير مقصودة ، وإنما المقصود ما يشغله عن  
 ذكر الله تعالى مثل النكاح وضيره ؛ ولكن ذكر البيع لأنه أهم ما يشتغل به عن ذكر الله تعالى .  
 العاشرة - قوله تعالى : ﴿ هَيْئًا مَرِيئًا ﴾ منصوب على الحال من الماء في « كلوه »  
 . وقيل : نمت لمصدر محذوف ، أى أكلا هينئاً طيب الأتس . هَاءُ الطعام والشراب يهينئ ،

(١) هذا مجزيت لنيل الهدى ، وسدده :

• أتجبر ليل بالفراق حينا •

وما كان هنئاً ، ولقد هنئ ، والمصدر المن . وكل ما لم يأت بمشقة ولا عاء فهو هنئ . وهني  
أسم فاعل من هنئ كطريف من طرف . وهني : هنئاً فهو هني . على قيل كرم . وهنئ في الطعام  
ومرأى على الإتيان ، فلما لم يذكر «هنئ» قلت : «أمياني الطعام بالالف» أي أنهم . قال  
أبو علي : وهذا كما جاء في الحديث «أرجمن ما زورات غير ما جورات» . فقلوا الرول من  
«موزورات» ألقا إتياناً للفظ ما جورات . وقال أبو العباس عن ابن الأعرابي : يقال هني  
وهنئ ومرأى وأمرياني ولا يقال مرئي ، حكاه المروى . وحكى القشيري أنه يقال :  
هنئي ومرئي بالكسر هنيئاً ومرأى ، وهو قليل . وقيل : «هنئاً» لا يتم فيه ،  
و«مرئياً» لا داء فيه . قل كثير :

هنئاً مرئياً غير دله نحاس . ليرة من أعرابنا ما استملت

ودخل رجل على عقيقة وهو يأكل شيئاً وجهته امرأته من مهرها فقال له : كل من الهنيء  
والمرئ . وقيل : الهنيء الطيب المساع الذي لا يتغصه شيء ، والمرئ الحمود العاقبة ،  
الثام المضم الذي لا يضرب ولا يؤذي . يقول لا تخافون في الدنيا به مطالبة ، ولا في الآخرة تبعة .  
يدل عليه ما روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن هذه الآية  
«فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه» قال : إذا جادت لزوجها بالطيبة طائفة غير مكرمة  
لا يقضى به عليكم سلطان ، ولا فإخذكم الله تعالى به في الآخرة . وروى عن علي بن أبي طالب  
رضي الله عنه قال : إذا أشتكى أحدكم شيئاً فليسأل امرأته دراهم من صداقتها ، ثم يشتريه  
عسلاً فيشربه بماء السماء ، فيجمع الله عز وجل له الهنيء والمرئ والماء المبارك . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ  
قِيَسًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥٠﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى - لما أمر الله تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم في قوله «وأتوا اليتامى أموالهم»  
وإرسال الصدقات إلى الزوجات ، بين أن البغية وقير البالغ لا يجوز دفع ماله إليه . فدلّت

الآية قل: ثبوت الوصي والولي والكفيل لا ينتمى، واجمع أهل العلم على أن الوصية إلى المسلم  
للموت التبعة العدل جائزة، واختلفوا في الوصية إلى المرأة الحرة؛ فقال حوام أهل العلم: الوصية  
لها جائزة، وأصحح أحمد بن محمد أوصى إلى حفصة، وروى عن عطاء بن أبي رباح أنه قال  
في رجل أوصى إلى امرأته قال: لا تكون المرأة وصياً؛ فان فعل تحولت إلى رجل من  
قومه، واختلفوا في الوصية إلى العبد؛ فمنه الشافعي وأبو نوح ومحمد ويعقوب، وأجازوه  
مالك والأوزاعي وأبو عبد الحكم، وهو قول النخعي إذا أوصى إلى عبده، وقد مضى القول  
في هذا في «البقرة» مستوفى.

الثانية - قوله تعالى: (الشفهاء) قد مضى في «البقرة» معنى الشفهاء لغة، واختلف  
العلماء في هؤلاء الشفهاء من هم؛ فروى سالم الأندلس عن سعيد بن جبير قال: هم اليتامى  
لا تؤتوهم أموالكم، قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية، وروى إسماعيل بن  
أبي خالد عن أبي مالك قال: هم الأولاد الصغار، لا تطوهم، وأولكم فيفسدوها وثبقوا  
بلا شيء، وروى سفيان عن حميد الأعرج عن مجاهد قال: هم النساء، قال النحاس  
وضعه: وهذا القول لا يصح؛ إنما قول العرب في النساء سفهاء أو سفهيات؛ لأنه الأكثر  
في جمع ففيلة، ويقال: لا تدفع مالك مضاربة ولا إلى وكيل لا يحسن التجارة، وروى عن  
عمرانه قال: من لم يتفق فلا يجز في سوقنا؛ فكذلك قوله: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم»  
يعني الجهال بالأحكام، ويقال: لا تدفع إلى الكفار؛ ولهذا كره العلماء أن يوكل للمسلم  
ذنباً بالشراء والبيع، أو يدفع إليه مضاربة، وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: السفهاء  
هنا كل من يستحق الحجر، وهذا جامع، وقال ابن خزيمة: وأما الحجر على السفه  
فالسفه له أحوال: حال يحجر عليه لصغره، وحالة لعدم عقله بجنون أو غيره، وحالة لسوء  
نظره لنفسه في ماله، فأما الممنى عليه فاستحسن مالك ألا يحجر عليه لسرعة زوال ما به،  
والحجر يكون مرة في حق الإنسان ومرة في حق غيره؛ فأما المحجور عليه في حق نفسه من

ذكرنا ، والمخجوز عليه في حق غيره العبد والمدين والمريض في البتة ، والمفلس وقالت الزوج  
لحق الزوج ، والبرق في حق نفسها . فاما الصغير والمجنون فلا خلاف في الحجر عليهما . وأما الكبير  
فلأنه لا يحسن النظر لنفسه في ماله ، ولا يؤمن منه إلتلاف ماله في غير وجهه ، فأنشبه المصري  
وقيه خلاف يأتي . ولا فرق بين أن يتلف ماله في المعاصي أو في القرب والمباحات . وأختلف  
أصحابنا إذا ألتف ماله في القرب ؛ فمنهم من حجر عليه ، ومنهم من لم يحجر عليه . والعبد  
لا خلاف فيه . والمدين يترج ما بيده لزماته ؛ لإجماع الصحابة ، وقيل عمر ذلك بأشيع  
جبهة ؛ ذكره مالك في الموطأ . والبرق ما دامت في الخلد محجور عليها ؛ لأنها لا تحسن النظر  
لنفسها . حتى إذا تزوجت وجل إليها الناس ، ونجحت وبرز وجهها عرفت المضار من  
المنافع . وأما ذات الزوج فلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يجوز لامرأة  
ملك زوجها عصمتها قضاء في مالها إلا في ثلثها " .

قلت : وأما الجاهل بالأحكام وإن كان غير محجور عليه لثبته لماله وعدم تديره ،  
فلا يدفع إليه المال ؛ لجهله بفاسد اللياعات وصحيجها وما يحل وما يحرم منها . وكذلك الذي  
مثله في الجهل بالياعات ولم يخاف من معاملته بالزبا وغيره . والله أعلم . وأختلفوا في وجه  
إضافة المال إلى المخاطبين على هذا وهي السفهاء ؛ فقيل : إضافتها إليهم لأنها بأيديهم وهم  
الناظرين فيها فلبست إليهم آتساعا ؛ كقوله تعالى : « فسلّموا على أَنفُسِكُمْ » وقوله « فاقبلوا  
أَنفُسَكُمْ » . وقيل : إضافتها إليهم لأنها من جنس أموالهم ؛ فإن الأموال جُعلت مشتركة بين  
الخلق تنقل من يد إلى يد ، ومن ملك إلى ملك ، أي هي لهم إذا احتاجوها كأموالكم التي  
تقي أعراضكم وتصونكم وتعظم أقداركم ، وبها قوام أمركم . وقول ثاب قاله أبو موسى الأشعري  
وابن عباس والحسن وقادة : أن المراد أموال المخاطبين حقيقة . قال ابن عباس : لا تدفع  
مالك الذي هو سبب معيشتك إلى أمرأتك وأبنك وتبقى فقيرا تنظر إليهم وإلى ما في أيديهم ؛  
بل كن أنت الذي تنفق عليهم . قال سفهاء على هذا هم النساء والصبيان ؛ صغار ولد الرجل  
وأمرأته . وهذا يخرج على قول مجاهد وأبي مالك في السفهاء .

الثالثة: ودلت الآية على جواز الحجر على السفه؛ لأمر الله عز وجل بذلك في قوله: «وَلَا تَقْرَبُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ» وقال: «إِنَّ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيحًا أَوْ ضَعِيفًا». فأثبت الولاية على السفه كما أثبتها على الضعيف. وكان معنى الضعيف إرجاعاً إلى الصغير. ومعنى السفه إلى الكبير البالغ؛ لأن السفه اسم ذم ولا يلزم الإنسان على ما لم يكتسب، والقلم مرفوع عن غير البالغ، فالذم والخرج مقيان عنه؛ قاله الخطابي.

الرابعة - واختلف العلماء في أفعال السفه قبل الحجر عليه؛ فقال مالك وجميع أصحابه غير ابن القاسم: إن فعل السفه وأمره كله جائز حتى يضرب الإمام على يده. وهو قول الشافعي وأبي يوسف. وقال ابن قاسم: أفعاله غير جائزة وإن لم يضرب عليه الإمام. وقال أصبغ: إن كان ظاهر السفه فأفعاله مردودة، وإن كان غير ظاهر السفه فلا ترد أفعاله حتى يحجر عليه الإمام. واحتج بحُجُون لقول مالك بأن قال: لو كانت أفعال السفه مردودة قبل الحجر ما احتاج السلطان أن يحجر على أحد. وحجة ابن القاسم ما رواه البخاري من حديث جابر أن رجلاً اعتق عبداً ليس له مال غيره فردّه النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن يحجر عليه قبل ذلك.

الخامسة - واختلفوا في الحجر على الكبير؛ فقال مالك وجمهور الفقهاء: يحجر عليه. وقال أبو حنيفة: لا يحجر على من بلغ حاقلاً إلا أن يكون مفسداً لماله؛ فإذا كان كذلك منع من تسليم المال إليه حتى يبلغ تسعاً وعشرين سنة، فإذا بلغها سلم إليه بكل حال، سواء كان مفسداً أو غير مفسد؛ لأنه يُجَبَل منه لاكتنى عشرة سنة، ثم يولد له ستة أشهر فيصير جنداً، وأنا استحي أن أحجر على من يصلح أن يكون جنداً. وقيل عنه: إن في منه المنع من المال إذا بلغ مفسداً يتخذ تصرفه على الإطلاق، وإنما يُمنع من تسليم المال احتياطاً. وهذا كله ضعيف في النظر والأثر. وقد روى الدارقطني حديثنا محمد بن أحمد بن الحسن الصواف أخبرنا حامد بن شعيب أخبرنا شريح بن يونس أخبرنا يعقوب بن إبراهيم - هو أبو يوسف القاضي - أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الله بن جعفر أتى الزبير فقال: إني اشتريت



بيع كذا وكذا ، وإن علياً يريد أن ياتي أمير المؤمنين فيسأله أن يحجر عليّ فيه . فقال الزبير : أنا شريكك في البيع . فأتى عليّ عثمان فقال : إن ابن جعفر اشترى بيع كذا وكذا فأحجر عليه . فقال الزبير : فانا شريكه في البيع . فقال عثمان : كيف أحجر على رجل في بيع شريكه فيه الزبير . قال يعقوب : أنا أخذ بالبحر راراه ، وأحجر وأبطل بيع المحجور عليه وشراؤه ، وإذا اشترى أو باع قبل الحجر أجزت بيعه . قال يعقوب بن إبراهيم : وإن أبا حنيفة لا يحجر ولا يأخذ بالبحر . فقول عثمان : كيف أحجر على رجل ، دليل على جواز الحجر على الكبير ، فإن عبد الله بن جعفر ولدته أمه بارض الحبشة ودن أقل مولود ولد في الإسلام بها ، وقدم مع أبيه على النبي صلى الله عليه وسلم طام خير فسمع منه وحفوا عنه . وكانت خيرة ستة خمس من الهجرة . وهذا يرد على أبي حنيفة قوله . وسأقي حجته إن شاء الله تعالى .

السادسة - قوله تعالى : (الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) أي لما شكم وصلاح دينكم . وفي «التي» ثلاث لغات : التي والَّتِ بكسر التاء والَّتِ بإسكانها . وفي تثنيها أيضا ثلاث لغات : اللتان واللتان يحذف النون والثلاث بشد النون . وأما الجمع فتأني لغاته في موضعه في هذه السورة إن شاء الله تعالى . والقيام والقوام مأقيمك بمعنى . يقال : فلان قيام أهله وقوام بته ، وهو الذي يقيم شأنه ، أي يصلحه . ولما انكسرت القاف من قوام أبدلوا الواو ياء ، وقراءة أهل المدينة «قيما» بغير ألف . واليكافي والقراء : قيا وقواما بمعنى قياما ، وانتصب عندهما على المصدر . أي ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي تصلح بها أموركم فيقوموا بها قياما . وقال الأخفش : المعنى قائمة بأموركم . يذهب إلى أنها جمع . وقال البصريون : قيا جمع قيمة ؛ كقيمة وديم ، أي جعلها الله قيمة للأشياء . وخذا أبو علي هذا القول وقال : هي مصدر كقيام وقوام وأصلها قوم ، ولكن شذت في الرد إلى الياء كما شذ قولهم : جباد في جمع جواد ونحوه . وقواما وقواما قياما معناه ثباتا في صلاح الحال ودواما في ذلك . وقرأ الحسن والتخفي «اللاقي» على جمع التي ، وقراءة العامة «التي» على لفظ الجماعة . قال القراء : الأكثر في لفظ العرب «النساء اللواتي ، والأموال التي» وكذلك غير الأموال ؛ ذكره النحاس .

(١) في قوله تعالى : «واللات ياتين الفاحشة ...» آية ٢٥ .

الناصفة : قوله تعالى : ( وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ) قيل : يستلزم اجتماعاً لم فيها أو أفرداً لم فيها . وهذا فيمن يلزم الزيل ثقة وكشوة من زوجته وبني الأصاغر فكان هذا دليلاً على وجوب ثقة الولد على الوالد والزوجة على الزوج . وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أفضل الصدقة ما ترك غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تمول . تقول المرأة إما أن تطعمني وإما أن تطلقني ويقول العبد أطعمني وأتعملي ويقول الابن أطعمني إلى من تدعي " . فقالوا : يا أبا هريرة، سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا، هذا من كيس أبي هريرة ! قال المهلب : الثقة على الأهل والعيال واجبة بإجماع ؛ وهذا الحديث حجة في ذلك .

الثامنة - قال ابن المنذر : واختلقوا في ثقة من بلغ من الأبناء ولا مال له ولا كسب ؛ فقالت طائفة : على الأب أن ينفق على ولده الذكور حتى يحتلموا، وعلى النساء حتى يتوجعن ويُدخل بهن . فإن طلقها بعد البناء أو مات عنها فلا ثقة لها على أبنائها . وإن طلقها قبل البناء فهي على ثققتها .

التاسعة - ولا ثقة لولد الولد على الجد ؛ هذا قول مالك . وقالت طائفة : ينفق على ولده ولده حتى يبلغوا الحلم والمحيض . ثم لا ثقة عليه إلا أن يكونوا زمتي ، وسواء في ذلك الذكور والإناث ما لم يكن لهم أموال ، وسواء في ذلك ولده أو ولد ولده وإن سفلوا ما لم يكن لهم أب دونه يقدّر على الثقة عليهم ؛ هذا قول الشافعي . وأوجب طائفة الثقة لجميع الأطفال البالغين من الرجال والنساء إذا لم يكن لهم أموال يستفتون بها عن ثقة الولد ؛ على ظاهر قوله عليه السلام يهتد : " خذني ما يكفيك وولئك بالمعروف " . وفي حديث أبي هريرة " يقول الابن أطعمني إلى من تدعي " يدل على أنه إنما يقول ذلك من لا طاعة له على الكسب والتعريف . ومن بلغ سن الحلم فلا يقول ذلك ؛ لأنه قد بلغ حد السعي عن نفسه والكسب لما ، بدليل قوله تعالى : ( حتى إذا بلغوا النكاح ) الآية . فجعل بلوغ النكاح حداً في ذلك . وفي قوله " تقول المرأة إما أن تطعمني وإما أن تطلقني " يرد على من قال . لا يفتقر بالإعسار ويلزم المرأة الصبر ؛ وتعلق الثقة بذمتهم بحكم الحاكم . هذا قول عطاء

والزهرى . وإليه ذهب الكوفيون متمسكين بقوله تعالى : « وَأَنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ » : قالوا : فيوجب أن ينظر إلى أن يؤسره . وقوله تعالى : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » الآية : قالوا : فندب تعالى إلى إنكاح الفقير ؛ فلا يجوز أن يكون الفقير سببا للفرقة وهو مندوب معه إلى النكاح . ولا حجة لهم في هذه الآية على ما يأتي بيانه في موضعها . والحديث نص في موضع الخلاف . وقيل : الخطاب لوليّ اليتيم لينفق عليه من ماله الذي له تحت نظره ؛ على ما تقدم من الخلاف في إضافة المال . فالوصى ينفق على اليتيم على قدر ما به . وإن كان صغيرا وماله كثير أخذ له ظئرا وحواضن ووسع عليه في النفقة . وإن كان كبيرا قدر له ناعم اللباس وشهى الطعام والخدم . وإن كان دون ذلك فحسبه . وإن كان دون ذلك فحسب الطعام واللباس قدر الحاجة . فإن كان اليتيم فقيرا لا مال له وجب على الإمام القيام به . فإن لم يفعل الإمام وجب ذلك على المسلمين الأخص به فالأخص . وأما أخص به فيجب عليها إرضاعه والقيام به . ولا يرجع عليه ولا على أحد . وقد مضى في البقرة عند قوله : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ » .

العاشره — قوله تعالى : « وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » أراد تليين الخطاب والوعد الجليل . واختلف في القول المعروف ؛ فقيل : معناه أذكروا لهم : بارك الله فيكم ، وحاطكم وصنع لكم ، وأنا ناظر لك ، وهذا الاحتياط يرجع نفعه إليك . وقيل : معناه وعدوهم وعدا حسنا ؛ أى إن رشتهم دفعنا إليكم أموالكم . ويقول الأب لابنه : مالى إليك مصيره ، وأنت إن شاء الله صاحبُه إذا ملكك رشذك وعرفت تصرفك .

قوله تعالى : « وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا » : ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ①

فيه سبع عشرة مسألة .

الأولى - قوله تعالى : ( وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى ) الأبتلاء الاختبار ، وقد تقدم . وهذه الآية خطاب للمجيع في بيان كيفية دفع أموالهم . وقيل : إنها نزلت في ثابت بن رفاعه وفي عمه . وذلك أن رفاعه توفى وترك أباه وهو صغير ، فأتى عم ثابت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبني أتي يقيم في حجرى فما يحل لي من ماله ، ومتى أدفع إليه ماله ؟ فأذن الله تعالى هذه الآية .

الثانية - واختلف العلماء في معنى الاختبار ؛ فقيل : هو أن يتأمل الوصى أخلاق يتيمه ، ويستمع إلى أغراضه ، فيحصل له العلم بعبادته ، والمعرفة بالسعي في مصالحه وضبط ماله ، والإحمال لذلك . فإذا توسم الخير قال ملائكا وغيرهم : لا بأس أن يدفع إليه شيئا من ماله يدفع له التصرف فيه ، فإن نَمَاه وحسن النظر فيه فقد وقع الاختبار ، ووجب على الوصى تسليم جميع ماله إليه . وإن أساء النظر فيه وجب عليه إمساك ماله عنده ، وليس في العلماء من يقول : إنه إذا اختبر العصى فوجده رشيدا ترفع الولاية عنه ، وأنه يجب دفع ماله إليه وإطلاق يده في التصرف ؛ لقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ » . وقال جماعة من الفقهاء : الصغير لا يخلو من أحد أمرين ؛ إما أن يكون غلاما أو جارية ؛ فإن كان غلاما رُدَّ النظر إليه في ثقة البار شهرًا ، أو أعطاه ثيابًا تَزَوَّاه ليتصرف فيه ليعرف كيف تدبيره وتصرفه ، وهو مع ذلك يرابعه لئلا يتلفه ؛ فإن ألقاه فلا ضمان على الوصى . فإذا رآه متوخيًا سلم إليه ماله وأشهد عليه . وإن كان جارية رُدَّ إليها ما رُدَّ إلى ربة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه ، في الاستئصال والاستقصاء على التزولات في دفع القطن وأجرته ، واستيفاء النزل وجودته . فإن رآها وشيدة سلم أيضا إليها مالهًا وأشهد عليها . وإلا بقيا تحت الحجر حتى يؤنس رشدما . وقال الحسن ومجاهد وغيرهما : آخبروهم في عقولهم وأدبانهم ونجية أموالهم .

الثالثة - قوله تعالى : ( حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ) أى الحلم ؛ لقوله تعالى : « وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ » أى البلوغ . وحال النكاح والبلوغ يكون بنجسة أشياء : ثلاثة

يَشْتَرِكُ فِيهَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ ، وَأَتَانُ يَحْتَصَانُ بِالنِّسَاءِ وَهُمَا الْحَيْضُ وَالْحَيْلُ . فَأَمَّا الْحَيْضُ وَالْحَيْلُ  
فَلَمْ يَخْتَلَفِ الْعُلَمَاءُ فِي أَنَّهُ بُلُوغٌ ، وَأَنَّ الْفَرَائِضَ وَالْأَحْكَامَ تَجِبُ بِهِمَا . وَاسْتَخْفُوا فِي الثَّلَاثِ ؛  
فَأَمَّا الْإِتِّبَاتُ وَالسِّنُّ فَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَابْنُ حَنْبَلٍ : خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً بُلُوغُ الْبِنِ  
لَمْ يَحْتَلَمْ . وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ وَهْبٍ وَأَصْبَحَ وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ الْمَسَاجِشُونَ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَجَمَاعَةٌ .  
مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ . وَتَجِبُ الْحُدُودُ وَالْفَرَائِضُ عَنْهُمْ عَلَى مَنْ يُلَاحِظُ هَذَا  
السَّنَّ . قَالَ أَصْبَحُ بْنُ الْفَرَجِ : وَالَّذِي يَقُولُ بِهِ إِنْ حَدَّ الْبُلُوغُ الَّذِي تُلْزَمُ بِهِ الْفَرَائِضُ وَالْحُدُودُ  
خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ؛ وَفَإِنَّ أَحَبَّ مَا فِيهِ إِلَيَّ وَأَحْسَنُهُ عِنْدِي ؛ لِأَنَّهُ الْحَدُّ الَّذِي يُسَمَّى فِيهِ  
فِي الْجِهَادِ وَلَمْ يَحْضُرِ الْقِتَالُ . وَاحْتَجَّ بِمَحْمُودِ بْنِ عُمَرَ إِذْ عُرِضَ يَوْمَ الْخُلُقِ وَهُوَ ابْنُ  
خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً فَاجِيزٌ ، وَلَمْ يَخْزِ يَوْمَ أَحَدٍ لِأَنَّهُ كَانَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً . أَخْبَرَنِي مُسْلِمٌ . قَالَ  
أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : هَذَا فِيمَنْ عَرَفَ مَوْلَاهُ ، وَأَمَّا مَنْ جَهِلَ مَوْلَاهُ وَمَدَّ سَنَتَهُ أَوْ جَعَلَهُ  
فَالْعَمَلُ فِيهِ بِمَا رَوَى نَافِعٌ عَنْ أَهْلِ مَدِينَةِ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَسْرَاءِ  
الْأَجْنَادِ : أَلَا تَعْلَمُونَ الْخِزْيَةَ إِلَّا عَلَى مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَوَاسِي . وَقَالَ عُمَانُ بْنُ غُلَامٍ سَرَقَ :  
انْظُرُوا إِنْ كَانَ قَدْ أَحْضَرَ مَبْزُورَهُ فَاقْطَعُوهُ . وَقَالَ عَطِيَّةُ الْقُرْظِيُّ : عُرِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ بِنِي قُرَيْظَةَ فَكُلُّ مَنْ أَتَيْتْ مِنْهُمْ قَتَلَهُ بِحُكْمِ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ ؛ وَمَنْ لَمْ يَبَيْتْ مِنْهُمْ اسْتِجَابَهُ ؛  
فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يَبَيْتْ قُرَيْظَةَ . وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَغَيْرُهُمَا : لَا يُحْكَمُ لِمَنْ لَمْ يَحْتَلَمْ بِنِي  
يَبْلُغُ مَا لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ إِلَّا احْتِمَالٌ ؛ وَفَإِنَّ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ؛ فَيَكُونُ عَلَيْهِ حَقُّ الْحَدِّ إِنْ أَتَى مَا يَجِبُ  
عَلَيْهِ الْحَدُّ . وَقَالَ مَالِكٌ مَرَّةً : بُلُوغُهُ أَنْ يَفْطُرَ صَوْمَهُ ؛ فَتَشَقُّ أُرْبَتُهُ . وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَوَايَةٌ  
أُخْرَى : تِسْعَ عَشْرَةَ ؛ وَهِيَ الْأَشْهُرُ . وَقَالَ فِي الْجَارِيَةِ : بُلُوغُهَا لِسَبْعِ عَشْرَةَ سَنَةً وَعَلَيْهَا النَّظَرُ .  
وَرَوَى اللَّوْثِيُّ عَنْ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً . وَقَالَ دَاوُدُ : لَا يَبْلُغُ بِالسِّنِّ مَا لَمْ يَحْتَلَمْ وَلَوْ بَلَغَ أَرْبَعِينَ  
سَنَةً . فَأَمَّا الْإِتِّبَاتُ فَفِيهِمْ مَنْ قَالَ لَيْسَتْ لَهُ عَلَيْهِ الْبُلُوغُ ؛ وَرَوَى عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ وَسَالِمٍ ، وَقَالَ

(١) أَيْ عُرِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُرْفَ حَالَهُ .

(٢) كَانَ حُكْمُهُمْ أَنَّهُ يَقْتُلُ رِجَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَذُرِّيَّتَهُمْ . وَقَدْ قَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "لَقَدْ حَكَمْتَ  
فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَرْقِ سَبْعِ مَحَبَاتٍ" . وَاجِبُ تَرْجِيحِهِ فِي كِتَابِ الْاسْتِجَابَةِ .

مالك مرة، والثاني في أحد قوله، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور. وقيل: هو بلوغ؛ إلا أنه يحكم به في الكفار فيقتل من أئبت ويُعمل من لم يُئبت في الزناري؛ قاله الشافعي في القول الآخر لحديث عطية القرطبي، ولا اعتبار بالخضرة والزعفران، وإنما يقترب الحكم هل الشعر. وقال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: العمل عندى على حديث عمر بن الخطاب لو جرت عليه الموابى لحدته. قال أصح: قال لي ابن القاسم وأحب إلى ألا يقام عليه الحد إلا باجتماع الإنبات والبلوغ. وقال أبو حنيفة: لا يُئبت بالإنبات حكم، وليس هو بلوغ ولا دلالة على البلوغ. وقال الزهري وعطاء: لا حد على من لم يحتلم؛ وهو قول الشافعي، ومال إليه مالك مرة، وقال به بعض أصحابه. وظاهره عدم اعتبار الإنبات والسِّن. قال ابن العربي: «إذا لم يكن حديث ابن عمر دليلا في السِّن فكل عدد يذكره من السِّن فإنه دعوى، والسِّن التي أجازها رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى من سِّن لم يتبهرها، ولا فام في الشرع دليل عليها، وكذلك اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم الإنبات في بني قريظة؛ فمن غديره ممن ترك أحمرين اعتبرهما النبي صلى الله عليه وسلم فأتاؤه وبتبره لم يتبهره النبي صلى الله عليه وسلم لفظا، ولا جعل الله له في الشريعة نظرا».

قلت. هذا قوله هنا، وقال في سورة الأنفال عكسه؛ إذ لم يترج على حديث ابن عمر هناك، وتأوله كما تأوله علماءنا، وأن وجه الفرق بين من يطبق القتال ويُبهر له وهو ابن خمس عشرة سنة، ومن لا يطبقه فلا يُبهر له فيجمل في العيال. وهو الذي فهمه عمر بن عبد العزيز من الحديث. والله أعلم.

الأربعة - قوله تعالى: (( فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ )) أى أبصرهم ورأيهم؛ ومنه قوله تعالى: « آتَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا » أى أبصروا رأى. قال الأزهرى:

تقول العرب اذهب فاستأنس هل ترى أحدا؛ معناه يتبهر. قال الثابتة:

... على مستأنس وحيد<sup>(١)</sup>.

كان رجل وقد زال النهار بشا. هم الجليل على مستأنس وحيد

(١) تمام البيت:

الروح: المنفرد.

أراد ثورا وحشيا يتصرهل يرى قاتضا فيحزله . وقيل : أنت وأحبست ووجدت بمنى  
واحد ؛ ومنه قوله تعالى : ( فَإِنْ أَسَمَ مِنْهُمْ رُشْدًا ) أى ملتم . والأصل فيه أبصرتم .  
وقراءة العامة « رُشدا » بضم الراء وسكون الشين . وقرأ السليبي وعيسى التقيي وابن مسعود  
رضي الله عنهم « رَشدا » بفتح الراء والشين ، وهما لفظان . وقيل : رُشدا مصدر رَشَدَ .  
ورُشدا مصدر رَشَدَ ، وكذلك الرشاد . والله أعلم .

الخامسة - واختلف العلماء في تأويل « رُشدا » فقال الحسن وقتادة وغيرهما :  
صلاحاً في العقل والدين . وقال ابن عباس والسدي والثوري : صلاحاً في العقل وحفظ  
المال . قال سعيد بن جبير والشعمي : إن الرجل ليأخذ بلحيته وما بلغ رشده ؛ فلا يدفع  
إلى النيم ماله وإن كان شيخاً حتى يؤنس منه رشده . وهكذا قال الضحاك : لا يعطى النيم  
وإن بلغ مائة سنة حتى يعلم منه إصلاح ماله . وقال مجاهد : « رُشدا » يعني في العقل  
خاصة . وأكثر العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ ، وعلى أنه إن لم يرشد بعد  
بلوغ الحلم وإن شاخ لا يزول الحجر عنه ؛ وهو مذهب مالك وغيره . وقال أبو حنيفة : لا يخرج  
على الخوالبالغ إذا بلغ مبلغ الرجال ، ولو كان أفسق الناس وأشدهم تبذيراً إذا كان عاقلاً .  
وبه قال زفر بن الهذيل ، وهو مذهب النخعي . واحتجوا في ذلك بما رواه قتادة عن أنس  
أن حبان<sup>(١)</sup> بن مُعَذَّكَانَ كان يتناع وفي عقله ضعف ، فقيل : يا رسول الله أحجر عليه ؛ فإنه يتناع  
وفي عقله ضعف . فاستداه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « لا تبع » . فقال : لا أصبر .  
فقال له : « إذا بايعت فقل لا خلافة لك إلا بما نزلنا » . قالوا : فلما سأل القوم الحجر عليه  
لمسوا في تصرفه من التبن ولم يفعل عليه السلام ثبت أن الحجر لا يجوز . وهذا لا حجة  
لهم فيه ؛ لأنه مخصوص بذلك على ما يثبت في البقرة<sup>(٢)</sup> ، فغيره بخلافه . وقال الشافعي : إن  
كان مفسداً لماله ودينه أو كان مفسداً لماله دون دينه حُجِّر عليه ، وإن كان مفسداً لدينه

(١) حبان : بفتح الحاء ، وقد ذكر في ج ٢ ص ٢٨٦ بكسر ط .

(٢) راجع ج ٢ ص ٢٨٦ لمبة أملا أدلة .

مصلحا لماله فلي وجهين : أحدهما يحجر عليه ، وهو اختيار أبي العباس بن سريج . والثاني لا حجر عليه ، وهو اختيار أبي إسحاق المروزي ، والأظهر من مذهب الشافعي . قال الثعفي : وهذا الذي ذكرناه من الحجر على السفيه قول عثمان وعلى والزبير وعائشة وابن عباس وعبد الله ابن جعفر وضوان الله عليهم ، ومن التابعين شريح ، وبه قال الفقهاء مالك وأهل المدينة والأوزاعي وأهل الشام وأبو يوسف ومحمد وأحمد وإسحاق وأبو نوح . قال الثعلبي : وأدعى أصحابنا الإجماع في هذه المسألة .

السادسة - إذا ثبت هذا فاعلم أن دفع المال يكون بشرطين : لإناس الرشد والبلوغ ؛ فإن وجد أحدهما دون الآخر لم يزد تسليم المال . كذلك نص الآية . وهو رواية ابن القاسم وأشباه وابن وهب عن مالك في الآية . وهو قول جماعة الفقهاء إلا أبا حنيفة وزفر والنخعي فإنهم أسقطوا لإناس الرشد ببلوغ خمس وعشرين سنة . قال أبو حنيفة : لكونه جذا . وهذا يدل على ضعف قوله ، وضعف ما احتج به أبو بكر الرازي في أحكام القرآن له من استعمال الآيتين حسب ما تقدم ، فإن هذا من باب المطلق والمقيد ، والمطلق يراد إلى المقيد بإتفاق أهل الأصول . وماذا ينفي كونه جذا إذا كان غير جذا ، أي بحت . إلا أن علماءنا شرطوا في إيجابية دخول الزوج بها مع البلوغ ، وحيث يقع الابتلاء في الرشد . ولم يره أبو حنيفة والشافعي ، ورأوا الاختبار في الذكر والأنثى واحدا على ما تقدم . وفرق علماءنا بينهما بأن قالوا : الأنثى غافلة للغلام لكونها محجوبة لا تعاني الأمور ولا تميز لأجل البكارة ؛ فلذلك وقف فيها على وجود النكاح . فيه فهم المقاصد كلها . والذكر بخلافها ؛ فإنه يتصرفه وملاقاته للناس من أول نشته إلى بلوغه فيحصل له الاختبار ، ويكمل عقله بالبلوغ ، فيحصل له النرض . وما قاله الشافعي - أصوب ؛ فإن نفس الوطء بإدخال الحشفة لا يزيدها في رشدها إذا كانت عارفة بجميع أمورها ومقاصدها ، غير مبذرة لمالها . ثم زاد علماءنا فقالوا : لا بد بمد

(١) كذا في الأصول . وفي أحكام القرآن لابن العربي : « فلما هذا ضيف ؛ لأنه إذا كان جذا ولم يكن ذا جنة

فإذا غفرت جنة التسب وبيدة البخت كانت » .



تدخل زوجها من مضي مئة من الزمان تمارس فيها الاحوال . قال ابن السري : وذكر علماءنا في تحديدها أقوالا عديدة ؛ منها الخمسة الأعوام والستة والنبعة في ذات الأب . ونحوها في اليتيمة التي لا أب لها ولا وصي عليها عاما واحدا بعد النكول ، وجعلوا في المولى عليها مؤبدا حتى يثبت رشدها . وليس في هذا كله دليل . وتحديد الأعوام في ذات الأب عسير ؛ وأصر منه تحديد العام في اليتيمة . وأما تمادي الجهر في المولى عليها حتى يتبين رشدها فيخرجها الوصي عنه ، أو يخرجها الحكم منه فهو ظاهر القرآن . وللقصود من هذا كله داخل تحت قوله تعالى : « فَإِنْ أَسَمَّ مِنْهُمْ رُشْدًا » فتمين اعتبار الرشد ولكن يختلف إسناسه بحسب اختلاف حال الراشد . فأعيرفه وركب عليه وأجنب التحكم الذي لا دليل عليه .

السابعة - وأختلفوا فيما قلته ذات الأب في تلك المدة ؛ فقليل : هو محمول على الرقة لبقاء الجهر ، وما علمته بعده فهو محمول على الجواز . وقال بعضهم : ما علمته في تلك المدة محمول على الرقة إلى أن يتبين فيه السداد ، وما علمته بعد ذلك محمول على الإمضاء حتى يتبين فيه السفة .

الثامنة - وأختلفوا في دفع المال المحجور عليه هل يحتاج إلى السلطان أم لا ؛ فقالت فرقة : لا بد من رقه إلى السلطان ، ويثبت عنده رشده حتى يدفع إليه ماله . وقالت فرقة : ذلك موكول إلى اجتهد الوصي دون أن يحتاج إلى رقه إلى السلطان . قال ابن عطية : والصواب في أوصياء زماننا ألا يستغنى عن رقه إلى السلطان وثبوت الرشد عنده ، لما حفظ من تواطؤ الأوصياء على أن يرشد الصبي ، ويرأ المحجور عليه لسفهه وقلة تحصيله في ذلك الوقت .

التاسعة - فإذا سلم المال إليه بوجود الرشد ، ثم عاد إلى السفه بظهور تبذير وقلة تدبير عاد إليه الجهر عندنا ، وعند الشافعي في أحد قولي . وقال أبو حنيفة : لا يعود لأنه بالغ عاقل ، بدليل جواز إقراره في الحدود والقصاص . ودليلا قوله تعالى : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا » وقال تعالى : « فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيحًا أَوْ ضَعِيفًا »

أَوْ لَا يَنْتَظِعُ أَنْ يَمْلُ هُوَ تَلِيْمًا وَلَيْلَ بِالْبَيْتِ ، وَلَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَجُورًا سَفِيحًا أَوْ يَطْرَأَ  
ذَلِكَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْإِطْلَاقِ .

العاشرة - وعجز الوصي أن يصنع في مال اليتيم ما كان للآب أن يصنعه من تجارة  
وبضاعة وشراء وبيع . وعليه أن يؤدي الزكاة من سائر أمواله : عَيْنَ وَحَرْثٍ وَمَاشِيَةٍ وَفِطْرٍ .  
ويؤدي عنه أروش الجانيات وقيم المتعلقات ، وثقة الوالدين وسائر الحقوق اللازمة . وعجز  
أن يزوجه ويؤدي عنه الصداق ، ويشتري له جارية يشتري بها ، ويصالح له وعليه على وجه  
النظر له . وإذا قضى الوصي بعض النعماء وبقي من المال بقية تبي ما عليه من الدين كان فعل  
الوصي جائزا . فإن تلف باق المال فلا شيء لباقي النعماء على الوصي ولا على الذين اقتضوا .  
وإن اقتضى النعماء جميع المال ثم أتى غرماء آخرون فإن كان عالما بالذين الباقي ، أو كان  
الميت معروفا بالدين الباقي ضمن الوصي لمؤلاء النعماء ما كان يصيبهم في الخاصصة ، ورجع على  
الذين اقتضوا دينهم ذلك . وإن لم يكن عالما ، ولا كان الميت معروفا بالدين فلا شيء على  
الوصي . وإذا دفع الوصي دين الميت بشير إسهاد ضمن . وأما إن أشهد وطال الزمان حتى  
مات الشهود فلا شيء عليه . وقد مضى في البقرة عند قوله تعالى : « وَإِنْ تَحَايَواكُمْ »  
فأخوانكم من أحكام الوصي في الإلتاق وغيره ما فيه كفاية ، والحمد لله .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ( وَلَا تَأْكُلُوهُا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ) ليس يريد  
أن أكل ما لم من غير إسراف جائز ، فيكون له دليل خطاب ، بل المراد ولا تأكلوا أموالهم  
فإنه إسراف . فهي الله سبحانه وتعالى الأوصياء من أكل أموال البائس بغير الواجب المباح  
لم ، على ما يأتي بيانه . والإسراف في اللغة الإفراط ومجاوزة الحد . وقد تهمم آل عمران<sup>(١)</sup> .  
والسرف الخطأ في الإحتاق . ومنه قول الشاعر<sup>(٢)</sup> :

أَعْطَوْا مُبْتَدَةَ يَحْتَدُّوا ثَمَانِيَةً • مَا فِي عَطَائِهِمْ مِنْ وَلَا سَرْفٍ

أي ليس يخطئون مواضع العطاء . وقال آخر :

(١) راجع ج ٢ ص ٦٥ طبة أول أدبانية . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٢١ طبة أول أدبانية .

(٣) البيت بغير يجمع بثمانية . وخليفة : اسم لكل مائة من الإبل .

وقال قائلهم واخيل تحيطهم \* أسرتم فاجبتا أسا سرف

قال النضر بن شميل : السرف التبذير ، والسرف الغفلة . وسبأى لغنى الإمراف زيادة بيان في « الأثنام » إن شاء الله تعالى . ( وَيَذَرُوا ) مناه ومبادرة كبرهم ، وهو حال البلوغ . والبدار والمبادرة كالقتال والمقاتلة . وهو معطوف على « إسرانا » . و ( أَنْ يَكْبُرُوا ) في موضع نصب ببداراء أى لا تستغن مال عجبورك فتأكله وتقول أبادركبه لئلا يرشد ويأخذ ماله ؛ عن ابن عباس وغيره .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ( وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَفِئْ ) الآية . بين الله تعالى مايجل لهم من أموالهم ؛ فأمر الغنى بالإسك وإباح للوصى الفقير أن يأكل من مال وليه بالمعروف . يقال : عَفَ الرجل عن الشيء وأَسْتَعَفَ إذا أمسك . والاستغفاف عن الشيء تركه . ومنه قوله تعالى : « وَلْيَسْتَفِئِ الْيَتِيمَ لَا يَجِدُوكَ نِكَاسًا » . والعِنف : الامتناع عما لايجل ولا يجب فعله . روى أبو داود من حديث حسين المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني فقير ليس لى شيء ولى يقيم . قال فقال : « كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ سُورِفٍ وَلَا مَبَاذِيرٍ وَلَا مَتَأَلٍ » .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء من المخاطب والمراد بهذه الآية ؛ ففى صحيح مسلم عن عائشة في قوله تعالى : « وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » قالت : تزلت في ولي اليتيم الذى يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجا جز أن يأكل منه . في رواية : بقدر ماله بالمعروف . وقال بعضهم : المراد اليتيم إن كان غنيا وسع عليه وأعف من ماله ، وإن كان فقيرا أعتق عليه بقدره ؛ قاله ربيعة ويحيى بن سعيد . والأول قول الجمهور وهو الصحيح ؛ لأن اليتيم لا يخاطب بالتصرف في ماله لصغره ولسفه . والله أعلم .

الرابعة عشرة — واختلف الجمهور في الأكل بالمعروف ما هو ؛ فقال قوم : هو القرض إذا احتاج ويقضى إذا أيسر ؛ قاله عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة وأبن جبير والنسعى

(١) في المائة الثالثة والشرين من تفسير قوله تعالى : « وهو الذى أنشأ جنات مروشات » آية ١١١

(٢) متأل ؛ جامع ؛ يقال : مال مؤتل أى مجمع فداصل .

ومجاهد وأبو العالية، وهو قول الأوزاعي، ولا يتسلف أكثر من حاجته. قال عمر: ألا إنى أنزلت نفسي من مال الله منزلة الولي من مال النبي، إن استغثت استغثت، وإن أنكرت أنكرت. أكلت بالمعروف؛ فإذا أسرت قضيت. روى عبد الله بن المبارك عن عاصم عن أبي العالية «ومن كان قديراً قليلاً كل بالمعروف» قال قرضاً - ثم تلا «فلذا دفعتم إليهم أموالهم فاشبهوا طليهم». وقول ثان روى عن إبراهيم وعطاء والحسن البصري والنعني وقناة: لا قضاء على الوصي الفقير فيما يأكل بالمعروف، لأن ذلك حق النظر، وعليه الفقهاء. قال الحسن: هو طعمة من الله؛ وذلك أنه يأكل ما يمد جوعه، ويكفي ما يستر حورته، ولا يلبس الرفيع من الثياب ولا الخلل. والدليل على صحة هذا القول إجماع الأمة على أن الإمام الناظر للمسلمين لا يجب عليه غرم ما أكل بالمعروف؛ لأن الله تعالى قد فرض شبهه في مال الله. فلا حجة لهم في قول عمر: فإذا أسرت قضيت - أن لوصي. وقد روى عن ابن عباس وأبي العالية والشعبي أن الأكل بالمعروف هو كالاستماع بالإن الموانئ، واستخدام العبيد، وركوب الدواب إذا لم يضرب بأصل المال؛ كما هي الخبراء، ويشد الضالة، ويلوط الحوض، ويغمد الثمر. فاما أعيان الأموال وأصولها فليس للوصي أخذها. وهذا كله يخرج مع قول الفقهاء: إنه يأخذ بقدر أجر عمله؛ وقالت به طائفة وأن ذلك هو المعروف، ولا قضاء عليه، والزيادة على ذلك حزمة. وفرق الحسن بن صالح بن حي - ويقال ابن حيان - بين وصي الأب والحاكم؛ فلو وصي الأب أن يأكل بالمعروف، وأما وصي الحاكم فلا سبيل له إلى المال بوجه؛ وهو القول الثالث. وقول رابع روى عن مجاهد قال: ليس له أن يأخذ قرضاً ولا غيره. ونذهب إلى أن الآية منسوخة، نسخها قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ» وهذا ليس بتجارة. وقال زيد بن أسلم: إن الرخصة في هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا» الآية. وحكي بغير بن الوليد عن أبي يوسف قال: لا أدرى، لعل هذه الآية

(١) حكا الإبل، طاماً بالهاء، وهو ضرب من البقر. (٢) لظط الحوض: طلاء بالعين وأصله.

ملسوخة بقوله من وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن يكون  
 تجارة عن تراض بينكم » . وقول خامس - وهو الفرق بين الحضر والسفر فيمنع إذا كان مقيما  
 معه في المصر . فإذا احتاج أن يسافر من أجله فله أن يأخذ ما يحتاج إليه ، ولا يقتضى شيئا ،  
 قاله أبو حنيفة وصاحبه أبو يوسف ومحمد . وقول سادس - قال أبو قلابة : فلما كل بالمعروف  
 مما ينبغي من النلة ، فاما المال الناس فليس له أن يأخذ منه شيئا قرضا ولا غيره ، وقول  
 سابغ - روى عكرمة عن ابن عباس « ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » قال : إذا احتاج  
 وأضطر . وقال الشعبي : كذلك إذا كان منه بمنزلة الدم ولحم الخنزير أخذ منه ، فإن وجد  
 أوقى . قال النحاس : وهذا لا معنى له ؛ لأنه إذا اضطر هذا الاضطراب كان له أخذ ما يقيمه  
 من مال يتيمة أو غيره من قريب أو بعيد . وقال ابن عباس أيضا والتخي : المراد أن  
 يأكل الوصي بالمعروف من مال نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم ؛ فيستغنى عنه ،  
 والفقير يقتصر على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال يتيمة . قال النحاس : وهذا من أحسن ما روى  
 في تفسير الآية ؛ لأن أموال الناس عظيمة لا يطاق شيء منها إلا بحجة قاطعة .

قلت : وقد اختار هذا القول ليكا الطبري في أحكام القرآن له ؛ فقال : « توهم متوهمون  
 من السلف بحكم الآية أن الوصي أن يأكل من مال المصبي قدر ما لا يتهى إلى حد السرف ،  
 وذلك خلاف ما أمر الله تعالى به في قوله : « لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ  
 تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ بَيْنِكُمْ » ولا يصدق ذلك في [مال] اليتيم . فقله : « ومن كان غنيا فليستغنى »  
 يرجع إلى [كل] مال نفسه دون مال اليتيم . فمتاه ولا تأكلوا أموال اليتيم مع أموالكم ، بل  
 اقتصروا على أكل أموالكم . وقد دل عليه قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ  
 إِنَّهُ كَانَ حَرًّا كَثِيرًا » . ويكن بقوله تعالى : « ومن كان غنيا فليستغنى ومن كان فقيرا فليأكل  
 بالمعروف » الاقتصار على النلة ، حتى لا يحتاج إلى أكل مال اليتيم ؛ فهذا معنى الآية .

(١) الناس : الحرم والديار عند أهل الجاهز ؛ روى ثمانا إذا تحول مينا بعد أن كان ثمانا .

(٢) : بادة من أحكام القرآن ليكا الطبري .

فقد وجدنا آيات المحكمات تمنع أكل مال التبرذون رضاء، سيما في حق اليتيم . وقد وجدنا هذه الآية محتملة للمانع غلبها على موجب الآيات المحكمات متعين . فإن قال من ينصر مذهب السلف : إن القضاة يأخذون أرزاقهم لأجل عملهم للسلبيين ، فهلا كان الوصي كذلك إذا عمل لليتيم ، ولم لا يأخذ الأجرة بقدر عمله ؟ . قيل له : اعلم أن أحدا من السلف لم يجوز للوصي أن يأخذ من مال الصبي مع غنى الوصي ، بخلاف القاضي ، فذلك فارق بين المسألتين . وأيضا فالذي يأخذ الفقهاء والقضاة والخلفاء القائمون بأمر الإسلام لا يتعين له مال . وقد جعل الله ذلك للمال الضائع لأصناف بأوصاف ، والقضاة من جملتهم ، والوصي إنما يأخذ بمسئله مال شخص معين من غير رضاه ، وعمله مجهول وأجره مجهول وذلك بعيد عن الاستحقاق .

قلت : وكان شيخنا الإمام أبو العباس يقول : إن كان مال اليتيم كثيرا يحتاج إلى كبير قيام عليه بحيث يشغل الولي عن حاجاته ومهمات فرض له فيه أجر عمله ، وإن كان قافها لا يستغله عن حاجاته فلا يأكل منه شيئا ، غير أنه يستحب له شرب قليل اللبن وأكل القليل من الطعام والسمن ، غير مضربه ولا مستكثره ، بل على ما جرت العادة بالمساحة فيه . قال شيخنا : وما ذكرته من الأجرة ، ونيل اليسير من التمر واللبن كل واحد منهما معروف ؛ فصالح حمل الآية على ذلك . والله أعلم .

قلت : والاستراز عنه أفضل ، إن شاء الله . وأما ما يأخذ قاضي القسمة ويسميه رسما ونهب أتباعه فلا أدري له وجه ولا جلا ، وهم داخلون في عموم قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ غُلًا إِنَّهَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا » .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ( فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ) أمر الله تعالى بالإشهاد تنبيها على التحصين وزوال اللثم . وهذا الإشهاد مستحب عند طائفة من العلماء ؛ فإن القول قول الوصي لأنه أمين . وقالت طائفة : هو فرض ؛ وهو ظاهر الآية ، وليس بأمين فيقبل قوله كالويلك إذا زعم أنه قد رد ما دفع إليه أو المودع ، وإنما هو أمين للاب ،

وفى اثنته الأب لا يُقبل قوله على غيره . ألا ترى أن الوكيل لو ادعى أنه قد دفع لزيد ما أمره به بصدائه لم يُقبل قوله إلا ببينة : فكذلك الوصي . وراى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن جبير أن هذا الإشهاد إنما هو على دفع الوصي في يسره ما استقرضه من مال يتيمة حالة فقره . قال عبيد : هذه الآية دليل على وجوب القضاء على من أكل ، المعنى : فإذا اقترضتم أو أكلتم فاشهدوا إذا عزمتم . والصحيح أن اللفظ يعم هذا وسواء . والظاهر أن المراد إذا اتهمتم شيئا على المولى عليه فاشهدوا ، حتى لو وقع خلاف أسكن إقامة البينة ، فإن كل مال قبض على وجه الأمانة بإشهاد لا يبرأ منه إلا بالإشهاد على دفعه ، لقوله تعالى : « فاشهدوا » فإذا دفع لمن دفع إليه بغير إشهاد فلا يحتاج في دفعه لإشهاد إن كان قبضا بغير إشهاد . والله أعلم .

السابعة عشرة - كما في الرسمى والكفيل حفظ مال يقيمه والتجديله ، كذلك عليه حفظ الصبي في بدنه . فالمال يحفظه بضبطه ، والبدن يحفظه بأدبه . وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» . وروى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن في سمري قتيلا أأكل من ماله ؟ قال : «نعم فيه مثل مال لا ولا وافي مالك بماله» . قال : يا رسول الله ، أفأضربه ؟ قال : «ما كنت ضاربا منه ولداك» . قال ابن العربي : وإن لم يثبت مستندا فليس يحسد أحد عنه <sup>ومراده</sup> .

السابعة عشرة - قوله تعالى: (وَكُنِيَ لِلَّهِ حَبِيبًا) أى كنى الله حساباً لأعمالكم ومجازياً بها . ففى هذا وعيد لكل جاحد حق . والباء زائدة ، وهو فى موضع رفع .

قوله تعالى : لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

(۲) مثال : جامع ۔

(١) راجع ج ٢ ص ٦٢، طبعة أول ثوتمانية .

(٢) المبدأ : مصرعا .

عن أبيه خمس مسائل : الأولى : قال أبو بكر : قال أبو بكر : قال أبو بكر :  
 الأولى - لما ذكر الله تعالى أمر النبي صلى الله عليه وآله بذكر الموارث ، وثبت الآية في أواس  
 ابن ثابت الأنصاري ، ثوبى وترك امرأة يقال لها أم حنكة وثلاث بنات له منها ، فقام وجلان هما  
 أبنا عم الميت ووصياءه يقال لهما أسويد وعمرقة ، فآخذوا ماله ولم يعطيا أمراؤه وبناته شيئا ،  
 وكانوا في الجاهلية لا يوزنون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرا ، ويقولون : لا يسئلى إلا من  
 قاتل على ظهور الخيل ، وطامن بالرحم ، وضارب بالسيف ، وحاز الفينة . فذكرت أم حنكة  
 ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فعداها ، فقالا : يا رسول الله ، ولدها لا يركب فرسا ، ولا  
 يحمل سكلا ولا يتكلم عدوا . فقال عليه السلام : " انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فحين " .  
 فانزل الله هذه الآية رقاً عليهم ، وإبطالا لقولهم وتصرفهم بجهلهم ، فان الورثة الصغار كان  
 ينبغي أن يكونوا أحق بالمال من الكبار ، لعدم تصرفهم والنظر في مصالحهم ، فعكسوا الحكم ،  
 وأبطالوا الحكمة فضلبوا بأموالهم ، وأخطئوا في آرائهم وتصرفاتهم .

الثانية - قال علماؤنا : في هذه الآية فوائد ثلاث : إحداها - بيان ملة الميراث  
 وهي القرابة . الثانية - عموم القرابة كيها تصرفت من قريب أو بعيد . الثالثة - إجمال  
 النسيب المفروض . وذلك مبين في آية الموارث ؛ فكان في هذه الآية قرينة للحكم ، وإبطال  
 لذلك الرأي الفاسد حتى وقع البيان الشافي .

الثالثة - ثبت أن أبا طلحة لما تصدق بماله - بخرائه - وذكر ذلك للنبي صلى  
 الله عليه وسلم قال له : " اجعلها في قراء أقاربك " فجعلها لحسان وأبي . قال أنس : وكانا  
 أقرب إليه مني . قال أبو داود : بلغني عن محمد بن عبد الله الأنصاري أنه قال : أبو طلحة  
 الأنصاري زائد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مائة بن عدي بن عمرو بن  
 مالك بن النجار . وحسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عثمان في الأب الثالث وهو حرام .  
 وأبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار . قال  
 الأنصاري : بين أبي طلحة وأبي ستة آباء . قال : وعمرو بن مالك يجمع حسان وأبي بن كعب



وأيا طلعة . قال أبو عمر : في هذا ما يقضى على القرابة أنها ما كانت في هذا القمء ونحوه ، وما كان دونه فهو أخرى أن يلحقه اسم القرابة .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ يَمَّا قُلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيحًا مَقْرُوضًا ﴾ أثبت الله تعالى للبنات نصيبا في الميراث ولم يبين كم هو ؛ فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سويد وعريقفة ألا يغزتا من مال أوس شيئا ؛ فإن الله جعل لبناته نصيبا ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل ريشا . فتركت « يَوْمَئِذٍ اللَّهُ فِي وَلَدَيْكُمْ » إلى قوله تعالى « الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » فأرسل إليهما أن أعطيا أم حنيفة الثمن بما ترك أوس ، ولبناته الثلثين ، ولكما بقية المال .

الخامسة - استحلل علماؤنا بهذه الآية في قسمة المترك على الفرائض إذا كان فيه تغيير من حاله ، كالجمام والبيت وبنة الزيتون والدار التي تبطل منافعتها بإقرار أهل السهام فيها . فقال مالك : يقسم ذلك وإن لم يكن في نصيب أحدهم ما ينتفع به ؛ لقوله تعالى : « يَمَّا قُلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيحًا مَقْرُوضًا » . وهو قول ابن كثة ، وبه قال الشافعي ، ونحوه قول أبي حنيفة . قال أبو حنيفة : في الدار الصغيرة بين اثنين فطلب أحدهما القسمة وأبى صاحبه فقسمت له . وقال ابن أبي ليلى : إن كان فيهم من لا ينتفع بما قسم له فلا يقسم . وكل قسم يدخل فيه الضرر على أحدهما دون الآخر فإنه لا يقسم ؛ وهو قول أبي نور . قال ابن المنذر : وهو أصح القولين . ورواه ابن القاسم عن مالك فيما ذكر ابن العربي . قال ابن القاسم : وأنا أرى أن كل ما لا ينقسم من الدور والمنازل والجمامات ، وفي قسمته الضرر ولا ينتفع به إذا قسم أن يباع ولا شفعة فيه ؛ لقوله عليه السلام . « الشفعة في كل ما لا يقسم فإذا وقعت الحدود فلا شفعة » . فجعل عليه السلام الشفعة في كل ما يأتى فيه إيقاع الحدود . وعلق الشفعة فيما لم يقسم مما يمكن إيقاع الحدود فيه . هذا دليل الحديث .

قلت : ومن المجبة لهذا القول ما أخرجه الدارقطني من حديث ابن جريج أخبرني صديق ابن موسى عن محمد بن أبي بكر عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تنضية

على أهل الميراث إلا ما حمل القسم . قال أبو عبيد : هو أن يموت الرجل ويَدَعَ شيئا إن قَسَمَ بين ورثته كان في ذلك ضرر على جميعهم أو على بعضهم . يقول : فلا يقسم ؛ وذلك مثل الجوهرة والحمام واللبان وما أشبه ذلك . والنصيحة الثفرى ؛ يقال : عَصَيْتَ الشيءَ إذا فَوَقْتَهُ . ومنه قوله تعالى : « الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ » . وقال تعالى : « غَيْرُ مُضَارٍّ » ففنى المضارة . وكذلك قال عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » . وأيضا فإن الآية ليس فيها تَمَرُضٌ للقسمة ، وإنما انقضت الآية وجوب الحفظ والنصيب للصغير والكبير قليلا كان أو كثيرا ، رداً على الجاهلية فقال : « لِلرَّجُلِ نَصِيبٌ » « لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ » وهذا ظاهر جدا . فإما إيراد ذلك النصيب فإنما يؤخذ من دليل آخر ؛ وذلك بأن يقول الوارث : قد وجب لى نصيبٌ بقول الله عز وجل فَكُنْتُمْ مِنْهُ ؛ فيقول له شريكه : أما تمكيتك على الاختصاص فلا يمكن ؛ لأنه يؤدي إلى ضرر بيني وبينك من إفساد المال ، وتغير الهيئة ، وتنقيص القيمة ؛ فيقع الترجيح . والأظهر سقوط القسمة فيما يَظِلُّ المنفعة وينقص المال مع ما ذكرناه من القليل . والله الموفق .

قال الفراء : « نَصِيباً مَقْرُوضاً » هو كقولك : قسما واجبا ، وحقا لازما ؛ فهو أسمٌ في معنى المصدر فلهذا انتصب . الزجاج : انتصب على الحال . أى لهؤلاء أنصبا في حال القرض . الأخفش : أى جعل الله ذلك لهم نصيباً . والمفروض : المقدر الواجب .

قوله تعالى : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾  
فيه أربع مسائل :

الأولى - بين الله تعالى أن من لم يستحق شيئا إرثا وحضر القسمة ، وكان من الأقارب أو اليتامى والفقراء الذى لا يبرئون أن يُكْرَمُوا ولا يُجْرَمُوا ، إن كان المال كثيرا ؛ والاعتذار إليهم إن كان عسارا أو قليلا لا يقبل الرخص<sup>(١)</sup> . وإن كان عطلة من القليل ففيه أجر عظيم ؛

درهم يسبق مائة ألف . فالآية على هذا القول مُحْكَةٌ ؛ قاله ابن عباس . وامتنل ذلك جماعة  
 من التابعين : عروة بن الزبير وغيره ، وأمر به أبو موسى الأشعري . وروى عن ابن عباس أنها  
 منسوخة نسخها قوله تعالى « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلَّذِي كَرِهْتُمُ لَهُ حَصَّ الْأُنثَى » . وقال سعيد  
 ابن المسيب : نسخها آية الميراث والوصية . ومن قال إنها منسوخة أبو مالك وعكرمة  
 والضحاك . والأقول أصح ؛ فإنها مينة استحقاق الورثة لتصيبهم ، واستحباب المشاركة لمن  
 لا نصيب له ممن حضرم . قال ابن جبير : ضج الناس هذه الآية . قال الحسن :  
 ولكن الناس تخموا . وفي البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى : « وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ  
 أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ » قال : هي عككة وليست بمنسوخة . وفي رواية قال :  
 إن ناسا يزعمون أن هذه الآية تُسخت ، لا والله ما نسخت ؛ ولكنها عما تهاون بها ؛ هما واليان :  
 وإل يرث وذلك الذي يرزق ، وإل لا يرث وذلك الذي يقول « بالمعروف » ويقول : لا أملك  
 لك أن أعطيك . قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين عند قسمة موارثهم أن يصلوا أرحامهم ،  
 ويتأملهم ومساكينهم من الوصية ، فإن لم تكن وصية وصل لهم من الميراث . قال النحاس :  
 وهذا أحسن ما قيل في الآية أنت يكون على التدب والترغيب في فعل الخير ، والشكره  
 عز وجل . وقالت طائفة : هذا الرِّحْ واجب على جهة الفرض ، تعطى الورثة لهذه الأصناف  
 ما طابت به نفوسهم ، كالمساعون والثوب الخلق وما خف . حكى هذا القول ابن عطية  
 والقشيري . والصحيح أن هذا على التدب ؛ لأنه لو كان قرضا لكان استحقاقا في التركة  
 ومشاركة في الميراث ؛ لأحد الجهتين معلوم ولا ترجيح . فذاك مناقض للحكمة ، وسبب  
 للتنازع والتقاطع . ودعت فرقة إلى أن المخاطب والمراد في الآية المحتضرون الذين يسمون  
 أموالهم بالوصية لا الورثة . وروى عن ابن عباس وسعيد بن المسيب وابن زيد . فإذا أراد  
 المريض أن يفرق ماله بالوصايا وحضره من لا يرث ينفق له ألا يجرمه . وهذا — والله أعلم —  
 يتناول حيث كانت الوصية واجبة ، ولم تنزل آية الميراث . والصحيح الأول وعليه المعزول .

الثانية - فإذا كان الوارث صغيراً لا يتصرف في ماله؛ فقالت طائفة: يُعطى ولداً الوارث الصغير من مال محجوره بخبر ما يرى. وقيل: لا يعطى بل يقول لمن حضر القسمة: ليس لي شيء من هذا المال إنما هو للقيم، فإذا بلغ عرفه حكم. فهذا هو القول المعروف. وهذا إذا لم يؤمس الميث له بشيء، فإن أوصى بصرف له ما أوصى. ورأى عبيدة ومحمد ابن سيرين أن الرزق في هذه الآية أن يصنع لهم طعاماً ياكلونه؛ وفلاً ذلك، ذبحاً شاة من التركة، وقال عبيدة: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي. وروى قتادة عن يحيى بن يعمر قال: ثلاث عُمَكات تركهن الناس: هذه الآية، وآية الاستئذان «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلْنِمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، وقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى».

الثالثة - قوله تعالى: (مِنْهُ) الضمير عائد على معنى القسمة، إذ هي بمعنى المال والميراث؛ لقوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَخْرِجْهَا مِنْ وَطْءِ أَخِيهِ» أي السقاية؛ لأن الصواع مذكرة ومنه قوله عليه السلام: «وَأَتَى دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» فأعاد مذكرة على معنى الدعاء. وكذلك قوله لسويد بن طارق الحبشي حين سأله عن الخمر «إنه ليس بدواء ولكنه داء» فأعاد الضمير على معنى الشراب. ومثله كثير. يقال: قاسمه المال وقاسمائه واقسمائه، والاسم القسمة مؤنثة؛ والقسم مصدر قسمت الشيء، فأقسم، والموضع مقيم مثل مجلس، وقسمهم الدهر فقسوا، أي فزقهم ففزعوا. والقسم التفريق. والله أعلم.

الرابعة - قوله تعالى: (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَرْغُوفًا) قال سعيد بن جبير: يقال لم خذوا بورك لكم. وقيل: قولوا مع الرزق ويدت أن لو كان أكثر من هذا. وقيل: لا حاجة مع الرزق إلى عنبر، ثم إن لم يصرف إليهم شيء فلا أقل من قول جميل ونوع اعتقاد.

قوله تعالى: وَلَيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا

عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ⑤

فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : ( وَلْيَخْشَ ) حذف الألف من « لِيَخْشَ » للجزم بالأمر ، ولا يجوز عند سيويه إعمال لام الأمر قياسا على حروف الجر إلا في ضرورة الشعر . وأجاز الكوفيون حذف اللام مع الجزم ، وأنشد الجميع :

عَدُّ نَفْسٍ نَفْسَكَ كُلَّ نَفْسٍ • إِنْ مَا خِفْتَ مِنْ شَيْءٍ تَبَالَا

أرادتُفد ، ومفعول « يخش » محذوف لدلالة الكلام عليه . و ( حَاتُوا ) جواب « لو » . التقدير لو تركوا حاتموا . ويجوز حذف اللام في جواب « لو » . وهذه الآية قد اختلف العلماء في تأويلها ، فقالت طائفة : هذا وعظ للأوصياء ، أى اتصلوا باليتامى ما يحبون أن يفعل بأولادكم من بعدكم ، قاله ابن عباس . ولهذه قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا » . وقالت طائفة : المراد جميع الناس ، أمرهم بأخفاء الله في الإيتام وأولاد الناس ، وإن لم يكونوا في مجورهم . وأن يستدوا لهم القول كما يريد كل واحد منهم أن يفعل بولده بعده . ومن هذا ما حكاه الشيباني قال : كنا على قسطنطينية في عسكر مسلمة بن عبد الملك ، بلغنا يوما في جماعة من أهل علم فهم آبن الديلمي ، فذاكروا ما يكون من أحوال آخر الزمان . فقلت له : يا أبا بشر ، وذى ألا يكون لى ولد . فقال لى : ما عليك ! ما من نسمة قضى الله بخروجها من رجل إلا نجيت ، أحب أو كره ، ولكن إن أردت أن تأمن عليهم فأبقى الله في غيرهم ، ثم تلا الآية . وفى رواية : ألا أدلك على أمر إن أنت أدركته نجى الله منه ، وإن تركت ولدا من بعدك حفظهم الله فيك ، فقلت : بلى ! فتلاه هذه الآية « وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا » إلى آخرها .

قلت : ومن هذا المعنى ما روى محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أحسن الصدقة جاز على الصراط ومن قضى حاجة أرملة أخلف الله في تركته » . وقول ثالث قاله جمع من المفسرين : هذا في الرجل يحضره الموت فيقول له من يحضره عند وصيته : إن الله سيرزق ولك فأنظر لنفسك ، وأوص بمالك في سبيل الله ، ونصتق واعتق . حتى يأتى على عاتق ماله أو يستغفره فيضر فلك بورته ، فهو عن ذلك »

فكان الآية تقول لم كما تخشون على ورثكم وورثتكم بعدكم، فكذلك فأخشوا على ورثة غيركم  
فلا يحملوه على تبذير ماله؛ قاله ابن عباس وقتادة والسدي وابن جبير والضحاك وبما جده روى  
سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: إذا حضر الرجل الوصية فلا ينبغي أن يقول أويس  
بمالك فإن الله تعالى رازق ولك، ولكن يقول قدّم لنفسك واترك لوليك. فذلك  
قوله تعالى: «فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ» وقال يقيم وحضري: نزلت في عكس هذا، وهو أن يقول  
للمحضر من يحضره أمك على ورثتك، وأيق لوليك فليس أحد أحق بمالك من أولادك،  
وينها عن الوصية، فيضرب بذلك ذؤوب القري وكل من يستحق أن يوصى له؛ ف قيل لم:  
كما تخشون على ذرئكم وتُسرون بأن يحسن إليهم، فكذلك سدّدوا القول في جهة المساكين  
والبائس، واتقوا الله في ضرهم. وهذان القولان مبنيان على وقت وجوب الوصية قبل نزول  
آية المواريث؛ روى عن سعيد بن جبير وابن المسيب. قال ابن عطية: وهذان القولان  
لا يطرد كل واحد منهما في كل الناس، بل الناس صفتان؛ يصلح لأحدهما القول الواحد،  
ولآخر القول الثاني. وذلك أن الرجل إذا ترك ورثته مستغنياً بأغنياء حسن أن يندب  
إلى الوصية، ويحمل على أن يقدم لنفسه. وإذا ترك ورثته ضعفاء مهمّلين مقلّين حسن أن  
يندب إلى الترك لم والأحياط. فإن أجره في قصده ذلك كأجره في المساكين؛ فالمرعاة إنما  
هو الضعيف فيجب أن يمال منه.

قلت: وهذا التخصيص صحيح؛ لقوله عليه السلام لسعد: «إنك إن تذر ورثك أغنياء خير  
من أن تذرهم عالة يتكفون الناس». فإذا لم يكن للإنسان ولد، أو كان وهو غني مستقل بنفسه  
وماله عن أبيه فقد أمن عليه؛ فالأولى بالإنسان حينئذ تقديم ماله بين يديه حتى لا ينفقه  
من بعده فيما لا يصلح، فيكون وزره عليه.

الثانية - قوله تعالى: «(وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) السديد: العدل والصواب من  
القول؛ أي أمرؤ المريض بأن يخرج من ماله ما عليه من الحقوق الواجبة، ثم يوصي لقرابته  
مقدّر لا يضر بورثته المفلو، وقيل: المعنى قولوا لبيت قولاً عدلاً، وهو أن يلتفت

بلا إله إلا الله ، ولا إله غيره ، ولكن يقول ذلك في نفسه حتى يسمع منه ويتقن .  
 هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " لقنوا موتاكم لا إله إلا الله " ولم يقل مُرُوهم ، لأنه  
 لو أمر بذلك لله ينضب ويحسد . وقيل : المراد اليتم ؛ أي لا تنهرو ولا تستخفوا به .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ**  
**فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴿٥٥﴾  
 فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **( إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا )** روى أنها نزلت  
 في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولي ماله ابن أخيه وهو يقيم صغير فأكله ، فنزل الله  
 تعالى فيه هذه الآية ؛ قاله مقاتل بن حيان . ولهذا قال الجمهور : إن المراد الأوصياء الذين  
 يأكلون ما لم يبيع لهم من مال اليتيم . وقال ابن زيد : نزلت في الكفار الذين كانوا لا يؤمنون  
 النساء ولا الصغار . وسمى أخذ المال على كل وجهه أكلاً لما كان المقصود هو الأكل  
 وبه أكثر اختلاف الأشياء . وخص البطون بالذكور لئلا ينقصهم ، ولتشجيع عليهم بضد مكارم  
 الأخلاق . وسمى المأكول نارا بما يشول إليه كقوله : **هَإِنِّي أَنَا فِي أَصْرُ نَعْرًا** ، أي عتياً .  
 وقيل : نارا أي حرماً ، لأن الحرام يوجب النار ، فسماه الله تعالى باسمه . وروى أبو سعيد  
 الخدري قال : حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة أميري به قال : **" رأيت قوما لهم**  
**مشافر كشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافهم ثم يحصل في أفولهم مضراً من نار**  
**يخرج من أسافلهم قلت يا جبريل من هؤلاء قال هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً " .** فدل  
 الكتاب والسنة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر . وقال صلى الله عليه وسلم : **" اجتنبوا**  
**السبع الموبقات "** وذكر فيها **" وأكل مال اليتيم "** .

الثانية - قوله تعالى : **( وَنَصِلَوْنَ سَعِيرًا )** وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية ابن  
 عباس بضم الباء على اسم ما لم يُسم فاعله ؛ من أصلاه الله حر النار أصلاه . قال الله تعالى :  
**" سَأَصْلِيهِ سَعَرَ "** . وقرأ أبو حنيفة بضم الباء وقبح الصاد وتشديد اللام من التصفية لكثرة الفعل

مرة بعد أخرى . دليله قوله تعالى : « ثم الجحيم صلّوه » . ومنه قولهم : صلّيته مرة بعد أخرى .  
وتصلّيت : استغفرت بالنار . قال :

وقد تصلّيت حرّ حرّهم \* كما تصلّى المفلور من قيس<sup>(١)</sup>

وقرأ الباقر بفتح الباء من صلّى النار يصلها صلّى وصلا . قال الله تعالى : « لا يصلها إلا الأتقى » . والصلاة هو التسخن بقرب النار أو مباشرتها ، ومنه قول الحارث بن عباد :  
لم أكن من جئاتها علم الله \* وإني لحرقها اليوم صال<sup>(٢)</sup>  
والسعر : البحر المشتمل .

الثالثة - وهذه آية من آيات الوعيد ، ولا حجة فيها لمن يكفر بالذنوب . والذي يعتقد أهل السنة أن ذلك نافذ على بعض العصاة فيصل ثم يحترق ويموت ؛ بخلاف أهل النار لا يموتون ولا يحترقون ، فكان هذا جمع بين الكتاب والسنة ، لتلايق الخبر فيهما على حل خلاف غيره . ساقط بالمشقة عن بعضهم ؛ لقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بشرّك به ويغير ما دون ذلك لمن يشاء » . وهكذا القول في كل ما ردد عليك من هذا المعنى . روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحترقون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فقامتهم الله إمامة حتى إذا كانوا حتماً أذن بالشفاعة فجاءهم صبا ترصبا ترقبوا على أنهار الجنة ثم قيل لأهل الجنة أفيضوا عليهم فينبئون كما تنبت الحبة في حبل السيل<sup>(٣)</sup> » . فقال وجل من القوم كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان بالبادية .

قوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ<sup>(٤)</sup>  
فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ آثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا<sup>(٥)</sup>  
الْثَنِيصُ وَلَا بُوَيْهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ<sup>(٦)</sup>

د (١) قيس المفلور : إذا لم ينل عملا يده من ثمة النصر . والنصر (بالفتح) : البرد يجده الإنسان في أطرافه .

(٢) الصبا : المطقة في خفة .

(٣) حبل السيل : ما يحمل من الماء والطين .

(٤) الحبة (بالسر) : بذور الصمغ . ما ليس بقوت .



فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرَّثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلثُلُثِ فَإِنْ كَانَ لَهُ ابْنَةٌ  
فَلِلثُلُثِ السُّدُسِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ  
لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا  
حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لهنَّ وَلَدٌ فَإِنْ  
كَانَ لهنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِيْنَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ  
وَلهنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلهنَّ  
اَلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ  
يُورِثُ كَلَّةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مَنهُمَا السُّدُسُ  
فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمُ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي  
بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ  
اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ  
حُدُودَهُ يَدْخُلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

فيه خمس وثلاثون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ يُوْصِيْكُمْ اللّٰهُ فِيْ أَوْلَادِكُمْ ﴾ بين تعالى في هذه الآية ما أجمله  
في قوله : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ » و « لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ » فدلّ هذا على جواز تأخير البيان عن وقت  
السؤال . وهذه الآية ركن من أركان الدين ، ومُعَدَّة من عُمَد الأحكام ، وأتم من إتمام  
الآيات ؛ فإن الفرائض عظيمة القدر حتى أنها تلت العلم ، وروى نصف العلم . وهو أزل  
علم يتبع من الناس ويُنسى . رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله

عليه وسلم قال : " تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلِّمُوا النَّاسَ فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْفَى وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يَنْتَرَجُ مِنْ أُمَّتِي " . وروى أيضا عن عبد الله بن مسعود قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَعَلِّمُوا النَّاسَ وَتَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلِّمُوا النَّاسَ وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَعَلِّمُوا النَّاسَ فَإِنَّ أَمْرَهُ مَقْبُوضٌ وَإِنَّ الْعِلْمَ سَيَقْبِضُ وَتُظْهِرُ الْفِتْنُ حَتَّى يَخْتَلِفَ الْإِثْنَانُ فِي الْفَرِيضَةِ لَا يَحْدِثَانِ مِنْ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا " . وإِذَا ثَبِتَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَرَائِضَ كَانَ جُلَّ عِلْمِ الصَّعَابَةِ ، وَعَظِيمِ مَنَاطِرَتِهِمْ ، وَلَكِنَّ الْخَلْقَ قَدْ خَشِعُوا . وقد روى مُطَرِّفٌ عَنْ مَالِكٍ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : مَنْ لَمْ يَتَعَلَّمِ الْفَرَائِضَ وَالطَّلَاقَ وَالْجَنَابَ فَمَنْ يَفْضِلُ أَهْلَ الْبَادِيَةِ ؟ وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : كُنْتُ أَسْمِعُ رِبْعَةَ يَقُولُ مَنْ تَعَلَّمَ الْفَرَائِضَ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِهِمَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا أَسْرَعَ مَا يَنْسَاهَا . قَالَ مَالِكٌ : وَصَدَقَ .

الثانية - روى أبو داود والدارقطني عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ وَمَا يَسُوِي ذَلِكَ فَهُوَ فَضِيلٌ : آيَةُ الْحِكْمَةِ أَوْ سُنَّةُ قَائِمَةٍ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ " . قال الخطابي أبو سليمان : آيَةُ الْحِكْمَةِ هِيَ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَاشْتَرَطَ فِيهَا الْإِحْكَامَ ، لِأَنَّ مِنَ الْآيِ مَا هُوَ مَنْسُوخٌ لَا يُعْمَلُ بِهِ ، وَإِنَّمَا يُعْمَلُ بِتَاخُذِهِ . وَالسُّنَّةُ الْقَائِمَةُ هِيَ الثَّابِتَةُ مِمَّا جَاءَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ السُّنَنِ الثَّابِتَةِ . وَقَوْلُهُ : " أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ " يَحْتَمِلُ رَجْعَهُنِ مِنَ التَّأْوِيلِ : أَحَدُهُمَا - أَنْ يَكُونَ مِنَ الْعَدْلِ فِي الْقِسْمَةِ ، فَتَكُونُ مَعْدِلَةً عَلَى الْأَنْصَابِ وَالسَّهَامِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَةِ . وَالرَّوْجُ الْآخَرُ - أَنْ تَكُونَ مُسْتَبَدَّةً مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَةِ وَمِنْ مَعْنَاهَا فَتَكُونُ هَذِهِ الْفَرِيضَةُ تَمْدِيلُ مَا أُخِذَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَةِ إِذْ كَانَتْ فِي مَعْنَى مَا أُخِذَ مِنْهُمَا تَصْماً . رَوَى حِكْمَةُ قَالَ : أَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ يُسَالُهُ عَنْ أَمْرَةِ تَرَكْتَ زَوْجِيهَا وَأَبُوهَا . قَالَ : لِلزَّوْجِ النِّصْفُ ، وَالْأُثْمُ ثَلَاثُ مَا بَقِيَ . فَقَالَ : تَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَوْ قَوْلِهِ بَرَأَى ؟ قَالَ : أَقُولُهُ بَرَأَى ، لَا أَفْضَلَ أَمَّا عَلَى أَبِي . قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ : فَهَذَا مِنْ بَابِ تَمْدِيلِ الْفَرِيضَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا نَصٌّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ اعْتَبَرَهَا بِالْمَنْصُورِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَوَرِثَةُ آبَائِهِ فَلِلَّامَةِ الثَّلَاثُ » . فَلَمَّا وَجَدَ نَصِيبَ الْأُمِّ الثَّلَاثَ ، وَكَانَ بَاقِي

المال وهو الثلثان للأب، فاسم النصف الفاضل من المال يذهب نصيب الزوج على كل المال إذا لم يكن مع الوالدين أب أو ذو سهم، وقسمه بينهما على ثلاثة، لأنهم سهم ولأب سهمان وهو الباقي. وكان هذا أعدل في القسمة من أن يسقط الأم من النصف الباقي ثلث جميع المال، ولأب ما بقى وهو السدس، ففضلها عليه فيكون لها وحى مفضولة في أصل الموروث أكثر مما لأب وهو المقدم والمفضل في الأصل. وذلك أعدل مما ذهب إليه ابن عباس من توفيه الثلث على الأم، ويخمس الأب حقه برده إلى السدس، فترك قوله وصار عامة الفقهاء إلى زيد. قال أبو عمر وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه في زوج وأبوين: للزوج النصف، ولأب ثلث جميع المال، ولأب ما بقى. وقال في امرأة وأبوين: للراة الربع، ولأب ثلث جميع المال، وباقي للأب. وبهذا قال شريح القاضي وعبد بن سيرين وداود ابن علي، وفرقة منهم أبو الحسين محمد بن عبد الله القرضي البصري المعروف بابن البيان في المسائل جميعا. وزعم أنه قياس قول علي في المشتركة. وقال في موضع آخر: إنه قد روى ذلك عن علي أيضا. قال أبو عمر: المعروف المشهور عن علي وزيد وعبد الله وسائر الصحابة وعامة العلماء ما رسمه مالك. ومن الجمة لم علي ابن عباس: أن الأبوين إذا اشتركا في الورثة، ليس معهما غيرها، كان لأب الثلث ولأب الثلثان. وكذلك إذا اشتركا في النصف الذي يفضل عن الزوج، كانا فيه كذلك على ثلث وثلثين. وهذا صحيح في النظر والقياس.

الثالثة — وأختلفت الروايات في سبب نزول آية الموارث؛ فروى الترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارقطني عن جابر بن عبد الله أن امرأة سعد بن الربيع قالت: يا رسول الله، إن سعدا هلك وترك ابنتين وأخاه، فسمد أخوه فقبض ما ترك سعد، وإنما شجع النساء على أموالهن؛ فلم يجها في مجلسها ذلك. ثم جاءت فقالت: يا رسول الله، ابنتا سعد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أدع لي أخاه" بلاء قال: "ادفع إلى ابنتيه الثلثين وإلى امرأته اثنتين ولك ما بقى". لفظ أبي داود. في رواية الترمذي وغيره: فترك آية الميراث. قال: هذا حديث صحيح. وروى جابر أيضا قال: عاذني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر

في بن سُلَيْمَةَ بِمِثْلَانِ ، فوجداني لا اعقل ، قدما بماء قنوصاً ، ثم رَشَ على منه فَأَقْعَتْ .  
قلت : كيف أصنع في مالي يا رسول الله ؟ فقلت « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ . » . أخرجاه  
في الصحيحين . وأخرجه الترمذي وفيه « فقلت يا نبي الله كيف أقسم مالي بين ولدي ؟ »  
فلم يرد علي شيئا فقلت « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي كَرِهْتُمُ حَقَّ الْأُنثَيْنِ » الآية . قال :  
حدثني حسن صحيح . « وفي البخاري عن ابن عباس أن نزول ذلك كان من أجل أن المال  
كان للولد ، والوصية للوالدين ؛ فنسخ ذلك بهذه الآية . وقال مقاتل والكوفي : نزلت  
في أم حَكَّة ؛ وقد ذكرناها . السدي : نزلت بسبب بنت عبد الرحمن بن ثابت أُمِّي حسان  
ابن ثابت . وقيل : إن أهل الجاهلية كانوا لا يُورثون إلا من لاقى الحروب وقتل العدو ؛  
فنزلت الآية تبيناً أن لَتَلِ صغير وكبير حَقَّهُ . ولا يبعد أن يكون جواباً لجميع ، ولذلك تأخر  
نزولها . والله أعلم . قال اليكيا الطبري : وقد ورد في بعض الآثار أن ما كانت الجاهلية تفعله  
من ترك توريث الصغير كان في صدر الإسلام إلى أن نسخته هذه الآية . ولم ينبت عندنا  
اشتغال التسمية على ذلك ، بل ثبت خلافه ؛ فإن هذه الآية نزلت في ورثة سعاد بن الربيع  
وقيل : نزلت في ورثة ثابت بن قيس بن ثُمْلَس . والأول أصح عند أهل النقل . فاسترجع  
رسول الله صلى الله عليه وسلم الميراث من العم ، ولو كان ذلك ثابتاً من قبل في شرعنا  
ما استرجعناه . ولم ينبت خطأ في شرعنا أن الصبي ما كان يُمَتَّى الميراث حتى يقاتل على الفرس  
ويذهب عن الحريم .

قلت : وكذلك قال القاضي أبو بكر بن العربي : ودل نزول هذه الآية على نكته بديعة ؛  
وهو أن ما كانت الجاهلية تفعله من أخذ المال لم يكن في صدر الإسلام شرعاً مسكوتاً  
مُقرّاً عليه ، لأنه لو كان شرعاً مُقرّاً عليه لما حكم النبي صلى الله عليه وسلم على عم الصيغتين  
بِرَدِّ ما أخذ من مالهما ؛ لأن الأحكام إذا مضت وجاء النسخ بعدها إنما يؤثر في المستقبل  
فلا ينقض به ما تقدم وإنما كانت ظلامه رُفِعَتْ . <sup>(١)</sup> قاله ابن العربي .

**الرابعة** - قوله تعالى : « يُوْصِيْكُمْ اللهُ فِيْ أَوْلَادِكُمْ » قالت الشافعية : قول الله تعالى « يُوْصِيْكُمْ اللهُ فِيْ أَوْلَادِكُمْ » حقيقة في أولاد الصلْب ، فأما ولد الابن فإما يدخل فيه بطريق الخلف ، فإذا خلف لا ولد له وله ولد ابن لم يحتسب ، وإذا أوصى لولد فلان فلم يدخل فيه وله ولد ، وأبو حنيفة يقول : إنا يدخل فيه إن لم يكن له ولد صلْب . ومعلوم أن الاحتفاظ لا يتغير بما قالوه .

**الخامسة** - قال ابن المنذر : لما قال تعالى « يُوْصِيْكُمْ اللهُ فِيْ أَوْلَادِكُمْ » فكان الذي يجب على ظاهر الآية أن يكون الميراث لجميع الأولاد ، المؤمنين منهم والكافرين ، فلما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يرث المسلم الكافر » علم أن الله أراد بعض الأولاد دون بعض ، فلا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم على ظاهر الحديث .

قلت : ولما قال تعالى : « فِيْ أَوْلَادِكُمْ » دخل فيه الأسير في أيدي الكفار ، فإنه يرث ما دام تعلم حياته على الإسلام . وبه قال كافة أهل السلم ، إلا النخعي فإنه قال : لا يرث الأسير ، فلما إذا لم تعلم حياته حكمه حكم المفقود . ولم يدخل في عموم الآية ميراث النبي صلى الله عليه وسلم لقوله : « لا تُورَث ما تركناه صدقة » . وسيأتي بيانه في « مريم » إن شاء الله تعالى . وكذلك لم يدخل القتال عمدا لأبيه أو جده أو أخيه أو عمه بالنسبة وإجماع الأمة ، وأنه لا يرث من مال من قتل ولا من دينه شيئا ، على ما تقدم بيانه في البقرة . فإن قتل خطأ فلا ميراث له من الذية ، ويرث من المال في قول مالك ، ولا يرث في قول الشافعي وأحمد وسفيان وأصحاب الرأي من المال ولا من الذية شيئا ، حسبما تقدم بيانه في البقرة .<sup>(١)</sup> وقول مالك أصح ، وبه قال إسحاق وأبو ثور . وهو قول سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح ومجاهد والزهري والأوزاعي وابن المنذر ، لأن ميراث من ورثه الله تعالى في كتابة ثابت لا يستثنى منه إلا بسنة أو إجماع . وكل غنْف فيه فردود إلى ظاهر الآيات التي فيها المسواريث .

والكأندسة - اعلم ان الميراث كان يُصَحَّق في أوَّل الإسلام بأَسباب ؛ منها الحلف  
 والمعجزة والمعاندة ، ثم نسخ على ما يأتي بيانه في هذه السورة عند قوله تعالى : « وَلِكُلِّ جَلَّةٍ  
 مَّوَالٍ » إن شاء الله تعالى . وأجمع العلماء على أن الأولاد إذا كان معهم من له فرض مسمى  
 أُعطيَّه ، وكان ما بقي من المال للذكر مثل حظ الأنثيين ؛ لقوله عليه السلام : « الحَقُوا  
 الفرائض بأهلها » رواه الأئمة . يعني الفرائض الواقعة في كتاب الله تعالى . وهي ستة :  
 النصف والزوج والتمن والثلاثان والثلث والسدس . فالنصف فرض خمسة : أبنة الصلب ،  
 وأبنة الابن ، والأخت الشقيقة ، والأخت للأب ، والزوج . وكل ذلك إذا انفردوا عن  
 يجمعين عنه . والزوج فرض الزوج مع الحاضِر ، وفرض الزوجة والزوجات مع عدمه . والتمن  
 فرض الزوجة والزوجات مع الحاضِر . والثلاثان فرض أربع : الاثنين فصاعدا من بنات  
 الصلب ، وبنات الابن ، والأخوات الأشقاء ، والأب . وكل هؤلاء إذا انفردن عن يجمعين  
 عنه . والثلث فرض صفتين : الأم مع عدم الولد ، وولد الابن وعدم الاثنين فصاعدا من  
 الإخوة والأخوات ، وفرض الاثنين فصاعدا من ولد الأم . وهذا هو ثلث كل المال .  
 فأما ثلث ما يبقى فذلك للام في مسألة زوج أو زوجة وأبوان ؛ فلام فيها ثلث ما يبقى .  
 وقد تقدَّم بيانه . وفي مسائل البلدة مع الإخوة إذا كان معهم ذوسهم وكان ثلث ما يبقى  
 احتل له . والسدس فرض سبعة : الأبوان والبلدة مع الولد وولد الابن ، والبلدة والبلدات  
 إذا اجتمعن ، وبنات الابن مع بنت الصلب ، والأخوات للأب مع الأخت الشقيقة ،  
 والواحد من ولد الأم ذكرًا كان أو أنثى . وهذه الفرائض كلها مأخوذة من كتاب الله تعالى  
 إلا فرض البلدة والبلدات فإنه مأخوذ من السنة . والأسباب الموجبة لهذه الفروض بالميراث  
 ثلاثة أشياء : نَسَب ثابت ، ونكاح متقدِّم ، وولاء عتاقية . وقد يجمع الثلاثة الأشياء فيكون  
 الرجل زوج المرأة ومولاها وابن عمها . وقد يجمع فيه منها شيان لا أكثر ، مثل أن يكون  
 زوجها ومولاها ، أو زوجها وابن عمها ؛ فيرتب بوجهين ويكون له جميع المال إذا انفرد ، نصفه

بالزوجة ونصفه بالولاء أو بالنسب ؛ ومثل أن تكون المرأة أئمة الرجل ولو لم يكن ، فيكون لها أيضا جميع المال إذا انفردت ، نصفه بالنسب ونصفه بالولاء ، والزوج نصفه بالزوجة .

السابعة - فلا ميراث إلا بعد أداء الدين والوصية ؛ فإذا مات المثلوث أخرج من تركته الحقوق الميئنة ، ثم ما يلزم من تكفينه وتجهيزه ، ثم الدين على مراتبها ، ثم يخرج من الثلث الوصايا ، وما كان في ممتلكها على مراتبها أيضا ، ويكون الباقي ميراثا بين الورثة . وبعثهم سبعة عشر . عشرة من الرجال : الابن وابن الابن وإن سفل ، والأب وأب الأب وهو الجد وإن علا ، والأخ وابن الأخ ، والعم وابن العم ، والزوج ومولى النعمة . وورث من النساء سبع : البنت وبنت الابن وإن سفلت ، والأم والجدلة وإن علت ، والأخت والزوجة ، ومولاة النعمة وهي المعتقة . وقد نظمهم بعض الفضلاء فقال :

والوارثون إن أردت جمعهم \* مع الإناث الوارثات معهم  
عشرة من جملة الذكور \* وسبع أشخاص من النسوان  
وهم وقد حصرتهم في التنظيم \* الابن وابن الابن وابن العم  
والأب منهم وهو في الترتيب \* والجد من قبل الأخ القريب  
وابن الأخ الأدنى أجل والعم \* والزوج والسيد ثم الأم  
وابنة الابن بعدها والبنت \* وزوجة وجدة وأخت  
والمرأة المولاة أعنى المعتقة \* خذها إليك عدة محققه

الثامنة - لما قال تعالى : « فِي أَوْلَادِكُمْ » يتناول كل ولد كان موجودا أو جينسا في بطن أمه ، ذنبا أو يبيدا ، من الذكور أو الإناث ما عدا الكافر كما تقدم . قال بعضهم : ذلك حقيقة في الأذنين مجاز في الأبعدين . وقال بعضهم : هو حقيقة في الجميع ؛ لأنه من التولد غير أنهم يرتبون على قدر القرب منهم ؛ قال الله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ » . وقال عليه السلام : « أنا سيد ولد آدم » . وقال : « يا بني اسمعيل أوموا فإن أباكم كان راميا » إلا أنه غلب عرف الاستعمال في إطلاق ذلك على الأعيان الأذنين على تلك الحقيقة ؛ فإن كان

في ولد الصلب ذكر لم يكن لولد الولد شيء ، وهذا مما أجمع عليه أهل العلم . وإن لم يكن  
في ولد الصلب ذكر وكلف في ولد الولد بُدئ بالبنات للصلب ، فاعطين إلى مبلغ الثلثين ،  
ثم أعطى الثلث الباقي لولد الولد إذا استورا في القمعة ، أو كان الذكر أسفل ممن دفعه من  
البنات ، للذكر مثل حظ الأنثيين . هذا قول مالك والشافعي وأصحاب الرأي . وبه قال  
عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ؛ إلا ما يروى عن ابن مسعود أنه قال :  
إن كان الذكر من ولد الولد بإزاء الولد الأختي رد عليها ، وإن كان أسفل منها لم يرز عليها ؛  
مراعيا في ذلك قوله تعالى : « فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَهَبْنِ لَهُمَا مَا تَرَكَ » فلم يجعل للبنات  
وإن كثرن إلا الثلثين

قلت : هكذا ذكر ابن العربي هذا التفصيل عن ابن مسعود ، والذي ذكره ابن المنذر  
والبايع عنه : أن ما فضل عن بنات الصلب ليني الإبن دون بنات الإبن ، ولم يفسد .  
وحكاه ابن المنذر عن أبي ثور . ونحوه حكى أبو عمر ، قال أبو عمر : وخالف في ذلك  
ابن مسعود فقال : وإذا استكمل البنات الثلثين فالباقي ليني الإبن دون أخواتهم ، ودون من  
فوقهم من بنات الإبن ، ومن تحتهم . وإلى هذا ذهب أبو ثور ودาวود بن علي . وروى مثله عن  
علقمة . وحجة من ذهب بهذا المذهب حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه  
قال : « أفسموا المال بين أهل الفرائض على كتاب الله فابقت الفرائض فلا ولي رجل  
ذكر » . خرجه البخاري وسلم وغيرهما . ومن حجة الجمهور قول الله عز وجل : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ  
فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَى » لأن ولد الولد ولد . ومن جهة النظر والقياس أن كل  
من يقسم من في درجته في حلة المال فواجب أن يقسمه في الفاضل من المال ؛ كأولاد  
الصلب . فوجب بذلك أن يشرك ابن الإبن أخته ، كما يشرك الإبن للصلب أخته . فإن  
احتج محتج لأبي ثور ودาวود أن بنت الإبن لما لم ترث شيئا من الفاضل بعد الثلثين منفردة  
لم يقسمها أحوها . فالجواب أنها إذا كان معها أخوها قويت به وصارت عصبة معه .  
وظاهر قوله تعالى : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » وهي من الولد .



التاسعة عند قوله تعالى: ﴿قَالَ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثَلَاثًا مَا تَرَكَ﴾ الآية؛ فرض تعالى للواحدة النصف، وفرض لما فوق الثنتين الثلثين، ولم يفرض للثنتين فرضاً منصوباً في كتابه، فتكلم البهائم في القليل الذي يوجب لها الثلثين ما هو؛ القليل: الإجماع، وهو مردود؛ لأن الصحيح عن ابن عباس أنه أعطى البتين النصف؛ لأن الله عز وجل قال: «إِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثَلَاثًا مَا تَرَكَ» وهذا شرطٌ وجزء. قال: فلا أعطى البتين الثلثين. وقيل: أعطيتا الثلثين بالقياس على الأخنتين؛ فإن الله سبحانه لمّا قال في آخر السورة: «وَلَهُ أَخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ» وقال تعالى: «فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ» فألحقت الأختان بالأختين في الاشتراك في الثلثين، وألحقت الإخوات إذا زدن على اثنتين بالبنات في الاشتراك في الثلثين. واعتُرض هنا بأن ذلك منصوص عليه في الأخوات، والإجماع منقاد عليه فهو مسلم لذلك. وقيل: في الآية ما يدل على أن للبنتين الثلثين، وذلك أنه لما كانت للواحدة مع أخيها الثلث إذا اضرمت، علمنا أن للثنتين الثلثين. أخرج هذه الحجة، وقال هذه المقالة إسماعيل القاضي وأبو العباس المبرّد. قال النحاس: وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط؛ لأن الاختلاف في البتين وليس في الواحدة. فيقول مخالفه: إذا تركت بهن وأبنا فالبتين النصف؛ فهذا دليل على أن هذا فرضهم. وقيل: «فوق» زائدة، أي إن كن نساء اثنتين. كقوله تعالى: «فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْيَاقِ» أي الأعناق. وردّ هذا القول النحاس وابن عطية وقالوا: هو خطأ؛ لأن الظروف وجميع الأسماء لا يجوز في كلام العرب أن تزداد لغير معنى. قال ابن عطية: ولأن قوله تعالى: «فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْيَاقِ» هو التصحيح، وليست فوق زائدة بل هي محركة للمعنى؛ لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ. كما قال ترميد بن الصّمة: أخفض عن الدماغ وأرفع عن العظم، فهكذا كتبت أضرب أعناق الأبطال. وأقوى الاحتجاج في أن للبنتين الثلثين الحديث الصحيح المروي في سبب التزلول. ولغة أهل الجواز وبني أسد الثلث والرُّبع إلى المشر. ولغة بني تميم وربيعة

الثَلَاثَ لَا تَكُنَّ اللَّامُ إِلَى الْمَشْرِقِ (وَيَقَالُ: اِثْنَتَيْ يَوْمٍ أَثْنَتَيْهِمْ، وَثَلَاثَتِ الدَّرَاهِمُ أَثْنَتَا إِذَا تَمَعْتَهَا ثَلَاثَةً، وَاثْنَتَيْ هِيَ، إِلَّا أَنَّهُمْ قَالُوا فِي الْمِائَةِ وَالْأَلْفِ: أُمَايَتَا وَآلِفَتَا وَأَمَاتٌ وَآلِفَتٌ .  
 العاشرة — قوله تعالى: (وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ) قرأ نافع وأهل المدينة «واحدة» بالرفع على معنى وقعت وحدثت، فهي كان التامة، كما قال:

إِذَا كَانَ الشَّيْءُ نَادِفَتْهُ \* فَإِنَّ الشَّيْخَ يُرِيهِ اللِّتَاءُ

والباقون بالنصب . قال النحاس : وهذه قراءة حسنة . أى وإن كانت للمثروكة أو المولودة «واحدة» مثيل «فإن كن نساء» . فإذا كان مع بنات الصلب بناتُ أبْنٍ، وكان بنات الصلب اثنتين فصاعداً جِئْنَ بنات الابن أن يرثن بالفرض؛ لأنه لا مدخل لبنات الابن أن يرثن بالفرض في غير الثلثين . فإن كانت بنت الصلب واحدة فإن ابنة الابن أو بنات الابن يرثن مع بنات الصلب تكمة الثلثين؛ لأنه فرضُ يرثه البنات فإزاد . وبنات الابن يقمن بمقام البنات عند عدمهن . وكذلك أبناء البنين يقومون مقام البنين في الحجب والميراث . فلما حُذِمَ من يستحق منه الدس كان ذلك لبنت الابن، وهى أولى بالدس من الأخت الشقيقة للتوق . على هذا جمهور الفقهاء من الصحابة والتابعين؛ إلا ما يروى عن أبي موسى وسليمان بن أبي ربيعة أن البنات النصف، والنصف الثانى للأخت، ولا حق في ذلك لبنت الابن . وقد صح عن أبي موسى ما يقتضى أنه رجع عن ذلك . ورواه البخارى حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا أبو قيس سمعت هُرَيْبَ بْنَ شَرَحْبِيلَ قَالَ: سئل أبو موسى عن ابنة وأبنة ابن وأخت . فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف؛ وأنت ابن مسعود فإنه سيتأبى . سئل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين! أقضى فيها بما قضى النبي صلى الله عليه وسلم: للابنة النصف، وللأخت الابن الدس تكمة الثلثين، وما بقى فلاأخت . فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحُجْرَ نِكم . فإن كان مع بنت الابن أو بنات الابن ابن في درجتها أو أسفل منها عصبها، فكان النصف الباقي بينهما، لذكرى مثل حظ الأنثيين بالنسبة ما بلغ — خلافاً لابن مسعود على

ما تقدم -- إذا استوى جاث الصلب أو بنت الصلب وبنات الأبن الثلثين . وكذلك يقول في الأخت لأب وأم ، وأخوات وإخوة لأب : للأخت من الأب والأُم النصف ، والباقي للإخوة والأخوات ، ما لم يصب من المقاسمة أكثر من النصف ؛ فإن أصابت أكثر من النصف أعطاهن النصف ثلثة الثلثين ، ولم يذهبن على ذلك ، وبه قال أبو ثور .

الحادية عشرة -- إذا مات الرجل وترك زوجته حُيْلَ فإن المال يُوقف حتى يتيقن ما ترضع . وأجمع أهل العلم على أن الرجل إذا مات وزوجته حُيْلَ أن الولد الذي في بطنها يرث ويورث إذا خرج حياً واستهل<sup>(١)</sup> . وقالوا جميعاً : إذا خرج ميتاً لم يرث ؛ فإن خرج حياً ولم يستهل فمات طائفة لا ميراث له وإن تحرك أو عطس ما لم يستهل . هذا قول مالك والقاسم ابن محمد وابن مبرين والشَّعْبِيّ والزَّهْرِيُّ وقَتادة . وقالت طائفة : إذا عُرِفَ حياة المولود بغيرك أو صياحه أو رضاعه أو نفس فاحكامه أحكام الحَيِّ . هذا قول الشافعي وسفيان الثوري والأوزاعي . قال ابن المنذر : الذي قاله الشافعي يَحْتَمِلُ النظر ؛ غير أن الخبر يمنع منه وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود يُولَدُ إلا تحسه الشيطان فيستهل صارخاً من تحسه الشيطان إلا ابن مريم وأمّه " . وهذا خبر ، ولا يقع على الخبر النسخ .

الثانية عشرة -- لما قال تعالى : « فِي أَوْلَادِكُمْ » تناول الخثي وهو الذي له فرجان . وأجمع العلماء على أنه يُورَثُ من حيث يبُولُ ؛ إن بال من حيث يبُولُ الرجل ورث ميراث الرجل ، وإن بال من حيث تبُولُ للمرأة ورث ميراث المرأة . قال ابن المنذر : ولا أحفظ عن مالك فيه شيئاً ، بل قد ذكر ابن القاسم أنه هاب أن يسأل مالكاً عنه . فإن بال منهما معا فالعبر سبق البول ؛ قاله سعيد بن المسيب وأحمد وإسحاق . وحكى ذلك عن أصحاب الرأي . وروى قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال في الخثي : يُورَثُ من حيث يبُولُ ؛ فإن بال منهما جميعاً فمن أيهما سبق ، فإن بال منهما ممّا قُتِفَ ذَكَرُ ونصف أخى . وقال يعقوب ومحمد : من أيهما خرج أكثر ورث ؛ وحكى عن الأوزاعي . وقال النعمان : إذا خرج

(١) استهل الصبي : ومع صوته بالكاء عند الولادة .

منهما مما فهو مُشْكِلٌ، ولا أنظر إلى أيهما أكثر. وروى عنه أنه وقف عنه إذا كان هكذا. وحكى عنه قال: إذا أنشكَلُ يُعْطَى أَقْلُ التَّصْيِينِ: وقال يحيى بن آدم: إذا بال من حيث يبول الرجل ويحيض كما تحيض المرأة ورث من حيث يول؛ لأن في الأثر: يورث من مباله. وفي قول الشافعي: إذا خرج منهما جميعا، ولم يسبق أحدهما الآخر يكون مُشْكَلًا، ويُعْطَى من الميراث ميراث اثني، ويُوقَفُ الباقي بينه وبين سائر الورثة حتى يتيقن أمره أو يصطلحوا؛ وبه قال أبو ثور. وقال الشعبي: يُعْطَى نَصْفُ ميراث الذكر، ونصف ميراث الأنثى؛ وبه قال الأوزاعي، وهو منذهب مالك. قال ابن شاس في جواهره الثنية: على منذهب مالك عالم المدينة: الخثي يعتبر إذا كان ذا فرجين فوج المرأة وفوج الرجل بالمبال منهما؛ فيُعْطَى الحكم لِمَا بال منه، فإن بال منهما اعتبرت الكثرة من أيهما، فإن تساوى الحال اعتبر السبق، فإن كان ذلك منهما مما أُعتبر نبات الحية أو كبر الثديين ومشابهتهما لشدي النساء، فإن اجتمع الأمران أُعتبر الحال عند البلوغ، فإن وُجد الحيض حُكِمَ به، وإن وُجد الاحتلام وحده حُكِمَ به، فإن اجتمعا فهو مُشْكِلٌ. وكذلك لو لم يكن فرج، لا المختص بالرجال ولا المختص بالنساء، بل كان له مكان يبول منه فقط انتظر به البلوغ؛ فإن ظهرت علامة ميرة وإلا فهو مُشْكِلٌ. ثم حيث حكمنا بالإشكال فبرأته نصف نصبي ذكر واثني.

قلت: هذا الذي ذكره من السلامة في الخثي المشكل. وقد أشرنا إلى علامة في «البقرة» وصدر هذه السورة تلحقه بأحد النوعين، وهي اعتبار الأضلاع. وهي مروية عن علي رضي الله عنه وبها حكم. وقد نظم بعض العلماء حكم الخثي في أبيات كثيرة أولها:

وأنه مضمَرُ الأحوال \* بالثدي والحية والمبال

وفيها يقول:

وإن يكن قد آستوت حالاته \* ولم تبين واشكلت آياته  
فحفظه من مؤرث القريب \* ستة أثمان من التصيب  
هذا الذي استحق للإشكال \* وفيه ما فيه من النكال

... وَأَوْجِبَ فِي الْحَقِّ الْإِسْلَامِ • مَا عَاشَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
 • إِذْ لَمْ يَكُنْ مِنْ خَالِصِ الْبَالِ • وَلَا أَخَذَ مِنْ بَغْلَةِ الرِّجَالِ  
 وَكُلَّ مَا ذَكَرَهُ فِي النَّظْمِ • قَدْ قَالَ سُرَّةُ أَحْمَدَ الْعَلَمِ  
 وَقَدْ أَبَى الْكَلَامَ فِيهِ قَوْمٌ • مِنْهُمْ وَلَمْ يَخْشَ إِلَيْهِ لَوْمٌ  
 لِقُرْبِ مَا يَسْلُومُنَ الشَّعَاةُ • فِي ذِكْرِهِ وَظَاهِرُ الْبَشَاةِ  
 وَقَدْ مَضَى فِي شَأْنِهِ الْخَلْقُ • حَكَمَ الْإِمَامُ الْمُرْتَضَى عَلَى  
 بَنَاتِهِ بِنِصْفِ قِسْمِ أَصْلَاحِهِ • فَالرِّجَالُ يَنْبَغِي لِإِسْبَاحِهِ  
 فِي الْإِرْثِ وَالنِّكَاحِ وَالْإِحْرَامِ • فِي الْحُجِّ وَالصَّلَاةِ وَالْأَحْكَامِ  
 وَإِنْ تَرَدَّدْنَا عَلَى الذِّكْرِ • فَنَاتَمُ مِنْ جِلَّةِ التَّسْوَانِ  
 لِأَنَّ التَّسْوَانِ ضَلَعٌ زَائِدٌ • عَلَى الرِّجَالِ فَأَعْتَمَدْنَا قَائِدَهُ  
 إِذْ قَصَصْنَا مِنْ أَدَمَ فِيمَا سَبَقَ • نَخْلُقُ حَوَاءَ وَهَذَا الْقَوْلُ حَقُّ  
 عَلَيْهِ مَا قَالَ الرَّسُولُ • صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا دَلِيلُ

قال أبو الوليد بن رشد : ولا يكون الخلق للمشكل زوجا ولا زوجة ، ولا أباً ولا أمّاً .  
 وقد قيل : إنه قد وجد من له ولدٌ من بطنه وولدٌ من ظهره . قال ابن رشد : فإن صحَّ وُيِّرَ من  
 أبه لصلبه ميراث الأب كاملاً ، ومن أبه لبطنه ميراث الأم كاملاً . وهذا بعيد ، وافقه أعلم .  
 وفي سنن الدارقطني عن أبي هاشمٍ عن عمر بن بشر قال : سئل عامر الشعبي عن مولود ليس  
 بذكر ولا أنثى ، ليس له ما للذكر ولا ما للأنثى ، يخرج من سرته كهيئة البول والغائط ، فسئل  
 عامر عن ميراثه فقال عامر : نصف حظ الذكر ونصف حظ الأنثى .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ( وَلَا يُؤْيِي ) أي لأبوي الميت . وهذا تخليّة عن غير  
 المذكور ، وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه ؛ كقوله : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْجَنَابِ » و« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ  
 فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . و( السُّدُسُ ) رُفْعُ الْإِسْتِئْذَانِ ، وما قبله خبره : وكذلك « الثَّالثُ » والسُّدُسُ .  
 وكذلك « نَصَفَ مَا تَرَكَ » وكذلك « فَلَكُمْ » . وكذلك « وَلَمْ يَنْ الرِّجْعَ » . وفلهم الثمن . وكذلك « فَلِكُلِّ

واحد منهما السيدين : « والأبوان شدة الأب والأبنة » . واشتقني فقط الأم عن أن يقال لها أبنة .  
ومن العرب من يجري المقتضين مجرى ألقابهم ؛ فيطلب أحدهما على الآخر لخطته أو شهرته . جاء  
ذلك مسموعا في أسماء صالحه ؛ كقولهم للأب والأم : أبوان . وللشمس والقمر : القمران .  
وليل والنهار : الملاك . وكذلك الممران لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ غلبوا القمر على  
الشمس لخطه التذكير ؛ وغلبوا عمر على أبي بكر لأن أيام عمر امتدت فأشتهرت . ومن زعم أنه  
أراد بالمعمرين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز فليس قوله بشيء ؛ لأنهم نطقوا بالمعمرين  
قبل أن يروا عمر بن عبد العزيز ؛ قاله ابن السجري . ولم يدخل في قوله تعالى : « ولأبويه »  
من علا من الأباء دخول من سفل من الأبناء في قوله « أولادكم » ؛ لأن قوله : « ولأبويه »  
لفظ متني لا يحتمل العموم والجمع أيضا ؛ بخلاف قوله « أولادكم » . والدليل على صحة هذا  
قوله تعالى : « فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ » . والأم العليا جنة ولا يغرض  
لها الثلث بإجماع ؛ تفروج الجنة عن هذا اللفظ مقطوع به ؛ وتارة لجة مختلف فيه . فمن  
قال إنه أب وتجب به الإخوة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولم يخالفه أحد من الصحابة  
في ذلك أيام حياته ؛ واختلفوا في ذلك بعد وفاته ؛ فمن قال إنه أب أبى عباس وعبد الله  
أبن الزبير وعائشة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وأبو الدرداء وأبو هريرة ؛ كلهم يحملون  
الجنة عند عدم الأب كالأب سواء ؛ يحبون به الإخوة كلهم ولا يرثون معه شيئا . وقاله  
عطاء وطاوس والحسن وقادة . وإليه ذهب أبو حنيفة وأبو ثور وإسحاق . والجنة لم قوله  
تعالى : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » « يا بني آدم » ، وقوله عليه السلام : « يا بني إسماعيل أرموا فإن  
أباكم كان راميا » . ونذهب على بن أبي طالب وزيد وأبن مسعود إلى توريث الجنة مع  
الإخوة ؛ ولا ينقص من الثلث مع الإخوة للأب والأم وللأب إلا مع ذري الفروض ؛  
فإنه لا ينقص معهم من السدس شيئا في قول زيد . وهو قول مالك والأوزاعي وأبي يوسف  
ومحمد والشافعي . وكان على يشرك بين الإخوة والجنة إلى السدس ولا ينقصه من السدس شيئا  
مع ذري الفروض وغيرهم . وهو قول أبى لؤلؤ وطائفة . وأجمع العلماء على أن الجنة لا يرث

مع الأب وإن الآمن يحجب أباه . . وأتزلوا الجسد بعتلة الأب في الحب والميراث إذا لم يترك  
 التوفيق أباً أقرب منه في جميع المواضع . ونهب الجمهور إلى أن الجسد يسقط بين الإخوة من  
 الميراث ، إلا ما روى عن الشعبي عن علي : أنه أجرى بين الإخوة في المقاسمة مجرى الإخوة .  
 والحجة لقول الجمهور أن هذا ذكر لا يعصب أخيه فلا يقاسم الجسد كالم وأبن العم . قال  
 الشعبي : أول جد وُزيت في الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ مات ابن لهام بن  
 عمر وترك أخوين فأراد عمر أن يستأثر بهما فاستشار طياً وزيداً في ذلك فقتلا له مثلاً فقال :  
 لولا أن رأيكما أجمع ما رأيت أن يكون أبني ولا أكون أباه . روى الدارقطني عن زيد بن  
 ثابت أن عمر بن الخطاب استأذن طيه يوماً فأنذ له ، ورأسه في يد جارية له رجلاه ، فترع  
 رأسه ؛ فقال له عمر : دعها ترجلك . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلى جثتك .  
 فقال عمر : إنما الحاجة لي ، إني جئت لنتظر في أمر الجسد . فقال زيد : لا والله ! ما تقول<sup>(١)</sup>  
 فيه . فقال عمر : ليس هو بوشي حتى تزيد فيه وتنقص ، إنما هو شيء تراه ، فإن رأيتـه<sup>(٢)</sup>  
 وافقني تبعته ، وإلا لم يكن عليك فيه شيء . فأبى زيد ، فخرج مغضباً وقال : قد جثتك وأنا  
 أظن مستفزع من حاجتي . ثم أتاه مرة أخرى في الساعة التي أتاه المرة الأولى ، فلم يزل به  
 حتى قال : فساكتب لك فيه . فكتبه في قطعة قتب وضرب له مثلاً : إنما مثله مثل شجرة<sup>(٣)</sup>  
 نهت على ساق واحدة ، فخرج فيها غصن ثم خرج في غصن غصن آخر ؛ فالساق يسبق  
 الفصن . فإن قطعت الفصن الأول رجع الماء إلى الفصن ، وإن قطعت الثاني رجع الماء  
 إلى الأول . فأتى به فخطب الناس عمر ثم قرأ قطعة القتب عليهم ثم قال : إن زيد بن ثابت  
 قد قال في الجسد قولاً وقد أمضيته . قال : وكان عمر أول جد كان ؛ فأراد أن يأخذ المال كله ،  
 ما لآب أبيه دون إخوته ، فقسسه بعد ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) قوله : لا والله . أي ليس القول في هذه المسئلة الذي ينبغي في هذه الواقعة كما تقول .

(٢) قوله : ليس هو بوشي . أي ليس الذي جرى بيني وبينك فيه نص من القرآن حتى تحرم غافته وأزايده فيه  
 أو الفصان عنه . وقوله : إنما هو شيء تراه . أي تتوله برأيتك وأنا أقول برأيتي . (عن شرح سنن الدارقطني) .

(٣) القتب (كسر التاء وسكون الناء ونجر يكتها) : الأشجار .

الرابعة عشرة - وأما الجدة فابح أهل العلم على أن لجدة القدس إذا لم يكن لبيت أمهم وأجمعوا على أن الأم تحجب عنها وأما الأب . وأجمعوا على أن الأب لا يحجب أم الأم . واختلفوا في توريث الجدة وأبناها . فقالت طائفة : لا ترث الجدة وأبناها . روى عن زيد بن ثابت وعثمان بن عفان . وبه قال مالك والثوري والأوزاعي وأبو ثور وأصحاب الرأي . وقالت طائفة : ترث الجدة مع أبها . روى عن عمر وابن مسعود وعثمان بن عفان وابن موسى الأشعري . وقال به شريح وسائر بن زيد وعبد الله بن الحسن وشريك وأحمد وإسحاق وأبو المنذر . وقال : كما أن الجدة لا يحجب إلا الأب كذلك الجدة لا يحجبها إلا الأم . وروى الترمذي عن عبد الله قال في الجدة مع أبها : إنها أزل جنة أطعمها رسول الله صلى الله عليه وسلم سدسا مع أبها وأبناها . والله أعلم .

الخامسة عشرة - واختلف العلماء في توريث الجدات . فقال مالك : لا يرث إلا جدتان ، أم أم وأم أب وأبوابهما . وكذلك روى أبو ثور عن الشافعي ، وقال به جماعة من التابعين . فإن انفردت إحداهما فالسواء ، وإن اجتمعتا وقداشهما سواء فالسواء بينهما . وكذلك إن كثرن إنا نسألون في القصد ، وهذا كله مجتمع عليه . فإن قرأت التي من قبل الأم كان لها السدس من دون غيرها ، وإن قرأت التي من قبل الأب كان بينهما وبين التي من قبل الأم . وإن جدت . ولا ترث إلا جدة واحدة من قبل الأم . ولا ترث الجدة أم أب الأم على حال . هذا منسوب زيد بن ثابت ، وهو أثبت ما روى عنه في ذلك . وهو قول مالك وأهل المدينة . وقيل : إن الجدات أمهات ، فإذا اجتمعت فالسواء لأقربهن . كما أن الآباء ، إذا اجتمعوا كان أحقهم باليراث أقربهم ، فكذلك البنون والإخوة ، وبنو الإخوة وبنو العم . إذا اجتمعوا كان أحقهم باليراث أقربهم ، فكذلك الأمهات . قال أبو المنذر : هذا أصح ، وبه أقول . وكان الأوزاعي يورث ثلاث جدات : واحدة من قبل الأم وأختين من قبل الأب . وهو قول أحمد بن حنبل . ورواه البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى زيد بن ثابت عكس هذا ، أنه كان يورث ثلاث جدات : بنتين من جهة الأم وواحدة



من قبل الأب . وقول علي رضي الله عنه كقول زيد هنا . وكأنا يحملان السدس لأخيهما ، من قبل الأم كانت أو من قبل الأب . ولا يشرکہا فيه من ليس في مُدَّهَا ؛ وبه يقول الثوري وأبو حنيفة وأصحابه وأبو ثور . وأما عبد الله بن مسعود وابن عباس فكانا يوزنان الحُلَّات الأربع ؛ وهو قول الحسن البصري وعبد بن سيرين وجابر بن زيد ، قال ابن المنذر : وكل جنة إذا نسبت إلى المتوفى وقع في نفسها أب بين اثنين فليست ترث ، في قول كل من يحفظ عنه من أهل العلم

السابعة عشرة - قوله تعالى : ( لِكُلِّ وَاٰحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ) فرض تعالى لكل واحد من الأبوين مع الولد السدس ؛ وأبهم الولد فكان الذكر والأُنثى فيه سواء . فإن مات رجل وترك أباً وأبوين فلا يورثه لكل واحد منهما السدس ، وما بقى فلا يرث . فإن ترك أبنة وأبوين فلا يرثه النصف والأبوين السدسان ، وما بقى فلا يقرب عصبة وهو الأب ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أبقت الترويض فلا يورث رجل ذكر " . فأجمع للأب الاستحقاق يمينين : التصيب والقرض . ( فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ) فأنظر رجل ذكره أن الأبوين إذا ورثاه أن للأم الثلث . ودل قوله « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ » وإخباره أن للأم الثلث أن الباقي وهو الثنتان للأب . وهذا كما تقول لرجلين : هذا المال بينكما ، ثم تحول لأحدهما : أنت يا فلان لك منه ثلث ؛ فإنك حدثت لأخركه الثلثين بنص كلامك ؛ ولأن قوة الكلام في قوله « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ » يدل على أنهما متردان من جميع أهل السهام من ولد وغيره ، وليس في هذا اختلاف .

قلت : وعلى هذا يكون الثنتان فرضاً للأب مسمى لا يكون عصبة . وذكر ابن العربي أن المسمى في تخصيص الأب بالثلث عند عدم الولد للذكورية والنسبة ، وجوب المئوية عليه . وثبت الأم على سهم لأجل القرابة .

قلت : وهذا متفق ؛ فإن ذلك موجود مع حياته لم يحرم السدس . والذي يظهر أنه إن حرم السدس في حياته أرقاها بالصبي وبجاءه عمل ماله ؛ ألا فذلك يكون إخراج جزء من ماله إخراجاً به . أرأيت ذلك تبديلاً ، وهو أولى ما يقال . والله الرحمن الرحيم .

السابعة عشرة — إن قيل ما فائدة زيادة الـ «و» في قوله : «وورثته أبواه» ، وكان ظاهر الكلام أن يقول : فإن لم يكن له ولد وورثته أبواه . قيل له : أراد بزيادتها الإخبار لبيان أنه أمر مستقر ثابت ، فيخبر عن شوته واستقراره ، فيكون حال الوالدين عند أفرادهما كحال الوالدين ، للذكر مثل حظ الأنثيين . ويصح للأب بذلك فرضان السهم والتعصيب إذ يجب الإخوة كالولد . وهذا عدل في الحكم ، ظاهر في الحكمة . والله أعلم .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ( فَلَا يَكُنْ لَكُم مِّنْ بَنِيٍّ أَكْثَرُ مِنَ الْإِبْرَاهِيمَ ) « فَلَا يَكُنْ لَكُم مِّنْ بَنِيٍّ أَكْثَرُ مِنَ الْإِبْرَاهِيمِ » . قال الكسائي : هي لغة كثير من هوازن وهذيل . ولأن اللام لما كانت مكسورة وكانت متصلة بالحرف كرهوا فتحه بعد كسرة ، فأبدلوا من الضمة كسرة ؛ لأنه ليس في الكلام فعل . ومن ضم جاء به على الأصل ؛ ولأن اللام تنفصل لأنها داخلية على الأسم . قال جميعه النحاس .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ( فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِإِخْوَتِهِ السُّدُسُ ) الإخوة يحبون الأم عن الثلث إلى السدس ، وهذا هو حجب التفصان ، وسواء كان الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم ، ولا سهم لهم . وروى عن ابن عباس أنه كان يقول : السدس الذي يجب للإخوة الأم عنه هو للإخوة . وروى عنه مثل قول الناس إنه لأب . قال قتادة : وإنما أخذه الأب دونهم ؛ لأنه يؤمنهم ويحل نكاحهم والتفقه عليهم . وأجمع أهل العلم على أن أخوين فصاعدا ذكرانا كانوا أو إناثا من أب وأم ، أو من أب أو من أم يحبون الأم عن الثلث إلى السدس ؛ إلا ما روى عن ابن عباس أن الأثنين من الإخوة في حكم الواحد ، ولا يجب الأم أقل من ثلاث . وقد صار بعض الناس إلى أن الأخوات لا يحببن الأم من الثلث إلى السدس ؛ لأن كل واحد من الإخوة وليست . يرث الإناث مثل قوة . يرث الذكور حتى تنقض النسبة الإلحاق . قال الرضا الطبري : رخصني أقوالهم ألا يدخلن مع الإخوة ؛ فإن لفظ الإخوة بمطلقه لا يتناول الأخوات ، كما أن لفظ البنين لا يتناول البنات . وذلك يقتضي ألا تحجب الأم بالأخ الواحد والأخت من الثلث إلى السدس ؛ وهو خلاف إجماع

للمسلمين . وإذا كن مرادات الآية مع الإخوة كن مرادات على الافراد . واستدل الجميع بأن أقل الجمع اثنان ؛ لأن التثنية جمع تنبيه إلى مثله ، فلم يبق يقتضى أنها جمع . وقال عليه السلام : « الإنسان لما فوقهما جماعة » . وحكى عن سيبويه أنه قال : سألت الخليل عن قوله « ما أحسن وجههما » ؟ فقال : الاثنان جماعة . وقد صح قول الشاعر :

وَمَهْمَهُنَّ قَدْ قَنَيْنَ مَرَّتَيْنِ \* ظَهَرَاهُمَا مِثْلَ ظُهُورِ الْقُرَيْشِ<sup>(١)</sup>

وانشد الأخفش :

لَمَّا أَتَيْنَا الْمُرَابِطَ بِالْحَبَرِ \* فَقُلْنَا إِنَّ الْأَمْرَ فَيَا قَدْ شَبَّهَ

وقال آخر :

يُحْمَى بِالسَّلَامِ غَنَى قَوْمٍ \* وَيُخْلُ بِالسَّلَامِ عَلَى الْفَقِيرِ  
أَلَيْسَ الْمَوْتُ بَيْنَهُمَا سَوَاءً \* إِذَا مَاتُوا وَصَارُوا فِي الْقَبْرِ

ولما وقع الكلام في ذلك بين عثمان وابن عباس قال له عثمان : إن قومك جبهوها . يعني قرشاً ، وهم أهل النصافة والبلاغة . ومن قال : إن أقل الجمع ثلاثة — وإن لم يقل به هنا — ابن مسعود والثاقبي وأبو حنيفة وغيرهم . والله أعلم .

الموقية عشرين — قوله تعالى : ( مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٍ ) قرأ ابن كثير وأبو عمر وابن عامر وعاصم « يوصى » بفتح الصاد . الباقون بالكسر ، وكذلك الآخر . واختلفت الرواية فيهما عن عاصم . والكسر اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ لأنه جرى ذكر الميت قبل هذا . قال الأخفش : وتصديق ذلك قوله « يوصين » و « توصون » .

الحادية والعشرون — إن قيل : ما الحكمة في تقديم ذكر الوصية على ذكر الدين ، والدين مقدم عليها بإجماع . وقد روى الترمذي عن الحارث عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بالدين قبل الوصية ، وأنهم يقرءون الوصية قبل الدين . قال : والعمل على هذا عند عامة

(١) هذا البيت من رجز نظام المجراني ، وهو شاعر إسلامي . والمهمه : القفر الخروف . والقنفذ ( يخنخين ويخبين ) : البعده من الأرض . ويروي : « قنفذين » . والقنفذ : الأرض المستورة . والمرث ( يفتح الميم وسكون الراء بعدها ثمانية فريقة ) : الأرض التي لا ماء فيها ولا نبات . والقنهر : ما أوقعت من الأرض .

أهل العلم أنه يُبدأ بالتين قبل الوصية . وروى التبرقظني من حديث عاصم بن ضمرة عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التين قبل الوصية وليس لوارث وصية " . رواه عنهما أبو إسحاق الحمدي . فالجواب من أوجه خمسة : الأول - إنما قصد تقديم هذين الفصلين على الميراث ولم يقصد ترتيبهما في أنفسهما ؛ فذلك تقدمت الوصية في اللفظ . جواب ثان - لما كانت الوصية أقل لزوما من الدين قدمها احتياجا ؛ كما قال تعالى : « لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً » . جواب ثالث - قدمها لكثرة وجودها ووقوعها ؛ فصارت كاللازم لكل ميت مع نص الشرع عليها ، وأثر الدين لشذوذه ، فإنه قد يكون وقد لا يكون . فبدأ بذكر الذي لا بد منه ، وعطف بالذي قد يقع أحيانا . ويقوى هذا : المطفأ بأو ، ولو كان الدين رابعا لكان المطفأ بالواو . جواب رابع - إنما قدمت الوصية إذ هي حظ مساكين ضمفاء ، وأثر الدين إذ هو حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان وله فيه مقال . جواب خامس - لما كانت الوصية ينتها من قبل نفسه قدمها ، والدين ثابت مؤدى ذكره أو لم يذكره .

الثانية والعشرون - ولما ثبت هذا تعلق الشافعي بذلك في تخدم دين الزكاة والنج على الميزات فقال : إن الرجل إذا قرط في زكاته وجب أخذ ذلك من رأسه . وهذا ظاهر بياني الرأي ؛ لأنه حق من الحقوق فيلزم أدائه عنه بعد الموت لحقوق الآدميين لاسيما والزكاة مصرفها إلى الآدمي . وقال أبو حنيفة ومالك : إن أوصى بها أديت من ثلثه ، وإن سكت عنها لم يُخرج عنه شيء . قالوا : لأن ذلك موجب لترك الورثة فقراء ؛ إلا أنه قد يعتمد ترك الكل حتى إذا مات استغرق ذلك جميع ماله فلا يبقى للورثة حق .

الثالثة والعشرون - قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتِرْكُم وَيَأْتِرْكُم ﴾ . ومع بالابتداء والخبر مضمرا ،

تقديره هم المقصوم عليهم وهم المعطون .

الرابعة والعشرون - قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ فَعَمَّا ﴾ قيل : في الدنيا بالداء والصدقة ؛ كما جاء في الأثر " إن الرجل ليرفع بداء ولده من بعده " . وفي الحديث الصحيح

« إذا مات الرجل انقطع عمله إلا من ثلاث : فقد ترك أولاد صالح يدعو له »؛ وقيل :  
في الآخرة؛ فقد يكون الابن أفضل فيشفع في أبيه ؛ عن ابن عباس والحسن . وقال بعض  
المفسرين : إن الابن إذا كان أرفع من درجة أبيه في الآخرة سال الله فرجع إليه أباه ، وكذلك  
الأب إذا كان أرفع من ابنه ؛ وسيأتي في « الطور » بيانه . وقيل : في الدنيا والآخرة ؛ قاله  
ابن زيد . واللفظ يقتضي ذلك .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ( قَرِيزَةً ) « فريضة » نصب على المصدر المؤكدة ؛  
إذ معنى « يوصيكم » يفرض عليكم . وقال نكئی وغيره : هي حال مؤكدة ؛ والعامل « يوصيكم »  
وذلك ضعيف . والآية منقطة بما تقدم ؛ وذلك أنه عرّف العباد أنهم كفؤوا مؤنة الاجتهاد  
في إحصاء القرابة مع اجتماعهم في القرابة ، أى أن الآباء والأبناء ينفع بعضهم بعضا في الدنيا  
بالتناصر والمواساة ، وفي الآخرة بالشفاعة . وإذا تقرر ذلك في الآباء والأبناء تقرر ذلك  
في جميع الأقارب ؛ فلو كان القسم موكولة إلى الاجتهاد لوجب النظر في غنى كل واحد  
منهم ، وعند ذلك يخرج الأمر عن الضبط إذ قد ينظف الأمر ؛ فين الرب تبارك وتعالى  
أن الأصلح للعبد ألا يؤكل إلى اجتهاده في مقادير الموارث ؛ بل بين المقادير شرعا . ثم قال :  
( إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ) أى بقسمة الموارث ( حَكِيمًا ) حكم قسمتها وبتنبا لأهلها . وقال  
الزجاج : « عليا » أى بالأشياء قبل خلقها « حكيما » فيما يقدره ويعضيه منها . وقال بعضهم :  
إن الله سبحانه لم يزل ولا يزال ، والخبر منه بالماضى كالخبر منه بالاستقبال . ومذهب سيويه  
أنهم رأوا حكمة وعلمًا قبيلا لم : إن الله عز وجل كان كذلك لم يزل على ما رأيت .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ( وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ) الآيتين .  
الخطاب للرجال . والولد هنا بنو الصلب وبنو بنهم وإن سفلوا ، ذكرانا وإناثا واحدا فما زاد  
برأباج . وأجمع العلماء على أن للزوج النصف مع عدم الولد أو ولد الولد ، وله مع وجوده  
الربع . وترث المرأة من زوجها الربع مع فقد الولد ، والنصف مع وجوده . وأجمعوا على أن

حكم الواحدة من الأزواج والثنتين والثلاث والأربع في تزويج إن لم يمكن له ولد ، وفي الثمن إن كان له ولد واحد ، وأنهن شركاء في ذلك ؛ لأن الله عز وجل لم يفرق بين حكم الواحدة منهن وبين حكم الجميع ، كما فرق بين حكم الواحدة من البنات والأخوات وبين حكم الجميع منهن .

السابعة والعشرون - قوله تعالى : ( وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ ) الكلاله مصدرٌ من تكله النسب أى أحاط به . وبه تسمى الإكليل ، وهى منزلة من منازل القمر لإحاطتها بالقمر إذا أحاط بها . ومنه الإكليل أيضا وهو التاج والمصابة المحيطة بالرأس . فإذا مات الرجل وليس له ولد ولا والد نورثته كلاله . هذا قول أبى بكر الصديق وعمر وعلى وجمهور أهل العلم . وذكر يحيى بن آدم عن شريك وزهير وأبى الأحوص عن أبى إسحاق عن سليمان ابن عبد قال : ما رأيتهما إلا وقد تواطعا وأجمعوا على أن الكلاله من مات ليس له ولد ولا والد . وهكذا قال صاحب كتاب العين وأبو منصور اللغوى وابن عرفة والفقي وأبو عبيد وابن الأثير . فالأب والأبن طرفان للرجل ؛ فإذا ذهب تكله النسب . ومنه قيل : روضة مكالة إذا حُفَّت بالنور . وأنشدوا :

مُسْكَنُهُ رَوْضَةٌ مُكَلَّلَةٌ \* عَمَّ بِهَا الْأَيْمَانُ وَالذَّرَقُ <sup>(١)</sup>

بنى بنتين . وقال امرؤ القيس :

أَصَاحَ تَرَى بَرَقًا أُرِيكَ وَمِيضَهُ \* كَلْبِيعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ <sup>(٢)</sup>

فسما القرابة كلاله ؛ لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه وليداه منه ولا هو منهم ، وإحاطتهم به أنهم يسيرون معه . كما قال أعرابي : ما لي كثير ويرثني كلاله متراخ نسبهم . وقال الفرزدق :

وَرِثَمُ فَنَاءِ الْمَجْدِ لَا عَنْ كَلَالَةٍ \* عَنْ أَبِي مَنَافٍ عِيدِ شَيْسٍ وَهَائِمٍ

(١) الأيمان : الجرجير البرى . والذرق : بقعة وحشية كالقث الرطب . (٢) ومنه البرق : لم

ركع اليد : يريد كركة الدين . والحبي : السحاب المريع . والكلال : ما يكون في جوانب البها . كالإكليل .

وقال آخر: <sup>(١)</sup> ما من رجل منكم يبيع مائة غنم في سنة واحدة

وإن أبى المسرعة أمي له • ومولى الكلالة لا يقضب <sup>(٢)</sup>

وقيل: إن الكلالة مأخوذة من الكلال وهو الإعياء؛ فكأنه يصير الميراث إلى الوارث عن بعد وإعياء • قال الأعشى:

فأليت لا أدنى لها من كلالة • ولا من وحي حتى تلاقى عتدا <sup>(٣)</sup>

وذكر أبو حاتم والأثرم عن أبي عبيدة قال: الكلالة كل من لم يرته أب أو ابن أو أخ فهو عند العرب كلالة. قال أبو عمر: ذكر أبي عبيدة الأثر هنا مع الأب والابن في شرط الكلالة غلط لا وجه له، ولم يذكره في شرط الكلالة غيره. وروى عن عمر بن الخطاب أن الكلالة من لا ولد له خاصة، وروى عن أبي بكر ثم رجعا عنه. وقال ابن زيد: الكلالة المي والميت جميعا. وعن عطاة: الكلالة المسال. قال ابن العربي: وهذا قول طريف ضعيف لا وجه له.

قلت: له وجه يتيقن بالإعراب. وروى عن ابن الأعرابي أن الكلالة بنو التميم الأباعد. وعن السدي أن الكلالة الميت. وعنه مثل قول الجمهور. وهذه الأقوال ثبوت وجوبها بالإعراب؛ فقرأ بعض الكوفيين «يُورث كلالة» بكسر الزاء وتشديد الكاف. وقرأ الحسن وأيوب «يُورث» بكسر الزاء وتخفيفها، على اختلاف عنهما. وعلى هاتين القراءتين لا تكون الكلالة إلا الورثة أو المسال. كذلك حكى أصحاب المعاني؛ فالأول من ورث، والثاني من أورث. و«كلالة» مفعوله. و«كان» بمعنى وقع. ومن قرأ «يُورث» بفتح الزاء احتمل أن تكون الكلالة المسال، والتقدير: يورث ورثة كلالة؛ فتكون نمتا لمصدر محذوف. ويجوز أن تكون الكلالة اسما للورثة وهي خبر كان؛ فالتقدير: ذا ورثة. ويجوز أن تكون تامة بمعنى وقع، ويورث نمت لرجل، ورجل رفع بكان، وكلالة نصب على التفسير أو الحال؛ على أن الكلالة هو الميت، والتقدير: وإن كان رجل يورث متكلم النسب إلى الميت.

(١) أراد أن أبى المرء غضبه إذا علم. وموال الكلالة وهم الإخوة والأعمام وبنو الأعمام وسائر القرابات

(٢) لا ينشرون المرء غضب الأب.

(٣) القوي: المني.

الثامنة والعشرون - ذكر الله عز وجل في كتابه الكلالة في موضعين: آخر السورة وهنا، ولم يذكر في الموضعين وارثاً غير الإخوة. فاما هذه الآية فاجمع العلماء على أن الإخوة فيها حتى بها الإخوة للأخ؛ لقوله تعالى: «فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرًا مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ». وكان سعد بن أبي وقاص يقرأ «وله أخ أو أخت من أمه». ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للأب والأم أو للأب ليس ميراثهم كهذا؛ فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين في آخر السورة هم إخوة المتوفى لأبيه وأمه أو لأبيه؛ لقوله عز وجل «وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذِي تَرَ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ». ولم يختلفوا أن ميراث الإخوة للأم ليس هكذا؛ فدلَّت الآيات أن الإخوة كلهم جميعا كلالة. وقال الشعبي: الكلالة ما كان سوى الولد والوالد من الورثة إخوة أو غيرهم من العصبية. كذا قال علي وابن مسعود وزيد وابن عباس، وهو القول الأول الذي بدأنا به. قال الطبري: الصواب أن الكلالة هم الذين يرثون الميت، بن عدا ولده والوالد، لصحة خبر جابر: فقلت يا رسول الله إنما يرثي كلالة، فأوصي بمال كله؟ قال: «لا».

التاسعة والعشرون - قال أهل اللغة: يقال رجل كلالة وأمرأة كلالة. ولا يثنى ولا يجمع؛ لأنه مصدر كالوكالة والدلالة والسياسة والشجاعة. وأعاد صميم مفرد في موه: «وله أخ» ولم يقل لها. ومضى ذكر الرجل والمرأة على عادة العرب إذا ذكرت اسمين ثم أخبرت عنهما وكانا في الحكم سواء ربما أضافت إلى أحدهما وربما أضافت إليهما جميعا؛ تقول: من كان عنده غلام وجارية فليحسن إليه وإليها وإليهما وإليهم؛ قال الله تعالى: «وَأَسْتَعِينُوا بِالْعَدْلِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّمَا كَثِيرَةٌ». وقال تعالى: «إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا» ويمحور أَوْلَى بهم؛ عن القراء وغيره. ويقال في امرأة: امرأة، وهو الأصل. وأخ أصله أخو، يدل عليه أخوان؛ فحذف منه وغير على غير قياس. قال القراء: ضم أول أخت؛ لأن المحذوف منها واو. وكسر أول بنت لأن المحذوف منها ياء. وهذا المحذوف والتبديل على غير قياس أيضا.



الموفية ثلاثين - قوله تعالى : ( فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ ) هذا التشريك يقتضي التسوية بين الذكر والأنثى وإن كثروا . وإذا كانوا يأخذون بالأم فلا يفضل الذكر على الأنثى . وهذا إجماع من العلماء ، وليس في الفرائض موضع يكون فيه الذكر والأنثى سواء إلا في ميراث الإخوة للأم . فإذا ماتت امرأة وترك زوجها وأما وأخاها لأمتها فللزوج النصف وللأم الثلث وللأخ من الأم السدس . فإن تركت أخوين وأختين - والمساأة بحالهما - فللزوج النصف وللأم السدس والأخوين والأختين الثلث ، وقد تمت الفريضة . وعلى هذا عامة الصحابة ، لأنهم حججوا الأم بالأخ والأخت من الثلث للامتنان . وأما ابن عباس فإنه لم ير القول ولو جعل للأم الثلث لعلت المساأة ، وهو لا يرى ذلك . والقول المذكور في غير هذا الموضع ، ليس هذا موضعه . فإن تركت زوجها وإخوة لأم وأخا لأب وأم ، فللزوج النصف ، وللأختين الثلث ، وما بقي فلأخيهما لأمتها وأبيها . وهكذا من له فرض مسمى أعطيه ، والباقي للعصبة إن فضل . فإن تركت ستة إخوة مفترقين فهذه الجارية ، وتسمى أيضا المشتركة . قال قوم : للأخوة للأم الثلث ، وللزوج النصف ، وللأم السدس ، وسقط الأخ والأخت من الأب والأم ، والأخ والأخت من الأب . وروى عن علي وابن مسعود وأبي موسى والنسفي وشريك ويحيى بن آدم ، وبه قال أحمد بن حنبل واختاره ابن المنذر ، لأن الزوج والأم والأخوين للأم أصحاب فرائض سيئة ولم يبق للعصبة شيء . وقال قوم : الأم واحدة ، وهب أن أباهم كان حارا ! وأشركوا بينهم في الثلث ، ولهذا سميت المشتركة والجارية . وروى هذا عن عمر وعثمان وابن مسعود أيضا وزيد بن ثابت وصروقي وشريح ، وبه قال مالك والشافعي وإسحاق . ولا تقسم هذه المساأة أن لو كان الميت رجلا . فهذه جملة علم الفرائض تضمنتها الآية ، والله الموفق للهداية .

وكانت الرواية في الجاهلية بالرجولة والقوة ، وكانوا يوزنون الرجال دون النساء ، فأبطل الله عز وجل ذلك بقوله : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ » . وكانت الرواية

(١) قالت الفريضة : ارتفعت رزادت نسائها على أصل حسابها الموجب عن عدد ذواتها . (٢)

(٢) من قولهم : هب أن أباهم كان حارا ، كاسبي . (٣) قوله : « وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ » . (٤)

أيضاً في الجاهلية وبه الإسلام بالمخالفة ، قال الله عز وجل : « وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَبِهَتُوا »<sup>(١)</sup> ثم صارت بعد المخالفة بالحجرة ، قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَمَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُمَاجِرُوا »<sup>(٢)</sup> وهناك يأتي القول في ذوى الأرحام وميراثهم ، إن شاء الله تعالى ، وسيأتي في سورة «التور»<sup>(٣)</sup> ميراث ولد الملائكة وولد الزنا والمكاتب بحول الله تعالى . والجمهور من العلماء على أن الأسير المعلوم حياته أن ميراثه ثابت ، لأنه داخل في جملة المسلمين الذين أحكام الإسلام جارية عليهم ، وقد روى عن سعيد بن المسيب أنه قال في الأسير في يد العدو : لا يرث . وقد تقدم ميراث المرتد في سورة «البقرة»<sup>(٤)</sup> والحمد لله .

الحادية والثلاثون - قوله تعالى : ( **غَيْرُ مَضَارٍّ** ) نصب على الحال والعامل «يوصى» . أى يوصى بها غير مضار ، أى غير مدخل الضرر على الورثة . أى لا يفتى بدين . أى لا يفتى بدين ليس عليه نصير بالورثة . ولا يفتى بدين . فالإضرار راجع إلى الوصية والدين ، أما رجوعه إلى الوصية فإن يزيد على الثلث أو يوصى لوارث ، فإن زاد فإنه يرد إلا أن يميزه الورثة ، لأن المانع لحقوقهم لا لحق الله تعالى . وإن أوصى لوارث فإنه يرجع ميراثاً . وأجمع العلماء على أن الوصية للوارث لا تجوز . وقد تقدم هذا في «البقرة» . وأما رجوعه إلى الدين فبالإقرار في حالة لا يجوز له فيها ، كما لو أقر في مرضه لوارثه أو لصديق ملاحظ ، فإن ذلك لا يجوز عندنا . وروى عن الحسن أنه قرأ « غير مضار وصية » على الإضافة . قال النحاس : وقد زعم بعض أهل اللغة أن هذا لحن ، لأن اسم الفاعل لا يضاف إلى المصدر ، والقراءة حسنة على حذف ، والمعنى : غير مضار ذى وصية ، أى غير مضار بها ورثته في ميراثهم . وأجمع العلماء على أن إقراره بدين لغير وارث حال المرض جائز إذا لم يكن عليه دين في الصحة .

الثانية والثلاثون - فإن كان عليه دين في الصحة بيته وأقر لأجنبي بدين ، فقالت طائفة : يبدأ بدين الصحة ، وهذا قول النخعي والكوفيين . قالوا : فإذا استوفاه صاحبه

(١) آية ٣٣ من هذه السورة . (٢) آية ٧٢ سورة الأنفال .

(٣) راجع المسئلة التاسعة والعشرين في تفسير قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ أَرْجَاهُمْ ... » آية ٦

(٤) راجع ج ٢ ص ٤٩ طبعه أول مرة ثانية . (٥) راجع ج ٢ ص ٢٥٧ طبعه ثانية .

فأصحاب الإقرار في المرض يتجاضون . وقالت عائشة : هما سواء إذا كان لغير وارث .  
قول الشافعي وأبي ثور وإبي عبيد ، وذكر أبو عبيد أنه قول أهل المدينة ورواه عن الحسن .  
الثالثة والثلاثون - قد مضى في «البقرة» الوعيد في الإضرار في الوصية ووجوبها ،  
وقد روى أبو داود من حديث شهر بن حوشب (وهو مطعون فيه) عن أبي هريرة حدثه أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن الرجل أو المرأة يعمل بطاعة الله ستين سنة ثم  
يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لما التار» . قال : وقرأ علي أبو هريرة من هاتين  
« مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ فَرِيضَةٍ مِّمَّا تَرَكَ » حتى بلغ « ذَلِكَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ » . قال ابن  
عباس : الإضرار في الوصية من الكفار ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إلا أن مشهور  
مذهب مالك وأبي القاسم أن الموصي لا يعد فعله مضارة في ثلثه ؛ لأن ذلك حقه فله  
التصرف فيه كيف شاء . وفي المذهب قول : أن ذلك مضارة ترد . والله التوفيق .

الرابعة والثلاثون - قوله تعالى : ( وَصِيَّةٌ ) « وصية » نصب على المصدر في موضع  
الخطا والعمل « يُوصِيكُمْ » . ويصح أن يعمل فيها « مَضَارٌّ » والمعنى أن يقع الضرر بها  
أو يسببها فأوقع عليها : زنا ، قاله ابن عطية ؛ وذكر أن الحسن بن أبي الحسن قرأ « غير مضار »  
وصية « بالإنشافة » كما نقول : شجاع حبيب . وبيضة المجرد ؛ في قول طرفة بن العبد .  
والمعنى على ما ذكرناه من التجوز في اللفظ لصحة المعنى . ثم قال : ( وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) يعني  
عليم بأهل الميراث حليم على أهل الجهل منهم . وقرأ بعض المتقدمين « والله عليم حكيم »  
يعنى حكم بقسمة الميراث والوصية .

الخامسة والثلاثون - قوله تعالى : ( تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ) و « تلك » بمعنى هذه ، أي هذه  
أحكام الله قد بينها لكم لمرقوها وتعلموها . ( وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ) في قسمة الموارث  
فَيُفْرَقْ بِهَا وَيُجْعَلْ بِهَا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى ( يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ) جملة في موضع  
نصب على التعت بلغات . وقوله : ( وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ) يزيد في قسمة الموارث علم

يقسمها ولم يعمل بها (وَيَتَعَدَّ حَبْلُونَهُ) أى يخالف أمره (يُدْخِلُهُ تَارًا خَالِدًا فِيهَا) .  
والجصيان إن أريد به الكيفر فالخلود على ما به ، وإن أريد به الجائر وتجاوز أمر الله تعالى  
فالخلود مستعار لمدته ، كما قول : خلد الله ملكه . وقال زهير :  
« ولا أرى خالدا إلا الحبال الزوايا » .

وقد تقدم هذا المعنى في غير موضع . وقرأ نافع وابن طاهر : « ندخله » بالنون في الموضعين ،  
على معنى الإضافة إلى نفسه سبحانه . الباقر بالياء كلامها ؛ لأنه سبق ذكر أسم الله تعالى  
أى يدخله الله .

قوله تعالى : وَأَلَنَّا يَاثِينَ الْفَلْحَةَ مِنْ نَسَائِكَ فَاسْتَشَرُّوْا عَلَيْهِنَّ  
أَرْبَعَةَ مَنَاسِكٍ فَإِنْ شَهِدُوا فَاْمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ  
أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — لما ذكر الله تعالى في هذه السورة الإحسان إلى النساء وإيهال صدقاتهن  
الهن ، وأججز الأمر إلى ذكر ميثاق مع موارث الرجال ، ذكر أيضا التخليط عليهن فيما ياتين به  
من الفاحشة ؛ لئلا تتوهم المرأة أنه يسوغ لها ترك التحف .

الثانية — قوله تعالى : (وَاللَّاتِي) « اللاتي » جمع آتى ، وهو أسم مبهم للوث ، وهى  
معرفة ولا يجوز نزع الألف واللام منه للتكثير ، ولا يتم إلا بصلة ؛ وفيه ثلاث لئات كما تقدم .  
ويصح أيضا « اللات » بحذف الياء وإبقاء الكسرة ، و « اللاتي » بالهمز وإثبات الياء ،  
و « اللات » بكسر الميمزة وعذف الياء ، و « اللات » بحذف الميمزة . فإن جمعت الجمع قلت  
في اللاتي : اللواتى ، وفي اللات : اللواتى . وقد روي عنهم « اللوات » بحذف الياء وإبقاء  
الكسرة ؛ قاله ابن السجري . قال الجوهري : أنشد أبو عبيد :

بِرَّ مِنَ الْوَرَىٰ وَالْيَاقَاتِ • زَعَمَ أَنْ قَدْ كَبُرَتْ لِدَاتِ  
وَالْوَأِ بِاسْقَاطِ النَّامِ • وَتَصْنِيفِ إِلَى الْقَتَا بِالْفَتْحِ وَالْتَشْدِيدِ؛ قَالَ الرَّابِعُ:  
• بِمَدِّ الْقَتَا وَالْتِيَا وَالْيَاقَاتِ •

وبعض الشعراء أدخل على « التي » حرف النداء، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف  
واللام إلا في قولنا: يا الله وحده؛ فكأنه شبهها به من حيث كانت الألف واللام غير  
مفارقتين لها. وقال:

مِنْ أَجْلِكَ يَا لِي تَمَيَّتَ قَلْبِي • وَأَنْتِ بِجَوْشَلَةٍ بِالْوَدِّ عَنِّي

ويقال: وقع في القَتَا والْتِي، وهما آسمان من أسماء البالية.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْفَاحِشَةُ﴾ الفاحشة في هذا الموضع الزنا، والفاحشة  
الفعلية الفحيحة، وهي مصدر كالعاقبة والعاقبة. وقرا ابن مسعود « بِالْفَاحِشَةِ » بياء الجز.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ إضافة في معنى الإسلام وبيان حال المؤمنات؛  
كما قال: « وَأَمْسَتْهُنَّ شَهْدَاءُ مِنْ رِجَالِكُمْ » لأن الكافرة قد تكون من نساء المسلمين  
بنسب ولا يلحقها هذا الحكم.

الخامسة - قوله تعالى: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَظِيمَ أَرْبَعَةٍ مِنْكُمْ﴾ أي من المسلمين، بفعل الله  
الشهادة على الزنا خاصة أربعة تغليظا على المتدين وسقرا على العباد. وتعدد الشهود بالأربعة  
في الزنا حكم ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن؛ قال الله تعالى: « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ  
فَلَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً » وقال هنا: « فَاسْتَشْهِدُوا عَظِيمَ أَرْبَعَةٍ مِنْكُمْ ».  
وروى أبو دوداد عن جابر بن عبد الله قال: جاءت اليهود رجل وأمرأة منهم زنيا فقال:  
« اسْئَلُونِي بِأَعْلَمَ رَجُلَيْنِ مِنْكُمْ » فأتوه بأخي صوريا فنشدهما: « كيف تجدان أمر هذين في التوراة »  
قالا: نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة رجما.  
قال: « فما يمكنكم أن ترجموها »؟ قالا: ذهب سلطاننا فكبرها القتل، فذنا رسول الله صلى الله

عليه وسلم بالشهود، يخافون أربعة فشهدوا أنهم رأوا ذكره في قرنها مثل المثل في المكمل، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برسهما، وقال قوم: إنما كان الشهود في الزنا أربعة يترتب شاهدان على كل واحد من الزانيين كسائر الحقوق؛ إذ هو حق يؤخذ من كل واحد منهما، وهذا حقيق؛ فإن الذين تدخل في الأموال واللوث في القسامة، ولا مدخل لواحد منهما هنا.

السادسة - ولا بد أن يكون الشهود ذكورا لقوله: «مَنْكُمْ»، ولا خلاف فيه بين الأمة. وأن يكونوا عدولا، لأن الله تعالى شرط العدالة في البيوع والرجعة. وهذا أعظم، وهو بذلك أولى، وهذا من حل المطلقة، حل المقيّد بالدليل، حل لمعومد كوز في أصول الفقه. ولا يكونون ذمة، وإن كان الحكم على ذمة، ويبقى ذلك في «المائدة». وتلقى أبو حنيفة بقوله: «أربعة مِنْكُمْ» في أن الزوج إذا كان أحد الشهود في القتل لم يلعن. ونسب إلى بيانه في «النور» إن شاء الله تعالى.

السابعة - قوله تعالى: (فَإِنْ شَهِدُوا فَلْيَسَكُنْهُنَّ فِي الْبُيُوتِ) هذه أول عزومات الزناة، وكان هذا في ابتداء الإسلام؛ قاله جادة بن الضامت والحسن ومجاهد حتى نسخ بالأذى الذي بعده. ثم نسخ ذلك بآية «النور» وبالزيم في الثيب. وقالت فرقة: بل كان الإيذاء هو الأول ثم نسخ بالإسك، ولكن التلاوة أثرت وقضت؛ ذكره ابن قُورَك. وهذا الإسك والحبس في البيوت كان في صدر الإسلام قبل أن يكثر الجناة. فلما كثروا وخشى قوتهم أخذ لهم حجب؛ قاله ابن العربي.

الثامنة - واختلف العلماء هل كان هذا السجن حدا أو نوعا بالحد على قولين: أحدهما - أنه نوع بالحد، والثاني - أنه حد؛ قاله ابن عباس والحسن. زاد ابن زيد: وأنهم مُنَعُوا من النكاح حتى يموتوا عفوية لم حين طلبوا النكاح من غير وجهه. وهذا يدل

(١) القوت: هو أن يشهد شاهد واحد على إقرار القاتل قبل أن يموت أن قتلنا قتلنا، أو يشهد شاهدان على حادثة فيها ارتكبت منه، أو محر ذلك. (من اللسان).

(٢) في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا تَعْلَمُونَ...» آية ٨

على أنه كان خطأ بل أشد ؛ غير أن ذلك الحكم كان مبنوياً إلى غاية وهو الأذى في الآية الأخرى ، على اختلاف التأويلين في أيهما قيل ؛ وكلاهما مبنوياً إلى غاية وهي قوله عليه السلام في حديث عبادة بن الصامت : « خَلُّوا عَنِّي خَذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِمَنِ سَبَلَ الْبُكَرِ بِالْبُكَرِ جُلْدَ مِائَةٍ وَتَقْرِيبُ عَامٍ وَالتَّيْبُ بِالتَّيْبِ جُلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجَمُ » . وهذا نحو قوله تعالى : « ثُمَّ آمَنُوا الصَّيَامَ إِلَى الْقَلِيلِ » فإذا جاء الليل ارتفع حكم الصيام لانتهاؤه فأنته لا لنسخه . هذا قول المحققين المتأخرين من الأصوليين ؛ فإن النسخ إنما يكون في القولين المتعارضين من كل وجه للذين لا يمكن الجمع بينهما ، والجمع ممكن بين الجسوس والتميز والجلد والرجم . وقد قال بعض العلماء : إن الأذى والتعريض مع الجلد ؛ لأنهما لا يتعارضان بل يملآن على شخص واحد . وأما الجسوس فنسوخ بإجماع ، وإطلاق المتقامين النسخ على مثل هذا تجوز ، والله أعلم .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَأْتِيهِمْ مِنْكَ فَقَاذُوهُمْ فَإِنْ تَابَ وَأَصْلَحَا فَأَنْسَرُوا عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً » ﴿١١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَالَّذِينَ » ( وَالَّذِينَ ) « ثنية الذنبي » ، وكان التماس أن يقال : الَّذِينَ كَرِهَانَ وَمُصْطَفِيَانَ وَشُعْيَانَ . قال سيوطي : حذف الياء ليفرق بين الأسماء المتمكنة والأسماء المبهمة . وقال أبو علي : حذف الياء تخفيفاً ، إذ قد أمن اللبس في الَّذِينَ ؛ لأن التون لا تتحذف ، وتون التسمية في الأسماء المتمكنة قد تتحذف مع الإضافة في رجاك ومصطفيا القوم ؛ فلو حذف الياء لاشتبه المفرد بالآتين . وقرأ ابن كثير « الذاق » بتشديد التون ، وهي لغة قريش ؛ وعلته أنه جعل التشديد عوضاً من ألف « ذا » على ما يأتي بيانه في سورة « القصص » عند قوله تعالى : « فَذَانِطَ بَرَهَاتَانِ » . وفيها لغة أخرى « الذنا » بحذف التون . هذا قول الكوفيين . وقال البصريون : إنما حذف التون لطول الاسم بالعملة ، وكذلك

قرأها « ذاك » و « فلذلك برهاتان » بالتشديد لهما . والياقون الخفيف . وشهد أبو عمرو « فلذلك برهاتان » وحدها . و « اللذان » رفع بالابتداء . قال سيويه : المبني وفيما يتل عليك اللذان يأتيانها ، أى الفاحشة منكم . ودخلت الفاء في « فأدوهما » لأن في الكلام معنى الأمر ؛ لأنه لما وصل الذى بالفعل تمكن فيه معنى الشرط ؛ إذ لا يقع عليه شيء بيته ، فلما تمكن الشرط والإيهام فيه جرى مجرى الشرط فدخلت الفاء ولم يعمل فيه ما قبله من الإضمار كما لا يعمل في الشرط ما قبله ؛ فلما لم يحسن إضمار الفعل قبلهما لينصبا رفعا بالابتداء ؛ وهذا اختيار سيويه . ويجوز النصب على تقدير إضمار فعل ، وهو الاختيار إذا كان في الكلام معنى الأمر والنهي نحو قولك : اللذين عندك فأكرمهما .

الثانية — قوله تعالى : ( فَأَدُوهُمَا ) قال قتادة والسدي : معناه التوبيخ والتميز . وقالت فرقة : هو السب والجفاء دون تمييز . ابن عباس : التيلُ باللسان والضربُ بالفعال . قال النحاس : وزعم قوم أنه منسوخ .

قلت : ورواه ابن أبي نجیح عن مجاهد قال : « وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ » و « وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا » كان في أول الأمر ففسختها الآية التي في « النور » . قال النحاس : وقيل وهو أولى أنه ليس بمنسوخ ، وأنه واجب أن يؤدباً بالتوبيخ فيقال لهما : بفرتما وفسقتما وخالفتما أمر الله عز وجل .

الثالثة — واختلف العلماء في تأويل قوله تعالى : « وَاللَّائِي » وقوله : « وَاللَّذَانِ » فقال مجاهد وغيره : الآية الأولى في النساء مائة محصنات وغير محصنات ، والاية الثانية في الرجال خاصة . وبين بلفظ الثانية صفى الرجال من أحسن ومن لم يحسن ؛ فعقوبة النساء المحسن ، وعقوبة الرجال الأذى . وهذا قول يقتضيه اللفظ ، ويستوفى نص الكلام أصناف الزناة . ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأولى : « مِنْ نِسَائِكُمْ » وفي الثانية « مِنْكُمْ » ؛ واختاره النحاس ورواه عن ابن عباس . وقال السدي وقاتدة وغيرهما : الأولى في النساء المحصنات . يريد : ودخل معهن من أحسن من الرجال بالمعنى ، والثانية في الرجل والمرأة الزكَّيرين . قال



أَبْنِ حَطِيَّةٍ : وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ تَمَّ إِلَّا أَنْ لَفْظَ آيَةِ يَتَلَقَّى عَنْهُ . وَقَدْ رَجَّحَ الْعَلَمِيُّ ، وَأَبَاهُ النَّاسُ وَقَالَ : تَغْلِبُ الْمُؤْتَى عَلَى الْمَذْكُورِ بَعِيدٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُخْرَجُ الشَّيْءُ إِلَى الْخَازِئِ وَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ فِي الْحَقِيقَةِ . وَقِيلَ : كَانَ الْإِبْسَاكُ لِلرَّأَةِ الزَّانِيَةِ دُونَ الرَّجُلِ ؛ تَخُصُّصٌ لِلرَّأَةِ بِالذِّكْرِ فِي الْإِبْسَاكِ ثُمَّ جَمَعَ فِي الْإِبْنَاءِ . قَالَ قَتَادَةُ : كَانَتِ الْمَرْأَةُ تُحْبَسُ وَيُؤْذِيَانِ جَمِيعًا ؛ وَهَذَا لِأَنَّ الرَّجُلَ يَخْتِاجُ إِلَى السَّيِّئِ وَالْإِكْتِسَابِ .

الرابعة — واختلف العلماء أيضًا في القول بمقتضى حديث عُبَادَةَ الَّذِي هُوَ يَبَارِكُ لِأَحْكَامِ الزَّانَةِ عَلَى مَا يَنْبَغُ ؛ فَقَالَ بِمَقْتَضَاهُ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ لَا اخْتِلَافَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ جَلَدُ شُرَاحَةِ الْمَسْدَانِيَةِ مِائَةً وَرَجَمَهَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَقَالَ : جَلَدْتُهَا بِكَتَابِ اللَّهِ وَرَجَمْتُهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ وَابْنُ حَنٍّ وَابْنُ حَقَّاقٍ . وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَلُحُّ عَلَى التَّيِّبِ الرَّجْمُ بِلَا جَلْدٍ . وَهَذَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ وَهُوَ قَوْلُ الزُّهْرِيِّ وَالْقَاسِمِيِّ وَمَالِكٍ وَالثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَالشَّافِعِيِّ وَابْنِ أَبِي ثَوْرٍ ؛ مَقْتَضِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَمَ مَاعِزًا وَالنَّاعِمِيَّةَ وَلَمْ يَجْلِدْهُمَا ؛ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يُبْسَ : « أَقْعُدْ عَلَى أَسْرَافَةٍ هَذَا فَإِنْ أَصْرَفَتْ فَأَرْجِمَهَا » وَلَمْ يَذْكُرِ الْجَلْدَ ؛ فَلَوْ كَانَ مَشْرُوعًا لَمَا سَكَتَ عَنْهُ . قِيلَ لَمْ : إِنَّمَا سَكَتَ عَنْهُ لِأَنَّهُ تَابَتْ بِكَتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَسْكَتَ عَنْهُ لِشَهْرَتِهِ وَالتَّنْبِيصِ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِائَةً جَلْدَةً » يَمُوجِعُ الزَّانَةَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَيَبَيِّنُ هَذَا فِعْلٌ عَلَى أَخْذِهِ عَنِ الْخُلَفَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ قَلِيلٌ لَهُ : عَمِلَتْ بِالْمُسَوِّخِ وَتَرَاتِ النَّاسِخِ . وَهَذَا وَاضِحٌ .

الخامسة — واختلفوا في نفي الإكراع مع الجلد ؛ فَالَّذِي عَلَيْهِ الْجَهْمُ وَرَأَاهُ يُنْفَى مَعَ الْجَلْدِ ؛ قَالَهُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ : أَبُو بَكْرٌ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَسَيْفَانٌ وَمَالِكٌ وَابْنُ أَبِي لَيْلَى وَالشَّافِعِيُّ وَاحِدٌ وَابْنُ حَقَّاقٍ وَأَبُو ثَوْرٍ . وَقَالَ بِتَرْكِهِ حَمَادُ بْنُ أَبِي سَلْيَانَ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ . وَالْحُجَّةُ لِلْجَهْمِ حَدِيثُ عُبَادَةَ الْمَذْكُورِ ،

وَحَدَّثَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدُ بْنُ خَالِدٍ حَدَّثَ الْعَيْنِيُّ فِيهِ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :  
 « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا فَيْضَيْنِ بَيْنَكُمَا بَكَّابِ اللَّهِ أَمَّا عَنْكُمْ وَجَارِيَتُكُمْ فَرَدُّ عَلَيْكُمْ » وَجَلَدَ ابْنَهُ مَائَةً  
 وَغَرَّبَهُ مِائَةً . أَخْرَجَهُ الْإِمَامَةُ : أَحْمَدُ مِنْ لَمْ يَرْفَعِهِ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الْأُمَّةِ ، ذَكَرَ فِيهِ الْجَلْدُ  
 دُونَ الْغُرْبِ . وَذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ : غَرَّبَ  
 عُمَرُ رُبْعَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ فِي الْخَمْرِ إِلَى خَيْبَرَ فَلَحِقَ بِهِ وَقَالَ قَتَضَ : فَقَالَ عُمَرُ : لَا أَغَرِّبُ  
 مُسْلِمًا بَعْدَ هَذَا . قَالُوا : وَلَوْ كَانَ التَّغْرِيبُ حُدًّا لَلَّهِ تَعَالَى مَا تَرَكَهُ عُمَرُ بَعْدُ . ثُمَّ إِنْ النَّصِ  
 الَّذِي فِي الْكُتُبِ إِنَّمَا هُوَ الْجَلْدُ ، وَالزِّيَادَةُ عَلَى النَّصِ نَسْخٌ ؛ فَلِزِمَ عَلَيْهِ نَسْخُ التَّعَاطُفِ بِخَيْرِ  
 الْوَاحِدِ . وَالْجَوَابُ : أَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فَإِنَّمَا هُوَ فِي الْإِمَاءِ لَا فِي الْأَعْرَارِ . وَقَدْ صَحَّ عَنْ  
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ ضَرَبَ أُمَّتَهُ فِي الزَّوْنِ وَنَقَاها . وَأَمَّا حَدِيثُ عُمَرَ وَقَوْلُهُ : لَا أَغَرِّبُ بَعْدَهُ  
 مُسْلِمًا ، فَيَعْنِي فِي الْخَمْرِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مَا رَوَاهُ نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
 ضَرَبَ وَغَرَّبَ ، وَأَنْ أَيْبَا بَكَرُ ضَرَبَ وَغَرَّبَ ، وَأَتَى عُمَرُ ضَرَبَ وَغَرَّبَ . أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ  
 فِي جَامِعِهِ وَالتَّيْسَانِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ الْقُشَيْرِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِدْرِيسَ  
 عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ . قَالَ الدَّرَقُطَنِيُّ : نَفَذَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ وَلَمْ يَسْتَنْدِ عَنهُ  
 أَحَدٌ مِنَ الثَّقَاتِ فَيَرَى أَبِي كُرَيْبٍ ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْغُرْبُ فَلَا كَلَامَ لِأَحَدٍ  
 مَعَهُ ، وَمَنْ خَالَفَهُ السُّنَّةَ خَاصِمَتُهُ . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : الزِّيَادَةُ عَلَى النَّصِ نَسْخٌ ، فَلَيْسَ بِمُسْلَمٍ ، بَلْ زِيَادَةُ حُكْمِ أَحْرَمِ الْأَصْلِ .  
 ثُمَّ هُوَ قَدْ زَادَ الْوَضُوءَ بِالنِّبَاحِ بِخَيْرٍ لَمْ يَصْغِرْ عَلَى الْمَاءِ ، وَاشْتَرَطَ الْفَقْرُ فِي الْقُرْبَى ؛ إِلَى فَيَرْدُكَ  
 بِمَا لَيْسَ مَتَّصُوا بِهِ فِي الْقُرْآنِ . وَقَدْ مَضَى ذَلِكَ فِي الْبَقَرَةِ وَبَاقِي .

السادسة - التَّعَاطُفُ بِالْغَرِّبِ لَمْ يَخْتَلَفُوا فِي تَغْرِيبِ الذَّكَرِ الْحُرِّ ، وَاسْتَحَقُّوا فِي تَغْرِيبِ  
 الْعَبْدِ وَالْأُمَّةِ ؛ فَهَمَّ رَأَى التَّغْرِيبَ فِيهِمَا أَنْ عُمَرَ جَلَدَ مَمْلُوكَةً لَهُ فِي الزَّوْنِ وَنَقَاها إِلَى قَدْكَ ؛

(١) السِّيفُ (بِالسَّيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَالْقَاءِ) : الْأَجِيرُ . (٢) رَاجِعَ تَسْمِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاجْلِدُوا أَمَّا  
 غَسَمٌ ... » آيَةُ ٤١ سُورَةِ الْأَنْعَامِ . (٣) رَاجِعَ ٢ ص ٦١ وَمَا يَدْعَاهَا طَبْعًا ثَانِيَةً .  
 (٤) فَكَّ (بِالصَّرِيحِ) : قُرْبَى بِالْجَازِ بِهَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ وَبَرْقَانَ ، وَقِيلَ ثَلَاثَةٌ . (مَنْ سَمِعَ الْبَلَدَانَ) .

وبه قال الشافعي وأبو توزو والنوري والطبري وداود . واختلف قول الشافعي في حق العبد،  
فروا قال : استخير الله في حق العبد، امرأة قال : يعني نصف سنة، وامرأة قال : يعني سنة  
إلى غير بلده، وبه قال الطبري . واختلف أيضا قوله في حق الأمة على قولين . وقال مالك : يعني  
الزبل ولا تسنى المرأة ولا العبد . ومن ثني حنس في الموضع الذي ينشأ إليه . ويثنى من مصر  
إلى الحجاز وشب وأسوان ونحوها، ومن المدينة إلى خيبر وقَدْكَ، وكذلك قلَّ عمر بن عبد العزيز  
وتنَّى على من الكوفة إلى البصرة . وقال الشافعي : أقل ذلك يوم وليلة . قال ابن العربي :  
كان أصل الثني أن بني إسرائيل أجمع رأيهم على أن من أحدث حدثًا في الحرم عُرب منه،  
فصارَت سنة فيهم يمينون بها، فلاجل ذلك استنَّ الناس إذا أحدث أحد حدثًا عُرب من  
بلده، وتعادى ذلك في الجاهلية إلى أن جاء الإسلام فأقره في الزنا خاصة . أوجب من لم ير الثني  
على العبد بحيث أبي حريرة في الأمة، ولأن تربيته عقوبة لما لكه تمنعه من منافعه في مدة  
تربيته، ولا يناسب ذلك تصرف الشرع، فلا يعاقب غير الجاني . وأيضًا فقد سقط عنه الجملة  
والج والجهاد الذي هو حق لله تعالى لأجل السيد، فكذلك التعريب . والله أعلم .

والمرأة إذا عُربت ربما يكون ذلك سببًا لوقوعها في أئرجت من سببه وهو الفاحشة، وفي التعريب  
سبب لكشف عورتها وتضييع حلالها؛ ولأن الأصل منعها من الخروج من بيتها وأن صلاحها  
فيه أفضل . وقال صلى الله عليه وسلم : «أعزُّوا النساء يَزِنَنَّ الجِمالَ»<sup>(١)</sup> فحصل من هذا تخصيص  
عموم حديث التعريب بالمصلحة المشهود لها بالاعتبار . وهو مختلف فيه عند الأصوليين والنظار .  
وشدَّت طائفة فقالت : يُجمع الجلد والرحم على الشيخ . ويُجلد الشاب ؛ تمسُّكًا بقول «الشيخ»  
في حديث زيد بن ثابت أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «الشيخ والشبعة إذا  
زنيا فأرجوهما البتة» نزعجه النساء . وهذا فاسد؛ لأنه قد ساء في الحديث الآخر «التهب» .

السابعة - قوله تعالى : (فَإِنْ تَابَا) أي من الفاحشة . (وَأَصْلُهُمَا) يعني العمل فيما بعد  
ذلك . (فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا) أي أتركوا أذاهما وتغيرهما . وإنما كان هذا قبل نزول الجلود؛

(١) شب (فتح فسكون) : مهل بين مصر والشام . (عن القاموس) . (٢) الجال : جمع جلة  
بالصريك، هو بيت كاتبة يسري الباب . والمثني : يردعن من الملابس التي يخرجن بها يزين البيوت .

فلما نزلت الجلود نُسخَتْ هذه الآية. وليس المراد بالإعراض الهجر، ولكنها متاركة معرضة؛ وفي ذلك احتقار لم بسبب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى. والله تواب أى راجع بعباده عن الماضي .

قوله تعالى : **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** (١٧) **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** (١٨)

فيها أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)** قيل : هذه الآية عاتقة لكل من عمل ذنبا. وقيل : لمن جهل فقط، والتوبة لكل من عمل ذنبا في موضع آخر. وافقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين؛ لقوله تعالى : **« وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ »**. ونصح من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه - خلافا للعترة في قولهم : لا يكون تابيا من أقام على ذنب، ولا فرق بين معصية ومعصية - هذا مذهب أهل السنة . وإذا تاب العبد فانه سبحانه بالخيار إن شاء قبلها ، وإن شاء لم يقبلها . وليس قبول التوبة واجبا على الله من طريق العقل كما قال المخالف ؛ لأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه ، والحق سبحانه خالق الخلق ومالكهم، والمكلف لهم ؛ فلا يصح أن يوصف بوجوب شيء عليه، تعالى عن ذلك، غير أنه أخبر سبحانه وهو الصادق في وعده بأنه يقبل التوبة عن العاصين من عباده بقوله تعالى : **« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ »**. وقوله : **« أَلَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ »**. وقوله : **« وَإِنِّي لَتَفَارِقُنَّ تَابٌ »** فإخباره سبحانه وتعالى عن أشياء أوجبا على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء . والعقيدة

أنه لا يجب عليه شيء عقلاً ، فاما السمع فظاهره قبول توبة التائب . قال أبو المعالي وغيره : وهذه النواهي إنما تُعطى غلبة ظن ، لا قطعاً على الله تعالى بقبول التوبة . قال آبن عطية : وقد خولف أبو المعالي وغيره في هذا المعنى . فإذا فرضنا رجلاً قد تاب توبة تصوّحاً تامة الشروع قال أبو المعالي : يخلب على الظن قبول توبته . وقال غيره : يقطع على الله تعالى بقبول توبته كما أخبر عن نفسه جل وعز . قال آبن عطية : وكان أبي رحمه الله يميل إلى هذا القول ويرجح ، وبه أقول ، والله تعالى أرحم بعباده من أن يخزم في هذا التائب المفروض معنى قوله : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » وقوله تعالى : « وإني لنفّار » . وإذا تفقّر هذا فاعلم أن في قوله « على الله » حذفاً وليس على ظاهره ، وإنما المعنى على فضل الله ورحمته بعباده . وهذا نحو قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : « أنتدري ما حق العباد على الله » ؟ قال - الله - رسوله أعلم . قال : « أن يدخلهم الجنة » . فهذا كله معناه : على فضله ورحمته بوبئده الحق وقوله الصديق . دليله قوله تعالى : « كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » أى وعد بها . وقيل : « على » هاهنا معناها « عند » والمعنى واحد ، التقدير : عند الله ، أى أنه وعد ولا خُلف في وعده أنه يقبل التوبة إذا كانت بشروطها المصححة لها ، وهى أربعة : الندم بالقلب ، وترك المعصية في الحال ، والعزم على ألا يعود إلى مثلها ، وأن يكون ذلك حياةً من الله تعالى لا من غيره ؛ فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة . وقد قيل من شروطها : الاعتراف بالذنب وكثرة الاستغفار ، وقد تقدّم في « آل عمران » كثير من معاني التوبة وأحكامها . ولا خلاف فيما أجعله أن التوبة لا تسقط حدّاً ؛ ولهذا قال علماؤنا : إن السارق والسارقة والقاتل متى تابوا وقامت الشهادة عليهم أقيمت عليهم الحدود . وقيل : « على » بمعنى « من » أى : إنما التوبة من الله للذين ؛ قاله أبو بكر بن عبدوس ، والله أعلم . وسيأتى في « التحريم » الكلام في التوبة النصوح والأشياء التي يتاب منها .

(١) راجع ج ٤ ص ١٢٠ طية أول أو ثانيه .

(٢) في نصيره قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا جزوا ... » آية ٨

الثانية - قوله تعالى: (الَّذِينَ يَسْمُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) السوء في هذه الآية، و«الأنايم»  
«أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ» يَمُوتُ الْكَفَرُ وَالْمَعَاصِي؛ فكل من عصى ربه فهو جاهل  
حتى يترع عن معصيته، قال قتادة: أجمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على أن كل معصية  
فهي بجهالة، عمدا كانت أو جهلا، وقاله ابن عباس وقتادة والضحاك وجماعة والسدي،  
وروى عن الضحاك وجماعة أنها قالوا: الجهالة هنا العمد. وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها  
جهالة؛ يريد الخاصة بها الخارية عن طاعة الله. وهذا القول جار مع قوله تعالى: «إنما  
الحياة الدنيا لعب ولهو»، وقال الزجاج: يعني قوله «بجهالة» اختيارهم للذة الفانية على  
اللذة الباقية. وقيل: «بجهالة» أي لا يعلمون كنه العقوبة؛ ذكره ابن قُورَك. قال ابن  
عطية: وَصَّفَ قَوْلَهُ هَذَا وَرَدَّ عَلَيْهِ.

الثالثة - قوله تعالى: (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) قال ابن عباس والسدي: معناه  
قبل المرض والموت. وروى عن الضحاك أنه قال: كل ما كان قبل الموت فهو قريب.  
وقال أبو مجاز والضحاك أيضا وعكرمة وابن زيد وغيرهم: قبل المعايبة لللائكة والسدي<sup>(١)</sup>،  
وأن يغلب المرء على نفسه. ولقد أحسن محمود الوراق حيث قال:

فَدَمَّ لِنَفْسِكَ تَوْبَةً مَرْجُوءَةً قَبْلَ الْمَوْتِ وَقَبْلَ حَبْسِ الْأَنْفُسِ  
بَادِرْ بِهَا غَلَقَ النَّفُوسِ فَإِنَّهَا «فُتْرٌ وَغُسْمٌ لِلنَّبِيِّ الْحَسَنِ

قال علماؤنا رحمهم الله: وإنما صحت التوبة منه في هذا الوقت؛ لأن الرجاء باقٍ ويصح منه  
التندم والعزم على ترك الفعل. وقد روى الترمذي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم  
قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُنْعَرْ» قال: هذا حديث حسن غريب. ومعنى  
«ما لم ينعر»: ما لم تبلغ روحه حلقومه؛ فيكون بمثابة الشيء الذي يتغرغر به. قاله الهروي:

(١) السوق: الزرع؛ كأن روحه تساق لتخرج من فيه.

(٢) يقال: غلق الزرع إذا لم يندر على أشكائه. يزيد: بإدخاله توبة قبل ضياع الثمرة.

وقيل للمعنى يتوبون على عيوبهم من الذنب من غير إصرار . والمباير في الصحة أفضل ؛  
والحق لأمله من العمل الصالح . والبعث كل تبعث الموت ؛ كما قال :  
« وأين مكان البعث إلا مكاناً <sup>(١)</sup> » .

وروى صالح المري عن الحسن قال : من غير أخاه بذنب قد تاب إلى الله منه ابتلاه الله به .  
وقال الحسن أيضاً : « إن إبليس لما هبط قال : بعثتك لا أفارق أبنت آدم ما دام الروح  
في جسده . قال الله تعالى : « فبعزتي لأجيب التوبة عن ابن آدم ما لم تقرضه قسه » .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ ) هي سبحانه أن يدخل في حكم التائبين  
من حضرة الموت وصار في حين اليأس ؛ كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق .  
فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان ؛ لأن التوبة في ذلك الوقت لا تنفع ؛ لأنها حال زوال التكليف .  
وهذا قال ابن عباس وابن زيد وجهه المفسرين . وأما الكفار يموتون على كفرهم فلا توبة  
لهم في الآخرة ، واليهام للإشارة بقوله تعالى : « وَأُولَئِكَ أَتَيْنَاهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا » وهو الخلود . وإن  
كانت الإشارة بقوله إلى الجميع فهو في جهة العصاة عذاب لا خلود معه ؛ وهذا على أن السيئات  
ما دون الكفر ؛ أي ليست التوبة لمن عمل دون الكفر من السيئات ثم تاب عند الموت ،  
ولا لمن مات كافراً تاب يوم القيامة . وقد قيل : إن السيئات هنا الكفر ؛ فيكون المعنى  
وليس التوبة للكفار الذين يتوبون عند الموت ، ولا للذين يموتون وهم كفار . قال أبو العالية :  
نزل أول الآية في المؤمنين « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ » . والثانية في المنافقين « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ  
يَسْمُونَ السَّيِّئَاتِ » يعني عدم قبول التوبة للذين أصروا على فعلهم . ( حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ  
المَوْتُ ) يعني السوق والترح ومعاينة ملك الموت . ( قَالَ إِنِّي تَابْتُ الْآنَ ) فليس لهذا توبة .  
ثم ذكر توبة الكفار فقال تعالى : ( وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَتَيْنَاهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا )  
أي وجعاً دائماً . وقد هتلم <sup>(٢)</sup> .

(١) هذا مجزئ لما كتب من الرب الماتوق . ومعه :

• يقولون لا تبعثهم يفتخروا •

(٢) راجع ١٦٨ ص ١٦٨ طبع ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا  
وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَسِيحَةٍ  
مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا  
وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ) هذا متصل بما  
تقدم ذكره من الزوجات ، والمقصود من الظلم عني وإضرارني ، والمطالب للأولياء .  
وهـ أن « في موضع رفع يحل ، أي لا يحل لكم وراثته النساء . » ( كرها ) مصدر في موضع  
الحال . واختلفت الروايات وأقوال المفسرين في سبب قولها ، فروى البخاري عن ابن  
عباس « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ  
مَا آتَيْنَهُنَّ » قال : كانوا إذا مات الرجل كانت أولياؤه أحق بآمراته ، إن شاء  
بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجهوا ، فهم أحق بها من أهلها  
فتركت هذه الآية في ذلك . وأخرجه أبو داود بمناه . وقال الزهري وأبو جابر : كان من  
عادتهم إذا مات الرجل بقي أبوه من غيرها أو أقرب مصبه توبه على المرأة فيصير أحق بها  
من نفسها ومن أوليائها ، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أسدقها الميت ،  
وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها فتتدى منه بما  
ورثه من الميت أو تموت فيريتها ، فأنزل الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا  
النِّسَاءَ كَرِهًا » . فيكون المعنى : لا يحل لكم أن ترثوهن من أزواجهن فتكونوا أزواجهن .  
وقيل : كان الوارث إن سبق فأتى عليها ثوبا فهو أحق بها ، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها  
كانت أحق بنفسها ، قاله السدي . وقيل : كان يكون عند الرجل مجوز ونفسه شوق إلى  
الشابة فيكره فراق المجوز لما لها فيتمسكها ولا يقر بها حتى تقتدى منه طالما أو تموت فيها



فزلت هذه الآية . وأمر الزوج أن يطلقها إن كره صحتها ولا يسكها كرهاً ، فذلك قوله تعالى :  
 « لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا » . وللقصود من الآية إذهاب ما كانوا عليه في جاهليتهم ،  
 والآ تحمل النساء كالمال يورث عن الرجل كما يورث المال . و « كَرِهًا » بضم الكاف قراءة  
 حمزة والكسائي ، الباقون بالفتح ، وهما لغتان . وقال القتيبي : الكره ( بالفتح ) بمعنى الإكراه ،  
 والكره ( بالضم ) المشقة . يقال : لِفعل ذلك طَوَّما أو كَرِهًا ، بمعنى طاماً أو مكراً . والمطلب  
 للأولياء . وقيل : لأزواج النساء إذا حبسوهن مع سوء البشرة طليعية إرثها ، أو غلبتين  
 ببعض مهورهن ، وهذا أصح . واختاره ابن عطية قال : ودليل ذلك قوله تعالى : « إِلَّا أَنْ  
 يَأْتِيَنَّ بِغَاحِشَةٍ » وإذا أنت بغاشة فليس الأولى حبسها حتى ينهب بما لها إجماعاً من الأمة ،  
 وإنما ذلك للزوج ، على ما يلقى بيانه في المسألة بعد هذا .

الثانية - قوله تعالى : ( وَلَا تَقْرَبُوا ) قد تقدم معنى الفصل وأنه المنع في « البقرة » .  
 ( إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ) اختلف الناس في معنى الغاشة ، فقال الحسن : هو الزنا ،  
 وإذا زنت البكورة فأنجبها مائة وثماني سنة ، وترد إلى زوجها ما أخذت منه . وقال أبو قلابة :  
 إذا زنت امرأة الرجل فلا بأس أن يضارها ويشق عليها حتى تقتدي منه . وقال السدي :  
 إذا غلبت ذلك فغفروا مهورهن . وقال ابن سيرين وأبو قلابة : لا يحل له أن يأخذ منها فدية  
 إلا أن يبيد على بطنها رجلاً ، قال الله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ » . وقال  
 ابن مسعود وابن عباس والضحاك وقادة : الغاشة المينة في هذه الآية البُضُّ والنشوز ،  
 قالوا : فإذا تَنَزَّرت حلَّ له أن يأخذ مالها ، وهذا هو مذهب مالك . قال ابن عطية : إلا أني  
 لا أحفظ له نصاً في الغاشة في الآية . وقال قوم : الغاشة البذاء باللسان وسوء العشرة  
 قولاً وفعلًا ؛ وهذا في معنى النشوز . ومن أهل العلم من يميز أخذ المال من الناشز على جهة  
 الخلع ؛ إلا أنه يرى ألا يجاوز ما أعطاهم رُكُونًا إلى قوله تعالى : « لِتَنْهَبُوا نِعْمَتِي مَا آتَيْتُكُمْ » .  
 وقال مالك وجماعة من أهل العلم : للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ممتلكاته . قال ابن عطية :

والزنا أصعب على الزوج من الشُّوز والأذى ، وكل ذلك فاحشة يحل أخذ المال . قال أبو عمر: قول ابن مبرين وأبي قلابه عندي ليس بشيء ؛ لأن الفاحشة قد تكون البذاء والأذى ؛ ومنه قيل للبذء: فاحشٌ ومُتَحَشٍ ، وحل أنه لو اطلع منها على الفاحشة كان له لِمَانُها ، وإن شاء طلقها ؛ وأما أن يضارها حتى تقتدي منه بما لها فليس له ذلك ، ولا أعلم أحدا قال له أن يضارها ويسىء إليها حتى تخلع منه إذا وسدها ترى غير أبي قلابه . والله أعلم . وقال الله عز وجل : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقَهُوا حَدُودَ اللَّهِ » . يعني في حسن العشرة والقيام بحقوق الزوج وقيامه بحقوقها « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا اقْتَدَتْ بِهِ » . وقال الله عز وجل : « فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا » فهذه الآيات أصل هذا الباب . وقال عطاء الخراساني : كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها ، فنسخ ذلك بالحدود . وقول رابع - « إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ » إلا أن يبين فيجس في البيوت ؛ فيكون هذا قبل النسخ ، وهذا في معنى قول عطاء وهو ضعيف .

الثالثة - وإذا تَرَكَنا على القول بأن المراد بالخطاب في الفصل الأولياء ففقهه أنه متى صح في ولي أنه عاضل نظر القاضي في أمر المرأة وزوجها ، إلا الأب في بناته ؛ فإن كان في عضله صلاح فلا يترى قولاً واحداً ؛ وذلك بالخطاب والخطابين . وإن صح عضله ففيه قولان في مذهب مالك : أنه كسائر الأولياء ، يزوج القاضي من شاء التزوج من بناته وطلبه . والقول الآخر - لا يترى له .

الرابعة - يجوز أن يكون « تَمْضُلُون » جزاء على النهي ، فتكون الواو عاطفة جملة كلام مقطوعة من الأولى ، ويجوز أن يكون نصبا عطفا على « أَنْ تَرْتُوا » فتكون الواو مشتركة عطفت فعلا على فعل . وقرأ ابن مسعود « ولا أن تمضلوهن » فهذه القراءة تقوى احتمال النصب ، وأن المضل مما لا يجوز بالنص .

الخامسة - قوله تعالى : ( مُبَيَّنَةٍ ) بكسر الباء قراءة نافع وأبي عمرو ، والباقون بفتح الياء . وقرأ ابن عباس « مبينة » بكسر الباء وسكون الياء ، من أبان الشيء ؛ يقال : أبان الأمر بنفسه ، وأبَّته وبين وبينته ؛ وهذه القراءات كلها لغات فصحة .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى على ما أمر الله به من حسن المعاشرة . والخطاب للجميع ، إذ لكل أحد عشرة ، زوجا كان أو وليا ؛ ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج ؛ وهو مثل قوله تعالى : « فَمَا سَاكُ يَعْرُوفُ » . وذلك تَوْقِيةٌ حقها من المهر والثقة ، وألا يمس في وجهها لغير ذنب ، وأن يكون منطلقا في القول لافظا ولا غليظا ولا مظهرا ميلا إلى غيرها . والعشرة : المخالطة والمجازعة . ومنه قول طرفة :

فَلَمَّ شَطَّتْ نَوَاحَا مَرَّةً \* لَمَلَّ عَهْدَ حَبِيبٍ مُتَمَثِّرٍ

جعل الحبيب جمعا كالخليط والفرق . وعاشره معاشرة ، وتماثر القوم واعتسروا . فأمر الله سبحانه بحسن محبة النساء إذا عقدوا عليهن لتكون أئمة<sup>(١)</sup> ما بينهم ومحبتهم على الكمال ، فإنه أحد الناس وأما العيش . وهذا واجب على الزوج ولا يلزمه في القضاء . وقيل بعضهم : هو أن يتصنع لها كما تصنع له . قال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي : آتيت محمد بن الحنفية فخرج إلى في ملحفة حمراء وليته تطهر من الغالية<sup>(٢)</sup> ، فقلت : ما هذا ؟ قال : إن هذه الملحفة اقتبسها من أسراقي ودعيتي بالطيب ، وإني يشتين منا ما نشتيه نحن . وقال ابن عباس رضي الله عنه : إني أحب أن أزين لأسراقي كما أحب أن أزين لى ، وهذا داخل فيما ذكرناه . قال ابن عطية : وإلى معنى الآية ينظر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « فاستمع بها ولها عروج » . أى لا يكن منك سوء عشرة مع أمواجها ، فنبها نقشا للمخالطة وبها يقع الشقاق ، وهو سب الخلع .

السابعة - استدل علماءنا بقوله تعالى : « وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » على أن المرأة إذا كانت لا يكفها خادم واحد أن عليه أن يجدها قدر كفايتها ، كآبنة الخليفة والملك وشبههما ممن لا يكفها خادم واحد ، وأن ذلك هو المعاشرة بالمعروف . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يلزمه إلا خادم واحد ، وذلك يكفها خدمة نفسها ، وليس في العالم امرأة إلا وخادم واحد يكفها ؛ وهذا كالمقاتل تكون له أفراس عدة فلا يُسهم له إلا لفرس واحد ، لأنه لا يمكنه القتال إلا على فرس . قال علماءنا : وهذا غلط ؛ لأن مثل بنات الملوك اللاتي لهن خدمة

(١) الأئمة : الثلاثة . (٢) الغالية : فرج من الطيب مركب من سك وغيره يعود ومنه .

كثيرة لا يكفيها خادم واحد ؛ لأنها تحتاج من غسل ثيابها وإصلاح مضعجها وغير ذلك إلى ما لا يقوم به الواحد ، وهذا بين . والله أعلم .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ ﴾ أي لدمامة أو سوء خلق من غير ارتكاب فاحشة أو تشوز ؛ فهذا ينطب فيه إلى الاحتمال ، فمعنى أن يشول الأمر إلى أن يرزق الله منها أولادا صالحين . و « أن » رفع بصي ، وأن والفعل مصدر .

قلت : ومن هذا المعنى ما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آثَرٌ " أو قال " غيره " . المعنى : أي لا ينفصها بفضا كلياً يحمله على فراقها . أي لا يبنئ له ذلك بل ينفرد سبقتها لحسنتها ويتقاضى عما يكره لما يحب . وقال مكحول : سمعت ابن عمر يقول : إن الرجل ليستخير الله تعالى فيخار له ، فيسخط على ربه عز وجل فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو قد خيره له . وذكر ابن العربي قال : أخبرني أبو القاسم بن حبيب بالمهدية عن أبي القاسم السيوري عن أبي بكر بن عبد الرحمن قال : كان الشيخ أبو محمد بن أبي زيد من السلم والدين في الممثلة والمعروفة ، وكانت له زوجة سبعة عشر سنة . وكانت تقصر في حقوقه وتؤذي بلسانها ؛ فيقال له في أمرها ويعدّل بالصبر عليها ، فكان يقول : أنا رجل قد أكل الله على النعمة في صحة بدني ومعرفتي وما ملكت يعني ، فلعلها بُعثت عقوبة على ذنبي فأخاف إن فارقتها أن تنزل بي عقوبة هي أشد منها . قال علماءنا : في هذا دليل على كراهة الطلاق مع الإباحة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله لا يكره شيئاً أباحه إلا الطلاق والأكل وإن الله ليغض المي إذا امتلا " .

قوله تعالى : وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبِدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَنَاخُذُونَهُ بِهِنَّ وَإِمَّا مِينًا ﴿١١﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — لما مضى في الآية المتقدمة حكم الفراق الذي سببه المرأة ، وأن للزوج أخذ المال منها عقب ذلك بذكر الفراق الذي سببه الزوج ، وبين أنه إذا أراد الطلاق من غير شُؤز وسوء عشرة فليس له أن يطلب منها مالا .

الثانية — واختلف العلماء إذا كان الزوجان يربدان التراق وكان منهما شُؤز وسوء عشرة ؛ فقال مالك رضي الله عنه : للزوج أن يأخذ منها إذا تسببت في الفراق ولا يرأى تسببه هو . وقالت جماعة من العلماء : لا يجوز له أخذ المال إلا أن تنفرد هي بالشؤز وتطلبه في ذلك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْتُمُ إحْدَاهُمُ قِتْلَارًا ﴾ الآية . دليل على جواز المغالاة في المهور ؛ لأن الله تعالى لا يُمثل إلا ببحاح . وخطب عمر فقال : ألا لا تقولوا في صدقات النساء فلأنها لو كانت مكروهة في الدنيا أوتى عنده الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ما أصدق قط امرأة من نساءه ولا بناته فوق أثني عشرة أوقية . فقامت إليه امرأة فقالت : يا عمر ، يعطينا الله ونحرمنا ! أليس الله سبحانه وتعالى يقول : « وَأَتَيْتُمُ إحْدَاهُمُ قِتْلَارًا فَمَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا » ؟ قال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر . وفي رواية فاطمة بنت عمر قال : كل الناس أقسه منك يا عمر ! . وفي أخرى : امرأة أصابت ورجل أخطأ ، والله المستعان ؛ وترك الإنكار . أخرجه أبو حاتم البستي في صحيح مسنده عن أبي العجفاء السلمي قال : خطب عمر الناس ، فذكره إلى قوله : أثني عشرة أوقية ، ولم يذكر : فقامت امرأة إلى آخره . وأخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي العجفاء وزاد بعد قوله أوقية : وأن الرجل لينقل صدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه ويقول : قد كلفت إليك حلق القربة أو عرق القربة ؛ وكنتم رجلا عربيا مولدا ما أدرى ما علق القربة أو عرق القربة . قال الجوهرى : وعلق القربة لغة في عرق القربة . قال غيره : ويقال حلق القربة عصامها الذي تعلق به . تقول : كلفت إليك حتى عصام القربة . وعرق القربة ماؤها ؛ يقول :

جَسِمَتْ إِلَيْكَ حَتَّى سَافَرْتَ وَأَحْتَجْتَ إِلَى عَرَقِ الْقَرْيَةِ ، وَهُوَ مَاؤُهَا فِي السَّفَرِ . وَيُقَالُ :  
 بِلَ عَرَقِ الْقَرْيَةِ أَنْ يَقُولَ : نَصَبْتَ لَكَ وَتَكَلَّفْتَ حَتَّى عَرِقْتَ عَرَقَ الْقَرْيَةِ ، وَهُوَ سِيلَانُهَا .  
 وَقِيلَ : أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَرَدَّدُونَ الْمَاءَ فَيَعْلِقُونَهُ عَلَى الْإِبِلِ يَتَأَوَّبُونَهُ فَيَسْتَقِ عَلَى الظَّهْرِ ؛ فَيَقْسِرُهُ  
 الْفُظْفَانُ : الْعَرَقُ وَالْعَلَقُ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : عَرَقُ الْقَرْيَةِ كَلِمَةٌ مَسْنَاهَا الشَّدَّةُ . قَالَ : وَلَا  
 أَدْرِي مَا أَصْلُهَا . قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : وَسَمِعْتُ ابْنَ أَبِي طَرَفَةَ وَكَانَ مِنْ أَنْصَحِ مَنْ رَأَيْتُ يَقُولُ :  
 سَمِعْتُ شَيْخَانَا يَقُولُونَ : لَقِيتُ مِنْ فُلَانٍ عَرَقَ الْقَرْيَةِ ، يَعْنِي الشَّدَّةَ . وَأَسْتَدْنِي لِابْنِ أَحْمَرَ :  
 لَيْسَتْ بِمَشِيئَةٍ تُمَدُّ وَعَفُوها ه عَرَقُ السَّقَاءِ عَلَى الْقَمُودِ الْإِلَافِ

قَالَ أَبُو عَرِيدٍ : أَرَادَ أَنَّهُ يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ تَنْطِيطَةً وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ فَيُؤَاخِذُ صَاحِبَهَا بِهَا وَقَدْ أَبْلَغَتْ  
 إِلَيْهِ كَعَرَقِ الْقَرْيَةِ ، فَقَالَ : كَعَرَقِ السَّقَاءِ لَمْ يُمْكِنْهُ الشَّمْرُ ؛ ثُمَّ قَالَ : عَلَى الْقَمُودِ الْإِلَافِ ،  
 وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنْ تَلْقَى الْقَرْيَةَ عَلَى الْقَمُودِ فِي أَصْفَارِهِمْ . وَهَذَا الْمَعْنَى شَبِيهُ بِمَا كَانَ الْقَرَاءُ يَحْكِيهِ ؛  
 زَعَمَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْمَفَاوِزِ فِي أَصْفَارِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ الْمَاءَ فَيَعْلِقُونَهُ عَلَى الْإِبِلِ يَتَأَوَّبُونَهُ ؛  
 فَكَانَ فِي ذَلِكَ تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ عَلَى الظَّاهِرِ . وَكَانَ الْقَرَاءُ يَجْعَلُ هَذَا التَّفسيرَ فِي عِلَاقِ الْقَرْيَةِ بِالْإِلَامِ .  
 وَقَالَ قَوْمٌ : لَا تُطْعِمُ الْآيَةُ جَوَازَ الْمَغَالَاةِ بِالْمَهْجُورِ ؛ لِأَنَّ التَّثْقِيلَ بِالْقِنْطَارِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى جِهَةِ  
 الْمُبَالَاغَةِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ : وَأَيُّنَ هَذَا الْقَدْرَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا يُؤْتِيهِ أَحَدٌ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
 وَسَلَّمَ : ” مِنْ بَنَى مَسْجِدًا لله وَلَوْ كَفَفَ حَصَّ قِطَاعَةٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ “ . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ  
 لَا يَكُونُ مَسْجِدٌ كَفَفَ حَصَّ قِطَاعَةٍ . وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ أَبِي حَدْرَةَ وَقَدْ جَاءَ يَسْتَعِينُهُ  
 فِي مَهْرِهِ فَسَأَلَهُ عَنْهُ فَقَالَ : مَا تَسْتَعِينُ ؟ فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : ” كَأَنَّهُمْ  
 تَقْطَعُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ مِنْ عُرْضِ الْحِزَّةِ <sup>(١)</sup> أَوْ جِيلٍ “ . فَيَبْتَغِرُوا بَعْضُ النَّاسِ مِنْ هَذَا مَنَعَ  
 الْمَغَالَاةَ بِالْمَهْجُورِ ؛ وَهَذَا لَا يُلْزَمُ ، وَإِنْكَارُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الْمَرْجُوحِ لَيْسَ  
 إِنْكَارًا لِأَجْلِ الْمَغَالَاةِ وَالْإِنْكَارِ فِي الْمَهْجُورِ ، وَإِنَّمَا الْإِنْكَارُ لِأَنَّهُ كَانَ قَفِيرًا فِي تِلْكَ الْحَالِ فَاحْجُجْ  
 نَفْسَهُ إِلَى الْإِسْتِمَانَةِ وَالسُّؤَالِ ، وَهَذَا مَكْرُوهٌ بِاتِّفَاقٍ . وَقَدْ أَصْدَقَ عَمْرُو بْنُ كَثُومٍ بِنْتُ عَلِيٍّ مِنْ

(١) مَفْصَلُ السَّطَلَةِ : مَوْضِعُهَا الَّذِي يَنْجُمُ فِيهِ وَيَسْمَرُ . (٢) الْحِزَّةُ : أَرْضٌ ذَاتُ جَبَارَةِ نَخْرَةٍ سَوْدَ .

فاطمه رضي الله عنها أربعين ألف درهم . وروى أبو داود عن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى  
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِرَجُلٍ : « أَتَرْضَى أَنْ أَرْزُقَكَ فَلَانَةً » ؟ قَالَ : نَعَمْ . وَقَالَ الرَّأْيُ : « أَتَرْضَى  
 أَنْ أَرْزُقَكَ فَلَانَةً » ؟ قَالَتْ : نَعَمْ . فَرَزَقَ أَحَدَهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ ، فَدَخَلَ بِهَا الرَّجُلَ وَلَمْ يَفْرُضْ  
 لَهَا صِدَاقًا وَلَمْ يَعْطِهَا شَيْئًا ، وَكَانَ مِنْ شُهَدَاءِ الْحَدِيثِ وَلَهُ سِتْرٌ بِخَيْرٍ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ :  
 إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوَّجَنِي فَلَانَةً وَلَمْ أَفْرُضْ لَهَا صِدَاقًا وَلَمْ أُعْطِهَا شَيْئًا ، وَإِنِّي  
 أَشْهَدُ كَمَا أَنِّي قَدْ أُعْطِيتُهَا مِنْ صِدَاقِهَا سِتْرًا بِخَيْرٍ ، فَأَخَذَتْ سِتْرَهَا مِنْ عِنْدِ بَيْتِهَا أَلْفَ . وَقَدْ  
 أَجْعَ الْمَسَاءُ عَلَى الْآخِرِ فِي أَكْثَرِ الصَّدَاقِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ فَنِطَارًا »  
 وَاخْتَلَفُوا فِي أَفْهَمَ ، وَسَبَّأَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ » . وَمَضَى الْقَوْلُ فِي تَحْمِيدِ  
 الْقَطَارِ فِي « آلِ عِمْرَانَ » . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ « وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ » بِوَصْلِ أَلْفَ « إِحْدَاهُنَّ » .  
 وَهِيَ لَفْظٌ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

• وَتَسَعُ مِنْ نَحْتِ السَّجَّاحِ لَهَا أَرْزُلًا •

وقول الآخر :

• إِنِّي لَمْ أَقَاتِلْ قَالِبُونِي بَرْقًا •

الرَّابِعَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ( فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ) قَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُرَزِيُّ :  
 لَا يَأْخُذُ الزَّوْجُ مِنَ الْمُتَخَلِّفَةِ شَيْئًا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَلَا تَأْخُذُوا » ، وَجَعَلَهَا تَأْخُذَةً لِأَيِّ « الْبَغْرِ » .  
 وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : « وَلَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا  
 بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا » . وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ مُحْكَمَةٌ وَلَيْسَ فِيهَا تَأْسِخٌ وَلَا مَنْسُوخٌ وَكُلُّهُمَا بَيْنِي  
 بَعْضُهُمَا عَلَى بَعْضٍ . قَالَ الطَّبْرِيُّ : هِيَ مُحْكَمَةٌ ، وَلَا مَعْنَى لِقَوْلِ بَكْرٍ إِنَّ أَرَادَتْ هِيَ الْمَطَاءُ ، فَقَدْ  
 جَوَّزَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَابِتَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ زَوْجَتِهِ مَا سَاقَ إِلَيْهَا . وَ( بَيْتَانِ ) مَصْدَرٌ  
 فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ( وَأَيْتَانِ ) مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ ( سَيِّئًا ) مِنْ نَعْتِهِ .

(١) راجع ج ٤ ص ٣٠ طيبة أول أو ثانية .

(٢) الأزل : الصوت .

(٣) راجع ج ٤ ص ١٤٦ طيبة أول أو ثانية .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ ﴾ الآية . تحليل لمنع الأخذ من الخلوة .  
وقال بعضهم : الإفضاء إذا كان معها في لحاف واحد جامع أو لم يجمع ؛ حكمه الحررى وهو قول الكلبي . وقال الفراء : الإفضاء أن يخلو الرجل والمرأة وإن لم يجمعا . وقال ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم : الإفضاء في هذه الآية الجماع . قال ابن عباس : ولكن الله كريم يتكفي . وأصل الإفضاء في اللغة المخالطة ؛ ويقال للشيء المختلط : نَضًا . قال الشاعر :

فقلتُ لما يا عمتي لكِ ناقتي • وتمرُّ نَضًا في عيني وزَيْبُ

ويقال : القوم قَوْضَى نَضًا أى مختلطون لا أمير عليهم . وعلم أن معنى « أنفى » خلا وإن لم يكن جامع هل يتقرر المهر بوجود الخلوة أم لا ؛ اختلف علماءنا في ذلك على أربعة أقوال : يستقر بمجرد الخلوة . لا يستقر إلا بالوطء . يستقر بالخلوة في بيت الإهداء . التفريق بين بيته وبينها . والصحيح استقراره بالخلوة مطلقا ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ؛ قالوا : إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والعدة دخل بها أو لم يدخل بها ؛ لما رواه الثوري عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كشف حمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق » . وقال عمر : إذا أغلق بابا وأرني سترا ورأى عورة فقد وجب الصداق وعليها العدة ولما الميراث . وعن علي : إذا أغلق بابا وأرني سترا ورأى عورة فقد وجب الصداق . وقال مالك : إذا طال مكثه معها مثل السنة ونحوها ، وانفقا على ألا يميس ودللت المهر كله كان لها . وقال الشافعي : لا عدة عليها ولها نصف المهر . وقد منى في « البقرة » .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَأَخْذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ فيه ثلاثة أقوال . قيل : هو قوله عليه السلام « فَأَتَقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَأَسْتَحْلَمَ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ » . قاله عكرمة والربيع . الثاني - قوله تعالى : « قَالَسَاكَ يَمْرُوفُ أَوْ تَسْرِحُ بِإِحْسَانٍ » قاله الحسن وابن سيرين وقادة والضحاك والسدي . الثالث - عقدة النكاح قول الرجل : نكحت وملك النكاح ؛ قاله مجاهد وابن زيد . وقال قوم : الميثاق الغليظ الولد . والله أعلم .

(١) الآية : زَيْبٌ من آدم يقتل فيه الزرع المحسود إلى الجبر . . . . . يحمل فيه الباب .

(٢) راجع به ٣ ص ٢٠٥ .



قوله تعالى: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا دَخَلَ سَلَفُ  
 إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾  
 فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى: ( وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ) يقال : كان الناس  
 يترجون أمراء الأب برضاها بعد نزول قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا  
 النِّسَاءَ كَرِهًا » حتى نزلت هذه الآية: « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ » فصار حراما في الأحوال  
 كلها ، لأن النكاح يقع على الجماع والتزوج ، فإن كان الأب تزوج امرأة أو طلقها بغير نكاح  
 حرمت على ابنه ، على ما ياتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الثانية - قوله تعالى: ( مَا نَكَحَ ) قيل : المراد بها النساء . وقيل : المقد ، أى نكاح  
 آبائكم الفاسد المخالف لدين الله ، إذ الله قد أحكم وجه النكاح وفصل شروطه . وهو اختيار  
 الطبري ، فمن متعلقة بنكحوا و « ما نكح » مصدر . قال : ولو كان معناه ولا تنكحوا النساء  
 الثلاثي نكح آبائكم لوجب أن يكون موضع « ما » « من » . فالتأني على هذا إنما وقع على  
 ألا ينكحوا مثل نكاح آبائهم الفاسد . والأوّل أصح ، وتكون « ما » بمعنى « الذي » و « من » .  
 والدليل عليه أن الصحابة تلقّت الآية على ذلك المعنى ، ومنه استدلت على منع نكاح الإبناء  
 حلائل الآباء . وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يتخلف ابن الرجل على امرأة أبيه ،  
 وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة ، وكانت في قريش مباحة مع التراضي . ألا ترى أن عمرو  
 ابن أمية خلف على امرأة أبيه بعد موته فولدت له مَسَائِرًا وأَبَا مَعِيْط ، وكان لها من أمية  
 أبو العيص وغيره ، فكان بنو أمية إخوة سَافِر وأبي مَعِيْط وأعمامهما . ومن ذلك صفوان  
 ابن أمية بن خلف تزوج بعد أبيه امرأة فَاتِحَةَ بنت الأسود بن المطَّلِب بن أسد ، وكان أمية  
 قُتِلَ عنها . ومن ذلك منظور بن زَبَان خلف على مُلَيْكَةَ بنت خازمة ، وكانت تحت أبيه  
 زَبَان بن سَيار . ومن ذلك حصن بن أبي عيسى تزوج امرأة أبيه كَيْثَةَ بنت مَعْن .  
 والأسود بن خلف تزوج امرأة أبيه . وقال الأشعث بن سوار : نَوَّى أبو عيسى وكان من

صالحى الأنصار غطيب أبنته قيس امرأة أبيه قالت : إني أعذك ولدا، ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله ؛ فأنته فأخبرته فأئزله هذه الآية . وقد كان فى العرب من تزوج أبنته ، وهو حاجب بن ذرارة تمجس وفعل هذه الفعلة ؛ ذكر ذلك التفسيرين شميل فى كتاب المتألب . فنبى الله المؤمنين عما كان عليه آبائهم من هذه السيرة .

الثالثة - قوله تعالى : ( إِنْ مَّا قَدْ سَلَفَ ) أى تقدم ومضى . والسلف : من تقدم من آبائك وذوى قرابتك . وهذا استثناء منقطع ، أى لكن ما قد سلف فأجنيه ودعوه . وقيل : « إلا » بمعنى بعد ، أى بعد ما سلف ؛ كما قال تعالى : « لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » أى بعد الموة الأولى . وقيل : « إلا ما قد سلف » أى ولا ما سلف ؛ كقولته تعالى : « مَا كَانَ لِلَّذِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا » بنى ولا خطأ . وقيل : فى الآية تقدم وتأخير ، معناه : ولا تتكفوا ما تكف آبائكم من النساء إنه كان فاحشة ومقتا وساء سيلا إلا ما قد سلف . وقيل : فى الآية إضمار لقوله « وَلَا تَكْفُوا مَا تَكْفُ آبَاؤُكُمْ مِنَ النَّسَاءِ » فإنكم إن سلمتم فمقبون ومؤاخذون إلا ما قد سلف .

الرابعة - قوله تعالى : ( إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ) عقب بالقدم البالغ المتنازع ، وذلك دليل على أنه فعل انتهى من التبع إلى الغاية . قال أبو العباس : سألت ابن الأعرابي عن تكلف المقت قال : هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها ؛ ويقال لهذا الرجل : الضيق . وقال ابن عرفة : كانت العرب إذا تزوج الرجل امرأة أبيه فأولدها قيل للولد : المقت . وأصل المقت البض ؛ من مقتته يمتقه مقتا فهو ممتقوت ومقيت . فكأن العرب تقول للرجل من امرأة أبيه : مقيت ؛ فسئى تعالى هذا النكاح مقتا إذ هو ذامى يلحق فاعله . وقيل : المراد بالاية النهى عن أن يطا الرجل امرأة وطئها الآباء ، إلا ما قد سلف من الآباء فى الجاهلية من الزنا بالنساء لا على وجه المنالكة فإنه جائز لكم زواجهن . وأن تطلوا بعقد النكاح ما وطئه آبائكم من الزنا ؛ قاله ابن زيد . وعليه فيكون الاستثناء متصلا ، ويكون أصلا فى أن الزنا لا يحرم على ما يأتى بيانه . والله أعلم .

قوله تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعُمَّاتُكُمْ  
 وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ  
 وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ نِسَابُكُمْ وَرَبِّبُكُمْ اللَّاتِي فِي جُودِكُمْ  
 مِّنْ نِّسَابِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ  
 عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ  
 إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٣٣﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأول - قوله تعالى : ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ) الآية . أى نكاح أُمَّهَاتِكُمْ  
 ونكاح بَنَاتِكُمْ ، فذكر الله تعالى في هذه الآية ما يحل من النساء وما يحرم ، كما ذكر تحريم  
 حليلة الأب ، لحرم الله سبعة من النسب وسبأ من بين رضاع وصهر ، وألحقت النسبة المتوارثة  
 سابعة ، وذلك الجمع بين المرأة وعمتها ، ونفس عليه الإجماع وثبتت الرواية . عن ابن عباس  
 قال : حرم من النسب سبع ومن الصهر سبع ، وتلا هذه الآية . وقال عمرو بن سالم مولى  
 الأنصار مثل ذلك ، وقال : السابعة قوله تعالى : « والمحصات » . فالسبع المحرمات من  
 النسيب : الأمهات والبنات والأخوات والمهات والحالات ، وبنات الأخ وبنات الأخت .  
 والسبع المحرمات بالصهر والرضاع : الأمهات من الرضاعة والأخوات من الرضاعة ، وأمهات  
 النساء ، والربائب <sup>(١)</sup> وحلائل الأبناء والجمع بين الأختين ، والسابعة « ولا تنيكوا ما نكح آبائكم » .  
 قال الطحاوى : وكل هذا من الحكم المتفق عليه ، وبغير جواز نكاح واحدة منهن بإجماع إلا  
 أمهات النساء اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن ؛ فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم  
 بالمقد على الأبنية ، ولا تحرم الأبنية إلا بالدخول بالأم ؛ وبهذا قال جميع أئمة الفتوى بالمصباح .  
 وقالت طائفة من السلف : الأم والزوجة سواء ، لا تحرم منهما واحدة إلا بالدخول بالأخرى .  
 (١) الربائب : واحدة مارية ، ووجه الرجل : بنت أمهاته من غيره .

قالوا : ومعنى قوله « وَأَمَهَاتُ نِسَائِكُمْ » أي اللاتي دخلتم بين . « وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي مَجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بَيْنَهُنَّ » . وزعموا أنه شرط الدخول راجع إلى الأمهات والزواني جميعا ؛ رواه خلاص عن علي بن أبي طالب . وروى عن ابن عباس وجابر بن زيد بن ثابت ، وهو قول الزبير وجاهد . قال جاهد : الدخول مراد في النازلتين ؛ وقول الجمهور مخالف لهذا وعليه الحكم والفتيا . وقد شدد أهل العراق فيه حتى قالوا : لو وطئها زنا أو قبلها أو لمسها بشهوة حرمت عليه أبنتها . وعندنا وعند الشافعي إنما تحرم بنكاح صحيح ؛ والحرام لا يحرم الحلال على ما يأتي . وحديث خلاص عن علي لا تقوم به حجة ، ولا تصح روايته عند أهل العلم بالحديث ، والصحيح عنه مثل قول الجماعة . قال ابن جريح : قلت لمطاع : الرجل ينكح المرأه ثم لا يراها ولا يجامعها حتى يطلقها أتحمِلُ له أمها ؟ قال : لا ، هي مرسله دخل بها أو لم يدخل . قلت له : أكان ابن عباس يقرأ : « وَأَمَهَاتُ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بَيْنَهُنَّ » ؟ قال : لا لا . وروى سعيد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : « وَأَمَهَاتُ نِسَائِكُمْ » قال : هي مبهة لا تحمل بالمقد على الأبناء ؛ وكذلك روى مالك في موطنه عن زيد بن ثابت ، وفيه : « فقال زيد لا ، الأم مبهة [ليس فيها شرط] وإنما الشرط في الزواني » . قال ابن المنذر : وهذا هو الصحيح ؛ لدخول جميع أمهات النساء في قوله تعالى : « وَأَمَهَاتُ نِسَائِكُمْ » . ويؤيد هذا القول من جهة الإعراب أن الخبرين إذا اختلفا في العامل لم يكن نعتهما واحدا ؛ فلا يجوز عند النحويين مررت بنسائك وهربت من نساء زيد الظرفيات ، على أن تكون « الظرفيات » نعتا لنسائك ونساء زيد ؛ فكذلك الآية لا يجوز أن يكون « اللاتي » من نعتها جميعا ؛ لأن الخبرين مختلفان ، ولكنه يجوز على معنى أعني . وأنشد الخليل وسيبويه :

إِذَا بِهَا أَكْثَلَ أَوْ زَانَا • خَوْرِيَيْنِ يَتَقَفَّانِ الْمَسَا

خوْرِيَيْنِ يعني لَصِيْن ، بمعنى أعني . ويتقَفَّانِ : يكبران ؛ تقفَّت رأسه كسرته . وقد جاء صريحا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا

(١) خلاص (بكر الخلاء المبيحة وتخفيف اللام) : ابن عمر الميموني . (٢) زيادة عن المطاوعة

(٣) أكل دذام . وخوربان أي خاربان ، وهما أكل دذام .

نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يترجأ أنهما دخل بالبت أو لم يدخل وإذا تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج البت " أخرجه في الصحيحين .

الثانية - وإذا تقرر هذا وثبت فأعلم أن التحريم ليس صفة للأعيان ، والأعيان ليست موردا للتحليل والتحريم ولا مصدرا ، وإنما يتعلق التكليف بالأمر والنهي بأفعال المكلفين من حركة وسكون ؛ لكن الأعيان لما كانت موردا للأفعال أضيف الأمر والنهي والحكم إليها وعلمت بها مجازا على معنى الكتابة بالحمل عن الفعل الذي يتل به .

الثالثة - قوله تعالى : « أمهاتكم » تحريم الأمهات عام في كل حال لا يختص بوجه من الوجوه ؛ ولهذا نُسب إليه أهل العلم المذهب ، أي لا باب فيه ولا طريق إليه لانسداد التحريم وقوته ، وكذلك تحريم البنات والأخوات ومن ذكر من المحرمات . والأمهات جمع أمهات ؛ يقال : أم وأمته بمعنى واحدة ، وجاء القرآن بهما . وقد تقدم في الفاتحة بيانه . وقيل : إن أصل أم أمهات على وزن فُعلة مثل قُبرة وقمرة لطيرتين ، فسقطت وعادت في الجمع . قال الشاعر ؟

• أَمَّتْهُنَّ خَيْدُفٌ وَالنُّوسُ أَبِي •

وقيل : أصل الأم أمهات ، وانقلبوا :

تقبلتها عن أمهاتك طالما • ثوب إليها في الثواب أجمعا

ويكون جمعها أمهات . قال الراعي :

كانت نجائبٌ مُنْذِرٌ وَمُحَرِّقٌ • أَمَّاتِهِنَّ وَطَرَفُهُنَّ يَحْسِلَا

فالأم اسم لكل أنثى لها عليك ولادة ؛ فيدخل في ذلك الأم دنية<sup>(١)</sup> ، وأمهاها وسداتها وإم الأب وجداته وأن علون . والبت اسم لكل أنثى لك عليها ولادة ، وإن شئت قلت : كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو درجات ؛ فيدخل في ذلك بنت الصلب وبناتها وبنات الأبناء وإن تزلفت . والأخت اسم لكل أنثى جاورتك في أصلك أو في أحدهما . والبنات

(١) رابع ١٠١ ص ١١٢ طبع ثانية أو ثالثة . (٢) يقال : هو ابن عمي دنية ودنيا (متون وغير متون) ودنيا (بضم الدال والقصر) إذا كان ابن عمه حلاً ، أي لاقى نسب .

جمع بنت، والأصل بنية، والمسعمل أبنه وبنت. قال القرطبي: كُمرت الباء من بنت لتدل  
الكسرة على الباء، وصحّت الألف من أخت لتدل على حذف الواو، فإن أصل أخت أخوة،  
والجمع أخوات. والعمة أم لكل أخت شاركت أباك أو جدك في أصله أو في أحدهما.  
وإن شئت قلت: كل ذكر رجع نسبها إليك فأخته عمك. وقد تكون العمة من جهة الأم،  
وهي أخت أب أمك. وإنشالة اسم لكل أخت شاركت أمك في أصلها أو في أحدهما.  
وإن شئت قلت: كل أخت رجع نسبها إليك بالولادة فأختها خالتك. وقد تكون الخالة من  
جهة الأب وهي أخت أم أبيك. وبنت الأخ اسم لكل أخت لأخيك عليها ولادة بواسطة  
أو مباشرة، وكذلك بنت الأخت. فهذه السبع المحرمات من النسب. وقرأ نافع في رواية  
أبي بكر بن أبي أوفى بتشديد الخاء من الأخ إذا كانت فيه الألف واللام مع قل الحركة.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وهي في التحريم مثل من  
ذكرنا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب".  
وقرأ عبد الله: وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي، بنيران، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَرْضَيْنَ مِنَ الْبَيْضِ﴾.  
قال الشاعر:

بِنِ الْأَدَمِ يَجْعَلْنَ بَيْنَيْنِ حِسْبَةً • وَلَكِنْ لَيَقْنُنَ الْبَرَى الْمَفْضَلَا

﴿أَرْضَعْنَكُمْ﴾ فإذا أرضعت المرأة طفلاً حُرمت عليه لأنها أمه، وبنتها لأنها أخته، وأختها  
لأنها خالتها، وأُمُّها لأنها جدته، وبنت زوجها صاحب اللبن لأنها أخته، وأخته لأنها عمته،  
وأُمُّه لأنها جدته، وبنت بنتها وبنتها لأخت بنت إخوته وأخواته.

الخامسة - قال أبو نعيم عبيد الله بن هشام الحلبي: سئل مالك عن المرأة أتج معها  
أخوها من الرضاعة؟ قال نعم. قال أبو نعيم: وسئل مالك عن امرأة تزوجت فدخل بها  
زوجها، ثم جاءت امرأة فزعمت أنها أرضعتها؛ قال: يفرق بينهما، وما أخذت من شيء له  
فهو لها، وما بقي عليه فلا شيء عليه. ثم قال مالك: إن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن  
مثل هذا فأمر بذلك؛ فقالوا: يا رسول الله، إنها امرأة ضعيفة؛ فقال النبي صلى الله عليه  
وسلم: "أليس يقال إن فلانا تزوج أخته".

السادسة - التحريم بالرضاع إنما يحصل إذا اتفق الإرضاع في الحولين؛ كما تقدم في « البقرة » . ولا فرق بين قليل الرضاع وكثيره عندنا إذا وصل إلى الأمعاء ولو مصة واحدة . واعتبر الشافعي في الإرضاع شرطين : أحدهما خمس رضعات ؛ لحديث عائشة قالت : كان فيما أنزل الله عشر رضعات معلومات يُحرّم، ثم نُسخنَ بخمس معلومات، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مما يُقرأ من القرآن . موضع الدليل منه أنها أثبتت أن المشرعُ نسخنَ خمس ، فلو تعلّق التحريم بما دون الخمس لكان ذلك نسخاً للمعصية . ولا يقبل من هذا خبر واحد ولا قياس ؛ لأنه لا يفسخ بهما . وفي حديث سهل<sup>(٢٢)</sup> « أرضعني خمس رضعات يحرم مني » . الشرط الثاني - أن يكون في الحولين، فإن كان خارجا عنهما لم يحرم؛ لقوله تعالى : « حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِثَ الرِّضَاعَةَ » . وليس بعد التمام والكمال شيء . واعتبر أبو حنيفة بعد الحولين ستة أشهر . ومالكُ الشهر ونحوه . وقال زُفر : ما دام يخرق باللبن ولم يُعظم فهو رضاع وإن أتى عليه ثلاث سنين . وقال الأوزاعي : إذا فطم لسنة واستمر فطامه فليس بعده رضاع . وأنفرد الليث بن سعد من بين العلماء إلى أن رضاع الكبير يوجب التحريم ؛ وهو قول عائشة رضي الله عنها، وروى عن أبي موسى الأشعري، وروى عنه ما يدل على رجوعه عن ذلك، وهو ما رواه أبو حصين عن أبي عطية قال : قدم رجل بامرأته من المدينة فوضعت وتوزم نديها، بفعل بمصه ويحمه فدخل في بطنه جرة منه ؛ فسأل أبا موسى فقال : بانت منك ، وأنت ابن مسعود فأخبره ، ففعل ؛ فأقبل بالأعرابي إلى أبي موسى الأشعري وقال : أرضيعاً ترى هذا الأشعث ! إنما يحرم من الرضاع ما يُثبت القم والعظم . فقال الأشعري : لا تسألوني عن شيء وهذا الخبر بين أظهركم . فقلوه :

(١) راجع ج ٣ ص ١٦١ طيبة أول أرثانية . (٢) هي سهلة بنت سهيل ، امرأة أبي حذيفة ابن عتبة . وكان زوجها تميم « سألها » التي يقال له سالم مول أبي حذيفة ؛ بغامت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، كنا نرى سالم ولدنا ، وكان يدخل على رأتنا فُسل (أي في ثوب واحد ويصير جسداً منكثاً) وليس لنا إلا بنت واحد . فقال لها الرسول ملوات الله عليه : « أرضعني ... الخ » راجع الموطأ .

(٣) الشط : يبيض شعر الرأس بمخالط موائده . وقيل : الحمية .

« لَا تَسْأَلُونِي بِأَنْ يَكُنْ لَكُمْ مِنْهُ رِجْعٌ عَنْ ذَلِكَ » وَأَحْتَجَّتْ عَائِشَةُ بِقِصَّةِ سَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ وَأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَسَهْلَةٌ بِنْتُ سُبَيْلَ : « أَرْضِعِيهِ » نَزَجَهُ الْمَوَاطَا وَغِيْرَهُ . وَشَدَّتْ طَائِفَةٌ فَأَعْتَبَتْ عَشْرَ رَضَعَاتٍ ؛ تَمَسُّكًا بِأَنَّهُ كَلَّتْ فِيمَا أُنْزِلَ عَشْرَ رَضَعَاتٍ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَلْقَهُمُ النَّاسُ . وَقَالَ دَاوُدُ : لَا يَحْرَمُ إِلَّا ثَلَاثَ رَضَعَاتٍ ؛ وَأَحْتَجَّ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَحْرُمُ الْإِمْلَاجَةَ وَالْإِمْلَاجَتَانِ » نَزَجَهُ مُسْلِمٌ ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ عَائِشَةَ وَأَبْنِ الزَّيْرِ ، وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ وَأَبُو تَوْرٍ وَأَبُو عِيْدٍ ، وَهُوَ تَمَسُّكٌ بِدَلِيلِ الْخَطَابِ وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ . وَذَهَبَ مِنْ عَدَا هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْمَةِ الْفَنَوِيِّ إِلَى أَنَّ الرُّضْعَةَ الْوَاحِدَةَ تَحْرُمُ إِذَا تَحَقَّقَتْ كَمَا ذَكَرْنَا ؛ تَمَسُّكِينَ بِأَقْلِ مَا يَنْطَلِقُ عَلَيْهِ أَسْمُ الرُّضَاعِ . وَغِيْذُ هَذَا بِمَا وَجَدَ مِنَ الْعَمَلِ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ وَبِالْقِيَّاسِ عَلَى النَّصْرِ ؛ بِمَلَّةٍ أَنَّهُ مَعْنَى طَارِئٍ يَقْتَضِي تَأْيِيدَ التَّحْرِيمِ فَلَا يَشْتَرُطُ فِيهِ الْعِدَدُ كَالنَّصْرِ . وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ : أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ قَلِيلَ الرُّضَاعِ وَكَثِيرُهُ يَحْرُمُ فِي الْمَهْدِ مَا يُفْطِرُ الْعَمَامَ . قَالَ أَبُو عَمْرٍ : لَمْ يَفْعَلِ اللَّيْثُ عَلَى الْخِلَافِ فِي ذَلِكَ .

قُلْتُ - وَأَنْصُ مَا فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَحْرُمُ الْمِصَّةَ وَلَا الْمِصَّتَانِ » . أُنَزَجَهُ مُسْلِمٌ فِي مَجْمَعِهِ . وَهُوَ يَفْسِرُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَأَمَّا أَنْتُمْ الْآلَاءُ أَرْضَعْتُمْكُمْ » أَيْ أَرْضَعْتُمْكُمْ ثَلَاثَ رَضَعَاتٍ فَكَثْرٌ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَ عَلَى مَا إِذَا لَمْ يَتَّحَقَّقْ وَصُولُهُ إِلَى جَوْفِ الرُّضِيعِ ؛ لِقَوْلِهِ : « عَشْرَ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ . وَخَمْسَ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ » . فَوَصَّفَهَا بِالْمَعْلُومَاتِ إِنَّمَا هُوَ تَحَرُّزٌ مِمَّا يَتَوَهَّمُ أَوْ يَشْكُ فِي وَصُولِهِ إِلَى الْجَوْفِ . وَغِيْذُ دَلِيلِ خُطَابِهِ أَنَّ الرُّضَعَاتِ إِذَا كَانَتْ غَيْرَ مَعْلُومَاتٍ لَمْ تَحْرُمُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَذَكَرَ الطَّحَاوِيُّ أَنَّ حَدِيثَ الْإِمْلَاجَةِ وَالْإِمْلَاجَتَيْنِ لَا يَنْبَغُ ؛ لِأَنَّهُ مَرَّةٌ يَرْوِيهِ أَبْنُ الزَّيْرِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَرَّةٌ يَرْوِيهِ عَنْ عَائِشَةَ ، وَمَرَّةٌ يَرْوِيهِ عَنْ أَبِيهِ ؛ وَمِثْلُ هَذَا الْإِضْطِرَابِ يُسْقِطُهُ . وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُ لَا يَحْرُمُ إِلَّا سَبْعَ رَضَعَاتٍ . وَرَوَى عَنْهَا أَنَهَا أَمْرَتْ أَخْتَهَا « أُمَّ كَلْتُومَ » أَنْ تُرَضِّعَ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ



عشر وضعات . وروى عن حفصة مثله ، وروى عنها ثلاث ، وروى عنها جيس ؛ كما قال الشافعي رضي الله عنه ، وحكي عن إسماعيل .

السابعة - قوله تعالى : **(وَأَمَّا أَنْتُمْ الْإِنثَىٰ أَرْضَعْتُمْ)** استدلال به من قى لبن الفعل ، وهو سعيد بن المسيب وإبراهيم التيمي وأبو سلمة بن عبد الرحمن ؛ وقالوا : لبن الفعل لا يحرم شيئا من قيسل الرجل . وقال الجمهور : قوله تعالى « وَأَمَّا أَنْتُمْ الْإِنثَىٰ أَرْضَعْتُمْ » يدل على أن الفعل أب ؛ لأن اللبن منسوب إليه فإنه ترسب ولده . وهذا ضعيف ؛ فإن الولد خلق من ماء الرجل والمرأة جميعا ، واللبن من المرأة ولم يخرج من الرجل ، وما كان من الرجل إلا وطه هو سبب لقول الماء منه ، وإذا فصل الولد خلق الله اللبن من غير أن يكون مضافا إلى الرجل بوجه ما ؛ ولذلك لم يكن للرجل حق في اللبن ، وإنما اللبن لها ، فلا يمكن أخذ ذلك من القياس على الماء . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » يقتضي التحريم من الرضاع ، ولا يظهر وجه نسبة الرضاع إلى الرجل مثل ظهور نسبة الماء إليه والرضاع منها . نعم ، الأصل فيه حديث الزهري ومثام ابن عروة عن عروة عن عائشة رضي الله عنها : أن أنثى أبا القيس جاء يستاذن عليها ؛ وهو عموها من الرضاعة بعد أن نزل الحجاب . قالت : فأيست أن أكل له ؛ فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم أخبره فقال : « ليلج عليك فإنه عمك تربت بيمتك » . وكان أبو القيس زوج المرأة التي أرضعت عائشة رضي الله عنها ؛ وهذا أيضا خبر واحد . ويحصل أن يكون « أنثى » مع أبي بكر رضي الله عنه قال « ليلج عليك فإنه عمك » . وبالجملة فالقول فيه مشكل والعلم عند الله ، ولكن العمل عليه ، والاحتياط في التحريم أولى ، مع أن قوله تعالى : **« وَأَحْلَلْنَا لَكُمْ مَا وَدَّاءُ ذَلِكَ »** يقوى قول المخالف .

الثامنة - قوله تعالى : **(وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ)** وهي الأخت لأب وأم ، وهي التي أرضعتها أمك يلين أباك ؛ سواء أرضعتها منك أو ولدت قبلك أو بعدك . والأخت

مَنْ الْآبِ تَوَلَّى الْأُمَّ، وَهِيَ الَّتِي أَرْضَعَتْهَا زَوْجَةُ أَبِيكَ . وَالْأَخْتُ مِنَ الْأُمِّ دُونَ الْأَبِ،  
وَهِيَ الَّتِي أَرْضَعَتْهَا أُمُّكَ بِلَانِ رَجُلٍ آخَرَ .

.. ثم ذكر التحريم بالمصاهرة فقال تعالى : ( وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ) وَالصَّهْرُ أَرْبَعُ : أُمُّ الْمَرْأَةِ  
وَأَبَتُهَا وَزَوْجَةُ الْأَبِ وَزَوْجَةُ الْأُمِّ . فَأُمُّ الْمَرْأَةِ تَحْرُمُ بِحُرْمَةِ الْعَدِّ الصَّحِيحِ عَلَى أَبَتِهَا ،  
عَلَى مَا هَتَمَ .

الثامنة - قوله تعالى : « وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي جُحُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بَيْنَ »  
هذا مستقل بنفسه . وَلَا يَرْجِعُ قَوْلُهُ : « مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بَيْنَ » إِلَى الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ ،  
بَلْ هُوَ رَاجِعٌ إِلَى الزَّوْجَاتِ ، إِذْ هُوَ أَقْرَبُ مَذْكُورٌ كَمَا تَهْتَمُ . وَالزَّوْجِيَّةُ : بِنْتُ أَمْرَأَةِ الرَّجُلِ مِنْ  
غَيْرِهِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَرْتَبِهَا فِي حِجْرَةِ نَهْيٍ مَرْبُوبَةٍ ، فَعِلَّةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ . وَاتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ  
عَلَى أَنَّ الزَّوْجِيَّةَ تَحْرُمُ عَلَى زَوْجِ أُمِّهَا إِذَا دَخَلَ بِالْأُمِّ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الزَّوْجِيَّةُ فِي حِجْرِهِ . وَشَدَّ بَعْضُ  
لِلْمُقْتَسِمِينَ وَأَهْلُ الظَّاهِرِ فَقَالُوا : لَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ الزَّوْجِيَّةُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ فِي حِجْرِ الْمُرْتَوِّجِ بِأُمِّهَا ؛  
فَلَوْ كَانَتْ فِي بِلَدٍ آخَرٍ وَفَارَقَ الْأُمُّ بَعْدَ الدَّخُولِ فَلَمْ أَنْ يَتَرَوَّجْ بِهَا ، وَاحْتَجَّوْا بِالْآيَةِ فَقَالُوا :  
حَرَّمَ اللَّهُ الزَّوْجِيَّةَ بِشَرْطَيْنِ : أَحَدُهُمَا - أَنْ تَكُونَ فِي حِجْرِ الْمُرْتَوِّجِ بِأُمِّهَا . وَالثَّانِي - الدَّخُولُ  
بِالْأُمِّ ؛ فَإِذَا عَدِمَ أَحَدُ الشَّرْطَيْنِ لَمْ يَوْجَدْ التَّحْرِيمُ . وَاحْتَجَّوْا بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَوْ لَمْ  
تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حِجْرِي مَا حَلَّتْ لِي إِنْهَا أَبْنَةُ أُنْثَى مِنَ الرِّضَاعَةِ » فَشَرَطَ الْحِجْرَ . وَرَوَّاهُ عَنْ عَلِيٍّ  
أَبْنِ أَبِي طَالِبٍ إِجَازَةً ذَلِكَ ، قَالَ أَبُو هِنْدٍ وَالْمُنْفَرُ وَالطُّمَّاسِيُّ : أَنَا الْحَدِيثُ عَنْ عَلِيٍّ فَلَا يَتَّبَعُ ؛  
لِأَنَّ رَاوِيَهُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَيْدٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ عَلِيٍّ ، وَإِبْرَاهِيمَ هَذَا لَا يُعْرَفُ ، وَكَأَنَّ  
أَهْلَ الْعِلْمِ قَدْ تَقَوَّوْهُ بِالْبَغْغِ وَالْخِلَافِ . قَالَ أَبُو عَيْدٍ : وَيَدْفَعُهُ قَوْلُهُ « فَلَا تَعْرِضَنَّ عَلَيَّ »  
بَنَاتِيكُمْ وَلَا أَخَوَاتِيكُمْ » فَمَنْ . وَلَمْ يَقُلِ اللَّائِي فِي حِجْرِي ، وَلَكِنَّهُ سَوَّى بَيْنَهُ فِي التَّحْرِيمِ .  
قَالَ الطُّمَّاسِيُّ : وَإِذَا قُتِلَتْ إِلَى الْحِجْرِ إِذَا ذَلِكَ عَلَى الْأُظْلَمِ مِمَّا يَكُونُ عَلَيْهِ الزَّوْجَاتُ ، لَا أَنَّهُنَّ  
لَا يَحْرُمْنَ إِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ؛

لنساء العاشرة - قوله تعالى : ( فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا تَحْتَمِلِينَ ) <sup>(١)</sup> معنى بالأمهات . ( فلا تحيّل عليكم ) <sup>(٢)</sup> معنى في نكاح بناتهن إذا طلقتموهن أو متن عنكم . وأخرج العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو مات قبل أن يدخل بها حل له نكاح أختها . واختلفوا في معنى الدخول بالأمهات الذي يقع به التحريم للزنايب ؛ فروى عن ابن عباس أنه قال : للدخول الجساع ، وهو قول طاوس وعمر بن دينار وغيرهما . وأخرج مالك والثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والليث على أنه إذا مسها بشهوة حرمت عليه أمتها وأختها وحرمت على الأب والابن ، وهو أحد قولي الشافعي . واختلفوا في النظر ؛ فقال مالك : إذا نظر إلى شعرها أو صدرها أو شيء من محاسنها للذة حرمت عليه أمتها وأختها . وقال الكوفيون : إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة المس للشهوة . وقال الثوري : [ يحرم ] <sup>(٣)</sup> إذا نظر إلى فرجها متعمدا أو لمسها ، ولم يذكر الشهوة . وقال ابن أبي ليلى : لا تحرم بالنظر حتى يلمس ؛ وهو قول الشافعي . والدليل على أن بالنظر يقع التحريم أن فيه نوع استمتاع بفرى مجرى النكاح ؛ إذ الأحكام تتماق بالمعنى لا بالألفاظ . وقد يحتمل أن يقال : إنه نوع من الاجتماع بالاستمتاع ؛ فإن النظر اجتماع ولقاء ، وفيه بين المحييين استمتاع ؛ وقد بالغ في ذلك الشعراء فقالوا :

أليس أليل يجمع أم عمرو . وإيأنا فذلك بنا تدان

نم ، وترى الهلال كما أراه . ويملوها النهار كما علاني

فكيف بالنظر والمجالسة واللذة .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ( وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ) الحلائل جمع حليلة ، وهي الزوجة . سميت حليلة لأنها تحل مع الزوج حيث حل ؛ فهي فسيلة بمعنى فاعلة . ودفع الزواج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال ؛ فهي حليلة بمعنى محلاة . وقيل : لأن كل واحد منهما يحل أزار صاحبه .

الثانية عشرة - أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء ، وما عقد عليه الأبناء على الآباء ، كان مع العقد وطء أولم يكن ؛ لقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ »

(١) الزيادة من البحر لأبي حيان .

مِنَ النِّسَاءِ » وقوله فقال : « وَجَلَّ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ » . فإن نكح أحدهما نكاحا فاسدا حرم على الآخر المقد عليها . كما يحرم بالصحيح ؛ لأن النكاح الفاسد لا يخلو : إما أن يكون متفقا على فساده أو مختلفا فيه . فإن كان متفقا على فساده لم يوجب حكما وكان وجوده كمدسه . وإن كان مختلفا فيه فيمتنع به من الحرمة ما يتعلق بالصحيح ؛ لاحتمال أن يكون نكاحا فسد تحت مطلق اللفظ . والفروج إذا تمارس فيها التحريم والتحليل غلب التحريم . والله أعلم . قال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه من علماء الأمصار على أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه وأبيه وعلى أجداده وولد ولده . واجمع العلماء وهي :

الثالثة عشرة - على أن عقد الشراء على الجارية لا يحرّمها على أبيه وأبيه ؛ فإذا اشترى الرجل جارية فليس أو قيل حُرمت على أبيه وأبيه ، لا أعلمهم يختلفون فيه ؛ فوجب تحريم ذلك تسليما لهم . ولما اختلفوا في تحريمها بالنظر دون اللبس لم يزد ذلك لاختلافهم . قال ابن المنذر : ولا يصح عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما قلناه . وقال يعقوب بن محمد : إذا نظر رجل في فروج امرأة من شهوة حُرمت على أبيه وأبيه ، وتحرم عليه أمها وأبنتها . وقال مالك : إذا وطئ الأمة أو قعد منها مقعدا لذلك وإن لم يقض إليها أو قبلها أو باشرها أو غمزها ثلاثا فلا تحل لأبيه . وقال الشافعي : إنما تحرم بالأس ولا تحرم بالنظر دون اللبس ؛ وهو قول الأوزاعي .

الرابعة عشرة - وأختلفوا في الوطء بالزنا هل يحرم أم لا ؛ فقال أكثر أهل العلم : لو أصاب رجل امرأة زنا لم يحرم عليه نكاحها بذلك ؛ وكذلك لا تحرم عليه أمه إذا زنا بأمها أو أبنتها ، وحسبه أن ينام عليه الحد ، ثم يدخل بأمه . ومن زنا بأمه ثم أراد نكاح أمها أو أبنتها لم تحرم عليه بذلك . وقالت طائفة : تحرم عليه . روى هذا القول عن عمران بن حصين ؛ وبه قال الشعبي وعطاء والحسن وسفيان الثوري وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي ، وروى عن مالك ؛ وأن الزنا يحرم الأم والأبنة وأنه بمنزلة الحلال ، وهو قول

أهل الزنا . والصحيح من قول مالك وأهل الجواز : أن الزنا لا حكم له ، لأن الله سبحانه  
ونعالى قال : « وَأَمَّا هُنَّ فَبِأَنفُسِكُمْ » وليست التي زنا بها من أمتها نساء ، ولا أيتها من  
زنا به . وهو قول الشافعي وأبي ثور ، لأنه لما أرتفع الصداق في الزنا ووجوب العدة  
والميراث ولحق الولد ووجوب الحد أرتفع أن يحكم له بحكم النكاح الجائز . وروى  
الدارقطني من حديث الزهري عن عروة عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه  
وسلم عن رجل زنا بأمرأة فأراد أن يتزوجها أو أيتها قال : « لا يحرم الحلال إنما يحرم  
ما كان بنكاح » . ومن الجهة للقول الآخر إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن جريح وقوله :  
« يا غلام من أبوك » ؟ قال : « فلان الراعي » . فلهذا يدل على أن الزنا يحرم كما يحرم الوطء  
الحلال ، فلا يحل أم المأثري بها ولا بنتها لآبائه الزاني ولا لأولاده ، وهي رواية ابن القاسم  
في المدونة . ويستدل به أيضا على أن الخطوة من ماء الزاني لا تحل لزاني أمتها ، وهو المشهور .  
قال عليه السلام : « لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج امرأة وأيتها » ولم يغسل بين  
الحلال والحرام . وقال عليه السلام : « لا ينظر الله إلى من كشف قناع امرأة وأيتها » .  
قال ابن خزيمة في التلخيص : « وللهنا قلنا إن القبلة وسائر وجوه الاستئذان ينشر المحرمة » . وقال  
عبد الملك بن الساجسون : إنما تحل ، وهو الصحيح لقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ  
الْمَاءِ بَشَرًا بِحَمَلٍ نَسَبًا وَصِهْرًا » . يعني بالنكاح الصحيح ، على ما يأتي في « الفرقان » .  
وجه التمسك من الحديث على تلك المسائل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حكى عن جريح  
أنه نسب ابن الزنا لزاني ، وصدق الله نسبته بما حرق له من العادة في تطلق الصبي بالشهادة له  
بذلك ، وأخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم عن جريح في معرض المدح وإظهار كرامته ،  
فكانت تلك النسبة صحيحة بتصديق الله تعالى وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ،  
فثبتت البيزة وأحكامها .

فإن قيل : فيلزم على هذا أن تجزى أحكام البيزة والأبوة من التوارث والولايات وغير  
ذلك ، وقد أخفق المسلمون على أنه لا توارث بينهما فلم تصح تلك النسبة .

فالجواب - أن ذلك موجب ما ذكرناه . وما استند عليه الإجماع من الأحكام  
استنباه ونفى الياقي على أصل ذلك الدليل ، والله أعلم ..

الخامسة عشرة - واختلف العلماء أيضا من هذا الباب في مسألة اللواط ؛ فقال مالك  
والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم : لا يحرم النكاح بالواط . وقال الثوري : إذا لعب بالصبي  
حرمت عليه أمته ، وهو قول أحد بن حنبل . قال : إذا لوط بآب أو أمه أو أباها أو أخيها  
حرمت عليه أمراته . وقال الأوزاعي : إذا لوط بفلان وولده لفتجور به بنت لم يحز للفاجر  
أن يتزوجها ؛ لأنها بنت من قد دخل به . وهو قول أحمد بن حنبل .

السادسة عشرة - قوله تعالى : ( الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ) تخصيص ليخرج عنه كل من  
كانت العرب تشبهه بمن ليس للصلب . ولما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم امرأة زيد بن  
حارثة قال المشركون : تزوج امرأة أبنه ! وكان عليه السلام يتباه ؛ على ما يأتي بيانه  
في « الأحزاب » . وحرمت حليلة الأبن من الرضاع - وإن لم يكن للصلب - بالإجماع  
المستند إلى قوله عليه السلام : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » .

السابعة عشرة - قوله تعالى : ( وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ) موضع « أن » رفع على  
المطف على « حرمت عليكم أتهنكنكم » . والأختان لفظ يعم الجميع بنكاح وملك يمين .  
وأجمعت الأمة على منع جمعهما في عقد واحد من النكاح لهذه الآية ، وقوله عليه السلام :  
« لا تفرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن » . واختلفوا في الأختين يملك اليمين ؛ فذهب كاتبة  
العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما بالملك في الوطء ، وإن كان يجوز الجمع بينهما في الملك  
بإجماع ؛ وكذلك المرأة وأبنتها صفقة واحدة . واختلفوا في عقد النكاح على أخت الجارية  
التي وطيها ؛ فقال الأوزاعي : إذا وطي جارية له يملك اليمين لم يحز أن يتزوج أختها .  
وقال الشافعي : يملك اليمين لا يمنع نكاح أخته . قال أبو عمر : من جعل عقد النكاح  
كالشراء أجازته ، ومن جمعه كالوطء لم يجزه . وقد أجمعوا على أنه لا يجوز العقد على أخت

الزوجة؛ لقول الله تعالى : « وأن تجمعوا بين الأخين » يعني الزوجين بمقد النكاح : فيقْبَل  
على ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه يَتَيْن لك الصواب . والله أعلم .  
: الثامنة عشرة — شَدَّ أهل الظاهر فقالوا : يجوز الجمع بين الأخين بملك الإيمى فى الوطء ؛  
كما يجوز الجمع بينهما فى الملك . واحتجوا بما روى عن عثمان فى الأخين من ملك الإيمى :  
« حرمتها آية واحتم ما آية » . ذكره عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن قيسمة بن ذؤيب  
أن عثمان بن عفان سئل عن الأخين مما ملكت الإيمى فقال : لا أسرك ولا أهلك أحتكما آية  
وحرمتها آية ؛ فخرج السائل فلقى رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال معمر :  
أحسبه قال عليّ — قال : ما سألت عنه عثمان ؟ فأخبره بما سأله وبما أتاه ؛ فقال له :  
لكنى أنك ، ولو كان لى عليك سبيل ثم فعلت بملكك نكالا . وذكر الطحاوى والثاقفاني  
عن عليّ وابن عباس مثل قول عثمان . والآية التى أحتكما قوله تعالى : « وأحل لكم ما وراءه  
ذلكم » . ولم يلفت أحد من أئمة أئمتى إلى هذا القول ؛ لأنهم فهموا من تأويل كتاب الله  
خلافه ، ولا يجوز عليهم تحريف التأويل . ومن قال ذلك من الصحابة : عمر وعليّ وابن  
مسعود وابن عباس وعمار وابن عمر وعائشة وابن الزبير ؛ وهؤلاء أهل العلم بكتاب الله ؛ فمن  
خالفهم فهو متمسك فى التأويل . وذكر ابن المنذر أن إسحاق بن راهوية حرّم الجمع بينهما  
بالوطء ، وأن جمهور أهل العلم كرهوا ذلك ، وجعل مالكا فيمن كرهه . ولا خلاف فى حوار  
جمعهما فى الملك ، وكذلك الأثم وأبتها . قال ابن عطية : ويحى من قول إسحاق أن يريم الجامع  
بينهما بالوطء ، وأستقرأ الكراهية من قول مالك : إنه إذا وطئ واحدة ثم وطئ الأخرى  
وقف عنهما حتى يحزم إحداهما ؛ فلم يلزمه حدًا . قال أبو عمر : « أما قول عليّ بملكه نكالا »  
ولم يقل لحدوده حد الزانى ؛ فلا ن من تأويل آية أو سنة ولم يطلأ عند نفسه حراما فليس  
[زان] بإجماع وإن كان غططا ؛ إلا أن يدعى فى ذلك حالا يعذر بجهله . وقول بعض السلف

في الجمع بين الأخنتين بملك اليمين : « أحلتها آية وحرمتهما آية » معلوم محفوظ ؛ فكيف يحذر  
 حد الزاني من فعل ما فيه مثل هذا من الشبهة القوية . وبالله التوفيق . »  
 التاسعة عشرة — وأختلف العلماء إذا كان يطا واحدة ثم أراد أن يطا الأخرى ؛ فقال  
 علي وآبن عمر والحسن البصري والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق : لا يجوز له وطء  
 الثانية حتى يحترم فوج الأخرى بإخراجها من ملكه ببيع أو عتق ، أو بأن يزوجه . قال  
 آبن المنذر : وفيه قول ثان اقتادة ، وهو أنه إذا كانت يطا واحدة وأراد وطء الأخرى  
 فإنه ينوي تحريم الأولى على نفسه وآل يقربها ، ثم يمسك عنهما حتى يستبرئ الأولى المحرمة ،  
 ثم ينشئ الثانية ؛ وفيه قول ثالث — وهو إذا كان عنده أختان فلا يقرب واحدة منهما .  
 هكذا قال الحكم وحامد ؛ وروى معنى ذلك عن النخعي . ومذهب مالك : إذا كان أختان  
 عند رجل يملك فله أن يطا إتيهما شاء ، والكف عن الأخرى موكول إلى أمانته . فإذا أراد  
 وطء الأخرى فيلزمه أن يحترم على نفسه فوج الأولى بفعل يفصله من إخراج عن الملك :  
 إما بتزوج أو بيع أو عتق إلى أجل أو كتابة أو إعدام طويل . فإن كان يطا إحداهما ثم نب  
 على الأخرى دون أن يحرم الأولى وقف عنهما ، ولم يميز له قرب إحداهما حتى يحرم الأخرى ؛  
 ولم يؤكل ذلك إلى أمانته لأنه منهم فيمن قد وطئ ؛ ولم يكن قبيل منهما إذ كان لم يطا  
 إلا واحدة . ومذهب الكوفيين في هذا الباب والثوري وأبي حنيفة وأصحابه أنه إن وطئ  
 إحدى أمته لم يطا الأخرى ؛ فإن باع الأولى أو تزوجها ثم رجعت إليه أمسك عن الأخرى ؛  
 وله أن يطاها ما دامت أختها في العدة من طلاق أو وفاة . فأما بعد آقضاء العدة فلا ، حتى  
 يملك فوج التي يطا غيره ؛ وروى معنى ذلك عن علي رضي الله عنه . قالوا : لأن الملك الذي  
 منع وطء الحارثة في الاستبراء موجود ، فلا فرق بين عودتها إليه وبين بقائها في ملكه . وقول  
 مالك حسن ؛ لأنه تحريم صحيح في الحال ولا يلزم مراعاة المال ؛ وحسبه إذا حرم فوجها عليه  
 بيع أو بتزوج أنها حرمت عليه في الحال . ولم يختلفوا في التقي لأنه لا يتصرف فيه بحال ؛  
 وأما المكتبة فقد تميز فراجع إلى ملكه . فإن كان عند رجل أمة بطؤها ثم تزوج أختها



ففيها في المذهب ثلاثة أقوال في النكاح . الثالث — في المدونة أنه يوقف عنهما إذا وقع عقد النكاح حتى يحرم إحداهما مع كراهية لهذا النكاح؛ إذ هو عقد في موضع لا يجوز فيه الوطء . وفي هذا ما يدل على أن ملك اليمين لا يمنع النكاح؛ كما تقدم عن الشافعي . وفي الباب بعينه قول آخر: أن النكاح لا يتعقد؛ وهو معنى قول الأوزاعي . وقال أشهب في كتاب الاستبراء: عقد النكاح في الواحدة تحريم لفرج المملوكة .

المؤينة عشرين — وأجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً يملك رجعتها أنه . ليس له أن ينكح أختها أو أربعا سواها حتى تنقضي مدة المطلقة . وأحلوا إذا طلقها طلاقاً لا يملك رجعتها؛ فقالت طائفة: ليس له أن ينكح أختها ولا رابعة حتى تنقضي مدة التي طلق؛ وروى عن عليّ وزيد بن ثابت، وهو مذهب مجاهد وعطاء بن أبي نوح والنخعي، وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وأصحاب الرأي . وقالت طائفة: له أن ينكح أختها وأربعا سواها؛ وروى عن عطاء، وهو أثبت الروايتين عنه، وروى عن زيد . ثابت أيضاً؛ وبه قال سعيد بن المسيب والحسن والقاسم وعروة بن الزبير وابن أبي ليلى والشافعي وأبو نؤير وأبو عبيد . قال ابن المنذر: ولا أحسبه إلا قول مالك وبه قول .

الحادية والعشرون — قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ . يحتمل أن يكون معناه معنى قوله: «إلا ما قد سلف» في قوله: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» . ويحتمل معنى زائداً وهو جواز ما سلف؛ وأنه إذا جرى الجمع في الجاهلية كان نكاح صحبهما، وإذا جرى في الإسلام خبر بين الأختين؛ على ما قاله مالك والشافعي، من ثم إجزاء عقود الكفار على موجب الإسلام ومقتضى الشرع؛ وسواء عقد عليهما عقداً واحداً... جمع به بهما أو جمع بينهما في عقدين . وأبو حنيفة يبطل نكاحهما إن جمّع في عقد واحد . وروى هشام بن عبد الله عن محمد بن الحسن أنه قال: كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات كلها التي ذكرت في هذه الآية إلا اثنين؛ إحداهما نكاح امرأة الأب، والثاني الجمع بين الأختين؛ ألا ترى أنه قال: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» . وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف . ولم يذكر في سائر المحرمات «إلا ما قد سلف» . والله أعلم .

وقوله تعالى : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ إِنْ تَتَّبِعُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسْلِحِينَ قَبْلَ أَنْ تَسْمَعُوا بِهِمْ مِنْ قِصَّتِهِمْ أَجْرُهُمْ أَجْرُهُمْ مِنْ فَرِيضَةٍ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » (١)

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( وَالْمُحْصَنَاتُ ) عطف على المحرمات المذكورات قبل .  
والمُحْصَنَاتُ : التمتع ؛ ومنه الحصن لأنه يُتَمَتَّعُ فيه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَعَلَمَنَاهُ صِنْعَهُ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ » أي لتمتعكم ؛ ومنه الحصان للفرس ( بكسر الحاء ) لأنه يمنع صاحبه من الهلاك . والحصان ( بفتح الحاء ) : المرأة العفيفة لمنها نفسها من الهلاك . وَحُصِّنَتِ المرأة مُحْصَنَةٌ فهي حصان ؛ مثل جفت فهي جبان . وقال حسان في عائشة رضي الله عنها :  
حَصَانٌ زَرَانٌ مَا تَرْتَبُ رِسِيَّةٌ • وَتُصْبِحُ غَرَقَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَاقِلِ (١)

والمصدر الحصانة ( بفتح الحاء ) والحصن كالعلم . فالمراد بالمحصنات ما هنا ذوات الأزواج ؛ يقال : امرأة مُحْصَنَةٌ أي متروكة ، ومُحْصَنَةٌ أي حرة ؛ ومنه « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . ومُحْصَنَةٌ أي عفيفة ؛ قال الله تعالى : « مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَالِحَاتٍ » وقال : « مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَالِحِينَ » . ومُحْصَنَةٌ ومُحْصَنَةٌ وحَصَانٌ أي عفيفة ، أي بمنعته من الفسق ؛ والحزبية تمنع الحزوة مما يتعاطاه العبيد . قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » أي الحرائر ، وكان عُرفُ الإمام في الجاهلية الزنا ؛ ألا ترى إلى قول هند بنت عتبة للنبي صلى الله عليه وسلم حين بايعته : « وَهَلْ تَرَى الْحِزَّةَ ؟ » والزواج أيضا يمنع زوجه من أن تزوج غيره ؛ فيناه ( ح ص ن ) معناه المنع كما بينا . ويستعمل الإحصان في الإسلام ؛

(١) تزن : تهم . وغرق : جافته . والماد أنها لا تنجاب غيرها . (٢) في كتب الفقه أنه مثل الحاء .

لأنه حافظ ومانع ، ولم يرد في الكتاب وورد في السنة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم :  
« الإيمان قيد الفتك » . ومنه قول المذنب :

فليس كعهيد التاريا أم مالك \* ولكن إحاطت بالزقاب السلاسل

وقال الشاعر :

قالت حلم إلى الحديث قفلت لا \* يابى عليك الله والإسلام

ومنه قول نعيم :

\* كفى الشيب والإسلام لره فيها \*

الثانية - إذا ثبت هذا فقد آخفت العامة في أويل هذه الآية ، فقال ابن عباس وأبو قلابة وآبن زيد ومجشول والأهري وأبو سعيد الخدري : المراد بالمحصنات هنا المسنيات ذوات الأزواج خاصة ، أى هن عزيمات إلا ما ملكت إليهن بالنسي من أرض الحرب ، فإن تلك حلال للذى تقع في سهمه وإن كان لها زوج . وهو قول الشافعي في أن النساء يقطع المصمة ، وقاله ابن وهب وابن عبد الحكم ورواه عن مالك ، وقال به أشهب . يدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين بعث جيشا إلى أوطاس<sup>(١)</sup> فلقوا العدو فقاتلوه وظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا ، فكان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يخرجون من غشيانهم من أجل أزواجهم من المشركين ، فأنزل الله من أجل « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » . أى فهن لكم حلال إذا انفقت عتقن في ذلك . وهذا نص صريح في أن الآية نزلت بسبب خروج أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن وطء المسنيات ذوات الأزواج ، فأنزل الله تعالى في جوابهم « إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور ، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . واختلفوا في استيرائها بماذا يكون ، فقال

(١) قال أبو عبيد : الفتك أن يأتى الرجل صاحبه وهو قاتل حتى يشق عليه فيقتله وإن لم يكن أصلا لأماته قبل

ذلك ، ولكن ينبغي له أن يهله ذلك . (من السان) - (٢) أوطاس : رادد بن عمرو بن

الحسن إذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستبرئون المسبية بحضة ؛ وقد روى ذلك من حديث أبي سعيد الخدري في سبأيا أو طاس " لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض " . ولم يحصل لفراض الزوج السابق أثر حتى يقال إن المسبية مملوكة ولكنها كانت زوجة زال نكاحها فتمتد علة الإماء ، على ما نقل عن الحسن بن صالح قال : عليها العدة حيطان إذا كان لها زوج في دار الحرب . وكافة العلماء رأوا استبراعها واستبراء التي لا زوج لها واحدا في أن الجميع بحضة واحدة . والمشهور من مذهب مالك أنه لا فرق بين أن ينسب الزوجان مجتمعين أو متفرقين . وروى عنه ابن بكير أنها إن سبيا جميعا وأسنتي الرجل أقرأ على نكاحهما ؛ فرأى في هذه الرواية أن استبقائه إبقاء لها يملكه لأنه قد صار له عهد وزوجه من جملة ما يملكه ، فلا يحال بينه وبينها ؛ وهو قول أبي حنيفة والثوري ، وبه قال ابن القاسم ورواه عن مالك . والصحيح الأول لما ذكرناه ، ولأن الله تعالى قال : **وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ، فأحال على ملك الإيمين وجعله هو المؤثر فيتمتع الحكم به من حيث الصوم والتعليل جميعا ، إلا ما خصه الدليل . وفي الآية قول ثان قاله عبد الله بن مسعود وسعيد بن المسيب والحسن بن أبي الحسن وأبي بن كعب وجابر بن عبد الله وابن عباس في رواية مكرمة ؛ أن المراد بالآية نوات الأزواج ، أي فهو حرام إلا أن يشتري الرجل الأمة ذات الزوج لأن بيعها طلاقها والصدقة بها طلاقها وأن تورث طلاقها وتطلق الزوج طلاقها . قال ابن مسعود : فإذا بيعت الأمة ولها زوج فالمشتري أحق ببيعها وكذلك المسبية ؛ كل ذلك موجب للفرقة بينها وبين زوجها . قالوا : وإذا كان كذلك فلا بد أن يكون بيع الأمة طلاقا لها ؛ لأن الفرج محرم على اثنين في حالة واحدة بإجماع من المسلمين .

قلت : وهذا يرد حديث بريدة ؛ لأن عائشة رضي الله عنها اشترت بريدة واعتقتها ثم خبرها النبي صلى الله عليه وسلم وكانت ذات زوج ؛ وفي إجماعهم على أن بريدة قد خبرت تحت زوجها منيئ بعد أن اشترتها عائشة فأعتقتها دليل على أن بيع الأمة ليس طلاقا ؛ وعلى ذلك جماعة فقهاء الأمصار من أهل الرأي والحديث ، والآ طلاق لها إلا الطلاق . وقد

أَحْتَجَّ بعضهم بموم قوله : « إِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » وقياساً على الْمَسِيَّاتِ . وما ذكرناه من حديث بريدة بن حصيبه ويرده ، وأن ذلك إنما هو خاص بالمَسِيَّاتِ هل حديث أبي سعيد ، وهو الصواب والحق إن شاء الله تعالى . وفي الآية قول ثالث — روى الثوري عن مجاهد عن إبراهيم قال ابن مسعود في قوله تعالى : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » قال : ذوات الأزواج من المسلمين وللمشركين . وقال علي بن أبي طالب : ذوات الأزواج من المشركين . وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب « والمحصنات من النساء » هن ذوات الأزواج ، ويرجع ذلك إلى أن الله حرم الزنا . وقالت طائفة : المحصنات في هذه الآية يراد به العفاف ، أي كل النساء حرام . وألبسهن اسم الإحصان من كان منهن ذات زوج أو غير ذات زوج ، إذ الشرائع في أنفسها تقتضي ذلك .

(إِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) قالوا : معناه بِنِكَاح أو شراء . هذا قول أبي العالية وعبيدة السلماني وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء ، ورواه عبيدة عن عمر ، فأدخلوا النكاح تحت ملك الإيمن ، ويكون معنى الآية عندهم في قوله تعالى : « إِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » يعني تملكون عصمتين بالنكاح وتملكون الرقبة بالشراء ، فكانهن كلهن يملك يمين وما عدا ذلك فزناً ، وهذا قول حسن . وقد قال ابن عباس : « المحصنات » العفاف من المسامحين ومن أهل الكتاب . قال ابن عطية : وبهذا التاويل يرجع معنى الآية إلى تحريم الزنا ، وأسد الطبري أن رجلاً قال لسعيد بن جبير : أما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية فلم يقل فيها شيئاً ؟ فقال سعيد : كان ابن عباس لا يعلمها . وأسد أيضاً عن مجاهد أنه قال : لو أعلم من يفسر لي هذه الآية لضربت إليه أكباد الإبل : قوله « والمحصنات » إلى قوله « حكماً » . قال ابن عطية : ولا أدري كيف نسب هذا القول إلى ابن عباس ولا كيف انتهى مجاهد إلى هذا القول .

الثالثة — قوله تعالى : (كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) نصب على المصدر المؤكّد ، أي حُرِّمَتْ هذه النساء كتاباً من الله عليكم . ومعنى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ » كتب الله عليكم . وقال الزجاج

والكوفون : هو نصيب على الإعراء ، أي الزموا كتاب الله ، أو عليكم بحسب كتاب الله . وفيه نظر على ما ذكره أبو علي ، فإن الإعراء لا يجوز فيه تقديم المنصوب على حرف الإعراء ، فلا يقال : زيدا عليك ، وزينا دونك ، بل يقال : عليك زيدا ودونك عمرا ، وهذا الذي قاله صحيح على أن يكون منصوبا بـ «عليك» ، وأما على تقدير حذف الفعل فيجوز : ويجوز الرفع على معنى هذا كتاب الله وفرضه . وفرا أبو حنيفة ومحمد بن السميع « كتب الله عليكم » على الفعل الماضي المسند إلى اسم الله تعالى ، والمعنى كتب الله عليكم ما قصه من التحريم . وقال حنيفة السدثاني وغيره : قوله « كتب الله عليكم » إشارة إلى ما ثبت في القرآن من قوله تعالى : « متى وثلاث ورباع » وفي هذا بدء ، والأظهر أن قوله « كتب الله عليكم » إنما هو إشارة التحريم الحاجزين الناس وبين ما كانت العرب تفعله .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَأَحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ ) فإحسنة والكسائي وعاصم في رواية حص « وأحل لكم » ردا على « حرمت عليكم » . الباقون بالفتح ردا على قوله تعالى : « كتب الله عليكم » . وهذا يقتضي ألا يحرم من النساء إلا من ذكر ، وليس كذلك ؛ فإن الله تعالى قد حرّم على لسان نبيه من لم يذكر في الآية فيضم إليها ، قال الله تعالى : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها » . قال ابن شهاب : قرئ خالة أيها وعمّة أيها بتلك المترلة ، وقد قيل : إن تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها متلقن من الآية نفسها ؛ لأن الله تعالى حرم الجمع بين الأختين ، والجمع بين المرأة وعمتها في معنى الجمع بين الأختين ، أولأن الخالة في معنى الوالدة والعمّة في معنى الوالد . والصحيح الأول ، لأن الكتاب والسنة كالشيء الواحد ، فكأنه قال أحلت لكم ما وراء ما ذكرنا في الكتاب ، وما وراء ما أكلت به البيان على لسان محمد عليه السلام . وقول ابن شهاب « قرئ خالة أيها وعمّة أيها بتلك المترلة » إنما صار إلى ذلك لأنه حل الخالة والعمّة على العموم وتم له ذلك ؛ لأن السمة اسم لكل أنثى شاركت أباك في أصله أو في أحدها والخالة كذلك كما يتناه .

وفي مصنف أبي داود وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أخيها ولا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى». وروى أبو داود أيضا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كره أن يجمع بين العمة والخالة وبين العمتين والخالتين. الرواية «لا يجمع» برفع الميم على الخبر عن المشروعية فيضمن النهي عن ذلك، وهذا الحديث يجمع على العمل به في تحريم الجمع بين من ذكر فيه بالنكاح. وأجاز الخوارج الجمع بين الأختين وبين المرأة وعمتها وخالتها، ولا يستدل بخلافهم لأشهر من قولهم من الذين خرجوا منه، ولأنهم مخالفون للسنة الثابتة. وقوله «لا يجمع بين العمتين والخالتين» فقد أشكل على بعض أهل العلم وتحرى في معناه حتى حمله على ما يبعد أو لا يجوز؛ فقال: معنى بين العمتين على الجواز، أي بين العمة وبنت أخيها؛ فقبل لها عمتان كما قيل: سئة العمرين أبي بكر وعمر؛ قال: وبين الخالتين مثله. قال النحاس: وهذا من التعسف الذي لا يكاد يسمع بمثله، وفيه أيضا مع التعسف أن يكون كلاما مكررا لغير فائدة؛ لأنه إذا كان للمعنى نهى أن يجمع بين العمة وبنت أخيها وبين العمتين يعني به العمة وبنت أخيها صار الكلام مكررا لغير فائدة؛ وأيضا فلو كان كما قال لوجب أن يكون وبين الخالة، وليس كذلك الحديث؛ لأن الحديث نهى أن يجمع بين العمة والخالة. فالواجب على لفظ الحديث ألا يجمع بين امرأتين إحداهما عمة الأخرى والأخرى خالة الأخرى. قال النحاس: وهذا يخرج على معنى صحيح، يكون رجل وابنة تزوجا امرأة وابنتها؛ تزوج الرجل البنت وتزوج الأب الأم فولد لكل واحد منهما ابنة من هاتين الزوجتين؛ فأبنة الأب عمة أبة الأب، وأبنة الابن خالة أبة الأب. وأما الجمع بين الخالتين فهذا يوجب أن يكونا امرأتين كل واحدة منهما خالة الأخرى؛ وذلك أن يكون رجل تزوج ابنة رجل وتزوج الأخرى ابنته، فولد لكل واحد منهما ابنة فأبنة كل واحد منهما خالة الأخرى. وأما الجمع بين العمتين فيوجب ألا يجمع بين امرأتين كل واحدة منهما عمة الأخرى؛ وذلك أن يتزوج رجل أم رجل ويتزوج الأخرى أخته، فيولد لكل واحد منهما ابنة فأبنة كل واحد

عَمَّةُ الْأُخْرَى ؛ فَهَذَا مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا لَسِنَ فِي الْقُرْآنِ .

الْمُتَّفَقُ . - وَإِذَا تَوَزَّرَ هَذَا فَقَدْ عَقِدَ الْعِلْمَاءُ فِيمَنْ يَحْرُمُ الْجَمْعُ بَيْنَهُنَّ عَقْدًا حَسَنًا ؛ فَرَوَى مُتَّعِمُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ قُضَيْلِ بْنِ مَيْسَرَةَ عَنْ أَبِي جَرِيرٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : كُلُّ أَمْرَأَتَيْنِ إِذَا جُمِلَتْ تَوْضِعُ أَحَدَاهُمَا ذَكَرًا لَمْ يَزَلْ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْأُخْرَى فَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بَاطِلٌ . فَقُلْتُ لَهُ : عَنْ هَذَا ؟ قَالَ : عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ سُبَّانُ التَّوْرِيِّ : تَفْسِيرُهُ عِنْدَنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ النَّسَبِ ، وَلَا يَكُونَ بِمِثْلِ أَمْرَأَةٍ وَابْنَةٍ زَوْجَاهَا يَجْعُ بَيْنَهُمَا إِنْ شَاءَ . قَالَ أَبُو عَمْرٍو : وَهَذَا عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ وَالثَّوْمِينِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَسَائِرِ قَهَّاهِ الْأُمُصَارِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِمْ فِيمَا عَلِمْتُ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي هَذَا الْأَصْلِ . وَقَدْ كَرِهَ قَوْمٌ مِنَ السَّلَفِ أَنْ يَجْعَلَ الرَّجُلُ بَيْنَ ابْنَتِهِ وَرَجُلٍ وَأَمْرَأَةٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ أَحَدَهُمَا لَوْ كَانَ ذَكَرًا لَمْ يَحِلْ لَهُ نِكَاحُ الْأُخْرَى . وَالَّذِي عَلَيْهِ الْعِلْمَاءُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ ، وَأَنْ الْمُرَاعَى النَّسَبِ دُونَ فَيْهِ مِنَ الْمَصَاهِرَةِ ؛ ثُمَّ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ التَّنْبِيهُ عَلَى الْعَمَلَةِ فِي مَنْعِ الْجَمْعِ بَيْنَ مَنْ ذُكِرَ ، وَذَلِكَ مَا يُغْنِي إِلَيْهِ الْجَمْعُ مِنْ قَطْعِ الْأَرْحَامِ الْقَرْبَةِ بِمَا يَقَعُ بَيْنَ الضَّرَائِمِ مِنَ الشَّكْلِ وَالشَّرُورِ بِسَبَبِ التَّيْبَةِ ؛ فَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَتَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ عَلَى الْعَمَةِ أَوْ عَلَى الْخَالَاتِ ، وَقَالَ : إِنْكُمْ إِذَا قَطَعْتُمْ ذَلِكَ قَطَعْتُمْ أَرْحَامَكُمْ ؛ ذَكَرَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْأَصْبَلِيُّ فِي فَوَائِدِهِ وَابْنُ عَبْدِ البرِّ وَغَيْرُهُمَا . وَمِنْ مَرَايِلِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ حُسَيْنِ بْنِ طَلْحَةَ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى أَخَوَاتِهَا خَافَةَ الْقَطْعِيَّةِ ؛ وَقَدْ طُرِدَ بَعْضُ السَّلَفِ هَذِهِ الْعَمَلَةَ فَجَعَلَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَقَرِينَتِهَا ، وَسَوَاءُ كَانَتْ بِنْتُ عَمٍّ أَوْ بِنْتُ عَمَةٍ أَوْ بِنْتُ خَالَ أَوْ بِنْتُ خَالَاتٍ ؛ رَوَى ذَلِكَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ طَلْحَةَ وَعِكْرَمَةَ وَقَسَادَةَ وَعَطَاءَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي نَجْمٍ ، وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ جُرَيْجٍ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ وَهُوَ الصَّحِيحُ . وَقَدْ نَكَحَ حَسَنُ بْنُ حُسَيْنٍ عَلَى فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةً ابْنَةَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وَابْنَةَ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ فَجَمَعَ بَيْنَ أَبِي عَمٍّ ؛ ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ . زَادَ ابْنُ عَيْنَةَ : فَاصْبَحَ نَسَائِلُهُمْ لَا يَدْرِيْنَ إِلَى أَيِّهِمَا يَنْعَمِينَ ؛ وَقَدْ كَرِهَ مَالِكٌ هَذَا ، وَلَيْسَ بِحَرَامٍ عَلَيْهِ .



وفي سماع ابن القاسم : سئل مالك عن أبي العزم أجمع بينهما ؟ فقال : ما أعلمه حراماً وقيل له : أفكره ؟ قال : إن ناساً يفتونه ، قال ابن القاسم : وهو جليل لا بأس به . قال ابن المنذر : لا أعلم أحداً أبطل هذا النكاح . وهما داخلان في جملة ما أباح بالنكاح غير خارجين منه بكتاب ولا سنة ولا إجماع ، وكذلك أجمع بين أبي عمة وأبني خالة . وقال السدي في قوله تعالى « وأحل لكم ما وراء ذلكم » : يعني النكاح فيما دون الفرج . وقيل : المعنى وأحل لكم ما وراء ذوات المحارم من أقربائكم . قتادة : يعني بذلك ملك المؤمنين خاصة .

السادسة - قوله تعالى : ( أَنْ يَتَّخِذُوا بِأَمْوَالِكُمْ ) لفظ يجمع التزوج والشراء . و « أن » في موضع نصب بدل من « ما » ، وعلى قراءة حمزة في موضع رفع ، ويحتمل أن يكون المعنى لأن ، أو بأن ، فتصديق اللام أو الباء فيكون في موضع نصب . و ( مُحْصِينَ ) نصب على الحال ، ومعناه متعفين عن الزنا . ( غَيْرِ مُسَافِحِينَ ) أى غير زانين . والسفاح الزنا ، وهو مأخوذ من سَفَح الماء ، أى صبّه وسيلانه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : سمع النفاق في عرس : « هذا النكاح لا السفاح ولا نكاح السر » . وقد قيل : إن قوله « مُحْصِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ » يحتمل وجهين : أحدهما - ما ذكرناه وهو الإحصان بمقد النكاح ، تقديره اطلبوا منافع البضع بأموالكم على وجه النكاح لا على وجه السفاح ، فتكون الآية على هذا الوجه عموم . ويحتمل أن يقال : « مُحْصِينَ » أى الإحصان صفة لمن ، ومعناه تزوجوهن على شرط الإحصان فهن ، والوجه الأول لأنه متى أسكن جرى الآية على عمومها والتعلق بمقتضاها فهو أولى ، لأن مقتضى الوجه الثاني أن المسافحات لا يحل التزوج بهن ، وذلك خلاف الإجماع .

السابعة - قوله تعالى : ( بِأَمْوَالِكُمْ ) أباح الله تعالى الفروج بالأموال ولم يفصل فوجب إذا حصل بغير المال ألا تقع الإباحة به ، لأنها على غير الشرط المأذون فيه ، كما لو عقد على نمر أو خنزير أو ما لا يصح تملكه ، ويرد على أحمد قوله في أن السقي يكون صداقاً ؛ لأنه ليس فيه تسليم مال وإنما فيه إسقاط الملك من غير أن استحققت به تسليم مال إليها ، فإن الذي

كَانَ يَمْلِكُ الْمَوْتَى مِنْ عِنْدِهِ لَمْ يَقْتُلْ إِلَيْهَا وَأَتَمَّا مَقْطُوعٌ فَإِذَا لَمْ يُسَلِّمِ الزَّوْجَ إِلَيْهَا شَيْئًا وَلَمْ تَسْتَحِقْ  
 عَلَيْهِ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا أَتَفَّ بِهَ يَمْلِكُ لَمْ يَكُنْ مَهْرًا . وَهَذَا بَيْنَ مَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأَتُوا النِّسَاءَ »  
 وَذَلِكَ أَمْرٌ يَقْتَضِي الْإِعْصَابَ ، وَإِعْطَاءَ الْمُتَّقِ لَا يَصِحُّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ  
 تَبَيُّرٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكَلُوهُ » وَذَلِكَ نَحَالٌ فِي الْبَيْتِ فَلَمْ يَبْقَ أَنْ يَكُونَ الصَّدَاقُ إِلَّا مَالًا ؛ لقَوْلُهُ تَعَالَى :  
 « وَأَمْوَالِكُمْ » . وَاخْتَفَ مِنْ قَالِ بِذَلِكَ فِي قَدَرِ ذَلِكَ ؛ فَنَحَالُ الشَّافِعِيُّ بِمَعْنَى قَوْلِهِ : « وَأَمْوَالِكُمْ »  
 فِي جَوَازِ الصَّدَاقِ بِقَلِيلٍ وَكَثِيرٍ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ وَيَعْبُذُهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَدِيثِ الْمَوْهُوبَةِ :  
 « وَلَوْ خَافَ مِنْ حَدِيدٍ » . وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَنْكَحُوا الْأَيْمَى » ؛ ثَلَاثًا . قِيلَ : وَمَا الْعِلَاقُ  
 بَيْنَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « مَا تَرْضَى عَلَيْهِ الْأَهْلُونَ وَلَوْ قَضِيَا مِنْ أَرَاكَ » . وَقَالَ أَبُو سَمِيدٍ  
 الْخُدْرِيُّ : سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ صَدَاقِ النِّسَاءِ فَقَالَ : « هُوَ مَا أَصْطَلَحَ عَلَيْهِ  
 أَهْلُوه » . وَرَوَى جَابِرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَعْطَى امْرَأَةً  
 مِلْءَ يَدَيْهِ طَعَامًا كَانَتْ بِهِ حَلَالًا » . أَخْرَجَهُمَا الدَّرَاقُطِيُّ فِي سُنَنِهِ ، قَالَ الشَّافِعِيُّ : كُلُّ مَا جَازَ  
 أَنْ يَكُونَ ثَمَنًا لشيءٍ أَوْ جَازَ أَنْ يَكُونَ أَجْرَةً جَازَ أَنْ يَكُونَ صَدَاقًا ؛ وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ .  
 وَجَمَاعَةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا ، كُلُّهُمْ أَجَازَ الصَّدَاقَ بِقَلِيلٍ الْمَالِ وَكَثِيرِهِ ،  
 وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهَبٍ صَاحِبِ مَالِكٍ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ الْمُنْثَرِ وَغَيْرُهُ . قَالَ سَمِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ  
 لَوْ أَصْدَقْتُهَا سَوَاطِلَ حَلَّتْ بِهِ ، وَأَنْكَحَ ابْنَتَهُ مِنْ عِيدِ اللَّهِ بْنِ وَدَاعَةَ بَدْرَمِينَ . وَقَالَ رِبْعَةُ :  
 يَحُوزُ النِّكَاحَ بِدَرَمٍ . وَقَالَ أَبُو الزَّوَادِ : مَا تَرْضَى بِهِ الْأَهْلُونَ ، وَقَالَ مَالِكٌ : لَا يَكُونُ الصَّدَاقُ  
 أَقْلَ مِنْ رِبْعِ دِينَارٍ أَوْ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ كَيْلًا . قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا فِي تَعْلِيلِ لَهُ : وَكَانَ أَشْبَهَ الْأَشْيَاءِ  
 بِذَلِكَ قِطْعُ الْيَدِ ، لِأَنَّ الْبُضْعَ عَضْوُ وَالْيَدَ عَضْوُ يُسْتَبَاحُ بِمَقْتَرٍ مِنَ الْمَالِ ، وَذَلِكَ رِبْعُ دِينَارٍ  
 أَوْ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمٍ كَيْلًا ؛ فَزَدَ مَالُكَ الْبُضْعَ إِلَيْهِ قِيَاسًا عَلَى الْيَدِ . قَالَ أَبُو عَمْرٍو : قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى هَذَا  
 أَبُو حَنِيفَةَ ، فَقَاسَ الصَّدَاقَ عَلَى قِطْعِ الْيَدِ ، وَالْيَدَ عِنْدَهُ لَا تَقْطَعُ إِلَّا فِي دِينَارٍ ذَهَبًا أَوْ عَشْرَةَ  
 دَرَاهِمٍ كَيْلًا ، وَلَا صَدَاقَ عِنْدَهُ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ جَمَاعَةُ أَصْحَابِهِ وَأَهْلُ مَذْهَبِهِ ، وَهُوَ قَوْلُ  
 أَكْثَرِ أَهْلِ بَلَدِهِ فِي قِطْعِ الْيَدِ لَا فِي أَقْلِ الصَّدَاقِ ، وَقَدْ قَالَ الدَّرَاوَرْدِيُّ : لِمَالِكَ إِذْ قَالَ لَا صَدَاقَ

أقل من أربع دينار : تمزقت فيها يا أبا جعد الله : أى سلكت فيها سبيل أهل العراق . وقد احتج أبو حنيفة بما رواه جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا صداق دون عشرة دراهم » أخرجه الدارقطني . وفي سنده مثنى بن عبيد مترك . وروى عن داود الأودي عن الشعبي عن علي بن عبد السلام : لا يكون المهر أقل من عشرة دراهم . قال أحمد بن حنبل : نفى غياث بن إبراهيم داود الأودي عن الشعبي عن علي بن لا مهر أقل من عشرة دراهم فصار حديثاً . وقال النخعي : أقله أربعون درهماً . سعيد بن جبير : نعسون درهماً . ابن شبرمة : خمسة دراهم . ورواه الدارقطني عن ابن عباس عن علي بن رضى الله عنه : لا مهر أقل من خمسة دراهم

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ قَدْ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ قَرِيبَةً ﴾ الاستمتاع التلذذ . والأجور المهور ، ومسمى المهر أجراً لأنه أجر الاستمتاع ، وهذا نص في أن المهر يسمى أجراً ، ودليل على أنه في مقابلة البضع ، لأن ما يقابل المنفعة يسمى أجراً . وقد اختلف العلماء في المفقود عليه في النكاح ما هو : بدن المرأة أو منفعة البضع أو الحل ؛ ثلاثة أقوال ، والظاهر المجموع ، فإن المقدر يقتضى كل ذلك . والله أعلم .

التاسعة - واختلف العلماء في معنى الآية ؛ فقال الحسن ومجاهد وغيرهما : المعنى لما استمتعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح فأتوهن أجورهن أى مهورهن ، فإذا جامعها مرة واحدة فقد وجب المهر كاملاً إن كان مسمى ، أو مهر مثلها إن لم يسمى . فإن كان النكاح فاسداً فقد اختلقت الرواية عن مالك في النكاح الفاسد هل تستحق به مهر المثل أو المسمى إذا كان مهراً صحيحاً ؛ فقال مرة : المهر المسمى ، وهو ظاهر مذهبه ؛ وذلك أن ما تراضوا عليه يقين ، ومهر المثل اجتهد فيجب أن يرجع إلى ما يتقناه لأن الأموال لا تستحق بالشك . ووجه قوله « مهر المثل » أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إني أمة تكلمت بنير إذن ولئيها فنكاحها باطل فإن دخل بها فلها مهر مثلها بما استحل من فرجها » . قال ابن خزيمة متناد : ولا يجوز أن تحمل الآية على جواز المتعة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه

وسلم نهى عن النكاح المتعة وجرمه ، ولأن الله تعالى قال : « قَاتِلُوهُمْ يُبَذِّلْ أَمْثَلُهَا »  
 ومعلوم أن النكاح يذنب الإغليل بنحو النكاح الشرعي يؤلف وشاهدان ، ونكاح المتعة ليس  
 كذلك ، وقال الجمهور : المراد نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام . وقرأ ابن عباس  
 وأبي وابن جبير : « ما استختم به منهن إلى أجل مسمى قاتوهن أجورهن » ثم نهى عنها  
 التي جعل الله عليه وسلم . وقال سعيد بن المسيب : فسختها آية الميراث ، إذ كانت المتعة  
 لا ميراث فيها . وقالت عائشة والقاسم بن محمد : تحريمها ونسخها في القرآن ، وذلك قوله  
 تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ يُرْوِجُوهُمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ  
 مَلُومِينَ » . وليست المتعة نكاحا ولا ملك يمين . وروى الدارقطني عن علي بن أبي طالب  
 قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المتعة ، قال : وإنما كانت لمن لم يجد . فلما نزل  
 النكاح والطلاق والسنة والميراث بين الزوج والمرأة نسخت . وروى عن علي رضي الله عنه  
 أنه قال : نسخ صوم رمضان كل صوم ، ونسخ الزكاة كل صدقة ، ونسخ الطلاق والسنة  
 والميراث المتعة ، ونسخ الأشحية كل ذبح . وعن ابن مسعود قال : المتعة منسوخة نسختها  
 الطلاق والسنة والميراث . وروى عطاء عن ابن عباس قال : ما كانت المتعة إلا رحمة من  
 الله تعالى رحم بها عباده ، ولولا نهى عمر عنها ما زلنا إلا شقي .

العاشرة — واختلف العلماء كم مرة أيجت ونسخت ، ففي صحيح مسلم عن عبد الله  
 قال : كما تنزع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا نساء ، قلنا : ألا نستخصي ؟ فنهانا  
 عن ذلك ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالتوب إلى أجل . قال أبو حاتم البستي في صحيحه :  
 قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم « ألا نستخصي » دليل على أن المتعة كانت محظورة قبل أن أبيع  
 لهم الاستتاع ، ولو لم تكن محظورة لم يكن لسؤالهم عن هذا معنى ، ثم رخص لهم في النزول  
 أن ينكحوا المرأة بالتوب إلى أجل ثم نهى عنها عام خيبر ، ثم أذن فيها عام الفتح ، ثم حرّمها  
 بعد ثلاث ، فهي محزمة إلى يوم القيامة . وقال ابن العربي : وأما متعة النساء فهي من  
 غرائب الشريعة ؛ لأنها أيجت في صدر الإسلام ثم حرمت يوم خيبر ، ثم أيجت في غزوة

أوطاس<sup>١</sup>، ثم حُرمت بعد ذلك واستقر الأمر على التحريم ، وليس لنا أخت في الشريعة إلا بمسألة القبلة ، فإن التمسح طرا عليها من حين ثم استقرت بعد ذلك ، وقال غيره من جمع طرق الأحاديث فيها : إنها تقتضي التحليل والتحريم سبع مرات ، فروى ابن أبي عمرة أنها كانت في صدر الإسلام . وروى سلمة بن الأكوع أنها كانت عام أوطاس . ومن رواية علي بن محمد بن يوم خير . ومن رواية الربيع بن سبرة إباحتها يوم الفتح .

قلت : وهذه الطرق كلها في صحيح مسلم ، وفي غيره عن علي بن نهيه عنها في غزوة تبوك ، رواه إسحاق بن راشد عن الزهري عن عبد الله بن محمد بن علي عن أبيه عن علي ، ولم يتابع إسحاق بن راشد على هذه الرواية عن ابن شهاب ، قاله أبو عمر رحمه الله . وفي مصنف أبي داود من حديث الزبيد بن سبرة انتهى عنها في حجة الوداع ، وذهب أبو داود إلى أن هذا أصح ما روي في ذلك . وقال عمرو بن الحسن : ما حلت المنعة قط إلا ثلاثا في عمرة القضاء ما حلت قبلها ولا بعدها . وروى هذا عن سبرة أيضا ، فهذه سبعة مواطن أحلت فيها المنعة وحُرمت . قال أبو جعفر الطحاوي : كل هؤلاء الذين رَوَوْا عن النبي صلى الله عليه وسلم إطلاقها أخبروا أنها كانت في سفر ، وأن النبي لحقها في ذلك السفر بعد ذلك ، فنع منها ، وليس أحد منهم يثبت أنها كانت في حَضَر ، وكذلك روى عن ابن مسعود . فاما حديث سبرة الذي فيه إباحة النبي صلى الله عليه وسلم لها في حجة الوداع بخارج من معانيها كلها ، وقد اعتبرنا هذا الحرف فلم نجد إلا في رواية عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز خاصة ، وقد رواه إسماعيل بن عياش عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فذكر أن ذلك كان في فتح مكة وأنهم شكوا إليه العزبة فرخص لهم فيها ، وحال أن يشكوا إليه العزبة في حجة الوداع ، لأنهم كانوا أحجوا للنساء ، وكان ترويح النساء بمكة يمكنهم ، ولم يكونوا حينئذ كما كانوا في الغزوات المتقدمة . ويحتمل أنه لما كانت عادة النبي صلى الله عليه وسلم تكرر مثل هذا في مغازيه

(٢) العزبة : (بضم عين مهلة و زاي معجمة) التبريد عن النساء . ويحتمل أن يكون بين معجمه وزا مهلة أي الفرقان عن الأوطاس لما فيه من فراق الأهل (عن ابن ماجه) .

وفي المواضع الجامعة ، فذكر تحريمها في جهة الدواعي لاجتماع اليأس حتى تسمع منه من لم يكن سمعه ، فأكد ذلك لينتهي لاستحقاق شبهة لأحد يدعى تحليلها ، ولأن أهل مكة كانوا يستعملونها كثيرا .

الحادية عشرة - روى الليث بن سعد عن بكير بن الأشج عن عمار مولى الشريد قال : سألت ابن عباس عن المتعة أسفاح هي أم نكاح ؟ قال : لا أسفاح ولا نكاح . قلت : فما هي ؟ قال : المتعة كما قال الله تعالى . قلت : هل عليها عتة ؟ قال : نعم . حصة . قلت : يتوارثان ، قال لا . قال أبو عمر : لم يختلف العلماء من السلف والخلف أن المتعة نكاح إلى أجل لا ميراث فيه ، والفرقة تقع عند انقضاء الأجل من غير طلاق . وقال ابن عطية : « وكانت المتعة أن يتزوج الرجل المرأة بشاهدين وإذن الولي إلى أجل مُسَمَّنٍ وعلى ألا ميراث بينهما ويطعها ما أشفق عليه ، فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل ويستبرئ رجمها ، لأن لا حق فيه بلا شك ، فإن لم تحمل حلت لفريه . وفي كتاب النكاح في هذا خطأ وأن الولد لا يلحق في نكاح المتعة » .

قلت : هذا هو المفهوم من عبارة النكاح ، فإنه قال : وإنما المتعة أن يقول لها : أتزوجك يوماً - أو ما أشبه ذلك - على أنه لا عتة عليك ولا ميراث بيننا ولا طلاق ولا شاهد يشهد على ذلك ، وهذا هو الزنا بعينه ولم يبع قط في الإسلام ، ولذلك قال عمر : لا أوقى رجل تزوج متعة إلا غيبته تحت البحارة .

الثانية عشرة - وقد اختلف علماءنا إذا دخل في نكاح المتعة هل يحد ولا يلحق به الولد ، أو يدفع الحد للشبهة ويلحق به الولد على قولين ؛ ولكن يحد ويماقب . إذا لحق اليوم الولد في نكاح المتعة في قول بعض العلماء مع القول بتحريمه ، فكيف لا يلحق في ذلك الوقت الذي أصبح ، فدل على أن نكاح المتعة كان على حكم النكاح الصحيح ويفارقه في الأجل والميراث . وحكى المتهودون عن ابن عباس أن نكاح المتعة كان بلا ولي ولا شهود . وفيما حكاه ضعف لما ذكرنا . قال ابن السري : وقد كان ابن عباس يقول يجوزها ، ثم ثبت رجوعه

فيها ، فاتفق الإجماع على تحريمها ، فإذا فعلها أحد رُجم في مشهور المذهب . وفي رواية أخرى عن مالك : لا يزوج ، لأن نكاح المتعة ليس بحرام ، ولكن لأصل آخر لعلمائنا غريب أفردوا به دون سائر العلماء ، وهو أن ما حُرِّم بالسنة هو مثل ما حُرِّم بالقرآن أم لا ، فمن رواية بعض المدنيين عن مالك أنهما ليسا بسواء ، وهذا ضعيف . وقال أبو بكر الطرسوسي : ولم يُرخص في نكاح المتعة إلا عمران بن حصين وابن عباس وبعض الصحابة وطائفة من أهل البيت . وفي قول ابن عباس يقول الشاعر :

أقول للركب إذ طال التواء بنا • يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس

في بضية رخصة الأطراف ناعمة • تكون مثواك حتى مرجع الناس

وسائر العلماء والفقهاء من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين على أن هذه الآية منسوخة ، وأن المتعة حرام . وقال أبو عمر : اصحاب ابن عباس من أهل مكة واليمن كلهم يرون المتعة حلالا على مذهب ابن عباس وحرمها سائر الناس . وقال معمر قال الزهري : أزداد الناس لها مقتا حتى قال الشاعر :

قال المحدث لما طال مجلسه • يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس

كما تقدم .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ( أجودهن ) يتم المسال وفيه ، فيجوز أن يكون الصديق منافع أعيان . وقد اختلف في هذا العلماء ، فتعه مالك والمزني والليث وأبو حنيفة واصحابه ، إلا أن أبا حنيفة قال : إذا تزوج على ذلك فالتكاح جائز وهو في حكم من لم يتم لها ، ولما مهر مثلها إن دخل بها ، وإن لم يدخل بها فلها المتعة . وكرهه ابن القاسم في كتاب محمد وأجازه أصبغ . قال ابن شاس : فإن وقع مضي في قول أكثر الأصحاب . وهي رواية أصبغ عن ابن القاسم . وقال الشافعي : التكاح ثابت وعليه أن يملأها ما شرط لها ، فإن طلقها قبل الدخول ففيها للشافعي قولان : أحدهما أن لها نصف أجر تعليم تلك السودة ، والآخر أن لها نصف مهر مثلها . وقال إسماعيل : التكاح جائز . قال أبو الحسن النخعي : والقول يجوز جميع ذلك أحسن . والإجارة والبيع كغيرهما من الأموال التي تستلک وتباع وتشترى . وإنما كره ذلك

ذلك لأنه يستحب أن يكون الصداق منجلاً، والإجارة والنج في معنى المؤجل . احتج أهل  
القول الأول بأن الله تعالى قال : « يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » وتحقيق المال ما يتعلق به الأطلاق، ويُسند  
للاستفاد ، ونفقة الزوجة في الإجارة ومنفعة التعليم العلم كله ليس بمال . قال الطحاوي :  
والأصل المبتع عليه أن رجلاً لو استأجر رجلاً على أن يعلمه سورة من القرآن مما لم يعلمه  
لم يجر ، لأن الإجازات لا تجوز إلا لأحد معين ، إما على عمل بعينه نكاحاً أو غيره ، وإما على وقت معلوم ، وكان إذا استأجره على تعليم سورة تلك إجارة لا على وقت معلوم ولا  
على عمل معلوم ، وإما استأجره على أن يعلم ، وقد يفهم بقليل التعليم وكثيره في قليل الأوقات  
وكثيرها . وكذلك لو باع داره على أن يعلمه سورة من القرآن لم يجر للعاقب التي ذكرناها  
في الإجازات . وإذا كان التعليم لا يملك به للمنافع ولا أعيان الأموال ثبت بالنظر أنه  
لا يملك به الأضياع . واه الموفق . احتج من أبجاز ذلك بحديث سهل بن سعد في حديث  
الموهوبة ، وفيه قال : « انهب فقد ملككم بها بما ملك من القرآن » . في رواية قال :  
« أطلق فقد زوجكمها فملها من القرآن » . قالوا : ففى هذا دليل على انقضاء النكاح وانتهى  
المهر الذى هو التعليم ، وهذا على الظاهر من قوله « بما ملك من القرآن » فإن الباء للموضع ،  
كما تقول : خذ هذا بهذا ، أى عوضاً منه . وقوله في الرواية الأخرى « فملها » نص  
في الأمر بالتعليم ، والمساك يشهد بأن ذلك لأجل النكاح ، ولا يخفى لقول من قال إن ذلك  
كان إكراماً للرجل بما حفظ من القرآن ، أى لما حفظه ، فتكون الباء بمعنى اللام ، فإن  
الحديث الثانى يصرح بخلافه في قوله « فملها من القرآن » . ولا حجة فيما روى عن أبى طلحة  
أنه خطب أم سلمة فقالت : إن أسلمت فزوجته . فأسلم فزوجها ، فلا يعلم مهر كان أكرم من  
مهرها ، كان مهرها الإسلام ، فإن ذلك خاص به . وأيضاً فإنه لا يصل إليها منه شيء  
بخلاف التعليم وغيره من المنافع . وقد زوج شعيب عليه السلام أخته من موسى عليه السلام  
على أن يرعى له غنماً في صداقها ، على ما يأتي بيانه في سورة « القصص » . وقد روى من  
حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه : « يا فلان هل



تَزَوَّجْتُ؟ قَالَ: لَا وَلَيْسَ بَيْنِي مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ. قَالَ: «الَيْسَ بِمَكَدٍ قُلْ بِمَوَاقِفٍ أُجِدُّ؟»  
 قَالَ: بَلَى! قَالَ: «مَتَى الْفَرْكَنَ. أَلَيْسَ بِمَكَدٍ أَبَدَ الْكَرْبَى؟» قَالَ: بَلَى! قَالَ: «رَجِ  
 الْفَرْكَنَ. أَلَيْسَ بِمَكَدٍ إِذَا جَاءَ نَصْرُكَ وَالْفَتْحُ؟» قَالَ: بَلَى! قَالَ: «رَجِ الْفَرْكَنَ.  
 أَلَيْسَ بِمَكَدٍ إِذَا زُلْزِلَتْ؟» قَالَ: بَلَى! قَالَ: «رَجِ الْفَرْكَنَ. تَزَوَّجْ تَزَوَّجْ».

قلت: وقد اتَّجَعَ الْقَارِئُ قُلَّتِي حَدِيثَ سَهْلِ بْنِ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَفِيهِ زِيَادَةٌ تَبِينُ  
 مَا احْتَجَّ بِهِ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ، وَفِيهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَنْكِحْ هَذِهِ؟»  
 فَقَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ فَقَالَ: أَيْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «إِنَّكَ مَالٌ؟» قَالَ: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟  
 قَالَ: «فَهَلْ تَهْرَأُ مِنَ الْفَرْكَنِ شَيْئاً؟» قَالَ: نَعَمْ، سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةُ الْمُفَصَّلِ.  
 فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ أَتَمَّكَهَا عَلَى أَنْ تُهْرَأَ وَتَمْلَأَهَا وَإِذَا  
 رَزَقَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». فَتَزَوَّجَهَا الرَّجُلُ عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا نَصٌّ - لَوْحٌ - فِي أَنْ التَّحْلِيمَ  
 لَا يَكُونُ صِدَاقًا. قَالَ الْقَارِئُ قُلَّتِي: تَعَزَّزَ بِهِ حَبِيبُ السَّكَنِ وَهُوَ مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ.  
 وَ (فَرَضَةٌ) نَسَبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ مَفْرُوضَةٌ.

الرابعة عشرة - قوله تعالى: (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاغَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْقَرِيبَةِ)  
 أَيْ مِنْ زِيَادَةِ وَقَعَصَانٍ فِي الْمَهْرِ، فَإِنَّ ذَلِكَ سَائِعٌ عِنْدَ التَّرَاضِي بَعْدَ اسْتِثْرَاءِ الْقَرِيبَةِ. وَالْمُرَادُ  
 إِبْرَاءَ الْمَرْأَةِ مِنَ الْمَهْرِ، أَوْ تَوْفِيقَ الرَّجُلِ كُلِّ الْمَهْرِ إِنْ طَلَّقَ قَبْلَ الدَّخُولِ. وَقَالَ الْقَارِئُ بَانَ  
 الْآيَةُ فِي التَّمَتَةِ: هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا تَرَاضَا عَلَيْهِ مِنْ زِيَادَةٍ فِي مَقْدَرِ التَّمَتَةِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ،  
 فَانَّهُ كَانَتْ يَتَرَقَّى لِلرَّجُلِ الْمَرْأَةُ شَهْرًا عَلَى دِينَارٍ مِثْلًا، فَانَّهَا أَتَقَضَى الشَّهْرَ فَرَسًا كَانَتْ يَقُولُ:  
 زَيْدِي فِي الْأَجْلِ أَزِيدُكَ فِي الْمَهْرِ. يَنْ أَنْ ذَلِكَ كَانَ جَائِزًا عِنْدَ التَّرَاضِي.

قوله تعالى: وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكَ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُخْصَنَتِ  
 الْمُؤْمِنَتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ  
 بِإِعْنَتِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ

بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَتٌ غَيْرَ مُسْتَحْصَنَةٍ وَلَا مُتَعَدِّاتٌ لِّإِفْكَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتَ  
فَإِنَّ أَتَيْنَ فَحِشَّةٌ فَلْيَنْصِفْ مَا عَلَى الْمُحْصَنَتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ  
لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا ) الآية . نبيه تعالى على تخفيف  
في النكاح وهو نكاح الأمة لمن لم يحسد الطول . واختلف العلماء في معنى الطول على ثلاثة  
أقوال : الأول - السعة والفتى ، قاله ابن عباس وعياض وسعيد بن جبير والسدي وابن زيد  
وماك في المدونة . يقال : طال بطول طولا في الإفضال والقدرة . وفلان ذو طول أى  
ذو قدرة في ماله ( بفتح الطاء ) . وطولا ( بضم الطاء ) في ضد القصر . والمراد ههنا القدرة على  
المهر في قول أكثر أهل العلم ، وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور . قال أحمد بن  
المعتمد قال عبد الملك : الطول كل ما يقدر به على النكاح من قد أو عرس أو دين على غيره .  
قال : وكل ما يمكن بيعه وإجارته فهو طول . قال : وليست الزوجة ولا الزوجتان ولا الثلاثة  
طولا . وقال : وقد سمعت ذلك من مالك رضى الله عنه . قال عبد الملك : لأن الزوجة لا ينكح  
بها ولا يصل بها إلى غيرها إذ ليست بمال . وقد مثل مالك عن رجل يترجى أمة وهو ممن  
يحسد الطول فقال : أرى أن يفرق بينهما . قيل له : إنه يخاف العنت . قال : السوط  
يضرب به . ثم خففه بعد ذلك . القول الثانى - الطول الحرة . وقد اختلف قول مالك  
في الحرة هل هى طول أم لا ؛ فقال في المدونة : ليست الحرة بطول تمنع من نكاح الأمة ؛  
إنما لم يحسد سعة لأخرى وخاف العنت . وقال في كتاب عهد ما يقتضى أن الحرة بمثابة الطول . قال  
الحقي : وهو ظاهر القرآن . وروى نحو هذا عن ابن حبيب ، وقاله أبو حنيفة فيقتضى  
هذا أن من حنده حرة فلا يجوز له نكاح أمة وإن عدم السعة وخاف العنت ؛ لأنه طالب  
شهوة وعنده امرأة ، وقال به الطبري وأحجج له . قال أبو يوسف : القول هو وجود الحرة

تحتها؛ فإذا كانت تحت حُرمة فهو ذو طول، فلا يجوز له نكاح الأمة. القول الثالث - الطول  
 الجَلْدُ والصَّبْرُ لمن أحب، أمة وهويتها حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها، فإن له أن  
 يتزوج الأمة إذا لم يملك هواها وخاف أن يبتغي بها وإن كان يجد سعة في المال لنكاح حُرمة؛  
 هذا قول قتادة والخفي وعطاء وسفيان الثوري. فيكون قوله تعالى: «لَمَنْ خِشِيَ الْعَنْتَ»  
 على هذا التأويل في صفة عدم الجَلْد، وعلى التأويل الأول يكون تزويج الأمة معلقاً بشرطين:  
 عدم السعة في المال، وخوف العنت؛ فلا يصح إلا باجتماعهما. وهذا هو نص مذهب  
 مالك في المدونة من رواية ابن نافع وابن القاسم وابن وهب وابن زياد. قال مُطَرِّفُ وابن  
 المَاجِشُون: لا يحل للرجل أن ينكح أمة ولا يُقْرَأَ إلا أن يجمع الشرطان كما قال الله تعالى؛  
 وقوله أصح. وروى هذا القول عن جابر بن عبد الله وابن عباس وعطاء وطاوس والزُهري  
 ومكحول، وبه قال الشافعي وأبو ثور وأحمد وإسحاق، واختاره ابن المنذر وغيره. فإن وجد  
 المهر وعدم النفقة فقال مالك في كتاب عمه: لا يجوز له أن يتزوج أمة. وقال أصح: ذلك  
 جائز؛ إلا نفقة الأمة على أهلها إذا لم يضمنها إليه. وفي الآية قول رابع - قال مجاهد: بما  
 وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة والنصرانية، وإن كان موسراً. وقال بذلك أبو حنيفة  
 أيضاً، ولم يشترط خوف العنت؛ إذا لم تكن تحت حُرمة. قالوا: لأن كل مال يمكن أن  
 يتزوج به الأمة يمكن أن يتزوج به الحرة؛ فالآية على هذا أصل في جواز نكاح الأمة مطلقاً.  
 قال مجاهد: وبه يأخذ سفيان، وذلك أتى سائنه عن نكاح الأمة فحدثني عن ابن أبي ليلى  
 عن المنهال عن عباد بن عبد الله عن علي رضي الله عنه قال: إذا نكحت الحرة على الأمة  
 كان للحرة يومان وللأمة يوم. قال: ولم ير عليّ به بأساً. وحجة هذا القول عموم قوله تعالى:  
 «وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ». وقوله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً» إلى قوله:  
 «ذَلِكَ بَيْنَ خِثْيِ الْعَنْتِ مِنْكُمْ»؛ لقوله عز وجل: «فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى  
 وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَدْلُوا أَوْ أَحَدَةً»، وقد انقضى الجميع على أن لقُرْآن يتزوج أرمالاً وإن  
 خاف ألا تبدل. قالوا: وكذلك له تزويج الأمة وإن كان واجداً للطول غير خائف، للعنت. وقد

موتى العن مثلك فى الذى يغند طولاً لحرة أنه يتزوج أمة مع قنطرة على طول الحرة ؛ وذلك  
 ضيف من قوله . وقيل قال مرة أخرى : ما هو بالحرام الذى رُجّوه . والصحيح أنه  
 لا يجوز للمسلم أن يتكح أمة غير مسلمة بحال ؛ ولا له أن يتزوج بالأمة المسلمة إلا بشرطين  
 المتضمنين عليهما كما بينا . والعنت الزنا ؛ فإن عدم الطول ولم يخش العنت لم يحزله نكاح  
 الإمة ، وكذلك إن وجد الطول وخشى العنت . فإن قدر على طول حرة كتابية وهى المسألة :  
 الثانية - فهل يتزوج الأمة ؛ اختلف العلماء فى ذلك ، قيل : يتزوج الأمة  
 فإن الأمة المسلمة لا تلحق بالكافرة ، فأمة مؤمنة خير من حرة مشركة . واختاره ابن العربي .  
 وقيل : يتزوج الكتابية ؛ لأن الأمة وإن كانت تفضلها بالإيمان فالكافرة تفضلها بالحرية  
 وهى زوجة . وأيضاً فإن ولدها يكون حراً لا يسترق ، وولد الأمة يكون رقيقاً ، وهذا هو  
 الذى يمتشى على أصل المذهب .

الثالثة - واختلف العلماء فى الرجل يتزوج الحرة على الأمة ولم تعلم بها ؛ فقالت  
 طائفة : النكاح ثابت . كذلك قال سعيد بن المسيب وعطاء بن أبى رباح والشافعى  
 وأبو ثور وأصحاب الرأى ، وروى عن علي . وقيل : للحرة الخيار إذا علمت . ثم فى أى شيء  
 يكون لها الخيار ؛ فقال الزهري وسعيد بن المسيب ومالك وأحمد وإسحاق أن يُقيم معه  
 أو تفارقه . وقال عبد الملك : فى أن يُتزوج نكاح الأمة أو تفسخه . وقال النخعي : إذا تزوج  
 الحرة على الأمة فارق الأمة إلا أن يكون له منها ولد ؛ فإن كان لم يُفارق بينهما . وقال  
 مسروق : يفسخ نكاح الأمة ؛ لأنه أمرٌ أبيع للضرورة كالميتة ، فإذا ارتفعت الضرورة  
 ارتفعت الإباحة .

الرابعة - فإن كانت تحت أمتان علمت الحرة بواحدة منهما ولم تعلم بالأخرى فإنه  
 يكون لها الخيار . ألا ترى لو أن حرة تزوج عليها أمة فرضيت ، ثم تزوج عليها أمة فرضيت ،  
 ثم تزوج عليها أخرى فانكرت كان ذلك لها ؛ فكذلك هذه إذا لم تعلم بالأمتين وعلمت بواحدة .  
 قال ابن القاسم قال مالك : وإنما جعلنا الخيار للحرة فى هذه المسائل لما قال العلماء قبل ؛

يريد سعيد بن المسيّب وابن شهاب وغيرهما : قال مالك : ولو لا ما قالوه لأشبه حلالاً ؛ لأنه في كتاب الله حلال . فإن لم تكن فيه الحيرة واحتاج إلى أخرى ولم يقدر على صداقها ، جاز له أن يترجّح الأئمة حتى ينتهي إلى أربع بالترويح بظاهر القرآن . رواه ابن وهب عن مالك . وروى ابن القاسم عنه : يريد نكاحه . قال ابن العربي : والأول أصح في الدليل ، وكذلك هو في القرآن ؛ فإن من رضى بالسبب المحقق رضى بالسبب المرتب عليه ، وألا يكون لما خیار ؛ لأنها قد علمت أن له نكاح الأربع ، وعلمت أنه إن لم يقدر على نكاح حرة تزوج أمة ، وما شرط الله سبحانه عليها كما شرطت كل قسما ، ولا يمتري في شروط الله سبحانه وتعالى عليها . وهذا غاية التحقيق في الباب والإتصاف فيه .

الخامسة - قوله تعالى : ( الْمُحْصَنَاتِ ) يريد الحرّات ؛ يدل عليه التقسيم بينهن وبين الإماء في قوله : ( مِنْ قَبَائِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ) . وقالت فرقة : معناه المغائف . وهو ضعيف ؛ لأن الإماء يقن تحته فأجازوا نكاح إماء أهل الكتاب ، وحرموا البنائا من المؤمنين والكنانيات . وهو قول ابن ميسرة والسدي . وقد اختلف العلماء فيما يجوز للمرأة الذي لا يجد القول ويخشي الفتنة من نكاح الإماء ؛ فقال مالك وأبو حنيفة وابن شهاب الأحرى والحرث المكي : أنه أن يتزوج أربعا . وقال حماد بن أبي سليمان : ليس له أن ينكح من الإماء أكثر من اثنتين . وقال الشافعي وأبو ثور وأحمد وإسحاق : ليس له أن ينكح من الإماء إلا واحدة . وهو قول ابن عباس ومسروق وجماعة ؛ واحتجوا بقوله تعالى : ( ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ اللَّهَ مِنْكُمْ ) وهذا المعنى يزول بنكاح واحدة .

السادسة - قوله تعالى : ( فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ) أي فليزوج بأمة النهر . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يجوز له أن يتزوج أمة نفسه ؛ لتعارض الحقوق واختلافها .

السابعة - قوله تعالى : ( مِنْ قَبَائِكُمُ ) أي المملوكات ، وهي جمع فتاة . وللرب تقول للرك : قتي ، وللملوك فتاة . وفي الحديث الصحيح : " لا يقول أحدكم عبيدي وأمتي

(١) النكاح : بالضم والسكر نسبة إلى مكل بلن من تميم .

ولكن ليقول قتلى وقتلى وسائى . ولفظ الفتى والفتاة يطلق أيضا على الأحرار في ابتداء الشباب ، فاما في الممالك فيطلق في الشباب وفي الكبر .

الثامنة — قوله تعالى : ( الْمُؤْمِنَاتِ ) بين بهذا أنه لا يجوز التزوج بالأمة الكتابية ، فهذه الصفة مشتركة عند مالك وأصحابه ، والشافعى وأصحابه ، والثورى والأوزاعى والحسن البصرى والزهرى ومكحول ومجاهد . وقالت طائفة من أهل العلم منهم أصحاب الراى : نكاح الأمة الكتابية جائز . قال أبو عمر : ولا أعلم لهم سقفا في قولهم ، إلا أبا مبصرة عمرو بن شرحبيل فإنه قال : إماء أهل الكتاب بمنزلة الحرث ممن . قالوا : وقوله « الْمُؤْمِنَاتِ » على جهة الوصف الفاضل وليس بشرط ألا يجوز غيرها ، وهذا بمنزلة قوله تعالى : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » فإن خاف ألا يعدل فتزوج أكثر من واحدة جاز ، ولكن الأفضل ألا يتزوج ، فكذلك هنا الأفضل ألا يتزوج إلا مؤمنة ، ولو تزوج غير المؤمنة جاز . واحتجوا بالقياس على الحرث ، وذلك أنه لما لم يمنع قوله : « الْمُؤْمِنَاتِ » في الحرث من نكاح الكتابيات فكذلك لا يمنع قوله : « الْمُؤْمِنَاتِ » في الإماء من نكاح الكتابيات . وقال أنشب في المدونة : جائز للعبد المسلم أن يتزوج أمة كتابية . فالمنع عنده أن يفضل الزوج في الحرثية والدين مما . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يجوز لمسلم نكاح مجوسية ولا وثنية ، وإذا كان حراما بإجماع نكاحهما فكذلك وطوهما بملك التمين قياسا ونظرا . وقد روى عن طاوس ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار أنهم قالوا : لا بأس بنكاح الأمة المجوسية بملك التمين . وهو قول شاذ مهجور لم يلتفت إليه أحد من فقهاء الأمصار . وقالوا : لا يحل أن يطاها حتى تسلم . وقد تقدم القول في هذه المسألة في « البقرة » مستوفى .

الثاسعة — قوله تعالى : ( وَأَلَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ) المعنى أن الله أعلم بيوطن الأمور ولكم ظواهرها ، وكلكم بنو آدم وأكرمكم عند الله أتقاكم ، فلا تستكفروا من التزوج بالإماء عند الضرورة ، وإن كانت حديثة عهد بيساء ، أو كانت نرساء وما أشبه ذلك . ففي اللفظ تنبيه على أنه ربما كان إيمان أمة أفضل من إيمان بعض الحرث .

الساخرة — قوله تعالى : ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ابتداء وخبر ؛ كقولك زيد في الدار .  
والمعنى أتم بنو آدم . وقيل : أتم مؤمنون . وقيل : في الكلام عديم وأخير ؛ المعنى :  
ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فلينكح بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ : هذا فاته  
هذا ، وهذا فاته هذا . فبعضكم على هذا التقدير مرفوع بفعله وهو فلينكح . والمقصود بهذا  
الكلام قَوْلُ طَلْحَةَ نفوس العرب التي كانت تستهجن ولد الأمة وتُسميه المِجِين ، فلما جاء  
الشرع بجواز نكاحها علموا أن ذلك التهجين لا معنى له ، وإنما انحطت الأمة فلم يجوز للز  
التزوج بها إلا عند الضرورة ؛ لأنه تسبب إلى إلفاق الولد ، وأن الأمة لا تفرغ للتزوج على  
الدوام ، لأنها مشغولة بخدمة المولى .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِيْنَّ﴾ أى بولاية أربابهن المالكين  
وإنهم . وكذلك العبد لا ينكح إلا بإذن سيده ؛ لأن العبد مملوك لا أمر له ، وبذنه كله  
مستغرق ، لكن الفرق بينهما أن العبد إذا تزوج بغير إذن سيده فإن إجازة السيد جاز ؛  
هذا مذهب مالك وإصحاب الرأي ، وهو قول الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن  
المسيب وشريح والشعبي . والأمة إذا تزوجت بغير إذن أهلها ففسخ ولم يجوز بإجازة السيد ؛  
لأن نقصان الأئمة في الأمة يمنع من انعقاد النكاح البتة ، وقالت طائفة : إذا نكح العبد بغير  
إذن سيده ففسخ نكاحه ؛ هذا قول الشافعي والأوزاعي وداود بن علي ، قالوا : لا يجوز إجازة  
المولى إن لم يحضره ؛ لأن العقد الفاسد لا تصح إجازته ، فإن أراد النكاح استقبله على سئته .  
وقد أجمع علماء المسلمين على أنه لا يجوز نكاح العبد بغير إذن سيده . وقد كان ابن عمر يئد  
العبد بذلك زانياً ويحجته ؛ وهو قول أبي ثور . وذكر عبد الرزاق عن عبد الله بن عمر عن  
نافع عن ابن عمر ، وعن معمر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر أنه أخذ عبداً له نكح بغير إذنه  
فضربه الحد وتزوج بينهما وأبطل صداقها . قال : وأخبرنا ابن جريح عن موسى بن عقبة أنه  
أخبره عن نافع عن ابن عمر أنه كان يرى نكاح العبد بغير إذن وليه زناً ، ويرى عليه الحد ،

ومناقب الذين أنكحوهما . قال : وأخبرنا ابن جريح عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال سمعت جابر بن عبد الله يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّمَا عَيْدٍ نَكَحَ بَغِيرَ إِذْنِ سَيِّدِهِ فَهُوَ طَائِرٌ » . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو نكاح حرام ؛ فإن نكح بإذن سيده فالطلاق بيد من يستعمل الفرج . قال أبو عمر : هل هذا مذهب جماعة فقهاء الأمصار بالمجاز والعراق ، ولم يختلف عن ابن عباس أن الطلاق بيد السيد ؛ وتابعه على ذلك جابر بن زيد وقرقة ، وهو عند العلماء شذوذ لا يرجح عليه ، وأظن ابن عباس تأول في ذلك قول الله تعالى : « حَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا هَبْأَ تَلَوَّكَ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ » . وأجمع أهل العلم على أن نكاح العبد جائز بإذن مولاه ؛ فإن نكح نكاحا فاسدا فقال الشافعى : إن لم يكن دخل فلا شيء لها ، وإن كان دخل فعليه المهر إذا عتي ، وهذا هو الصحيح من مذهبه ، وهو قول أبي يوسف ومحمد لا مهر عليه حتى يبتق . وقال أبو حنيفة : إن دخل بها فلها المهر . وقال مالك والشافعى : إذا كان عبدا بين رجلين فأذن له أحدهما في النكاح فنكح فالنكاح باطل ، فاما الأمة إذا آذنت أهلها في النكاح فأذنوا جاز ، وإن لم تباشر العقد لكن تَوَلَّى من يعقده عليها .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ( وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ ) دليل على وجوب المهر في النكاح ، وأنه للأمة . ( بِالْمَعْرُوفِ ) معناه بالشرع والسنة ، وهذا يقتضى أنهم أحق بمهورهن من السادة ، وهو مذهب مالك . قال في كتاب الزهون : ليس للسيد أن يأخذ مهر أمته ويُدَّعِها بلا جهاز . وقال الشافعى : الصداق للسيد ؛ لأنه عوض فلا يكون للأمة . أصله إجازة المنفعة في الرقبة ، وإنما ذكرت لأن المهر وجب بسببها . وذكر القاضي إسماعيل في أحكامه : زعم بعض العراقيين إذا زوج أمته من عبده فلا مهر . وهذا خلاف الكتاب والسنة وأظن فيه .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ( مَحْصَنَاتٍ ) أى عفاف . وقرأ الكسائى « مَحْصِنَاتٍ » بكسر الصاد في جميع القرآن ، إلا في قوله تعالى : « وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ النِّسَاءِ » . وقرأ الباقون بالنصب في جميع القرآن . ثم قال : ( قَبْرُ سَلْحَاتٍ ) أى قيرزوان ، أى مثليات الزنا ؛ لأن أهل الجاهلية كان فيهم الزواني في العلانية ، ولهن رايات منصوبات كراية البيطار .



(وَلَا مُتَعَدَاتٍ أَخْدَانٍ) إصداقاً على الفاحشة، واجتمع خُذْنِ وَخُذْنِ، وهو الذي يناديك، ورجل خُذْنِي، إذا اتخذ أخداً أى أصحاباً، عن أبي زيد: المسابقة المحامرة بالزنا، أى التى تتركى نفسها لذلك. وذات الخُذْنِ هى التى ترمى سراً. وقيل: المسابقة المبدولة. وذات الخُذْنِ التى ترمى بواحد. وكانت العرب تسيب الإعلان بالزنا، ولا تسيب اتخذ الأخدان، ثم رفع الإسلام جميع ذلك؛ وفي ذلك نزل قوله تعالى: «وَلَا تَقْرُبُوا الْقَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ»؛ عن ابن عباس وغيره.

الرابعة عشرة — قوله تعالى: (لَإِنَّا أَحْصَيْنَا) قراءة طاصم وحزمة والكسائي: بفتح الحزمة. الباقون بضمها. فبالفتح يشناه أسلمن، وبالضم زُوجن. فإذا زنت الأمة المسلمة جلدت نصف جلد الحرة؛ وإسلامها هو إحصانها في قول أبيههور: ابن مسعود والشعبي والأزهري وغيرهم. وعليه فلا تُحد كافرة إذا زنت؛ وهو قول الشافعي فيما ذكر ابن المنذر. وقال آخرون: إحصانها التزوج بجزء؛ فإذا زنت الأمة المسلمة التى لم تتزوج فلا حد عليها، قاله سعيد بن جبير والحسن وقتادة، وروى عن ابن عباس وأبي العرداء، وبه قال أبو عبيد. قال: وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن حد الأمة فقال: إن الأمة ألفت قرة رأسها من وراء الدار. قال الأصمى: الفسوة جلدة الرأس. قال أبو عبيد: وهو لم يرد القرة بينها، وكيف تُلقى جلدة رأسها من وراء الدار، ولكن هذا مثل! إنما أراد بالقرة الفتناء، يقول: ليس عليها فتاع ولا حجاب، وأنها تخرج إلى كل موضع يرسلها أهلها إليه، لا تقدر على الامتناع من ذلك؛ فتصير حيث لا تقدر على الامتناع من الفجور، مثل رعاية النعم وأداء الضريبة ونحو ذلك؛ فكانه رأى ألا حد عليها إذا فحرت لهذا المعنى. وقالت فرقة: إحصانها التزوج، إلا أن الحد واجب على الأمة المسلمة غير المتروجة بالسنة؛ كما في صحيح البخاري ومسلم أنه قيل: يا رسول الله، الأمة إذا زنت ولم تُحصن؟ فأوجب عليها الحد. قال الأزهري: بالمتروجة محدودة بالقرآن، والمسلمة غير المتروجة محدودة بالحديث. قال القاضي إسماعيل في قول من قال: إِنَّا أَحْصَيْنَا اسلمن؛ بعده؛ لأن ذكر

الإيمان قد تقدم حتى في قوله تعالى « مِنْ شِيَابِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ » . وأما من قال : إذا أحصن تزوجن ، وأنه لا حد على الأمة حتى تروج ، فإنهم ذهبوا إلى ظاهر القرآن وأحسبهم لم يلبسوا هذا الحديث . والأمر عندنا أن الأمة إذا زنت وقد أحصنت مجلدة بكاتب الله ، وإذا زنت ولم تحصن مجلدة بحديث النبي صلى الله عليه وسلم ولا رجم عليها ، لأن الرجم لا يتنصف . قال أبو عمر : ظاهر قول الله عز وجل يقتضي ألا حد على أمة وإن كانت مسلمة إلا بعد التروج ، ثم جاءت السنة بجلدها وإن لم تحصن ، فكان ذلك زيادة بيان .

قلت : ظهر المؤمن حتى لا يسباح إلا بيقين ، ولا يقين مع الاختلاف ، لولا ما جاء في صحيح السنة من الجلد في ذلك . والله أعلم . وقال أبو توفيق ذكر ابن المنذر : وإن كانوا اختلفوا في رجمها فإنهما يرجحان إذا كانا محصنين ، وإن كان إجماع فالإجماع أولى .

الخامسة عشرة — وأختلف العلماء فيمن يُقيم الحد عليهما ؛ فقال ابن شهاب : مضت السنة إن يُحد العبد والأمة أهلوجم في الزنا ، ألا أن يُرفع أمرهم إلى السلطان فليس لأحد أن يفتات عليه ، وهو مقتضى قوله عليه السلام : « إذا زنت أمة أحديكم فليجلدها الحد » . وقال علي رضي الله عنه في خطبته : يا أيها الناس ، أقيموا على أرفاقكم الحد ، من أحصن منهم ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم زنت فأمرني أن أجلدها ، فإذا هي حديث عهد بنفاس ، فحشيت إن أنا جلستها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « أحسنت » . أخرجه مسلم موقوفا عن علي . وأسند النسائي وقال فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقيموا الحدود على ما ملكت إيمانكم من أحصن منهم ومن لم يحصن » . وهذا نص في إقامة السادة الحدود على المالك من أحصن منهم ومن لم يحصن . قال مالك رضي الله عنه : يُحد المولى عبده في الزنا وشرب الخمر والقذف إذا شهد عنده الشهود بذلك ، ولا يقطعه في السرقة ، وإنما يقطعه الإمام ؛ وهو قول الليث . وروى عن جماعة من الصحابة أنهم أقاموا الحدود على عبيدهم ، منهم ابن عمر وأبى ، ولا مخالف لهم من الصحابة . وروى عن ابن أبي ليلى أنه قال : أدركت بغايا الأنصار يضربون الوليدة من ولائتهم إذا

زنت في مجالسهم . وقال أبو خنيفة : يقيم الجندود على العبيد والإماء السلطان ذنون المولى في الزنا ونسائ الجندود ؛ وهو قول الحسن بن علي . قال الشافعي : يحسد المولى في كل حد ويقطعه ؛ واحتج بالأحاديث التي ذكرنا . وقال الثوري والأوزاعي : يحسد في الزنا ؛ وهو مقتضى الأحاديث ، والله أعلم . وقد مضى القول في تقريب العبيد في هذه السورة .

السادسة عشرة — فإن زنت الأمة ثم حقت قبل أن يحدها سيدها لم يكن له سبيل إلى حدها ، والسلطان يملكها إذا ثبت ذلك عنده ؛ فإن زنت ثم تزوجت لم يكن لسيدها أن يملكها أيضا لحق الزوج ؛ إذ قد يضره ذلك . وهذا مذهب مالك إذا لم يكن الزوج ملكا للسيد ، فلو كان ، جاز للسيد ذلك لأن حقهما حقه .

السابعة عشرة — فإن أقر العبد بالزنا وأنكره المولى فإن الحد يجب على العبد لإقراره ، ولا تنفك لما أنكره المولى ، وهذا يجمع عليه بين العلماء . وكذلك المدبر وأم الولد والمكاتب والمعتق بعضه . وأجمعوا أيضا على أن الأمة إذا زنت ثم أعصت حُتت حد الإمام ؛ وإذا زنت وهي لا تعلم بالعتق ثم علمت وقد حُتت عليها تمام حد الحرة ؛ ذكره ابن المنذر .

الثامنة عشرة — واختلقوا في عفو السيد عن عبده وأمنته إذا زنيا ؛ فكان الحسن البصري يقول : له أن يعفو . وقال غير الحسن : لا يسهه إلا إقامة الحد ؛ كما لا يسهه السلطان أن يعفو عن حد إذا علمه ، لم يسه السيد كذلك أن يعفو عن أمته إذا وجب عليها الحد ؛ وهذا مذهب أبي ثور . قال ابن المنذر : وبه نقول .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : (فَلْيَنْصِفْ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ) أي الجلد . وبني بالمحصنات هاهنا الأبيكار الحرائر ؛ لأن الثيب عليها الرجم والرجم لا يقتص ، وإنما قيل للبر حصنة وإن لم تكن متروجة لأن الإحصان يكون بها ؛ كما يقال : أخصية قبل أن يعضي بها ؛ وكما يقال للبقرة بثيرة قبل أن تُشِير . وقيل : «المحصنات» المتزوجات ؛ لأن عليها الضرب والرجم في الحديث ، والرجم لا يقتص فصار عليهن نصف الضرب . والفائدة في قصصنا حدتهن أنهن أضعف من الحرائر . ويقال : إثنين لا يصلن إلى مرادهن كما تعمل الحرائر . وقيل :

لأن العورة يجب على قدر النعمة ألا ترى أن الله تعالى قال لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم : **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَافَنَّ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** ، فلما كانت نعمتهن أكثر جعل عقوبتهن أشد ، وكذلك الإمام لما كانت نعمتهن أقل فعقوبتهن أقل .  
 وذكر في الآية حد الإمام خاصة ولم يذكر حد العبد ؛ ولكن حد العبد والإمام سواء : نحو من جللة في الزنا ، وفي القذف وشرب الخمر أربعون ؛ لأن حد الأمة إنما قص لشهوان الرق فدخل المذكور من العبد في ذلك بطله الملوكية ، كما دخل الإمام تحت قوله عليه السلام : **"مَنْ أَحْبَبَ شَرَّكَاهُ فِي عَيْدٍ"** . وهذا الذي يسميه العلماء القياس في معنى الأصل ؛ ومنه قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ"** الآية . فدخل في ذلك المحصنين قطعا ، على ما يأتي بيانه في سورة «التور» إن شاء الله تعالى .

المؤنة عشرين — وأجمع العلماء على أن بيع الأمة الزانية ليس بواجب لازم على ربها ، وإن اختاروا له ذلك ؛ لقوله عليه السلام : **"إِذَا زَوَّتْ أَمَةٌ أَحَدَكُمْ فَتَيْنَ زَانَا فليجلدها الحد ولا يقرب عليها ثم إن زَوَّتْ فليجلدها الحد ولا يقرب عليها ثم إن زَوَّتْ الثالثة فتَيْنَ زَانَا فليقمها ولو بعيل من شَرٍّ"** . أخرجه مسلم عن أبي هريرة . وقال أهل الظاهر بوجوب بيعها في الزانية . منهم داود وغيره ؛ لقوله : **"فليقمها"** وقوله : **"ثم يبيعها ولو بضعير"** . قال ابن شهاب : فلا أدري جد الثالثة أو الرابعة ؛ والضعير الحبل . فإذا باعها عَرَفَ زَانَا لأنه يجب فلا يحل أن يكم . فإن قيل : إذا كلفه مقصود الحديث إبعاد الزانية ووجب على بائعها التعريف بزناها فلا ينبغي لأحد أن يشتريها لأنها مما قد أمر بإبعادها . فالجواب أنها مال ولا تضاع ؛ للنهي عن إضاعة المال ، ولا كسبه لأن ذلك إغراء لها بالزنا وتمكين منه ، ولا تحبس دائما فإن فيه تعطيل مضتها على سيدها فلم يبق إلا بيعها . ولعل سيدها الثاني ينفها بالوطء أو يبالغ في التحرز فيمنعها من ذلك . وعلى الجملة فمقد تبذل الملاك يختلف عليها الأحوال . ولله أعلم .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي الصبر على المكارم الإجمالية خير من نكاح الأمة ؛ لأنه يفضي إلى إرفاق الولد ، والنقص من النفس والصبر على مكارم الإحلاق أولى من البذلة . وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : أياكم خير زوج أمة فقد أربى نصفه .  
يبنى بصبر ولده رقيقا ، فالصبر عن ذلك أنفصل لئلا يرق الولد . وقال سعيد بن جبير : ما نكاح الأمة من الزنا إلا قريب ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، أي عن نكاح الإماماء . وفي سنن ابن ماجه عن الضحاك بن مزاحم قال : سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” من أراد أن يلقى الله طاهرا مطهرا فليزوج الحرائر “ .  
ورواه أبو إسحاق التلمی عن حذیث یونس بن مَرْدَاس ، وكان خادما لأنس ، وزاد : فقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” الحرائر صلاح البيت والإمام هلاك البيت — أو قال — فساد البيت “ .

قوله تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ الصَّافِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَرِّئٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٠٩﴾

اى لیبین لکم امر دینکم ومصالح امریکم ، وما یحل لکم وما یحرم علیکم . وذلك یدل علی امتناع خلق واقعة عن حکم الله تعالى ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا فُرِطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » صلی ما یأتی . وقال بعد هذا « یُریدُ اللهُ اَنْ یُخَفِّفَ عَنْکُمْ » بقاء هذا « بَانَ » والاول باللام . فقال الفراء : العرب تعاقب بین لام کی وأن ؛ فتأی باللام التي علی معنى « کی » فی موضع « أن » فی أردت وامریت ؛ فيقولون : أردت أن تفعل ، وأردت لتفعل ؛ لأنهما یطلبان المستقبل . ولا يجوز ظننت لتفعل ؛ لأنک تقول ظننت أن قد فتمت . وفي التثنية « وَأُمرْتُ لِأَعِدَلْ بَیْنَهُمْ » . « وَأُمرْنَا لِنُسَلِّمَ رَبَّ الْعَالَمِیْنَ » . « یُریدُونَ لِیُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ » . « یُریدُونَ أَنْ یُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ » . قال الشاعر :

(۱) عبارة سيد بن جبير کافی تفسير الطبري : « ما ازلخف فأكح الأمة عن الزنا إلا غلبا » ، ای ما تخی

وما تاعد . (٢) هو كنيسة صخرة .

أريد لأتقى : زوجها فكانما . تتل لي يَسْتَلِي بكل سليل

يريد أن أنسى . قال النحاس : وخطأ الزجاج هذا القول وقال : لو كانت اللام بمعنى « أن » لدخلت عليها لام أخرى ؛ كما تقول : جئت كي تكبرني ، ثم تقول جئت لكي تكبرني . وأنشدنا : أردت لكيما يعلم الناس أنها . سراويل قيس والوجود شهود

قال : والتقدير أراد به ليبين لكم . قال النحاس : وزاد الأمر على هذا حتى سماها بعض انقراء لام أن ؛ وقيل : المعنى يريد الله هذا من أجل أن يبين لكم .

( وَيَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ) أي من أهل الحق . وقيل : معنى « يهديكم » يبين لكم طرق الذين من قبلكم من أهل الحق وأهل الباطل . وقال بعض أهل النظر : في هذا دليل على أن كل ما حرم الله قبل هذه الآية علينا فقد حرم على من كان قبلنا . قال النحاس : وهذا غلط ؛ لأنه يكون المعنى وبين لكم أمر من كان قبلكم عن كان يحسب ما نهى عنه : وقد يكون بين لكم كما بين لمن قبلكم من الأنبياء فلا يؤتى به إلى هذا بعينه . ويقال : إن قوله « يريد الله » ابتداء القصة ، أي يريد الله أن يبين لكم كيفية طاعته . « ويهديكم » يوفىكم « سنن الذين من قبلكم » أنهم لما تركوا أمرى كيف ياقبهم . وأتم إذا علمت ذلك لا أمانكم ولكنى أتوب عليكم . ( والله عليم ) بن تائب ( حكيم ) بقبول التوبة .

قوله تعالى : ( وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ) (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)

قوله تعالى : ( وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ) ابتداء وخبر . و « أن » في موضع نصب يريد ، وكذلك « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْكُمْ » ؛ فإن يخفف في موضع نصب يريد ؛ والمعنى :

(١) طبت قيس بن حبان ، رحمه :

وأقولوا غاب قيس رحمه . سراويل عادى نفسه ثمرد

قال ابن سيده : بلغنا أن قيس طارده ورهبان بنى حبارية أرفقه من الأمراء فجرد قيس من سراويله وألقاه إلى الردي فضلت عنه ؛ فقال هذين البيتين ينذر من إلقاء سراويله في المشهد المجموع . ( عن الحسن مادة « مرل » ) .

يريد توبيخكم، أى قبلها فيتجاوز عن توبيخكم ويريد التخفيف عنكم . قيل : فى جميع أحكام الشرع، وهو الصحيح . وقيل : المراد بالتخفيف تكاح الأمة، أى لما علمنا ضعفكم عن الضرب عن النساء خفتنا عنكم بإباحة الإمام؛ قاله مجاهد وابن زيد وطاوس . قال طاوس : ليس يكون الإنسان فى شيء أضعف منه فى أمر النساء . وأختلف فى تعيين التبيين للشهوات؛ فقال مجاهد : هم الزناة . السدى : هم اليهود والنصارى . وقالت فرقة : هم اليهود خاصة ؛ لأنهم أرادوا أن يقيمهم المسلمون فى تكاح الأخوات من الأب . وقال ابن زيد : ذلك حل العوم، وهو الأصح . والميل : العدول عن طريق الاستواء؛ فمن كان عليها أحب أن يكون أمثاله عليها حتى لا يلحقه معزة .

قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ نصب على الحال؛ والمعنى أن هواه يستميله وشهوته وغضبه يستغفانه؛ وهذا أشد الضعف فأحتاج إلى التخفيف . وقال طاوس : ذلك فى أمر النساء خاصة . وروى عن ابن عباس أنه قرأ « وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا » أى وخلق الله الإنسان ضعيفا، أى لا يصبر عن النساء . قال ابن المسيب : لقد أتى على ثمانون سنة وذهبت إحدى عيني وأنا أعشوا الأخرى وصاحي أعمى أصم - يعنى ذكره - وإلى أخاف من قننة النساء . ونحوه عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، قال عبادة : ألا تروني لا أقوم إلا رفقا ولا أكل إلا ما لوق لي - قال يحيى : يعنى لئن ومحن - وقد مات صاحبي منذ زمان - قال يحيى : يعنى ذكره - وما يسرني أني خلوت بأمرأة لا تحمل لي، وأن لي ما تطلع عليه الشمس مخافة أن يأتيني الشيطان فيحركه، على أنه لا سمع له ولا بصر ! .

قوله تعالى : يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحَبْرَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٦﴾

فيه تسع مسائل :  
 الأول - قوله تعالى : ( **وَالْبَاطِلُ** ) أى بغير حق . ووجه ذلك تكبر على ما بيناه ؛  
 وقد قدمنا غفلة في البقرة . **وَمِنَ أكل المال بيع المرئان** ؛ وهو أن يأخذ منك السلعة  
 أو يكتري منك الدابة ويعطيك درهما فما فوقه ، على أنه إن اشتراها أو ركب الدابة فهو من  
 ثمن السلعة أو كراه الدابة ؛ وإن ترك ابتاع السلعة أو كراه الدابة لما أعطاك فهو لك .  
 فهذا لا يصلح ولا يجوز عند جماعة فقهاء الأمصار من المجازين والعراقيين ، لأنه من باب  
 بيع القيل والقرر والمخاطرة ، وأكل المال بالباطل بغير عوض ولا هبة ، وذلك باطل بإجماع .  
 وبيع المرئان منسوخ إذا وقع على هذا الوجه قبل القبض وبعده ، وترد السلعة إن كانت  
 قائمة ، فإن فانت رد قيمتها يوم قبضها . وقد روى عن قوم منهم ابن سيرين ومجاهد ونافع  
 ابن عبد الحارث وزيد بن أسلم أنهم أجازوا بيع المرئان على ما وصفنا . وكان زيد بن أسلم  
 يقول : أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو عمر : هذا لا يعرف عن النبي صلى الله  
 عليه وسلم من وجه يصح ، وإنما ذكره عبد الرزاق عن الأسلمي عن زيد بن أسلم **مُرْسَلًا** ؛  
 وهذا مثله ليس حجة . ويحتمل أن يكون بيع المرئان الجائز على ما نأوله مالك والفقهاء معه ؛  
 وذلك أن **مُرْتَبَه** ثم يحسب **عُرْيَانَه** من الثمن إذا اختار تمام البيع . وهذا لا خلاف في جوازه  
 عن مالك وغيره . وفي موطن مالك عن الثقة عنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع المرئان . قال أبو عمر : قد تكلم الناس في الثقة  
 عنده في هذا الموضع ، وأشبه ما قيل فيه أنه أخذه عن ابن أبي عمير أو عن ابن وهب عن  
 ابن أبي عمير ، لأن ابن أبي عمير سمعه من عمرو بن شعيب ورواه عنه . حدث به عن ابن أبي عمير  
 ابن وهب وغيره ، وابن أبي عمير أحد العلماء إلا أنه يقال : إنه احترق كتبه فكان إذا حدث  
 بعد ذلك من حفظه غلط . وما رواه عنه ابن المبارك وابن وهب فهو عند بعضهم صحيح .  
 ومنهم من يضعف حديثه كله ، وكان عنده علم واسع وكان كثير الحديث ، إلا أن حاله عندهم  
 كما وصفنا .



التائسنة - قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ) هذا استثناء منقطع ، أى ولكن تجارة عن تراض . والتجارة هى البيع والشراء ؛ وهذا مثل قوله تعالى : « وَأَسْأَلُ اللَّهَ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا » على ما تقدم . وقرئ « تجارة » ، بالرفع أى إلا أن تقع تجارة ؛ وعليه أشد سبويه :

فَدَى لِيْنِي دُعَلِي بْنِ شَيْبَانَ نَاقِي \* إِنْ كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبِ أَشْهَبُ

وتسمى هذه كان التامة ؛ لأنها تمت بفاعها ولم تحتاج إلى مفعول . وقرئ « تجارة » بالنصب ؛ فتكون كان ناقصة لأنها لا تتم بالاسم دون الخبر ، فاسمها مضمر فيها ، وإن شئت قدرته ؛ أى إلا أن تكون الأموال أموال تجارة ؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وقد تقدم هذا ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِنْ كُنْ ذُو عُسْرَةٍ » .

الثالثة - قوله تعالى : (تِجَارَةً) التجارة فى اللغة عبارة عن المعاوضة ؛ ومنه الأجر الذى يعطيه البارئ سبحانه المبدى عوضاً عن الأعمال الصالحة التى هى بعض من فعله ؛ قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ » . وقال تعالى : « يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ » . وقال تعالى : « إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمُ الْآيَةَ ، فَسَى ذَلِكَ كُلَّهُ بَيْعًا وَشَرَاءً عَلَى وَجْهِ الْمُبَايَعَةِ ، تشبهها بقعود الأشرية واللياقات التى تحصل بها الأغراض ، وهو نوعان : حَقَبٌ فى الحضر من غير قِيلة ولا سفر ، وهذا تَرْبُصٌ واحتكاك قد يرغب عنه أولو الأنداد وزيد فيه ذُورُ الأخطار . والثانى حَقَبُ المسال بالأسفار ونقله إلى الأمصار ، وهذا البقي بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة ، غير أنه أكثر خطراً وأعظم غرراً . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المسافر وماله لعلَّ قَلَّتْ إلا ما وَقَى الله » . يعنى على خطر . وقيل : فى التوراة يا بن آدم ، أُحْدِثْ سَفَرًا أُحْدِثْ لَكَ رِزْقًا ، الطبرى : وهذه الآية أدل دليل على فساد قول ... (١٢)

(١) نسب صاحب السان هذه العبارة إلى أعرابي - راجع مادة (قلت) - . واقلت بالتحريك الملاك .

(٢) بياض الأسرول - والذى فى الطبرى : « فى هذه الآية إيالة من الله تعالى ذكره عن تكذيب قول الجبهة المنصرة المتكرين طلب الأثوات بالتجارة والصلوات والله تعالى يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ » اكتساباً أحل ذلك لها . راجع الطبرى فى تفسير الآية وسياق فى ص ١٥٦

الراصة نتعلم أن كل معاوضة تجارة على أى وجه كانت العوض ، إلا أن قوله « بِالْبَاطِلِ » أخرج منها كل عوض لا يجوز شرعا من رباً أو جهالة أو تقدير عوض فاسد كالخمر والتعديرو وغير ذلك . وخرج منها أيضا كل عقد جائز لا عوض فيه ، كالقرض والصدقة والمبة لا للثواب . وجازت عقود التبرعات بأدلة أخرى مذكورة في مواضعها . فهذان طرفان متفق عليهما . وخرج منها أيضا دعاء أخيك إياك إلى طعامه . روى أبو داود عن ابن عباس في قوله تعالى : « لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ » فكان الرجل يبيع أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية ؛ فنسخ ذلك بالآية الأخرى التي في « النور » ؛ فقال : « لَيْسَ عَلَى الْاَتَمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْاَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى اَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ » إلى قوله « أَشْتَاتًا » ؛ فكان الرجل النقي يدعو الرجل من أهله إلى طعامه فيقول : إني لأجتنع أن أكل منه - والتجتنع التجرج - ويقول : المسكين أحق به بئى . فاحتل في ذلك أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وأحل ما دام أهل الكلب .

الخامسة - لو أشتريت من السوق شيئا ؛ فقال لك صاحبه قبل الشراء : ذقه وأنت في حل ؛ فلا تأكل منه ، لأن إذنه بالأكل لأجل الشراء ، فربما لا يقع بينكما شراء فيكون ذلك الأكل شبهة ، ولكن لو وصف لك حصة فأشتريته فلم تجده على تلك الصفة فانت بالخيار .

السادسة - والجمهور على جواز التبن في التجارة ؛ مثل أن يبيع رجل ياقوته بدرهم وهي تساوي مائة فذلك جائز ، وأن المساك الصحيح الملك جائزه أن يبيع ماله الكثير بالثافة اليسيرة ، وهذا ما لا اختلاف فيه بين العلماء إذا عرف قدر ذلك ، كما تجوز المبة لو وهب . واختلفوا فيه إذا لم يعرف قدر ذلك ؛ فقال قوم : عرف قدر ذلك أو لم يعرف فهو جائز إذا كان رشيدا حرا بالنا . وقالت فرقة : التبن إذا تجاوز الثلث مردود ، وإنما أبيع منه المتعارف المتعارف في التجارات ، وأما المتفاحش الفادح فلا ؛ وقاله ابن وهب من أصحاب

مالك . والأوّل أصح ؛ لقوله عليه السلام في حديث الأئمة الزائنية "فليعها ولد يصفير" وقوله عليه السلام لعمر "لا تبته - يعني أغرس - ونو أعطاك بدينهم واحد" وقوله عليه السلام : "دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض" وقوله عليه السلام : "لا يبيع حاضر لباد" (١) وليس فيها تفصيل بين القليل والكثير من ثلث ولا غيره .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ عَنْ تَرَاثُيْكُمْ ﴾ أي عن رضا ، إلا أنها جاءت من الفاعلة إذ التجارة من اثنين . وأختلف العلماء في التراضي ؛ فقالت طائفة : تمامه وجزؤه باقراق الأبدان بعد عقدة البيع ، أو بأن يقول أحدهما لصاحبه : اشتري ؛ فيقول : قد اشترت ، وذلك بعد المقدّة أيضا فينجزم أيضا وإن لم يتفرقا ؛ قاله جماعة من الصحابة والتابعين ، وبه قال الشافعي والثوري والأوزاعي والليث وابن عيينة وإسحاق وغيرهم . قال الأوزاعي : هما بالخيار ما لم يتفرقا ؛ إلا يبيعوا ثلاثة : يبيع السلطان المغنم ، (الشركة في الميراث ، والشركة في التجارة ؛ فإذا صافقه في هذه الثلاثة فقد يجب البيع ولبسا فيه بالخيار ، قال : زحّد الفرقة أن يتراوى كل واحد منهما عن صاحبه ؛ وهو قول أهل الشام . وقال الليث : التفريق أن يقوم أحدهما . وكان أحمد بن حنبل يقول : هما بالخيار أبدا ما لم يتفرقا بأبدانهما ، وسواء فلا اختراؤ لم يقوله حتى يفرقا بأبدانهما من مكانهما ؛ وقاله الشافعي أيضا . وهو الصحيح في هذا الباب للأحاديث الواردة في ذلك ، وهو مروى عن ابن عمر وأبي بركة وجماعة من العلماء . وقال مالك وأبو حنيفة : تمام البيع هو أن يعقد البيع بالأكسة فينجزم العقد بذلك ويرتفع الخيار . قال محمد بن الحسن : معنى قوله في الحديث "إليّ بالخيار ما لم يتفرقا" أن البائع إذا قال قد منك فله أن يرجع ما لم يدل المشتري قد قبلت ؛ وهو قول أبي حنيفة ، ونصّ مذهب مالك أيضا ، حكاه ابن خويزمנדاد . وقيل : ليس له أن يرجع . وقد مضى في «البقرة» . احتج

(١) الخاضر : الخيم في المدن والقرى . والبادي : الخيم بالواو . والمتن : أنه ، البدوي بلدة وسوق في السباع إلى بيته وخجما ؛ فيقول له الحضري : أتركه عندي لأتلى في بيته . فهذا الصنيع محرم . (١) فيه من الإضرار بالتفسير . والبيع إذا جرى مع المسألة منقذ . وسئل ابن عباس عن مسر الخديت فقال : لا يكون له مسنارا .

(٢) رابع ج ٣ ص ٣٥٧ طبة أول أدلة

الأولون ثمانية من حديث حمزة بن جندب وأبي هريرة وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاصي وأبي هريرة وحكيم بن حزام وغيرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم "الييمان بالخيار ما لم يتفرقا" أو يقول أحدهما لصاحبه اختار، رواه أيوب عن نافع عن ابن عمر، وقوله عليه السلام في هذه الرواية "أو يقول أحدهما لصاحبه اختار" هو معنى الرواية الأخرى "الإياع بالخيار" وقوله "إلا أن يكون بينهما عن خيار" ونحوه . أتى يقول أحدهما بعد تمام البيع لصاحبه : اختار إتخاذ البيع أو نسخه ؛ فإن اختار إمضاء البيع تم البيع بينهما وإن لم يتفرقا . وكان ابن عمر وهو راوى الحديث إذا باع أحدا وأحب أن ينفذ البيع متى قليلا ثم رجع . وفي الأصول أن من روى حديثا فهو أعلم بتأويله لاسيما الصحابة إذ هم أعلم بالمقال وأقعد بالحال . وروى أبو داود والدارقطني عن أبي الوضئ<sup>(١)</sup> قال : كنا في سفر في عسكرة فأتى رجل معه فرس فقال له رجل منا : أتبيع هذا الفرس بهذا النلام ؟ قال نعم ؛ فباعه ثم بات معنا ، فلما أصبح قام إلى فرسه ، فقال له صاحبا : مالك والفرس ! ليس قد يشتينا ؟ فقال : مالى في هذا البيع من حاجة . قال : مالك ذلك ، لقد بعنى . فقال لهما القوم : هذا أبو هريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتياه ؛ فقال لهما : أترضيان بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالا نعم . فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الييمان بالخيار ما لم يتفرقا" وإنى لأراكما افرقا . فهذان صحابيان قد علما مخرج الحديث وعملا بمقتضاه ، بل هذا كان عمل الصحابة . قال سالم قال ابن عمر : كنا إذا تبايعنا كان كل واحد منا بالخيار ما لم يتفرقا المتبايعان . قال : فتبايعت أنا ومضان فبعت مالى بالوادى بمال له بغيره ؛ قال : فلما بعت طيفت أنكس الله هقرى ، خشية أن يرادنى عثمان البيع قبل أن أفرقه . أنكره الدارقطني ثم قال : إن أهل اللغة فرقوا بين فرقت عققا وفرقت مثقلا ؛ فعملوه بالتخفيف في الكلام وبالتثقل في الأبدان . قال أحمد بن يحيى فملأ أخبرني ابن الأعرابي عن المفضل قال : يقال فرقت بين الكلامين عققا فافترقا ؛ وفرقت بين اثنين مشددا ففترقا ؛ فجعل الافتراق في الفصول ، والتفرق في الأبدان .

(١) أبو الوضئ (فتح الواء وكسر الميم المقتطفه حموز) : عباد بن نسيب . (عن التذييل) .

احتجت المسالكية بما تقدم بشأنه في آية الدين ، وبقوله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ »  
وهذان قد تناقضا . وفي هذا الحديث إبطال الوفاء بالعقود . قالوا : وقد يكون التفريق  
بالقول كمقد النكاح ووقوع الطلاق الذي سماه الله فراقا ، قال الله تعالى : « وَإِنْ يَتَفَرَّقَا  
يُتَيْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَمْعِهِ » وقال تعالى : « وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُفْرِقِينَ » وقال عليه السلام  
« تَفْتَرِقُ أُنْتَى » ولم يقل بأبدانها . وقد روى المارقون وغيره عن عمرو بن شعيب قال  
سمعت شعيبا يقول سمعت عبد الله بن عمرو يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :  
« إِنَّمَا رَجُلٌ آتَبَعَ مِنْ رَجُلٍ بِمِثْلِهِ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ حَتَّى يَتَفَرَّقَا مِنْ مَكَانِهِمَا إِلَّا أَنْ  
تَكُونَ صَفْقَةً خِيَارٍ وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِهِمَا أَنْ يَخَارِقَ صَاحِبَهُ غَافَةً أَنْ يَقُولَهُ » . قالوا : فهذا يدل  
على أنه قد تم البيع بينهما قبل الافتراق ؛ لأن الإقالة لا تصح إلا فيما قد تم من البيع .  
قالوا : ومعنى قوله « المتبايعان بالخيار » أى المتساومان بالخيار مالم ينفذا فإذا عقدا بطل الخيار  
فيه . والجواب — أنما ما اعتلوا به من الافتراق بالكلام فإنما المراد بذلك الأديان كما يظه  
ر في « آل عمران » ، وإن كان صحيحا في بعض المواضع فهو في هذا الموضع غير صحيح . ويانه  
أن يقال : خبرونا عن الكلام الذى وقع به الاجتماع وتم به البيع ، أم الكلام الذى أريد به  
الافتراق أم غيره ؟ فإن قالوا : هو غيره فقد أسألوا وجابوا بما لا يقبل ، لأنه ليس تم الكلام  
ففي ذلك الكلام ، وإن قالوا : هو ذلك الكلام بينه قبل لم : كيف يجوز أن يكون الكلام  
الذى به أجمعا وتم به بينهما . به افتراقا ، هذا حين الحال والفاسد من القول . وأما قوله :  
« وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَخَارِقَ صَاحِبَهُ غَافَةً أَنْ يَقُولَهُ » فمناه — إن صح — على التنب ، بدليل قوله  
عليه السلام « مَنْ أَقَالَ سَلَامًا أَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » وبإجماع المسلمين على أن ذلك يحل لقاعه على  
خلاف ظاهر الحديث ، وإجماعهم أنه جائز له أن يخارقه ليغذيه ولا يقبله إلا أن يشاء .  
وفيما أجمعوا عليه من ذلك رد رواية من روى لا يحل ؛ إن لم يكن وبه هذا الخبر التنب ،  
وإلا فهو باطل بالإجماع . وأما تأويل « المتبايعان » بالتساومين فمدول عن ظاهر اللفظ ، وإنما  
مناه المتبايعان بعد عندهما تخيران ما دائما ، مجلسهما ، إلا فيما يقول أحدهما لصاحبه فيه :

اختار فيختار؛ فإن الخيار ينقطع بينهما وإن لم يتفرقا؛ فإن فرض خيار فالمنى: إلا بيع الخيار فإنه يبقى الخيار بعد الفرق بالإبدان. ونظم هذا الباب في كتب الخلاف. وقول عمرو بن شعيب «سمعت أبي يقول» دليل على صحة حديثه؛ فإن الدارقطني قال حدثنا أبو بكر النيسابوري حدثنا محمد بن علي الوراق قال قلت لأحمد بن حنبل: شعيب سمع من أبيه شيئا؟ قال: يقول حديثي أبي. قال قلت: فأبوه سمع من عبد الله بن عمرو؟ قال: نعم؛ أراه قد سمع منه. قال الدارقطني: سمعت أبا بكر النيسابوري يقول: هو عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاصي، وقد سمع سماع عمرو بن شعيب من أبيه شعيب وسماع شعيب من جده عبد الله بن عمرو.

الثامنة - روى الدارقطني عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التاجر الصدوق الأمين المسلم مع الدين والصديقين والشهداء يوم القيامة». ويكره للتاجر أن يخلف لأجل ترويع السلمة وتزيتها؛ أو يصل على النبي صلى الله عليه وسلم في عرض سلعته؛ وهو أن يقول: صلى الله على عبدا ما أجود هذا. ويستحب للتاجر ألا تشغله تجارته عن أداء الفرائض؛ فإذا جاء وقت الصلاة ينبغي أن يترك تجارته حتى يكون من أهل هذه الآية: «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» وسأني.

الثامنة - وفي هذه الآية مع الأحاديث التي ذكرناها ما يرد قول من يشكر طلب الأقوات بالتجارات والصناعات من المتصوفة الجهلة؛ لأن الله تعالى حرم أكلها بالباطل وأحلها بالتجارة؛ وهذا من.

قوله تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) فيه مسألة واحدة - قرأ الحسن «تقتلوا» على التثنية. وأجمع أهل التأويل على أن المراد بهذه الآية النهي أن يقتل بعض الناس بعضا. ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه القتل في الحرص على الدنيا وطلب المال؛

بأن يحمل نفسه على القَرَّار المؤذى إلى التلف . ويحتمل أن يقال : « ولا تقتلوا أنفسكم » في حال ضجر أو غضب ؛ فهذا كله يتناوله انتهى . وقد احتج عمرو بن العاصي بهذه الآية حين امتنع من الاعتسال بالماء البارد حين أجنب في غزوة ذات السلاسل خوفاً على نفسه منه ؛ فقتر النبي صلى الله عليه وسلم احتجاجه وضحك عنده ولم يقل شيئاً . ترجمه أبو دلود وغيره ، وسياتي .

قوله تعالى : وَمَنْ يَقْعِلْ ذَلِكَ عُدُونًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا  
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٠﴾

ذلك إشارة إلى القتل لأنه أقرب مذكور ؛ قاله عطاه . وقيل : هو عائد إلى اكل المال بالباطل وقتل النفس ؛ لأن النهي عنهما جاء متسقاً مسروداً ، ثم ورد الوعيد حسب النهي . وقيل : هو عام على كل ما نهى عنه من القضايا ، من أول السورة إلى قوله تعالى : « وَمَنْ يَقْعِلْ ذَلِكَ » . وقال الطبري : ذلك عائد إلى ما نهى عنه من آخر وعيد ، وذلك قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْفُتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا » لأن كل ما نهى عنه من أول السورة مُرْتَبِن به وعيد ، إلا من قوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ » فإنه لا وعيد بعده إلا قوله « وَمَنْ يَقْعِلْ ذَلِكَ عُدُونًا » . والعدوان تجاوز الحد . والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وقد تقدم . وقيد الوعيد بذكر العدوان والظلم ليخرج منه فعل السهو والغلط ، وذكر العدوان والظلم مع تقارب معانيهما لاختلاف الفاظهما ، وحسن ذلك في الكلام كما قال :  
• وألقى قولها كذباً وميناً •<sup>(١)</sup>

وحسن العطف لاختلاف اللفظين ؛ يقال : بُدِّأَ وَصَحَّفَا ؛ ومنه قول يعقوب : « إِنَّمَا أَشْكُرُ بَنِي وَحَرْنِي إِلَى اللَّهِ » . فحسن ذلك لا خلاف اللفظ . ونَصْلِيهِ ( معناه يمسه حرماً . وقد بينا

(١) راجع المسألة الثالثة عشرة ج ١ ص ٣٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة

(٢) هذا مجزئ لمدى بن زيد ، وصلوه :

• قَسَدَتِ الْأَدِيمُ لِإِسْتِغْنِي •

معنى الجمع ؛ بين هذه الآي وحديث أبي سعيد الخدري في العبادة بأهل الكبائر لمن أنفذ عليه الوعيد ؛ فلا معنى لإعادة ذلك . وقرا الأعمش والنحوي « فضيلة » بفتح النون ، على أنه منقول من صلى نارا ، أي أصليته ؛ وفي الخبر « شاة مصيلة » . ومن ضم النون منقول بالهمزة ، مثل طعمت وأطعمت .

قوله تعالى : **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُهِنُونَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا** ﴿٢٦﴾  
فيه مسائلان :

الأولى - لما نهي تعالى في هذه السورة عن آثام هي كجائر وعد على اجتنبها التخفيف من الصغائر ، ودل هذا على أن في الذنوب كجائر وصغائر . وعلى هذا جماعة أهل التأويل وجماعة الفقهاء ، وأن الآية والنظرة تكفر باجتنب الكبائر قطعاً بوعده الصديق وقوله الحق ، لا أنه يجب عليه ذلك . ونظير الكلام في هذا ما تقدم بيانه في قبول التوبة في قوله تعالى : « **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ** » ، فالله تعالى يغفر الصغائر باجتنب الكبائر ، لكن بضميمة أخرى إلى الاجتناب وهي إقامة الفرائض . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر** » . وروى أبو حاتم البستي في صحيح مسنده عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر ثم قال : « **والذي نفسي بيده ثلاث مرات** » ثم سكت فأكب كل رجل من أي يميني ليمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « **ما من عبد يؤدي الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويحجب الكبائر السبع إلا قُضت له ثمانية أبواب من الجنة يوم القيامة حتى إنها لتصفق** » ثم تلا « **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُهِنُونَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** » . فقد تعاضد الكتاب وصحح السنة بتكفير الصغائر قطعاً كالنظر وشبهه . وبيئت السنة أن المراد « **تجتنبوا** » ليس كل الاجتناب لجميع الكبائر . والله أعلم . وأما الأصوليون فقالوا : لا يجب على القطع تكفير الصغائر باجتنب الكبائر ،



وإنما يحمل ذلك على غلبه الظن وقوة الزعم والمشيئة ثابتة . ودل على ذلك أنه لو قطعنا  
 لمجتنب الكفار وممثل الفرائض تكفير صفاته قطعة لكانت له في حكم المباح الذي يقطع بالا  
 تباعة فيه ، وذلك نقض لمعنى الشريعة ، ولا صغية عندنا . قال القشيري عبد الرحمن :  
 والصحيح أنها كافر ولكن بعضها أعظم وفها من بعض ، والحكمة في عدم التمييز أن يجنب  
 العبد جميع المعاصي .

قلت : وأيضاً فإن من نظر إلى نفس المخالفة كما قال بعضهم : — لا تنظر إلى صغر الذنب  
 ولكن أنظر من عصيت — كانت الذنوب بهذه النسبة كلها كافر ، وعلى هذا التعويذ يخرج  
 كلام القاضي أبي بكر بن الطيب والأستاذ أبي إسحاق الأسفراييني وأبي المعالي وأبي نصر  
 عبد الرحمن القشيري وغيرهم ، قالوا : وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر  
 منها ، كما يقال الزنا صغيرة بإضافته إلى الكفر ، والقبلة المحرمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا ،  
 ولا ذنب عندنا يغفر باجتناب ذنب آخر بل كل ذلك كبيرة ومرتكبه في المشيئة غير الكفر ،  
 لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » واحتجوا بقراءة  
 من قرأ « إن تجتنبوا كبير ما تنهون عنه » على التوحيد ، وكبير الإثم الشرك . قالوا : وعلى الجمع  
 فالمراد أجناس الكفر . والآية التي قيدت الحكم قردت إليها هذه المطلقات كلها قوله تعالى :  
 « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . واحتجوا بما رواه مسلم وغيره عن أبي أمامة أن رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَقْطَعَ حَقَّ أَمْرِي مُسْلِمٌ بِمِثْنَةٍ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ  
 عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » فقال له رجل : يا رسول الله ، وإن كان شيئاً يسيراً ؟ قال : « وإن كان قصصاً من  
 أرائك » . فقد جاء الوعيد الشديد على اليسر كما جاء على الكثير . وقال ابن عباس : الكبيرة  
 كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أولمته أو عذاب . وقال ابن مسعود : الكفار ما نهى الله  
 عنه في هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آية ، وتصديقاً قوله تعالى « إن تجتنبوا كبار ما تنهون  
 عنه » . وقال طاووس : قيل لابن عباس الكبار سبع ؟ قال : هي إلى السبعين أقرب . وقال  
 سعيد بن جبير : قال رجل لابن عباس الكبار سبع ؟ قال : هي إلى السبعائة أقرب منها إلى

السمع؛ غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة منع إصرار. وروى عن ابن مسعود أنه قال :  
 الكِبَارُ أربعة : اليأس من رَوْحِ الله ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ، والشُّرك  
 بالله ؛ دل عليها القرآن . وروى عن ابن عمر : هي تسع : قتل النفس ، وأكل الربا ، وأكل  
 مال اليتيم ، ورعى المحصنة ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ، ولغيرهم من الزحف ، والسحر ،  
 والإلحاد في البيت الحرام . ومن الكِبَار عند العلماء : القمار والمِرْقَة وشرب الخمر وسب  
 السلف الصالح وعدول الحكم عن الحق وإتباع الهوى وإيهين الفاجرة والقنوط من رحمة الله  
 وسب الإنسان أبويه — بأن يسب رجلا فيُسب ذلك الرجل أبويه — والسب في الأرض  
 فسادا — ؛ إلى غير ذلك مما يكثر تعداده حسب ما جاء بيانه في القرآن ، وفي أحاديث خرجها  
 الأئمة ، وقد ذكر مسلم في كتاب الإيمان منها جملة وافرة . وقد اختلف الناس في تعددها  
 وحصرها لاختلاف الآثار فيها ؛ والذي أقول : إنه قد جاءت فيها أحاديث كثيرة صحاح  
 وحسان لم يقصدها الحصر ، ولكن بعضها أكبر من بعض بالنسبة إلى ما يكثر سرره ؛  
 فالشُّرك أكبر ذلك كله ، وهو الذي لا يُغفر لنص الله تعالى على ذلك ، وبعده اليأس من رحمة  
 الله ؛ لأن فيه تكذيب القرآن ؛ إذ يقول وقوله الحق : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » وهو  
 يقول : لا يغفر له ؛ فقد سَجَر واسما . هذا إذا كان معتقدا لذلك ؛ ولذلك قال الله تعالى :  
 « إِنَّهُ لَا يَتُوبُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » . وبعده القنوط ؛ قال الله تعالى :  
 « وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » . وبعده الأمن من مكر الله فيسترسل في المعاصي  
 ويتكلم على رحمة الله من غير عمل ؛ قال الله تعالى : « أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا  
 الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » ، وقال تعالى : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَمَا صَبَّحْتُمْ مِنْ  
 الْخَاسِرِينَ » . وبعده القتل ؛ لأن فيه إذهاب النفوس وإعدام الوجود ، واللواط فيه قطع  
 النسل ، والزنا فيه اختلاط الأنساب بالمياه ، والخمر فيه ذهاب العقل الذي هو مناط التكليف ،  
 وترك الصلاة والأذان فيه ترك إظهار شائر الإسلام ، وشهادة الزور فيها استباحة الدماء  
 والفروج والأموال ، إلى غير ذلك مما هو بين الضرر ؛ فكل ذنب عظم الشرع التوعد عليه

بالمقاب وشده، أو عظم ضرره في الوجود كما ذكرنا فهو كبيرة وما عداه صغيرة . فهذا ربط لك هذا الباب وبسطه، والله أعلم .

الثانية - قوله تعالى : ( وَنُدِخْلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ) قرأ أبو عمرو وأكث الكوفيين « مُدْخَلًا » بضم الميم ؛ فيحتمل أن يكون مصدرا ، أى إدخالا ، والمفعول محذوف أى ونُدِخْلَكُمْ الجنة إدخالا . ويحتمل أن يكون بمعنى المكان فيكون مفعولا . وقرأ أهل المدينة بفتح الميم ، فيجوز أن يكون مصدر دخل وهو منصوب بإضمار فعل ؛ التقدير ونُدِخْلَكُمْ فتدخلون مُدْخَلًا ، ودل الكلام عليه . ويجوز أن يكون اسم مكان فيقصب على أنه مفعول ، أى ونُدِخْلَكُمْ مكانا كريما وهو الجنة . وقال أبو سعيد بن الأعرابي : سمعت أبا داود السجستاني يقول سمعت أبا عبد الله أحد بن حنبل يقول : المسلمون كلهم في الجنة ؛ قلت له : وكيف ؟ قال : يقول الله عز وجل « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » معنى الجنة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اذْخَرْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي » . فإذا كان الله عز وجل يغفر ما دون الكبائر والنبي صلى الله عليه وسلم يشفع في الكبائر فأى ذنب يبقى على المسلمين . قال علامنا : الكبائر عند أهل السنة تُغفر لمن أقطع عنها قبل الموت حسب ما تقدم . وقد يُغفر لمن مات عليها من المسلمين ؛ كما قال تعالى : « وَبَغِزْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » والمراد بذلك من مات على الذنوب ؛ فلو كان المراد من تاب قبل الموت لم يكن للفرقة بين الإشرار وغيره معنى ؛ إذ التائب من الشرك أيضا مغفور له . وروى عن ابن مسعود أنه قال : خمس آيات من سورة النساء هي أحب إلى من الدنيا جميعا ، قوله تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ » وقوله « إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْتَ يَشْرِكُ بِهِ وَيَغْفِرَ » الآية ، وقوله تعالى : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ » الآية ، وقوله تعالى : « وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً ضَيْعَهَا » ، وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » . وقال ابن عباس : ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت : « يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ » ، « وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ » ، « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْكُمْ » ، « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ »

شِبَاتِكُمْ ، الآية : « إِنْ أَنْتُمْ لَا تَشْفَعُونَ لِي فِي رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ أَنْتُمْ لَمِنَ الْخَاسِرِينَ » ، « وَمَنْ يَمْلِكْ سَوْماً أَوْ يَطْلُبْ قَسَةً » ، « مَا عَمِلَ اللَّهُ مِنْ دُونِكُمْ ، الْآيَةُ » .

بقوله تعالى : « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » (٣٦)

فيه أربع مسائل :

الأولى - روى الترمذي عن أم سلمة أنها قالت : يفزرو الرجال ولا يفزرو النساء وإنما لنا نصف الميراث ؛ فأزل الله تعالى « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ » قال مجاهد : فأزل فيها « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » ، وكانت أم سلمة أول طليعة قدمت المدينة مهاجرة . قال أبو عيسى : هذا حديث مرسل ، ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرسل أن أم سلمة قالت كذا . وقال قتادة : كان الجاهلية لا يوزنون النساء ولا الصبيان ؛ فلما ورثوا وجعل الله ذكر مثل حظ الأنثيين نقي النساء أن لو جعل أنصافهن كأنصباء الرجال . وقال الرجال : إنا نرجو أن نعمل على النساء بحسنتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث ؛ فزلت « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ » .

الثانية - قوله تعالى : « ( وَلَا تَتَمَنَّوْا ) » التي نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل ، كالتلف نوع منها يتعلق بالماضي ؛ فنهى الله سبحانه المؤمنين عن التمني ، لأن فيه تعلق بالبال ونسيان الأجل . وقد اختلف العلماء هل يدخل في هذا النهي النبطة وهي أن يتمي الرجل أن يكون له حال صاحبه وإن لم يتمم زوال حاله . والجمهور على إجازة ذلك : مالك وغيره ؛ وهو المراد عند بعضهم في قوله عليه السلام " لا حسد إلا في آنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقسوم به آتاه الليل وآتاه النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آتاه الليل وآتاه

كذا ورد بالرفع في جميع نسخ الأمل ومصحح الترمذي .

النهار". فمعنى قوله "لا حسد" أى لا غبطة أعظم وأفضل من الغبطة في هذين الأمرين.  
وقد نبه البخارى على هذا المعنى حيث يربط على هذا الحديث (باب الاعتباط في العلم والحكمة).  
قال المهلب : بين الله تعالى في هذه الآية ما لا يجوز تحميه ، وذلك ما كان من عرض الدنيا  
وأشباحها . قال ابن عطية : وأما التقي في الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن ، وأما إذا تمى  
المسء على الله من غير أن يُفسر أمنته بشيء مما قدمنا ذكره فذلك جائز ، وذلك موجود  
في حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : "وَدِدْتُ أَنْ أُحْيَا ثُمَّ أَمُتَ" .

قلت : هذا الحديث هو الذى صتر به البخارى كتاب التقي في صحيحه ، وهو يدل على  
تمنى الخير وأفعال البر والرغبة فيها ، وفيه فضل الشهادة على سائر أعمال البر ، لأنه عليه السلام  
تمناها دون غيرها ، وذلك لرفع منزلتها وكرامة أهلها ، فزوجه الله أيها ؛ لقوله : "ما زالت أكلة  
خير مما أدنى الآن وَأَنْ قَطَعْتُ أَبْهَرِي" . وفى الصحيح : "أن الشيد يقال له تمى فيقول أمتى  
أن أرجع إلى الدنيا حتى أقتل في سبيلك مرة أخرى" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يمنى إيمان أبى طالب رابى لحب وصناديد قريش مع علمه بأنه لا يكون ؛ وكان يقول :  
"واشوقاء إلى إخواني الذين يحيون من بعدى يؤمنون بى ولم يؤمنوا بى" . وهذا كله يدل على أن  
التقى لا ينهى عنه إذا لم يكن داعية إلى الحسد والتباغض ، والتقى المنهى عنه في الآية من  
هذا القليل ؛ فيدخل فيه أن يمضى الرجل حال الآخر من دين أو دنيا على أن يذهب ما عند  
الآخر ، وسواء تمنى مع ذلك أن يعود إليك أولا . وهذا هو الحسد بعينه ، وهو الذى ذمّه الله  
تعالى بقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » . ويدخل فيه أيضا خطبة الرجل  
على خطبة أخيه ويبيع على بيعه ؛ لأنه داعية الحسد والمقت . وقد ذكره بعض العلماء النبطه  
وأنها داخلة في التهى ، والصحيح جوازها على ما بينا ، والله توفيقنا . قال الضحاك : لا يمل  
لأحد أن يمضى مال أحد ، ألم تسمع التين قالوا : « يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُورِيَ قَارُونُ » إلى أن

(١) الألف (بالضم) : القصة - وتنادى : تراجس وماردى ألم سمها في أوقات ملومة . والأخير : مرق  
مستبين في الصلب والقلب متصل به ، فإذا اطلع لم تكن منه حياة . وحديث ثناء المسومة وأكل على الله عليه وسلم  
منها نذكر في غزوة خيبر ؛ فراجع .

قال : « وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَاتَهُ بِالْأَمْسِ » حين خُصِفَ بِهِ وبِأَمْوَالِهِ « قَوْلًا أَنْ تَنْ  
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ تَخَفَتْ نِسَاءُ » . وقال الكَلْبِيُّ : لا يَتَنَى الرَّجُلُ مَالَ أَخِيهِ وَلَا أَمْرَأَتَهُ وَلَا خَادِمَتَهُ  
 وَلَا دَابَّتَهُ ؛ وَلَكِنْ يَقُلْ : اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مِثْلَهُ . وهو كذلك في التَّوَرَةِ ، وكذلك قوله في الْقُرْآنِ :  
 « وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ » . وقال ابن عباس : نَهَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يَتَنَى الرَّجُلُ مَالَ فُلَانٍ وَأَهْلِهِ ،  
 وَأَمْرَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْأَلُوهُ مِنْ فَضْلِهِ . ومن الْحِجَّةِ لِلْمَجْهُودِ قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا  
 الدُّنْيَا لَأَرْبَعَةِ نَفَرٍ : رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ بِهِ رَجْمَهُ وَيَعْلَمُ قَدْرَهُ فِيهِ  
 حَقًّا فَيَهْذَأُ بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ . وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النَّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي  
 مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ يَنْتَهِي فَأَجْرُهُمَا سُوءٌ » الحديث ، وقد تقدَّم . خرَّجه الترمذِيُّ  
 وصحَّحه . وقال الحسن : لا يَتَنَى أَحَدُكُمْ الْمَالَ وَمَا يَدْرِيهِ لَعَلَّ هَلَاكَ فِيهِ ؛ وَهَذَا إِنَّمَا يَصِحُّ  
 إِذَا تَمَنَّى لِلدُّنْيَا ، وَأَمَّا إِذَا تَمَنَّى لِمَا يَنْقُضُ جُزُؤُهُ الشَّرْعَ ، فَيَتَمَنَّى الْعَبْدُ لِيَصِلَ بِهِ إِلَى التَّوْبِ ،  
 وَيُفْعَلَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ﴾ يريد من الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ .  
 ﴿ وَلِلنِّسَاءِ ﴾ كذلك ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ . فَلِلْمَرْأَةِ الْجُزْءُ عَلَى الْحَسَنَةِ بِعَشْرِ أَثْنَيْ عَشَرَ لِلرَّجَالِ . وقال  
 ابن عباس : المراد بذلك الْمِيرَاثُ . وَالْاِكْتِسَابُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بِمَعْنَى الْإِصَابَةِ ، لِذِكْرِ مِثْلِ  
 حُظِّ الْأَنْثَيْنِ ؛ فَهَبَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ التَّمَنَّى عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لِمَا فِيهِ مِنْ دَوَاعِي الْحَسَدِ ، وَلِأَنَّ  
 اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمْ مِنْهُمْ ؛ فَوَضَعَ الْقِسْمَةَ بَيْنَهُمْ عَلَى مَا تَوَفَّقَ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ .  
 الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ رَوَى الترمذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ  
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُسَالَ وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ  
 أَنْ تَنْظُرَ الْفَرَجَ » . وَخَرَجَ إِذَا ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :  
 « مَنْ لَمْ يُسَالَ اللَّهَ يَنْضَبْ عَلَيْهِ » . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالسُّؤَالِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَاجِبٌ ؛ وَقَدْ  
 أَخَذَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ هَذَا الْمَعْنَى فَنَظَّمَهُ فَقَالَ :

اللَّهُ يَنْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤْلَهُ • وَبَنَى آدَمَ حِينَ يُسَالَ يَنْضَبُ

وقال أحمد بن محمد بن أبي الفضل الفقيه المالكي فاحسن :

أحسن لأرزاق عند الذي • ما دونه إن سيل من حاجب  
من يفيض التارك قسأ له • جوداً ومن يرضى عن الطالب  
ومن إذا قال جرى قوله • بنير توفيق إلى كاتب

وقد أجبنا القول في هذا المعنى في كتاب «قع الحرس بالزهد والفتاحة». وقال سعيد بن جبير :  
« وآسألو الله من فضله » العبادة ، ليس من أمر الدنيا . وقيل : سألوه التوفيق للعبد بما  
يرضيه . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سألوا ربكم حتى الشئ : فإنه إن لم يسره الله  
عن وجل لم يتيسر . وقال سفيان بن عيينة : لم يأمر بالسؤال إلا ليعطى .

وقرأ الكسائي وابن كثير : « وسألوا الله » بغير همز في جميع القرآن : الباقون بالهمز  
« وآسألو الله » ، وأصله بالهمز إلا أنه حذفت الهمزة للتخفيف . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ  
عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَعَاثُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - بين تعالى أن لكل إنسان ورثة وموالي ؛ فليقتنع كل أحد بما قسم الله له من  
الميراث ، ولا يبتغى مال غيره . روى البخارى في كتاب القراض من رواية سعيد بن جبير  
عن ابن عباس : « وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ »  
قال : كانت المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصارى المهاجرى دون ذوى رحمة ؛  
لأخوة أتى آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم ، فلما نزلت « وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ »  
قال : نسخها « وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ » . قال أبو الحسن بن بطال : وقع في جميع النسخ  
« وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ » قال : نسخها « وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ » . والصواب أن الآية النسخة  
« ولكل جعلنا موالى » والمنسوخة « والذين عقدت أيمانكم » ، وكذا رواه الطبري في روايته .

وروى عن جمهور السلف أن الآية التي نسخها لقوله: «والذين عقدت إيمانكم» قوله تعالى في «الأنفال»: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ» - روى هذا عن ابن عباس وقادة والحسن البصري؛ وهو الذي أنبه أبو عبيد في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له. وفيها قول آخر رواه الزهري عن سعيد بن المسيب قال: أمر الله عن رجل الدين تبناً غير إيمانهم في الجاهلية وورثوا في الإسلام أن يعملوا لهم نصيباً في الوصية ورث الميراث إلى ذوي الرحم والعصبة. وقالت طائفة: قوله تعالى «والذين عقدت إيمانكم» محكم وليس بمنسوخ؛ وإنما أمر الله المؤمنين أن يعطوا الحلفاء نصيباً من الثمرة والنصيحة وما أشبه ذلك؛ ذكره الطبري عن ابن عباس: «(وَالَّذِينَ عَقَدَتْ إِيْمَانُكُمْ فَأَنْتُمْ لَهُمْ صِيْبُهُمْ) من الثمرة والنصيحة والرفادة<sup>(١)</sup> ويوصي لهم وقد ذهب الميراث؛ وهو قول مجاهد والسدي».

قلت - وأختره النحاس؛ ورواه عن سعيد بن جبير، ولا يصح النسخ؛ فإن الجمع ممكن كما بينه ابن عباس فيما ذكره الطبري، ورواه البخاري عنه في كتاب التفسير. وسباني ميراث «ذوي الأرحام» في «الأنفال» إن شاء الله تعالى.

الثانية - «كُلٌّ» في كلام العرب معناها الإحاطة والعموم. فإذا جاءت مفردة فلا بد أن يكون في الكلام حذف عند جميع التحوين؛ حتى أن معصم أجاز مررت بكل، مثل قبل وبعد. وتقدير الحذف: ولكل أحد جعلنا موالى، يعني ورثة. «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ إِيْمَانُكُمْ» يعني بالخلف؛ عن قتادة. وذلك أن الرجل كان يعاهد الرجل فيقول: دمي دمك، وهدي هدمك، وناري نارك، وحربي حرك، وسلمي سلمك، وترثي وأرثك، ونطلب بي وأطلب بك، وتغفل عني وأغفل عنك؛ فيكون للخلف السدس من ميراث الخليف ثم نسح.

الثالثة - قوله تعالى: «(مَوَالٍ) اعلم أن المولى لفظ مشترك يطلق على وجوده؛ يُسمى الممتنع مولى والمعتق مولى. ويقال: المولى الأسفل والأعلى أيضاً. ويُسمى

(١) الرثة (بكر الراي): العطاء والعدة.

(٢) قوله: هدي هدمك، أي نحن شيء واحد في الثمرة؛ تنضيون لنا ونضف لكم.



الناصر المولى ؛ ومنه قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا مَوْلَى لَهُمْ » وَوَيْسَى ابْنُ الْعَمِّ مَوْلَى  
وَالْجَارِ مَوْلَى . فاما قوله تعالى : « وَلِكُلِّ جَمَلًا مِثَالِي » يريد عصبية ؛ فقوله عليه السلام :  
« مَا أَبْقَتِ الدَّهَامُ فَلَاوِيَّ عَصْبِيَّةٍ ذَكَرَ » . ومن العصبية المولى الأهل لا الأسفل ؛ على قول  
أكثر العلماء ؛ لأن المفهوم في حق المعتق أنه المنتمى على المعتق ؛ كالموجود له ؛ فاستحق ميراثه  
لهذا المعنى . وحكى الطحاوى عن الحسن بن زياد أن المولى الأسفل يرث من الأعلى ؛ وأصح  
فيه بما روى أن رجلا أعتق عبدا له فأتى المعتق ولم يترك إلا المعتق فجعل رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ميراثه للعتق . قال الطحاوى : ولا معارض لهذا الحديث ؛ فوجب القول به ؛  
ولأنه إذا أمكن إثبات الميراث للمعتق على تقدير أنه كان كالموجود له ؛ فهو شبيه بالآب ؛  
والمولى الأسفل شبيه بالآب ؛ وذلك يقتضى التسوية بينهما في الميراث ؛ والأصل أن الاتصال  
يتم . وفي الخبر « مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ » . والذين خالفوا هذا وهم الجمهور قالوا : الميراث  
يَسْتَدْعِي الْقَرَابَةَ وَلَا قَرَابَةَ ، غير أننا أثبتنا للمعتق الميراث بحكم الإتمام على المعتق ؛ فبقتضى  
مقابلة الإتمام بالمجازاة ؛ وذلك لا ينكس في المولى الأسفل . وأما الآب فهو أولى الناس  
بأن يكون خليفة أبيه وقائما مقامه ؛ وليس المعتق صالحا لأن يقوم مقام ميتته ؛ وإنما المعتق  
قد أنتم عليه تقابله الشرع بأن جعله أحق بمولاه المعتق ؛ ولا يوجد هذا في المولى الأسفل ؛  
فظهر الفرق بينهما .

الرابعة - قوله تعالى : « وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ » روى علي بن كشة عن حمزة  
« عَقَدْتُ » بتشديد القاف على التكثير . والمشهور عن حمزة « عَقَدْتُ أَيْمَانُكُمْ » تخفة القاف ؛  
وهي قراءة عاصم والكسائي ؛ وهي قراءة بعيدة ؛ لأن المعاقدة لا تكون إلا من اثنين  
فصاعدا ؛ فبابها فاعل . قال أبو جعفر التماس : وقراءة حمزة تجوز على غموض في العربية ؛  
يكون التقدير فيها والذين عقدتهم أيمانكم الحلف ؛ وتعدى إلى مفعولين ؛ وتقديره : عَقَدْتُ  
لَهُمْ أَيْمَانُكُمْ الحلف ؛ ثم حذف اللام مثل قوله تعالى : « وَإِذَا كَانُوا مِنْكُمْ » أى كَانُوا لَهُمْ .  
وحذف المفعول الثاني ؛ كما يقال : كَيْفَ كَيْفُكَ ، أى كَيْفَ لَكَ بَرَأ . وحذف المفعول الأول لأنه  
متصل في الصلة .

الخامسة - قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ) أى قد شهد ما قد كنتم  
لإيماهم ، وهو عن وجل يحب الوفاء .

قوله تعالى : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى  
بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَنَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ  
بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيَّ نَخَافُونَ نُسُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ  
وَاصْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾  
فيه إحدى عشرة سالة :

الأولى - قوله تعالى : ( الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ) ابتداء وخبر ، أى يقومون بالنفقة  
عليهن والذب عنهن ، وأيضاً فإن فيهم الحكام والأمراء ومن يعزوا ، وليس ذلك في النساء .  
يقال : قوامٌ وثقيم . والآية زلت في سعد بن الربيع <sup>(١)</sup> تشرت عليه أمراته حبيبة بنت زيد  
ابن خارجة بن أبى رهير فظلمها ، فقال أبوها : يا رسول الله ، أفرئت كرميتى فظلمها ! فقال  
عليه السلام : " لَتَقْتَصَّ مِنْ زَوْجِهَا " . فانصرفت مع أبيها لتقتص منه ، فقال عليه السلام :  
" أرجعوا هذا حير بل أنانى " فأزل الله هذه الآية ، فقال عليه السلام : " أردنا أمراً وأراد  
الله غيره " . وفي رواية أخرى : " أردت شيئاً وما أراد الله حير " . ونقض الحكم الأول .  
وقد قيل : إن في هذا الحكم المردود نزل « وَلَا تَعْبَلِ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » .  
ذكر إسماعيل بن إسحاق قال : حدثنا حجاج بن المنهال وعمار بن الفضل - واللفظ لحجاج - قال  
حدثنا جرير بن حازم قال سمعت الحسن يقول : إن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم  
فقلت : إن زَوْجِي لطم وجهي . قال : " يَتَكَ الْقِصَاصُ " ، فأزل الله تعالى : « وَلَا  
تَعْبَلِ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » . ومسك النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل :

(١) هو سعد بن الربيع بن عمرو بن أبى ذهير بن مالك بن امرئ القيس الخزرجي ، من بني بكر وكان أحد قباء  
الأضداد وكانت له زوجتان . (عن أسد الغابة) .

«الرِّجَالُ قَوَّاتُونَ عَلَى النِّسَاءِ» . وقال أبو روق : نزلت في جميلة بنت أبي وقفي زوجها ثابت ابن قيس بن شماس . وقال الكلبي : نزلت في عميرة بنت محمد بن مسleme وفي زوجها سعد بن الربيع . وقيل : سبها قول أم سلمة المتقتم . ووجه النظم أنهم تكلّموا في تفضيل الرجال على النساء في الإرث ، فزلت « وَلَا تَتَمَنَّوْا » الآية . ثم بين تعالى أن تفضيلهم عليهن في الإرث لما على الرجال من المهر والإفراق ؛ ثم فائدة تفضيلهم عائدة إليهن . ويقال : إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير ؛ فجعل لهم حق القيام عليهن لذلك . وقيل : للرجال زيادة قوة في النفس والطبع ما ليس للنساء ؛ لأن طبع الرجال غلب عليه الحرارة واليبوسة ، فيكون فيه قوة وشدة ، وطبع النساء غلب عليه الرطوبة والبرودة ، فيكون فيه معنى اللين والضعف ؛ فجعل لهم حق القيام عليهن بذلك ، ويقول تعالى : « وَبِمَا آفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » .

الثانية — ودلت هذه الآية على تأديب الرجال نسائهم ، فإننا نحفظ حقوق الرجال فلا ينبغي أن يبرئ الرجل عيشتها . و « قَوَّام » فقال للبالغة من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه وحفظه بالاجتهاد . فقيام الرجال على النساء هو على هذا الحد ؛ وهو أن يقوم بتدبيرها وتاديبها وإمساكها في بيتها وتمييزها من البروز ، وأن عليها طاعته وقبول أمره ما لم تكن ممصية ؛ وتعليل ذلك بالفضيلة والشفقة والعقل والقوة في أمر الجهاد وأكبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد راعى بعضهم في التفضيل المحبة وليس بشيء ؛ فإن المحبة قد تكون وليس معها شيء مما ذكرنا . وقد مضى الرد على هذا في « البقرة » .

الثالثة — فهم العلماء من قوله تعالى : « وَبِمَا آفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قواما عليها ، وإذا لم يكن قواما عليها كان لها نسخ المقد ؛ لزوال المقصود الذي شرع لأجله النكاح . وفيه دلالة واضحة من هذا الوجه على شوب نسخ النكاح عند الإحصار بالشفقة والكسوة ؛ وهو مذهب مالك والشافعي . وقال أبو حنيفة : لا يفسخ ؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ كُوفِرُ فَتَنْظِرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ » وقد تخدم القول في هذا في هذه السورة .

الرابعة - قوله تعالى : ( فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّنَفْسٍ ) هذا كله خبر ، ومقصوده الأمر بطاعة الزوج والقيام بحقه في ماله وفي نفسها في حال غيبة الزوج . وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك » قال : وتلا هذه الآية « الرَّجَالُ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » إلى آخر الآية . وقال صلى الله عليه وسلم لعمري : « ألا أخبركم بخير ما يكثره الله المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرتك وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته » أخرجه أبو داود . وفي مصحف ابن مسعود « فالصالح قَوَات حَافِظ » . وهذا بناء مخصص بالمؤنث . قال ابن جني : والتكثير أشبه لفظاً بالمعنى ، إذ هو يعطى الكثرة وهي المقصود ها هنا . و « ما » في قوله : « بِمَا حَفِظَ اللَّهُ » مصدرية ، أي يحفظ الله لمن . ويصح أن تكون بمعنى الذي ، ويكون المائد في « حفظ » ضمير نصب . وفي قراءة أبي جعفر « بما حَفِظَ اللَّهُ » بالنصب . قال النحاس : الرفع أين ؛ أي حافظات لمحب أزواجهن يحفظ الله وموئته وتشديده . وقيل : بما حفظ الله في أمورهن وعشترهن . وقيل : بما استحفظهن الله إياه من أداء الأمانات إلى أزواجهن . ومعنى قراءة النصب : يحفظهن الله ؛ أي يحفظهن أمره وأدينه . وقيل في التقدير : بما حفظن الله ، ثم وحده الفاعل ؛ كما قيل :  
 • فإن الحوادث أودى بها •

وقيل : المعنى يحفظ الله ؛ مثل حفظ الله .

الخامسة - قوله تعالى : ( وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ) اللاتي جمع التي وقد تعجم . قال ابن عباس : تخافون بمعنى تملكون وتيقنون . وقيل هو على باب . والنشوز العصيان ، مأخوذ من النشز ، وهو ما أرفع من الأرض . يقال : نشز الرجل يفتشز ويشتز إذا كان قاعدا فنهض قائما ؛ ومنه قوله عز وجل : « وَإِنَّا قِيلَ أَنتُمْ أَكْثَرُ نُشُوزًا » أي أرفعوها وأنهضوها إلى حرب أو أمر من أمور الله تعالى . فالمعنى : أي تخافون عصيانهن وتمالين عما أوجب الله عليهن من طاعة الأزواج . وقال أبو منصور الأنصوي : النشوز : ذكاء واحد من

الزوجين صاحبة ؛ يقال : نَشَرَتْ نَشْرَهُنَّ فَهِيَ نَاشِرٌ بِفِعْلِهَا . وَنَشَرَتْ نَشْرَهُنَّ وَهِيَ النِّبْتَةُ الْعُشْبَةُ . قَالَ ابْنُ قَارِسَ : وَنَشَرَتْ الْمَرْأَةُ اسْتَمْعَبَتْ عَلَى بَيْتِهَا ، وَنَشَرَ بَيْتُهَا إِذَا خَرِبَهَا وَجَفَاها . قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ : نَشَرَتْ الْمَرْأَةُ وَنَشَرَتْ وَنَشَرَتْ بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

السادسة - قوله تعالى : ( قَطِّطُوهُنَّ ) أى بكتاب الله ؛ أى ذكروهن ما أوجب الله عليهن من حسن الصحبة وحيل العشرة للزوج ، والاحتراف بالدرجة التي له عليها ، ويقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها " ، وقال : " لا تغمه نفسها وإن كانت على ظهر قتيب " <sup>(١)</sup> . وقال : " أيما امرأة باتت هاجرة فرائض زوجها لمتها للملائكة حتى تصبح " في رواية " حتى تراجع وتضع يدها في يده " . وما كان مثل هذا .

السابعة - قوله تعالى : ( وَالْمُجْرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ) وقرأ ابن مسعود والتخفي وغيرهما « في المضجع » على الأفراد ؛ كأنه اسم جنس يؤدى عن الجميع . والمجرى في المضاجع هو أن يضاجعها ويولجها ظهره ولا يلامسها ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : جئنا مضاجعهم ؛ فيقتدر على هذا الكلام حذف ، ويضد « المجرهون » من المجران ، وهو الهدى ؛ يقال : هجره أى تباعد وقاى عنه . ولا يمكن بدلها إلا بترك مضاجعها . وقال معناه إبراهيم النخعي والشعمي وقتادة والحسن البصري ، ورواه ابن وهب وابن القاسم عن مالك ، وأخبره ابن العربي وقال : حملوا الأمر على الأكثر الموفى . ويكون هذا القول كما تقول : أجهره في الله . وهذا أصل مالك .

قلت : هذا قول حسن ؛ فإن الزوج إذا أعرض عن فراشها فإن كانت حجة للزوج فذلك يشق عليها ترجيع للصلاح ، وإن كانت منقضة فيظهر النشوز منها ؛ فيبين أن النشوز من قبلها . وقيل : « المجرهون » من المجر وهو القبيح من الكلام ، أى غفلوا عليهن في القول

(١) القتيب ( محركة ) : أكاف ( برذنة ) صغير على قدس نام البير . ومناه الحث لمن على مطاوعة أزواجهن ،

وأنه لا يسهن الاستماع في هذه الحال فكيف في غيرها .

وضاجعوهن للجماع وغيره؛ قال معناه سفيان، وروى عن ابن عباس . وقيل : أى شتوهن  
ونافا في بيوتهن؛ من قولهم : - هجر البعير أى ربطه بالهजार، وهو حبس يُشد به البعير؛ وهو  
اختيار الطبرى وقدح في سائر الأقوال . وفي كلامه في هذا الموضع نظر . وقد ردّ عليه القاضى  
أبو بكر بن العربى في أحكامه فقال : يا لها من هفوة من عالم القرآن والسنة ! والذى حمله على هذا  
التأويل حديث غريب رواه ابن وهب عن مالك أن أسماء بنت أبى بكر الصديق امرأة  
الزبير بن العوام كانت تخرج حتى عوتب في ذلك . قال : وعتب عليها وعلى صرتها، فنقد شعر  
واحدة بالآخرى ثم ضربها ضربا شديدا، وكانت الضربة أحسن آتاء، وكانت أسماء لا تنق  
فكان الضرب بها أكثر؛ فشكت إلى أبيها أبى بكر رضى الله عنه فقال لها : أى بُنية أصبرى؛  
فإن الزبير رجل صالح، ولسله أن يكون زوجك في الجنة؛ ولقد بلغنى أن الرجل إذا أبشرك  
بامرأة تزوجها في الجنة . فرأى الربط والعقد مع احتمال اللفظ مع فعل الزبير فاقد مع هذا  
التفسير . وهذا المعجزة عند العلماء شهر؛ كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أسرّ إلى  
حفصة فأنشته إلى عائشة، وتظاهرتا عليه . ولا يبلغ به الأربعة الأشهر التى ضرب الله  
إنجلا صبرا للولى .

الثامنة - قوله تعالى : ( وَأَخْرِجُوهُنَّ ) أمر الله أن يبدأ النساء بالموعظة أولا ثم  
بالإجرا، فإن لم يتبعها بالضرب؛ فإنه هو الذى يصلحها له ويجعلها على توفيق حقه . والضرب  
في هذه الآية هو ضرب الأدب غير المبرح، وهو الذى لا يكسر عظام ولا يشين جارية كاللكمة  
ونحوها؛ فإن المقصود منه الصلاح لا غير . فلا جرم إذا أدى إلى الهلاك وجب الضمان،  
وكذلك القول في ضرب المؤدب غلامه لتعليم القرآن والأدب . وفي صحيح مسلم : " أقروا الله  
في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن ألا يوطئن  
فروجكم أحدا تكرهونه فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح " الحديث . أخرجه من حديث  
جابر الطويل في الحج، أى لا يدخلن منازلكم أحدا ممن تكرهونه من الأقارب والنساء  
والأجانب . وعلى هذا يحمل ما رواه الترمذى وصححه عن عمرو بن الأحرص أنه شهد حجة

الرداء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيمد الله وأبقى عليه وذكر وعظ فقال :  
 « **الْأَوَّاسُ** **وَأَسْتَوْصُوا** **النِّسَاءَ** **خَيْرًا** **فَإِنَّهُنَّ** **عَوَانٌ** **عِنْدَكُمْ** **لِصِّ** **تَمْلِكُون** **مِنْهُنَّ** **شَيْئًا** **غَيْرَ** **ذَلِكَ** **إِلَّا** **أَنْ** **يَأْتِيَنَّ** **بِفَاحِشَةٍ** **مُبِينَةٍ** **فَإِنْ** **فَعَلْنَ** **فَاجْزَوْهُنَّ** **فِي** **الْمَضَاجِعِ** **وَأَضْرِبُوهُنَّ** **ضَرْبًا** **غَيْرَ** **مُبْرَحٍ** **فَإِنْ** **أَطَعْتَكُمْ** **فَلَا** **تَبْغُوا** **عَلَيْهِنَّ** **سَبِيلًا** **إِلَّا** **إِنْ** **لَكُمْ** **عَلَى** **نَفْسِكُمْ** **حَقٌّ** **وَلِلنِّسَاءِ** **عَلَيْكُمْ** **حَقٌّ** **فَمَا** **حَقُّكُمْ** **عَلَى** **نَفْسِكُمْ** **فَلَا** **يُؤْطَقَنَّ** **فُرُشُكُمْ** **مَنْ** **تَكْرَهُونَ** **وَلَا** **يَاذَنَنَّ** **فِي** **بُيُوتِكُمْ** **مَنْ** **تَكْرَهُونَ** **وَلَا** **وَحْشَنَّ** **عَلَيْكُمْ** **أَنْ** **تَحْسِنُوا** **إِلَيْهِنَّ** **فِي** **كِسْوَتِهِنَّ** **وَعَطَامِهِنَّ** » . قال : حديث حسن صحيح . فقوله : « **بِفَاحِشَةٍ** **مُبِينَةٍ** » يريد لا يدخلن من بركه أزواجهن ولا يفضينهم . وليس المراد بذلك الزنا ؛ فإن ذلك محرم ويلزم عليه الحد . وقد قال عليه السلام : « **أَضْرِبُوا** **النِّسَاءَ** **إِذَا** **عَصَيْنَكُمْ** **فِي** **مَعْرُوفٍ** **ضَرْبًا** **غَيْرَ** **مُبْرَحٍ** » . قال عطاء : قلت لأبن عباس ما الضرب غير المبرح ؟ قال بالسواك ومحوه . وروى ابن عمر رضي الله عنه ضرب أمرأته فعدل في ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **لَا** **يُسَالِ** **الرَّجُلُ** **فِيمَ** **ضَرْبِ** **أَهْلِهِ** » .

التاسعة - قوله تعالى : ( **فَإِنْ** **أَطَعْتَكُمْ** ) أى تركوا التشوز . ( **فَلَا** **تَبْغُوا** **عَلَيْهِنَّ** **سَبِيلًا** ) أى لا تمنحوا عليهن بقول أو فعل . وهذا نهى عن ظلمهن بعد تهرير الفضل عليهن والتمكين من أدبهن . وقيل : المعنى لا تكلفوهن الحب لك فإنه ليس إليهن .

العاشرة - قوله تعالى : ( **إِنَّ** **اللَّهَ** **كَانَ** **عَلِيمًا** **كَبِيرًا** ) إشارة إلى الأزواج بخفض الجناح ولين الجانب ؛ أى إن كنتم تهدرون عليهن تذكروا قدرة الله ؛ فإنه بالقدرة فوق كل يد . فلا يستعلي أحد على أمرأته فاته المرصاد ؛ فذلك حسن الاكتفاف هنا بالملق والكبر .

الحادية عشرة - وإذا ثبت هذا فاعلم أن الله عز وجل لم يأمر في شيء من كتابه بالضرب صراحة إلا هنا وفي الحدود المظام ؛ فسأوى بمعصيتهن بأزواجهن بمعصية الكبار ؛ وولى الأزواج ذلك دون الأنعم ؛ وجعله لم دون القضاء بغير شهود ولا بينات أثباتا من الله تعالى للأزواج على النساء . قال المهلب : إنما حوز ضرب النساء من أجل آتاتهن على أزواجهن

في المباينة . وأختلف في وجوب ضربها في الخلعة ؛ والقياس يوجب أنه إذا جاز ضربها في المباينة جاز في الخلعة الزاجية للزوج عليها بالمعروف . وقال ابن خزيمة : والنشوز يسقط النفقة وجميع الحقوق الزوجية ، ويموز به أن يضربها الزوج ضرب الأدب في المبرح ، والوعظ والمهر حتى ترجع عن نشوزها ، فإذا رجعت طابت حقوقها ، وكذلك كل ما اقتضى الأدب بقاؤه للزوج تأديبا . ويختلف الحال في أدب الرقيقة والديثة ؛ فأدب الرقيقة العذل ، وأدب الديثة السوط . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " رحم الله امرأة علق نسوطه وأدب أهله " . وقال : " إن أباهم لا يضع عصاه عن عاتقه " . وقال بشر :

• الحُرُّ يُلْحَى والعصا للعبد •

يُلْحَى أى يلام ؛ وقال ابن دريد :

وَاللَّوْمُ لِلْمَرْسُومِ رَادِعٌ • وَالْعَبْدُ لَا يَرُدُّهُ إِلَّا الْعَبَا •

قال ابن المنذر : ألق أهل العلم على وجوب نفقات الزوجات على أزواجهن إذا كانوا جميعا بالبين إلا الناشز منهن المحتنة . وقال أبو عمر : من نشزت عنه أمر أنه بعد دخوله سقطت عنه نفقتها إلا أن تكون حاملا . وخالف ابن القاسم جماعة الفقهاء من نفقة الناشز فأوجبها ، وإذا عادت الناشز إلى زوجها وجب في المستقبل نفقتها . ولا تسقط نفقة المرأة عن زوجها لشيء غير النشوز ؛ لا من مرض ولا حيض ولا نفاس ولا صوم ولا حج ولا غيب زوجها ولا حسبه عنها في حق أو جور غير ما ذكرنا ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٢٥﴾  
فيه خمس مسائل :

الأول - قوله تعالى : ( وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ) قد ختم معنى الشقاق في « البقرة » . فكان كل واحد من الزوجين يأخذ شقا غير شق صاحبه ، أى ناحية غير ناحية صاحبه .

(١) ( راجع ١٦ ص ١٦٤ طبة ثانية أرقام ٢٠٤ ، ٢٠٥ ص ١٤٢ طبة ثانية . )



والمزاد إن ختم شققا بينهما ، فأضيف كالمصدر إلى الظرف كقولك : يعجنني سِرَّ القليلة  
المقيرة ، وصوم يوم عرفة . وفي الترتيل : « بَلْ مَكَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » . وقيل : إن « ين »  
أجرى مجرى الأسماء وأزيل عنه الظرفية ؛ إذ هو بمعنى حالها وعشرتهما ، أى وإن ختم تباعد  
عشرتهما ومحبتهما « فَأَجْتَمَعَا » . و « خَتَمَ » على الخلاف المتقدم قال سعيد بن جبير : الحكم  
أن يمتثلها أولاً ، فإن قبلت وإلا هجرها ، فإن هى قبلت وإلا ضربها ، فإن هى قبلت وإلا بست  
الحاكم حكماً من أهله وحكماً من أهلها ؛ فينظران بمن الضرر ، وعند ذلك يكون المطلق . وقد  
قيل : له أن يضرب قبل الوعط . والأقول أجمع لترتيب ذلك فى الآية .

الثانية - الجمهور من العلماء على أن الخطاب بقوله : « وَإِنْ خَتَمَ » الحكم  
والأمرء . وأن قوله : ( إِنْ يَرِدَا إِصْلَاحًا يَقُوْقَ اللهُ بَيْنَهُمَا ) معنى الحكيم ، فى قول ابن عباس  
ومجاهد وغيرهما . أى إن يريد الحكمان إصلاحاً يوق الله بين الزوجين . وقيل : المراد الزوجان ؛  
أى إن يريد الزوجان إصلاحاً وصدقاً فبأخبار به الحكيم « يوق الله بينهما » . وقيل : الخطاب  
للأولياء . يقول : « إِنْ خَتَمَ » أى علمت خلافا بين الزوجين « فَأَجْتَمَعَا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا  
مِنْ أَهْلِهَا » والحكيم لا يكونان إلا من أهل الرجل والمرأة ؛ إذ هما أقدم بأحوال الزوجين ،  
ويكونان من أهل العدالة وحسن النظر والبصر بالحق . فإن لم يوجد من أهلها من يصلح  
لذلك فيُرسل من غيرها عدلين عالمين ؛ وذلك إذا أشكل أمرهما ولم يدر بمن الإساءة منهما .  
فأما إن عير الظالم فإنه يؤخذ له الحق من صاحبه ويُجبر على إزالة الضرر . وقال : إن  
الحكم من أهل الزوج يغلو به ويقول له : أخبرنى بما فى نفسك أتتولها أم لا حتى أعلم مرادك ؟  
فإن قال : لا حاجة لى فيها خذ لى منها ما استطعت وقرى بنى وبينها ، فيُعرف أن من قبله  
النشوز . وإن قال : إنى أهواها فأرضها من مالى بما شئت ولا تنزق بينى وبينها ، فيعلم أنه  
ليس بناشز . ويغلو بالمرأة ويقول لها : أتتوى زوجك أم لا ؛ فإن قالت : ترقى بينى وبينه  
وأعطه من مالى ما أريد ؛ فيعلم أن النشوز من قبلها . وإن قالت : لا تنزق بيننا ولنحس حته

عل أن يزيد في بقى ويمسح إلى ، علم أن النشوز ليس من قبيها ، فإذا ظهر لها البنى  
كان النشوز من قبله يقبل عليه بالعدة والزجر والنبى ، فذلك قوله تعالى : « قَابَسْتُوا  
حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِيهَا » .

الثالثة - قال العلماء : قَسَمَت هذه الآية النساء قسما عقليا ؛ لأنهن إما طائفة  
وأما ناشز ؛ والنشوز إما أن يرجع إلى الطواغية أولا . فإن كان الأول تركا ؛ لما رواه  
النسائي أن عَقِيل بن أَبِي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فكان إذا دخل عليها تقول :  
يا بنى هاشم ، والله لا يجيئك قلبى أبدا ! أين الذين أعتقهم كأبائى فى الفضة ! تَرَدُّ أنوفهم  
قبل شفاهم ، أين عُبَّة بن ربيعة ، أين شُبَّة بن ربيعة ، فيسكت عنها ، حتى دخل عليها يوما  
وهو برم فقامت له : أين عُبَّة بن ربيعة ؟ فقال : على يسارك فى النار إذا دخلت ؛ ففشرت  
عليها ثيابها ، بغضت عنان فذكرت له ذلك ؛ فأرسل ابن عباس ومعاوية ، فقال ابن عباس :  
لأفرق بينهما ؛ وقال معاوية : ما كنت لأفرق بين شبيخين من بنى عبد مناف . فأتياها  
فوجداهما قد سدا عليها أبوابهما وأصلحا أمرهما ، فإلى وجداهما قد أختلفا ولم يصطلحا  
ونظام أمرهما سعيًا فى الألفة جهدهما ، ودَّعَا بالله وبالصبغة . فإن أنابا ورجعا تركاهما ،  
وإن كانا غير ذلك ورأيا الفرقة تفرقا بينهما . وضربتهما جائز على الزوجين ؛ وسواء وافق حكم  
قاضى البلد أو مخالفه ، وكلامهما الزوجان بذلك أولم يوكلاهما . والفرق فى ذلك طلاق بائن .  
وقال قوم : ليس لما الطلاق ما لم يوكلاهما الزوج فى ذلك ، وليرثا الإمام ، وهذا بناء على أنها  
رسولان شاهدان . ثم الإمام يفرق إن أراد وأمر الحكم بالتفريق . وهذا أحد قولى  
الشافعى ؛ وبه قال الكوفيون ، وهو قول عطاء وابن زيد والحسن ، وبه قال أبو ثور .  
والصحيح الأول ، وأن للمكين التطلق دون توكيل ؛ وهو قول مالك والأوزاعي وإسحاق ،  
وروى عن عثمان وصى وابن عباس ، وعن الشعبي والنخعي ، وهو قول الشافعى ؛ لأن الله  
تعالى قال : « قَابَسْتُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِيهَا » وهذا نص من الله سبحانه بأنها  
قاضيان لا وكيلان ولا شاهدان . والوكيل اسم فى الشريعة ومعنى ، ولكم اسم فى الشريعة

ومعنى ؛ فإذا بين الله كل واحد منهما فلا ينبغي إشاد - فكيف العالم بخلاف تركب معنى أحدهما على الآخر ! . وقد روى الثارقي من حديث محمد بن سيرين عن عبيدة في هذه الآية « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَاجْتَنُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِهَا » قال : جاء رجل وأمرأة إلى علي مع كل واحد منهما فقام من الناس فامرهم فاجتروا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، وقال للحكين : هل تدريان ما عليكما ؟ عليكما إن رأيكما أن تفرقا ففرقا . فقالت المرأة : رضىت بكلب الله بما علي فيه ولي . وقال الزوج : أما الفرقة فلا . فقال علي : كذبت ، والله لا تبرح حتى يفرق بثل الذي أقرت به . وهذا إسناد صحيح ثبت روى عن علي من وجوه ثابتة عن ابن سيرين عن عبيدة ؛ قاله أبو عمر . فلوكا وكليان أو شاهدين لم يقل لما « أندريان ما عليكما » إنما كان يقول أندريان بما وكليان ، وهذا بين . احتج أبو حنيفة بقول علي رضى الله عنه للزوج « لا تبرح حتى ترضى بما رضىت به » فدل على أن مذهبه أنهما لا يفرقان إلا برضا الزوج ، وبأن الأصل المجتمع عليه أن الطلاق بيد الزوج أو بيد من جعل ذلك إليه . وجعله مالك ومن تابعه من باب طلاق السلطان على المولى والمعتق .

الرابعة - فإن اختلف الحكمان لم ينفذ قولهما ولم يلزم من ذلك شيء إلا ما اجتمعا عليه . وكذلك كل حكيم حكماً في أمر ؛ فإن حكم أحدهما بالفرقة ولم يحكم بها الآخر ، أو حكم أحدهما بمال وأبى الآخر فليس بشيء حتى يتفقا . وقال مالك في الحكيم يطلقان ثلاثاً قال : تلزم واحدة وليس لهما الفراق بأكثر من واحدة بائنة ؛ وهو قول ابن القاسم . وقال ابن القاسم أيضاً : تلزمه الثلاث إن اجتمعا عليها ؛ وقاله المغيرة وأشهب وابن المسيحي وأصيب . وقال ابن المواز : إن حكم أحدهما بواحدة والآخر بثلاث فهي واحدة . وحكى ابن حبيب عن أصيب أن ذلك ليس بشيء .

الخامسة - ويميز إرسال الواحد ؛ لأن الله سبحانه حكم في الزنا بأربعة شهود ، ثم قد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المرأة الزانية أن تئساً وحده وقال له : « إن اعترفت فأرجعها » . وكذلك قال عبد الملك في المدونة .

قلت : وإذا جاز إرسال الواحد فلو حكم الزوجان واحدا لأجزأ وهو بالجواز أولى إذا  
رضيا بذلك ، وإنما خاطب الله بالإرسال الحكم دون الزوجين . فإن أرسل الزوجان  
حكيمين وحكما نفذ حكمهما ، لأن التحكيم عندنا جائز ، ويستند فعل الحكم في كل مسألة .  
هنا إذا كان كل واحد منهما عدلا ؛ ولو كان غير عدل قال عبد الملك : حكمه  
منقوض ؛ لأنهما تخاطرا بما لا ينبغي من الضرر . قال ابن العربي : والصحيح نقوده ؛  
لأنه إن كان توكلًا فيفعل الوكيل نافذ ، وإن كان تحكما فقد قدماء على أنفسهم وليس  
النزح بمؤثر فيه كما لم يؤثر في باب التوكيل ، وباب القضاء مبني على الضرر كله ، وليس  
يلزم فيه معرفة المحكوم عليه بما يشول إليه الحكم . قال ابن العربي : مسألة الحكمين نص  
الله عليهما وحكم بها عند ظهور الشقاق بين الزوجين ، واختلاف ما بينهما . وهي مسألة عظيمة  
أجتمعت الأمة على أصلها في البعث ، وإن اختلفوا في تفاصيل ما ترتب عليه . وعجبا لأهل  
بلداننا حيث غفلوا عن موجب الكتاب والسنة في ذلك وقالوا : يعملان كل يدى أمين ؛ وفي هذا  
من معاندة النص ما لا ينبغي عليكم ، فلا يكذب الله أتمروا ولا بالأفيسة أجبروا . وقد نذبت  
إلى ذلك فما أجابني إلى بحث الحكمين عند الشقاق إلا قاض واحد ، ولا بالقضاء باليمين مع  
الشاهد إلا أتمر ، فلما ملكني الله الأمر أجريت السنة كما ينبغي . ولا تعجب لأهل بلدنا لما  
عندهم من الجهالة ، ولكن أعجب لأبي حنيفة ليس للحكيم عند خبره ، بل أعجب مرتين للشافعي  
فإنه قال : الذي يشبه ظاهر الآية أنه فيما عزم الزوجين مما حتى يشبه فيه حالهما . قال :  
وذلك أنى وجدت الله عز وجل إذن في تنوز الزوج بأن يصطليحا وأذن في خوفهما إلا يقيا  
حدود الله بالخلف وذلك يشبه أن يكون رضا المرأة . وحظر أن يأخذ الزوج مما أعطى شيئا إذا  
أراد استبدال زوج مكان زوج ؛ فلما أمر فيمن يخفنا الشقاق بينهما بالحكيم دل على أن حكمهما  
غير حكم الأزواج ، فإذا كان كذلك بحث حكما من أهله وحكما من أهلها . ولا يبيح الحكمين  
إلا ما مؤمنين برضا الزوجين وتوكليهما بأن يحكما أو يفزعا إذا رأيا ذلك . وذلك يدل على أن

الحكيم ويكره للزوجين . قال ابن العربي : هذا منتهى كلام الشافعي ، وأخفاه يفرخون به وليس فيه ما يفتت إليه ولا يشبه نصابه في العلم ، وقد تولى الرد عليه القاضي أبو إسحاق ولم ينصفه في الأكثر . أما قوله « الذي يشبه ظاهر الآية أنه فيما عزم الزوجين » فليس بصحيح ، بل هو نصح ، وهي من آيات القرآن وأوضحها جلاء ، فإن الله تعالى قال : « الرِّبَالُ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » . ومن خاف من أمراته تشوزا وعظها ، فإن آيات والإمراة في المصحح ، فإن أَرَوَّتْ وإلا ضربها ، فإن استمرت في غلواتها مشى الحكمان إليهما . وهذا إن لم يكن نصاً فليس في القرآن بيان . ودعاه لا يكون نصاً ، يكون ظاهراً ، فاما أن يقول الشافعي يشبه الظاهر فلا ندري ما الذي أشبه الظاهر . ثم قال : « وأذن في خوفهما آياتاً حدود الله بالخلف وذلك يشبه أن يكون برضا المرأة » بل يجب أن يكون كذلك وهو نصه . ثم قال : « فلما أمر بالحكيم علمنا أن حكمهما غير حكم الأزواج » ويجب أن يكون غيره بأن ينفذ عليهما من غير اختيارهما فتتحقق التبرية . فاما إذا نفذا عليهما ما وكلامهما به فلم يحكما بخلاف أمرهما فلم تحقق التبرية . وأما قوله « برضا الزوجين وتوكليهما » فخطأ صراح ، فإن الله سبحانه خاطب غير الزوجين إذا خاف الشقاق بين الزوجين بإرسال الحكيم ، وإذا كان المخاطب غيرهما كيف يكون ذلك بتوكليهما ، ولا يصح لما حكم إلا بما اجتمعا عليه . هذا وجه الإيضاح والتحقيق في الرد عليه . وفي هذه الآية دليل على إثبات التحكيم ، وليس كما تقول الخوارج إنه ليس التحكيم لأحد سوى الله تعالى . وهذه كلمة حق يريدون بها الباطل .

قوله تعالى : وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَيَبْنِي الْقَرْنَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالْصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٥٨﴾

## فيه ثمان عشرة مسألة :

الأول - أجمع العلماء على أن هذه الآية من الحكم المتفق عليه، وليس منها شيء منسوخ، وكذلك هي في جميع الكتب . ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل وإن لم يقر به الكتاب . وقد مضى معنى البودية وهي التذل والافتقار، لمن له الحكم والاختيار؛ فأمر الله تعالى عباده بالتذل له والإخلاص فيه . فالآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى وتصقيتها من شوائب الرياء وغيره؛ قال الله تعالى « قَن كَان يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » حتى لقد قال بعض علمائنا: إنه من تطهر تبردا أو صام صوما لمجدته وتوى مع ذلك التقرب لم يجزه؛ لأنه من ج في نية التقرب نية دنيوية وليس لله إلا العمل الخالص؛ كما قال تعالى : « إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . وقال تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » . وكذلك إذا أحس الرجل بداخل في الركوع وهو إمام لم يظفروه؛ لأنه يخرج وكومه بانتظاره من كونه خالصا لله تعالى . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي شيء فري تركته وشركه » . وروى الدارقطني عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحيا يوم القيامة بصحف غنمة فتُنصب بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى لللائكة ألقوا هذا وأقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزيرتك ما رأينا إلا خيرا فيقول الله عز وجل وهو أعلم إن هذا كان لغيري ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما ابتغى به وجهي » . وروى أيضا عن الضحاك بن قيس الفهري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي يأبى الناس إخلاصا أعمالكم لله تعالى فإن الله لا يقبل إلا ما خلص له ولا تقولوا هذا لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شيء ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شيء » .

مسألة - إذا ثبت هذا فاعلم أن علماءنا رضى الله عنهم قالوا : الشرك ثلث مراتب وكله حرم . وأصله اعتقاد شريك لله في ألوهيته ، وهو الشرك الأعظم وهو شرك الجاهلية ، وهو المراد بقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . ولبه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل ، وهو قول من قال : إن موجودا تما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاد وإن لم يعتقد كونه إلها كالقدرية مجوس هذه الأمة ، وقد تبرأ منهم ابن عمر كما في حديث جبريل عليه السلام . ولب هذه الرتبة الإشراف في العبادة وهو الرياء ؛ وهو أن يفعل شيئا من العبادات التي أمر الله بفعلها له لغيره . وهذا هو الذي سبقت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه ، وهو مبطل للأعمال وهو خفي لا يعرفه كل جليل غبي . ورضي الله عن المحاسبي فقد أوضحه في كتابه « الزاوية » وبين إفساده للأعمال . وفي سنن ابن ماجه عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى تادى من كان أشرك في شغل عمله الله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » . وفيه عن أبي سعيد الخدري قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن شذاكر المسيح الدجال فقال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ » قال : قلنا بلى يا رسول الله ؛ فقال : « الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل » . وفيه عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أتخوف على أتى الإشراف بالله أما إنى لست أقول يبدون شمسا ولا قرا ولا وقتا ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية » ترجمه الترمذي الحكيم . وسأني في آخر الكهف ، وفيه بيان الشهوة الخفية . وروى ابن لميعة عن يزيد بن أبي حبيب قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشهوة الخفية فقال : « هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يحلس إليه » . قال سهل بن عبد الله التستري رضى الله عنه : الرياء على ثلاثة وجوه ؛ أحدها - أن يعقد في أصل فعله لغير الله ويريد به أن يعرف أنه لله ، فهذا صنف من الضفاق وتشكك في الإيمان . والآخر -

يدخل في الشيء، فإذا أطلع عليه غير الله نبطاً، فهذا إذا تاب يريد أن يندب جميع ما عمل .  
والثالث - دخل في العمل بالإخلاص ونجح به الله فعرف بذلك ومدح عليه وسكن إلى مدحهم، فهذا الرياء الذي نهى الله عنه . قال سهل قال لقمان لأبيه : الرياء أن تطلب نواب عملك في دار الدنيا، وإنما عمل القوم للآخرة . قيل له : فما دواء الرياء؟ قال : كتمان العمل ، قيل له : كيف يكتم العمل؟ قال : ما كلفت إظهاره من العمل فلا تدخل فيه إلا بالإخلاص ، وما لم تتكلف إظهاره أحب ألا يطلع عليه إلا الله . قال : وكل عمل اطلع عليه انقلب فلا تمتد من العمل . وقال أيوب السخاوي : ما هو بساقل من أحب أن يعرف مكانه من عمله .

قلت : قول سهل « والثالث دخل في العمل بالإخلاص » إلى آخره ، إن كان سكونه وسروره إليهم لتحصل مثله في قلوبهم فيحسدوه ويحذوه ويبرؤ ويبتال ما يريد منهم من مال أو غيره فهذا مذموم؛ لأن قلبه مغمور فرحاً بأطلاعهم عليه ، وإن كانوا قد أطلعوا عليه بعد الفراغ . فأنما من أطلع الله عليه خلقه وهو لا يجب أطلاعهم عليه فيسر بصنع الله وبفضله عليه فسروره بفضل الله طاعة كما قال تعالى : « قُلْ وَفَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْتَمِعُونَ » . وبسط هذا وتيممه في كتاب « الرعاية للمحاسبي » ، فن اراده فليقف عليه هناك . وقد سئل سهل عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم " إني أسر العمل فيطلع عليه فيمجني " قال : يعجبه من جهة الشكر لله الذي أظهره الله عليه أو نحو هذا . فهذه جملة كافية في الرياء وخلوص الأعمال . وقد مضى في « البقرة » . حقيقة الإخلاص . والمحمد لله .

الثانية - قوله تعالى : ( وَإِلَى اللَّهِ الْإِحْسَانُ ) قد تقدم في صدر هذه السورة أن من الإحسان إليهما عتقهما ، وإتي في « سبحان » حكم برهما مستوف . وقرأ ابن أبي عمير « إحسان » بالرفع أى واجب الإحسان إليهما . الباقر بالنصب ، على معنى أحسنوا إليهما إحساناً . قال العلماء : فأتى الناس بعد الخلق للثان بالشكر والإحسان والترام البر والطاعة



والإيمان من قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته وشكره وبشكره وما الوالدان؛ قال تعالى :  
 « أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » . وروى شعبة وهشيم الواسطيان عن يثرب بن حطاه عن أبيه عن  
 عبد الله بن عمرو بن العاصي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا  
 الْوَالِدَيْنِ وَخُطْهُ فِي خُطِّ الْوَالِدَيْنِ » .

الثالثة — قوله تعالى : ( وَيَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ ) وقد مضى الكلام  
 فيه في « البقرة » <sup>(١)</sup> .

الرابعة — قوله تعالى : ( وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ ) أما الجار فقد أمر الله  
 تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعى ذنعه في كتابه وعلى لسان نبيه . ألا تراه سبحانه أكد  
 ذكره بعد الوالدين والأقربين فقال تعالى : « وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى » أي القريب . « وَالْجَارِ  
 الْجُنُبِ » أي الغريب؛ قاله ابن عباس ، وكذلك هو في اللغة . ومنه فلان أجنبي ، وكذلك  
 الجناية البدن . وأند أهل اللغة :

فَلَا تَحْرِمْ نِائِلًا عَنْ جَنَابَةٍ \* فَالَى أَمْرُهُ وَسَطَ الْقِيَابِ غَيْرِيبٌ <sup>(٢)</sup>  
 وقال الأعمش :

أَتَيْتُ حُرَيْثًا زَائِرًا عَنْ جَنَابَةٍ \* فَكَانَ حُرَيْثٌ فِي عَطَائِي جَاهِلًا <sup>(٣)</sup>

وقرأ الأعمش والمفضل « وَالْجَارِ الْجُنُبِ » بفتح الجيم وسكون النون وهما لغتان ؛ يقال :  
 جَنَّبَ وَجُنَّبَ وَأَجَنَّبَ وَأَجَنَّبَ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا قَرَابَةٌ ، وجمعه أجناب . وقيل : على تقدير  
 حذف المضاف ، أي والجار ذي الجنب أي ذي الناحية . وقال توف السامي : « الجان  
 ذِي الْقُرْبَى » المسلم « وَالْجَارِ الْجُنُبِ » اليهودي والنصراني .

(١) راجع به ٢ ص ١٤ طبع ثانية .

(٢) البيت لبقية بن عيدة يعطى به الحارث بن جبلة يمدحه ، وكان قد أبرأ أخاه شاماً . وأراد بالناقل إهلاك  
 أخيه شاماً من جهة فائقته ومن أمره من بني تميم . (عن اللسان) .

(٣) في الأصول : فكانت حرث من عطائي حليداً .

والنصراني عن تميم الخبزي .

قلت: وظل هذا القول بالجار مأموراً بها مطلوب إليها، ما كان أو كافراً، فهو الصحيح. والإحسان قد يكون بمعنى اللواصقة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمعاملة، روى البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه". وروى من أبي شريح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن" قيل: يا رسول الله ومن؟ قال: "الذي لا يأمن جاره بوائقه". وهذا عام في كل جار. وقد أكد عليه السلام ترك إذايته بقسمه ثلاث مرات، وأنه لا يؤمن الإيمان الكامل من أدى جاره. فينبغي للؤمن أن يحذر أدنى جاره، ويتقوى عما نهى الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضى الله وحضاً العباد عليه. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الجاران ثلاثة بغار له ثلاثة حقوق وجار له حقان وجار له حق واحد فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فالجار المسلم القريب له حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام والجار الذي له حقان فهو الجار المسلم فله حق الإسلام وحق الجوار والجار الذي له حق واحد هو الكافر له حق الجوار".

الخامسة - روى البخاري عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي، قال: "إلى أقربهما منك باباً". فذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا الحديث يفسر المراد من قوله تعالى: «والجار ذي القربى» وأنه القريب المسكين منك. «والجار الجنب» هو العبد المسكين منك. واحتجوا بهذا على إعجاب الشفعة للجار، وعصده ب قوله عليه السلام: "الجار أحق بصقبه". ولا حجة في ذلك، فإن عائشة رضى الله عنها إنما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن تبدأ به من جيرانها في الهدية فأخبرها أن من قرب بابها فإنه أولى بها من غيره. قال ابن المنذر: فدل هذا الحديث على أن الجار يقع على غير الصديق. وقد خرج أبو حنيفة عن ظاهر هذا الحديث فقال: إن الجار الصديق إذا ترك الشفعة وطلبها الذي يليه وليس له جدار إلى الدار ولا طريق لا شفعة فيه له. وعوام العلماء

يقولون: إنا أوصى الرجل لغيرته أعطى الصبي وغيره؛ إلا أبا حنيفة فإنه فارق نوايا العلماء وقال: لا يُعطى إلا الصبي وحده.

السادسة - وأختلف الناس في حد الجيرة؛ فكان الأوزاعي يقول: أربعون داراً من كل ناحية؛ وقاله ابن شهاب. ورُوي أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني نزلت محلة قوم وإن أفرجهم إلى جواراً أشتم لي أدنى؛ فبث النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر علياً يصحبون على أبواب المساجد: ألا إني أربعون داراً جارك ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه. وقال علي بن أبي طالب: من سمع النداء فهو جارك. وقالت فرقة: من سمع إقامة الصلاة فهو جارك ذلك المسجد. وقالت فرقة: من ساكن رجلاً في محلة أو مدينة فهو جارك. قال الله تعالى: «لَنْ يَلْتَمِسَ الْمُتَافِقُونَ» إلى قوله: «ثُمَّ لَا يُخَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا» لجلس تعالى اجتماعهم في المدينة جواراً. والجيرة مراتب بعضها الصق من بعض، أدناها الزوجة كما قال:

«أَيَا جَارَتَا بَيْنِي فَاثْنَيْ طَالِقَةٍ»<sup>(١٢)</sup>

السابعة - ومن أكرم الجار ما رواه مسلم عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرْقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ». فخص عليه السلام على مكافئ الأخلاق؛ لما يترتب عليها من المحبة وحسن البشارة ودفع الحاجة والمقعدة؛ فإن الجار قد يتأذى بفتار قدر جاره، وربما تكون له ذرية فتتبع من ضعفائهم الشهوة، ويضطرم على القائم عليهم الألم والكلفة؛ لاسيما إذا كان القائم ضعيفاً أو أرملته فتمطم المشقة ويستد منهم الألم والحسرة. وهذه كانت عقوبة يعقوب في فراق يوسف عليهما السلام فيما قيل. وكل هذا يندفع بتشريكم في شيء من الطليخ يدفع إليهم؛ ولهذا المعنى خص عليه السلام الجار الغريب بالمدينة، لأنه ينظر إلى ما يدخل دار جاره وما يخرج منها، فإذا رأى ذلك أحب

(١) بوائقه: أي غوائمه وشروره؛ واحداها باقة، وهي الهاجة. (٢) هذا حديث لا أثر له، ومجهول.

«كَذَلِكَ أَمَرَ النَّاسَ نَادِرُ طَالِقَةٍ»

(٣) القنار (بضم القاف): ربح القنار والشراب ونحوهما.

أن يشارك فيه؛ وأيضاً فإنه أسرع إجابة لجاره عند ما يتوبه من حاجة في أوقات الغفلة والنزوة؛  
فلذلك بدأ به على من بعده بابه وإن كانت داره أقرب . والله أعلم .

الثامنة - قال العلماء : لما قال عليه السلام " فَاكْثُرْ مَامَعَا " تبه بذلك على تيسير  
الأمر على البخيل تنبيهاً لطيفاً، وجعل الزيادة فيما ليس له ثمن وهو المامع؛ ولذلك لم يقل إذا  
كَبِخْتَ مَرَقَةً فَاكْثُرْ لِحْمَهَا ؛ إذ لا يسهل ذلك على كل أحد . ولقد أحسن القائل :  
قَدَرِي وَقَدَرُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ \* وَإِلَيْهِ قَبْلِي تَرْفَعُ الْقَدَرُ

ولا يُهدى التمر البسر المحترق؛ فقله عليه السلام : " ثم أنظر أهل بيت من جيرانك فأصيهم  
منها بمعروف " أى بشيء يُهدى عُرفاً؛ فإن القليل وإن كان مما يُهدى فقد لا يقع ذلك الموضع؛  
فلو لم يتيسر إلا القليل فليُهدى ولا يحترقه ، وعمل المُهدى إليه قبوله ؛ فقله عليه السلام :  
" يَا نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ لَا تَحْبِرْنَ أَحَدًا كُنْ بِلَارْتِهَا وَلَوْ كُرَاعٌ شَاةٌ مُحَرَّقًا " أخرجه مالك في موطئه .  
وكذا قيدها « يَا نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ » بالرفع على غير الإضافة، والتقدير : يَا أَيُّهَا النِّسَاءُ الْمُؤْمِنَاتُ ؛ كما  
تقول يا رجال الكرام؛ فالمنادى محذوف وهو يَا أَيُّهَا ، والنساء في تقدير التمت لأبيها، والمؤمنات  
نعت للنساء . وقد قيل فيه : يَا نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ بِالْإِضَافَةِ ، والأول أكثر .

التاسعة - من إكرام الجار ألا يمنع من فَرَزْ خشبة له إرفاقاً به؛ قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم " لَا يَمْنَعُ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَفَرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ " . ثم يقول أبو هريرة : مَالِي  
أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ، والله لأُرْمِينَ بِهَا بَيْنَ أَكْأَفِكُمْ . رَوَى « حُشْبَةُ وَخَشَبَةُ » على الجمع  
والإفراد . وروى « أَكْأَفِكُمْ » بالنساء و « أَكْأَفِكُمْ » بالنسوان . ومعنى « لأُرْمِينَ بِهَا »  
أى بالكلمة والقصة . وهل يُقضى بهذا على الوجوب أو التنبه؛ فيه خلاف بين العلماء .  
فذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابهما إلى أن معناه التنبه إلى بر الجار والتجاوز له والإحسان  
إليه ، وليس ذلك على الوجوب؛ بدليل قوله عليه السلام " لَا يَحِلُّ مَالُ أَحَرِّ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنْ

(١) الكراع من البر والتمن : بمنزلة الوظيفة من الخيل والإبل والحر، وهو مستحق الساق العاري من اللحم، يذكر  
ويؤنث، وجميع أكرام ثم أكلهم .

طَيْبَ نَفْسٍ مِنْهُ“، قَالُوا: وَمَعْنَى قَوْلِهِ “لَا يَجْعُ أَحَدُكُمْ جَارَهُ” هُوَ مِثْلُ مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: “إِذَا اسْتَأَذَنْتَ أَحَدَكُمْ أَمْرُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلَا يَمْنَعُهَا“، وَهَذَا مَعْنَاهُ عِنْدَ الْجَمِيعِ التَّنَبُّهُ عَلَى مَا يَرَاهُ الرَّجُلُ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ وَاحِدٌ بَيْنَ حَتْبَلٍ وَإِصْحَاقٍ وَأَبُو ثَوْرٍ وَحَارِثُ بْنُ عُلَى وَجَمَاعَةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ: إِلَى أَنْ ذَلِكَ عَلَى الْوُجُوبِ، قَالُوا: وَلَوْلَا أَنْ أَبَا هُرَيْرَةَ فُهِمَ فِيهَا سَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْنَى الْوُجُوبِ مَا كَانَ لِيُوجِبَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ وَاجِبٍ. رَهُوَ مِنْهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَاتَّهَ قَضَى عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ سَلَمَةَ لِلضَّحَّاكِ بْنِ خَلِيفَةَ فِي الْخُلُيْجِ أَنْ يَتَزَيَّ بِهَ فِي أَرْضِ عُمَرَ بْنِ مَسْلَمَةَ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: لَا وَاقِهِ. قَالَ عُمَرُ: وَاقِهِ لِيَتَزَيَّ بِهَ وَلَوْ عَلَى بَطْنِكَ. فَأَمَرَهُ عُمَرُ أَنْ يَتَزَيَّ بِهَ فَفَعَلَ الضَّحَّاكُ؛ وَرَوَاهُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ. وَزَعَمَ الشَّافِعِيُّ فِي كِتَابِ الزَّوَادِنَ مَالِكًا لَمْ يَرَوْعَنَّ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ خِلَافَ عُمَرَ فِي هَذَا الْبَابِ؛ وَأَتَكَرَّ عَلَى مَالِكٍ أَنَّهُ رَوَاهُ وَأَدْخَلَهُ فِي كِتَابِهِ وَلَمْ يَأْخُذْ بِهَ وَرَدَّهُ بِرَأْيِهِ، قَالَ أَبُو عُمَرَ: لَيْسَ بِكَأِ زَعَمِ الشَّافِعِيِّ؛ لِأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ كَانَ رَأْيُهُ فِي ذَلِكَ خِلَافَ رَأْيِ عُمَرَ، وَرَأَى الْأَنْصَارُ أَيْضًا كَانَ خِلَافًا لِرَأْيِ عُمَرَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فِي قِصَّةِ التَّرْبِيعِ وَتَعْوِيلِهِ — وَالتَّرْبِيعُ السَّاقِيَةُ — وَإِذَا اخْتَلَفَتْ الصَّحَابَةُ وَجِبَ الرَّجُوعُ إِلَى النَّظَرِ، وَالنَّظَرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأُمُومَهُمْ وَأَعْرَاسَهُمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حَرَامٌ إِلَّا مَا تَطِيبُ بِهِ النَّفْسَ خَاصَّةً؛ فَهَذَا هُوَ الثَّابِتُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَيَدُلُّ عَلَى الْخِلَافِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ: مَالِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَاقِهِ لَأُرْمِيَكُمْ بِهَا؛ هَذَا أَوْ نَحْوَهُ. أَجَابَ الْأَوَّلُونَ فَقَالُوا: الْقَضَاءُ بِالْمِرْقَ نَازِلٌ بِالسَّيِّئَةِ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: “لَا يَحِلُّ مَالُ أَمْرِي مُسْلِمًا إِلَّا عَنِ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ“ لِأَنَّ هَذَا مَعْنَاهُ التَّنَبُّهُ وَالْإِسْتِهْلَاقُ وَلَيْسَ الْمِرْقُ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي الْحُكْمِ. فَغَيْرُ وَاجِبٍ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ مَا قَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَحَكَى مَالِكٌ أَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ قَاضٍ يَقْضِي بِهِ يُسْتَى أَبُو الْمُطَّلَبِ. وَأَحْتَجُّوا مِنَ الْأَثَرِ بِحَدِيثِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

(١) رَاجِعِ الْمَوْطَأَ بَابِ « الْقَضَاءُ فِي الْمِرْقِ » .

(٢) فِي الْأُمُورِ: « يَسَى الْمَطْلَبِ » وَتَحْصِيصٌ عَنْ هَرَجِ الْمَوْطَأِ .

استشهدنا غلام يوم أُجِدَّ بجلت أُمِّه تمسح التراب عن وجهه وتقول : أبشر هنيئاً لك الجنة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وما يُدْرِيكَ لعله كان يتكلم فيما لا ينبغي ويمنع ما لا يضركه ؟ » . والأعمش لا يصح له سماع من أنس ، والله أعلم . قاله أبو عمر .

العاشره — ورد حديث جمع النبي صلى الله عليه وسلم فيه مرافق الجار ، وهو حديث معاذ بن جبل قال : قلنا يا رسول الله ، ما حق الجار ؟ قال : « إن استرضك أَرْضَتَهُ وإن استأفك أَمَتَهُ وإن أحتاج أعطيتَه وإن مَرِضَ عُدَّتَهُ وإن مات تَبَّتْ جنازته وإن أصابه غيرُ مَرَكٍ وَحَيَّتَهُ وإن أصابته مصيبة ساءتِكَ وعزَّيَّتَهُ ولا تَوَدُّه بُقَارٌ قَدْرَكَ إلا أن تُعْرِفَ له منها ولا تستغلَّ عليه بالبناء لشريف عليه وتسدَّ عليه الرِّيح إلا باذنه وإن اشتريت فاكهة فأهد له منها وإلا فادخلها سرّاً لا يخرج ولئلا يبني منه فيظنُّون به ولله وهل تقهون ما أقول لكم إن يُؤدَّى حق الجار إلا القليل من رَحِمَ الله » أو كلمة نحوها . هذا حديث جامع وهو حديث حسن ، في إسناده أبو الفضل عثمان بن مطر الشيباني غير مرصَّح .

الحادية عشرة — قال العلماء : الأحاديث في إكرام الجار جاءت مطلقة غير مقيدة حتى الكافر كما بينا . وفي الخبر قالوا : يا رسول الله أنطعمهم من لحوم النُّسك ؟ قال : « لا تطعموا المشركين من نُسك المسلمين » . ونبيه عن إطعام المشركين من نُسك المسلمين يحتمل النُّسك الواجب في الذمة الذي لا يجوز للنَّاسك أن يأكل منه ولا أن يطعمه الأغنياء ؛ فأما غير الواجب الذي يُبَيِّزُه إطعام الأغنياء بخلاف أن يطعمه أهل الذمة . قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة عند تفريق لحم الأضحية : « ابذني يمارنا اليهودي » . ورُوي أن شاة ذُبِحت في أهل عبد الله بن عمر فلما جاء قال : أهديتم لمارنا اليهودي — ثلاث مرات — سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ( وَالصَّاحِبِ بِالْجَنِّبِ ) أي الرفيق في السَّفر . وأسند الطبري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معه رجل من أصحابه وهما على واحدتين ،

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم خيضة، فقطع قضيين احدهما موج، فخرج وأعطى لصاحبه القويم؛ فقال: كنت يا رسول الله أحق بهذا! قال: «كلا يا فلان إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسئول عن صحابته ولو ساعة من نهار». وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: للسفر مروة وللحضر مروة؛ فاما المروعة في السفر فيذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مسأخط الله. واما المروعة في الحضر فالإيمان إلى المساجد، وتلاوة القرآن وكثرة الإخوان في الله عز وجل. ولبعض بني أسد - وقيل إنها لحاتم الطائي:

إذا ما رفيق لم يكن خلف فاقسى • له مركب فضلاً فلا حلت يميل  
ولم يك من زادي له شطر حموي • فلا كنت نازداً ولا كنت نافعيل  
شريكاً فيما نحن فيه وقد أرى • على له فضلاً بما تال من فضيل

وقال علي وابن مسعود وابن أبي ليلى: «الصاحب بالجنب» الزوجة. ابن جرير: هو الذي يصحبك ويلزمك رجاء تفكك. والأقول أصح؛ وهو قول ابن عباس وابن جبير ومكرمة ومجاهد والفضل. وقد تناول الآية الجميع بالعموم. والله أعلم.

الثالثة عشرة - قوله تعالى: (وَأَبْنِ السَّبِيلَ) قال مجاهد: هو الذي يعتاز بك ماراً. والسبيل الطريق؛ فينسب المسافر إليه لمروده عليه وزومه إياه. ومن الإحسان إليه إعطائه وإرفاقه وهدايته ورشده.

الرابعة عشرة - قوله تعالى: (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) أي: أرفقته تعالى بالإحسان إلى المالك، وبين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم؛ فروى مسلم وغيره عن المعمر بن سويد قال: مررت بأبي ذرٍّ بالزينة وعليه بردٌ وعلي غلامه مثله، قلنا: يا أبا ذرٍّ لو جمعت بينهما كانت حلّة؛ فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية فغيرته بأته، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أبا ذرٍّ إنك أمرؤ فبك جاهلية»

(١) النبعة (بالفتح): الأجمة ويجمع الشجر في غيض ماء.

(٢) الزينة (بالفتح): من قرى اللبنة على ثلاثة أميال، يا معلى أي ذو القناري رضي الله عنه.

قلت: يا رسول الله؟ من سب الرجال سبوا آباء وأمه. قال: "يا أيها ذرئك أمرؤ فليك ياجلله".  
 هم إخوانكم جلهم الله تحت أيديكم فاطعموهم بما تأكلون والبسوهم بما تلبسون ولا تكفروهم  
 ما ينلهم فإن كفتموهم فاعينوهم". وروى عن أبي هريرة أنه ركب بغلة ذات يوم فأردف  
 علامة خلفه، فقال له قائل: لو أنزلته يسى خلف دابتك؟ قال أبو هريرة: لأن يسى معي  
 ضئتان من نازي يحرقان مني ما أحرقا أحب إلي من أن يسى غلاي خفي. وخرج أبو ذؤاد  
 عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لا يمتك من مملوككم فاطعموه بما  
 تأكلون واكسوه بما تكتسون ومن لا يلايكم منهم فيعموه ولا تعذبوا خلق الله". لا يمتك وانفكم،  
 والملاية الموافقة. وروى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 قال: "للملوك طعامه وركوبه ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق". وقال عليه السلام:  
 "لا يقل أحدكم عبدي وأمتي بل يقل قتلى وقساى" وسياق بيانه في سورة يوسف  
 عليه السلام. فندب صلى الله عليه وسلم السادة إلى مكارم الأخلاق وحضهم عليها وأرشدهم  
 إلى الإحسان وإلى سلوك طريق التواضع حتى لا يروا لأنفسهم منزلة على عبيدهم، إذ الكل  
 عبيد الله والمال مال الله، ولكن تحرمهم بعض، ومالك بعضهم بعضا إعمالا للنعمة  
 وتنفيذا للحكمة، فإن أطعموهم أقل مما يأكلون، والبسوهم أقل مما يلبسون صفة ومقدارا  
 جاز إذا قام بواجبه عليه. ولا خلاف في ذلك والله أعلم. وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو  
 إذ جاءه قهرمان له فدخل فقال: أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال لا. قال: فأطلق فاطعمهم،  
 قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كفى بالمرء إثمًا أن يجوس عمن يملك قوتهم".  
 الخامسة عشرة - ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من ضرب عبده حدًا  
 لم يأت به أول طمعه فكفارته أن يعتقه". ومعناه أن يضربه قدر الحد ولم يكن عليه حد. وبناه  
 عن قهر من الصحابة أنهم اقتضوا الخادم من الولد في الضرب واعتقوا الخادم لما لم يرد

(١) ضئتان: حزنتان من حلب تاسنارهما النار، يعني أنهما قد اشتغلا ومارة نارا.

(٢) القهرمان (ضخ الحاف ونظم) كالخازن والوكيل، والحافظ لما تحت يده وإقامته بأمر الربيل، جهة العرس.



الفيصاص . وقال عليه السلام : " من قُتِفَ مملوكه بالزنا أقام عليه الحد يوم القيامة ثمانين " .  
وقال عليه السلام : " لا يدخل الجنة سَيِّءُ الْمَلَكَةِ " . وقال عليه السلام : " سُوءُ الْخُلُقِ  
شُرٌّ وَحَسَنُ الْمَلَكَةِ نَسَاءٌ وَصِلَةُ الرَّحْمِ تَزِيدُ فِي الْعَمْرِ وَالصَّدَقَةُ تَدْفَعُ مَيَّةَ السَّوَاءِ " .

السابعة عشرة - واختلف العلماء من هذا الباب أيهما أفضل الحر أو العبد ؟ فروى  
مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للعبد المملوك المصْلُحُ أجْران " <sup>(١)</sup>  
والذي نفسُ أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والنجى ورأى لأحببت أن أموت وأنا  
مملوك . وروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن العبد إذا نصح  
نسيبه وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين " . فاستدل بهذا وما كان مثله من فضل العبد ؛  
لأنه مخاطب من جهتين : مطالب بعبادة الله ، مطالب بخدمة سيده . وإلى هذا ذهب أبو عمر  
يوسف بن عبد البر التَّمْرِيُّ وأبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد العامري البَغْدَادِيُّ الحافظ .  
استدل من فضل الحر بأن قال : الاستقلال بأمور الدين والدنيا إنما يحصل بالأحرار ،  
والعبد كالمفقود لعدم استقلاله ، وكالآلة المصروفة بالقهر ، وكالبهيمة المسخرة بالجبر ؛ ولذلك  
سُلب مناصب الشهادات ومعظم الولايات ، وتقصت حدوده عن حدود الأحرار إشعاراً  
بخساسة المقادير . والحر وإن طوّل من جهة واحدة نوظائمه فيها أكثر ، وعناؤه أعظم فتوايه  
أكثر . وقد أشار إلى هذا أبو هريرة بقوله : لولا الجهاد والنجى ؛ أى لولا النقص الذى  
يلحق العبد لقوت هذه الأمور . والله أعلم .

السابعة عشرة - روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما زال  
جبريل يُوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . وما زال يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه  
سيحزمن طلاجهن . وما زال يوصيني بالماليك حتى ظننت أنه سيجعل لهم مئة إذا أتوا إليها  
عَحَقُوا ، وما زال يوصيني بالسَّوَالِك حتى ظننت أنه يحقني في - وروى حتى كاد - .

(١) أى اتقى سيءة المالك .

وما زال يوصيني بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتي لا ينامون ليلاً . ذكره أبو الليث  
السمرقندي في تفسيره .

الثامنة عشرة - قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ) أى لا يرضى . ( مَنْ كَانَ مُحْتَلًا  
غَفُورًا ) نفى سبحانه محبة ورضاه عن هذه صفة ؛ أى لا يظهر عليه آثار نيمه في الآخرة  
وفى هذا ضرب من التورع . والمحال ذو الخيلاء أى الكبير . والغفور : الذى يمدد مناقبه  
كبراً . والفخر : البذخ والتفاول . وخص هاتين الصفتين بالذكر هنا لأنهما محالان  
صاحبيهما على الأنفة من القريب الفقير والجار الفقير وضياعهم ممن ذكر في الآية فيضيع أمر الله  
بالإحسان إليهم . وقرا عاصم فيما ذكر المفضل عنه « والجار الجنب » بفتح الجيم وسكون  
النون . قال المهدوي : هو على تقدير حذف مضاف ، أى والجار ذى الجنب أى ذى الناحية .  
وأنشد الأخفش :

• الناس جنب والأمر جنب <sup>(١)</sup> •

والجنب الناحية ، أى المتخفى عن القرابة . والله أعلم .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَجْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ  
مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا <sup>(٢)</sup>  
قوله تعالى : ( الَّذِينَ يَجْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ) فيه مسألان :

الأول - قوله تعالى : ( الَّذِينَ يَجْلُونَ ) « الذين » فى موضع نصب على البطلان  
« من » فى قوله : « من كان » ولا يكون صفة ؛ لأن « من » و « ما » لا يوصفان ولا  
يوصف بهما . ويجوز أن يكون فى موضع رفع بدلا من المضمرة الذى فى غفور . ويجوز أن  
يكون فى موضع رفع فيعطف عليه . ويجوز أن يكون ابتداء والخبر محذوف ، أى الذين يتخلون  
لهم كذا ، أو يكون الخبر « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار

(١) كانه عليه جميع الناس .

(٢) أى فيسلف عليه قوله تعالى : « والذين يتفكرون أموالهم رداء الناس » كفى إغراب القرآن للناس .

أعني، فتكون الآية في المؤمنين؛ فتجىء الآية على هذا التأويل أن الباطلين منقبة عنهم بحجة الله، فاحسنوا أيها المؤمنون إلى من سمي فإن الله لا يجب من فيه الخلل الماتمة من الإحسان.

الثانية - قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَيْتِ﴾ البطل للمنوم في الشرع هو الامتناع من إداء ما أوجب الله تعالى عليه. وهو مثل قوله تعالى: «وَلَا يَجْسَبَنَّ الَّذِينَ يَحْذَرُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» الآية. وقد مضى في «آل عمران» القول في البطل وحقيقته، والفرق بينه وبين الشح مستوفى. والمراد بهذه الآية في قول ابن عباس وغيره اليهود؛ فإنهم جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتبوا ما أنزل الله من التوراة من تمت عذ صلب الله عليه وسلم. وقيل: المراد المنافقون الذين كان إناقتهم وإيمانهم هجة، والمعنى أن الله لا يجب كل مخال نفور، ولا الذين يحذرون؛ على ما ذكرنا من إضرابه.

قوله تعالى: ﴿وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ فصل تعالى توعد المؤمنين الباطلين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة والثاني عذابا مهينا.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَبْغِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٢٦﴾﴾ فيه مسائلان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْغِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ عطف تعالى على «الَّذِينَ يَحْذَرُونَ»: «الَّذِينَ يَبْغِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ». وقيل: هو عطف على الكافرين؛ فيكون في موضع خفض. ومن رأى زيادة الواو أجاز أن يكون الثاني عنده خبرا للأول. قال الجهور: نزلت في المنافقين؛ لقوله تعالى: «رِثَاءَ النَّاسِ» والرثاء من التفاق. مجاهد: في اليهود. وضمنه الطبري؛ لأنه تعالى تبي عن هذه الصفة الإتيان بالله واليوم الآخر، واليهود

(١) رابع ج ٤ ص ٢٩٠ طبعه أول وثانية.

(٢) الصفة (بكر الصاد وسكون التوت): طاعة من الغيلة. وقيل: طاعة من كل شيء.

ليس كذلك . قال ابن عطية : وقول بجاهد . تنجيه على المبالغة والإلزام ؛ إذ إيمانهم باليوم الآخر  
كلّا إيمان من حيث لا يفهمهم . وقيل : نزلت في مُطْعَمِي يوم بدر ، وهم رؤساء مكة أنفقوا  
على الناس ليخرجوا إلى بدر . قال ابن العربي : ونفقة الرّياء تدخل في الأحكام من حيث  
إنها لا تجزئ .

قلت : ويدل على ذلك من الكتاب قوله تعالى : « قُلْ أَتَقِفُوا كَلِمَةً أَوْ كَرَمًا لَّنْ يَسْتَبِلَ  
مِنْكُمْ » وسياق .

الثانية - قوله تعالى : ( وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ) في الكلام إضمار  
تقديره « وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » فقرينهم الشيطان « وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا  
فَسَاءَ قَرِينًا » . القرن : للمقارن ، أى صاحب والخليل وهو فيل من الإفران . قال عديّ  
ابن زيد :

عن المرة لا تسال وسلّ عن قرينه \* فكل قرين بالمقارن يقتدى  
والمعنى : من قبل من الشيطان في الدنيا فقد قارنه . ويجوز أن يكون المعنى من قرّن به الشيطان  
في النار ( فساء قرينا ) أى فبلس الشيطان قرينا ، وهو نصب على التمييز .

قوله تعالى : وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا  
رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿١٦٣﴾

« ما » في موضع رفع بالابتداء و « ذا » خبره ، وذا بمعنى الذى . ويجوز أن يكون  
ما وذا اسما واحدا . فعل الأول تقديره وما الذى عليهم ، وعلى الثانى تقديره وأى شئ عليهم  
لو آمنوا بالله واليوم الآخر ، أى صنفوا بواجب الوجود ، وبما جاء به الرسول من تفاصيل  
الآخرة ، وأنفقوا بما رزقهم الله . ( وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ) تَهْدِمُ معناه في غير موضع .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا  
وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ) أى لا يجهضم ولا يقصم من ثواب علمهم ووزن ذرة بل يوازنهم بها ويثيبهم عليها . والمراد من الكلام أن الله تعالى لا يظلم قليلا ولا كثيرا ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » . والذرة : النملة الحمراء ؛ عن ابن عباس وغيره ، وهى أصغر النمل . وعنه أيضا رأس النملة . وقال يزيد بن هارون : زعموا أن الذرة ليس لها وزن . ويحكى أن رجلا وضع خبزا حتى علاه النمل مقدار ما يستره ثم وزنه فلم يزد على وزن الخبز شيئا .

قلت : والقرآن والسنة يدلان على أن للذرة وزنا ؛ كما أن للدينار ونصفه وزنا . والله أعلم . وقيل : الذرة الخردلية ؛ كما قال تعالى : « فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا » . وقيل غير هذا ، وهى فى الجملة عبارة عن أقل الأشياء وأصغرها . وفى صحيح مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ حَسَّةٍ يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَتَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَّةٌ يُجْزَى بِهَا » .

قوله تعالى : ( وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً قَضَاهَا ) أى يكثر ثوابها . وقرأ أهل الجواز « حَسَّة » بالرفع ، والمائة بالنصب ؛ فعل الأول « تك » بمعنى تحدث ، فهى تامة . وعلى الثانى هى الناقصة ، أى إن تك فعلته حسنة . وقرأ الحسن « بضاعفها » بنون العظمة . والباقون بالياء وهى أصح ، لقوله « وَوُزِنَتْ » . وقرأ أبو ربيعة « بضعفها » ، والباقون « بضاعفها » وهما لفتان معناهما الكثير . وقال أبو عبيدة : « بضاعفها » معناه يجعله أضعفا كثيرة ، « ويضعفها » بالتشديد يجعلها ضعفين . ( مِنْ لَدُنْهِ ) من عنده . وفيه أربع لغات : لَدُنْ وَلَدُنْ وَلَدٌ وَلَدَى ؛ فإذا أضافوه إلى أنفسهم شددوا النون ، ودخلت عليه « من » حيث كانت « من » الداخلة لابتداء الغاية « ولَدُنْ » كذلك ، فلما تشابها كلا حَسَنَ دخول « من » عليها ؛ ولذلك قال سيويه فى لَدُنْ : إنه الموضع الذى هو أوّل الغاية . ( أَجْرًا عَظِيمًا ) ببنى الجنة . وفى صحيح مسلم من حديث

(١) فى كتب اللغة أكثر من أربع لغات ؛ فراجع .

أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ الطَّوِيلُ - حَدِيثُ الشَّاعَةِ - وَقِيلَ: «حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ قَوْلَ الَّذِي قَسَى بَيْنَهُ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدِّ مُنَاشَدَةٍ لِّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِقَاءَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مِنَّا وَيُصَلُّونَ وَيُحْجُّونَ فَيَقَالُ لِمَ أَخْرَجُوا مِنْ عَرْقِهِمْ فَتَحَرَّمَ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتْ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقِهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ أَمْرَتِنَا بِهِ يَقُولُ أَرَجِعُوا فَمِنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِنْ أَمْرَتِنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَرَجِعُوا فَمِنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا ثُمَّ يَقُولُ أَرَجِعُوا فَمِنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا» .

وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ : إِنْ لَمْ تَصِدَّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَأَقْرَعُوا إِنْ شَقِمَ « إِنْ أَنَا اللَّهُ لَا يَظْلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

وَرَوَى عَنْ ابْنِ سَعْدٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « يُؤْتَى بِالْبَدِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ وَبَيْنَايَ مُنَادٍ عَلَى رِجْلَيْهِ هَذَا فُلَانٌ مِنْ فُلَانٍ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ حَقٌّ فَلْيَأْتِ إِلَى حَقِّهِ ثُمَّ يَقُولُ آتِ هَؤُلَاءِ حَقَّوْقَهُمْ يَقُولُ يَارَبِّ مِنْ أَيْنَ لِي وَقَدْ ذَهَبَ الدُّنْيَا عَنِّي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ أَنْظُرُوا إِلَى أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ فَأَعْطُوهُمْ مِنْهَا فَإِنَّ بَيْنَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ حَسَنَةٍ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَارَبِّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْهُمْ قَدْ أَعْطَى لِكُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ وَبَيْنَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ حَسَنَةٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ ضَعُفُوهَا لِعَبْدِي وَأَدْخُلُوهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِي الْجَنَّةَ وَمِصْدَاقُهُ « إِنْ أَنَا اللَّهُ لَا يَظْلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا » - وَإِنْ كَانَ عَبْدًا شَقِيًّا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَهْنَا نَبِيتُ حَسَنَاتِهِ وَبَقِيَتْ سَيِّئَاتُهُ وَبَيْنَ طَالِبُونَ كَثِيرٌ يَقُولُ تَعَالَى خُذُوا مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَضِيفُوهَا إِلَى سَيِّئَاتِهِ ثُمَّ صَبَّوْهُ إِلَى النَّارِ » . فَلَا يَأْتِي عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ فِي الْخُصُومِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَظْلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ لِلْخَصْمِ عَلَى الْخَصْمِ بِإِذْنِهِ مِنْهُ ، وَلَا يَظْلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ تَبْقَى لَهُ بَلْ يُبَيِّهُ عَلَيْهَا وَيُضَعِّفُهَا لَهُ ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا » . وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ

الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إني الله يعطى عبده المؤمن بالحسنة الواحدة التي ألف حسنة " وتلا « إنا لله لا يعلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » . قال عبيدة قال أبو هريرة : وإذا قال الله « أجراً عظيماً » فمن الذي يقتر قدره ! وقد تقدم عن ابن عباس وأبن مسعود أن هذه الآية إحدى الآيات التي هي خير مما طلعت عليه الشمس .

قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴿١١﴾

فجئت الفاء لآلهة الساكين ، و « إذا » ظرف زمان والعامل فيه « جئنا » . ذكر أبو الليث السمرقندي حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا ابن ماجة قال حدثنا ابن كامل قال حدثنا فضيل عن يونس عن محمد بن فضالة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم في بني ظفر فجلس على الصخرة التي في بني ظفر ومعه ابن مسعود ومعاذ وناس من أصحابه فأسر فأسراً حتى أتى على هذه الآية « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً » بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخضعت وجنتاه فقال : « يارب هذا على من أنا بين ظهرانيهم فكيف من لم أرمهم » . وروى البخاري عن عبد الله قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على » قلت : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت عليه سورة « النساء » حتى بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً » قال : « أمسك » فإذا عيناه تذرفان . وأخرجه مسلم وقال بدل قوله « أمسك » : فرفعت رأسي - أو غمزني رجل إلى جنبي - فرفعت رأسي فرايت دموعه تسيل . قال علياً رضي الله عنه : بكاه النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان تعظيم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلق وشدة الأمر ؛ إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أنهم بالتصديق والتكذيب ، ويؤتى به صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شهيداً . والإشارة بقوله

« على هؤلاء » إلى كفار قریش وغيرهم من الكفار ؛ وإنما خص كفار غریش بالذكر لأن وظيفة العذاب أشد عليهم منها على غيرهم ؛ لمتادهم عند رؤية المعجزات ، وما أظهره الله على يديه من خوارق العادات . والمعنى فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة « إذا جئنا من كل أمة بشيّد وجئنا بك على هؤلاء شيّدنا » أى مُعذّبين أم مُمتنعين . وهذا استفهام معناه التوبيخ . وقيل : الإشارة إلى جميع أمته . ذكر ابن المبارك أخبرنا رجل من الأنصار عن المثبال ابن عمرو حدثه أنه سمع سعيد بن المسيّب يقول : ليس من يوم إلا تُمرض على النبي صلى الله عليه وسلم آتته غُدوة وعشيّة فيعرفهم بسيامهم وأعمالهم فتلك يشهد عليهم ؛ يقول الله تعالى « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشيّد » يعنى نبيّها « وجئنا بك على هؤلاء شيّدنا » . وموضع « كيف » نصب بفعل مضمر ، التقدير فكيف يكون حالهم ؛ كما ذكرنا . والفعل المضمر قد يستمسك « إذا » ، والماسم في « إذا » « جئنا » . و « شيّدنا » حال . وفي الحديث من الفقه جواز قراءة الطالب على الشيخ والعرض عليه ، ويجوز عكسه . وسياق بيانه في حديث أبيّ في سورة « لم يكن » ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا** ﴿٤٧﴾

صُحَّتْ للواو في « عَصَوُا » لالتقاء الساكنين ، ويجوز كسرهما . وقرأ نافع وابن عامر « تُسَوَّى » بفتح التاء والتشديد في السين . وحزرة والكسائي كذلك إلا أنها خفقا السين . والباقون صَوَّوْا التاء وخفقا السين ، مَبْنِيًّا للفعل والفاعل غير مُسَمًّى . والمعنى لو يُسَوَّى الله بهم الأرض ، أى يجعلهم والأرض سواء . ومعنى آخر : تَمَسَّوْا لو لم يعيهم الله وكانت الأرض مستوية عليهم ؛ لأنهم من التراب قلوا . وعلى القراءة الأولى والثانية فالأرض فاعلة ، والمعنى تَمَسَّوْا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها ؛ قاله قتادة . وقيل : الباء بمعنى على ، أى لو تُسَوَّى عليهم أى تَشَقَّقَ فَنَسَوَى عليهم ؛ عن الحسن . فقرأه التشديد على الإدغام ، والتخفيف على



حذف اللام . وقيل : إنما غمّوا هذا حين رأوا الهائم نصير ترابا وعلوا أنهم غمدون في الغمر وهذا معنى قوله تعالى : « وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . وقيل : إنما غمّوا هذا حين شهدت هذه الأمة للأنياء على ما هتتم في « البقرة » عند قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » الآية . فقول الأمم الخالية : إن فيهم الزناة والسراق فلا قبل شهادتهم فيركبهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول المشركون : « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فيحتم على أفواههم وتشد أرجلهم وأيديهم بما كانوا يكسبون ؛ فذلك قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُلَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ » يعني تحسف بهم . والله أعلم .

قوله تعالى : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » قال الزجاج قال بعضهم : « لا يكتُمون الله حديثا » مستألف ؛ لأن ما علموه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمان . وقال بعضهم : هو معطوف ، والمعنى يود لو أن الأرض سويت بهم وأنهم لم يكتُموا الله حديثا لأنه ظهر كذبهم . وسئل ابن عباس عن هذه الآية ، وعن قوله تعالى : « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فقال : لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » تختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم فلا يكتُمون الله حديثا . وقال الحسن وقائدة : الآخرة مواطن يكون هذا في بعضها وهذا في بعضها . وسماه الله لما تبين لهم وحوسبوا لم يكتُموا . وسيأتي لهذا مزيد بيان في « الأنعام » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٢٥﴾

فيه أربع وأربعون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِئُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى ) خص الله سبحانه وتعالى بهذا الخطاب المؤمنين ؛ لأنهم كانوا يقيمون الصلاة وقد أخذوا من الخمر وأتلفت عليهم أذنهم فخصوا بهذا الخطاب ، إذ كان الكفار لا يفعلونها حجة ولا سُكَّارَى .  
 روى أبو داود عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال عمر : اللَّهُمَّ يَنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتٌ شَافِيَةٌ ؛ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ » قَالَ : فَدَعَى عُمَرُ قُرَشْتَ عَلَيْهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ يَنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتٌ شَافِيَةٌ ؛ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّسَاءِ « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِئُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى » فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ يَنَادِي : أَلَا لَا يَقْرِئُ الصَّلَاةَ سَكَرَانَ . فَدَعَى عُمَرُ قُرَشْتَ عَلَيْهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ يَنْ لَنَا بَيِّنَاتٌ شَافِيَةٌ ؛ فَنَزَلَتِ هَذِهِ الْآيَةُ : « فَمَنْ أَتَمَّ مَسْتَهْوًى » قَالَ عُمَرُ : أَتَيْتُنَا . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : كَانَ النَّاسُ عَلَى أَمْرِ جَاهِلِيَّتِهِمْ حَتَّى يُؤْمَرُوا أَوْ يَنْهَوْا ؛ فَكَانُوا يَشْرِبُونَهَا أَوَّلَ الْإِسْلَامِ حَتَّى نَزَلَتْ : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » . قَالُوا : نَشْرِبُهَا لِلتَّغْنَةِ لَا لِلإِثْمِ ؛ فَشَرِبَهَا رَجُلٌ فَقَدَّمَ يَصَلِّي بِهِمْ فَقَرَأَ : قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ ؛ فَنَزَلَتْ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِئُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى » . قَالُوا : فِي ضَرْعِينَ الصَّلَاةِ . فَقَالَ عُمَرُ : اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتًا شَافِيَةً ؛ فَنَزَلَتْ : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ » الْآيَةَ . فَقَالَ عُمَرُ : أَتَيْتُنَا ، أَتَيْتُنَا . ثُمَّ طَافَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَلَا إِنَّمَا الْخَمْرُ قَدْ حُرِّمَتْ ؛ عَلَى مَا يَأْتِي بَيِّنَاتُهُ فِي « الْمَائِدَةِ » إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .  
 وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ : صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَنَقَاتَنَا مِنَ الْخَمْرِ ، فَأَخَذَتْ الْخَمْرُ مِنَّا ، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَدَّمُونِي فَقَرَأَتْ : قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَغَنَ نَعِيدُ مَا تَعْبُدُونَ . قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِئُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . قَالَ أَبُو عَمِيصٍ : هَذَا حَلِيفٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَجِهَ الْإِتِّصَالُ وَالنَّظْمُ بِمَا قَبْلَهُ أَنَّهُ قَالَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا

تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . ثم ذكر بعد الإيمان الصلاة التي هي رأس العبادات ؛ ولذلك يُقتل  
بإرتكابها ولا يسقط فرضها ، وانجز الكلام إلى ذكر شروطها التي لا تصح إلا بها .

الثانية - والجهور من العلماء وجماعة الفقهاء على أن المراد بالسكر سكر الخمر ؛ إلا  
الضحك فإنه قال : المراد سكر النوم ؛ لقوله عليه السلام : " إذا نسي أحدكم في الصلاة فليرقأ  
حتى يذهب عنه النوم ، فإنه لا يدرى لعله يستغفر فيسب نفسه " . وقال عبيدة السلماني :  
« وأتم سكرارى » <sup>(١)</sup> يعنى إذا كنت حاقنا ؛ لقوله عليه السلام : " لا يصلّي أحدكم وهو  
حاقن " في رواية " وهو ضام بين غفنيه " .

قلت : وقول الضحاك وعبيدة صحيح المعنى ؛ فإن المطلوب من المصلّي الإقبال على الله  
تملى بقلبه وترك الانشغالات إلى غيره ، والخلو عن كل ما يشوش عليه من نوم وحقنة وجوع ،  
وكل ما يشتغل بالبال ويغير الحلال . قال صلى الله عليه وسلم " إذا حضر البشاء وأقيمت  
الصلاة فابدؤوا بالبشاء " . فإما صلى الله عليه وسلم زوال كل مشوش يتعلق به الناظر ، حتى  
يقبل على عبادة ربه فراغ قلبه وخالص قلبه ، فيخشع في صلاته ، ويدخل في هذه الآية :  
« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » على ما يأتى بيانه . وقال ابن عباس :  
إن قوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » منسوخ بآية المسائدة :  
« إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا » الآية . فأمروا على هذا القول ألا يصلّوا سكرارى ، ثم أبسروا  
بأن يصلّوا على كل حال ؛ وهذا قبل التحريم . وقال مجاهد : نسخت بقرع الخمر . وكذلك  
قال عكرمة وقادة ، وهو الصحيح في الباب لحديث علي المذكور . وروى أن عمر بن الخطاب  
رضي الله عنه قال : أقيمت الصلاة فتأدى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقربن  
الصلاة سكران ؛ لأنه ذكره التماس . وعلى قول الضحاك وعبيدة الآية محكمة لا نسخ فيها .

الثالثة - قوله تعالى : ( لَا تَقْرَبُوا ) إذا قيل : لا تقرب بفتح الراء كان معناه  
لا تلبس بالفعل ، وإذا كانت بضم الراء كان معناه لا تدب منه . والخطاب لجماعة الأمة

(١) الحاقن : المبتغى بوجه كثير .

الصالحين . وأما السكران إذا جدم للميز لسكره فليس بمخاطب في ذلك الوقت للذهاب عقله ؛ وإنما هو مخاطب بامتنال ما يجب عليه ، وبتركفير ما ضيع في وقت سكره من الأحكام التي تهتر تكليفه إياها قبل السكر .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ الصَّلَاة ﴾ اختلف العلماء في المراد بالصلاة هنا ؛ وقالت طائفة : هي العبادة المعروفة نفسها ؛ وهو قول أبي حنيفة ؛ ولذلك قال « حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . وقالت طائفة : المراد مواضع الصلاة ؛ وهو قول الشافعي ، خفف المضارب . وقيل قال تعالى « لَهَدَمْتُمْ صَوَامِعَ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتُ » فسعى مواضع الصلاة صلاة . ويدل على هذا التأويل قوله تعالى « وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ » وهذا يقتضي جواز العبور للجنب في المسجد لا الصلاة فيه . وقال أبو حنيفة : المراد بقوله تعالى « وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ » المسافر إذا لم يجد الماء فإنه يتيم ويصل ؛ وسباني بيانه . وقالت طائفة : المراد الموضع والصلاة معا ؛ لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا للصلاة ولا يصلون إلا مجتمعين ، فكانا متلازمين .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ ابتداء وخبر ، جملة في موضع الحال من « تَقْرَبُوا » ، و « سُكَارَى » جمع سكران ؛ مثل كلان وكسالى . وقرأ النخعي « سُكْرَى » بفتح السين على مثال فعل ، وهو تكسير سكران ؛ وإنما كسر على سكرى لأن السكرافة تلحق العقل بغير مجرى صرعى وبابه . وقرأ الأحمش « سُكْرَى » كحلي فهو صفة مفردة ؛ وجاز الإخبار بالصفة المفردة عن الجماعة على ما يستعملونه من الإخبار عن الجماعة بالواحد . والسكر : نقيض الصحو ؛ يقال : سَكِرَ سَكْرًا ، من باب حَمِدَ يَحْمَدُ . وسَكِرَتْ عينه تَسْكُرُ أى تحيرت ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْهَا سَكِرَتْ أَبْصَارُنَا » . وسكرت الشق سددته . فالسكران قد أقطع عما كان عليه من العقل .

السادسة - وفي هذه الآية دليل بل نص على أن الشرب كان مباحا في أول الإسلام حتى يتيسر بصاحبه إلى السكر . وقال قوم : السكر محرم في العقل وما أبيع في شيء من

الأديان ، ونحوها السر في هذه الآية على التمام . وقال القفال : يحمل أنه كان أبيع لهم من الشراب ما يحرك الطبع إلى السخاء والشجاعة والحيمة .

قلت : وهذا المعنى موجود في أشعارهم ؛ وقد قال حسان :

« ونسريها فتركنا ملوكا »

وقد أشبعنا هذا المعنى في « البقرة »<sup>(١)</sup> . قال القفال : فأنما ما يزيل العقل حتى يصير صاحبه في حد الجنون والإغماء فما أبيع قصده ، بل لو أخفق من غير قصد فيكون مرفوعا عن صاحبه . قلت : هذا صحيح ، وسيأتي بيانه في « المائة » إن شاء الله تعالى في قصة حمزة . وكان المسلمون لما نزلت هذه الآية يمتنعون الشراب أوقات الصلوات ، فإذا صلوا العشاء شربوها ، فلم يزالوا على ذلك حتى نزل تحريمها في « المائة » في قوله تعالى : « فهل أتم<sup>(٢)</sup> منتهون<sup>(٣)</sup> » .

السابعة — قوله تعالى : ( حَتَّى تَمْلَأُوا مَا مَخْلُوفٌ ) أى حتى تملأوه متيقنين فيه من غير غلط . والسكران لا يعلم ما يقول ؛ ولذلك قال عثمان بن عفان رضى الله عنه : إن السكران لا يلزمه طلاقه . وروى عن ابن عباس وطائوس وعطاء والقاسم وزبيدة ، وهو قول الليث ابن سعد وإسحاق وأبي ثور والمزني ؛ واختاره الطحاوى وقال : أجمع العلماء على أن طلاق المعتوه لا يجوز ، والسكران معتوه كالموسوس معتوه بالسواس . ولا يختلفون أن من شرب الخمر فذهب عقله أن طلاقه غير جائز ؛ فكلك من سكر من الشراب . وأجازت طائفة طلاقه ؛ وروى عن عمر بن الخطاب ومعاوية وجماعة من التابعين ، وهو قول أبي حنيفة والثوري والأوزاعي ، واختلف فيه قول الشافعي . وألزمه مالك الطلاق والقود في الجراح والقتل ، ولا يلزمه انتكاح والبيع . وقال أبو حنيفة : أفعال السكران وعقوده كلها ثابتة كأفعال الصالح ، إلا الرقة فإنه إذا ارتد لا تبين منه أمراته إلا استحسانا . وقال أبو يوسف : يكون مريئا في حال سكره ، وهو قول الشافعي إلا أنه لا يقتله في حال سكره ولا يستتبه .

(١) راجع ج ٣ ص ٥٥ وما بعدها طبع أول أو ثانية . (٢) في المائة قلادة ٩٠ .

وقال الإمام أبو عبد الله النّسائي : « وقد رُويَ عندنا رواية شاذة أنه لا يلزم طلاق  
السكران . وقال محمد بن عبد الحكم : لا يلزم طلاق ولا عتاق . قال ابن شاس : وزل  
الشيخ أبو الوليد الخفاف على المخطئ الذي معه بقية من عقله إلا أنه لا يملك الاختلاط من  
نفسه فيخطئ ويصيب . قال : فأما السكران الذي لا يعرف الأرض من السماء ولا الرجل  
من المرأة فلا اختلاف في أنه كالمجننون في جميع أفعاله وأحواله فيما بينه وبين الناس ، وفيما  
بينه وبين الله تعالى أيضا ، إلا فيما ذهب وقته من الصلوات ، فقليل : إنها لا تسقط عنه  
بخلاف المجنون ؛ من أجل أنه يادخله السكر على نفسه كالتمتع لتركها حتى تخرج وقتها .  
وقال سفيان الثوري : حدّ السكر اختلال العقل ؛ فإذا استقرئ غلط في قراءته وتكلم بما  
لا يعرف جليد . وقال أحمد : إذا تغير عقله عن حال الصحة فهو سكران ؛ ويحكي عن مالك  
نحوه . قال ابن المنذر : إذا غلط في قراءته فهو سكران ؛ استدلالاً بقول الله تعالى : « حتى  
تعملوا ما تقولون » . فإذا كان بحيث لا يعلم ما يقول تجنب المسجد مخافة التلويث ؛ ولا  
تصح صلاته وإن صل قضي ، وإن كان بحيث يعلم ما يقول وآتى بالصلاة فحكمه حكم الصالح .  
الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنُبًا ﴾ عطف على موضع الجملة المنصوبة في قوله :  
« حَتَّى تَعْلَمُوا » أي لا تعملوا وقد أجنبتم . ويقال : تجنبتم وأجنبتم وجنبتم بمعنى . ولفظ  
الجنب لا يؤنث ولا يثنى ولا يُجمع ؛ لأنه على وزن المصدر كالبعد والقرب . وربما خففوه  
تقالوا : جنب ؛ وقد قرأه كذلك قوم . وقال الفراء : يقال جنب الرجل وأجنب من الجنبات .  
وقيل : يجمع الجنب في لغة على أجنب ، مثل عتي وأعتاق ، وطئ وطئ وأطنا . ومن قال  
للواحد جنب قال في الجمع : جنب ؛ كقولك : راكب وركاب . والأصل البعد ؛ كأن  
الجنب بعد بخروج الماء الدافق عن حال الصلاة ؛ قال :

فلا تحميرني فائلا من جنابة : فإني أمرؤ وسط الثياب غريب <sup>(١)</sup>

ورجل جنب : غريب . والجنب غائلة الليل للمرأة .

التاسعة - واليهود من الأمة على أن الحنْب هو غير الطاهر من إزال أو مجاورة  
خَتَانٍ . وروى عن بعض الصحابة أن لا غسل إلا من إزال ؛ لقوله عليه السلام : " إنما  
الماء من الماء " أخرجه مسلم . وفي البخاري عن أبي بن كعب أنه قال : يا رسول الله ،  
إذا جامع الرجل المرأة فلم يترل؟ قال : " يَفِسل ما مس المرأة منه ثم يَتوضأ ويُصلي " . قال  
أبو عبد الله : <sup>(١)</sup> النسل أحوط ؛ وذلك الآخر إنما <sup>(٢)</sup> يتناه لأختلافهم . وأخرجه مسلم في صحيحه  
بمعناه ، وقال في آخره : قال أبو العلاء بن الشَّخِير كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينسخ  
حديثه بعضه بعضا كما ينسخ القرآن بعضه بعضا . قال أبو إسحاق : هذا منسوخ . وقال  
الترمذي : كان هذا الحكم في أول الإسلام ثم نسخ .

قلت : على هذا جماعة العلماء من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ، وأن النسل  
يجب بنفس التقاء الختانين . وقد كان فيه خلاف بين الصحابة ثم رجعوا فيه إلى رواية عائشة  
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جلس بين شعبها الأربع ومس الختان الختان فقد  
وجب التهل " . أخرجه مسلم . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال : " إذا قعد بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب عليه الفسل " . زاد  
مسلم " وإن لم يترل " . قال ابن القصار : وأجمع التابعون ومن بعدهم بعد خلاف من قبلهم  
على الأخذ بحديث " إذا ألتقى الختانان " وإذا صح الإجماع بعد الخلاف كان مُقْطَعاً للخلاف .  
قال القاضي عياض : لا تعلم أحدا قال به بعد خلاف الصحابة إلا ما حكى عن الأعمش ثم بعده  
داود الأصبهاني . وقد روى أن عمر رضى الله عنه حل الناس على ترك الأخذ بمجئ " الماء  
من الماء " لما اختلفوا . وأزله ابن عباس على الاختلام ؛ أي إنما يجب الاتصال بالماء  
من إزال الماء في الاختلام . ومتى لم يكن إزال وإن رأى أنه يجمع فلا غسل . وهذا  
ما لا خلاف فيه بين كافة العلماء .

(١) أبو عبد الله : كنية البخاري . (٢) قوله : « وذلك الآخر » أي ذلك الوجه الآخر ، أو الحديث  
الآخر فقال على عدم النسل . (٣) جهدها : دققها وحفرها . وقيل : أبلجها من أسماء الفتح .

تَابِ الْعَاشِرَةُ - قوله تعالى : ( إِلَّا عَايِرِي سَبِيلَ ) قال : عبرت الطريق أى قطعته من جانب إلى جانب . وعبرت النهر عبوراً ، وهذا عبر النهر أى شطه ، وقال صبره . والمعبر ما يُعبر عليه من سفينة أو قفطرة . وهذا عابر السبيل ماز الطريق . وناقى عبر أسفار . لا تزال يُسافر عليها ويُقطع بها القفلة والمهاجرة لسرعة مشيها . قال الشاعر :

عِبرَانُهُ مَرَحُ الْيَدَيْنِ شِمْلَةٌ \* عِبرُ الْهَوَاجِرِ كَالْمَرْفَأِ خَاضِبٌ <sup>(١)</sup>

وعبر القوم ما تواروا . وأنشد :

قضاء الله يغلب كل شيء \* ويلعب بالجزوع وبالصبور  
فإن تعبر فلك لنا مكات \* وإن تعبر فنحن على نذور

يقول : إن متنا قلنا أقران ، وإن بقينا فلا بد لنا من الموت ؛ حتى كات علينا في إتيانه نورا .  
الحادية عشرة - واختطف العلماء في قوله : ( إِلَّا عَايِرِي سَبِيلَ ) فقال علي رضي الله عنه وابن عباس وابن جبير ومجاهد والحكم : عابر السبيل المسافر . ولا يصح لأحد أن يقرب الصلاة وهو جنب إلا بعد الاغتسال ، إلا المسافر فإنه يتييم ؛ وهذا قول أبي حنيفة لأن الغالب في الماء لا يمتد في الحضر . والحاضر يقتسل لوجود الماء ، والمسافر يتييم إذا لم يجد . قال ابن المنذر : وقال أصحاب الرأي في الجنب المسافر يزى على مسجد فيه عين ماء يتييم الصبيد ويدخل المسجد ويستقي منها ثم يخرج الماء من المسجد . ورخصت طائفة في دخول الجنب للمسجد . واحتج بعضهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " المؤمن ليس بغنيس " . قال ابن المنذر : وبه قول . وقال ابن عباس أيضا وابن مسعود وعكرمة والتخفي : عابر السبيل الخاطر المجتاز ؛ وهو قول عمرو بن دينار ومالك والشافعي . وقالت طائفة : لا يميز الجنب في المسجد إلا ألا يجد بُناً فيتم ويمز فيه ؛ هكذا قال الثوري وإسحاق ابن راهويه . وقال أحمد وإسحاق في الجنب : إذا توضأ لا بأس أن يجلس في المسجد ؛

(١) البراءة من الإبل : الناجية في قناطر . والرح من الإبل : السريعة المشي . وشمله : غفيرة سرية مشيرة . والمرفأ : الجاني من الغلمان . وقيل : العلويل الريش . والخاضب : الظلم إذا أكل الربيع فأحورت ساقه ونوادمه .



حكاه ابن المنذر . وزوى بعضهم في سبب الآية أن قوما من الأنصار كانت أبواب دورهم شاردة في المسجد ، فإذا أصاب أحدهم الجنابة اضطروا إلى المرور في المسجد .

قلت : وهذا صحيح ، ويُضاهيه ما رواه أبو داود عن جَسْرَةَ بنت دُبَابَةَ قالت سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوه بيوت أصحابه شاردة في المسجد ، فقال : " وجَّهوا هذه البيوت عن المسجد " . ثم دخل النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصنع القوم شيئا رجاء أن يترل فيهم رخصة فخرج إليهم بعدُ فقال : " وجَّهوا هذه البيوت عن المسجد فإنِّي لا أحل المسجد لحائض ولا جنِّب " . وفي صحيح مسلم : " لا تبقيَنَّ في المسجد خَوْخَةٌ <sup>(١)</sup> إلا خَوْخَةٌ إِي بَكَر " . فأمر صلى الله عليه وسلم بسدِّ الأبواب لما كان يؤدِّي إلى اتِّخَاذِ المسجد طريقاً والبُور فيه . واستثنى خَوْخَةٌ إِي بَكَر إكراماً له وخصوصية ؛ لأيهما كانا لا يفترقان غالباً . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن أذن لأحد أن يمر في المسجد ولا يجلس فيه إلا على بَنِي أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه . رواه عطية المَوْفِيُّ عن أَبِي سَمِيْدٍ الْهَضْرِيِّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ينبغي لمسلم ولا يصح أن يجنب في المسجد إلا أنا وعلى " . قال عليُّ بنُنا : وهذا يجوز أن يكون ذلك ؛ لأن بيت علي كان في المسجد ، كما كان بيت النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد . وإن كان اليتان لم يكونا في المسجد ولكن كانا متصليين بالمسجد وأبوابهما كانت في المسجد فجلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد فقال : " ما ينبغي لمسلم " الحديث . والذي يدلُّ على أن بيت علي كان في المسجد ما رواه ابن شهاب عن سالم بن عبد الله قال : سألت رجلاً أبي عن علي وعثمان رضي الله عنهما أيهما كان خيراً ؟ فقال له عبد الله بن عمر : هذا بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأشار إلى بيت علي إلى جنبه ، لم يكن في المسجد فيهما ؛ وذكر الحديث . فلم يكونا يجنبان في المسجد وإنما كانا يجنبان في بيوتهما ، وبيوتهما من المسجد إذ كان أبوابهما فيه ؛ فكانا يستطرفانه في حال الجنابة إذا خرجا من بيوتهما . ويجوز أن

(١) الخوخة (فتح الخاء) : الباب الصغير من الخشب أو الدارين .

يكون ذلك تخفيفاً لهما ؛ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخص بأشياء ، فيكون هذا مما خص به ، ثم خص النبي صلى الله عليه وسلم علياً عليه السلام فرخص له في ما لم يرخص فيه لغيره . وإن كانت أبواب بيوتهم في المسجد ، فإنه كان في المسجد أبواب بيوت غير بيتيها ؛ حتى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بسدّها إلا باب علي . وروى عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سُدُّوا الأبواب إلا باب علي » فخصه عليه السلام بأن ترك باباً في المسجد ، وكان يحب في بيته وبيته في المسجد . وأما قوله : « لا تبقيَنَّ في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر » فإن ذلك كانت - والله أعلم - أبواباً تطلع إلى المسجد خوخات ؛ وأبواب البيوت خارجة من المسجد ؛ فأمر عليه السلام بسد تلك الخوخات وترك خوخة أبي بكر إكراماً له . والخوخات كالكوى والمشاكى و باب علي كان باب البيت الذي كان يدخل منه ويخرج . وقد فسّر ابن عمر ذلك بقوله : ولم يكن في المسجد غيرها .

فإن قيل : فقد ثبت عن عطاء بن يسار أنه قال : كان رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تصيهم الجناية فيتوضئون ويأتون المسجد فيتحذّثون فيه . وهذا يدل على أن اللبث في المسجد للجنب جائز إذا توضأ ؛ وهو مذهب أحمد وإسحاق كما ذكرنا . فالجواب أن الوضوء لا يرفع حدث الجناية ، وكل موضع وُضع للعبادة وأكّرم عن النجاسة الظاهرة يبنى ألا يدخله من لا يرضى لتلك العبادة ، ولا يصح له أن يطمس بها . والغالب من أحوالهم للمقولة أنهم كانوا يقتلون في بيوتهم . فإن قيل : يبطل بالحدث . قلنا : ذلك يكثر وقوعه فيشق الوضوء منه ؛ وفي قوله تعالى : « وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ » ما يفتى ويكتفى . وإذا كان لا يجوز له اللبث في المسجد فأحرى له ألا يجوز له مس المصحف ولّا القراءة فيه ؛ إذ هو أعظم حرمة . وسيأتي بيانه في « الواقعة »<sup>(١)</sup> إن شاء الله تعالى .

الثانية عشرة - ويُنْعَى الجَنُوب عند علمائنا من قراءة القرآن ثالِباً إلا الآيات اليسيرة للترنّد . وقد روى موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " لا يقرأ الجنب والحائض شيئا من القرآن " أخرجه ابن ماجه . وأخرج الثارقي  
 من حديث سفيان عن مسر وشعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن علي قال :  
 كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصحبه عن قراءة القرآن شيء إلا أن يكون جنباً . قال  
 سفيان قال لي شعبة : ما أحدثت بمحدث أحسن منه . وأخرجه ابن ماجه قال : حدثنا محمد  
 ابن بشير حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة ؛ فذكره بمعناه ، وهذا إسناده  
 صحيح . وعن ابن عباس عن عبد الله بن رواحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن  
 يقرأ أحدنا القرآن وهو جنب ؛ أخرجه الثارقي . وروى عن عكرمة قال : كان ابن رواحة  
 مضطجماً إلى جنب أمراءه فقام إلى جارية له في ناحية الحجر فوقع عليها ؛ وفزع أمراءه  
 فلم يجده في مضجعه ؛ فقامت ونجرت فراءه على جاريته ؛ فخرجت إلى البيت فأخذت  
 الشفرة ثم خرجت ، وفرغ فقام فلقها بحمل الشفرة فقال : مهيم ؟ قالت : مهيم ! لو أدركك  
 حيث رأيتك لوجأت بين كفك هذه الشفرة . قال : وأين رأيتي ؟ قالت : رأيتك على  
 الجارية ؛ فقال : ما رأيتي ؛ وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ أحدنا القرآن  
 وهو جنب . قالت : فأقرأ ، فقال :

أنا رسول الله يسلو كتابه • كإلاج مشهور من الفجر ساطع

أتى بالهدى بعد السمي قلوبنا • به موقنات أن ما قال وإسع

بيت يحاق جنبه عن فراشه • إذا استنظت بالمشركين المنابع

فقال : آمنت بالله وكذبت البصر . ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ؛  
 فضحك حتى بدت نواجذه صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَنْسَلُوا ﴾ نهى الله سبحانه وتعالى عن الصلاة  
 إلا بعد الاغتسال ؛ والاغتسال معنى معقول ، ولفظه عند العرب معلوم ، يستبر به عن إصرار

(١) مهيم : كلمة يمانية يضمهم يا ، ساطع : ما جالك وما شاك ، وما هذا الذي أرى بك ؟ ونحو هذا  
 من الكلام . (٢) الوج : العرب .

اليوم مع الماء على المنسول؛ ولذلك فرقت العرب بين قولهم : غسلت الثوب؛ وبين قولهم :  
أغسنت عليه الماء وغمسته في الماء . وإذا تقرر هذا فأعلم أن العلماء اختلفوا في النجف  
يصب على جسده الماء أو يتغمس فيه ولا يتدلك؛ فالشهور من مذهب مالك أنه لا يميزه  
حتى يتدلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى أمر النجف بالاعتسال؛ كما أمر المتوضئ بفسل وجهه  
وبيديه؛ وهذا قول المُرزقي وأخياره . قال أبو الفرج عمرو بن محمد المالكي : وهذا هو  
المعقول من لفظ الفسل؛ لأن الاعتسال في اللغة هو الاعتمال ، ومن لم يمز يديه فلم يفعل غير  
صب الماء لا يسميه أهل اللسان غاسلا، بل يسمونه صابا لاء ومتغسما فيه . قال : وعلى  
نحو هذا جاءت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تحت كل شعرة جناة فأغسلوا  
الشعر وأقنوا البشرة " قال : وإعناؤه - والله أعلم - لا يكون إلا بتدليك؛ على حد ما ذكرنا .

قلت : لا حجة فيما استدل به من الحديث لوجهين : أحدهما - أنه قد حُولف في تأويله ؛  
قال سفيان بن عيينة : المراد بقوله عليه السلام " وأقنوا البشرة " أراد غسل الفرج وتنظيفه ،  
وأنه كنى بالبشرة عن الفرج . قال ابن وهب : ما رأيت أحدا يفسر الأحاديث من ابن عيينة .

الثاني : أن الحديث أخرجه أبو داود في سننه وقال فيه : وهذا الحديث ضعيف ؛  
كما في رواية ابن ناست . وفي رواية الأوثمي عنه : الحارث بن وجيه ضعيف ، حديثه  
منكر ؛ فسقط الاستدلال بالحديث ، وبقي الموقوف على اللسان كما بينا . وبعضه ما ثبت  
في صحيح الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بصبي فبال عليه ، فدعا بماء فأتبعه بوله  
رلم يسله ؛ رومه عائشة، ونحوه عن أم قيس بنت محسن؛ أخرجهما مسلم . وقال الجمهور  
من العلماء وجماعة الفقهاء : يميز النجف صب الماء والاعتسال فيه إذا أسبغ وعم وإن لم  
يتدلك؛ على مقتضى حديث سميرة وعائشة في غسل النبي صلى الله عليه وسلم . رواهما الأئمة ،  
وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفيض الماء على جسده ؛ وبه قال محمد بن عبد الحكم ،  
وإليه رجح أبو الفرج ورواه عن مالك قال : وإنما أمر بإسراار اليدين في الفسل لأنه  
لا يكاد من لم يمز يديه عليه يسلم من تنكح الماء عن بعض ما يجب عليه من جسده . قال

أَبْنُ الْعَرَبِيِّ : وَأَعْجَبَ لِأَبْنِ الْفَرَحِ الَّذِي رَأَى وَجَّحِي عَنْ صَاحِبِ الْمَذْهَبِ أَنَّ الْغَسْلَ دُونَ ذَلِكَ يَجْزِي ! وَمَقَالَهُ قَطُّ مَالِكٌ نَصًّا وَلَا تَحْزِينًا ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ أَوْهَامِهِ .

قلت : قد رُويَ هَذَا عَنْ مَالِكٍ نَصًّا ؛ قَالَ مَرْوَانُ بْنُ عَبْدِ الظَّاهِرِيِّ وَهُوَ ثِقَةٌ مِنْ ثِقَاتِ الشَّامِيِّينَ : سَأَلْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ عَنْ زَيْلِ أَنْفَسٍ فِي مَاءٍ وَهُوَ جُنُبٌ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ ، قَالَ : مَضَتْ صَلَاتُهُ . قَالَ أَبُو عَمْرٍ : فَهَذِهِ الرَّوَايَةُ فِيهَا لَمْ يَتَلَكَّ وَلَا تَوَضَّأْ ، وَقَدْ أَجْزَاهُ عِنْدَ مَالِكٍ ، وَالْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِهِ أَنَّهُ لَا يَجْزِيهِ حَتَّى يَسْتَلِّكَ ؛ قِيَاسًا عَلَى غَسْلِ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ . وَحُجَّةُ الْجَمَاعَةِ أَنَّ كُلَّ مَنْ صَبَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ فَقَدْ أَعْتَسَلَ . وَالْعَرَبُ يَقُولُ : غَسَلْتُ السَّمَاءَ . وَقَدْ حَكَتْ عَائِشَةُ وَمَيْمُونَةُ مَعَهُ غَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَذْكُرَا تَلَكًُّا ، وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا مَاتَرَكَهُ ؛ لِأَنَّهُ الْمَبْنِي عَنْ اللَّهِ مَرَادُهُ ، وَلَوْ فَصَّلَهُ لُنُقِلَ عَنْهُ ؛ كَمَا نُقِلَ تَحْلِيلُ أَصُولِ شَعْرِهِ بِالْمَاءِ وَغَرَفُهُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ صِفَةِ غَسْلِهِ وَوَضُوئِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . قَالَ أَبُو عَمْرٍ : وَغَيْرَ تَكْرِيرِ أَنَّ يَكُونُ الْغَسْلُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ مَرَّةً بِالْمَرْكِ<sup>(١)</sup> وَمَرَّةً بِالصَّبِّ وَالْإِقَاضَةِ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا لِأَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ تَعَبَّدَ عِبَادَهُ فِي الْوُضُوءِ بِإِمْرَارِ أَيْدِيهِمْ عَلَى وَجْهِهِمْ مَعَ الْمَاءِ وَيَكُونُ ذَلِكَ غَسْلًا ، وَأَنْ يَفِضُوا الْمَاءَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي غُسْلِ الْجَنَابَةِ وَالْجِيصِ وَيَكُونُ ذَلِكَ غَسْلًا مُوَافِقًا لِلْسَّنَةِ غَيْرَ خَارِجٍ مِنَ اللَّفْظَةِ ، وَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَمْرَيْنِ أَصْلًا فِي نَفْسِهِ ، لَا يَجِبُ أَنْ رَدَّ أَحَدُهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ ؛ لِأَنَّ الْأَصُولَ لَا يَرُدُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ قِيَاسًا — وَهَذَا مَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ — وَإِنَّمَا رَدُّ الْفُرُوعِ قِيَاسًا عَلَى الْأَصُولِ . وَبِإِذْنِ التَّوْفِيقِ .

الرابعة عشرة — حَدِيثُ مَيْمُونَةَ وَعَائِشَةَ يَرُدُّ مَا رَوَاهُ شُعْبَةُ مَوْلَى أَبِي عَبَّاسٍ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ إِذَا اغْتَسَلَ مِنَ الْجَنَابَةِ غَسَلَ يَدَيْهِ سَبْعًا وَفَرْجَهُ سَبْعًا . وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي عَمْرٍ قَالَ : كَانَتْ الصَّلَاةُ خَمْسِينَ ، وَالْغَسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ سَبْعَ مَرَارٍ ، وَغَسَلَ الْبَوْلَ مِنَ التَّوْبِ سَبْعَ مَرَارٍ ؛ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ حَتَّى حِيلَتِ الصَّلَاةُ خَمْسًا ، وَالْغَسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ

ضربة، والنسل من البول مرة . قال ابن عبد البر : وإسناد هذا الحديث عن ابن عمر فيه ضعف ولين، وإن كان أبو داود قد خرجه والذي قبله عن شعبة مولى ابن عباس، وشعبة هذا ليس بالقوي، ويردّهما حديث عائشة وميمونة .

الخامسة عشرة - ومن لم يستطع إمرار يده على جسده فقد قال متخون : يجعل من يلى ذلك منه، أو يعالجه بخرفة . وفي الواضحة يمز يديه على ما يديره من جسده، ثم يفيض الماء حتى ييم ما لم تبلغه يده .

السادسة عشرة - واختلف قول مالك في تحليل الجنب لحية ؟ فروى ابن القاسم عنه أنه قال : ليس عليه ذلك . وروى أشهب عنه أن عليه ذلك . قال ابن عبد الحكم : ذلك هو أحب إلينا؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخلل شعره في غسل الجنابة، وذلك عام وإن كان الأظهر فيه شعر رأسه ؛ وعلى هذين القولين العلماء . ومن جهة المعنى أن استيعاب جميع الجسد في الغسل واجب، والبشرة التي تحت الخية من جلته ؛ فوجب إصصال الماء إليها ومباشرتها باليد . وإنما انتقل الفرض إلى الشعر في الطهارة الصغرى لأنها مبنية على التخفيف . ونبابة الأبدال فيها من غير ضرورة ؛ ولذلك جاز فيها المسح على الخفين ولم يميز في الغسل .

قلت : ويضد هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « تحت كل شعرة جنابة » .

السابعة عشرة - وقد بالغ قوم فأوجبوا المضمضة والاستنشاق ؛ لقوله تعالى : « حتى تفتسكوا » منهم أبو حنيفة ؛ ولأنهما من جملة الوجه وحكمهما حكم ظاهر الوجه كالخلة والجنين، فمن تركهما وصلّى أعاد كن ترك لمعة<sup>(١)</sup>، ومن تركهما في وضوئه فلا إعادة عليه . وقال مالك : ليستا بفرض لأن الجنابة ولا في الوضوء ؛ لأنهما باطنان كداخل الجسد . وبذلك قال محمد بن جرير الطبري والليث بن سعد والأوزاعي وجماعة من التابعين . وقال ابن أبي ليلى وحمام بن أبي سليمان : هما فرض في الوضوء والغسل جميعاً، وهو قول إمام

(١) الة : الموضع لا يسميه الماء في الوضوء أو الغسل .

وأحد بن حنبل وبعض أصحاب داود . وروى عن الزهري وعطاء مثل هذا القول . وروى عن أحمد أيضا أن المضمضة والاستنشاق فرض ، وقال به بعض أصحاب داود ، وحجة من لم يوجبها أن الله سبحانه لم يذكرها في كتابه ، ولا أوجبهما رسوله ، ولا أتفق الجميع عليه ، والفرائض لا تنبت إلا بهذه الوجوه . احتج من أوجبها الآية ، وقوله تعالى : « تَغَسَّلُوا وُجُوهَكُمْ » فإوجب في الواحد من التسل وجب في الآخر ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يحفظ عنه أنه ترك المضمضة والاستنشاق في وضوئه ولا في غسله من الجنابة ، وهو المتيقن من الله مراده قولاً وعملاً . احتج من فرق بينهما بأن النبي صلى الله عليه وسلم فعل المضمضة ولم يأمر بها ، وأفعاله مندوب إليها ليست بواجبة إلا بدليل ، وفعل الاستنشاق وأمر به ، وأمره على الوجوب أبدا .

الثامنة عشرة - قال علماؤنا : ولا بد في غسل الجنابة من التيمم ، لقوله تعالى : « حَتَّى تَغْتَسِلُوا » وذلك يقتضي التيمم ، وبه قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور ، وكذلك الرضا ومير التيمم . وعضدوا هذا بقوله تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » والإخلاص التيمم في التقرب إلى الله تعالى ، والقصد له بأداء ما أقرض على حياته المؤمنين ، وقال عليه السلام : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » وهذا عمل . وقال الأوزاعي والحسن : يُجْزَى الرُّضْوُ والتيمم بنيرة . وقال أبو حنيفة وأصحابه : كل طهارة بالماء فإنها تجزى بنيرة ، ولا يجزى التيمم إلا بنية ، قياسا على إزالة التجاسة بالإجماع من الأبدان والياب بنيرة . ورواه الوليد بن مسلم عن مالك .

التاسعة عشرة - وأما قدر الماء الذي يتسبل به ، فروى مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتسل من إماء هو الفرق من الجنابة ، « الفرق » تحرك راؤه وتُسكن . قال ابن وهب : « الفرق » مكيال من الخشب ، كان ابن شهاب يرون : إنه يسع خمسة أقداس بأقداس بنى أمية . وقد فسر محمد بن عيسى الأعشى « الفرق » فقال : ثلاثة أصح ، قال وهي خمسة أقداس ، قال

وفي الخمسة أفساط اثنا عشرًا مئًا بمَد النبي صلى الله عليه وسلم . وفي صحيح مسلم قال صفيان : « الفرق » ثلاثة أصعب . وعن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالماء ويتنسل بالصاع إلى خمسة أمداد . وفي رواية : يتنسل بخمسة مكاييك ويتوضأ بمكوك<sup>(١)</sup> . وهذه الأحاديث تدل على استحباب تقليل الماء من غير كيل ولا وزن ، يأخذ منه الإنسان بقدر ما يكفي ولا يكثر منه ، فإن الإكثار منه سرف والعرف مذموم . ومنهذه الأباضية الإكثار من الماء ، وذلك من الشيطان .

المروية عشرين - قوله تعالى : ( وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ) هذه آية التيمم ، نزلت في عبد الرحمن بن عوف أصابته جنابة وهو جريح ، فرخص له في أن يديم ، ثم صارت الآية عامة في جميع الناس . وقيل : نزلت بسبب عدم الصعابة الماء في غزوة «المريسيع» حين أقطع البغد لعائشة . أخرج الحديث مالك من رواية عبد الرحمن ابن القاسم عن أبيه عن عائشة . وترجم البخاري هذه الآية في كتاب التفسير : حدثنا محمد قال أخبرنا حبة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : هنكت قلادة لأبيها فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في طلبها رجالا ، فحضرت الصلاة وليدوا على وضوء ولم يجدوا ماء ففصلوا وهم على غير وضوء ، فأنزل الله تعالى آية التيمم .

قلت : وهذه الزوايا ليس فيها ذكر للوضع ، وفيها أن القلادة كانت لأبيها ، خلاف حديث مالك . وذكر النسائي من رواية علي بن مَرْث عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها استعارت من أسماء قلادة لها وهي في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنسلت منها وكان ذلك المكان يقال له الصلصل<sup>(٢)</sup> . وذكر الحديث . ففي هذه الرواية عن (١) المكوك (كثور) : مكاييل معروف لأهل العراق ، والجمع مكاييك ومكايك ، وأراد به الله . وقيل : الصاع . والأول أشبه لأنه جاء في حديث آخر مضرا بالله .

(٢) المريسيع (مصر مرسوع) : يروى أنه تلخاظة على يوم من الفرج ، وإليه تصاف غزوة بني المصطلق .

(٣) الصلصل (ضم أوله ويخت) : موضع على بعد سبعة أميال من المدينة . (عن صحيح البلدان) .



هشام أن القِلادة كانت لأسماء ، وأن عائشة استعارتها من أسماء . وهذا بيان لحديث مالك إذا قال : اقطع عقد لعائشة ، ولحديث البخاري إذا قال : هلكت قِلادة لأسماء . وفيه أن المكان يقال له الصنصل . وأخرجه الترمذي حدثنا الحُمَيْدِيُّ حَدَّثَنَا سفيان حَدَّثَنَا هشام ابن عمرو عن أبيه عن عائشة أنها سقطت قِلادتها ليلة الأيواء ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين في طلبها ؛ وذكر الحديث . ففى هذه الرواية عن هشام أيضا إضافة القِلادة إليها ، لكن إضافة مستعير بدليل حديث النُسائي . وقال في المكان : «الأيواء» كما قال مالك ، إلا أنه من غير شك . وفي حديث مالك قال : وبشنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقدة تحته . وجاء في البخاري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجده . وهذا كله صحيح المعنى ، وليس اختلاف الثقل في العقدة والقِلادة ولا في الموضع ما يفسد في الحديث ولا يؤمن شيئا منه ؛ لأن المعنى المراد من الحديث والمقصود به إليه هو نزول التيمم ، وقد ثبتت الروايات في أمر القِلادة . وأما قوله في حديث الترمذي : فأرسل رجلين قيل أحدهما أسيد ابن خضير . ولعلهما المراد بالرجال في حديث البخاري فببر عنهما بقض الجع ، إذ أقل الجمع اثنان ، أو أردف في أثرهما غيرهما فصح إطلاق اللفظ ، والله أعلم . فبعثوا في طلبها فطلبوا فلم يجدوا شيئا في وجههم ، فلما رجعوا أتوا البعير فوجدوه تحته . وقد روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابهم جراحة ففشت فيهم ثم أبتكوا بالحنابة فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتركت هذه الآية . وهذا أيضا ليس بخلاف لما ذكرنا ، فإنهم ربما أصابهم الجراحة في غزواتهم تلك التي قتلوا منها إذ كان فيها قتال فشكوا وضع العقدة ونزلت الآية . وقد قيل : إن ضياع العقدة كان في غزاة بنى المصطلق . وهذا أيضا ليس بخلاف لقول من قال في غزاة المريسيع ، إذ هي غزاة واحدة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم غزا بنى المصطلق في شعبان من السنة السادسة من الهجرة ، على ما قاله خليفة بن خياط وأبو عمر بن عبد البر ، واستعمل على المدينة أبا ذر النخعي . وقيل : بل ثُمَيْلة بن عبد الله اللثي . وأغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنى المصطلق وهم قازون على ماء يقال له

المُرِّيْسُج من ناحية قَدِيدٍ ما على الساحل، فَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ وَسَيَّ النِّسَاءَ وَالدَّرِيَّةَ وَكَانَ شَعَارُهُمْ  
يَوْمَئِذٍ : أَمْتُ أَيْمَتِ . وقد قيل : إن بنِي الْمُصْطَلِقِ جَعَلُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
وَأَرَادُوهُ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ نَجَّحَ إِلَيْهِمْ فَفَقَّيْهِمْ عَلَى مَا . فهذا ما جاء في بدء التيمم والسبب فيه .  
وقد قيل : إن آية المائدة آية التيمم ، على ما يأتي بيانه هناك . قال أبو عمر : فأنزل الله  
تعالى آية التيمم ، وهي آية الوضوء المذكورة في سورة « المائدة » ، أو الآية التي في سورة  
« النساء » ؛ ليس التيمم مذكورا ذ. غير هاتين الآيتين وهما مَدَيَّتَانِ .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ( مَرَضَى ) المرض عبارة عن خروج البدن عن حدِّ  
الاعتدال ، والاعتدال إلى الأعوجاج والشذوذ . وهو على ضربين : كثير ويسير ؛ فإذا كان  
كثيرا بحيث يخاف الموت برد الماء ، أو للعلّة التي به ، أو يخاف فوت بعض الأعضاء ،  
فهذا تيمم بإجماع ؛ إلا ما روي عن الحسن وعطاء أنه يتطهر وإن مات . وهذا مردود  
بقوله تعالى : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وقوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » .  
وروي الثَّوْرَقُطْنِيُّ عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس في قوله عز وجل : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى  
أَوْ عَلَى سَفَرٍ » قال : إذا كانت بالرجل الجراحة في سبيل الله أو القروح أو الجُدَرِيّ فيجْتَنِبُ  
فيخاف أن يموت إن اغتسل تيمم . وعن سعيد بن جبيرة أيضا عن ابن عباس قال : رخص  
للمريض في التيمم بالصَّعِيدِ . وتيمم عمرو بن العاص لما خاف أن يموت من شدة البرد ولم يأمره  
صلى الله عليه وسلم بفعل ولا إعادة . فإن كان يسيرا إلا أنه يخاف معه حدوث علة أو زيادتها  
أو بطلان بره فهو لاء يَتِمُّونَ بإجماع من المذهب . قال ابن عطية : فيها حفظ .

قلت : قد ذكر الباقي فيه قبلنا ؛ قال القاضي أبو الحسن : مثل أن يخاف الصحيح  
نزلة أو سُمٍّ ، وكذلك إن كان المريض يخاف زيادة مرضه ؛ ونحو ذلك قال أبو حنيفة .  
وقال الشافعي : لا يجوز له التيمم مع وجود الماء إلا أن يخاف التلف ؛ ورواه القاضي أبو الحسن  
عن مالك . قال ابن العربي : « قال الشافعي لا يباح التيمم للمريض إلا إذا خاف التلف ،  
لأن زيادة المرض غير متحقة ؛ لأنها قد تكون وقد لا تكون ، ولا يجوز ترك الفرض المتيقن

للخوف المشكوك . قلنا : قد ناقضت ، ذلك قلت إذا خاف التلف من البرد ثم ، فكما يبعث  
التيمم خوف التلف كذلك يبعثه خوف المرض ؛ لأن المرض محذور كما أن التلف محذور .  
قال : وعجبا للشافعي يقول : لو زاد الماء على قدر قيمته حبة لم يلزمه شرائه صيانة لئلا  
ويلزمه التيمم ، وهو يخاف على بدنه المرض ! وليس [عليه] لم كلام يساوي سماعه .

قلت : الصحيح من قول الشافعي فيما قال القشيري أبو نصر عبد الرحيم في تفسيره :  
والمرض الذي يباح له التيمم هو الذي يخاف فيه فوت الروح أو قوات بعض الأعضاء ولو استعمل  
الماء . فإن خاف طول المرض فالقول الصحيح للشافعي : جواز التيمم . روى أبو داود  
والنارقيطي عن يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن  
أبن جبير عن عمرو بن العاص قال : آخلت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأنشفت  
إن آتت أن أحل ، فتيمنت ثم صليت بأصطبي الصبح ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى  
الله عليه وسلم فقال يا عمرو : " صليت بأصحابك وأنت جنب " ؟ فأنكرته بالذي مني من  
الاعتسال فقلت : إني سمعت الله عز وجل يقول : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ  
رَحِيمًا » فضيقت نبي الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا . فدل هذا الحديث على إباحة  
التيمم مع الخوف لا مع اليقين ، وفيه إطلاق اسم الجنب على المتيمم وجواز صلاة التيمم  
'المتوضئين' ، وهذا أحد القولين عندهما ، وهو الصحيح الذي أقره مالك في موطنه وقُرئ  
عليه إلى أن مات . والقول الثاني - أنه لا يصل ؛ لأنه أنقص فضيلة من التوضؤ ، وحكم  
الإمام أن يكون أعلى رتبة ، وقد روى النارقيطي من حديث جابر بن عبد الله قال قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَا يُؤْتَمُّ التَّيْمِمُ الْمُتَوَضِّئِينَ " إسناده ضعيف . وروى  
أبو داود والنارقيطي عن جابر قال : خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجّه في رأسه  
ثم آختم ، فسأل أصحابه هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت  
تقدر على الماء ، فأغتسل فات ، فلما قعدنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال :

” قتلوه قبلهم الله إلا سالوا إذ لم يعلموا فأنجا شفاهم إلى“ البيهقي (١) قال إن كان يكفيه أن يتم ويصبر أو يعصب — شك موسى — على جرحه جرحه ثم مسح عليها وبسمل سائر جسده “ . قال التارطقي : « قال أبو بكر هذه سنة تفرد بها أهل مكة وحملها أهل الجزيرة ، ولم يروه عن عطاء عن جابر بن عبد الله بن جابر ، وليس بالقوي ، وخالفه الأوزاعي فرواه عن عطاء عن ابن عباس . وأختلف على الأوزاعي فقيل عنه عن عطاء ، وقيل عنه : بلغني عن عطاء ، وأرسل الأوزاعي آخره عن عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وقال ابن أبي حاتم : سألت أبي وأبا زرعة عنه فقالا : رواه ابن أبي العشرين عن الأوزاعي عن إسماعيل بن مسلم عن عطاء عن ابن عباس ، وأسنده الحديث « . وقال داود : كل من أطلق عليه اسم المريض بغائله التيمم ؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى » . قال ابن عطية : وهذا قول حلف ، وإنما هو عند علماء الأمة لمن خاف من استعمال الماء أو تأذيه به كالجدور والمحسوب ، والعلل المخوف عليها من الماء ؛ كما تقدم عن ابن عباس .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ( أَوْ عَلَى سَفَرٍ ) يجوز التيمم بسبب السفر طال أو قصر عند عدم الماء ، ولا يشترط أن يكون مما تقصر فيه الصلاة ؛ هنا مذهب مالك وبجمهور العلماء . وقال قوم : لا يتيمم إلا في سفر تقصر فيه الصلاة . واشترط آخرون أن يكون سفر طاعة . وهذا كله ضعيف . والله أعلم .

الثالثة والعشرون — أجمع العلماء على جواز التيمم في السفر حسبما ذكرنا ، واختلفوا فيه في الحضر ؛ فذهب مالك وأصحابه إلى أن التيمم في الحضر والسفر جائز ؛ وهو قول أبي حنيفة وعبد . وقال الشافعي : لا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم إلا أن يخاف التلف ؛ وهو قول الطبري . وقال الشافعي أيضا والليث والطبري : إذا عديم الماء في الحضر مع خوف الوقت الصحيح والسقيم يتم وصلى ثم أعاد . وقال أبو يوسف وزفر : لا يجوز التيمم في الحضر للمريض ولا لخوف الوقت . وقال الحسن وعطاء : لا يتيمم المريض إذا وجد الماء ولا غير

(١) إلى (بالكر) : الجبل .

المريض . وسبب الخلاف اختلافهم في مفهوم الآية ؛ فقال مالك ومن تابعه : ذكر الله تعالى المرضى والمسافرين في شرط التيمم تُخرج على الأغلب فيمن لا يجد الماء ، والحاضرون الأغلب عليهم وجوده فذلك لم ينص عليهم . فكل من لم يجد الماء أو منعه منه مانع أو خاف فوات وقت الصلاة تيمم المسافر بالنص ، والحاضر بالمعنى . وكذلك المريض بالنص والصحيح بالمعنى . وأما من منعه في الحضر فقال : إن الله تعالى جعل التيمم رخصة للمريض والمسافر ؛ كالنظر وقصر الصلاة ، ولم يبيح التيمم إلا بشرطين : وهما المرض والسفر ؛ فلا دخول للحاضر الصحيح في ذلك لخروجه من شرط الله تعالى . وأما قول الحسن وعطاء الذي منعه جملة مع وجود الماء فقال : إنما شرطه الله تعالى مع عدم الماء ؛ لقوله تعالى : « فلم تجدوا ماء فتيمموا » فلم يُبيح التيمم لأحد إلا عند فقد الماء . وقال أبو عمر : ولولا قول الجمهور وما رُوي من الأثر لكان قول الحسن وعطاء صحيحا ؛ والله أعلم . وقد أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم التيمم لعمرو بن العاص وهو مسافر إذ خاف الهلاك إن أعتسل بالماء ، فالمرضى أخرى بذلك .

قلت : ومن الدليل على جواز التيمم في الحضر إذا خاف فوات الصلاة إن ذهب إلى الماء الكتاب والسنة :

أما الكتاب فقوله سبحانه : « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » يعني المقيم إذا عديم الماء تيمم . نص عليه القشيري عبد الرحيم قال : ثم يقطع النظر في وجوب القضاء ؛ لأن عدم الماء في الحضر نادر وفي القضاء قولان .

قلت : وهكذا نص أصحابنا فيمن تيمم في الحضر ، فهل يبيد إذا وجد الماء أم لا ؛ المشهور من مذهب مالك أنه لا يبيد وهو الصحيح . وقال ابن حبيب ومحمد بن عبد الحكم : يبيد أبدا ؛ ورواه ابن المنذر عن مالك . وقال الوليد عنه : ينتسل وإن طلعت الشمس . وأما السنة فإرواه البخاري عن أبي الجهم بن الحارث بن الصمة الأنصاري قال : أقبل النبي صلى الله عليه وسلم من نحو « بئر جمل » فلقبه ربيلا فسلم عليه فلم يرد عليه النبي (١) بئر جمل : موضع بقرب المدينة .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى الْخِدَارِ فَسَحَّ بِوَجْهِهِ وَيَذِيهِ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ . وَأَنَّهُ جَدُّهُ مُسْلِمٌ وَلَيْسَ قَبْلَهُ لَفْظٌ « يَرْ » . وَأَخْرَجَهُ الثَّارِقُ قُتَيْبٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ « ثُمَّ رَدَّ عَلَى الرَّبِيعِ السَّلَامَ وَقَالَ : « إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ أَنْ أَرَدَ عَلَيْكَ السَّلَامَ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلَى طَهْرٍ » .

الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ( لَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ) الْغَائِطُ أَصْلُهُ مَا انْتَفَضَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَالْجَمْعُ الْغَيْطَانُ وَالْأَغْوَاطُ ؛ وَبِهِ سُمِّيَ غُوطَةٌ يَمْشُقُ . وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَقْصِدُ هَذَا الْمَصْنَفَ مِنَ الْمَاءِ لِتَقْضَاهُ حَاجَتَهَا تَسْتَرًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ ، ثُمَّ سُمِّيَ الْحَدَثُ الْخَارِجُ مِنَ الْإِنْسَانِ غَائِطًا لِلْقَارَةِ . وَغَائِطٌ فِي الْأَرْضِ يَفُوطُ إِذَا غَابَ .

وَقَرَأَ الزُّهْرِيُّ : « مِنَ الْغَيْطِ » فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ الْغَيْطُ نَخْفُفَ ، كَهَيْئَةِ وَبَيْتٍ وَشَبْهِهِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْغُوطِ ؛ بِدَلَالَةِ قَوْلِهِمْ تَغُوطُ إِذَا أَتَى الْغَائِطُ ، فَقَلْبَتْ . وَأَوَّلُ الْغُوطِ يَاءٌ ؛ كَمَا قَالُوا لَا فَا حَوْلَ لَا حَيْلَ . وَ« أَوْ » بِمَعْنَى الْوَارِ ، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ وَجَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ فَتَيَمَّمُوا فَالْسَّبَبُ الْمَوْجِبُ لِلتَّيَمُّمِ عَلَى هَذَا هُوَ الْحَدَثُ لَا الْمَرَضُ وَالسَّفَرُ ؛ قَدْ عَلِيَ جَوَازُ التَّيَمُّمِ فِي الْحَضَرِ كَمَا يَبْنَاهُ . وَالْمُصَحِّحُ فِي « أَوْ » أَنَّهَا عَلَى بَابِهَا عِنْدَ أَهْلِ النَّظَرِ . فَلَا تَرْمِئُهَا ، وَلَوْ أَوْ مَعْتَاهَا . وَهَذَا عِنْدَهُمْ عَلَى الْحَذَفِ ، وَالْمَعْنَى . وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى مَرْضَا لَا تَقْدِرُونَ فِيهِ عَلَى مَسِّ الْمَاءِ أَوْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا مَاءً وَاحْتَجْتُمْ إِلَى الْمَاءِ . وَاقْعُ أَهْلُ .

الخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ - لَفْظُ « الْغَائِطِ » يَجْمَعُ بِالْمَعْنَى جَمِيعَ الْأَحْدَاثِ النَّاظِفَةِ لِلطَّهَارَةِ الصَّغِيرَى . وَقَدْ اختلف النَّاسُ فِي حَصْرِهَا ، وَأُنْبِلَ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ ، لَا اخْتِلَافَ فِيهَا فِي مَذْهَبِنَا : زَوَالُ الْعَقْلِ ، خَارِجُ مَعْتَادِ ، مَلَامَسَةُ . وَعَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ مَا خَرَجَ مِنَ الْجَسَدِ مِنَ التَّبَاجِمَاتِ ، وَلَا يَرَاغِي الْخُرُوجَ وَلَا يَسُدُّ اللَّسَّ . وَعَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَبَعْدُ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ مَا خَرَجَ مِنَ السَّيْلَيْنِ ، وَلَا يَرَاغِي الْأَعْيَادَ ، وَسُدُّ اللَّسِّ . وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ مَنْ زَالَ عَقْلُهُ بِإِغْنَاءٍ أَوْ جُنُونٍ أَوْ سُكْرٍ فَعَلِيهِ الْوُضُوءُ ، وَاتَّخَفُوا

(١) الَّذِي فِي سِلْمٍ : «... مِنْ مَحْرُومٍ بِرَجُلٍ» كَرَايَةِ الْبُخَارِيِّ .

في النوم هل هو حدث كسائر الأحداث ، أو ليس بحادث أو مظنة حدث ؟ ثلاثة أقوال :

طرفان وواسطة .

الطرف الأول — ذهب المُرزقي أبو إبراهيم إسماعيل إلى أنه حدث ، وأن الوضوء يجب بقليله وكثيره كسائر الأحداث ، وهو مقتضى قول مالك في الموطأ لقوله : ولا يتوضأ إلا من حدث يخرج من ذكر أو دبر أو نوم . ومقتضى حديث صفوان بن عسال أخرجه النسائي والدارقطني والترمذي ومحممه . ورواه جميعا من حديث عاصم بن أبي النجود عن زيد ابن حبيش فقال : أتيت صفوان بن عسال المرادي فقلت : جئتك أسألك عن المسح على الخفين ، قال : [ نعم ] كنت في الجيش الذي بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرنا أن نمسح على الخفين إذا نحن أدخلناهما على طير ثلاثا إذا سافرنا ، وبما ولىله إذا أتينا ، ولا نغسلهما من بول ولا قاطط ولا نوم [ ولا نغسلهما ] إلا من جنابة . ففى هذا الحديث وقول مالك التسوية بين الغائط والبول والنوم . قالوا : والقياس أنه لما كان كثيره وما غلب على العقل منه حدثا وجب أن يكون قليله كذلك . وقد روى عن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وكاء إليه العيان فمن نام فليتوضأ » وهذا عام . أخرجه أبو داود ، وأخرجه الدارقطني من حديث معاوية بن أبي سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما الطرف الآخر فرؤى عن أبي موسى الأشعري ما يدل على أن النوم عنده ليس بحادث على أى حال كان ، حتى يحدث النائم حدثا غير النوم ؛ لأنه كان يوكّل من يحرسه إذا نام . فإن لم يخرج منه حدث قام من نومه وصلى ؛ ورؤى عن حبيدة وسعيد بن المسيّب والأوزاعي في رواية محمود بن خالد . والجمهور على خلاف هذين الطرفين . فأما جملة مذهب مالك فإن كل نائم استقبل نوما ، وطال نومه على أى حال كان ، فقد وجب عليه الوضوء ؛ وهو قول الزميرى وربيعة والأوزاعي في رواية الوليد بن مسلم . قال أحمد بن حنبل : فإن كان النوم

(١) الزيادة عن سنن الدارقطني .

(٢) الله : الأست ؛ وأصله الله بالتحريك فحذفت منه القبل ، ويرى (الست) بحذف لام القبل .

خفيفاً لا يغمّر القلب ولا يغمره لم يضرب . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا وضوء إلا على من  
ثم مضطجعا أو متورّكا . وقال الشافعي : من نام جالسا فلا وضوء عليه ؛ ورواه ابن وهب  
عن مالك . والصحيح من هذه الأقوال مشهورٌ من مذهب مالك ؛ لحديث ابن عمر أن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم شغل عنها ليلة [ يعني المشاء ] فأخرها حتى رقدنا <sup>(١)</sup> في المسجد ثم استيقظنا  
ثم رقدنا ثم استيقظنا ثم خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : " ليس أحد من أهل  
الأرض ينتظر الصلاة غيركم " رواه الأئمة واللفظ للبخاري ؛ وهو أصح ما في هذا الباب من  
جهة الإسناد والعمل . وأما ما قاله مالك في موطنه وصفوان بن عسال في حديثه فعناء :  
ونوم ثقيل غالب على النفس ؛ بدليل هذا الحديث وما كان في معناه . وأيضاً فقد روى  
حديث صفوان وكيع عن مسعر عن عاصم بن أبي النجود فقال : « أوريح » بدل  
« أُنوم » ، فقال الثارقي : لم يقل في هذا الحديث « أوريح » غير وكيع عن مسعر .

قلت : وكيع ثقةٌ إمامٌ أخرج له البخاري ومسلم وغيرهما من الأئمة ؛ فسقط الاستدلال  
بحديث صفوان لمن تمسك به في أن النوم حدث . وأما ما ذهب إليه أبو حنيفة فضعيف ؛  
رواه الثارقي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نام وهو ساجد حتى غطّ  
أورفخ ثم قام فصلى ، فقلت : يا رسول الله إنك قد نمت ! فقال : " إن الوضوء لا يجب  
إلا على من نام مضطجعا فإنه إذا اضطجع استرخت مفاصله " . تفرد به أبو خالد عن قتادة  
ولا يصح ؛ قاله الثارقي . وأخرجه أبو داود وقال : قوله الوضوء على من نام مضطجعا هو  
حديث منكرٌ يرويه إلا أبو خالد يزيد التالاني عن قتادة ، وروى أوله جماعة عن ابن عباس  
لم يذكروا شيئا من هذا . وقال أبو عمر بن عبد البر : هذا حديث منكرٌ لم يروه أحد من  
أصحاب قتادة الثقات ، وإنما انفرد به أبو خالد التالاني ، وأنكره وليس بحجة فيما قل .  
وأما قول الشافعي : على كل نائم الوضوء إلا على الجالس وسهه ، وإن كل من زال عن حدة  
الاستواء ونام فعليه الوضوء ؛ وهو قول الطبري وداود ، وروى عن علي وابن مسعود وابن



عمر؛ لأن الجالس لا يكاد يستقل، فهو في معنى النوم الخفيف . وقد روى التَّارُقُطِيُّ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من نام جالسا فلا وضوء عليه ومن وضع جنبه فعليه الوضوء " . وأما الخارج؛ فلما رواه البخاري قال : حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ زُرَيْجٍ عَنْ خَالِدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : أَعْتَكَفْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَأَةً مِنْ أَزْوَاجِهِ فَكَانَتْ تَرَى الدَّمَ وَالصُّفْرَةَ وَالطَّلْسُ تَحْتَهَا وَهِيَ تَصَلِّي . فِهَذَا خَارِجٌ مِنْ غَيْرِ الْمَتَادِ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَرَقٌ يُقَطَّعُ فَهُوَ مَرَضٌ ؛ وَمَا كَانَ هَذَا سَبِيلَهُ مِمَّا يَخْرُجُ مِنَ السَّيْلِينِ فَلَا وَضُوءَ فِيهِ عِنْدَنَا إِجْمَاعًا ، خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ كَمَا ذَكَرْنَا . وَبِاللَّهِ تَوْفِيقًا ، وَيردُّ على الحنفِيَّ حيث راعى الخارج التجسس . فصح وضع مذهب مالك ابن أنس رضي الله عنه ما تردَّد نفس، وعنه أجمعين .

السادة والمشرون — قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسْمُحُوا لِلنِّسَاءِ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر « لاسم » . وقرأ حمزة والكسائي : « لسم » وفي معناه ثلاثة أقوال : الأول — أن يكون لسم جامع . الثاني — لسم بأشتر . الثالث — يجمع الأمرين جميعا . و « لاسم » بمعناه عند أكثر الناس ، إلا أنه حكى عن محمد بن يزيد أنه قال : الأولى في اللغة أن يكون « لاسم » بمعنى قبلتم أو نظيره ؛ لأنَّ لكل واحد منهما فعلا . قال : و « لسم » بمعنى غشيت ومستم ، وليس للمرأة في هذا فعل .

واختلف العلماء في حكم الآية على مذاهب خمسة؛ فقالت فرقة : اللامسة هنا مختصة باليد، والجُنب لا يذكر له إلا مع الماء؛ فلم يدخل في المعنى المراد بقوله : « وإن كنتم مرضى » الآية ، فلا سبيل له إلى التيمم ؛ وإنما يقتل الجُنب أو يدع الصلاة حتى يجد الماء؛ روى هذا القول عن عمر وابن مسعود . قال أبو عمر : ولم يقل بقول عمر وعبد الله في هذه المسألة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأي وحلَّة الآثار؛ وذلك والله أعلم لحديث عمار وعمران ابن حصين وحديث أبي نذر عن النبي صلى الله عليه وسلم في تيمم الجُنب . وقال أبو حنيفة عكس هذا القول ، فقال : اللامسة هنا مختصة باللس الذي هو الجماع . فالجنب يتيمم واللامس

بيده لم يحمله ذكر ؛ فليس يحدث ولا هو ناقض لوضوئه . فإذا قبل الرجل أسرأته للذة لم يتقص وضوءه ؛ وعصموا هذا بما رواه الدارقطني عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ . قال عروة : فقلت لما من هي إلا أنت ؟ فضحكت . وقال مالك : للمامس بالجماع يقيم ، والمالمس باليد يقيم إذا أخذ . فإذا لمسها بغير شهوة فلا وضوء ؛ وبه قال أحمد وإسحاق ، وهو مقتضى الآية . وقال علي بن زياد : وإن كان عليها ثوب كشف فلا شيء عليه ، وإن كان خفيفا فليد وضوء . وقال عبد الملك بن الماجشون : من تمعد مس أسرأته بيده للملاعبة فليتوضأ أخذ أو لم يلتد . قال القاضي أبو الوليد الباجي في المتقى : والذي تحقق من مذهب مالك وأصحابه أن الوضوء إنما يجب لتقصده اللذة دون وجودها ؛ فمن قصد اللذة بهسه فقد وجب عليه الوضوء ، أخذ بذلك أو لم يلتد ؛ وهذا معنى ما في التتية من رواية عيسى عن ابن القاسم . وأما الإنماط فيجوز أنه لا يرفع عن مالك أنه لا يوجب وضوءا ولا غسل ذكر حتى يكون معه لمس أو مدى . وقال الشيخ أبو إسحاق : من أنط إنماطا أنتقص وضوءه ؛ وهذا قول مالك في المدونة . وقال الشافعي : إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى بدن امرأة سواء كان باليد أو بغيرها من أعضاء الجسد تعلق تقض الطهر به ؛ وهو قول ابن مسعود وابن عمر والزهرى وربيعة . وقال الأوزاعي : إذا كان اللس باليد تقض الطهر ، وإن كان بغير اليد لم يتقضه ؛ لقوله تعالى : « فَاسْرُوهُ بِأَيْدِيهِمْ » . فهذه خمسة مذاهب أسدها مذهب مالك ؛ وهو مروى عن عمر وأبنة عبد الله ، وهو قول عبد الله بن مسعود أن الملامسة مادون الجماع ، وأن الوضوء يجب بذلك ؛ وإلى هذا ذهب أكثر الفقهاء . قال ابن العربي : وهو الظاهر من معنى الآية ؛ فإن قوله في أولها : « وَلَا جُنْبًا » أفاد الجماع ، وأن قوله : « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » أفاد الحدث ، وأن قوله : « أَوْ لَامَسْتُم » أفاد اللس والقبل . فصارت ثلاث جمل لثلاثة أحكام ، وهذه غاية في العلم والإعلام . ولو كان المراد باللس الجماع كان تكرارا في الكلام .

قلت : وأما ما استدل به أبو حنيفة من حديث عائشة فحديث مُرْسَل ، رواه وكيع عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عروة عن عائشة . قال يحيى بن سعيد : وقد كُـرِّحَ حديث الأعمش عن حبيب عن عروة فقال : إنما إكسفيان الثوري كان أعلم الناس بهذا زعم ، إن حنيفة لم يسمع من عروة شيئاً ، قاله القارظني . فإن قيل : فأتى يقولون بالمرسل فيلزمكم قبوله والعمل به . قلنا : تركناه لظاهر الآية وعمل الصعابة . فإن قيل : إن للملاسة في الجماع وقد روي ذلك عن ابن عباس . قلنا : قد خالفه الفاروق وأبنته وتابعهما عبد الله بن مسعود وهو كوفي ، فإلزامه خالفناه ! فإن قيل : الملاسة من باب المفاعلة ، ولا تكون إلا من اثنين ، واللس باليد إنما يكون من واحد ، ثبت أن الملاسة هي الجماع . قلنا : الملاسة مقتضاها اكتفاء البشريتين ، سواء كان ذلك من واحد أو من اثنين ، لأن كل واحد منهما بوصف لابس وملسوس .

جواب آخر — وهو أن الملاسة قد تكون من واحد ، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الملاسة ، والثوب ملسوس وليس بلامس ، وقد قال ابن عمر مخبراً عن نفسه « وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام » ، ويقول العرب : عاقبت اللص وطارقت العسل ، وهو كثير .

فإن قيل : لما ذكر سبحانه سبب الحديث ، وهو المحبىء من الغائط ذكر سبب الحنابة وهو الملاسة ، فينحى حكم الحديث والحنابة عند علم الماء ، كما أفاد بيان حكمهما عند وجود الماء . قلنا : لا يمنع حمل اللفظ على الجماع واللس ، ويفيد الحكيم كما يتنا . وقد قرئ « لمستم » كما ذكرنا . وأما ما ذهب إليه الشافعي من لمس الرجل المرأة ببعض أعضائه لا حائل بينه وبينها لشهوة أو لنفيس شهوة وجب عليه الوضوء فهو ظاهر القرآن أيضاً ، وكذلك إن لمسته هي وجب عليه الوضوء ، إلا الشعر ، فإنه لا وضوء لمن مس شعر امرأته لشهوة كان أولفيس شهوة ، وكذلك السن والظفر ، فإن ذلك مخالف للبشرة . ولو احتاط فتوضأ إذا مس شعرها كان حسناً . ولو مسها يده أو مسته يسدها من فوق الثوب فالتدب بذلك

أو لم يَنْتَهِ لم يكن عليه شيء حتى يُقضى إلى البشارة ، وسواء في ذلك كانت متعمدا  
أو ساهيا ، كانت المرأة حية أو ميتة إذا كانت أجنبية . واختلف قوله إذا لمس صبية صغيرة  
أو عذرا كبيرة بيده أو واحدة من ذوات عارمه ممن لا يحل له نكاحها ، فتره قال : ينقض  
الوضوء ، لقوله تعالى « أَوْلَا مَسَمُ الْنِّسَاءُ » فلم يفرق ، والثاني لا ينقض ؛ لأنه لا مدخل  
لشهوة فيه . قال المروزي : قول الشافعي أشبه بظاهر الكتاب ؛ لأن الله عز وجل قال :  
« أَوْلَا مَسَمُ الْنِّسَاءُ » ولم يقل شهوة أو من غير شهوة ؛ وكذلك الذين أوجبوا الوضوء من  
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم يشترطوا الشهوة . قال : وكذلك عامة التابعين . قال  
المروزي : فاما ما ذهب إليه مالك من مراعاة الشهوة واللذة من فوق الثوب يوجب الوضوء  
فقد وافقه على ذلك الليث بن سعد ، ولا نعلم أحدا قال ذلك غيرها . قال : ولا يصح ذلك  
في النظر ؛ لأن من فعل ذلك فهو غير لابس لأمراته ، وغير مُتَمَسِّحٍ لها في الحقيقة ، إنما هو  
لامس لثوبها . وقد أجسوا أنه لو تلبذ وأشتهى أن يلمس لم يجب عليه وضوء ؛ فكذلك من  
لمس فوق الثوب لأنه غير مُتَمَسِّحٍ لثوبه .

قلت : أما ما ذكر من أنه لم يوافق مالكا على قوله إلا الليث بن سعد ، فقد ذكر  
الحافظ أبو عمر بن عبد البر أن ذلك قول إسحاق وأحمد ، ورؤي ذلك عن الشعبي والثوري  
كلهم قالوا : إذا لمس فألذَّ وجب الوضوء ، وإن لم يلبذ فلا وضوء . وأما قوله : « ولا يصح  
ذلك في النظر » فليس بصحيح ؛ وقد جاء في صحيح النجاشي عن عائشة قالت : كنت أنا م بين  
يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاي في قبليته ، فإذا تَجَسَّدَ عَمَزَتِي فقبضت رجلي ،  
وإذا قام بسطتهما تانيا ، واليوت يومئذ ليس فيها مصابيح . فهذا نص في أن النبي صلى الله  
عليه وسلم كان الملامس ، وأنه عَمَزَ رجلي عائشة ؛ كما في رواية القاسم عن عائشة « فإذا أراد  
أن يسجد عَمَزَ رجلي فقبضتهما » أخرجه البخاري . فهذا يخص عموم قوله : « أَوْلَا مَسَمُ »  
فكان واجبا لظاهر الآية استفاض وضوء كل ملابس حيث لامس . ودلت السنة التي هي  
البيان لكتاب الله تعالى أن الوضوء على بعض الملابس دون بعض ، وهو من لم يلبذ ولم يقبضه .

ولا يقال : قلنا كان على قدمي عائشة ثوب ، أو كان يضرب رجلها بكفه ؛ فإنما تقول : حقيقة التمزع إنما هو باليد ؛ ومنه تمزك الكباش أي تجسه لتظن أنه سمين أم لا . فإنما أن يكون التمزع الضرب بالكف فلا . والرجل الغالب عليها ظهورها من الثام ؛ لا سيما مع امتداده وضيق حاله . فهذه كانت الحال في ذلك الوقت ؛ ألا ترى إل قولنا : « وإننا قام بسطتها » وقولنا : « واليوت يومئذ ليس فيها مصابيح » . وقد جاء صريحا عنها قالت : « كنت أمد رجل في قبلة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فإذا سجد غمزني فرفقتها فإذا قام مددتها » أخرجه البخاري . فظهر أن التمزع كان على حقيقة مع المباشرة . ودليل آخر — وهو ما رويته عائشة أيضا رضى الله عنها قالت : « قد كنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفرائض فأقمته ، فوقمت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان » الحديث . فلما وضعت يدي على قدمه وهو ساجد وتمادى في سجوده كان دليلا على أن الوضوء لا يتقضى إلا على بعض الملامسين دون بعض .

فإن قيل : كان على قدمه حائل كما قاله المزني . قيل : القم قدم بلا حائل حتى يثبت الحائل ، والأصل الوقوف مع الظاهر ؛ بل يجمع ما ذكرنا يمنع منه كالتص .

فإن قيل : فقد أجمعت الأمة على أن رجلا لو استكره امرأة فس ختانه ختنها وهي لا تلتذ لفتك ، أو كانت نائمة فلم تلتذ ولم تشبه أن الفسل واجب عليها ؛ فكذلك حكم من قيل أو لابس شهوة أو لير شهوة أتقصت طهارته ووجب عليه الوضوء ؛ لأن للمني في الحصة واللس والقيلة الفسل لا آلهة . قلنا : قد ذكرنا أن الأعمش وغيره قد خالف فيما أذعنموه من الإجماع . سلمناه ، لكن هذا استدلال بالإجماع في عمل التزاع فلا يلزم ؛ وقد استدلنا على صحة مذهبتنا بأحاديث صحيحة . وقد قال الشافعي — فيما زعم — إنه لم يسبق إليه ، وقد سبقه إليه شيخه مالك ؛ كما هو مشهور عندنا « إن جامع الحديث تفقدوا به ودعوا قولي » وقد ثبت الحديث بذلك فلم لا تقولون به ؟ ! ويلزم على من ذهب أن من ضرب أمرأته فظلمها بيده تأديبا لها وإغلاطا عليها أن يتقضى وضوءه ؛ إذ المقصود وجود

الفعل ، وهذا لا يقوله أحد فيما أعلم ، والله أعلم ، وروى الأئمة ثمانية وأربعين أنه صلى الله عليه وسلم كان يصل وأمامه بنت أبي العاص أخته زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على مائه ، فإذا رآهم وضعا ، وإذا رفع من السجود أعادها . وهذا يرد ما قاله الشافعي في أحد قوله : لو لم صغيرة لا ينقض طهره تمسكا بلفظ النساء ، وهذا ضعيف ؛ فإن لمس الصغيرة كلس الحائط . واختلف قوله في ذوات المحارم لأجل أنه لا يعتبر اللذة ، ونحن اعتبرنا اللذة بحيث وجدت وجد الحكم ، وهو وجوب الرضوء . وأما قول الأوزاعي في اعتباره اليد خاصة ؛ فلأن الأس أكثر ما يستعمل باليد ، فقصره عليه دون غيره من الأعضاء ؛ حتى أنه لو أدخل الرجل رجله في ثياب امرأته فس فرجها أو بطنها لا ينقض بذلك وضوءه . وقال في الرجل يقبل امرأته : إن جاء يسألني قلت يتوضأ ، وإن لم يتوضأ لم أبعه . قال أبو ثور : لا وضوء على من قبل امرأته أو باشرها أو لمسها . وهذا يخرج على مذهب أبي حنيفة ، والله أعلم .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَحْدُوا مَاءً ﴾ الأسباب التي لا يحسد المسافر معها الماء هي إما عدمه جملة أو عدم بعضه ، وإما أن يخاف فوات الرقيق ، أو على الرجل بسبب طلبه ، أو يخاف لصروا أو سباعا ، أو فوات الوقت ، أو عطشا على نفسه أو على غيره ؛ وكذلك لطبيخ يطبخه لمصلحة بدنه . فإذا كان أحد هذه الأشياء يتيم وصل . ويترتب عدمه للريض بالأيحس من يناله ، أو يخاف من ضرره . ويترتب أيضا عدمه للصحيح الحاضر بالنسبة الذي يتم جميع الأصناف ، أو بأن يسجن أو يربط . وقال الحسن : يشتري الرجل الماء بماله كله ويبقى عديما ، وهذا ضعيف ، لأن دين الله يسر . وقالت طائفة : يشتريه ما لم يزد على القيمة الثلث فصاعدا . وقالت طائفة : يشتري قيمة الدرهم بالدرهمين والثلاث ونحو هذا ؛ وهذا كله في مذهب مالك رحمه الله . وقيل لأشهب : أنشترى القربة بعشرة دراهم ؟ فقال : ما أرى ذلك على الناس . وقال الشافعي بعدم الزيادة .

التامسة والعشرون - واختلف العلماء هل طلب الماء شرط في صحة التيمم أم لا ؟  
 فظاهر مذهب مالك أن ذلك شرط ؛ وهو قول الشافعي . وذهب القاضي أبو محمد بن نصر  
 إلى أن ذلك ليس بشرط في صحة التيمم ؛ وهو قول أبي حنيفة . وروى عن ابن عمر أنه كان  
 يكون في السفر على غلوتين من طريقه فلا يسيل إليه . قال إسحاق : لا يلزمه الطلب إلا  
 في موضعه ، وذكر حديث ابن عمر ؛ والأول أصح وهو المشهور من مذهب مالك في الموطأ ؛  
 لقوله تعالى : « فلم يجدوا ماء » <sup>(١)</sup> وهذا يقتضي أن التيمم لا يستعمل إلا بعد طلب الماء .  
 وأيضا من جهة القياس أن هذا بدل مأمور به عند المعجز عن مثله ، فلا يجوز فعله إلا مع  
 تيقن عدم مثله ؛ كالصوم مع التق في الكفارة .

التاسعة والعشرون - وإن ثبت هذا وعدم الماء ، فلا يخلو أن يطلب على ظن المكف  
 اليأس من وجوده في الوقت ، أو يطلب على ظنه وجوده ويقسرى رجاءه له ، أو ينسأرى  
 عنده الأصران ؛ فهذه ثلاثة أحوال :

فالأول - يستحب له التيمم والصلاة أول الوقت ؛ لأنه إذا فاته فضيلة الماء فإنه  
 يستحب له أن يحجز فضيلة أول الوقت .

الثاني - يتيمم وسط الوقت ؛ حكاه أصحاب مالك عنه ، فيؤثر الصلاة رجاء إدراك  
 فضيلة الماء ما لم تفته فضيلة أول الوقت ؛ فإن فضيلة أول الوقت قد تدرك بوسيلة  
 أخر به منه .

الثالث - يؤخر الصلاة إلى أن يجد الماء في آخر الوقت ؛ لأن فضيلة الماء أعظم  
 من فضيلة أول الوقت ، لأن فضيلة أول الوقت تختلف فيها ، وفضيلة الماء متفق عليها ،  
 وفضيلة أول الوقت يجوز تركها دون ضرورة ولا يجوز ترك فضيلة الماء إلا لضرورة ، والوقت  
 في ذلك هو آخر الوقت المختار ؛ قاله ابن حبيب . ولو علم وجود الماء في آخر الوقت فتم  
 في أوله وصلى فقد قال ابن التاسم : يحجزه ، فإن وجد الماء أعاد في الوقت خاصة . وقال  
 عبد الملك بن الماجشون : إن وجد الماء بعد أعاد أبدا .

(١) الطفرة (فتح فسكون) يسعها وارفتة : قدره . يتيمم : ويقال : حي قدر لثلاثة ذراع إلى أربعه .

لِلرُّفِيَّةِ ثَلَاثِينَ ذُو اللَّيْلِ يُرَاعَى مِنْ وَجُودِ الْمَاءِ أَنْ يَجِدَ مِنْهُ مَا يَكْفِيهِ لَطَهَارَتِهِ ، فَإِنْ وَجَدَ بِأَقْلٍ مِنْ كِفَايَةِ تَيْمَمٍ فَلَمْ يَسْتَعْمِلْ مَا وَجَدَ مِنْهُ . هَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ ؛ وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ فَرْضَهُ أَحَدَ الشَّيْئَيْنِ ، إِمَّا الْمَاءَ ، وَإِمَّا التُّرَابَ . فَإِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ مُقْنِيًا عَنِ التَّيْمَمِ كَانَ غَيْرَ مَوْجُودٍ شَرْعًا ؛ لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْ وَجُودِهِ الْكِفَايَةُ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي الْقَوْلِ الْأَخِيرِ : يَسْتَعْمِلُ مَا مَعَهُ مِنَ الْمَاءِ وَيَتَيْمَمُ ؛ لِأَنَّهُ وَإِجْدَاءُ فَلَمْ يَتَحَقَّقْ شَرْطُ التَّيْمَمِ ؛ فَإِذَا اسْتَعْمَلَهُ وَقَعَدَ الْمَاءَ تَيْمَمًا لَمْ يَجِدْ . وَاسْتَنْفَقَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ أَيْضًا فَإِذَا نَسِيَ الْمَاءَ فِي رَسْلِهِ تَيْمَمَ ؛ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَبْعِدُ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمَاءُ عِنْدَهُ فَهُوَ وَاحِدٌ وَإِنَّمَا قَرُطٌ . وَالْقَوْلُ الْآخَرُ لَا يَبْعِدُ ؛ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ ، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَسْلُطْ فَلَمْ يَجِدْ .

الْحَادِيهِ وَالثَّلَاثُونَ — وَأَجَازَ أَبُو حَنِيفَةَ الْوُضُوءَ بِالْمَاءِ الْمُنْتَهَرِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « مَاءٌ » فَقَالَ : هَذَا تَمُّ فِي تَنَكُّرٍ ، وَهُوَ تَيْمَمٌ لَفَةٍ ؛ فَيَكُونُ مَفِيدًا جَوَازَ الْوُضُوءِ بِالْمَاءِ الْمُنْتَهَرِ وَغَيْرِ الْمُنْتَهَرِ ؛ لِأَطْلَاقِ أَسْمِ الْمَاءِ عَلَيْهِ . قُلْنَا : النَّفْيُ فِي التَّنَكُّرِ تَيْمَمٌ كَمَا قُلْنَا ، وَلَكِنْ فِي الْجَنَسِ ، فَهُوَ أَعَامٌ فِي كُلِّ مَا كَانَ مِنْ مِمَّا أَوْ نَهْرٍ أَوْ عَيْنٍ عَذْبٍ أَوْ مِلْحٍ . فَأَمَّا غَيْرُ الْجَنَسِ وَهُوَ الْمُنْتَهَرُ فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ ؛ كَمَا لَا يَدْخُلُ فِيهِ مَاءُ الْبَاقِلَاءِ وَلَا مَاءُ الْوَرْدِ ، وَسَيَأْتِي حُكْمُ الْمَاءِ فِي « الْقُرْقَانِ » . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى :

الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثُونَ — وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْوُضُوءَ وَالِاسْتِغْسَالَ لَا يَجُوزُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْرَبَةِ سِوَى التَّيْمَمِ عِنْدَ عَدَمِ الْمَاءِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا » يَرُدُّهُ . وَالْحَدِيثُ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ الْوُضُوءِ بِالتَّيْمَمِ رَوَاهُ أَبُو سَعُودٍ ، وَلَيْسَ بِثَابِتٍ ؛ لِأَنَّ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو زَيْدٍ ، وَهُوَ يَجْهَلُ لَا يَصِفُ بِصَحْبَةِ عَبْدِ اللَّهِ ؛ قَالَ أَبُو الْيَمْنِ الْمُنْذِرُ وَغَيْرُهُ . وَسَيَأْتِي فِي « الْقُرْقَانِ » بَيَانُهُ .

الثَّالِثَةِ وَالثَّلَاثُونَ — الْمَاءُ الَّذِي يَبِيحُ عِنْدَهُ التَّيْمَمُ هُوَ الطَّاهِرُ الْمُطَهَّرُ الْبَاقِي عَلَى أَصْلِهِ سَلَفَتِهِ . وَقَالَ بَعْضُ مَنْ آتَى فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ لَمَّا قَالَ تَعَالَى : « فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا »



فإنما أراح التَّيْم عند عدم كل جزء من ماء؛ لأنه لفظ مُتَكْرٍمٌ تناول كل جزء منه، سواء كان مخالطاً لغيره أو مفترداً بنفسه . ولا يمنع أحد أن يقول في نسيء التَّيْم ماء؛ فلما كان كذلك لم يجب التَّيْم مع وجوده . وهذا مذهب الكوفيين أبي حنيفة وأصحابه؛ وأستدلوا على ذلك بأخبار ضعيفة يأتي ذكرها في سورة « الفرقان » ، وهناك يأتي القول في الماء إن شاء الله تعالى .

الرابعة والثلاثون — قوله تعالى : ( فَتَيَّمُوا ) التَّيْم مما خَصَّت به هذه الأمة توسعة عليها ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ ثَلَاثَ جُمَلٍ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجُودًا وَجُعِلَتْ رُبُّنَا لَنَا طَهْرًا » وذكر الحديث ، وقد تقدم ذكر نزوله ، وذلك بسبب القِلادة حسبما يتناه . وقد تقدم ذكر الأسباب التي تبيحه ، والكلام ها هنا في معناه لغة وشروطا ، وفي صفته وكيفيته وما يُتَيَّم به وله ، ومن يجوز له التَّيْم ، وشروط التَّيْم إلى غير ذلك من أحكامه .

فالتَّيْم لغة هو القصد . تَيَّمْتُ الشَّيْءَ قَصَدْتُهُ ، وتَيَّمْتُ الصَّعِيدَ تَمَدَّدْتُه ، وتَيَّمْتُ بَرْنَجِي وَبَهْمِي أَيْ قَصَدْتُهُ دُونَ مَنْ سِوَاهُ . وأشدُّ الخليل <sup>(١)</sup> :

يَمْتُهُ الزَّيْجُ شَرًّا ثُمَّ قُلْتُ لَهُ • هَذِي السَّالَةُ لِأَلْبِ الرُّطَالِي <sup>(٢)</sup>

قال الخليل : من قال أيمته فقد أخطأ؛ لأنه قال : « شَرًّا » ولا يكون الشَّرُّ إلا من ناحية ولم يقصد به ألامه . وقال آخرؤ القيس :

يَمْتُمَانِ مِنْ أَذْرَعَاتِ وَأَهْلَاهَا • يَسْفِرُ أَذُنِي دَارِيهَا نَظْرًا مَالِ <sup>(٣)</sup>

(١) القائل هو عاصم بن مالك ملاعب الأسة ، يني في شرار بن عمرو الهنسي .

(٢) التشر ( بمجمة مثقفة وزاى ساكنة ) : التظر عن العين والشيء ، وليس بمستم الطريقة . وقيل : هو النظر بمنزلة العين . (٣) حكاه في الأصول - وفي اللسان : « المروءة » .

(٤) الرطالي : جمع زمرقة ، وهي آثار ترخ العبدان من فوق إلى أسفل . (٥) مكذابي الأصول . والقي في دهران امرئ القيس وشرح التواحد لسيو : « تنورتها من أذرعات » والمنى : نظرت إلى نحرها من أذرعات . و « أذرعات » يد في أطراف الشام ، يجاور أرض البقاء وعمان ، فيسب إليه البحر . ويروى : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وآله .

وقال أيضا :  $\frac{1}{x^2} = x^{-2}$  ، فـ  $\frac{d}{dx} \left( \frac{1}{x^2} \right) = -2x^{-3} = -\frac{2}{x^3}$

تَجَمَّتَ الْعَيْنُ الَّتِي عِنْدَ ضَارِجٍ • يَقِيءُ عَلَيْهَا الظُّلُّ عَنْ مَقْصُهَا طَائِبِي

آخر:

(٢) اِنِ كَذٰلِكَ اِذَا مَا سَأَلْنِيْ بَلَدًا • عَمَّتْ بِمِثْرِيْ غَيْرُهُ بَلَدًا

وقال أعشى، يا حلة :

تَبَيَّنَتْ قَبَسًا وَحَكَمَ دُونَهُ \* مِنَ الْأَرْضِ مِنْ مَهْمَةٍ ذِي شَرْنٍ<sup>(٢٢)</sup>

وقال حميد بن قور :

سَلِّ الزَّيْبِ اُنِّ يَمُتْ اُمَّ طَارِقِ • وَهَلْ عَادَةُ لِّلزَّيْبِ اَنْ يَتَكَلَّمَ

وللشافعي رضي الله عنه :

عالمی مہیہ جیٹ یمت اچلہ : بطنی رعاء لہ لا بطن صندوق

قال ابن السكيت : قوله تعالى : « فَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا » أي أفضلوا ؛ ثم كثر

استعملهم لهذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب . وقال ابن الأنباري :

في قولهم : « قد تيم الرجل » معناه قد مسح التراب على وجهه ويديه .

قلت: وهذا هو التيمم الشرعي، إذا كان المقصود به القُرْبَة . ويمتد المريض فيتمم

للصلاة . ورجلٌ مقيمٌ يظفر بكلِّ ما يطلب ؛ عن الشَّيْثَانِي . وأشدُّ :

إنا وجدنا أعصر بن سعد \* مقيم البيت رفيع المجد

وقال آخر:

أَزْمَرَ لَمْ يُولَدْ بِجَعِيمِ الشَّخْ • مُعِمَّ الْيَتِيمِ كَرِيمِ السَّخْ (١)

(١) مناجاة : اسم موضع في بلاد بني عيس ، والعرض : الطلح . وقيل : الخضر على الماء ، والطلح : الذي يكون كأنه نسج التكرير . وماضي : مرفع . (٢) عنكأ : رد البيت في جميع نسخ الأصل . ولعل الرواية : إلى كذا إذا ما ساقى به • يحدث وبه يهيم غيره بدأ . (٣) المومة : القنطرة البعيدة . والتمزق : التفرق . التلطيظ : التلطيظ من الأجر . (٤) البيت لوزبة : وقد أراد بالسبح السبح (بالهاء المعجمة) فأبدل من الخاء حاء لمكان النسخ ، وبعضهم يرويه بالفاء ، ويجمع بينهما وبين الحاء لأنها جميعا حرفا حلق . والسنة : كسر السين : الأصل من كل شيء . (من الألمان) .

صحيح البخاري والثلاثون - لفظ التيم ذكره الله تعالى في كتابه في « البقرة » وفي هذه السورة  
و « المائدة » والتي في هذه السورة هي آية التيم . والله أعلم . وقال القاضي أبو بكر  
أبو العريش : هذه مفضلة ما وجدت لدائها من دواء عند أحد ؛ هما آيتان فيها ذكر التيم .  
[ إحداهما ] في « النساء » والأخرى في « المائدة » . فلا تعلم آية آية عنت عائشة بقولها :  
« فأنزل الله آية التيم » . ثم قال : وحديثها يدل على أن التيم قبل ذلك لم يكن معلوما  
ولا مفعولا لم .

قلت : أما قوله : « فلا تعلم آية آية عنت عائشة » فهي هذه الآية على ما ذكرنا . والله  
أعلم . وقوله : « وحديثها يدل على أن التيم قبل ذلك لم يكن معلوما ولا مفعولا لم » فصحيح  
ولا خلاف فيه بين أهل السير ؛ لأنه معلوم أن غسل الجنابة لم يقترض قبل الوضوء ، كما أنه  
معلوم عند جميع أهل السير أن النبي صلى الله عليه وسلم منذ أقرضت عليه الصلاة بحكمة  
لم يصل إلا بوضوء مثل وضوئنا اليوم . فدل على أن آية الوضوء إنما نزلت ليكون فرضها  
المتقدم متأولا في الترتيل . وفي قوله : « فترتل آية التيم » ولم يقل آية الوضوء ما بين أن  
الذي طرأ لم من العلم في ذلك الوقت حكم التيم لاحكام الوضوء ؛ وهذا بين لا إشكال فيه .  
السادة والثلاثون - التيم يلزم كل مكلف لزمه الصلاة إذا عيم الماء ودخل وقت  
الصلاة . وقال أبو حنيفة وصاحبه والزهري صاحب الشافعي : يجوز قبله لأن طلب الماء  
عندهم ليس بشرط قياسا على النافلة ؛ فلما جاز التيم للنافلة دون طلب الماء جاز أيضا  
للفريضة . وأستدلوا من السنة بقوله عليه السلام لأبي ذر : « الصعيد الطيب وضوء المسلم  
ولو لم يجد الماء عشر حجاج » . فسمى عليه السلام الصعيد وضوءا كما يسمى الماء ؛ فحكاه إذا  
حكم الماء . والله أعلم . ودليلنا قوله تعالى : « فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً » ولا يقال لم يجد الماء إلا  
لأن طلب ولم يجد . وقد تقدم هذا المعنى ؛ ولأنها طهارة ضرورة كالاستحاضة ؛ ولأن النبي  
صلى الله عليه وسلم قال : « فأيما أدركك الصلاة تيممت وصليت » . وهو قول الشافعي  
وأحمد ، وهو مروى عن علي وأبى عمر وأبى عباس .

(١) راجع ج ٣ ص ٢٢٥ طبع أول وثانية . (٢) آية ٦ (٣) الزيادة من ابن العربي .

السابعة والثلاثون - وأجمع العلماء على أن التيمم لا يرفع الجنباة ولا الحدث، وأن التيمم لما إذا وجد الماء عاد جُنُبًا كما كان أو مُحْدِثًا؛ لقوله عليه السلام لأبي ذرٍّ: "إذا وجدت الماء فأمسسه بجلدك" إلا شيء روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، رواه ابن جُرَيْج وعبد الحميد بن جبير بن شيبة عنه؛ ورواه ابن أبي ذئب عن عبد الرحمن بن حرملة عنه قال في الجنب التيمم بمجد الماء وهو على طهارته: لا يحتاج إلى غسل ولا وضوء حتى يُحِثَّ . وقد روي عنه فيمن تيمم وصلى ثم وجد الماء في الوقت أنه يتوضأ ويمسح تلك الصلاة . قال ابن عبد البر: وهذا تناقض وقلة روية، ولم يكن أبو سلمة عندهم يفقه كفه أصحابه التابعين بالمدينة .

الثامنة والثلاثون - وأجمعوا على أن من تيمم ثم وجد الماء قبل الدخول في الصلاة بطل تيممه، وعليه استعمال الماء . والجمهور على أن من تيمم وصلى وفرغ من صلاته، وقد كان اجتهد في طلبه ولم يكن في رحله أن صلاته تامة؛ لأنه أدى فرضه كما أمر . فغير جائز أن توجب عليه الإعادة بفرض حجة . ومنهم من استحسب له أن يعيد في الوقت إذا صلى وأقْسَل . وروي عن طاوس وعطاء والقاسم بن محمد ومكحول وآبن سيرين والزهري وربيعة كلهم يقول: يعيد الصلاة . واستحب الأوزاعي ذلك وقال: ليس بواجب؛ لما رواه أبو سعيد النخعي قال: نزع رجلان في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيما صعيدا طيبا فصليا، ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما الصلاة بالوضوء ولم يعِد الآخر، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال للذي لم يعِد: "أصبحت السنة وأجزأتك صلاتك" وقال للذي توضأ وأعاد: "لك الأجر مرتين" . أخرجه أبو داود وقال: وغير [ابن] نافع يرويه عن الليث عن عمية بن أبي ناجية عن بكر بن سواد عن عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر أبي سعيد في هذا الإسناد ليس بمحفوظ . وأخرجه التارطقي وقال فيه: ثم وجد الماء بعد [ق] الوقت .

(١) زيادة عن أبي دارق؛ لأن عبد الله بن نافع هو الراوي الحديث . (٢) الزيادة من المارغلاني .

التاسعة والثلاثون - واختلف العلماء إذا وجد الماء بعد دخوله في الصلاة فقال مالك : ليس عليه قطع الصلاة واستعمال الماء ولو تيمم صلاته وليتوضأ لما يستقبل ؛ وبهذا قال الشافعي واختاره ابن المنذر . وقال أبو حنيفة وجماعة منهم أحمد بن حنبل والمزني : يقطع ويتوضأ ويستأنف الصلاة لوجود الماء . وسجته أن التيمم لما بطل بوجود الماء قبل الصلاة فكذلك يبطل ما بقى منها ، وإذا بطل بعضها بطل كلها ؛ لإجماع فقهنا على أن المعتدة بالشهور لا يبقى عليها إلا أقلها ثم تحيض أنها تستقبل عنتها بالحوض . قالوا ؛ والذي يطرأ عليه الماء وهو في الصلاة كذلك قياسا ونظرا . ودليلنا قوله تعالى : « وَلَا تَطْلُوا أَعْمَالَكُمْ » . وقد انفق الجميع على جواز الدخول في الصلاة بالتيمم عند عدم الماء ، واختلفوا في قطعها إذا رؤي الماء ؛ ولم تنبئ سنة بقطعها ولا إجماع . ومن سجتهم أيضا أن من وجب عليه الصوم في ظهارة أو قتل فصام منه أكثره ثم وجد رقبة لا يلغى صومه ولا يعود إلى الرقبة . وكذلك من دخل في الصلاة بالتيمم لا يقطعها ولا يعود إلى الوضوء بالماء .

المرفية أربعين - واختلفوا هل يُصلى به صلوات أم يلزم التيمم لكل صلاة فرض وقيل ؛ قال شريك بن عبد الله القاضي : يتيمم لكل صلاة ثالثة وفريضة . وقال مالك : لكل فريضة ؛ لأن عليه أن يخشى الماء لكل صلاة ، فمن استثنى الماء فلم يجده فإنه يتيمم . وقال أبو حنيفة والثوري والليث والحسن بن حي وداود : يصلى ما شاء يتيمم واحد ما لم يجد ؛ لأنه ظاهر ما لم يجد الماء ، وليس عليه طلب الماء إذا شئ منه . وما قلناه أصح ؛ لأن الله عز وجل أوجب على كل قائم إلى الصلاة طلب الماء ، وأوجب عند عدمه التيمم لاستباحة الصلاة قبل خروج الوقت ، فهي طهارة ضرورية تانصة بدليل إجماع المسلمين على بطلانها بوجود الماء وإن لم يجد ؛ وليس كذلك الطهارة بالماء . وقد يتنفي هذا الخلاف أيضا في جواز التيمم قبل دخول الوقت ؛ فالشافعي وأهل المقالة الأولى لا يمتزونه ، لأنه لما قال الله تعالى « فلم يجدوا ماء فتييمموا » ظهر منه تعلق أجزاء التيمم بالحاجة ، ولا حاجة قبل الوقت . وعن هذا لا يصلى فرضين يتيمم واحد ، وهذا بين . واختلف علماءنا فيمن صلى فرضين يتيمم

واحد؛ فروى يحيى بن يحيى عن ابن القاسم : يعيد الثانية ما دام في الوقت . وروى أبو زيد ابن أبي العزم عنه : يعيد أبدا . وكذلك روى عن مطرف وابن الماجشون يعيد الثانية أبدا . وهو الذي ينظر عليه أصحابنا ؛ لأن طلب الماء شرط . وذكر ابن عبدوس أن ابن نافع روى عن مالك في الذي يجمع بين الصلاتين أنه يتم لكل صلاة . وقال أبو الفرج فيمن ذكر صلوات : إن قضاءهن يتم واحد فلا شيء عليه وذلك جائز له . وهذا على أن طلب الماء ليس شرط . والاول أصح . والله أعلم .

الحادية والأربعون — قوله تعالى : ﴿ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ الصعيد : وجه الأرض كان عليه تراب أو لم يكن ؛ قاله الخليل وابن الأعرابي والزجاج . قال الزجاج : لا أعلم فيه خلافا بين أهل اللغة ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أى أرضا غليظة لا تنفث شيئا . وقال تعالى ﴿ فَصَبَّحْ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ . ومنه قول ذى الرمة :

كَأَنَّهُ بِالضَّحَى تَرَى الصَّيْدَ بِهِ \* دَبَابَةٌ فِي عِظَامِ الرَّاسِ تُخْرُومُ<sup>(١)</sup>

وإنما سمي صعيدا لأنه نهاية ما يُصعد إليه من الأرض . وجمع الصعيد صُعَدَات ؛ ومنه الحديث " إياكم والجلوس في الصُعَدَات " . واختلف العلماء فيه من أجل تقيده بالطيب ؛ فقالت طائفة : يتم بوجه الأرض كله ترابا كان أو رملا أو بحجارة أو معدنا أو سبعة . هذا منهب مالك وأبي حنيفة والثوري والطبري . « وطيبا » . مناه طاهرا ، وقالت فرقة : « طيبا » حلالا ؛ وهذا تلقى . وقال الشافعي وأبو يوسف : الصعيد التراب المنبت وهو الطيب ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ فلا يجوز التيمع عندهم على ضربه . وقال الشافعي : لا يقع الصعيد إلا على تراب ذى غبار . وذكر عبد الرزاق عن ابن عباس أنه سئل أى الصعيد أطيب ؟ فقال : الحرث . قال أبو عمر : وفي قول ابن عباس هذا ما يدل على أن الصعيد يكون غير أرض الحرث . وقال علي بن رضى الله عنه : هو التراب

(١) الصعيد : التراب . والله بآية معنى الحر . والخرطوم : النمر ومفوتها . يقول : ولد التليخ لا يرفع راسه ، وكأنه رجل حكران من قتل فومه في وقت الضحى .  
(٢) الصعدات : الطرق .

خاصة . وفي كتاب الليل : يتم بالصعيد ، أي جذمين غياره ؛ وجكاه ابن فارس . وهو يقتضي التيمم بالتراب فإن الحجر الصلد لا غيار عليه . قال الريا الطبري : واشترط الشافعي أن يتلق التراب باليد ويتم به قلا إلى أعضاء التيمم ، كالماء ينقل إلى أعضاء الوضوء . قال الريا : ولا شك أن لفظ الصعيد ليس نصا فيما قاله الشافعي ، إلا أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لي الأرض مسجدا وتربتها طهورا " بين ذلك .

قلت : فاستدل أصحاب هذه المقالة بقوله عليه السلام : " وجعلت تربتها لنا طهورا " وقالوا : هذا من باب المطلق والمقيد وليس كذلك ، وإنما هو من باب النص على بعض أشخاص النعم ؛ كما قال تعالى : " فيها قاكه وتخل ورومان " وقد ذكرناه في « البقرة » عند قوله : « وملائكته ورسله وسيريل وميكال » . وقد حكى أهل اللغة أن الصعيد اسم لوجه الأرض كما ذكرناه ، وهو نص القرآن كما بينا ، وليس نصد بيان الله بيان . وقال صلى الله عليه وسلم للجنب : " عليك بالصعيد فإنه يكفيك " وسأقي - فصعيدا على هذا ظرف مكان . ومن جعله للتراب فهو مقول به بتقدير حذف الباء أي بصعيد . و« طيبا » نعت له . ومن جعل « طيبا » بمعنى سلاا نصبه على الحلال أو المصدر .

الثانية والأربعون - وإذا تقرر هذا فاعلم أن مكان الإجماع بما ذكرناه أن يتمم الرجل على تراب منبت طاهر غير منقول ولا منسوب . ومكان الإجماع في المنع أن يتمم الرجل على الذهب الصرف والفضة والياقوت والزُّمرد والأطعمة كالخبز والحلم وغيرها ، أو على التباسات . واختلف في غير هذا كالمادن ؛ فأجيز وهو مذهب مالك وغيره . ومنع وهو مذهب الشافعي وغيره . قال ابن خزيمة : ويجوز عند مالك التيمم على الخشيش إذا كان دون الأرض واختلف عنه في التيمم على الثلج ففي المدونة والمبسوط جوازه ، وفي غيرها منعه . واختلف المذهب في التيمم على السود ؛ فالجمهور على المنع . وفي مختصر الوفا أنه جائز .

(١) راجع ٢ ص ٢٦ طبة ثانية .

(٢) الزمرد (كحبات) ؛ لقب ذكرناه بن يحيى بن إبراهيم المصري القتيبي .

وقيل : بالفرق بين أن يكون مفصلا أو متصلا فأجيز على المتصل ومنع من المفصل . وذكر  
العلبي أن مالكا قال : لو ضرب بيده على شجرة ثم مسح بها أجزاءه . قال : وقال الأوزاعي  
والتوري : يجوز بالأرض وكل ما عليها من الشجر والحجر والمدر وغيرها ، حتى قال :  
لو ضرب بيده على الجند<sup>(١)</sup> والطلع لجزأه . قال ابن عطية : وأما التراب المنقول في طبق أو غيره  
بجمهور المذهب على جواز التيمم به ، وفي المذهب المنع وهو في غير المذهب أكثر ،  
وأما ما طُبِّخ كالخض والأجتر ففيه في المذهب قولان : الإجازة والمنع ؛ وفي التيمم على  
الجدار خلاف .

قلت : والمصحح الجواز لحديث أبي جهم بن الحارث بن الصمة الأنصاري قال :  
أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من نحو بئر جمل فلقية رجل فسلم عليه ، فلم يرد عليه النبي  
صلى الله عليه وسلم حتى أقبل على الجدار فسح بوجهه ويديه ، ثم رد عليه السلام . أخرجه  
البخاري . وهو دليل على صحة التيمم بغير التراب كما يقوله مالك ومن وافقه . ورد على  
الشافعي ومن تابعه في أن المسحوح به تراب طاهر ذو غبار يعلق باليد . وذكر النقاش عن  
ابن طيبة وابن كيسان أنهما أجازا التيمم بالمسك والزعفران . قال ابن عطية : وهذا خطأ  
يبحث من جهات . قال أبو عمر : وجماعة العلماء على إجازة التيمم بالسبخ إلا إسحاق بن  
راهويه . وروى عن ابن عباس فيمن أدركه التيمم وهو في طين قال يأخذ من الطين فيطلي  
به بعض جسده ، فإذا جف تيمم به . وقال التوري وأحمد : يجوز التيمم بشار الأبد . قال  
الطبري : وأجاز أبو حنيفة التيمم بالكمحل والزرنج والثورة والخص والموهر المسحوق .  
قال : فإذا تيمم بسحالة الذهب والفضة والصفرة والنحاس والرصاص لم يحز ؛ لأنه ليس من  
جنس الأرض .

الثالثة والأربعون - قوله تعالى : ( فَاَمْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ) المسح لفظ مشترك  
يكون بمعنى الجماع ؛ يقال : مسح الرجل المرأة إذا جامعها . والمسح : مسح الشيء بالسيف

(٢) المغر (بالضم) : الذي تسلم منه الأثران .

(١) الجند (بالضرب) : الماء الجامد .



يرقطعه به . ونسخت الإبل يؤمها إذا سارت . والنساعة المرأة السخاء التي لا آست لها .  
 وبقلان نسعة من جمال . والمراد هنا بالمسح عبارة عن جرب اليد على المنسوح خاصة ، فإن  
 كان بالة فهو عبارة عن قتل الآلة إلى اليد وجربها على المنسوح ، وهو مقتضى قوله تعالى  
 في آية المسائة : « قَامَسُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ » . فقوله « مِنْهُ » يدل على أنه لا بد  
 من قتل التراب إلى محل التيمم . وهو مذهب الشافعي ولا نسترطه نحن ؛ لأن النبي صلى الله  
 عليه وسلم لما وضع يديه على الأرض ورفعهما نفخ فيهما ؛ وفي رواية نفخ . وذلك يدل  
 على عدم اشتراط الآلة ؛ يوحى تيممه على الجدار . قال الشافعي : لما لم يكن بد في مسح  
 الرأس بالماء من بلل ينقل إلى الرأس ، فكذلك المسح بالتراب لا بد من النقل . ولا خلاف  
 في أن حكم الوجه في التيمم والوضوء الاستيعاب ونفع مواضعه ؛ وأجاز بعضهم ألا يتنجس  
 كالنضون في الخفين وما بين الأصابع في الرأس ، وهو في المذهب قول محمد بن مسلمة ؛  
 حكاه ابن عطية . وقال الله عز وجل : « يُوْجُوْهُكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ » فبدأ بالوجه قبل اليدين وبه  
 قال الجمهور . ووقع في البخاري من حديث عمار في « باب التيمم ضربة » ذكر اليدين قبل  
 الوجه . وقاله بعض أهل العلم قياسا على تنكيس الوضوء .

الراجعة والأربعون — واختلف العلماء أين يبلغ بالتيمم في اليدين ؛ فقال ابن شهاب :  
 إلى المناكب . وروى عن أبي بكر الصديق . وفي مصنف أبي داود عن الأعمش أن رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم مسح إلى أنصاف ذراعيه . قال ابن عطية : ولم يقل أحد بهذا  
 الحديث فيما حفظت . وقيل : يبلغ به إلى المرفقين قياسا على الوضوء . وهو قول أبي حنيفة  
 والشافعي وأصحابهما والثوري وابن أبي سلمة والليث كلهم يرون بلوغ المرفقين بالتيمم فرضا  
 واجبا . وبه قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وابن نافع ، وإليه ذهب إسماعيل القاضي .  
 قال ابن نافع : من تيمم إلى الكوعين أعاد الصلاة أبدا . وقال مالك في المدقنة : يمسد  
 في الوقت . وروى التيمم إلى المرفقين عن النبي صلى الله عليه وسلم جابر بن عبد الله وابن عمر  
 وبه كان يقول . قال القارظي : سئل قتادة عن التيمم في السفر قال : كان ابن عمر يقول

إلى المرفقين . وكان الحسن وإبراهيم التميمي يقولان إلى المرفقين . قال : وحدثنى محدث  
عن الشعبي عن عبد الرحمن بن أبيزى عن عمار بن ياسر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
« إلى المرفقين » . قال أبو إسحاق : فذكرته لأحمد بن حنبل فحجب منه وقال ما أحسنه ! .  
وقالت طائفة : يبلغ به إلى الكوعين وهما الزنجان . روى عن علي بن أبي طالب والأوزاعي  
وعطاء والشعبي في رواية ، وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وداود بن علي والطبري .  
وروى عن مالك وهو قول الشافعي في القديم . وقال مكحول : اجتمعت أنا والزهرى فذاكرنا  
التيمن فقال الزهرى : المسح إلى الآباط . فقلت : عن أخذت هذا ؟ فقال : عن كتاب الله  
عن وجل ، إن الله تعالى يقول : « تَأْمِسُوا رُءُوسَكُمْ وَأَبْذِكُمْ » فهي يد كلها . قلت له :  
فإن الله تعالى يقول : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » <sup>(١)</sup> فمن أين تقطع اليد ؟ قال :  
نقصته . وسُئِلَ عن التراويدي أن الكوعين فرض والآباط فضيلة . قال ابن عطية :  
هذا قول لا يعضده قياس ولا دليل ، وإنما عم قوم لفظ اليد فأوجوه من المنكب ، وقاس  
قوم على الوضوء فأوجوه من المرافق وهنا جمهور الأمة ، ووقف قوم مع الحديث في الكوعين ،  
وقيس أيضا على القطع إذ هو حكم شرعي وتطهير كما هذا تطهير ، ووقف قوم مع حديث عمار  
في الكفين . وهو قول الشعبي .

الخامسة والأربعون - واختلف العلماء أيضا هل يكفي في التيمم ضربة واحدة أم لا ؛  
فذهب مالك في المدونة أن التيمم بضرعتين : ضربة للوجه وضربة لليدين ؛ وهو قول الأوزاعي  
والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم ، والثوري والليث وابن أبي سلمة . ورواه جابر بن عبد الله  
وابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن أبي الجهم : التيمم بضرعة واحدة . وروى  
عن الأوزاعي في الأشهر عنه ؛ وهو قول عطاء والشعبي في رواية . وبه قال أحمد بن حنبل  
وإسحاق وداود والطبري . وهو أثبت ما روى في ذلك من حديث عمار . قال مالك في كتاب  
محمد : إن تيمم بضرعة واحدة أجزاءه . وقال ابن نافع : يبدأ أبدا . قال أبو عمر وقال ابن

(١) كذا في الأصول . قال ابن عطية : « التاردي » .

أَبَى لَيْلٍ وَالْحَسَنُ بْنُ سَيِّدٍ : ضَرَبَانِ ، يَمْسَحُ بِكُلِّ ضَرْبَةٍ مِمَّا وَجْهَهُ وَذِرَاعِيهِ وَصِرَافِيهِ .  
وَلَمْ يَقُلْ بِذَلِكَ أَحَدٌ مِّنْ أَهْلِ التَّحْقِيقِ قَطُّ ، قَالَ أَبُو عَمْرٍو : لَمَّا اخْتَلَفَتِ الْأَقَارِفُ فِي كَيْفِيَةِ  
التَّيْمِ وَتَمَارَضَتِ كَانَ الْوَاجِبُ فِي ذَلِكَ الرَّجُوعِ إِلَى ظَاهِرِ الْكُتَابِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى ضَرْبَيْنِ :  
ضَرْبَةِ الْوَجْهِ ، وَلِلَّذِينَ أُخْرَى إِلَى الْمَرْقُوعِينَ ، فَيَأْسَى عَلَى الْوَضُوءِ وَأَتَابَا لِفِعْلِ ابْنِ عَمْرٍو ، فَإِنَّهُ مِنْ  
لَا يُدْفَعُ عَلَيْهِ بِكَتَابِ اللَّهِ . وَلَوْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ وَجِبَ الْوُقُوفُ  
عِنْدَهُ . وَبِإِلَهِ التَّوْفِيقِ .

قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ) أى لم يزل كاشفا يقبل العفو وهو السهل ،  
وينظر النسيب أى يسترحمونه فلا يعاقب .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَسْتَفْزِفُونَ  
الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۖ (١٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ  
وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۖ (١٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ  
وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِينَ وَطَعْنًا  
فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ  
وَأَقْوَمُ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ (١٦)  
يَتْلُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا تَرَلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ  
أَن تَطْمِئِنَّ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَيْ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ  
وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۖ (١٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ  
ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۖ (١٨) أَلَمْ تَرَ  
إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُلْحِقُونَ فِيلًا ۖ (١٩)

أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقْلَبُوهُ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٨﴾ أَمْ لَمْ نَصِيبْ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٩﴾

نزّل في يهود المدينة وما وآلها . قال ابن اسحاق : وكان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود ، إذا كلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوى لسانه وقال : أرفعنا تمك يا جد حتى نفهمك ؟ ثم طعن في الإسلام وعابه فأنزّل الله عز وجل « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ » إلى قوله « قَلِيلًا » . ومعنى « يَشْتَرُونَ » يَسْبِدُونَ فهو في موضع نصب على الحال ، وفي الكلام حذف تقديره يشترون الضلالة بالهدى ؛ كما قال تعالى « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى » قاله القتيبي وغيره . ( وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ) عطف عليه ، والمضى تَضَلُّوا طريق الحق . وقرأ الحسن « تَضَلُّوا » بفتح الضاد أى عن السبيل .

قوله تعالى : ( وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ) يريد منكم ؛ فلا تستصحبوهم فإنهم أعداؤكم . ويجوز أن يكون « أعلم » بمعنى علم ؛ كقوله تعالى « وَعَوَّاهُونَ عَلَيْهِ » أى هين . ( وَكَفَى بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ الْبَاءَ زَائِدَةً ) زيدت لأن المعنى آتوا بالله فهو يكفيكم أعداءكم . و « وَيَا » و « نَصِيرًا » نصب على البيان ، وإن شئت على الحال .

قوله تعالى : ( مِنَ الَّذِينَ هَادُوا ) قال الزجاج : إن جعلت « من » متعلقة بما قبل فلا يوقف على قوله « نصيرا » ، وإن جعلت منقطعة فيجوز الوقف على « نصيرا » والتقدير من الذين هادوا قوم يجوزون الكلام ؛ ثم حذف . وهذا مذهب سيويه ، وأشدّ النحويون : لو قلت ما في قومها لم يتيم <sup>(١)</sup> . يفضّلها في حسبٍ ومبيمٍ

(١) تيم (بكرهاته) : وهى لغة لبعض العرب ، وذلك أنهم يكرهون حرف المضارعة في نحو نعلم ونعلم ؛ فلما كرهوا أخذت الهزئة يا . والبسم (بوزن المجلس) : التمر .

قالوا : المني لو قلت ما قومتها أحد بفضلها ؛ ثم حنف . وقال الفراء : المحذوف « من » .  
المني : من الذين هادنوا من يعزفون . وهذا كقوله تعالى : « وما من آية إلا له مقام معلوم »  
أي من له . وقال ذو الرمة :

فظلوا ومنهم دمه سابق له \* وأخر يزيد بن عبة العين بالمسيل<sup>(١)</sup>

يريد ومنهم من دمه ، حذف الموصول . وأنكر المبرد والزجاج ؛ لأن حذف الموصول كحذف  
من الكلمة . وقرا أبو عبد الرحمن السلمي وإبراهيم النحوي « الكلام » . قال النحاس :  
« والكلم » في هذا أولى ؛ لأنهم إنما يعزفون كلم النبي صلى الله عليه وسلم ، أو ما عندهم في التوراة ،  
وليس يعزفون جميع الكلام ، ومعنى ( يعزفون ) يتأولونه على غير تأويله . وذهب الله تعالى  
بذلك لأنهم يفعلونه متعمدين . وقيل : ( عن مواضعه ) يعني صفة النبي صلى الله عليه وسلم .  
( ويقولون سمعنا وعصينا ) أي سمعنا قولك وعصينا أمرك . ( وأسمع غير مسمع ) قال  
أبن عباس : كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : أسمع لاسمعت ، هذا مرادهم — لنهزم الله —  
وهم يظهرون أنهم يريدون أسمع غير مسمع مكرها ولا أذى . وقال الحسن ومجاهد : معناه  
غير مسمع منك ، أي مقبول ولا يجاب إلى ما تقول . قال النحاس : ولو كان كذا لكان غير  
مسموع منك . وذهب القول في ( راعيا )<sup>(٢)</sup> . ومعنى ( ليا بالسيهم ) أي يلون السهم عن  
الحق أي يميلونها إلى ما في قلوبهم . وأصل التي القتل وهو نصب على المصدر ، وإن شئت  
كان مفعولا من أجله . وأصله لويًا ثم أدغمت الواو في الياء . ( وعلما ) معطوف عليه  
أي يعلمون في الدين ، أي يقولون لأصحابهم لو كان نبيا لدرى أنا نبيه ، فظهر الله تعالى  
نبية على ذلك فكان من علامات نبوته ، ونهاهم عن هذا القول . ومعنى ( أقوم ) أصوب لهم  
في الرأي . ( تلاميذون إلا قليلا ) أي إلا إيمانا قليلا لا يستحقون به اسم الإيتان . وقيل :  
معناه لا يؤمنون إلا قليلا منهم ؛ وهذا بعيد لأنه عز وجل قد أخبر عنهم أنه لنهزم بكفرهم .

(١) في ديوان ذي الرمة : « يقي » . وهملان العين فيضائها بالهمزة .

(٢) راجع ج ٢ ص ٥٧ ملحة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا ﴾ قال ابن إسحاق : كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء من أحياء يهود منهم عبد الله بن صوريا الأعور وكعب بن أسد فقال لهم : « يا معشر يهود آمنوا بالله وأسلموا قواله إنكم لتعلمون أن الذي جئكم به الحق » قالوا : ما نعرف ذلك يا محمد . وتجدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر ؛ فانزل الله عز وجل فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغِسَ وُجُوهًا ﴾ إلى آخر الآية .

قوله تعالى : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ نصب على الحال . ( مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغِسَ وُجُوهًا ) الطغيس استئصال أثر الشيء ؛ ومنه قوله تعالى : « فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ » . ونطميس ونطمس بكسر الميم وضهما في المستقبل لفتان . ويقال في الكلام : طمس بطمس وطمس بمعنى طمس ؛ يقال : طمس الأثر وطمس أى أغمى ؛ كله لغات ؛ ومنه قوله تعالى : « رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْرًا لَمِمْ » أى أهلكها ؛ عن ابن عرفة . ويقال : طمسته نطمس لازم ومتعد . وطمس الله بصره ، وهو مطموس البصر إذا ذهب أثر العين ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ » يقول أعميتهم .

واختلف العلماء في المعنى المراد بهذه الآية ؛ هل هو حقيقة فيجعل الوجه كاللحم فيذهب بالأنف والشم والحاجب والعين . أو ذلك عبارة عن الضلالة في قلوبهم وسلبهم التوفيق ؛ قولان . روى عن أبي بن كعب أنه قال : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ » من قبل أن نضلهم إضلالا لا تتدون بعده . يذهب إلى أنه تمثيل وأنهم إن لم يؤمنوا ضل هذا بهم عقوبة . وقال قتادة : معناه من قبل أن نجعل الوجوه أقفاء . أى يذهب بالأنف والشم والشفاء والعين والحاجب ؛ هذا معناه عند أهل اللغة . وروى عن ابن عباس وعطية القوفي : أن الطميس أن تُزال العينان خاصة وترد في القفا ؛ فيكون ذلك ردًا على الدبر ويمشى القهقري . وقال مالك : كان أول إسلام كعب الأحبار أنه مرّ برجل من الليل وهو يقرأ هذه الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمِنُوا » فوضع كفيه على وجهه ورجع القهقري إلى بيته فأسلم مكانه وقال :

والله لقد خفت ألا أبلغ بيتي حتى يطعن وجهي . وكنا فعل عند الله بن سلام لما نزلت هذه الآية وسماها أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتي أهله وأسلم وقال : يا رسول الله ، ما كنت أدري أن أصل إليك حتى يحول وجهي في ففأى . فإن قيل : كيف جاز أن يهتدم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا ولم يفعل ذلك بهم ، قيل : إنه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم رفع الوعيد عن الباقيين . وقال المبرد : الوعيد باق منتظر . وقال : لا يذم من طمس في اليهود ومسخ قبل يوم القيامة .

قوله تعالى : ( أَوْ تَلْعَنَهُمْ ) أى أصحاب الوجوه كما لنا أصحاب السبب ، أى نغسلهم قودة واختار يرب عن الحسن وقادة . وقيل : هو خروج من الخطاب الى النية . ( وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعْمُولًا ) أى كانتا موجودا . ويراد بالأمر المأمور فهو مصدر وقع موقع المفعول ، فالفى أنه متى اراده أوجده . وقيل : معناه أن كل أمر أخبر بكونه فهو كائن على ما أخبر به .

قوله تعالى : ( إِنْ أَتَاكَ لَفَّظٌ مِّنْ شَرِّكَ ) روى أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا : « إِنْ أَتَاكَ لَفَّظٌ مِّنْ شَرِّكَ » فقال له رجل : يا رسول الله والشرك ! فترى « إِنْ أَتَاكَ لَفَّظٌ مِّنْ شَرِّكَ » وَيَقْفَرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وهذا من المحكم المتفق عليه الذى لا اختلاف فيه بين الأمة . ( وَيَقْفَرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ) من التشابه الذى قد تكلم العلماء فيه . قال محمد بن جرير الطبرى : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فى مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه ، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرة شركاً بالله تعالى . وقال بعضهم : قد بين الله تعالى ذلك بقوله : « إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَارَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » . فاعلم أنه يشاء أن يقفر الصغار لمن اجتنب الكبار ولا يقفرها لمن أتى الكبار . وذهب بعض أهل التاويل الى أن هذه الآية ناسخة لآتى فى آخر « الفرقان » . قال زيد ابن ثابت : نزلت سورة « النساء » بعد « الفرقان » بسنة أشهر ، والصحيح أن لا نسخ ، لأن النسخ فى الأخبار يستحيل . وسيأتى الجمع بين الآتى فى هذه السورة وفى « الفرقان » . إن شاء الله تعالى . وفى الترمذى عن علي بن أبي طالب قال : ما فى القرآن آية أحب إلى من هذه

الآية « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » قال : هذا حديث حسن غريب .

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ ) هذا اللفظ عام في ظاهره ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد اليهود . واختلفوا في المعنى الذي زكّوا به أنفسهم ؛ فقال قتادة والحسن : ذلك قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هَودًا أَوْ نَصَارَى » وقال الضحاك والسدي : قولهم لا ذنوب لنا وما فعلناه نهارا غفرت لنا ليل وما فعلناه ليل غفرت لنا نهارا ، ونحن كالأطفال في عدم الذنوب . وقال مجاهد وأبو مالك وعكرمة : تهميمهم الصنادق للصلاة ؛ لأنهم لا ذنوب عليهم . وهذا بعيد من مقصد الآية . وقال ابن عباس : ذلك قولهم آباؤنا الذين ماتوا يشعرون لنا ويركّوننا . وقال عبد الله ابن مسعود : ذلك شيء بعضهم على بعض . وهذا أحسن ما قيل ، فإنه الظاهر من معنى الآية . والتركبة التطهير والتبعية من الذنوب .

الثانية — هذه الآية وقوله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » يقتضي النقص من الزكّي لنفسه بلسانه ، والإعلام بأن الزاكي المزكّي من حسنت أفعاله وزكاه الله عز وجل فلا عبرة بتركية الإنسان نفسه ، وإنما العبارة بتركية الله له . وفي صحيح مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سميت ابنتي برة ، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم ، وسميت برة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتزكّوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم » قالوا : بيم نسميها ؟ فقال : « سموها زينب » . فقد دل التكلب والسنة على المنع من تركية الإنسان نفسه ، ويمرئ هذا المجرى ما قد كثرت في هذه الديار المصرية من تهميم أنفسهم بالصوت التي تقتضي التركبة ؛ كركبة الدين ومعى الدين وما أشبه ذلك ، لكن لما كثرت فباغى المسلمين بهذه الأسماء ظهر تخلف هذه الصوت عن أصلها فصارت لا تبعيد شيئا .



الثالثة — فأما تركية النير ومدحه له ؛ ففى البىارى من حديث أبى بكره أن رجلا  
 ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتى عليه رجل خيرا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :  
 ” وَيَحْكُ قَطْعْتَ عَتَقَ صَاحِبِكَ — يَقُولُهُ مَرَارًا — إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادَحًا لَا عَالَةَ فَلْيَقُلْ  
 أَحْسِبْ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ وَحَسْبِهِ اللَّهُ وَلَا يَزُكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا ” فهى صلى الله  
 عليه وسلم أن يُحَرِّطَ فى مدح الرجل بما ليس فيه فيدخله فى ذلك الإعجاب والكبر ، ويظن  
 أنه فى الحقيقة بتلك المترلة فيجعله ذلك على تضييع العمل وترك الأزداد من الفضل ؛ ولذلك  
 قال صلى الله عليه وسلم : ” وَيَحْكُ قَطْعْتَ عَتَقَ صَاحِبِكَ ” . وفى الحديث الآخر ” قَطَعْتَ ظَهْرَ  
 الرَّجُلِ ” حين وصفوه بما ليس فيه . وعلى هذا تأول العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : ” أَحْوَا  
 التُّرَابِ فى وجوه المتلاحين ” أن المراد به المتلاحون فى وجوههم بالباطل وبما ليس فيهم ، حتى  
 يصلوا ذلك بضاعة يستأكلون به الممدوح ويتنتونه ؛ فأما مدح الرجل بما فيه من الفعل  
 الحسن والأمر الحمود ليكون منه ترضياله فى أمثاله وتمريضه للناس على الاقتداء به فى أشباهه  
 فليس بمذاح ، وإن كان قد صار مادحا بما تكلم به من جيل القول فيه . وهذا راجع  
 إلى التيات « والله يعلم المقصد من المصليح » . وقد مدح صلى الله عليه وسلم فى الشعر والخطب  
 والمخاطبة ولم يَحْكُ فى وجوه المتلاحين التراب ، ولا أمر بذلك . كقول أبى طالب :  
 وَأَبْيَضَ يَسْتَقِي الْغَامَ بِوَجْهِهِ \* يَمِيلُ الْيَسْمَى عَصَمَةَ لِلْأَمَلِ

وكذلك العباس وحسان له فى شعرهما ، ومدحه كعب بن زهير ، ومدح هو أيضا أصحابه  
 فقال : ” إِنَّكُمْ لَيَقُولُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ وَتُكْثِرُونَ عِنْدَ الْفَرَجِ ” . وأما قوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح  
 الحديث ” لَا تَطْرُقُونِي كَمَا أَطْرَقَ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ” فمعناه  
 لا تصفوني بما ليس فى من الصفات تنتمسون بذلك مدحى ، كما وصفت النصارى عيسى  
 بما لم يكن فيه ، ففسبوه إلى أنه ابن الله فكفروا بذلك وضلوا . وهذا يقتضى أن من رفع  
 أمرا فوق حده وتجاوز مقداره بما ليس فيه فتمدحتم ؛ لأن ذلك لو جاز فى أحد لكان  
 أولى الخلق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْلُبُونَنِي لِآلٍ ﴾ الضمير في « تطلبون » غائد على المذكورين من زكي نفسه ومن يركبه الله عز وجل . وغير هذين الصنفين علم أن الله تعالى لا يظلمه من غير هذه الآية . والقيل الخيط الذي في شق نواة التمرة قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد . وقيل : الفشرة التي حول النواة بينها وبين البصرة . وقال ابن عباس أيضا وأبو مالك والسدي : هو ما يخرج بين أصبعيك أو كفك من الوحش إذا قتلتهما فهو فيل بمعنى مفعول . وهذا كله يرجع إلى الكناية عن تحقير الشيء وتصغيره ، وإن الله لا يظلمه شيئا . ومثل هذا في التحقير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَطْلُبُونَنِي بِأَيِّهَا ﴾ وهو الكناية التي في ظهر النواة ، ومنه ثبت النحلة ؛ وسيأتي . قال الشاعر يذم بعض الملوك :

تجمع الجيش ذا الألوف وتقزو • ثم لا ترأى السدر فيلا

ثم عجب النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال : ﴿ أَنْظَرَكَيْفَ يَقْدُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ في قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه . وقيل : تركبهم لأصمهم ؛ عن ابن جريج . روى أنهم قالوا : ليس لنا ذنوب إلا كذنوب أبنائنا يوم تولد . والآخره الاختلاق ؛ ومنه ابتلى فلان على فلان أي رماه بما ليس فيه . وفرت الشيء قطمته . ﴿ وَكَفَى بِهِ إِيمَانًا مِثْلًا ﴾ نصب على اليان . والمعنى تعظيم الذنب وذمه . والعرب تستعمل مثل ذلك في الممدح والذم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ يعني اليهود ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل الجبت والطاغوت ؛ فقال ابن عباس وابن جبير وأبو العالقة : الجبت الساحر بلسان الحبشة ، والطاغوت الكاهن . وقال الفاروق عمر رضي الله عنه : الجبت السحر والطاغوت الشيطان . ابن مسعود : الجبت والطاغوت هما كعب ابن الأشرف وحشي بن أخيط . عكرمة : الجبت حبي بن أخيط والطاغوت كعب ابن الأشرف ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُضَاهُواكُمْ إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ . قتادة : الجبت الشيطان والطاغوت الكاهن . وروى ابن وهب عن مالك بن أنس : الطاغوت ما عبد من دون الله . قال : وسمنت من يقول إن الجبت الشيطان ؛ ذكره النحاس . وقيل : هما كل معبود من

قَوْلُ اللَّهِ : « أَوْ مَطَاعٌ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ » وَهَذَا خَسَنٌ . وَأَصْلُ الْجَبْتِ الْجَبَسُ وَهُوَ الَّذِي لَا خَيْرَ  
 فِيهِ فَأَبْدَلَتْ النَّاسُ مِنَ السَّيْرِ : قَالَهُ قَطْرَبٌ . وَقِيلَ : الْجَبْتِ الْجَبَسُ وَالطَّاغُوتُ أَوَّلُ بَازٍ . وَقَوْلُ  
 مَالِكٍ فِي هَذَا الْبَابِ حَسَنٌ : يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَفَإِنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ »  
 وَقَالَ تَعَالَى : « وَالَّذِينَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِمْ رِزْقًا مِنْ رَبِّهِمْ » . وَرَوَى قُطَيْبُ بْنُ الْخَوَّازِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ  
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الطَّرْقُ وَالطَّيْرَةُ وَالْبَيَاقَةُ مِنَ الْجَبْتِ » . الطَّرْقُ الزَّجْرُ ،  
 وَالْبَيَاقَةُ الْخَطُّ ؛ خَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ . وَفِيهِ : الْجَبْتُ كُلُّ مَا جَرَمَ اللَّهُ ، وَالطَّاغُوتُ  
 كُلُّ مَا يَطْنِي الْإِنْسَانَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ) أَيْ يَقُولُ الْيَهُودُ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ أَتَمَّ أَهْدَى  
 سَبِيلًا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ . وَذَلِكَ أَنَّ كُفْرَ بَنِي الْأَشْرَفِ خَرَجَ فِي سَبْعِينَ رَاكِبًا مِنَ الْيَهُودِ  
 إِلَى مَكَّةَ بِمَدَّةٍ وَفَعَلُوا قُرَيْشًا عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَرَلَّ كُفْرُ  
 عَلَى أَبِي سَفْيَانَ فَأَحْسَنَ مَوَاهِدَهُ ، وَتَرَلَّتِ الْيَهُودُ فِي دُورِ قُرَيْشٍ فَمُتَّعُوا وَتَعَاهَدُوا لِيَجْتَمِعَ عَلَى  
 قَتْلِ عِدِّهِ ؛ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ : إِنَّكَ أَمَرْتُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ وَتَعَلَّمُوا ، وَنَحْنُ آمِنُونَ لَا نَعْلَمُ ، فَأَيُّ أَهْدَى  
 سَبِيلًا وَأَقْرَبَ إِلَى الْحَقِّ نَحْنُ أَمْ عِدُّ ؟ قَالَ كُفْرُ : أَتَمَّ وَاللَّهِ أَهْدَى سَبِيلًا مِمَّا عَلَيْهِ عِدُّ .  
 : قَوْلُهُ تَعَالَى : ( أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ) أَيْ أَلَهُمْ ، وَلِلَّهِ حِلَّةٌ . « نَصِيبٌ » حَظٌّ مِنَ  
 الْمُلْكِ ، وَهَذَا عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ ؛ بِمَعْنَى لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْمُلْكِ شَيْءٌ ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ لَمْ يَعْطَوْا  
 أَحَدًا مِنْهُ شَيْئًا لِيُخْلَصُوا وَحْدَهُمْ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى بَلْ أَلَهُمْ نَصِيبٌ ؛ فَكُنُوا أَمْ مُتَقَطِّعَةً وَمِمَّا هَا  
 الْإِضْرَابُ عَنْ الْأَوَّلِ وَالِاسْتِثْنَاءُ لِلثَّانِي . وَقِيلَ : هِيَ عَاطِفَةٌ عَلَى عُنُوفِ لَأَنَّهُمْ أَيْضًا مِنْ  
 أَتْيَاعِ عِدِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالتَّقْدِيرُ : أَمْ أَوَّلَى بِالْبَرَّةِ مِمَّنْ أَرْسَلَهُ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ؟  
 ( فَإِنَّا لَا نُؤْتُونَ النَّاسَ قِيَرًا ) أَيْ يَمْنَعُونَ الْحَقَّ . خَيْرَ اللَّهِ مِنْ وَجَلِ عَنْهُمْ بِمَا يَصْلَحُ مِنْهُمْ .  
 وَالتَّقْدِيرُ : النِّكَتَةُ فِي ظَهْرِ النِّسَاءِ ؛ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمَا . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا :

(١) فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ : « قَالَ عُرْفٌ : الْبَيَاقَةُ زُجْرُ الطَّيْرِ ، وَالطَّرْقُ التَّطْيِيطُ فِي الْأَرْضِ » . وَالَّذِي فِي النَّاسِ :  
 « الطَّرْقُ التَّشْرِيبُ بِالْحَمْسِ » وَتَبِيلُ حُرِّ التَّطْيِيطِ فِي الرِّبْلِ . وَالطَّيْرَةُ : يَرْبُزُ الْعَبْدُ وَفِيهِ تَمَكُّنُ الْيَدِ ، وَهُوَ نَابِغَتَانِمْ مِنْ الْقَتَالِ  
 الرِّضَى . وَالْبَيَاقَةُ : زُجْرُ الطَّيْرِ وَالتَّغَاوُلُ بِأَسْمَائِهَا وَأَصْوَاتِهَا وَغَيْرِهَا وَهُوَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ كَثِيرًا .

التقير : ما تفر الرجل بأصبعه كما ينقر الأرض . وقال أبو العالية : سألت ابن عباس عن التقير فوضع طرف الإبهام على باطن السبابة ثم رفعهما وقال : هذا التقير . والتقير : أصل شبيه يتقر ويبد فيه ؛ وفيه جاء النهى ثم نسخ . وفلان كريم التقير أى الأصل . و « إذا » هنا ملغاة غير ماملة لدخول فاء العطف عليها ، ولو نصب لجاز . قال سيويه : « إذا » في عوامل الأفعال بمنزلة « أين » في عوامل الأسماء ، أى تخفى إذا لم يكن الكلام متممدا عليها ، فإن كانت في أول الكلام وكان الذى بعدها مستقبلا نصبت ؛ كقولك : أزورك ، فيقول مجيبا لك إذا أكرمك . قال عبد الله بن عنة الضبي :

(١) أردد حمارك لا يرتع بروصتنا \* إنذن يرد ويقد المعير مكروب

نصب لأن الذى قبل « إنذن » تام فوقيت ابتداء كلام . فإن وقعت بموسطة بين شيئين كقولك زيد إذا يزورك أفتيت ؛ فإن دخل عليها فاء العطف أو واو العطف فيجوز فيها الإعمال والإلقاء ، أما الإعمال فلان ما بعد الواو يستأنف على طريق عطف الجملة على الجملة ، فيجوز في غير القرآن فإذا لا يؤتوا . وفي التنزيل « وإذا لا يلبثون » وفي مصحف أبي « وإذا لا يلبثوا » . وأما الإلقاء فلان ما بعد الواو لا يكون إلا بعد كلام يعطف عليه ، والتأخبط للفعل عند سيويه « إذا » لمضارعها « أن » ، وعند الخليل أن مضمرة بعد إذا . وزعم الفراء أن إذا تكتب بالالف وأنها مؤنثة . قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت أبا العباس محمد بن يزيد يقول : أشتى أن أكوى يد من يكتب إذا بالالف ؛ إنها مثل لن وأن ، ولا يدخل التنوين في الحروف .

قوله تعالى : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَاهُمُ آلَ إِبراهيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مَثَلًا عَظِيمًا ﴿٢٥﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٢٦﴾

(١) ذكرت القيد إذا ضيفت على المقيد . والمعنى : لا تعرضن لشئنا فإنا قادرون على عقيد هذا المعنى ومنه من المعروف . (الان) .

فيه أربع مسائل :

الأول - قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ﴾ يعني اليهود . ( الناس ) يعني النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . حسدوه على النبوة وأصحابه على الإيمان به . وقال قتادة : « الناس » العرب ، حسدتهم اليهود على النبوة . الضحاك : حسدت اليهود قريشا ؛ لأن النبوة فيهم . والحسد مذموم وصاحبه مغموم وهو يأكل الحسنة كما تأكل النار الحطب ؛ رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الحسن : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ؛ نفس دائم ، وحزن لازم ، وصبرة لا تتفد . وقال عبد الله ابن مسعود : لا تُعادوا نبي الله . قيل له : ومن يعادى نبي الله ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، يقول الله تعالى في بعض الكتب : الحسود عدو نمتي مستخف لقضائي غير راض بقسمتي . ولنصبر للفقير :

ألا قل لمن ظل لي حاسدا \* أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في حكمه \* إذا أنت لم ترض لي ما وهب

ويقال : الحسد أول ذنب عصى الله به في السماء ، وأول ذنب عصى به في الأرض ؛ فأما في السماء فحسد إبليس لادم ، وأما في الأرض فحسد قاييل لهابيل . ولأبي التائية في الناس :

فيا رب إن الناس لا ينصفوني \* فكيف ولو أنصفهم ظلموني

وإن كان لي شيء تصدوا لأخذه \* وإن شئت أبي شيئهم منعوني

وإن نالهم بذل فلا شكر عندهم \* وإن أنا لم أبتذل لم شتموني

وإن طرقتني بكبة فكهوها بها \* وإن صحيتني نعمة حسدوني

سامع قلبي أت يحسن إليهمو \* وأعجب عنهم ناظري وجفوني

وقيل : إذا سرك أن تسلم من الحاسد فتم عليه أمرك . ولرجل من قريش

حسدوا النعمة لما ظهرت \* فرموها بأباطيل الكتم

وإذا ما آله أسدى نعمة \* لم يضرها قول أعداء التسم

ولقد أحسن من قال :

«لقد ضللتني على حسد الجسد» . «فإن صبرك قاتله»  
«فإن النار تأكل بعضها» . إن لم تجد ما تأكله

وقال بعض أهل التفسير في قول الله تعالى : «وَبَيْنَا أَرِبَاتًا أُولَئِكَ مِنَ الْفِتَنِ وَالْإِنْسِ  
يَجْمَعُهُمُ تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ» . إنه إنما أراد بالذي من الجن إبليس والذي  
من الإنس قابيل ؛ وذلك أن إبليس كان أول من سق الكفر ، وقابيل كان أول من سق  
القتل ، وإنما كان أصل ذلك كله الحسد . وقال الشاعر :

إن الغراب وكان يمشي مشية \* فيأ مضى من سالف الأحوال  
حسد القطاة فرام يمشي مشيا \* فأصابه ضرب من التمثال

الثانية - قوله تعالى : ( قَدْ آتَيْنَا ) ثم أخبر تعالى أنه أتى آل إبراهيم الكتاب  
والحكمة وآتاهم ملكا عظيما . قال همام بن الحارث : أتدوا بالملائكة . وقيل : يعني ملك  
سليمان ؛ عن ابن عباس . وعنه أيضا : المعنى أم يحسدون عبادي ما أحل الله له من النساء .  
فيكون الملك العظيم حل هذا أنه أحل للملوك تسعة وتسعين امرأة وسليمان أكثر من ذلك .  
واختار الطبري أن يكون المراد ما أوتيته سليمان من الملك وتحليل النساء . والمراد تكذيب  
اليهود والرد عليهم في قولهم : لو كان نبيا ما رغب في كثرة النساء ولشفته النبوة عن ذلك ؛  
فأخبر الله تعالى بما كان للملوك وسليمان يوجبهم ، فأفوت اليهود أنه اجتمع عند سليمان  
ألف امرأة ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : «ألف امرأة» ؟ قالوا : نعم ثلاثمائة  
مهرية ، وسبعائة ميرة ، وعند داود مائة امرأة . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم :  
«ألف عند رجل ومائة عند رجل أكثر أو تسع نسوة» ؟ فهكوا . وكان له يومئذ تسع نسوة .

الثالثة - يقال : إن سليمان عليه السلام كان أكثر الأنبياء نساء . والفائدة في كثرة  
تزوجيه أنه كان له قوة أربعين نبيا وكل من كان أقوى فهو أكثر نكاحا . ويقال : إنه أراد  
بالنكاح كثرة العشيبة ؛ لأن لكل امرأة قبيلتين قبيلة من جهة الأب وقبيلة من جهة الأم ؛

فكل ما تزج امرأة حبر وجهه القيلين إلى نفسه فتكون عوناً له على أعدائه . ويقال : إن كل من كان أنقى شهوته أشد ؛ لأن الذي لا يكون نجساً فائماً يتزوج بالنظر والمس ، ألا ترى ما روى في الخبر : العيان تزنيان واليدان تزنيان . فإذا كان في النظر والمس نوع من قضاء الشهوة قل الجماع ، والمتن لا ينظر ولا لمس فتكون الشهوة مجتمعة في نفسه فيكون أكثر جماعاً . وقال أبو بكر الوراق : كل شهوة تقسى القلب إلا الجماع فإنه يصفى القلب ؛ ولهذا كان الأنبياء يفعلون ذلك .

الرابعة - قوله تعالى : ( فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ ) يعني بالنبي صلى الله عليه وسلم لأنه تقدم ذكره وهو المحسود . ( وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ) أمرض فلم يؤمن به . وقيل : الضمير في « به » راجع إلى إبراهيم . والمعنى : فإن آل إبراهيم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه . وقيل : يرجع إلى الكتاب . والله أعلم .

قوله تعالى : إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَفَرُوا بِعَائِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلَتْ لَهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

قد تقدم معنى الإصلاء أول السورة . وقرا حميد بن قيس « نصليهم » ففتح النون أي نسويهم . يقال : شاة مصلية . ونصب « نارا » على هذه القراءة يترج الخافض قدره بنار . ( كَلَّا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ ) يقال : نضج الشيء نضجاً ونضجاً ، وفلان نضيج الرأي حكمة . ومعنى الآية : تبدل الجلد جلوداً أخر . فإن قال من يظن في القرآن من

الزناذة : كيف جاز أن يمتدب جلدالم يصبه؟ قيل له : ليس الجلد يمتدب ولا معاقب،  
وانما الألم واقع على النفوس ؛ لأنها هى التى تُحس وتعرف فتبدل الجلود زيادة فى جلداب  
النفوس . يدل عليه قوله تعالى : « لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » وقوله تعالى : « كُلَّمَا خَسِتْ زِينَتُهُمْ  
سَعِيرًا » فالقصد تذيب الأبدان وإيلام الأرواح . ولو أراد الجلود لقال : لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .  
مقاتل : تأكله النار كل يوم سبع مرات . الحسن : سبعين ألف مرة . كلب أكلتهم قبل  
لم يعودوا فسادوا كما كانوا . ابن عمر : إذا احترقوا بثلث لم جلود بيض كالقراطيس .  
وقيل : عني بالجلود السرايل ؛ كما قال تعالى : « وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ  
سَرَابِلُهُمْ مِنْ قِطْرَانٍ » سميت جلودا للزومها جلودهم على المجاورة ؛ كما يقال للشيء الخالص  
بالإنسان : هو جلدة ما بين عينيه . وأنشد ابن عمرو بنى الله عنه :

يلوموننى فى سالم وألومهم \* وجلدة ما بين العين والأف سالم  
فكلب أحرقت السرايل أعيدت . قال الشاعر :

كما اللأم تبتاً خضرة فى جلودها \* فويل لقيم من سرايلها الخضير

فكفى عن الجلود بالسرايل . وقيل : المعنى أعدنا الجلد الأول جديدا ؛ كما تقول للصانع :  
صُغْ لى من هذا الخاتم خاتما غيره ؛ فيكمره ويصوغ لك منه خاتما . فالخاتم المصوغ هو الأول  
إلا أن الصياغة تغيرت والفضة واحدة . وهذا كالنفس إذا ضارت تريا وصارت لاشيء  
ثم أحيها الله تعالى . وكهذه بك باخ لك جميعا ثم تراه سقيما مُدْفِئا فتقول له : كيف أنت ؟  
فيقول : أنا غير الذى عهدت . فهو هو ، ولكن حاله تغيرت . تقول القائل : أنا غير الذى  
عهدت ، وقوله تعالى : « غيرها » مجاز . ونظيره قوله تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ »  
وهى تلك الأرض بيننا إلا أنها تغير آكامها وجبالها وأنهارها وأشجارها ، ويزاد فى مساحتها  
ويسوى ذلك منها ؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « إبراهيم » عليه السلام . ومن هذا المعنى  
قول الشاعر :

فما الناس بالناس الذين عهدتهم \* ولا الدار بالدار التى كنت أعرف .



وقال النبي : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : ألا ترى ما صنعت عائشة ! ذقت دهرها ،  
وأنتيت ببنى ليد :

ذهب الذين يُعاش في أكافهم • وبيت في خلف بكاء الأجر  
يتللذون بجانية ومثلة • ويأب قاطهم وإن لم يتسب<sup>(١)</sup>

قالت : رحم الله ليذا فكيف لو أدرك زماننا هذا ! فقال ابن عباس : لئن ذقت عائشة  
دهرها لقد ذقت « عاد » دهرها ؛ لأنه وجد في خزانة « عاد » بعد ماهلكوا بين طويل  
سهم كأطول ما يكون من رباح ذلك الزمن عليه مكتوب :

بلاد بها نكحنا ونحس بأهلها • إذ الناس تأس والبلاد بلاد

البلاد باقية كما هي إلا أن أحوالها وأحوال أهلها تنكرت وتغيرت • ( إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا )  
أى لا يُعجزه شيء ولا يغوته • ( حَكِيمًا ) فى إيماده عياده . وقوله فى صفة أهل الجنة : ( وَنَدِيْلُهُمْ  
ظِلًّا ظَلِيلًا ) بنى كثيفا لا شمس فيه . الحسن : وُصف بأنه ظليل ؛ لأنه لا يدخله ما يدخل  
ظِل الدنيا من الحر والسحر ونحو ذلك . وقال الضحاك : يعنى ظلال الأشجار وظلال  
قصورها . الكلي : « ظِلًّا ظَلِيلًا » أى دائما .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا  
حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ  
كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ ) هذه الآية من أمانات  
الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع . وقد اختلف من الخطاب بها ؛ فقال على بن أبى

(١) اختلف (بكون الام) : الأردياء الأعماء . والحجاة : الأيال الإنسان يصنع وما قيل له .  
ويروى : يثدنون حاة وملاذة . والحجاة مصدر من الخياطة والميم زائدة . ويتسب : يميل عن الطريق والقصد .

طالب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب وأبن زيد : هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة ،  
فهو للنبي صلى الله عليه وسلم وأمرائه ، ثم تناول من بعدهم . وقال ابن جريج وغيره : ذلك  
خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة  
ابن أبي طلحة الجهمي البديري من بني عبد النزار ومن أبن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة  
وكانا كافرين وقت فتح مكة ، فطلبه العباس بن عبد المطلب لتضاف له السدانة إلى السقاية ؛  
فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان ، وأخرج مقام  
إبراهيم ونزل عليه جبريل بهذه الآية . قال عمر بن الخطاب : وخرج رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وهو يقرأ هذه الآية ، وما كنت سمعتها قبل منه ، فدعا عثمان وشيبة فقال : ” خذاهما  
خاتمة تالدة لا يترعها منكم إلا ظالم “ . وحكى مكّي : أن شيبة أراد ألا يدفع للمفتاح . ثم دفعه ،  
وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : خذ به أمانة الله . وقال ابن عباس : الآية في الولاية خاصة في أن  
يغتوا للنساء في النشوز ونحوه ويردوهن إلى الأزواج . والأظهر في الآية أنها عامة في جميع  
الناس فهي تناول الولاية فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلمات والعدل  
في الحكومات . وهذا اختيار الطبري . وتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع  
والتحرز في الشهادات وغير ذلك ، كالرجل يحكم في نازلة تما ونحوه ؛ والصلاة والزكاة وسائر  
العبادات أمانة الله تعالى . وروى هذا المعنى مرفوعاً من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال : ” القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها “ أو قال : ” كل شيء إلا الأمانة  
في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الحديث وأشد ذلك الودائع “ . ذكره أبو نعيم الحافظ  
في الحلية . ومن قال إن الآية عامة في الجميع البراء بن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبو  
ابن كعب قالوا : الأمانة في كل شيء في الوضوء والصلاة والزكاة والجنابة والصوم والكيل  
والوزن والودائع . وقال ابن عباس : لم يرخس الله لمعمرو ولا لموسى أن يسلك الأمانة .

قلت : وهذا إجماع . وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها الأبرار منهم  
والفجار ؛ وقاله ابن المنذر . والأمانة مصدر بمعنى المفعول فلذلك جمع . ووجه الإنظام بما

تقدم أنه تعالى أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقولهم : إن المشركين  
أهدى سبيلا ، فكان ذلك خيانة منهم فانجز الكلام إلى ذكر جميع الأمانات ؛ فالآية شاملة  
بنظمتها لكل أمانة وهي أعداد كثيرة كما ذكرنا . وأمانتها في الأحكام : الوديسة والتقطعة  
والزهن والمارية . وروى أبي بن كعب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
« أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » . أخرجه التارخطني . ورواه أنس  
وأ . هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في « البقرة » عنه . وروى أبو أمامة  
قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته عام حجة الوداع : « المارية  
مؤداة والمئحة مردودة والدين مقضى والزعم غارم » . صحيح أخرجه الترمذي وغيره . وزاد  
التارخطني « فقال رجل : فمهد الله ؟ قال : عهد الله أحق ما أدى » . وقال بمقتضى هذه  
الآية والحديث في رد الوديسة وأنها مضمونة — على كل حال كانت مما يئاب عليها أو لا يئاب  
نُبهت فيها أولم يُعَدَّ — عطاء والشافعي وأحمد وأشهب . وروى أن ابن عباس وأبا هريرة  
ضمن الوديسة . وروى ابن القاسم عن مالك أن من استمار حيوانا أو غيره مما لا يئاب  
عليه فئلف عنده فهو مصنف في تليفه ولا يضمته إلا بالتمدى . وهذا قول الحسن البصري  
والشعبي ، وهو قول الكوفيين والأوزاعي قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : « المارية مؤداة »  
هو كمنى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » . فإذا تَلَفَت الأمانة  
لم يلزم المؤمن غرمها لأنه مصدق ؛ فكذلك المارية إذا تَلَفَت من غير تمد ؛ لأنه لم يأخذها  
على البضان ؛ فإذا تَلَفَت بتعديده عليها لزمه قيمتها بخائسته عليها . وروى عن علي وعمر  
وأبن مسعود أنه لا ضمان في المارية . وروى التارخطني عن عمرو بن شعيب عن أبيه  
عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا ضمان على مؤتمن » . واحتج الشافعي  
فيما استدلل به بقول صفوان للنبي صلى الله عليه وسلم لما استمار منه الأدرع : أعارية  
مضمونة أو عارية مؤداة ؟ فقال : « بل مؤداة » .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا حَكَمْتُ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِآيَاتِنَا ﴾ قال الضحاك :  
 بالبين على المدعى واليمين على من أنكر . وهذا خطاب للولاة والأشراف والحكام ، ويدخل  
 في ذلك بالمعنى جميع الخلق كما ذكرنا في أدب الأمانات . قاله صلى الله عليه وسلم : « إن  
 المُقْسِطِينَ يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم  
 وأهليهم وما ولّوا » . وقال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول  
 عن رعيته والرجل راع على أهله وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على بيت زوجها وهي  
 مسئولة عنه والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسئول  
 عن رعيته » . فجعل في هذه الأحاديث الصحيحة كل هؤلاء رعاة وحكاما على مراتبهم ، وكذلك  
 العالم الحاكم ، لأنه إذا أتى حكم وقضى وفصل بين الحلال والحرام ، والفرض والتنب ، والصحة  
 والفساد ، فجعل ذلك أمانة تؤدى وحكم يُقضى . وقد تقدم في « البقرة » القول في « نبيها » .  
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وصف الله تعالى نفسه بأنه سميع بصير يسمع ويرى ؛  
 كما قال تعالى : « إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى » فهذا طريق السمع . والعقل يدل على ذلك ؛  
 فإن انتفاء السمع والبصر يدل على تضييعهما من المعنى والصمم ، إذ الخلل القابل للتضيق  
 لا يخلو من أحدهما ، وهو تعالى مقدس عن النقائص ويستحيل صدور الأفعال الكاملة  
 من المتصف بالنقائص ؛ لخلق السمع والبصر بمن ليس له سمع ولا بصر . واجمعت الأمة  
 على تزيه تعالى عن النقائص . وهو أيضا دليل سمي يُكَنَّى به مع نص القرآن في منازرة  
 من تجمعهم كلمة الإسلام . جلّ الرب تبارك وتعالى عما يتوهمه المتوهمون ويختلقه المفترون  
 الكاذبون « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي  
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ  
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - لما تقدم إلى الولاية في الآية المتقدمة وبدأ بهم فأمرهم بإداء الأمانات وأن يحكموا بين الناس بالعدل ، تقدم في هذه الآية إلى الرعية فأمر بطاعته جل وعز أولاً ، وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ثم طاعة رسوله ثانياً فيما أمر به ونهى عنه ، ثم طاعة الأمراء ثالثاً ، على قول الجمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم . قال سهل بن عبد الله التستري : أطيعوا السلطان في سبعة : ضرب الدراهم والدنانير ، والمكايل والأوزان ، والأحكام والحج والجمعة واليدين والجهاد . قال سهل : إن أنهى السلطان العالم أن يقتل فليس له أن يقتل ، فإن أتى فهو عاص وإن كان أميراً جائراً . وقال ابن خزيمة متناً : وأما طاعة السلطان فتجب فيما كان الله فيه طاعة ، ولا تجب فيما كان فيه معصية ، ولذلك قلنا إن ولاية زماننا لا تجوز طاعتهم ولا مساوتهم ولا تعظيمهم ، ويجب الغزو معهم متى غزوا ، والحكم من قبلهم ، وتولية الإمامة والحسبة ، وإقامة ذلك على وجه الشريعة ، وإن صلوا بنا وكاوا فسقة من جهة المعاصي جازت الصلاة معهم ، وإن كانوا مبغضين لم تجز الصلاة معهم إلا أن يثاقفوا فيصلي معهم تحية وتماد الصلاة .

قلت : روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : حق على الإمام أن يحكم بالعدل ، ويؤدى الأمانة ، فإذا قل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه ، لأن الله تعالى أمر بإداء الأمانة والعدل ثم أمر بطاعته . وقال جابر بن عبد الله ومجاهد : « أولو الأمر » أهل القرآن والعلم ، وهو اختيار مالك ، ونحوه قول الضحاك قال : يعني الفقهاء والعلماء في الدين . وحكى عن مجاهد أنهم أصحاب عهد صلى الله عليه وسلم خاصة . وحكى عن عكرمة أنها إشارة إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خاصة . وروى سفيان بن عيينة عن الحكم بن أبان أنه سأل عكرمة عن أمتهات الأولاد فقال : هن حرائر . فقلت بأى شيء ؟ قال بالقرآن . قلت : بأى شيء في القرآن ؟ قال قال الله تعالى : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » وكان عمر من أولى الأمر ، قال : عتقت ولو بسقط . وسيأتى هذا المعنى مبيناً .

في سورة « الحشر » عند قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » .  
وقال ابن كثير : هم أولوا العقل والرأى الذين يذنبون أمر الناس .

قلت : وأصح هذه الأقوال الأول والثاني ؛ أما الأول فلأن أصل الأمر منهم والحكم إليهم . وروى الصحيحان عن ابن عباس قال : نزل « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية . قال أبو عمر : وكان في عبد الله بن حذافة دُعاة معروفة ؛ ومن دعا به أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره على سرية فأمرهم أن يجمعوا خطبا ويوقدوا نارا ؛ فلما أوقدها أمرهم بالتقحم فيها ، فقال لهم : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعتي ؟ ! وقال : « من أطاع أميري فقد أطاعني » . فقالوا : ما آتانا بالله وآتينا رسوله إلا نتجوا من النار ! فنصّب رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلهم وقال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق قال الله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » - وهو حديث صحيح الإسناد مشهور . وروى محمد بن عمرو بن علقمة عن عمرو بن الحكم عن ثوبان أن أبا سعيد الخدري قال : كان عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي من أصحاب بدر وكانت فيه دُعاة . وذكر الزبير قال : حدثني عبد الجبار بن سعيد عن عبد الله بن وهب عن الليث بن سعد قال : بلغني أنه حل حزام راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بمص أسفاره ، حتى كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع . قال ابن وهب : فقلت ليت ليضحكه ؟ قال : نعم كانت فيه دُعاة . قال ميمون بن مهران ومقاتل والكلبي : « أولو الأمر » أصحاب السرايا . وأما القول الثاني فيدل على صحته قوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » ، فأمر تعالى بردة التنازع فيه إلى كتاب الله وستة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليس لنبي العباد معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة . ويدل هنا على صحة كون سؤال العباد واجبا ، وامتنال فتواهم لازما . قال سهل بن عبد الله : لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعباء ؛ فإنا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخرهم ، وإنا استخفوا هذين فسدت دنياهم .

وأخراهم . وأما القول الثالث فخاص ، وأخص منه القول الرابع . وأما الخامس فبأيه يظهر اللطع . وإن كان المعنى صحيحاً ، فإن العقل لكل فضيلة أسمى ، ولكل أدب ينبوع ، وهو الذي جعله الله للدين أصلاً وللدنيا عماداً ، فأوجب الله التكليف بكلاهما ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامها ، والمآل أقرب إلى ربه تعالى من جميع المجتهدين بغير عقل . وروى هذا المعنى عن ابن عباس . وزعم قوم أن المراد بأولى الأمر على والأئمة المعصومون . ولو كان كذلك ما كان لقوله : « فردوه إلى الله والرسول » معنى ، بل كان يقول فردوه إلى الإمام وأولى الأمر ، فإن قوله عند هؤلاء هو الحكم على الكتاب والسنة . وهذا قول مهجور مخالف لما عليه الجمهور . وحقيقة الطاعة امتثال الأمر ، كما أن المعصية ضدّها وهي مخالفة الأمر . والطاعة مأخوذة من أطاع إذا اتقاد . والمعصية مأخوذة من عصى إذا اشتد . و « أولو » أحدهم « ذو » على غير قياس كالنساء والإبل والحيل ، كل واحد اسم الجمع ولا واحد له من لفظه . وقد قيل في واحد التحليل : خاطل وقد تشبّه<sup>(١)</sup> .

الثانية - قوله تعالى : ( فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ) أى تجادلتم واختلفتم ؛ فكان كل واحد يتزعج بحجة الانصر ويذهبها . والتزعج الجذب . والمنازعة مجاذبة الجحج ؛ ومنه الحديث « وأنا أقول مالي ينازعني القرآن »<sup>(٢)</sup> . وقال الأعشى :

فازعهم قُصْبُ الرِّيحَانِ مَنَكًا ۖ وَقَهْوَةُ مُرَّةٍ رَأَوْقَهَا خَصِيلُ<sup>(٣)</sup>

( في شيء ) أى من أمر دينكم . ( فردوه إلى الله والرسول ) أى ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى الرسول بالسؤال في حياته ، أو بالنظر في سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ؛ هذا قول مجاهد والأعمش وقادة وهو الصحيح . ومن لم يرد هذا أختل إيمانه لقوله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » . وقيل : المعنى قولوا الله ورسوله أعلم ؛ فهذا هو الرد . وهذا كما

(١) راجع ج ٤ ص ٣٣ طبعه أدبى أو ثانية . (٢) في نهاية ابن الأثير لسان العرب : « حالى أنازع

القرآن » . وريثاً زعى : يجاذبني في القراءة ؛ ذلك أن بعض المأمومين تبهر خلقه فتأخره قراءة تشغله ، فبأنه عن الجمهور

بالقراءة في الصلاة خلفه . . (٣) الرايون : الهضأة : والحصل : الجبل المتى .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل . والقول الأول أصح ؛ لقول علي رضي الله عنه : ما عنتنا إلا ما في كتاب الله وما في هذه الصحيفة ، أو فهم أعطيه رجل مسلم . ولو كان كما قال هذا القائل لبطل الاجتهاد الذي خص به هذه الأمة والاستنباط الذي أعطيا ، ولكن تضرب الأمثال ويطلب المثال حتى يخرج الصواب . قال أبو العالية : وذلك قوله تعالى : **فَ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ** . نعم ، ما كان فيما استأثرت به علمه ولم يُطلع عليه أحدا من خلقه فذلك الذي يقال فيه : الله أعلم . وقد استنبط علي رضي الله عنه مدة أقل الحمل — وهو ستة أشهر — من قوله تعالى : **وَ حَمَلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا** وقوله تعالى : **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ** فإذا فصلنا الحولين من ثلاثين شهرا بقيت ستة أشهر ؛ ومثله كثير . وفي قوله تعالى : **وَإِلَى الرَّسُولِ** دليل على أن سنته صلى الله عليه وسلم يُستل بها ويُقتل ما فيها . قال صلى الله عليه وسلم : **« مَا تَنَبَّيْتُكُمْ عَنْهُ فَأَجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأَفْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَأَخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ »** أخرجه مسلم . وروى أبو داود عن أبي رافع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **« لَا أَقِفِينَ أَحَدَكُمْ مَتَكًّا عَلَى أُرَيْكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرٍ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا تَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ أَتَعْنَاهُ »** . وعن العيرباض بن سارية أنه حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس وهو يقول : **« إِيحَسِبَ أَحَدُكُمْ مَتَكًّا عَلَى أُرَيْكَتِهِ وَقَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَحْزَمْ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ إِلَّا وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ أَمَرْتُ وَوَعظْتُ وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءٍ إِنَهَا لَمَثَلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ »** . وأخرجه الترمذي من حديث المقدم بن معدي كَرِبَ بمعناه وقال : حديث حسن غريب . والقاطع قوله تعالى : **« فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ آيَةٌ مِنَ السَّمَاءِ »** .

(١) قوله متكا « على أريكته » : جالسا على سريره الخزين ؛ وهذا بيان لحماة رسوله كآه دأب المتسعين المرفورين بالمسال . وقال الخطابي : أراد به أصحاب البرة والصفة الذين زعموا البيوت ولم يظفروا بالأسفار الحديث من أهله ففرد حيث لا يرافقه هواه . (عن ابن ماجه) .



في الآية - قوله تعالى : ( ذَلِكَ خَيْرٌ ) أى وقدكم ما أنظمت فيه إلى الكتاب والسنة  
غير من التنازع . ( وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ) أى مبرجما ، من آل يؤول إلى كذا أى صار . وقيل :  
من ألبت الشيء إذا جمعت وأصلحته . فالتأويل جمع معانى ألفاظ أشكلت بلفظ لا إشكال  
فيه ، قال : أول الله عليك أمرتك أى جمعه . ويعوز أن يكون المعنى وأحسن من تأويلكم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ  
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ  
يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ  
تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُونَ  
عَنْكَ صُدُودًا ﴿١٢﴾

روى يزيد بن زريع عن داود بن أبي هند عن الشعبي قال : كان بين رجل من المنافقين  
ورجل من اليهود خصومة ، فدعا اليهودى المنافق إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه علم  
أنه لا يقبل الرشوة . ودعا المنافق اليهودى إلى حكمهم ؛ لأنه علم أنهم يأخذون الرشوة  
في أحكامهم ؛ فلما اختلفا أجمعا على أن يحكما كاهنًا في جهة ؛ فانزل الله تعالى في ذلك :  
( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ) بنى المنافق ، ( وَمَا أُنْزِلَ مِنْ  
قَبْلِكَ ) بنى اليهودى . ( يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ) إلى قوله : ( وَيَسْتَأْذِنُوا  
تَسْلِيمًا ) قال الضحاك : دعا اليهودى المنافق إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا المنافق  
إلى كعب بن الأشرف وهو « الطَّاغُوت » . ورواه أبو صالح عن ابن عباس قال :  
كان بين رجل من المنافقين - يقال له بشر - وبين يهودى خصومة ؛ فقال اليهودى :  
انطلق بنا إلى جد ، وقال المنافق : بل إلى كعب بن الأشرف - وهو الذى سمى الله  
« الطَّاغُوت » أى ذو الطغيان - فأبى اليهودى أن يخاصمه إلا إلى رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ؛ فلما رأى ذلك المنافق أتى معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى لليهودى .

فلما خربا قال المنافق : لا أرضى ، إطلق بنا إلى أبي بكر؛ فحكم لليهودى فلم يرض . ذكره  
الزجاج . وقال : أطلق بنا إلى عمر فاقبلا على عمر فقال اليهودى : إنا ضلنا إلى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ثم إلى أبي بكر فلم يرض ؛ فقال عمر للمنافق : أكذاك هو ؟ قال : نعم .  
قال : رُوِيَ كُنْجًا حَتَّى أُنْجِرَ إِلَيْكَ . فدخل وأخذ السيف ثم ضرب به المنافق حتى برد ،  
وقال : هكنا أقضى على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله ؛ وهرب اليهودى ، ونزلت  
الآية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ الْقَارُوقُ » . ونزل جبريل وقال :  
إِنْ عَمِرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَفَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ؛ فَسُمِّيَ الْقَارُوقُ . وفى ذلك نزلت الآيات كلها  
إلى قوله : « وَيَسْلُبُوا نَسْلِيًا » . وأنتصب : ( ضَلَالًا ) على المعنى ، أى يفضلون ضللا ؛  
ومثله قوله تعالى : « وَاللَّهُ أَتَعْلَمُ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » . وقد تقدم هذا المعنى مستوفى .  
و ( صُدُونَا ) اسم للمصدر عند الخليل ، والمصدر الصدد . والكوفيون يقولون هما مصدران .

قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ رِمَآ قَدَمَتْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ  
جَاءَهُمْ يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوَفَّقًا ﴿٧٧﴾ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ  
يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ  
قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٧٨﴾

أى ( فكيف ) يكون حالهم ، أو ( فكيف ) يصنون ( إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ )  
أى من ترك الاستمانة بهم ، وما يلحقهم من القتل فى قوله : « قَتَلْنَا مَنْ تَخَرَّجُوا مِنِّي أَبَدًا  
وَلَنْ نَقَاتِلَا مَعَهُ عَدُوًّا » . وقيل : يريد قتل صاحبهم ( رِمَآ قَدَمَتْ إِلَيْهِمْ ) وهم الكلام .  
ثم أبعد يُخْبِرُ عَنْ نَعْلِهِمْ ؛ وذلك أن عمر لما قتل صاحبهم جاء قومهم يطلبون دينه ويخلفون  
ما يريد طلب دينه إلا الإحسان وموافقة الحق . وقيل : المعنى ما أردنا بالعدل عنك  
فى المحاكمة إلا التوفيق بين الخصوم ، والإحسان بالتقريب فى الحكم . ابن كثيران : عدلا

(١) برد (فتح الموحدة والراء) : أى مات . (٢) رابع ج ٤ ص ٦٩ طبة أوله أو ثمانية .

وَحَقًّا، فَظَهَرَ « وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى » فقال الله تعالى مَكْذِبًا لَمْ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ قال الزجاج : معناه قد علم الله أنهم منافقون ، والمفائدة لنا : إجلابوا أنهم منافقون . ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قيل : عن عقابهم . وقيل : عن قبول اعتذارهم ﴿ وَعَظَّمْهُمْ ﴾ أى عَظَّمَهُمْ . قيل : فى المَلَأَ . ﴿ وَقُلْ لِّمَنْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ أى أكرههم ببلغ الرجز فى السرِّ والخفاء . الحسن : قل لهم إن أظهرتم ما فى قلوبكم قَتَلَكُمْ . وقد بَلَغَ القول بلاغة ، ورسيل بَلَغَ بَلَغَ بلسانه كُنَّه مافى قلبه . والعرب تقول : أَحَقُّ بَلَغَ وَبَلَغَ ، أى نهاية فى الحماسة . وقيل : معناه يبلغ ما يريد وإن كان أَحَقَّ . ويقال : إن قوله تعالى : « فَكَيْفَ إِنَّا آسَأَبْتُمْ مُصِيبَةً يَكَّا قَدَمْتُ أَيْدِيهِمْ » نزل فى شأن الذين بنوا مسجد الضُّرَّارِ ؛ فلما أظهر الله نفاقهم ، وأمرهم بهدم المسجد حلفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم دفاعا عن أنفسهم « ما أَرَدْنَا بِبَنَاءِ الْمَسْجِدِ إِلَّا طَاعَةَ اللَّهِ وَمُوافَقَةَ الْكَتَّابِ » .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ﴾ « مِنْ » زائدة للتوكيد . ﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ فيها أمر به ونهى عنه . ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ يعلم الله . وقيل : بتوفيق الله . ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴾ روى أبو صالح عن عليّ قال : قدم علينا إعرابى بعد ما دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثة أيام ، فرمى بنفسه على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقا على رأسه من ترابه ؛ فقال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَعْنَا قَوْلِكَ ، وَوَعَيْتَ عَنْ اللَّهِ فَوَعَيْتَا عَنْكَ ، وَكَانَ فِيهَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » الآية ، وقد ظلمت نفسى وجسدى

(١) هو مسجد بقاء ، وهى قرية على بعد ميلين من المدينة على يسار القمامة إلى مكة ؛ وهذا المسجد يتلوع السوام

تَسْتَغْفِرُنِي . فتدعى من القبر أنه قد غفر لك . ومعنى ( لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ) أى قابلاً  
لثوابهم ، وهما مفعولان لا غير .

قوله تعالى : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحِيطُوا بِكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ  
لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّوْا سَلِيمًا ﴿٥٥﴾  
فيه خمس مسائل :

الأولى - قال مجاهد وغيره : المراد بهذه الآية من تقدم ذكره عن أراد الحاكم إلى  
الطاغوت وفيهم زلت . وقال الطبري : قوله « فَلَا » رد على ما تقدم ذكره ، تقديره فليس  
الأمم كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، ثم استأنف القسم بقوله : « وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ » .  
وقال غيره : إنما قدم « لا » على القسم لهما بالنفي وإظهارا لقسوته ، ثم كرهه بعد القسم  
تأكيداً للتهم بالنفي ، وكان يصح إسقاط « لا » الثانية ويبقى أكثر الاهتمام بتقديم الأولى ،  
وكان يصح إسقاط الأولى ويبقى معنى النفي ويذهب معنى الاهتمام . و ( شَجَرَ ) معناه  
اختلف واختلط ، ومنه الشجر لا خلافاً أغصانه . ويقال لعصا المودج : شِجَار ، لتداخل  
بعضها في بعض . قال الشاعر :

ففى فداؤك والزماح شواجر • والقوم ضنك اللقاء فيام

وقال طرفة :

وهم الحكم أرباب الهدى • وسعاة الناس في الأمر الشجر

وقالت طائفة : نزلت في الزبير مع الأنصارى ، وكانت الخوصومة في سنى بستان ؛ فقال  
عليه السلام للزبير : « أسق أرضك ثم أرسل الماء إلى أرض جارك » . فقال الخصم : أراك  
تحاربى ابن عمك ، فتكون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للزبير : « أسق ثم أحبس الماء  
حتى يبلغ الجذر » <sup>(١)</sup> ونزل : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ » . الحديث ثابت صحيح رواه البخارى

(١) الجذر : وهو ما وقع حول الرزمة كالجار ،

عن علي بن عبد الله عن محمد بن جعفر عن معمر، ورواه مسلم عن قتيبة كلاهما عن الزهري .  
واختلف أهل هذا القول في الرجل الأنصاري ؛ فقال بعضهم : هو رجل من الأنصار من  
أهل بدر . وقال مكي والنحاس : هو حاطب بن أبي لبنة . وقال الثعلبي والرازي والمهدي :  
هو حاطب . وقيل : ثعلبة بن حاطب . وقيل غيره . والصحيح القول الأول ؛ لأنه غير  
معين ولا مستثنى ؛ وكذا في البخاري ومسلم أنه رجل من الأنصار . آختر الطبري أن يكون  
نزول الآية في المنافق واليهودي . كما قال مجاهد ، ثم تناول بمومها قصة الزبير . قال ابن العربي :  
وهو الصحيح ؛ فكل من آتهم رسول الله في الحكم فهو كافر ، لكن الأنصاري زل زلة فاعرض  
عنه النبي صلى الله عليه وسلم وأقال عثرته لعلمه بصحة يقينه ، وأنها كانت فتنة وليست لأحد  
بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وكل من لم يرض بحكم الحاكم وطعن فيه وردده فهي ردة يستتاب<sup>(١)</sup> .  
وأما إن طعن في الحاكم نفسه لا في الحكم فله تمزيه وله أن يصفح عنه . وسيأتي بيان هذا  
في آخر سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

الثانية : وإنما كان سبب نزول هذه الآية ما ذكرناه من الحديث فيقضيها أنه  
عليه السلام سلك مع الزبير وخصمه سلك الصلح فقال : « أَسَقِ يَا زُبَيْر » لقربه من الماء  
« ثم أرسل الماء إلى جارك » . أي تساهل في حقك ولا تستوفه وتغفل في إرسال الماء إلى  
جارك ، خفضه على المسامحة والتيسير ، فلما سمع الأنصاري هذا لم يرض بذلك وغضب ؛ لأنه  
كان يريد ألا يمسك الماء أصلا ، وعند ذلك نطق بالكلمة الجائرة المؤلمة الفارقة فقال :  
« أن كان ابن عمك ؟ بعد هزلة » أن « المقترحة على جهة الإنكار ؛ أي أنك لم له على لأجل  
أنه قرابتك . فعند ذلك تلون وجه النبي صلى الله عليه وسلم غضبا عليه ، وحكم للزبير باستيفاء  
حقه من غير مسامحة له . وعليه لا يقال : كيف حكم في حال غضبه وقد قال : « لا يقضى  
القاضي وهو غضبان » ؟ فإننا نقول : فإنه معصوم من الخطأ في التبليغ والأحكام ، بدليل  
العقل الدال على صدقه فيما يبلغه عن الله تعالى فليس مثل غيره من الحكام . وفي هذا الحديث

(١) عبارة ابن العربي : وكل من لم يرض بحكم الحاكم فهو عاص آثم .

إرشاد الحاكم إلى الإصلاح بين الخصوم وإن ظهر الحق ، ومنته مالك ، وأختلف فيه قول الشافعي . وهذا الحديث حجة واضحة على الجواز ، فإن أصطلحوا وإلا استرقى لدى الحق حقه وبُيِّنَ الحكم .

الثالثة - وأختلف أصحاب مالك في ضفة إرسال الماء الأعلى إلى الأسفل ؛ فقال ابن حبيب : يدخل صاحب الأعلى جميع الماء في حائطه ويسقي به ، حتى إذا بلغ الماء قاعة الحائط إلى الكعبين من القائم فيه أغلق مدخل الماء ، وصرف ما زاد من الماء على مقدار الكعبين إلى من يليه ، فيصنع به مثل ذلك حتى يبلغ السيل إلى أقصى الحوائط . وهكذا فسره لي مطرف وابن المائشون ؛ وقاله ابن وهب . وقال ابن القاسم : إذا انتهى الماء في الحائط إلى مقدار الكعبين أرسله كله إلى من تحته ولا يحبس منه شيئا في حائطه . قال ابن حبيب : وقول مطرف وابن المائشون أحب إليّ وهم أعلم بذلك ؛ لأن المدينة دارهما وبها كانت القصة وفيها جرى العمل .

الرابعة - روى مالك عن عبد الله بن أبي بكر أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في سئل مهزور ومذئب : <sup>(١)</sup> "يُسَكُّ حَتَّى الْكَعْبَيْنِ ثُمَّ يُرْسَلُ الْأَعْلَى إِلَى الْأَسْفَلِ" . قال أبو عمر : « لا أعلم هذا الحديث يتصل عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجه من الوجوه ، وأرفع أمانيده ما ذكره محمد بن إسحاق عن أبي مالك بن نعلبة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم [ أتاه أهل مهزور فقضى أن الماء إذا بلغ الكعبين لم يحبس الأعلى . وذكر عبد الرزاق عن أبي حازم القرطبي عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ] قضى في سئل مهزور أن يُحْبَسَ عَلَى كُلِّ حَائِطٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْكَعْبَيْنِ ثُمَّ يُرْسَلُ . وغيره من السيول كذلك . وسئل أبو بكر البزار عن حديث هذا الباب فقال : لست أحفظ فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا ثبت . قال أبو عمر : في هذا المعنى - وإن لم يكن بهذا اللفظ - حديث ثابت

(١) مهزور ومذئب : واديان بالبادية سيلان ماء المطر خاصة .

(٢) زيادة عن كتاب « التمهيد » لأبي عمر بن عبد البر .

يجمع على صحته . رواه ابن وهب عن الألب بن سعد ويونس بن يزيد جميعا عن ابن شهاب أن عمرو بن الزبير حدثه أن عبد الله بن الزبير حدثه عن الزبير أنه خاض رجلا من الأنصار قد شهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراخ الحرّة<sup>(١)</sup> كانا يستقيان بها كلاما النخل؛ فقال الأنصاري : سرح الماء ؛ فابى عليه ، فاختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحديث . قال أبو عمر : وقوله في الحديث : " ثم يرسل " وفي الحديث الآخر " إذا بلغ الماء الكمين لم يجس الأهل " يشهد لقول ابن القاسم . ومن جهة النظر أن الأهل لو لم يرسل إلا ما زاد على الكمين لا يقطع ذلك الماء في أقل مدة ، ولم يخش حيث يقبى إذا أرسل الجميع ، وفي إرسال الجميع بعد أخذ الأهل منه ما بلغ الكمين أهم فائدة وأكثر نفعًا فيما قد جعل الناس فيه شركاء ؛ فقول ابن القاسم أولى على كل حال . هذا إذا لم يكن أصله ملكا للأسفل غنصا به ، فإن ما استحق بعمل أو بملك صحيح أو استحقاق قديم وبثبوت ملك فكل على حقه على حسب ما كان من ذلك بيده وعلى أصل مسأله . وبالله التوفيق

الخامسة - قوله تعالى : ( ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَفْسِهِمْ حَرًّا مِمَّا قُضِيَتْ ) أى ضيقًا وشكًا ؛ ومنه قيل للشجر المتف : حرج وحربة ، وجمعها حراج . قال الضحاك : أى إنما بآثارهم ما قضيت . ( وَيُسَامَوْا تَسْلِيًا ) أى يتفادوا لأمره في القضاء . وقال الزيلج : « تسلياً » مصدر مؤنث ؛ فإذا قلت : ضربت ضرباً فكأنك قلت لا أشك فيه ؛ وكذلك « وَيُسَامَوْا تَسْلِيًا » أى وَيُسَامَوْا لحلك تسلياً لا يدخلون على أنفسهم شكاً .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اتَّخِذُوا دِينَكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْهًا<sup>(٢)</sup> وَإِذَا لَا تَعْنِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا<sup>(٣)</sup> وَلَهَبْنَاهُمْ صُرَاطًا مُسْتَقِيمًا<sup>(٤)</sup>

(١) شراخ : شين سبعة مكسورة آخره جيم جمع شرية فتح فكون ، وهى سائل الماء بالحرّة (فتح تشديد) وهى أرض ذات حمارة سود .

سبب نزولها ما روي أن ثابت بن قيس بن خنيس تهاخر هو ويهودى؛ فقال اليهودى :  
 والله لقد كُتِبَ علينا أن نقتل أنفسنا فقتلنا، وبلغت القتل سبعين ألفا؛ فقال ثابت : والله  
 لو كُتِبَ الله علينا أن أقتلوا أنفسكم لقتلنا . وقال أبو إسحاق السبيعي : لما نزلت « وَلَوْ أَنَّا  
 كَتَبْنَا فَلْيُفَيْدُكُمْ » الآية ، قال رجل : لو أمرنا لقتلنا ، والحمد لله الذى عافانا . فبلغ ذلك رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم فقال : « إنا من أمتي رجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الزوامى » .  
 قال ابن وهب قال مالك : القائل ذلك هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه ؛ وهكذا ذكر مكى  
 أنه أبو بكر . وذكر النقاش أنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وذكر عن أبي بكر رضى الله  
 عنه أنه قال : لو كُتِبَ علينا ذلك لبدأت بنفسى وأهل بيتى . وذكر أبو الليث السمرقندى  
 أن القائل منهم عمار بن ياسر وأبن مسعود وثابت بن قيس ، قالوا : لو أن الله أمرنا أن نقتل  
 أنفسنا أو نخرج من ديارنا لقتلنا ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الإيمان أثبت في قلوب  
 الرجال من الجبال الزوامى » . و « لو » حرف يدل على امتناع الشيء لامتناع غيره ؛ فأنظر الله  
 سبحانه أنه لم يكتب ذلك علينا ونفعا بنا لئلا يظهر مصيبتنا . فكأن من أمر قسرا عنه مع رضىته  
 فكيف بهذا الأمر مع يقظه ! لكن أما والله لقد ترك المهاجرون مسكنهم خاوية ونخرجوا  
 يطلبون بها عيشة راضية . « مَا فَعَلُوهُ » أى القتل والخروج « إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » « قليل »  
 بدل من الواو ، والتقدير ما فعله أحد إلا قليل . وأهل الكوفة يقولون : هو على التكرير ،  
 ما فعلوه ما فعله إلا قليل منهم . وقرأ عبد الله بن عامر وعيسى بن عمر « إِلَّا قَلِيلًا » على  
 الاستثناء . وكذلك هو فى مصاحف أهل الشام . الباقون بالرفع ، والرفع أجود عند جميع  
 النحويين . وقيل : انتصب على إضمار فعل ، تقديره إلا أن يكون قليلا منهم . وإنما صار  
 الرفع أجود لأن اللفظ أولى من المعنى ، وهو أيضا يستعمل على المعنى . وكان من القليل  
 أبو بكر وعمر وثابت بن قيس كما ذكرنا . وزاد الحسن ومقاتل عمارا وأبن مسعود وقد  
 ذكرناهما . « وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا مَا يُوعَدُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى فى الدنيا والآخرة . « وَأَشَدُّ  
 تَنَبُّهُنَّ » أى على الحق . « وَإِذَا لَا تَقْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا » أى ثوابا فى الآخرة . وقيل :  
 اللام لام الجواب ، و « إذا » دالة على الجزاء ، والمعنى لو فعلوا ما يوعدون به لآتيتهم .



قوله تعالى : وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿١١﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ) لما ذكر تعالى الأمر الذي لو فعله المتقون حين وعظوا به وأتابوا إليه لأنهم عليهم ذكر بعد ذلك ثواب من فعله . وهذه الآية تفسر قوله تعالى : « أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » وهي المراد في قوله عليه السلام عند موته « اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » . وفي البخاري عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من نبي يمرض إلا خُير بين الدنيا والآخرة » كان في شكواه الذي مرض فيه أخذته بحمة شديدة فسمعه يقول : « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » فسلمت أنه خير . وقالت طائفة : إنما نزلت هذه الآية لما قال عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري - الذي أرى الأذان - : يا رسول الله ، إذا ميت وميتا كنت في عليين لأنارك ولا يجتمع بك ؛ وذكر حزنه على ذلك فنزلت هذه الآية . وذكر مكى عن عبد الله هذا وأنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم قال : اللَّهُمَّ اغْنِنِي حَتَّى لَا أَرَى شَيْئًا بَعْدَهُ ؛ فَمَعِيَ . وحكاها القشيري فقال : اللَّهُمَّ اغْنِنِي فَلَا أَرَى شَيْئًا بَعْدَ حَبِيبِي حَتَّى أَلْقَى حَبِيبِي ؛ فَمَعِيَ مَكَانَهُ . وحكى النعماني : أنها نزلت في ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شديدة الحب له قليل الصبر عنه ؛ فأناه ذات يوم وقد تغير لونه وتغير جسمه ، يُعرف في وجهه الخزن ؛ فقال له : « يا ثوبان ما غير لوك ؟ » قال : يا رسول الله ما بي ضر ولا وجع ، غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى أفتاك ، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك ؛ لأنني عرفت أنك تُرفع مع النبيين وإن دخلت

الجنة كنت في مثله هي أدنى من مثلك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبداً، فأنزل الله هذه الآية، ذكره الواحدي عن الكلبي، وأسد عن معروق قال قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبغي لنا أن نشارك في الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رُفعت فوقنا، فأنزل الله تعالى : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ » . وفي طاعة الله طاعةُ رسوله ولكنه ذكره تشريراً لقدره وتوجيهاً باسمه صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ( فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ) أي هم معهم في دار واحدة ونعم واحد يستمتعون برؤيتهم والحضور معهم ، لا أنهم يساوونهم في الدرجة ؛ فإنهم يتفاوتون لكنهم يتساوون للاجتماع في الدنيا والاعتناء . وكل من فيها قد رزق الرضا بحاله ، وقد ذهب عنه اعتقاد أنه مفضل . قال الله تعالى : « وَزَعَمْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ » . والصديق فعيل ، المبالغ في الصدق أو في التصديق ، والصديق هو الذي يحقق بفعله ما يقوله بلسانه . وقيل : هم فضلاء أتباع الأنبياء الذين يسبقونهم إلى التصديق كأبي بكر الصديق . وقد تقدم في البقرة اشتقاق الصديق ومعني الشهيد . والمراد هنا بالشهداء عمر وعثمان وعلي ، والصالحين سائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . وقيل : « الشهداء » القتل في سبيل الله . « والصالحين » صالحى أمة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : واللفظ يعم كل صالح وشيد ، والله أعلم . والفرق بين الجانب . وثمى صاحب رقيقاً لارتفاقك بصحبته ؛ ومنه الرقعة لأرتفاق بعضهم ببعض . ويجوز « وحسن أولئك رقاء » . قال الأخفش : « رقيقاً » منصوب على الحال وهو بمعنى رقاء ، وقال : انتصب على التمييز فوجد لذلك ؛ فكان المعنى وحسن كل واحد منهم رقيقاً ، كما قال تعالى : « ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » أي نخرج كل واحد منكم طفلاً . وقال تعالى : « يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » وينظر إلى معنى هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم : « خير الرقاء أربعة » ولم يذكر الله تعالى هنا إلا أربعة فأمله .

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٣ طبع ثانية أو ثالثة . وج ٢ ص ١٧٣ طبع ثانية . وج ٤ ص ٢٦٨ .

(٢) ينظر : بمايل ؛ قول الرب : در آل فلان تنظر إلى در آل فلان ؛ أي هي إزائها ومقاتلهما .

الثانية - في هذه الآية دليل على خلافة أبي بكر رضي الله عنه؛ وذلك إن الله تعالى لما ذكر مراتب أوليائه في كتابه بدأ بالأعلى منهم وهم النبيون، ثم أتى بالصدقين ولم يجعل بينهم واسطة . وأجمع المسلمون على تسمية أبي بكر الصديق رضي الله عنه صديقاً، كما أجمعوا على تسمية محمد عليه السلام رسولا، وإذا ثبت هذا وضح أنه الصديق وأنه ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجوز أن يتقدم بعده أحد . والله أعلم .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ ﴾ أخبر تعالى أنهم لم يتألوا الفضل بطاعتهم بل تألوا بفضل الله تعالى وكرمه . خلافاً لما قالت المعتزلة : إنما يتأل البعد ذلك بفعله . فلما آتت الله سبحانه على أوليائه بما آتاهم من فضله ، وكان لا يجوز لأحد أن يأتي على نفسه بما لم يفعله دل ذلك على بطلان قولهم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعاً ﴿٦١﴾  
فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم بمجاهدة الكفار والخروج في سبيل الله وحماية الشرع . ووجه النظم والاتصال بما قبل أنه لما ذكر طاعة الله وطاعة رسوله ، أمر أهل الطاعة بالقيام بإحياء دينه وإعلاء دعوته ، وأمرهم ألا يقتصر على عتوقهم على جهالة حتى يتيسر لهم ما عندهم ، ويملأوا كيف يريدون عليهم ؛ فذلك أثبت لهم فقال : « خُذُوا حِذْرَكُمْ » فقلهم مباشرة الحروب . ولا ينافي هذا التوكيل بل هو عين التوكيل كما تقدم في « آل عمران » ويأتي . والحذر والحذر لثبات كاللؤلؤ والنبل . قال الفراء : أكثر الكلام الحذر ، والحذر مسموع أيضاً ؛ يقال : خذ حذرَكَ ، أي احذر . وقيل : خذوا السلاح حذراً ؛ لأن به الحذر والحذر لا يبلغ القدر . وهي :

الثانية : لاختلاف القدرية في قولهم : إن الحذر يدفع ويمنع من مكاييد الأعداء ، ولو لم يكن كذلك ما كان لأمرهم بالحذر معنى . يقال لهم : ليس في الآية دليل على أن الحذر ينفع من القدر شيئا ، ولكنا ثبتنا بالأثرى بآيتنا إلى التهلكة ، ومنه الحديث « اعقلها وتوكل » . وإن كان القدر جاريا على ما قضى ، ويقول الله ما يشاء ، فالمراد منه طمأنينة النفس ، لا أن ذلك ينفع من القدر وكذلك أخذ الحذر . والدليل على ذلك أن الله تعالى أنهى على أصحاب نية صل الله عليه وسلم بقوله : « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا » فلو كان يصيبهم غير ما قضى عليهم لم يكن لهذا الكلام معنى .

الثالثة - قوله تعالى : ( تَأْتِرُوا مَثَاجِدَ ) يقال : تَقرِيف ( بكسر الفاء ) نفيرا . ونفرت العابة تَقرِف ( بضم الفاء ) نفورا ؛ المعنى : انتهضوا لقتال العدو . واستنفر الإمام الناس دُعاهم إلى التفر ، أى مخرج إلى قتال العدو . والتفر اسم للقوم الذين ينفرون ، وأصله من التفر والتفر وهو الفرع ، ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ تُفَرُّوا » . أى تافرين . ومنه تفر الجلدأى ورم . وتغل رجل بالقصب فنفره أى ورم . قال أبو عبيد : إنما هو من نزار الشيء من الشيء وهو نجافيه عنه وتباعده منه . قال ابن فارس : التفر عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة . والتفسير التفر أيضا ، وكذلك التفر والتفرة ، وحكاها القراء بالهاء . ويوم التفسير : يوم ينفر الناس عن منى . و « مَثَاجِدَ » معناه جماعات متفرقات . ويقال : تُبين يجمع جمع السلامة في التائيت والتذكير . قال عمرو بن كلثوم :

فأما يومَ خَشِيتُ عليهم \* فتصبح خيلنا عَصَابًا<sup>(١)</sup> تِينًا

فقوله تعالى : ( ثَابِتٌ ) كناية عن السرايا ، الواحدة ثَبَّةٌ وهى العصاية من الناس . وكانت في الأصل الثبَّة . وقد تبيت الجليش جعلتهم ثَبَّةً ثَبَّةً . والثبَّة : وسط الحوض الذى يشوب إليه الماء أى يرجع . قال التماس : وربما توهم الضيف في العربية أنها واحد ، وأن أحدهما من الآخر ، وبينهما فرق ، فثَبَّة الحوض يقال في تصغيرها ثَوْبِيَّة ؛ لأنها من ثاب يشوب .

ويقال في الجماعة : مُبْتَعَة . قال غيره : تبة الحوض عذوبة الواو وهو عين الفعل ، وتبة الجماعة معتل اللام من ثبات يبو مثل مثلا يخلو . ويجوز أن يكون التبة بمعنى الجماعة من تبة الحوض ؛ لأن الماء إذا غاب اجتمع ؛ فعلى هذا تصغر به الجماعة توتية تدخل إحدى اليامين في الأخرى . وقد قيل : إن تبة الجماعة إنما اشتقت من تبت على الرجل إذا أثبت عليه في حياته وجمعت محاسن ذكره فيعود إلى الاجتماع .

الرابعة — قوله تعالى : ( أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ) معناه الجيوش الكثيف مع الرسول عليه اسلام ؛ قاله ابن عباس وغيره . ولا تخرج السرايا إلا بإذن الإمام ليكون متجسدا لهم ، عضدا من ورائهم ، وربما احتاجوا إلى دركه . وسيأتي حكم السرايا وغنائمهم وأحكام الجيوش وجوب التفرير « الأفعال » و « براءة » إن شاء الله تعالى .

الخامسة — ذكر ابن خزيمة مناد : وقيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » وبقوله : « إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ » ؛ ولأن يكون « أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » منسوخا بقوله : « فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا » وبقوله : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » أولى ، لأن فرض الجهاد يقرر على الكفاية ، ففى سَدِّ الثغور بعض المسلمين أسقط الفرض عن الباقيين . والصحيح أن الآيتين جميعا محتمكان ، إحداها في الوقت الذى يحتاج فيه إلى تعب الجميع ، والأخرى عند الاكتفاء بطائفة دون غيرها .

قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَسْطَنَ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٦﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنْ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّا تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيِّنُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ( وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَسْطَنَ ) يعنى المنافقين . والتبليطة والإبطاء التاجر ؛ تقول : ما أبطاك عا ؛ فهو لازم . ويجوز جالت فلانا عن كذا أى أخرته ؛ فهو مبتدأ .

والمعنيان مراد في الآية ؛ فكأنوا يقعدون عن الخروج ويقعدون غيرهم . والمعنى أن من دخلائكم وجنسكم ومن أظهر إيمانه لكم . فالمتناقضون في ظاهر الحال من أعداد المسلمين بإجراء أحكام المسلمين عليهم . واللام في قوله « لمن » لام تأكيد ، والثانية لام قسم ، و « من » في موضع نصب ، وصلتها « ليطئن » لأن فيه معنى اليقين ، والخبر « منكم » . وقرأ مجاهد والنخعي والكوفي « وإن منكم لمن ليطئن » بالتخفيف ، والمعنى واحد . وقيل : المراد بقوله « وإن منكم لمن ليطئن » بعض المؤمنين ؛ لأن الله خاطبهم بقوله : « وإن منكم » وقد فرق الله تعالى بين المؤمنين والمنافقين بقوله « وما هم منكم » وهذا باباء مساق الكلام وظاهره . وإنما جمع بينهم في الخطاب من جهة الجنس والنسب كما يتنا لا من جهة الإيمان . هذا قول الجمهور وهو الصحيح إن شاء الله تعالى ، والله أعلم . يدل عليه قوله : ﴿ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مِصْيَبَةٌ ﴾ أى قتل وهزيمة ﴿ قَالَ قَدْ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَى ﴾ يعنى بالقيود ، وهذا لا يصدر إلا من منافق لا سيما في ذلك الزمان الكريم ، بعيد أن يقوله مؤمن . وينظر إلى هذه الآية ما رواه الأئمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم إخبارا عن المنافقين " إن أثقل صلاة عليهم صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبوا " الحديث . في رواية " ولو علم أحدهم أنه يجد عظاما سميما لشهدها " يعنى صلاة العشاء . يقول : لو لاح شيء من الدنيا بأخذونه وكانوا على يقين منه لبادروا إليه . وهو معنى قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى غنيمة وفصح ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ هذا المنافق قول نادم حاسد ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ﴿ كَأَن لَّمْ يَتَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ فالكلام فيه تقديم وتأخير . وقيل : المعنى ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة ؛ أى كأن لم يعاقدكم على الجهاد . وقيل : هو في موضع نصب على الحال . وقرأ الحسن « ليقولن » بضم اللام على معنى « من » ؛ لأن فعلى قوله « لمن ليطئن » ليس يعنى رجلا بينهم . ومن فتح اللام أعاد فوسد الضمير على لفظ « من » . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم « كأن لم تكن » بالياء على لفظ المودة . ومن قرأ بالياء جعل مودة بمعنى الود . وقول المنافق « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ » على وجه الحسد أو الأسف

على فوت النعمة مع الشك في الجزاء من الله ﴿فَأَفُوزٌ﴾ جواب التمني ولذلك نصب . وقرا الحسن « فافوز » بالرفع على أنه تنى الفوز ، فكأنه قال : يا ليتني أفوز فوزا عظيما . والنصب على الجواب ، والمعنى إن أكن معهم أفوز . والنصب فيه بإضمار « أن » لأنه محمول على تأويل المصدر ، التقدير يا ليتني كان لي حضور ففوز .

قوله تعالى : فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا  
الْآخِرَةَ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ  
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ) الخطاب للؤمنين ؛ أى فليقاتل  
في سبيل الله ( الَّذِينَ يَشْرُونَ ) أى يبيعون ، أى يذلون أنفسهم وأموالهم لله عز وجل  
( بِالْآخِرَةِ ) أى بثواب الآخرة .

الثانية — قوله تعالى : ( وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ) شرط . ( فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ )  
عطف عليه ، والمجازاة ( فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ) . ومعنى « فيقتل » يستشهد . « أَوْ يَغْلِبْ »  
يظفر فيمنه . وقرأت طائفة « ومن يقاتل » « فليقاتل » بسكون لام الأمر . وقرأت فرقة  
« فليقاتل » بكسر لام الأمر . فذكر تعالى غاية حالة المقاتل واكتفى بالنايتين عما بينهما ؛  
ذكره ابن عطية .

الثالثة — ظاهر الآية يقتضى التسوية بين من قُتل شهيدا أو ألقب غائما . وفي صحيح  
مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَضَمَّنَ اللَّهُ مَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ  
لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِ وَلِإِيمَانٍ بِي وَتَصَدِيقُ بِرَسُولِي فَهُوَ عَلَى ضَامِنٍ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ  
أَوْ أَرْجِمَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » وذكر الحديث . وفيه  
عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَخْرُجُ فِي سَبِيلِ

الله فيصيدون الغنمة إلا تصلوا على أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث وإن لم يصيدوا غنمة  
تم لم أجرهم . نقوله : " ثامنا ما قال من أجر أو غنمة " يقتضى أن لمن لم يستشهد من  
المجاهدين أحد الأمرين ؛ إما الأجر إن لم يفتح ، وإما الغنمة ولا أجر ، بخلاف حديث عبد الله  
ابن عمرو . ولما كان هذا قال قوم : حديث عبد الله بن عمرو ليس بشئ ؛ لأن في إسناده  
حميد بن هاني ، وليس بمشهور ، ورجحوا الحديث الأول عليه لشهرته . وقال آخرون : ليس  
بينهما تعارض ولا اختلاف . و « أو » في حديث أبي هريرة بمعنى الواو ، كما يقوله الكوفيون .  
وقد دلت عليه رواية أبي داود فإنه قال فيه : " من أجر وغنمة " بالواو الجامعة . وقد رواه  
بعض رواة مسلم بالواو الجامعة أيضا . وحميد بن هاني ، مصري سمع أبا عبد الرحمن الحبلي وعمر  
أبن مالك ، وروى عنه حيوة بن شريح وأبن وهب ؛ فالحديث الأول محمول على مجزئ النية  
والإخلاص في الجهاد ؛ فذلك الذي ضمن الله له إما الشهادة ، وإما رده إلى أهله ما جورا غانما .  
ويُعمل الثاني على ما إذا توى الجهاد ولكن مع نيل المَغْنَم ، فلما انقست نية أنخط أجره ؛  
فقد دلت السنة على أن للغانم اجرا كما دل عليه الكتاب فلا تمارض . ثم قيل : إن نقص أجر  
الغانم على من لم يفتح إنما هو بما فتح الله عليه من الدنيا فتمتع به وأزال عن نفسه شغل عيشه ؛  
ومن أخفق فلم يُصَب شيئا بقي على شغل عيشه والصبر على حاله ، ففي أجره مؤفرا بخلاف  
الأول . ومثله قوله في الحديث الآخر : فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب  
أبن عمير ، ومنا من أيسر له ثمرته فهو يذهبها .<sup>(١)</sup>

قوله نسأل : وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ  
الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ  
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

(١) حذب الثرة تهديا واحدها : جناها .



فيه ثلاث مسائل :

الأولى -- قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ حصص على الجهاد . وهو يتضمن تخلص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ، ويفتنونهم عن الدين ؛ فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده ، وإن كان في ذلك تلف النفوس . وتخلص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال ؛ وذلك أوجب لكونها دون النفوس إذ هي أهون منها . قال مالك : واجب على الناس أن يقدوا الأسارى بجميع أموالهم . وهذا لا خلاف فيه ؛ لقوله عليه السلام « فُتِكُوا الماني » وقد مضى في « البقرة » . وكذلك قالوا : عليهم أن يواسوهم فإن المواساة دون المفاداة . فإن كان الأسير غنياً فهل يرجع إليه القادى أم لا ؛ قولان للعلماء ، أحقهما الرجوع .

الثانية -- قوله تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ ﴾ عطف على اسم الله عز وجل ، أى وفي سبيل المستضعفين فإن خلاص المستضعفين من سبيل الله . وهذا اختيار الزجاج وقاله الزهري . وقال محمد بن يزيد : اختار أن يكون المعنى وفي المستضعفين فيكون عطفاً على السبيل ؛ أى وفي المستضعفين لاستنقاذهم ؛ فالسبيلان مختلفان . ويبنى بالمستضعفين من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال كفره قریش وأذاهم وهم المنيون بقوله عليه السلام : « اللهم أنج الوليد أبن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين » . وقال ابن عباس : كنت أنا وأبى من المستضعفين . في البخارى عنه « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان » قال : كنت أنا وأبى بمن صدر الله ، أنا من الولدان وأبى من النساء .

الثالثة -- قوله تعالى : ﴿ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أُهْلُهَا ﴾ القرية هنا مكة بإجماع من المتأولين . ووصفها بالظلم وإن كان الفعل للأهل للتلقة الضمير . وهذا كما تقول : مررت بالرجل الواسعة داره ، والكرم أبوه ، والحسنة جاريته . وإنما وصف الرجل بها للتلقة اللفظية

بينهما وهو الضمير، فلو قلت : مررت بالرجل الكريم عمرو لم تجز المسألة ؛ لأن الكرم لعمرو فلا يجوز أن يجعل صفة لرجل إلا بملقة وهي الهاء . ولا تنى هذه الصفة ولا تجمع ، لأنها تقوم مقام الفعل ؛ فالمضى أى الذى ظلم أهلها ولمنا لم يقل الظالمين . ونقول : مررت برجلين كريم أبواما حسنة جاريتاهما ، وبرجال كريم أباهم حسنة جوارهم . ( وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ ) أى من عندك ( وَلِيًّا ) أى من يستقذنا ( وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ) أى ينصرنا عليهم .

قوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ( الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ) أى فى طاعته . ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ) قال أبو عبيدة واليكافى : الطاغوت يذكرونها . قال أبو عبيد : وإنما ذكرناهم لأنهم كانوا يستمون الكاهن والكاهنة طاغوتا . قال : حدثنا حجاج عن ابن جريج قال حدثنا أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله وسئل عن الطاغوت التى كانوا يتحاكون بها فقال : كانت فى جهة واحدة وفى أسلم واحدة ، وفى كل حى واحدة . قال أبو إسحاق : الدليل على أنه الشيطان قوله عز وجل : ( فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ) أى مكروه ومكر من أتبعه . ويقال : أراد به يوم بدر حين قال للمشركين « لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّ جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَامَتِ الْفِتْنَانِ نَكَمَ عَلَى قَعْبِهِ وَقَالَ إِنِّ بَرِيءٌ مِنْكُمْ » على ما يأتى .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقْبِمُوا أَسْلِحَافَكُمْ وَأَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ

نَخْشِيَةَ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا  
إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ  
فَتِيلًا ﴿٧٠﴾

روى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له  
أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقالوا : يا نبي الله ، كما في عزم ونحن مشركون ، فلما آمنّا  
صرنا أئمة ؟ فقال : " إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم " . فلما حوله الله تعالى إلى المدينة  
أمره بالقتال فكفوا فزلت الآية . أخرجه النسائي في سننه ، وقاله الكلبي . وقال مجاهد : هم  
يهود . قال الحسن : هي في المؤمنين ؛ لقوله : ( يَخْشَوْنَ النَّاسَ ) أى مُشِيرِكِي مكة ( نَخْشِيَةَ اللَّهِ )  
نهي على ما طبع عليه البشر من الخافة لا على المخافة . قال السدي : هم قوم أسلموا قبل  
فرض القتال فلما فُرض كرهوه . وقيل : هو وصف لثاقفين ؛ والمعنى يخشون القتل  
من المشركين كما يخشون الموت من الله . ( أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ) أى عندهم وفي اعتقادهم .

قلت : وهذا أشبه بسباق الآية ؛ لقوله : ( وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا  
إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ) أى خلّا ، ولا يليها إلا الفعل ، ومعاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابي  
كريم يعلم أن الآجال محدودة والأرزاق مقسومة ، بل كانوا لأوامر الله منتظرين سامعين  
طائعين ، يرون الوصول إلى الدار الآجلة خيرا من المقام في الدار العاجلة ، على ما هو معروف  
من سيرتهم رضي الله عنهم . اللهم إلا أن يكون قائله ممن لم يرجع في الإيمان قدمه ، ولا انشرح  
بالإسلام جثته ، فإن أهل الإيمان متفاضلون فمنهم الكامل ومنهم الناقص ، وهو الذي تنفر  
نفسه عما يؤمر به نيا طمعه فيه المشقة وتذكره فيه الشقة . والله أعلم .

قوله تعالى : ( قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ) ابتداء وخبر . وكذا ( وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى )  
أى المعاصي ؛ وقد مضى القول في هذا في « البقرة » . ومتاع الدنيا متعتها والاستمتاع بآلاتها .

وسماه قليلا لأنه لا بقائه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الدنيا كراكب قال قيلولة تحت شجرة ثم راح وتركها » . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » مستوفى .

قوله تعالى : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَّةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ﴾ شرط ومجازاة ، و « ما » زائدة . وهذا الخطاب عام وإن كان المراد المتأقين أو صفة المؤمنين الذين قالوا : « لَوْلَا أُخْرَسْنَا إِلَى آتِيلٍ قَرِيبٍ » أى إلى أن نموت بأجلنا ، وهو أشبه بالمتأقين كما ذكرنا ؛ لقولهم لما أصيب أهل أحد ، قالوا : « لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا » فرد الله عليهم « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ » قاله ابن عباس في رواية أبى صالح عنه . وواحد البروج بُرْج ، وهو البناء المرتفع والقصر العظيم . قال طرفة يصف نافذة :

كَأَنهَا بُرْجٌ رُومِيٌّ تَكْفِفُهَا \* بَابُ يَشْبِيدُ وَآخِرُ وَأَحْجَارُ <sup>(١)</sup>

وقرأ طلحة بن سليمان « يدرككم » برفع الكاف على إضمار الفاء ، وهو قليل لم يأت إلا في الشعر نحو قوله :

\* مِنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرُهَا \*

أراد الله يشكرها .

واختلف العلماء وأهل التأويل في المراد بهذه البروج ؛ فقال الأكثر وهو الأصح : إنه أراد البروج في الحصون التي في الأرض المنيّة ؛ لأنها غاية البشر في التحصن والمنعة ، فتزل الله

(١) القيلولة : النوم في الظهيرة . وقيل : الاستراحة نصف النهار إذا أشد الحر وإن لم يكن مع ذلك نوم .

(٢) الشيد (بالكسر) : كل ما عل به الماخذ من جص أو بلاط .

لم يها . وقال قتادة : في قصور محصنة . وقاله ابن جرير والجمهور ; ومنه قول عامر بن الطفيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في حصن حصين ومنعة ؟ وقال مجاهد : البروج القصور . ابن عباس : البروج الحصون والأطام والقبلاع . ومعنى مشيدة مطولة ؛ قاله الزجاج والفتي . عكرمة : المزينة بالشيد وهو الحص . قال قتادة : محصنة . والمشيئة والمشيء سواء ؛ ومنه « وقصر مشيد » والتشديد للتكثير . وقيل : المشيد المطول ، والمشيء المثل بالشيد . يقال : شاد البيان وأشاد بذكره . وقال السدي : المراد بالبروج بروج في السماء الدنيا مبنية . وحكى هذا القول مكى من مالك أنه قال : ألا ترى إلى قوله تعالى : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ » و « جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا » و « وَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا » . وحكاها ابن العربي أيضا عن ابن القمام عن مالك . وحكى النقاش عن ابن عباس أنه قال : « في بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ » معناه في قصور من حديد . قال ابن عطية : وهذا لا يطليه ظاهر اللفظ .

الثانية — هذه الآية ترد على القدرية في الأجل ؛ لقوله تعالى « إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ » فزعمهم بذلك أن الأجل متى انقضت فلا بد من مفارقة الروح الجسد ، كان ذلك بقتل أو موت أو غير ذلك مما أجرى الله المادة بزومها به . وقالت المعتزلة : إن المقتول لو لم يقتله القاتل لعاش . وقد هُدم الرد عليهم في « آل عمران » و يأتي ؛ فوافقوا بقولهم هذا الكفار والمنافقين .

الثالثة — اتخاذ البلاد وبنائها ليتمتع بها في حفظ الأموال والغوس ، وهي سنة الله في عباده . وفي ذلك أدلة دليل على رد قول من يقول : التوكل ترك الأسباب ؛ فإن اتخاذ البلاد من أكبر الأسباب وأعظمها وقد أمرنا بها ، واتخذها الأنبياء وحفروا حولها الخنادق عدة وزيادة في التمتع . وقد قيل للأحنف : ما حكمة السور ؟ فقال : ليردع السفيه حتى يأتي الحكيم فيجيبه .

الرابعة - وإذا قلنا على قول مالك والسدى في إنها بروج السماء ؛ فبروج النّلك  
لنا حشرٌ بها مشيدة من الرّفع ، وهى الكواكب العظام . وقيل للكواكب بروج لظهورها ؛  
من بروج يبرج إذا ظهر وأرّفع ؛ ومنه قوله : « وَلَا تَبْعِينَ تَبْرَجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » . وخلقها  
الله تعالى منازل للشمس والقمر وقدر فيها ورتب الأزمنة عليها ، وجعلها جنوبية وشمالية  
دليلا على المصالح وعلما على القبلة ، وطريقا إلى تحصيل آناء الليل وآناء النهار لمعرفة أوقات  
التّجبد وغير ذلك من أحوال المعاش .

قوله تعالى : « وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أى إن يصب المنافقين  
خصب قالوا هذا من عند الله . « وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ أَوْ كَلْبٌ وَعَمَلٌ قَالُوا هَذَا مِنْ عِنْدِكَ »  
أى أصابنا ذلك بشؤمك وشؤم أصحابك . وقيل : الحسنة السلامة والأمن ، والسيئة  
الأمراض والخوف . وقيل : الحسنة الفنى ، والسيئة الفقر . وقيل : الحسنة النعمة والفتح  
والنّتيجة يوم بدر ، والسيئة البلية والشدة والقتل يوم أحد . وقيل : الحسنة السراء ، والسيئة  
الضراء . هذه أقوال المفسرين وعلما التأويل - ابن عباس وغيره - فى الآية . وأنها  
تزلت فى اليهود والمنافقين ، وذلك أنهم لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة طعيم  
قالوا : ما زلنا نعرف النّقص فى ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه . قال  
ابن عباس : ومعنى « مِنْ عِنْدِكَ » أى بسوء تدبيرك . وقيل : « مِنْ عِنْدِكَ » بشؤمك ، كما  
ذكرنا ، أى بشؤمك الذى لحقنا ، قالوه على جهة التّطير . قال الله تعالى : « قُلْ كُلٌّ مِنْ  
عِنْدِ اللَّهِ » أى الشدة والرخاء والظفر والمزينة من عند الله ؛ أى بقضاء الله وقدره . « قَالِ  
هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ » يعنى المنافقين « لَا يَكُونُونَ فَيَقْهَوْنَ حَيْثَا » أى ما شأنهم لا يقهون أن كلا  
من عند الله .

قوله تعالى : « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ  
فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا »

قوله تعالى : ( مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ )  
 أى ما أصابك يا عبد من خصب ورجاء وحمية وسلامة فيفضل الله عليك وإحسانه إليك ،  
 وما أصابك من جَدْب وشقة فيذهب أميته عوقبت عليه . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم  
 والمراد أمته . أى ما أصابكم يا معشر الناس من خصب واتساع رزق فمن تفضل الله عليكم ،  
 وما أصابكم من جَدْب وضيق رزق فمن أخسكم ؛ أى من أجل ذنوبكم وقع ذلك بكم . قاله  
 الحسن والسدي وغيرهما ؛ كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ » . وقد قيل :  
 الخطاب للإنسان والمراد به الجنس ؛ كما قال تعالى : « وَالْقَصِيرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَى خُسْرًا »  
 أى إن الناس لقي خسر ، ألا تراه استثنى منهم فقال « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا » ولا يستثنى إلا من  
 جملة أو جماعة . وعلى هذا التأويل يكون قوله « مَا أَصَابَكَ » استثناء . وقيل : في الكلام  
 حذف تقديره يقولون . وعليه يكون الكلام متصلاً ؛ والمعنى قال هؤلاء القوم لا يكادون  
 يفقهون حديثاً حتى يقولوا ما أصابك من حسنة فمن الله . وقيل : إن ألف الاستفهام  
 مضرب ؛ والمعنى أفن نفسك . ومثله قوله تعالى : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ » والمعنى لو تلك  
 نعمة ؟ وكذا قوله تعالى : « قَلْبًا رَأَى الْقَمَرَ بَازِئًا قَالَ هَذَا رَبِّي » أى أهذا ربى ؟ قال  
 أبو خراش المذنب :

رموني وقالوا يا خويلد لم ترع \* فقلت وأنكرت الوجوه ثم هم

أراد « أحم » فاضمر ألف الاستفهام وهو كثير وسيأتي . قال الأخفش « ما » بمعنى الذى . وقيل  
 هو شرط . قال النحاس : والصواب قول الأخفش ؛ لأنه نزل في شيء عينه من الجذب ،  
 وليس هذا من المعاصى في شيء ولو كان منها لكان وما أصبت من سيئة . وروى عبد الوهاب  
 ابن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس وأبي وابن مسعود « ما أصابك من حسنة فمن الله وما

(١) في اللسان مادة « وعا » :

\* وروى وقالوا يا خويلد لا ترع \*

وروى الزيل : سكتة ؛ يقول - سكتنى - وقال ابن حبان : يرد يجرى قال الميزنة : قال : والميزنة لا تثنى إلا  
 في الشعر ، وقد ألقاها في هذا البيت ؛ ومناه : أتى فرقت فطارد على غصنوا يمشى إلى بحر .

إِصْلَاحِكُمْ مِنْ بَيْنَةِ يَمِينٍ وَقِسْمِكُمْ وَأَنَا كَاتِبٌ عَلَيْكُمْ فَهَذِهِ قِرَاءَةُ عَلَى التَّصْغِيرِ ، وَقَدْ أَتَيْنَاهَا بِمَعْزُومٍ  
أَهْلِ الزَّيْعِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَالْحَدِيثُ يَذْكُرُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي مَرْثَدٍ ، لِأَنَّهُمَا جَاهِدَا لِمَنْ يَرْغَبُ فِيهِ  
وَلَا أُتِيَا . وَعَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ : الْحَسَنَةُ الْفَتْحُ وَالنِّعْمَةُ يَوْمٌ بَدَرٌ ، وَالسَّيِّئَةُ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ ؛  
أَنَّهُمْ عَاقَبُوا عِنْدَ خِلَافِ الرُّمَاءِ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَمْحُوا ظُهُورَهُمْ وَلَا  
يَرْحُوا مِنْ مَكَائِهِمْ ، فَأَرَأُوا الْمَزِيْمَةَ عَلَى قُرَيْشٍ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْتَمُونَ أَمْوَالَهُمْ فَتَرَكُوا مَصَانِفَهُمْ ،  
فَنَظَرَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَكَانَ مَعَ الْكُفَّارِ يَوْمَئِذٍ ظَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ انْكَشَفَ  
مِنْ الرُّمَاءِ فَأَخَذَ مَرَّةً وَدَارَ حَتَّى صَارَ خَلْفَ الْمُسْلِمِينَ وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرُّمَاءِ إِلَّا صَاحِبُ الرِّايَةِ ، حَفِظَ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
فَوَقَفَ حَتَّى اسْتَشْهَدَ مَكَانَهُ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي « آلِ عِمْرَانَ » بَيَانَهُ . فَاتَّزَلَّ اللَّهُ تَعَالَى نَظِيرَ هَذِهِ  
الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَوَلَمْ أَصَابَكُم مُصِيبَةٌ » يَعْنِي يَوْمَ أُحُدٍ « قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا » يَعْنِي  
يَوْمَ بَدْرٍ « فَلَمْ أَتَى هَذَا قُلُوبًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ » . وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْحَسَنَةُ هَاهُنَا الطَّاعَةَ ،  
وَالسَّيِّئَةُ الْمَعْصِيَةَ كَمَا قَالَتِ الْقُدْرَةُ ؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ مَا أَصَابَتْ كَمَا قَدَّمْنَا ، إِذْ هُوَ  
بِمَعْنَى الْقَعْلِ عَنْهُمْ وَالْكَسْبِ عِنْدَنَا ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الْحَسَنَةُ الطَّاعَةُ وَالسَّيِّئَةُ الْمَعْصِيَةُ فِي نَحْوِ  
قَوْلِهِ : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا » وَأَمَّا فِي هَذِهِ  
الْآيَةِ فَهِيَ كَمَا تَقَدَّمَ تَرْجُمَانُهَا مِنَ الْحَصْبِ وَالْجَدْبِ وَالرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ ، عَلَى نَحْوِ مَا جَاءَ فِي آيَةِ  
« الْأَعْرَافِ » وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَالسَّيِّئِينَ وَقَتِصَ مِنَ الثَّرَاثِ لَعَلَّهُمْ  
يَذْكُرُونَ » . « وَالسَّيِّئِينَ » بِالْجَدْبِ سَبْعٌ بَعْدَ سَبْعَةٍ ؛ حَسِبَ الْمَطَرُ عَنْهُمْ فَفَقَصَتْ ثَمَارَهُمْ وَغَلَّتْ  
أَسْعَادُهُمْ . « فَلَاذًا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَطْرِئْهَا يَمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ »  
أَيِ يَتَشَامُونَ بِهِمْ وَيَقُولُونَ هَذَا مِنْ أَجْلِ أَتَابَاتِكَ وَطَاعَتِكَ يَا لَكَ ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ :  
« أَلَا إِنَّمَا طَارَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ » يَعْنِي أَنَّ طَائِرَ الْبَرَكَةِ وَطَائِرَ الشُّؤْمِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالنَّفْعِ وَالضَّرِّ  
مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لَا تُصْنَعُ فِيهِ لِمَخْلُوقٍ ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يُضَيِّفُونَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ



عليه وسلم حيث قال : « وَإِنْ تُصِيبَهُمْ شَيْءٌ فَقُولُوا هَيْدٌ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » كما قال : « أَلَا إِنَّمَا طَأْسُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ » وكما قال تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيُزِدْنِ اللَّهُ » أى بقضاء الله وقدره وعلوه ، وآيات الكتاب يشهد بعضها لبعض . قال علماؤنا : ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشك فى أن كل شئ بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته ، كما قال تعالى : « وَتَبْلُغُونَ النَّارَ وَالْخَيْرِ قِتْنَةً » وقال تعالى : « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ شُوَيْهِ مِنْ وَّالٍ » .

مسألة — وقد تجاذب بعض جهال أهل السنة هذه الآية واحتج بها ، كما تجاذبوا القدرية واحتجوا بها ، ووجه احتجاجهم بها أن القدرية يقولون : إن الحسنة هاهنا الطاعة ، والسبئية المعصية ، قالوا : وقد نسب المعصية فى قوله تعالى : « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » إلى الإنسان دون الله تعالى ، فهذا وجه تعللهم بها . ووجه تعلق الآخرى منها قوله تعالى : « قل كل من عند الله » قالوا : فقد أضاف الحسنة والسبئية إلى نفسه دون خلقه . وهذه الآية إنما يتعلق بها الجهال من الفريقين جميعا ، لأنهم بنوا ذلك على أن السبئية هى المعصية ، وليست كذلك لما بيناه . والله أعلم . والقدرية إن قالوا « ما أصابك من حسنة » أى من طاعة « فإن الله » فليس هذا اعتقادهم ، لأن اعتقادهم الذى بنوا عليه مذهبهم أن الحسنة فعل المحسن والسبئية فعل المسىء . وأيضاً فلو كان لهم فيها حجة لكان يقول : ما أصبت من حسنة وما أصبت من سيئة لأنه الفاعل للحسنة والسبئية جميعا ، فلا يضاف إليه إلا بفعله لما لا يفعل غيره . نص على هذه المقالة الإمام أبو الحسين شيبب<sup>(١)</sup> بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة فى كتابه المسمى بحزب الفلاس فى إتمام الختام .

قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا » مصدر مؤكد ، ويحوز أن يكون المعنى ذار رسالة . ( وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ) نصب على البيان والبهاء زائدة ، أى كفى الله شهيدا على صدق رسالة نبيه وأنه صادق .

(١) كما فى الأصول . واتفق فى البحر لأبى حيان : « أبو الحسن شيبب » .

فَقَوْلُهُ تَسَالَى : مَنْ يُطِيعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ

عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : (مَنْ يُطِيعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) أعلم الله تعالى أن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم طاعة له . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ بَعْضَنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ يُطِيعُ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي " في رواية . " وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي " .

قوله تعالى : (وَمَنْ تَوَلَّى) أى اعرض . (فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا) أى حافظا ورفيقا لأعمالهم ، إنما عليك البلاغ . وقال الفتي : عاصبا ؛ فنسخ الله هذا بآية السيف وأمره بقتال من خالف الله ورسوله .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِيقَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ

لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ) أى أمرنا طاعة ، ويجوز « طاعة » بالنصب ، أى نطيع طاعة ، وهى قراءة نصر بن عاصم والحسن والجمادى . وهذا فى المناقذين فى قول أكثر المفسرين ؛ أى يقولون إذا كانوا عنك : أمرنا طاعة ، أو نطيع طاعة ، وقولهم هذا ليس بنافع ؛ لأن من لم يعتقد الطاعة ليس بمطيع حقيقة ، لأن الله تعالى لم يحقق طاعتهم بما أظهره ، فلو كانت الطاعة بلا اعتقاد حقيقة لحكم بها لهم ؛ ثبت أن الطاعة بالاعتقاد مع وجودها . (فَإِذَا بَرَزُوا) أى خرجوا (مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ) فذكر الطائفة لأنها فى معنى

برجال : وأدغم الكوفيون الناء في الطاء ؛ لأنهما من مخرج واحد فغير واضح ذلك للكفاي  
في القمل وهو عند البصريين غير قبيح . ومعنى « يَتَّ » زَوَّدَ وَمَتَّأَ وَنَقِيلَ ؛ فَيَزِيدُ وَيَقِلُّ  
وَحَرْفٌ أَى بَدَلُوا قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا عَاهَدَهُ إِلَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِهِ . وَالتَّيْتُ التَّبْدِيلُ ؛  
وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ (١) :

أَتَوَيْ فَلَ أَرْضَ مَا يَتَوَا • وَكَانُوا أَتَوَى بِأَمْرِ نَكَرَ  
لَأَنَّهُمْ أَيْعَهُمْ مُنْذِرًا • وَهَلْ يُنْكَحُ الْعَبْدُ حُرًّا

آخِرُ : (٢)

يَتَّ قَوْلِي عَبْدُ الْمَلِكِ • لَمْ يَقُلْهُ اللَّهُ عَبْدًا كَفَرًا  
وَيَتَّ الرَّجُلُ الْأَمْرَ إِذَا دَبَّرَهُ لَيْلًا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِذْ يُسَبِّحُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ » .  
وَالْعَرَبُ قَوْلُ : أَمْرٌ يَتَّ بَلِيلٌ إِذَا أَحْكَمَ . وَإِنَّمَا خُصَّ الْقَلِيلُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ وَقْتُ يُتَنَزَّهِ فِيهِ .  
قَالَ الشَّاعِرُ :

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بَلِيلَ فَلَا • أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَمْ ضَوْفَاءَ

وَمِنْ هَذَا يَتَّ الصَّيَامَ . وَالْيُوتُ : الْمَاءُ يَتَّ لَيْلًا . وَالْيُوتُ : الْأَمْرُ يَتَّ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ  
مُهْتَمًّا بِهِ ؛ قَالَ الْمَذَلُّ :

وَأَجْمَلُ فِقْرَتِهَا مُعْتَةً • إِذَا خَفْتُ بَيُوتَ أَمْرِ عُضَلٍ

وَالْيُوتُ وَالْيَاتُ أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدُ لَيْلًا . وَبَاتَ يَفْعَلُ كَذَا إِذَا فَعَلَ لَيْلًا ؛ كَمَا يَقَالُ : ظَلَّ  
بِالنَّهَارِ . وَيَتَّ الشَّيْءُ قَدْرًا . فَإِنْ قِيلَ : فَأَوْجَهُ الْحِكْمَةُ فِي ابْتِدَائِهِ بِذِكْرِ جِلَّتِهِمْ ثُمَّ قَالَ :  
« يَتَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ » ؟ قِيلَ : إِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ حَالٍ مِنْ عِلْمِ أَنَّهُ بَقِيَ عَلَى كُفْرِهِ وَقَفَاهُ ، وَصَفَحَ  
عَمَّنْ عَلِمَ أَنَّهُ سِيرَجٌ عَنْ ذَلِكَ . وَقِيلَ : إِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ حَالٍ مِنْ تَهْدٍ وَطَرٍ فِي أَمْرِهِ ، وَأَمَّا مَنْ  
سَمِعَ وَسَكَتَ فَلَمْ يَذْكُرْهُ . وَاللهُ أَعْلَمُ . ( وَلَقَدْ يَكْتُبُ مَا يُسَبِّحُونَ ) أَى يَسْتَحْيِي فِي مَحَافِظِ أَعْمَالِهِمْ  
لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهِ . وَقَالَ الرَّجُلُ : الْمَعْنَى يَتْلُو عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ

(١) هو الأسود بن ميمر ؛ كَانَ فِي السَّنَةِ مَادَةَ «نَكَرَ» .

(٢) هو الأسود بن ميمر بن جرير الطائي ؛ يَتَابِعُ رَجُلًا . كَمَا فِي تَحْقِيقِ الطُّبَرَانِيِّ ج ٥ ص ١٧٤ طبع بلان .

يجوز القول لا يفيد شيئا كما ذكرنا فيناهم قالوا: طاعة، ولَقَطُوا سَائِرَ مَا يَحَقُّ لِلَّهِ طَاعَتِهِمْ  
ولا حكم لهم بصحتها لأنهم لم يستقدوها. فثبت أنه لا يكون الطمع مطعيا إلا باعتقادها  
مع وجودها.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا. أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾  
أى لا تحجر باسئامهم، عن الضحاك، يعنى المنافقين. وقيل: لا تعاقبهم. ثم أمره بالتوكل  
عليه والثقة به فى التصرع على عدوه. ويقال: إن هذا منسوخ بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ  
جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» ثم غاب المنافقين بالإعراض عن التدبر فى القرآن والتفكر فيه  
وفى معانيه. تدبرت الشيء فكرت فى عاقبته. وفى الحديث «لا تدبروا» أى لا يؤنى بضمكم  
بعضا دبره. وأدبر القوم مضى أمرهم إلى آخره. والتدبير أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر  
إلى ما نصير إليه عاقبته. ودلت هذه الآية وقوله تعالى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى  
قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» على وجوب التدبر فى القرآن ليعرف معناه. وكان فى هذا رد على فساد قول  
من قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومنع أن يتأول  
على ما يسهو لسان العرب. وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد، وفيه  
دليل على إثبات القياس.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أى تفاوتنا  
وتناقضا، عن ابن عباس وقتادة وابن زيد. ولا يدخل فى هذا اختلاف ألفاظ الفقرات  
والفاظ الأمثال والدلالات ومقادير السور والآيات. وإنما أراد اختلاف التناقض  
والتفاوت. وقيل: المعنى لو كان ما يُحجَّرون به من عند غير الله لاختلف. وقيل: إنه  
ليس من متكلم يتكلم كلاما كثيرا إلا وجد فى كلامه اختلاف كثير، إما فى الوصف واللفظ،  
وإما فى جودة المعنى، وإما فى التناقض، وإما فى الكذب. فانزل الله عز وجل القرآن  
وأمرهم بتدبره؛ لأنهم لا يحمدون فيه اختلافا فى وصف ولا ردا له فى معنى، ولا تناقضا ولا  
كذبا فيما يحجرون به من النيوب وما يسرون.

قوله تعالى: وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ  
وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ  
مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ) في «إنا» معنى الشرط، ولا يخفى بها  
وإن زيدت عليها «ما» وهي قليلة الاستعمال. قال سيويه. والجيد ما قال كعب بن زهير:  
وَإِذَا مَا تَسَاءَ تَبَعْتُ مِنْهَا \* مَغْرِبَ الشَّمْسِ نَاشِطًا مَذْعُورًا<sup>(١)</sup>

يعنى أن الجيد لا يجوز إذا ما كما لم يجوز في هذا البيت، وقد تقدم في أزل «البقرة»<sup>(٢)</sup>. والمعنى  
أنهم إذا سمعوا شيئاً من الأمور فيه أمن نحو ظفر المسلمين وقتل عدوهم (أَوِ الْخَوْفِ) وهو ضد  
هذا (أَدَّاعُوا بِهِ) أى أفسوه وأظهروه وتحذروا به قبل أن يقفوا على حقيقة. وقيل: كان  
هذا من ضعف المسلمين؛ عن الحسن. لأنهم كانوا يشكون أمر النبي صلى الله عليه وسلم  
ويظنون أنهم لا شيء عليهم في ذلك. وقال الضحاك وابن زيد: هو في المناققين فنهوا عن  
ذلك لما يلحقهم من الكذب في الإرجاف.

قوله تعالى: (وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ) أى لم يحذروا به ولم  
يفشوه حتى يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى يحدث به ويفشيه. أو أولوا الأمر  
وهم أهل العلم والفقهاء؛ عن الحسن وقادة وغيرهما. السدى وابن زيد: الولاة. وقيل:  
أمراء المرابا. (لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) أى يستخرجونه، أى لعلوا ما ينبغي أن  
يفشى منهم وما ينبغي أن يكتم. والاستنباط مأخوذ من استنبط الماء إذا استخرجته.  
والنبت: الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر أول ما تخفر. ونبتى النبت نبطا لأنهم

(١) وصف ناك بالشاط والسرعة بعد سير التباركة؛ فشيها في أنبائها سرعة بالشاط قد ذكر من ماء أوسع  
والشاط: الزور يخرج من به إلى به، فذلك أوحش له وأذعر. (عن شرح التواهد).

(٢) راجع ١ ص ٢٠١ طبة ثانية أوثالة.

يستخرجون ما في الأرض . والاستنباط في اللغة الاستخراج ، وهو يدل على الاجتهاد إذا  
عُدَّ النَّصُّ والإجماع كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ رفع بالابتداء عند سيويه ، ولا يجوز أن  
يظهر الخبر عنده . والكوفيون يقولون : رفع بلولا . ﴿ لَا تَجِبُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ في هذه الآية  
ثلاثة أقوال ؛ قال ابن عباس وغيره : المعنى أذاعوا به إلا قليلا منهم لم يُدْعَ ولم يُغْتَش . وقاله  
جماعة من التحريين : الكسائي والأخفش وأبو عبيد وأبو حاتم والطبري . وقيل : المعنى  
لعابه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا منهم ؛ عن الحسن وغيره ، واختاره الزجاج قال . لأن  
هذا الاستنباط الأكثر يعرفه ؛ لأنه استعمال خبر . واختار الأول الفراء قال : لأن علم السرايا  
إذا ظهر عليه المستنبط وغيره ، والإذاعة تكون في بعض دون بعض . قال الكوفي عنه :  
فلذلك استحسن الاستثناء من الإذاعة . قال النحاس : فهذان قولان على المجاز ؛ يريد أن  
في الكلام تقدما وتأخيرا . وقول ثالث بغير مجاز . يكون المعنى ولولا فضل الله ورحمته بأن بعث  
فيكم رسولا أقام فيكم الحججة لكفرتم وأشركتم إلا قليلا منكم فإنه كان يوحد . وفيه قول رابع  
— قال الضحاك : المعنى لا تجب الشيطان إلا قليلا ، أي أن أصحاب عهد صل الله عليه وسلم  
حدثوا أنفسهم بأمر من الشيطان إلا قليلا ، يعني الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . وعلى هذا  
القول يكون قوله « إلا قليلا » مستثنى من قوله « لَا تَجِبُ الشَّيْطَانُ » . قال المهدوي : وأكرر  
هذا القول أكثر العلماء ، إذ لولا فضل الله ورحمته لأتبع الناس كلهم الشيطان .

قوله تعالى : ﴿ فَفَاتِنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِيصٌ  
الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا أَنْ يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا  
وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَفَاتِنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هذه الفاء متعلقة بقوله « وَمَنْ يُفَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
فَيُفْتَلْ أَوْ يَنْبَلْ نَسْرِفْ نُورَيْهِ أَجْرًا عَظِيمًا فَفَاتِنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أي من أجل هذا ففاتل .

وقيل : هي متعلقة بقوله : « وما لكم لا تنافلون في سبيل الله فقاتل » . كأن هذا المعنى : لا تدع جهاد العدو والاستمرار طيهم للمستضعفين من المؤمنين ولو وحدا ؛ لأنه وعده بالنصر . قال الزجاج : أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهاد وإن قاتل وحده ؛ لأنه قد ضمن له النصر . قال ابن عطية : « هذا ظاهر اللفظ ، إلا أنه لم يحن في خبر قط أن القتال فرض عليه دون الأمة مدة ما ؛ فالمعنى والله أعلم أنه خطاب له في اللفظ ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه ؛ أي أنت يا محمد وكل واحد من أمتك القول له ؛ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك . ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يجاهد ولو وحده ؛ ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : " والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سائقتي " . وقول أبي بكر وقت الردة : ولو خالفني يميني بلاهدتها بشمالى » . وقيل : إن هذه الآية نزلت في موسم بدر الصغرى ؛ فإن أبا سفيان لما انصرف من أُحُد واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم موسم بدر الصغرى ؛ فلما جاء المياد خرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين راكبا فلم يحضر أبو سفيان ولم يتفق قتال . وهذا على معنى ما قاله مجاهد كما تقدم في « آل عمران » . ووجه النظم على هذا والاتصال بما قبل أنه وصف المنافقين بالتخليط وإيقاع الأراجيف ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وبالخذ في القتال في سبيل الله وإن لم يساعده أحد على ذلك .

قوله تعالى : ( لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ) « تكلف » مرفوع لأنه مستقبل ، ولم يحزم لأنه ليس صلة للأول . وزعم الأخفش أنه يجوز جزمه . « إلا نفسك » خبر ما لم يسم فاعله ؛ والمعنى لا تأزم فعل غيرك ولا تؤاخذ به .

قوله تعالى : ( وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنْ يَكُفُّ بِأَسَ الدِّينِ كَفْرًا ) فيه ثلاث مسائل : الأولى — قوله تعالى : ( وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ ) أى حضمهم على الجهاد والقتال . يقال : حرضت فلانا على كذا إذا أمرته به . وسأرض فلان على الأمر وأكب وواظب بمعنى واحد .

(١) أى حتى أموت . والساقية : مفعلة لقتل ؛ وكفى بالمرء أن يموت لا يفرد عما يلها إلا به .

(٢) راجع ج ٤ ص ٢٧٧ طبعه أول مرة ثانية .

الثانية - قوله تعالى : ( عَنِ اللَّهِ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ) إطفاء والإطفاء من الله عز وجل واجب . على أن الطمع قد جاء في كلام العرب على الوجوب ؛ ومنه قوله تعالى : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » . وقال ابن مقبل :  
 ظنني بهم كعمى وهم يتنوفة \* يتنازعون جوائز الأمثال<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ( وَأَلَّفَ بَيْنَ إِسْرَءِيلَ ) أى صولة وأعظم سلطاناً وأقدر بأساً على ما يريد .  
 ( وَأَلَّفَ بَيْنَ كَلْبَ ) أى عقوبة ؛ عن الحسن وغيره . قال ابن جرير : رماه الله بكنة ، أى رماه بما ينكته . قال : ونكته بالرجل تنكلا من النكال . والمنكّل الشيء الذى ينكّل الإنسان . قال :

\* وادم على أفتانهم بمنكّل<sup>(٢)</sup>

الثالثة - إن قال قائل : نحن نرى الكفار في بأس وشدة ، وإن عسى بمعنى اليقين تأييد ذلك الوعد ؟ قيل له : قد وجد هذا الوعد ولا يلزم وجوده على الاستقرار والدوام ، فتم وجده ولو لحظة مثلاً فقد صدق الوعد ؛ فكف الله بأس المشركين بيد الصغرى ، وأخلفوا ما كانوا عاهدوه من الحرب والقتال « وكفى الله المؤمنين القتال » وبالهدية أيضاً عما راموه من القدر واتهاز الفرصة ، ففان بهم المسلمون فخرجوا فآخذوهم أسرى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم في الصلح ، وهو المراد بقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » على ما يأتي . وقد ألقى الله في قلوب الأحزاب الرعب وانصرفوا من غير قتل ولا قتال ؛ كما قال تعالى « وكفى الله المؤمنين القتال » . وخرج اليهود من ديارهم وأموالهم شير قال المؤمنين لهم ، فهذا كله بأس قد كفّه الله عن المؤمنين ، مع أنه قد دخل من اليهود والنصارى العدد الكثير والجمل الغفير تحت الجزية صاغرين وتركوا المحاربة دائرين ، فكف الله بأسهم عن المؤمنين . والحمد لله رب العالمين .

(١) التوبة : الفجر من الأرض . (٢) في الأصول : « يتنازعون خزان الأموال » . والتصويب عن أنس بن مالك « صا » . (٣) هذا صدر بيت ، وبجوه : \* بصخرة أرعرش جيش جهنم  
 (٤) الفجر : القليل المهيئ .



قوله تعالى : مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّا <sup>ط</sup>يَسْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ﴿٥٥﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( مَنْ يَشْفَعْ ) أصل الشفاعة والشفعة ونحوها من الشفع وهو الزوج في العدد ؛ ومنه الشفع لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعاً . ومنه ناقة شفع إذا جمعت بين محليين في حلية واحدة . وناقة شفع إذا اجتمع لها حمل وولد بينهما . والشفع ضم واحد إلى واحد . والشفعة ضم ملك الشريك إلى ملكك ؛ فالشفاعة إذا ضم غريك إلى بابك ووسيلتك ، فهي على التحقيق إظهارك لمتلة الشفع عند المشفع وإيصال المنفعة إلى المشفوع له .

الثانية - واختلف المتأولون في هذه الآية ؛ فقال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم : هي في شفاعات الناس بينهم في حوائجهم ؛ فن يشفع ليشفع قله نصيب ، ومن يشفع ليشرفه كفل . وقيل : الشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة ، والسيئة في المأثم . فن شفع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر . ومن سعى بالنيمة والنية إثم ، وهذا قريب من الأول . وقيل : يعني بالشفاعة الحسنة الدعاء للمسلمين ، والسيئة الدعاء عليهم . وفي صحيح الخبر : " من دعا بظهر النيب استجيب له وقال الملك آمين ولك بمثل " . هذا هو النصيب ، وكذلك في الشر ؛ بل يرجع دعائه عليه . وكانت اليهود تدعو على المسلمين . وقيل : المعنى من يكن شفعاً لصاحبه في الجهاد يكن له نصيبه من الأجر ، ومن يكن شفعاً لآخر في باطل يكن له نصيبه من الوزر . وعن الحسن أيضاً : الحسنة ما يجوز في الدين ، والسيئة ما لا يجوز فيه . وكان هذا القول جامع . والكفل الوزر والإثم ؛ عن الحسن وقادة السدى وابن زيد هو النصيب . واشتقاقه من الكساء الذي يحويه ركب البعر على سنامه

(١) كذا في الأصول ؛ والذي في كتب اللغة : « شفع وشافع » وهي التي شفعها ولها .

لِلْإِسْقَاطِ . يقال : اكْتَفَلَ الشَّيْءُ أَنْ يَكُونَ عَلَى شَيْءٍ كَسَاءً وَرَبَتْ عَلَيْهِ . ويقال له : اكْتَفَلَ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَعْمَلِ الظَّهْرَ كُلَّهُ بَلْ اسْتَعْمَلَ نَصِيْبًا مِنَ الظَّهْرِ . ويستعمل في النصب من الخير والشر ، وفي كتاب الله تعالى « يَوْمَ تَكْفُلِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ » . والشافع يؤجر فيها يجوز وإن لم يُسْفَع ؛ لأنه تعالى قال « مَنْ يُسْفَعْ » ولم يقل يُسْتَفَع . وفي صحيح مسلم « أَشْفَعُوا تَوَجَّروا وَلَيَقْضِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ مَا أَحَبَّ » .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَيِّتًا ) « مقبياً » معناه مُقْتَدِرًا ، ومنه قول الزمخشري عبد المطلب :

وَذِي ضَمْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ • وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَةِ مُقَيِّتَا

أى قديرا . فالعنى أن الله تعالى يعطى كل إنسان قوته ؛ ومنه قوله عليه السلام : « كفى بالمرء إثمًا أَنْ يُضَيِّعَ مِنْ قِيَّتِهِ » . على من رواه هكذا ، أى مَنْ هو تحت قدرته وفى قبضته من عيال وغيره ، ذكره ابن عطية . يقول منه : قُتِيَ أَقْوَتُهُ قُوَّتًا ، وَأَقْتَهُ أَقِيَّتُهُ إِقَانَةً فَاثًا وَمُقَيَّتٌ . وحكى الكسائى : أَقَاتَتْ يُقَيَّت . وأما قول الشاعر :

... إِنِّى عَلَى الْحَسَابِ مُقَيَّتٌ •

فقال فيه الطبرى : إنه من غير هذا المعنى المتقدم ، وإنه بمعنى الموقوف . وقال أبو عبيدة : المقيت الحافظ . وقال الكسائى : المقيت المقتدر . وقال النحاس : وقول أبى عبيدة أولى ؛ لأنه مشتق من القوت ، والقوت معناه مقدار ما يحفظ الإنسان . وقال الفراء : المقيت الذى يعطى كل رجل قوته . وجاء فى الحديث : « كفى بالمرء إثمًا أَنْ يَضَيِّعَ مِنْ قِيَّتِهِ وَمُقَيَّتِهِ » . ذكره الثعلبى . وحكى ابن فارس فى المجمل : المقيت المقتدر ، والمقيت الحافظ والشاعد ، وما عنده قِيَّتٌ لَيْلَةٌ وَقُوَّتٌ لَيْلَةٌ . والله أعلم .

(١) هو الرسول بن هادي ، وأبوت بانه :

أَيْلَ الْقَضَلُ أَمْ عَلَى إِذَا حَرَّ • سَبَّحَ إِلَى عَلَى الْحَسَابِ مُقَيَّتٌ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَخَبُّوا وَأَحْسِنَ بِمَا آتَاكُمْ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup>  
 كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٢﴾

فیه اثنا عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ ) التَّحِيَّةُ فَعَمَلُهُ مِنْ حَيَّةٍ ؛ فَلأَصْلُ تَحِيَّةٍ  
 مِثْلُ تَرْبِيَةٍ وَتُسْمِيَةٍ ، فَادْعُوا إِلَيْهِ فِي الْيَأْ . وَالتَّحِيَّةُ السَّلَامُ . وَأَصْلُ التَّحِيَّةِ الدَّعَاءُ بِالْحَيَاةِ .  
 وَالتَّحِيَّاتُ هِيَ ، أَيْ السَّلَامُ مِنَ الْآفَاتِ . وَقِيلَ : الْمَلِكُ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ الْعَمَلِيُّ :  
 سَأَلْتُ الْكِسَائِيَّ عَنْ قَوْلِهِ « التَّحِيَّاتُ هِيَ » مَا مَعْنَاهَا ؟ قَالَ : التَّحِيَّاتُ مِثْلُ الْبَرَكَاتِ ؛ فَقُلْتُ :  
 مَا مَعْنَى الْبَرَكَاتِ ؟ فَقَالَ : مَا سَمِعْتُ فِيهَا شَيْئًا . وَسَأَلْتُ عَنْهَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ فَقَالَ : هُوَ شَيْءٌ  
 تَعْبَدُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ . فَقَدِمْتُ الْكُوفَةَ فَلَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ إِدْرِيسَ فَقُلْتُ : إِنِّي سَأَلْتُ الْكِسَائِيَّ  
 وَمُحَمَّدًا عَنْ قَوْلِهِ « التَّحِيَّاتُ هِيَ » فَأَجَابَنِي بِكَذَا وَكَذَا ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ : إِنَّهُمَا لَا أَعْلَمُ  
 لَهَا بِالشَّعْرِ وَبِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ ؟ ! التَّحِيَّةُ الْمَلِكُ ؛ وَأَنْشَدَ :

أَوْثُمُهَا أَبَا قَابُوسَ حَتَّى • أُتِيخَ عَلَى تَحِيَّتِهِ بِمُجْنَدِي

وَأَنْشَدَ ابْنُ خُوَيْرِزْمَادَ :

أَسِيرُهُ إِلَى التَّهْنِ حَتَّى • أُتِيخَ عَلَى تَحِيَّتِهِ بِمُجْنَدِي

يُرِيدُ عَلَى مَلِكِهِ . وَقَالَ آخَرُ :

وَلِكُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى • قَدْ بَنَتْهُ إِلَّا التَّحِيَّةُ

وَقَالَ الْفَتِيُّ : إِنَّمَا قَالَ « التَّحِيَّاتُ هِيَ » عَلَى الْجَمْعِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي الْأَرْضِ مُلُوكٌ يُحْيُونَ بِتَحِيَّاتٍ  
 مُخْتَلَفَاتٍ ؛ يُقَالُ لِبَعْضِهِمْ : آيَّتَ اللَّعْنِ ، وَلِبَعْضِهِمْ أَسْلَمُ وَأَتَمُّ ، وَلِبَعْضِهِمْ عَشْ أَلْفَ سَنَةٍ .  
 فَقِيلَ لَنَا : قُولُوا التَّحِيَّاتُ هِيَ ؛ أَيْ الْإِتِّفَاقُ الَّذِي تَدُلُّ عَلَى الْمَلِكِ ، وَيَكُنِي بِهَا عَنْهُ هِيَ تَعَالَى .

(١) البيت لسروين مدني كرم، وقوله :

وكل مغالبة يضاه زحف • وكل سارد القاروت جده

(٢) هرون بن جناب الكوفي .

وَرَدَّةُ النَّظْمِ بِمَا قِيلَ أَنَّهُ قَالَ : «إِذَا خَرَجْتُمْ لِلْجِهَادِ كَمَا سَقَى بِهِ الْأَمْرُ خُتِمَتْ فِي مَخْفَرِكُمْ بِحَقِّةِ الْإِسْلَامِ فَلَا تَقُولُوا لِمَن آتَى إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتُ مُؤْمِنًا ، بَلْ رُدُّوا جَوَابَ السَّلَامِ ، فَإِنْ أَحْكَمَ الْإِسْلَامُ تَجَرَّى عَلَيْهِمْ .

الثانية - واختلف العلماء في معنى الآية وتأويلها ؛ فروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك أن هذه الآية في تسميت العاطس والرَّد على المَشْتِ . وهذا ضعيف ؛ إذ ليس في الكلام دلالة على ذلك ، أما الرَّد على المَشْتِ فما يدخل بالقياس في معنى رد التحية ؛ وهذا هو متخى مالك إن صح ذلك عنه . والله أعلم . وقال ابن خُوَيْرِمَتَداد : وقد يجوز أن يحمل هذه الآية على الهبة إذا كانت للثواب ؛ فمن وَهَبَ له هبة على الثواب فهو بالخيار إن شاء ردّها وإن شاء قبلها وأثاب عليها قيمتها .

قلت : ونحو هذا قال أصحاب أبي حنيفة ، قالوا : التحية هنا الهدية ؛ لقوله تعالى : «أوردوها» ولا يمكن رد السلام بعينه . وظاهر الكلام يقتضي أداء التحية بعينها وهي الهدية ، فأمر بالتعويض إن قيل أو الرَّد بعينه ، وهذا لا يمكن في السلام . وسيأتي بيان حكم الهبة للثواب والهدية في سورة «الزوم» عند قوله : «وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّيًّا» <sup>(١)</sup> إن شاء الله تعالى . والصحيح أن التحية هنا السلام ؛ لقوله تعالى : «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِأَلَمٍ حَبْكٍ بِهِ اللَّهُ» . وقال النابغة الذبياني :

تَحِيَّتُهُمْ بَيْضُ الْوَلَائِدِ بَيْنَهُمْ • وَآكِيَةُ الْإِضْرَاجِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ <sup>(٢)</sup>

أراد : ويسلم عليهم . وعلى هذا جماعة المفسرين . وإذا ثبت هذا ونقّر ففقه الآية أن يقال : أجمع العلماء على أن الابتداء بالسّلام سنة مرغّب فيها ، وردّه فريضة ؛ لقوله تعالى : «خَيَّوْا بِأَحْسَنِ مِمَّا أُرْدُّوْهَا» . واختلفوا إذا ردّ واحد من جماعة هل يحسب ردّ أو لا ؛ فذهب مالك والشافعي إلى الإجزاء ، وأن المسلم قد ردّ عليه مثل قوله . وذهب الكوفيون إلى أن ردّ السلام

(١) آية ٢٩ (٢) الولائد : الإبله . والإضرج : النخز الأحمر ، وقيل : هو النخز الأصفر . والمشاجب (جمع مشجب بكسر الميم) : عيدان يضمّ وسوسها ويخرج بين فوائدها وتوضع عليها الثياب .

من الفروض المتيعة؛ قالوا: والسلام خلاف الرد لأن الابتداء به تعلق وزنه فريضة؛ ولوردة غير المسلم عليهم لم يسقط ذلك عنهم فرض الرد، فدل على أن رد السلام يلزم كل إنسان بعينه؛ حتى قال قتادة والحسن: إن المصلي يرد السلام كلاما إذ سلم عليه ولا يقطع ذلك عليه صلته؛ لأنه فعل ما أمر به. والناس على خلافه. احتج الازنوني بما رواه أبو داود عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُخْرِجُ بَنِي الْجَمَاعَةِ إِذَا مَرُّوا أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمْ. وَيُخْرِجُ عَنِ الْجُلُوسِ أَنْ يَرُدَّ أَحَدُهُمْ». وهذا نص في موضع الخلاف. قال أبو عمر: وهو حديث حسن لا معارض له، وفي إسناده سعيد بن خالد، وهو سعيد بن خالد الخزاعي مدني ليس به بأس عند بعضهم؛ وقد ضعفه بعضهم منهم أبو زرعة وأبو حاتم ويعقوب بن شيبة وجعلوا حديثه هذا منكرا لأنه انفرد فيه بهذا الإسناد. أن عبد الله ابن الفضل لم يسمع من عبيد الله بن أبي رافع؛ بينهما الأعرج في غير ما حلت. والله أعلم. واحتجوا أيضا بقوله عليه السلام: «يُسَلِّمُ الْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ». ولما أجمعوا على أن الواحد يسلم على الجماعة ولا يحتاج إلى تكرره على عداد الجماعة، كذلك يرد الواحد عن جماعة وينوب عن الباقيين كفروض الكفاية. وروى مالك عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يُسَلِّمُ الرَّابِّ عَلَى الْمَأْثِي وَإِذَا سَلَّمَ وَاحِدٌ مِنَ الْقَوْمِ أَجْزَأُ عَنْهُمْ». فازدادوا: وهذا يدل على أن الواحد يكفي في الرد؛ لأنه لا يقال أجْزَأُ عَنْهُمْ إلا فيما قد وجب. والله . قلت: هكذا نأول مماؤنا هذا الحديث وجعلوه حجة في جواز رد الواحد؛ وفيه قبح .

الثالثة - قوله تعالى: ( غَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ) ردُّ الأحسن أن يزيد فيقول: عليك السلام ورحمة الله؛ لمن قال: سلام عليك. فإن قال: سلام عليك ورحمة الله؛ زدت في ردك. وبركاته. وهذا هو النهاية فلا مزيد. قال الله تعالى مجبرا عن البيت الكريم «رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. فإن انتهى بالسلام غايته، زدت في ردك الواو في أول كلامك قلت: عليك السلام ورحمة الله وبركاته. والرد بالمثل أن تقول لمن قال السلام عليك: عليك السلام، إلا أنه ينبغي أن يكون السلام كله بلفظ الجماعة وإن كان

المُسَلَّم عليه واحداً : روى الأعمش عن إبراهيم التيمي قال : إذا منّمت على الواحد قُل : السلام عليكم ، فإن منه الملائكة . وكذلك الجواب يكون بلفظ الجمع ؛ قال ابن أبي زيد : يقول المُسَلَّم السلام عليكم ، ويقول الرد عليك السلام ، أو يقول السلام عليكم كما قيل له ، وهو معنى قوله « أوردوها » ولا تهل في ردك : سلام عليك .

الرابعة - والاختيار في التسليم والأدب فيه تقديم اسم الله تعالى على اسم المخلوق ؛ قال الله تعالى : « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَسِينَ » . وقال في قصة إبراهيم عليه السلام : « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » . وقال خبراً عن إبراهيم : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعاً فلما خلقه قال اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يميئوك فأنها تميئك وتحيي ذريتك - قال - فذهب فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله - قال - فزادوه ورحمة الله - قال - فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً فلم يزل المخلوق يتقص بمده حتى الآن » .

قلت : فقد جمع هذا الحديث مع صحته فوائد سبع : الأولى - الإخبار عن صفته خلق آدم . الثانية - أنا ندخل الجنة عليها بفضلته . الثالثة - تسليم القليل على الكثير . الرابعة - تقديم اسم الله تعالى . الخامسة - الرد بالمثل لقولهم : السلام عليكم . السادسة - الزيادة في الرد . السابعة - إجابة الجميع بالرد كما يقول الكوفيون . والله أعلم .

الخامسة - فإن ردّ فقّم اسم المُسَلَّم عليه لم يأت محزوماً ولا مكروهاً لثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال للرجل الذي لم يحسن الصلاة وقد سلم عليه : « وعليك السلام . أرجع فصل فإنك لم تصل » . وقالت عائشة : وعليه السلام ورحمة الله ؛ حين أخبرها النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل يقرأ عليها السلام . أخرجه البخاري . وفي حديث عائشة

(١) قال الثوري : « هذه الرواية ظاهرة في أن الضمير في صورة عائذ إلى آدم ، وإن المراد أنه خلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض وتحوّل عليها » .

من القبح أن الرجل إذا أرسل إلى رجل بسلامه فعليه أن يرد عليه إذا شافهه . وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبي يقرئك السلام ؟ فقال : « عليك وعلى أبيك السلام » . وقد روى النسائي وأبو داود من حديث جابر بن سليم قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : عليك السلام يا رسول الله ؟ فقال : « لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت ولكن قل السلام عليك » . وهذا الحديث لا يثبت ، إلا أنه لما جرت عادة العرب بتقديم اسم المدعو عليه في الشر كقولهم : عليه لعنة الله وغضب الله . قال الله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكَ لَنُتَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » . وكان ذلك أيضا ذأب الشعراء وعادتهم في تحية الموتى ؛ كقولهم :

عليك سلام الله قيس بن عاصم \* ورحمته ما شاء أن يرحمها

وقال آخرهوا الشياخ :

عليك سلام الله من أمير وباركت \* يد الله في ذلك الأديم الممزق

نهاء عن ذلك ، لا أن ذاك هو اللفظ المشروع في حق الموتى ؛ لأنه عليه السلام ثبت عنه أنه سلم على الموتى كما سلم على الأحياء فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإن شاء الله بكم لاحقون » . فقالت عائشة : قلت يا رسول الله ، كيف أقول إذا دخلت المقابر ؟ قال : « قولي السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » الحديث ؛ وسيأتي في سورة « التكم » إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد يحتمل أن يكون حديث عائشة وغيره في السلام على أهل القبور جميعهم إذا دخلها وأشرف عليها ، وحديث جابر بن سليم خاص بالسلام على المرور المقصود بالزيارة . والله أعلم .

السادسة - من السنة تسليم الراكب على الماشي ، والقائم على القامد ، والتفليل على الكثير ، هكذا جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يسلم الراكب » فذكره قبلنا بالراكب لبلق مرتبة ؛ ولأن ذلك أبعد لمن ألزموه ،

وكذلك قيل في الماشي مثله . وقيل : لما كان القاعد على حال وقار وثبوت ومُسكون فله منزلةٌ بذلك على الماشي ؛ لأن حاله على العكس من ذلك . وأما تسليم القليل على الكثير فإعادة لشرفية جمع المسلمين وأكثرتهم . وقد زاد البخاري في هذا الحديث " وسلم الصغير على الكبير " . وأما تسليم الكبير على الصغير فروى أشعث عن الحسن أنه كان لا يرى التسليم على الصبيان ؛ قال : لأن الرد فرض والصبي لا يلزمه الرد فلا ينبغي أن يُسلم عليهم . وروى عن ابن سيرين أنه كان يلم على الصبيان ولكن لا يسميهم . وقال أكثر العلماء : التسليم عليهم أفضل من تركه . وقد جاء في الصحيحين عن سيار قال : كنت أمشي مع ثابت فتر بصبيان فسلم عليهم ، وذكر أنه كان يمشي مع أنس فتر بصبيان فسلم عليهم ، وحدث أنه كان يمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتر بصبيان فسلم عليهم . لفظ مسلم . وهذا من خلقه العظيم صلى الله عليه وسلم ، وفيه تدريب للصغير وحض على تعليم السن ورياضة لهم على آداب الشريعة فيه ؛ فلتتقند .

وأما التسليم على النساء فإثر إلا على الشابات ممن خوف الفتنة من مكالمتهن بركة شيطان أو خائنة قَيْن ، وأما المحاللات والعُجُزَ فَحَسَنَ للأمن فيما ذكرناه ؛ هذا قول عطاء وقتادة ، وإليه ذهب مالك وطائفة من العلماء . ومنعه الكوفيون إذا لم يكن منهن ذوات محرم وقالوا : لما سقط عن النساء الأذان والإقامة والجهل بالقراءة في الصلاة سقط عنهن رد السلام فلا سلم عليهن . والصحيح الأول لما أخرجه البخاري عن سهل بن سعد قال : كنا نفرح يوم الجمعة . قلت ولم ؟ قال : كانت لنا عجوز ترسل إلى بضاعة - قال ابن مسleme : تحل بالمدينة - فتأخذ من أصول السلق قطرحه في القدر وتُزَكِّرُ حَبَاتٍ من شعير ، فإذا صلبنا الجمعة انصرفنا فسلم عليها فتقدمه إلينا فنفرح من أجله ، وما كنا نقبل ولا تنفدى إلا بعد الجمعة . فذكر أن أي تطحن ؛ قاله القتيبي .

(١) المجالة : المرة المسنة .

(٢) السلق (بكرالبن) : بنت له ورق طوال وأصل ذاهب في الأرض وروحه وحسن يطبخ .



الثامنة — والسنة في السلام والجواب الجهر؛ ولا تكفي الإشارة بالإصبع والكف عند الشافعي، وعندنا تكفي إذا كان على بُعد؛ روى ابن وهب عن ابن مسعود قال: «السلام اسم من أسماء الله عز وجل وضمه الله في الأرض فأقنوه بينكم؛ فإن الرجل إذا سلم على القوم فرددوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم، فإن لم يردوا عليه رد عليه من هو خير منهم وأطيب.» وروى الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث قال: «إذا سلم الرجل على القوم كان له فضل درجة، فإن لم يردوا عليه ردت عليه الملائكة ولنتهم.» فإذا رد المسلم أسمع جوابه لأنه إذا لم يسمع المسلم لم يكن جوابا له؛ ألا ترى أن المسلم إذا سلم بسلام لم يسمعه المسلم عليه لم يكن ذلك منه سلاما، فكذلك إذا أجاب يجواب لم يسمع منه فليس يجواب. وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا سلمتم فاسمعوا وإذا ردتم فاستمعوا وإذا قدمت فاقعدوا بالأمانة ولا يرفعن بعضكم حديث بعض.» قال ابن وهب: وأخبرني أسامة بن زيد عن نافع قال: كنت أسير رجلا من فقهاء الشام يقال له عبد الله ذكرنا فحبستني دابتي تبول، ثم أدركته ولم أسلم عليه؛ فقال: «ألا تسلم؟» فقلت: «إنما كنت مملكا أقفا؛ فقال: «وإن صح؟» لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسايرون فيفترق بينهم الشجر فإذا التقوا سلم بعضهم على بعض.»

التاسعة — وأما الكافر فحكم الرد عليه أن يقال له: «وطيكم.» قال ابن عباس وغيره: المراد بالآية: «وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ» فإذا كانت من مؤمن «حَيَّوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا» وإن كانت من كافر فرددوا على ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال لهم «وطيكم.» وقال عطية: الآية في المؤمنين خاصة، ومن سلم من غيرهم قيل له: «عليك؛ كما جاء في الحديث.»

قلت — يتجدد إنبات الورود إسقاطها في صحيح مسلم «عليك» بنحو ما وهى الرواية الواضحة المعنى، وأما مع إنبات الورود فيها إشكال؛ لأن الورود العاطفة تقتضي التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيا دعوا به علينا من الموت أو من سامة ديننا؛ فاختلف المتأولون لذلك على أقوال؛ أولاهما أن يقال: إن الواو على بابها من العطف، غير أنها تجاب عليهم ولا

يُجابون عليها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « وقيل : هي زائلة . وقيل للاستئناف .  
والأولى أولى . ورواية حذف الواو أحسنُ معنى وإثباتها أصحُّ رواية وأشهر ، وعليها من  
العلماء الأكثر .

العاشرة - واختلف في رد السلام على أهل النعمة هل هو واجب كالرد على المسلمين ؛  
وإليه ذهب ابن عباس والشَّعْبِيُّ وقتادة تمسُّكاً بعموم الآية وبالأمر بالرد عليهم في صحيح  
السنن . ونهب مالك فيما روى عنه أنهب وابن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب ؛ فإن  
رددت فقل : عليك . واختار ابن طائوس أن يقول في الرد عليهم : « علك السلام ، أى ارتفع  
عنك . واختار بعض علمائنا السلام ( بكسر السين ) يعنى به المجاورة . وقول مالك وغيره في ذلك  
كأن شاف كما جاء في الحديث ، وسيأتي في سورة « مريم » القول في استدائهم بالسلام  
عند قوله تعالى إخباراً عن إبراهيم في قوله لإبيه « سلام عليك » . وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة  
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولاً  
أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم » . وهذا يقتضى إفتاء بين المسلمين  
دون المشركين .

الحادية عشرة - ولا يُسَلَّمُ على المُصَلَّى فإن سَلَّمَ عليه فهو بالخيار إن شاء رد بالإشارة  
بإصبعه وإن شاء أمسك حتى يفرغ من الصلاة ثم يرد . ولا ينبغي أن يُسَلَّمَ على من يقضى  
 حاجته فإن قيل لم يلزمه أن يرد عليه . دخل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذه  
الحال فقال له : « إذا وجدتني أو رأيتني على هذه الحال فلا تُسَلِّمْ عليّ فإنك إن سلمت عليّ  
لم أرد عليك » . ولا يُسَلَّمُ على من قرأ القرآن فيقطع عليه قراءته ، وهو بالخيار إن شاء رد وإن  
شاء أمسك حتى يفرغ ثم يرد . ولا يُسَلَّمُ على من دخل الحمام وهو كاشف العورة أو كان  
مشغولاً بما له دَخَلَ بالحمام ، ومن كان بخلاف ذلك سَلَّمَ عليه .

الشَّائِبَةُ عَشْرَةٌ ۖ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُنْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظًا﴾ . معناه حفظه .  
 وقيل : كافياً ؛ من قولهم : أَحْبَبْتُ كَذَا أَيْ كَفَانِي ، ومثله حَبِيبُ اللَّهِ . وقال قتادة : محاسباً ؛  
 كما يقول إِكْلٌ بمعنى مواكل . وقيل : هو فعل من الحساب ، وحُصِنَتْ هذه الصفة هنا ؛  
 لأن معنى الآية في أن يزيد الإنسان أو ينقص أو يوق قدر ما ينبغي به . روى النَّسَائِيُّ عن  
 عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ : كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَخَّاءٌ رَجُلٌ فَسَمَّاهُ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ .  
 فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : «عَشْرٌ» ثُمَّ جَلَسَ ؛ وَجَاءَ آخَرُ فَلَمَّ فَقَالَ :  
 السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : «عَشْرُونَ» ثُمَّ جَلَسَ ؛  
 وَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ :  
 «ثَلَاثُونَ» . وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْخَبَرُ مُفَسَّرًا وَهُوَ أَنَّ مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ  
 لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَإِنْ قَالَ السَّلَامَ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ كَتَبَ لَهُ عَشْرُونَ حَسَنَةً . فَإِنْ قَالَ  
 السَّلَامَ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ كَتَبَ لَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً ، وَكَذَلِكَ لِمَنْ رَدَّ مِنَ الْأَجْرِ . وَانَّهُ أَمَلَمَ .  
 قَوْلُهُ تَعَالَى : اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ  
 فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ابتداءً وخبر . وَالْإِلَهِامُ فِي قَوْلِهِ ﴿يُجَمِّعُكُمْ﴾  
 لَامُ الْقَسَمِ ؛ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ شَكَّوْا فِي بَيِّنَاتِ اللَّهِ تَعَالَى بِنَفْسِهِ . وَكُلُّ لَامٍ بِسَدَمَانُونَ  
 مُشْتَدَّةٌ فَهِيَ لَامُ الْقَسَمِ . وَمَعْنَاهُ فِي الْمَوْتِ وَتَحْتَ الْأَرْضِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ  
 «إِلَى» صِلَةٌ فِي الْكَلَامِ ، مَعْنَاهُ لِيَجْمَعَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَتَبَيَّنَتْ الْقِيَامَةُ قِيَامَةً لِأَنَّ النَّاسَ  
 يَقُومُونَ فِيهِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ جَلَّ وَعَزَّ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : «أَلَا يَنْظُرُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ  
 عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» . وَقِيلَ : سُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لِأَنَّ النَّاسَ يَقُومُونَ مِنْ  
 قُبُورِهِمْ إِلَيْهَا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : «يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا» . وَأَصْلُ الْقِيَامَةِ الْوَاوُ .  
 ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ نَصَبَ عَلَى الْبَيَانِ ؛ وَالْمَعْنَى لَا أَحَدٌ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ . وَقَرَأَ حَزْرَةُ

والكباية» ومن أزدق» بالزاي . الباقون : بالصاد ، وأصله الصاد إلا أن لقرب خرجها جعل مكانها زاي .

قوله تعالى : **قَالُوا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ مَا كَسَبُوا**  
**أَتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا** ﴿١٨٨﴾

قوله تعالى : **(قَالُوا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ)** «فتين» أى فرقين مختلفين . روى مسلم عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد فرجع ناس من كان معه ، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقين ؛ فقال بعضهم : تقتلهم . وقال بعضهم لا ؛ فزلت « **قَالُوا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ** » . وأخرجه الترمذى وزاد « وقال : » إنها طيبة تنفى الخبيث كما تنفى النار خبث الحديد « قال : حديث حسن صحيح » . وقال البخارى : « إنها طيبة تنفى الخبيث كما تنفى النار خبث القضة » . والمذنبى بالمنافقين هنا عبد الله ابن أبي وأصحابه الذين خذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ورجعوا بسكرهم بعد أن خرجوا ؛ كما تقدم فى « آل عمران » . وقال ابن عباس : هم قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة ، قال الضحاك : وقالوا إن ظهر محمد صلى الله عليه وسلم فقد عرفنا ، وإن طهر فميت فهو أحب إلينا . فصار المسلمون فيهم فتين قوم يتولونهم وقوم يتبرمون منهم ؛ فقال الله عز وجل « **قَالُوا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ** » . وذكر أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أنها نزلت فى قوم جاءوا إلى المدينة وأظهروا الإسلام فأصابهم وباء المدينة ومحاها ؛ فأركسوا غررًا من المدينة ، فاستقبلهم نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما لكم رجعم ؟ قالوا : أصابنا وباء المدينة فأجوناها ؛ فقالوا : ما لكم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ؟ فقال بعضهم : نأفوا . وقال بعضهم : لم ينافقوا ، هم مسلمون ؛ فأنزل الله عز وجل « **لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ مَا كَسَبُوا** » الآية . حتى جاءوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ، ثم أرتقوا بعد ذلك ، فأسأذنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة لئلا يأتوا (١) اجتريت اليد : إذا كرمت المقام فيها وإن كنت فى نعمة .

بعضائهم لم يتحروا فيها ، فاختلف فيهم المؤمنون فقال يقول : هم منافقون ، وقال يقول : هم مؤمنون ، فيين الله تعالى ففانهم رآزل جذة الآفة وأسر يقتلهم الله تعالى .

قلت : وهذان القولان يعضدُهما سياق آثر الآية من قوله تعالى : « حتى يهاجروا » ، والأول أصح قولا ، وهو اختيار البخاري ومسلم والترمذي . و « قَتَيْن » نصب على الحال ؛ كما يقال : مالك قائما ؛ عن الأنخس . وقال الكوفيون : هو خير . « ما لكم » تكبر كان وظنفت ، وأجازوا إدخال الألف واللام فيه . وحكى الفراء « أركسهم » أى ردهم إلى الكفر ونكسهم ؛ وقال التضر بن شميل والكسائي والتكس والكس قلب الشيء على رأسه ، أورد أوله على آخره ، والمركوس المنكوس . وفى قراءة عبد الله وأبى رضى الله عنهما « واهه رَكْسهم » . وقال ابن رَوَاحَة : هم أركسوا فى فتنة مظلمة كسواد الليل يتلوها قَتْن . أى نكسوا . وارتكس فلان فى أمر كان نجما منه . والرُّكُوسَة قوم [لم دين] بين التصارى والعابشين . والراكس الثور وسط اليبدر واليران حواله حين الدباس . (أُرِيدُونَ أَنْ يُهْدُوا مِنْ أَمَلِ اللَّهِ) أى ترشده إلى الثواب بأن يحكم لهم بحكم المؤمنين . (قُلْ نَجِدْ لَهُ سَبِيلًا) أى طريقا إلى الهدى والرشد وطلب الحق . وفى هذا رد على القدرية وغيرهم القائلين بخلق هدام وقد تقدم .

قوله تعالى : وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوا حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّتْ لَكُمْ قُوَّةٌ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿١٨٩﴾

(١) زيادة عن كتب الفقه . (٢) اليدر (يزن خير) : الموضع الذى يداس فيه الحمار .

(٢) رابع : ١ ص ١٤٩ طبع ثانية أرنالفة .



قلت : حمل بعض العلماء بمعنى يتقربون على الأمان ؛ أى أن المتسبب إلى أهل الأمان آمن إذا أمن الكل منهم ، لأعلى معنى النسيب الذى هو معنى القرابة . واختلف فى هؤلاء الذين كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ميثاق ؛ فقيل : بنو مدح . عن الحسن : كان بينهم وبين قريش عهد ، وكان بين قريش وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد . وقال عكرمة : نزلت فى هلال بن عويمر وسراقة بن جحشم ونزيرة بن عامر بن عبد مناف كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد . وقيل : خزاعة . وقال الضحاك عن ابن عباس : أنه أراد بالقوم الذين بينكم وبينهم ميثاق بنى بكر بن زيد بن مناة ، كانوا فى الصلح والمدينة .  
الثالثة - فى هذه الآية دليل على إثبات المودعة بين أهل الحرب وأهل الإسلام إذا كان فى المودعة مصلحة للمسلمين ، على ما يأتى بيانه فى « الأنفال وبراءة » إن شاء الله تعالى .  
الرابعة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَكُمْ حَيْصَرٌ صُدُورُهُمْ ﴾ أى ضاقت . وقال زيد : أسهلت وأتصبت يكذع مئقية . جرداء تحصر دونها جرداءها<sup>(١)</sup>  
أى تضيق صدورهم من طول هذه النخلة ؛ ومنه الحصر فى القول وهو ضيق الكلام على المتكلم . والحصر للكموم للسر ؛ قال جرير :

ولقد تَسَقَطَنِي الوشاة فصادقوا • حَيْصَرًا يَمُرُّكُ يَا أُمِّ حَنِيتَا

ومعنى « حَيْصَرَت » قد حَيْصَرَت فاضمرت قد ؛ قاله الفراء . وهو حال من المضمر المرفوع فى جاءوكم ؛ كما تقول : جاء فلان ذهب عقله ، أى قد ذهب عقله . وقيل : هو خبر بعد خبر ؛ قاله الزجاج . أى جاءوكم ثم أخبر فقال : « حَيْصَرَت صدورهم » فعلى هذا يكون « حَيْصَرَت » بدلا من جاءوكم . وقيل : « حَيْصَرَت » فى موضع خفض على التثنية لقوم . وفى حَرْفِ آتَى ، إلا الذين يَصْلُون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق حَيْصَرَت صدورهم ، ليس فيه « أو جاءوكم » . وقيل : تقديره أو جاءوكم رجلا أو قوما حَيْصَرَت صدورهم ؛ فهى صفة موصوف منصوب على الحال . وقرأ الحسى « أو جاءوكم حَيْصَرَةً صدورهم » نصب على

(١) جَاءَ (جمع جَاءَ) وهو الذى يصرم القوم ويجهل .

(٢) كَذَا فى الأصول وتفسير ابن عطية . والحق فى البحر والهم المحزون والكتاف : « جاءكم بغير أرو » .

الجال ، ويخون زعمه على الإبتداء والخبر بها ، وحكي : « أن جايوك حصرات صدورهم » ، ويجوز  
الرفع . وقال محمد بن يزيد : « حصرت صدورهم » هوداه عليهم ، كما قول : لمن الله  
الكافر ، وقاله المبرد : وضعفه بعض المفسرين وقال : هذا يقتضى ألا يقاتلوا قومهم ؛ وذلك  
فإفساد لأهم كفار وقومهم كفار . وأجيب بأن منشاء صحيح ؛ فيكون عدم القتال في حق  
المسلمين تمجيزاً لهم ، وفي حق قومهم تحقيراً لهم . وقيل : « أو » بمعنى الواو ؛ كأنه يقول :  
إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق وجاؤكم ضيقة صدورهم عن قتالكم والقتال معكم فكروا قتال  
الفرقيين . ويحتمل أن يكونوا معاصدين على ذلك فهو نوع من المهدد ، أو قالوا أنسلم  
ولا تقاتل ؛ فيحتمل أن يقبل ذلك منهم في أول الإسلام حتى يفتح الله قلوبهم للتقوى ويشرحها  
للإسلام . والأول أظهر . والله أعلم . ( أو يقاتلوا ) في موضع نصب ؛ أى عن أن يقاتلوك .  
الخامسة - قوله تعالى : ( وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتُلُوكُمْ ) تسلط الله تعالى المشركين  
على المؤمنين هو بأن يقدروهم على ذلك ويقوهم إما عقوبة وإما إذاعة المنكر وظهور  
المعاصي ، وإما ابتلاء واختبار ، كما قال تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ  
وَيَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » ، وإما تمحيصاً للذنوب كما قال تعالى : « وَيَبْحِصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » .  
وقد أن يفعل ما يشاء ويسلط من يشاء على من يشاء إذا شاء . ووجه النظم والاتصال بما قبل  
أى أقول للمنافقين الذين اختلفتم فيهم إلا أن يسابروا ، وإلا أن يتصلوا بمن بينكم وبينهم  
ميثاق فيدخلون فيما دخلوا فيه فلهم حكمهم ، وإلا الذين جاؤكم قد حصرت صدورهم عن أن  
يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم فدخلوا فيكم لاقتلهم .

قوله تعالى : سَتَجِدُونَ ءَآخِرِينَ يَرِيدُونَ أَن يُامِنُوكُمْ وَيَآمِنُوا بِقَوْمِهِمْ  
كُلُّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ  
وَيَكْفُرُوا بِأَيْدِيهِمْ فَنَحْدُوكُمْ وَآفَكُواكُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكَ جَعَلْنَا  
لَكُم عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١١﴾



قوله تعالى : ﴿ وَتَجِدُونَ أَعْرَابًا يَبْتَغُونَ الرِّبَا وَالْخَالِصَاتِ مِنْكُمْ وَيَأْمُرُوا قَوْمَهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُكَلِّمُوا الْقَوْمَ فِي نَفَاهٍ ﴾  
 الأولى : قال قتادة : نزلت في قوم من تهامة طلبوا الأمان من النبي صلى الله عليه وسلم ليأمنوا عنده وعند قومه . مجاهد : هي في قوم من أهل مكة . وقال السدي : نزلت في قوم ابن مسعود كان يأمن المسلمين والمشركين . وقال الحسن : هذا في قوم من المنافقين .  
 وقيل : نزلت في أسد وعظفان قدموا المدينة فأسلموا ثم رجعوا إلى ديارهم فأنظروا الكفر .  
 قوله تعالى : ﴿ كَلَّا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش « رُدُّوا » بكسر الراء ؛ لأن الأصل « رَدُّوا » فأدغم وقلب الكسرة على الزلّة . « إِلَى الْفِتْنَةِ » أي الكفر « أُرْكَسُوا فِيهَا » . وقيل : أي مستجدون من يظهر لكم الصلح ليأمنواكم ، وإذا سحقت لهم فتنة كان مع أهلها عليكم . ومعنى « أُرْكَسُوا فِيهَا » أي اتسكوا على عهدهم الذين طاهدوا . وقيل : أي إذا دُعُوا إلى الشرك رجعوا وعدوا إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَنَنْتَهِزُكُمْ عَنْهُ وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ حِكْمٌ ﴾  
 قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ﴾

فيه عشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ﴾ هذه آية من أتمها الأحكام ، والمعنى ما يذنب المؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، قوله « وما كان » ليس على النفي وإنما هو على التحريم والنهي ، كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » ولو كانت على النفي لما وجد مؤمن قتل مؤمناً قط ؛ لأن ما نهاه الله لا يجوز وجوده ، كقوله

قَتِيلًا : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْتِغُوا شَجَرَهَا » . فلا يقدر العباد أن يبتغوا شجرها أبدا . وقال قتادة : المعنى ما كان له ذلك في عهد الله . وقيل : ما كان له ذلك فيما سلف ، كما ليس له الآن ذلك بوجه ، ثم استثنى استثناء مقطعا ليس من الأول وهو الذي يكون فيه « إلا » بمعنى « لكن » والتقدير ما كان له أن يقتله ألبتة لكن إن قتله خطأ فعليه كفا ، هذا قول سيويه والزجاج رحمهما الله . ومن الاستثناء المنقطع قوله تعالى : « مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعَ النَّفْسَ » . وقال النابغة :

وقفت فيها أصيلاً<sup>(١)</sup> أسألها \* عيت جواباً وما بالترجيع من أحد

إلا الأورى<sup>(٢)</sup> لآيا ما أينسها \* والثوى كالحوض بالظلمة الجليل

فلما لم تكن « الأورى » من جنس أحد حقيقة لم تدخل في لفظه . ومثله قول الآخر :

أسى سقام<sup>(٣)</sup> خلا لا أينس به \* إلا السباع ومر الرمح بالفرق

وقال آخر :

وبسيدة ليس بها أينس \* إلا اليعاقير وإلا العيس<sup>(٤)</sup>

وقال آخر :

وبعض الرجال نخلة لا جنى لها \* ولا ظل إلا أن تُمد من النخل

أنشده سيويه ، ومثله كثير ، ومن أبدعه قول جرير :

من البيض لم تظن بيديا ولم تظا \* على الأرض إلا ذيل منط مرسل<sup>(٥)</sup>

(١) أصيلاً : فصر أصلاً جمع الأصيل وهو وقت ما بعد الصرا إلى المغرب . (٢) الأورى : جمع أورى ، وهو جبل تمتد به الدابة في عيسها . الأورى : الشدة . والثوى : حفرة تجعل حول البيت والنبهة فلا يصل إليها الماء . والمظلمة : الأرض التي حفر فيها حوض لم تستنق ذلك ، يعني أرضاً مروها بها في برية فتعوضوا حوضاً بغيرها فيه إلهم وليست بموضع نحو يمين . والجبل : الأرض التي يصعب حفرها . (٣) السقام : البيت لأبي خراش المذلل . وسقام : واد بالجزا . الفرق ( بالسر يك وبالفتح والسكون ) : شجر يدخ به . (٤) اليعاقير : الغباء ، واحدها يعقور . والعيس : يقر الوحش لياضها ، والعيس اليابس وأصله في الإبل فاستأده فيقر . (٥) المرسل : ضرب من يرود إلى منى مرحلة لأن عليه تصاور رجل .

دكانه <sup>١</sup> قال : لم تَطْعَمْ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا لَنْ يَطْعَمَ ذِي الْبُرْدِ . وَبَرَزَتِ الْآيَةُ بِسَبَبِ قَبْلِ حَيَاتِنِ  
 ابْنِ أَبِي رَيْمَةَ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ الْعَامِرِيِّ <sup>(١)</sup> لِحَنَةٍ كَانَتْ بَيْنَهُمَا ، فَلَمَّا هَاجَرَا الْحَارِثَ  
 مُسْلِمًا قَتَلَهُ حَيَّاشٌ قَتَلَهُ وَلَمْ يَشْرَ بِإِسْلَامِهِ ، فَلَمَّا أُخْبِرَاتِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :  
 يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ الْحَارِثِ مَا قَدْ عَلِمْتُ ، وَلَمْ أَشْرَ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى قَتَلْتُهُ ،  
 فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ . وَقِيلَ : هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ ، أَيْ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا وَلَا يَقْتَصِفَ مِنْهُ  
 إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَطَاً ، فَلَا يَقْتَصِفُ مِنْهُ ، وَلَكِنْ فِيهِ كَذَا وَكَذَا . وَوَجْهٌ آخَرُ هُوَ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا لَا خَطَاً إِذْ هُوَ  
 اسْتَقَرَّ وَوُجِدَ ، كَأَنَّهُ قَالَ : وَمَا وَجِدَ وَمَا تَقَرَّرَ وَمَا سَاحَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً إِذْ هُوَ  
 مَقْلُوبٌ فِيهِ أَحْيَانًا ، فَيَجِيءُ الِاسْتِثْنَاءُ عَلَى هَذَيْنِ التَّائِيلَيْنِ غَيْرِ مُتَّصِلٍ . وَتَنْتَضِعُ الْآيَةُ عَلَى هَذَا  
 إِعْظَامُ التَّعَمُّدِ وَبِشَاعَةِ شَأْنِهِ ، كَمَا تَقُولُ : مَا كَانَ لَكَ يَا فُلَانُ أَنْ تُكَلِّمَ هَذَا إِلَّا نَاسِيًا ؟ إِعْظَامًا  
 لِلْعَمْدِ وَالْقَصْدِ مَعَ حُظْرِ الْكَلَامِ بِهِ أَلْبَتَى . وَقِيلَ : الْمُنَى وَلَا خَطَاً . قَالَ النَّاسُ : وَلَا يَحْزُزُ  
 أَنْ تَكُونَ « إِلَّا » بِمَعْنَى الْوَاوِ ، وَلَا يَعْرِفُ ذَلِكَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَلَا يَصِحُّ فِي الْمُنَى ، لِأَنَّ الْخَطَا  
 لَا يَحْظَرُ . وَلَا يُمْكِنُ مِنْ دَلِيلِ خُطْبَاهُ جَوَازَ قَتْلِ الْكَافِرِ الْمُسْلِمِ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ مُحَرَّمُ الدِّمِّ ، وَإِنَّمَا  
 خَصَّ الْمُؤْمِنَ بِالذِّكْرِ تَأْكِيدًا بِجَنَاحِهِ وَأَخُوَّتِهِ وَشَفَقَتِهِ وَعَقِيدَتِهِ . وَقَرَأَ الْأَمْشَشُ « خَطَا »  
 مَعْدُودًا فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثِ . وَوَجْهٌ الْخَطَا كَثِيرٌ لِأَنَّهُ يَرْطَبُهَا عَدَمُ الْقَصْدِ ، مِثْلُ أَنْ يَرَى  
 صَفُوفَ الْمُشْرِكِينَ فَيَصِيبُ مُسْلِمًا . أَوْ يَسِيءُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ مِنْ زَانٍ أَوْ عَارِبٍ  
 أَوْ مَرْتَدٍّ فَيُطْلِبُهُ لِيَقْتُلَهُ فَيَقِي فِيهِ فُظْنَهُ هُوَ قَتْلُهُ فَذَلِكَ خَطَاً . أَوْ يَرَى إِلَى غَرَضٍ فَيَصِيبُ  
 إِنْسَانًا أَوْ مَا جَرَى مِجْرَاهُ ، وَهَذَا عَمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ . وَالْخَطَا أَمْسُ مِنْ أَخْطَا خَطَاً وَإِخْطَا إِذَا لَمْ  
 يَصْنَعْ عَنْ تَعَمُّدٍ ، فَالْخَطَا الْأَمْسُ يَقُومُ بِمَقَامِ الْإِخْطَا . وَيَقَالُ لِمَنْ أَرَادَ شَيْئًا فَعَمِلَ فِيهِ :  
 أَخْطَا ، وَلَمَنْ فَعَلَ غَيْرَ الصَّوَابِ : أَخْطَا . قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ  
 أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً » إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى « وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ » فَحُكِمَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ

(١) يُقَالُ فِيهِ : الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ ، كَمَا يُقَالُ : ابْنُ أُنَيْسَةَ . رَاجِعُ تَرْجُمَتِهِ فِي تَجَلُّبِ « الْإِمَابَةِ بِأَسْمَاءِ النَّسَابَةِ » .

(٢) الْحَنَةُ وَالْإِحْسَنَةُ : الْحَقْدُ .

فِي الْمُؤْمِنِ يَقْتُلُ خَطَايَا بَالِدِيَّةٍ ، وَتَبَتِ السَّنَةُ الثَّانِيَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ ،  
وَأَجْعُ أَهْلَ الْعِلْمِ عَلَى الْقَوْلِ بِهَذِهِ .

الثانية - ذهب داود إلى القصاص بين الحر والعبد في النفس ، وفي كل ما يستطاع  
القصاص فيه من الأعضاء ؛ تَمْسُكًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ »  
إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ » ، وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الْمَسْلُوكُونَ شُكَاكُ دِمَاؤِهِمْ »  
فَلَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ حُرٍّ وَعَبْدٍ ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ أَبِي لَيْلَى . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ : لَا قِصَاصَ بَيْنَ  
الْأَحْرَارِ وَالْعِبِيدِ إِلَّا فِي النَّفْسِ فَيَقْتُلُ الْحُرُّ بِالْعَبْدِ ، كَمَا يَقْتُلُ الْعَبْدُ بِالْحُرِّ ، وَلَا قِصَاصَ بَيْنَهُمَا  
فِي شَيْءٍ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْأَعْضَاءِ . وَأَجْعُ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ  
يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً » أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ الْعَبْدُ ، وَإِنَّمَا أُرِيدَ بِهِ الْأَحْرَارُ دُونَ الْعَبِيدِ ؛ فَكَذَلِكَ  
قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الْمَسْلُوكُونَ شُكَاكُ دِمَاؤِهِمْ » أُرِيدَ بِهِ الْأَحْرَارُ خَاصَّةً . وَالْجَاهُورُ عَلَى ذَلِكَ .  
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قِصَاصُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْأَحْرَارِ فَيَا دُونَ النَّفْسِ فَالنَّفْسُ أُخْرَى بِذَلِكَ ؛ وَقَدْ مَضَى  
هَذَا فِي « الْبَقَرَةِ » .

الثالثة - قَوْلُهُ تَعَالَى : ( فَتَحْرِيرُ ذِمَّةٍ مُؤْمِنَةٍ ) أَيُ فَعْلِيَّةٌ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ؛ هَذِهِ  
الْكَفَّارَةُ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ وَالظَّهَارِ أَيْضًا عَلَى مَا يَأْتِي . وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ  
فِيَا يَمْجِزُ مِنْهَا ؛ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ وَالصَّخِيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ : الرِّقْبَةُ الْمُؤْمِنَةُ  
هِيَ الَّتِي حَلَّتْ وَعَقَلَتِ الْإِيمَانُ ، لَا يَمْجِزُ فِي ذَلِكَ الصَّغِيرَةُ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ فِي هَذَا الْبَابِ .  
قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَاحٍ : يَمْجِزُ الصَّغِيرُ الْمَوْلُودُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ . وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ : لَيْسَ  
وَالشَّافِعِيُّ : يَمْجِزُ كُلُّ مَنْ حُكِمَ لَهُ بِحُكْمٍ فِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ إِنْ مَاتَ وَدَفِنَهُ . وَقَالَ مَالِكٌ : وَمَنْ  
صَلَّى وَصَامَ أَحَبَّ إِلَيَّ . وَلَا يَمْجِزُ فِي قَوْلِ كَافَّةِ الْعُلَمَاءِ أَعْمَى وَلَا مُقْتَدٍ وَلَا مُقْطُوعَ الْيَدَيْنِ  
أَوْ الرِّجْلَيْنِ وَلَا أَشَاهِمَا ، وَيَمْجِزُ عِنْدَ أَكْثَرِهِمُ الْأَعْرَجُ وَالْأَعُورُ . قَالَ مَالِكٌ : إِلَّا أَنْ يَكُونَ  
عَرَبًا شَدِيدًا . وَلَا يَمْجِزُ عِنْدَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ أَنْ يَطْعَ أَحَدُ الْيَدَيْنِ أَوْ أَحَدِ

الرجلين ، ويميزئ عند أبي حنيفة وأصحابه . ولا يميزئ عند أكثرهم المجنون المطبق ، ولا يميزئ عبد مالك الذي يمين ويقيم ، ويميزئ عند الشافعي . ولا يميزئ عند مالك عند مالك والأوزاعي وأصحاب الرأي ، ويميزئ في قول الشافعي وأبي ثور ، واختاره ابن المنذر . وقال مالك : لا يصح من أعتق بعضه لقوله تعالى : « فتحرير رقية » . ومن أعتق البعص لا يقال حرر رقة وإنما حرر بعضها ، واختلفوا أيضا في مناهها فقيل : أوجبت تحميصا وطهورا لذنب القاتل ، وذنبه ترك الاحتياط والتحفظ حتى هلك على يديه أمرؤ محقون الدم . وقيل : أوجبت بدلا من تعطيل حق الله تعالى في نفس القتيل ، فإنه كان له في نفسه حق وهو التتم بالحياة والتصرف فيما أحل له تصرف الأحياء ، وكان لله سبحانه فيه حق ، وهو أنه كان عبدا من عباده يجب له من أسم العبودية صغيرا كان أو كبيرا حراكا كان أو عبدا مسلما كان أو ذيبا ما يميز به عن البهائم والدواب ، ويرتج مع ذلك أن يكون من نسله من يعبد الله ويطيعه ، فلم يحل قتله من أن يكون قوت منه الاسم الذي ذكرنا ، والمعنى الذي وصفنا ، فلذلك ضمن الكفارة . وأى واحد من هذين المعنيين كان ، ففيه بيان أن النص وإن وقع على القاتل خطأ فالقاتل عبدا مثله ، بل أولى بوجوب الكفارة عليه منه ، على ما يأتي بيانه ، والله أعلم .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ ) الدية ما تُعطى عوضا عن دم القتل إلى وليه . ( مُّسَلَّمَةٌ ) مدفوعة مؤداة ، ولم يعين الله في كتابه ما يُعطى في الدية وإنما في الآية إيجاب الدية مطلقا وليس فيها إيجابها على العاقلة أو على القاتل ، وإنما أخذ ذلك من السنة ، ولا شك أن إيجاب المراساة على العاقلة خلاف قياس الأصول في الغرامات وضمناء المثلقات ، والذي وجب على العاقلة لم يجب تغليظا ، ولا أن وزر القاتل عليهم ولكنه مواساة مخمضة . واعتقد أبو حنيفة أنها باعتبار النصرة فأوجبها على أهل ديوانه . وثبت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الدية مائة من الإبل ، وودأها صلى الله عليه وسلم في عبد الله بن سهل

المقول بحير لحوصة وعجدة الرخن؛ فكان ذلك بينا على لسان نبي عليه السلام  
 يُجمل كتابه . وأجمع أهل العلم على أن على أهل الإبل مائة من الإبل ، وأختلفوا فيما يجب  
 على غير أهل الإبل ؛ فقالت طائفة : على أهل الذهب ألف دينار ، وهم أهل الشام ومصر  
 والمغرب ؛ هذا قول مالك وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي والشافعي في أحد قوليه في القديم .  
 وروى هذا عن عمرو عروة بن الزبير وقتادة . وأما أهل الورق فأتوا عشر ألف درهم ،  
 وهم أهل العراق وفارس وخراسان ؛ هذا مذهب مالك على ما بلغه عن عمر أنه قوم الدية على  
 أهل القرى بفعل على أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم .  
 وقال المزني : قال الشافعي الدية الإبل ؛ فإن أعوزت بقيمتها بالدرهم والدينار على ما قومه  
 عمر ألف دينار على أهل الذهب وأتوا عشر ألف درهم على أهل الورق . وقال أبو حنيفة  
 وأصحابه والثوري : الدية من الورق عشرة آلاف درهم . رواه الشعبي عن عبيدة عن عمر  
 أنه جعل الدية على أهل الذهب ألف دينار ، وعلى أهل الورق عشرة آلاف درهم ، وعلى أهل  
 البقر مائتي بقرة ، وعلى أهل الشاة ألف شاة ، وعلى أهل الإبل ، وعلى أهل  
 الحلال مائتي حلة . قال أبو عمر : في هذا الحديث ما يدل على أن الدينارين والدرهم صنف  
 من أصناف الدية لا على وجه البدل والقيمة ؛ وهو الظاهر من الحديث عن عثمان وعلى وابن  
 عباس . وخالف أبو حنيفة مارواه عمر في البقر والشاة والحل . وبه قال عطاء وطاوس  
 وطائفة من التابعين ، وهو قول الفقهاء السبعة المدنيين . قال ابن المنذر : وقالت طائفة دية  
 الحر المسلم مائة من الإبل لادية غيرها ، كما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا قول  
 الشافعي وبه قال طاوس . قال ابن المنذر : دية الحر المسلم مائة من الإبل في كل زمان ، كما  
 فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم . واختلفت الروايات عن عمر في أعداد الدرهم ، وما منها شيء  
 يصح عنه لأنها مراسيل ، وقد عرفتك مذهب الشافعي وبه قول .

(١) حرصة وبحيمة (بضم قفتح ثم باء مشددة مكسورة، ونخفة ساكنة والأشهر للتشديد) .

الخامسة - واختلف الفقهاء في أسنان دية الإبل، فروى أبو داود من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى أن من قُتل خطأ فديته مائة من الإبل : ثلاثون بنت مخاض ، وثلاثون بنت لبون ، وثلاثون حقة ، وعشرين لبون . قال الخطابي : هذا الحديث لا أعرف أحدا قال به من الفقهاء ، وإنما قال أكثر العلماء : دية الخطأ أحماس . كنا قال أصحاب الرأي والتوري ، وكذلك مالك وابن سيرين وأحمد بن حنبل إلا أنهم اختلفوا في الأصناف ؛ فقال أصحاب الرأي وأحمد بن حنبل بنو مخاض ، وحنس بنات مخاض ، وحنس بنات لبون ، وحنس حقا ، وحنس جذاع . وروى هذا القول عن ابن مسعود . وقال مالك والشافعي : خمس حقا ، وخمس جذاع ، وخمس بنات لبون ، وحنس بنات مخاض ، وحنس بنو لبون . وصحى هذا القول عن عمر بن عبد العزيز وسليمان بن يسار والزهرى وربيعة واليث بن سعد . قال الخطابي : ولاصحاب الرأي فيه أثر ، إلا أن راويه عبد الله بن خشف بن مالك وهو مجهول لا يعرف إلا بهذا الحديث . ومثل الشافعي عن القول به لما ذكرنا من العلة في راويه ؛ ولأن فيه تنافي مخاض ولا مدخل لبني مخاض في شيء من أسنان الصدقات . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة القسامة أنه ودَى قَبِيلَ خَيْبَرِ مائة من إبل الصدقة وليس في أسنان الصدقة ابن مخاض . قال أبو عمر : وقد روى زيد بن جبير عن خشف بن مالك عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل الدية في الخطأ أحماسا ، إلا أن هذا لم يرفعه إلا خشف بن مالك الكوفي الطائي وهو مجهول ؛ لأنه لم يروه عنه إلا زيد بن جبير بن حرميل الطائي من بني جشم ابن معاوية أحد ثقات الكوفيين .

قلت : قد ذكر الدارقطني في مسنده حديث خشف بن مالك من رواية حجاج بن أرقطة عن زيد بن جبير عن خشف بن مالك عن عبد الله بن مسعود قال : قضى رسول الله صلى

(١) في شرح الرضا الجاني : « قال محمد بن عيسى الأعمش في المزية : بنت مخاض وهي التي تتبع أمها وقد حلت أمها . وبنت لبون وهي التي تتبع أمها أيضا وهي ترضع . والحقة وهي التي تستحق الحمل . وأما البقرة من الإبل فهي ما كان من فرق أربعة وعشرين شهرا » .

الله عليه وسلم في دية الخطأ مائة من الإبل ؛ منها عشرون حقة ، وعشرون جعة ، وعشرون  
بنات لبون ، وعشرون بنت مخاض ، وعشرون بنت غاض . قال الدارقطني : « هذا حديث  
ضعيف غير ثابت عند أهل المعرفة بالحديث من وجوه عدة ؛ أحدها أنه يخالف لما رواه  
أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه بالسند الصحيح عنه ، الذي لا مطعن فيه ولا تأويل  
عليه ، وأبو عبيدة أعلم بحديث أبيه وبمذهبه [وقتيه] من خشف بن مالك ونظرائه ،  
وعبد الله بن مسعود أتى لربه وأخضع كل دينه من أن يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أنه يقضى بقضاء وقته هو بخلافه ؛ هذا لا يتوهم مثله على عبد الله بن مسعود وهو القائل  
في مسألة وردت عليه لم يسمع فيها من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء ولم يبلغه عنه فيها  
قول : أقول فيها برأي فإن يكن صوابا فمن الله ورسوله ، وأن يكن خطأ فني ؛ ثم بلغه بعد  
[ذاك] أن قتيه فيها وافق قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثلها ، فراه أصحابه عند ذلك  
فرح فرحا لم يروه فرح مثله ، من موافقة قتيه قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن كانت هذه  
صفته وهذا حاله فكيف يصح عنه أن يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [شيئا] ويخالفه .  
ووجه آخر - وهو أن الخبر المرفوع الذي فيه ذكر بن الخاض لانه رواه إلا خشف بن  
مالك عن ابن مسعود وهو رجل مجهول لم يروه عنه إلا زيد بن جبير بن حرمل الجشمي ،  
وأهل العلم بالحديث لا يحتاجون بخبر ينفرد بروايته رجل غير معروف ، وإنما يثبت العلم عندهم  
بالخبر إذا كان رواه عدلا مشهورا ، أو رجلا قد ارتفع عنه اسم الجهالة ، وارتفع اسم  
الجهالة عنه أن يروى عنه رجلان فصاعدا ؛ فإذا كانت هذه صفته ارتفع عنه حيث اسم  
الجهالة ، وصار حيث مرفوعا . فاما من لم يروه عنه إلا رجل واحد وانفرد بخبر وجب التوقف عن  
خبره ذلك حتى يوافقه عليه غيره . والله أعلم . ووجه آخر - وهو أن [حديث] خشف بن مالك  
لا نلم أحدا رواه عن زيد بن جبير عنه إلا الجحاج بن أرقطة ، والجحاج رجل مشهور بالتدليس  
وبأنه يحدث عن من لم يلقه ولم يسمع منه ؛ وترك الرواية عنه سفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد



القطان وميسى بن يونس بعد أن جالسوه وخبروه ، وكفالك بهم جالسا بالرجال وثيلا . وقال يحيى بن معين : حجاج بن أرطاة لا يُحْتَجُّ بحديثه . وقال عبد الله بن إدريس : سمعت الحجاج يقول لا يُثَبَّلُ الرجل حتى يدع الصلاة في الجماعة . وقال عيسى بن يونس : سمعت الحجاج يقول : أخرج إلى الصلاة يراحمي الجنائون والبقالون . وقال جرير : سمعت الحجاج يقول : أهلكني حب المال والشرف . وذكر أوجها أنمر ؛ منها أن جماعة من الثقات رَوَوْا هذا الحديث عن الحجاج بن أرطاة فاختلفوا عليه فيه . إلى غير ذلك مما يطول ذكره ؛ وفيما ذكرناه مما ذكره كفاية ودلالة على ضعف ما ذهب إليه الكوفيون في الدية ، وإن كان ابن المنذر مع جلالة قدره قد اختاره على ما يأتي . وروى حماد بن سلمة حديثا سليمان التيمي عن أبي يعقوب عن أبي عبيدة أن ابن مسعود قال : دية الخطأ خمسة أخماس عشرون حقة ، وعشرون جذعة وعشرون بنت مخاض ، وعشرون بنت لبون وعشرون بنت لبون ذكرور . قال الدارقطني : هذا إسناد حسن ورواه ثقات ، وقد روى عن طعنة عن عبد الله بن عمر هذا .

قلت : وهذا هو مذهب مالك والشافعي أن الدية خمسة . قال الخطابي : روى عن نفر من العلماء أنهم قالوا دية الخطأ أربع ؛ وهم الشعبي والنخعي والحسن البصري ، وإليه ذهب إسماعيل بن راهويه ؛ إلا أنهم قالوا : خمس وعشرون جذعة وخمس وعشرون حقة وخمس وعشرون بنت لبون وخمس وعشرون بنت مخاض . وقد روى ذلك عن علي بن أبي طالب . قال أبو عمر : أما قول مالك والشافعي فروى عن سليمان بن يسار وليس فيه عن صحابي شيء ، ولكن عليه عمل أهل المدينة . وكذلك حكى ابن جرير عن ابن شهاب .

قلت : قد ذكرنا عن ابن مسعود ما يوافق ما صار إليه مالك والشافعي . قال أبو عمر : وأستاذ الإبل في الديات لم تؤخذ قياسا ولا نظرا ، وإنما أخذت اتباعا وتقليدا ، وما أخذ من جهة الأثر فلا مدخل فيه للنظر ؛ فكلُّ قول بما قد صحَّ عنه من سلفه ؛ رضى الله عنهم .

قلت : وأما ما حكاه الخطابي من أنه لا يعلم من قال بحديث جمر بن شعيب فقد حكاه ابن المنذر عن طاوس ومجاهد، إلا أن مجاهدا جعل مكان بنت خاض ثلاثين جذعة. قال ابن المنذر : وبالقول الأول أقول : يريد قول عبد الله وأصحاب الرأي الذي وضعه الثارقي والخطابي . وابن عبد البر قال : لأنه الأقل مما قيل ، وبحديث مرفوع وروياه عن النبي صلى الله عليه وسلم يوافق هذا القول .

قلت - وعجبا لابن المنذر؟ مع قسده واجتهاده كيف قال بحديث لم يواقه أهل التمد على صحته! لكن الدهول والنسيان قد يعثرى الإنسان، وإنما الكمال لعزة ذى الحلال .

السادسة - ثبت الأخبار عن النبي المختار محمد صلى الله عليه وسلم أنه قضى بدية الخطا على العاقلة ، وأجمع أهل العلم على القول به . وفي إجماع أهل العلم أن الدية في الخطا على العاقلة دليل على أن المراد من قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ريمته حيث دخل عليه وسمه أبته : " إنه لا ينجي عليك ولا ينجي عليه " العمد دون الخطا . وأجمعوا على أن ما زاد على ثلث الدية على العاقلة ، واختلفوا في الثلث ؛ والذي عليه جمهور العلماء أن العاقلة لا تعمل عمدا ولا اعترافا ولا صلحا ، ولا تحمل من دية الخطا إلا ما جاوز الثلث ، وما دون الثلث في مال الجاني . وقالت طائفة : عقل الخطا على عاقلة الجاني ، قلت الجناية أو كرت ؛ لأن من غيرم الأكثر غيرم الأقل . كما عقل العمد في مال الجاني قل أو كثر ؛ هذا قول الشافعي .

السابعة - وحكمها أن تكون منجمة على العاقلة ، والعاقلة المصبة . وليس ولد المرأة إذا كان من غير عصبها من العاقلة ، ولا الإخوة من الأم بعصبية لأخوتهم من الأب والأم ، فلا يمولون عنهم شيئا . وكذلك الديوان لا يكون عاقلة في قول جمهور أهل الجواز . وقال الكوفيون : يكون عاقلة إن كان من أهل الديوان ؛ فتنتج الدية على العاقلة في ثلاثة أعوام على ما قضاه عمر وعلي ؛ لأن الإبل قد تكون حوامل فتضرب به . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيها دفعة واحدة لأغراض ؛ منها أنه كان يعطيها صلحا وتسديدا . ومنها أنه كان يجعلها تأييفا . فلما تمجد الإسلام قدرتها المصاحبة على هذا النظام ، قاله ابن العربي . وقال أبو عمر :

أجمع العلماء حديثاً أن الذية على العاقلة لا تكون إلا في ثلاث سنين ولا تكون في أقل منها .  
وأجمعوا على أنها على البائتين من الرجال . وأجمع أهل السير والعلم أن الذية كانت في الجاهلية  
تحمّلها العاقلة فأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام ، وكانوا يتحالفون بالنصرة ؛  
ثم جاء الإسلام فخرى الأمر على ذلك حتى جعل عمر الديوان . وانفق الفقهاء على رواية  
ذلك والقول به . وأجمعوا أنه لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زمن أبي بكر  
ديوان ، وأن عمر جعل الديوان وجمع بين الناس ، وجعل أهل كل ناحية يداً وجعل عليهم  
قتال من يلهم من العدو .

الثامنة - قلت : وبما يخرط في سلك هذا الباب ويدخل في نظامه قتل الجنين  
في بطن أمه ؛ وهو أن يضرب بطن أمه فتلقيه حياً ثم يموت ؛ فقال كافة العلماء : فيه الذية  
كاملة في الخطأ وفي العمد بعد القسامة . وقيل : بنير قسامة . واختلفوا فيما به تمم حياته  
بعد اختافهم على أنه إذا أسهل صارخاً أو أرتفع أو تنفس نفساً محققة حتى ؛ فيه الذية كاملة ؛  
فإن تحرك قال الشافعي وأبو حنيفة : الحركة تدل على حياته . وقال مالك : لا ، إلا أن يقارنها  
طول إقامة . والذكر والآنحى عند كافة العلماء في الحكم سواء . فإن ألقته ميتاً ففیه غرة<sup>(١)</sup> : عبدٌ  
أو وليدةٌ . فإن لم تلقه وماتت وهو في جوفها لم يخرج فلا شيء فيه . وهذا كله إجماع لا خلاف  
فيه . وروى عن الليث بن سعد وداود أنهما قالوا في المرأة إذا ماتت من ضرب بطنها ثم خرج  
الجنين ميتاً بعد موتها ففیه الغرة ، وسواء رمته قبل موتها أو بعد موتها ؛ المتبر حياة أمه في وقت  
ضربها لا غير . وقال سائر الفقهاء : لا شيء فيه إذا خرج ميتاً من بطنها بعد موتها . قال الطحاوي  
محتجاً بجماعة الفقهاء بأن قال : قد أجمعوا والليث معهم على أنه لو ضرب بطنها وهي حية  
فماتت والجنين في بطنها ولم يسقط أنه لا شيء فيه ؛ فكذلك إذا سقط بعد موتها .

التاسعة - ولا تكون الغرة إلا بياض . قال عمرو بن العلاء في قول رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : " في الجنين غرةٌ عبدٌ أو أمةٌ " - لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد

(١) الغرة : العبد منه أو الأمة ؛ وسبأ الكلام فيها في المسئلة الثامنة .

بالترة مَنَى فقال : في الجنين عِد أو أمة ، ولكنه عني اليَاض ؛ فلا يقبل في التدية إلا غلام  
 أبيض أو جارية بيضاء ، لا يقبل فيها أسود ولا سوداء . واختلف العلماء في قيمتها ؛ فقال  
 مالك : تقوم بخمسين ديناراً أو ستمائة درهم ؛ نصف عشر دية الحر المسلم ، وعُشر دية أمة  
 الحرة ؛ وهو قول ابن شهاب وربيعة وسائر أهل المدينة . وقال أصحاب الرأي : قيمتها  
 خمسمائة درهم . وقال الشافعي : من الترة سبع سنين أو ثمان سنين ؛ وليس عليه أن يقبلها  
 مَيبسة . ومقتضى مذهب مالك أنه غير بين إعطاء غرة أو عُشر دية الأم ، من الذهب عشرون  
 ديناراً إن كانوا أهل ذهب ، ومن الورق — إن كانوا أهل ورق — ستمائة درهم ، أو خمس  
 فرائض من الإبل . قال مالك وأصحابه : هي في مال الجاني ؛ وهو قول الحسن بن سحابة . وقال  
 أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما : هي على الماقلة . وهو أصح ؛ لحديث الثوري بن شعبة أن  
 امرأتين كانتا تحت رجلين من الأنصار — في رواية فتايرتا — فضربت إحداهما الأخرى بعمود  
 فقتلتها ، فاختصم إلى النبي صلى الله عليه وسلم الرجلان فقالا : نَدَى من لا صاح ولا أكل ،  
 ولا شرب [ ولا استهل ، فبطل ذلك يطل ! ] ؛ فقال : « أَسْبَحْ كَسَجِجِ الأعراب » .  
 فقتضى فيه غرة وجعلها على ماقلة المرأة . وهو حديث ثابت صحيح ، نص في موضع الخلاف  
 بموجب الحكم . ولما كانت دية المرأة المضروبة على الماقلة كان الجنين كذلك في القياس والنظر .  
 واحتج علماءنا بقول الذي قضى عليه : كيف أغرم ؟ قالوا : وهذا يدل على أن الذي قضى  
 عليه معين وهو الجاني . ولو أن دية الجنين قضى بها على الماقلة فقال : فقال الذي قضى عليهم .  
 وفي القياس أن كل جانٍ جنايته عليه ، إلا ما قام بخلافه الدليل الذي لا معارض له ؛ مثل  
 إجماع لا يجوز خلافه ، أو نص سنة من جهة ثقل الآساد المدلول لا معارض لها ، فيجب الحكم  
 بها ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

- (١) الفرائض : جمع فريضة ؛ وهو البعير المأخوذ في الزكاة ، متى فريضة لأمة فرض واجب على رب المال ،  
 اتفق فيه حتى سمي البعير فريضة في غير الزكاة . (٢) في سنن أبي داود : « فقال أحد الرجلين » .  
 (٣) زيادة عن كتب الحديث لا يستقيم الكلام بدونها . ويطلق : حدوده .  
 (٤) قال الخطابي : لم يجد يجرّد الجمع بل بما تضمنه مجيء من الباطل .

الماشرة - ولا خلاف بين العلماء أنَّ الجَين إذا نرجحَ حياً فيه الكفارة مع الذِّية :  
واختلفوا في الكفارة إذا نرجح ميتاً ؛ فقال مالك : فيه التَّزَّة والكفارة . وقال أبو حنيفة  
والشافعي : فيه التَّزَّة ولا كفارة . واختلفوا في ميراث التَّزَّة عن الجَين ؛ فقال مالك والشافعي  
وأصحابهما : التَّزَّة في الجَين موروثة عن الجَين على كَلْب الله تعالى ؛ لأنَّها ذِية . وقال أبو حنيفة  
وأصحابه : التَّزَّة للأُم وحدها ؛ لأنَّها جِناية جِنى عليها يقطع عَصْر من أعضائها وليست بذِية .  
ومن الدليل على ذلك أنه لم يُصَرِّح فيه الذِّكر والآثي كما يلزم في الذِّبات ، فدلَّ على أن ذلك  
كالعَصْر . وكان ابنُ مَرْمَر يقول : دِيَّةُ لأبويه خاصَّة ؛ لأبويه ثلثاها ولأُمِّه ثلثها ، من كان  
منهما حياً كان ذلك له ، فإن كان أحدهما قد مات كانت للباقي منهما إبا كان أو أما ،  
ولا يرث الإخوة شيئاً .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ( إِنْ أَنْ يَصَّدَّقُوا ) أصله « أن يتصدقوا » فأدغمت التاء  
في الصاد . والتصدق الإعطاء ؛ يعني إلا أن يرى الأولياءُ ورثةَ المقتول [الثلاثين] مما أوجب  
الله لهم من الذِّية عليهم . فهذا استثناء ليس من الأول . وقرأ أبو عبد الرحمن ويُعْبَع « إلا أن  
تَصَّدَّقُوا » بتخفيف الصاد والتاء . وكذلك قرأ أبو عمرو ، إلا أنه شدد الصاد . ويموز على هذه  
القراءة حذف التاء الثانية ، ولا يميز حذفها على قراءة الياء . وفي حرف أبي رَين مسعود  
« إلا أن يتصدقوا » . وأما الكفارة التي هي لله تعالى فلا تسقط بإبرائهم ؛ لأنه أُلْف  
شخصاً في عبادة الله سبحانه ، فعليه أن يخلص آخرَ لعبادة ربِّه ، وإنما تسقط الذِّية التي هي  
حقُّ لهم . وتجب الكفارة في مال الجاني ولا تُكْفَل .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ( إِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ رَهْؤْمُونَ ) هذه مسألة  
المؤمن يُقتل في بلاد الكفار أو في حروبهم على أنه من الكفار . والمعنى عند ابن عباس  
وقادة السُّدِّي وعكرمة ومجاهد والتَّحِيبي : فإن كان هذا المقتول رجلاً مؤمناً فدانَ ويَنَى  
في قومه وهم كفرة « عَدُوِّكُمْ » فلا ذِية فيه ؛ وإنما كفارته تحرير الرِّقبة . وهو المشهور  
من قول مالك ، وبه قال أبو حنيفة . وسقطت الذِّية لوجهين : أحدهما - أن أولياء

القتل كفار فلا يصح أن تدفع إليهم فيقتولوا بها ، والثاني — أن حرمة هذا الذي آمن ولم يهاجر قليلاً ، فلا دية لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا » . وقالت طائفة : بل الوجه في سقوط الدية أن الأولياء كفار فقط ، فسواء كان القتل خطأ بين أظهر المسلمين أو بين قومه ولم يهاجر أو هاجر ثم رجع إلى قومه كفارته الحرير ولا دية فيه ، إذ لا يصح دفعها إلى الكفار ، ولو وجبت الدية لوجب لبيت المال على بيت المال ، فلا تجب الدية في هذا الموضع وإن جرى القتل في بلاد الإسلام . هذا قول الشافعي وبه قال الأوزاعي والثوري وأبو ثور . وعلى القول الأول إن قيل المؤمن في بلاد المسلمين وقومه حرب ففيه الدية لبيت المال والكفارة .

قلت : ومن هذا الباب ما جاء في صحيح مسلم عن أسامة قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية نصبحنا الحرقات<sup>(١)</sup> من جهة فادركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله ، فطعته فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقال لإله إلا الله وقتلته » ! قال : قلت يا رسول الله ، إنما قالها خوفاً من السلاح ، قال : « أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا » . فلم يحكم عليه صلى الله عليه وسلم بقصاص ولا دية . وروى عن أسامة أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لي بعد ثلاث مرآت ، وقال : « أعتق رقبة » ولم يحكم بقصاص ولا دية . فقال علماءنا : أما سقوط القصاص فواضح إذ لم يكن القتل عدواناً ، وأما سقوط الدية فلا وجه لثلاثة : الأول — لأنه كان إذن له في أصل القتال فكان عنه إلتلاف خمس محترمة غلظاً كالخاتن والطبيب . الثاني — لكونه من العدو ولم يكن له ولي من المسلمين يكون له دية ، لقوله تعالى « فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ » كما ذكرنا . الثالث — أن أسامة اعترف بالقتل ولم تقم بذلك بينة ولا تعقل المألة اعترافاً ، ولعل أسامة لم يكن له مال تكون فيه الدية . والله أعلم .

(١) الحرقات (يضم الحاء ويضع الراء وضها) : موضع بلاد جبهة .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ هذا في الذي والمهادة يقتل خطأ فصحب الذية والكفارة ؛ قاله ابن عباس والشَّعْبِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَالشَّافِعِيُّ . واختاره الطبري قال : إلا أن الله سبحانه وتعالى أبهم ولم يقل وهو مؤمن ، كما قال في القتل من المؤمنين ومن أهل الحرب . وإطلاقه ما قيد قبل يدل على أنه خلافه . وقال الحسن وجابر بن زيد وإبراهيم أيضا : الميثاق : إن كان المقتول خطأ مؤمنا من قوم معاهدين لكم فهمهم يوجب أنهم أحق بدية صاحبهم ، فكفارته التحرير وأداء الذية . وقرأها الحسن : « وإن كان من قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » . قال الحسن : إذا قتل المسلم الذي فلا كفارة عليه . قال أبو عمر : وأما الآية فمناها عند أهل الجواز مردود على قوله « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » ثم قال تعالى : « وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ » يريد ذلك المؤمن . واهه أعلم . قال ابن العربي : والذي عندي أن الجملة محمولة على المطلق على المقيد .

قلت : وهذا معنى ما قاله الحسن وحكاه أبو عمر عن أهل الجواز . وقوله : ﴿ فَبِذِهِ مُسْلِمًا ﴾ على لفظ النكرة ليس يقتضي ذية بينها . وقيل : هذا في مشرك العرب الذين كان بينهم وبين النبي عليه السلام عهد على أن يسلموا أو يؤذّنوا بحرب إلى أجل معلوم ، فمن قُتل منهم وجبت فيه الذية والكفارة ثم نسخ بقوله تعالى : « بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

الرابعة عشرة - وأجمع العلماء على أن ذية المرأة على النصف من ذية الرجل ، قال أبو عمر : إنما صارت ذيتها - واهه أعلم - على النصف من ذية الرجل من أجل أن لها نصف ميراث الرجل ، وشهادة امرأتين بشهادة رجل . وهذا إنما هو في ذية الخطأ ، وأما العمد فقيمة القصاص بين الرجل والنساء لقوله عز وجل : « النَّفْسُ بِالنَّفْسِ » . و « الْحُرُّ بِالْحُرِّ » كما تختم في « البقرة » .

١٨٩٦ : زوى الدارقطني من حديث موسى بن علي بن رباح القمي قال :  
سمعت أبي يقول إن أعمى كان يُنشد [ في الموسم ] في خلافة عمر رضى الله عنه وهو يقول :  
لها الناس لبيت منكرا \* هل يعقل الأعمى الصحيح المبصر  
\* ترا معا كلاهما تكبرا \*

وذلك أن الأعمى كان يقوده بصير فوقما في ير ، فوقع الأعمى على البصر فات البصير ؛ ففُضِيَ  
عمر بعقل البصير على الأعمى . وقد اختلف العلماء في الرجل يسقط على آخر فيموت أحدهما ؛  
فروى عن ابن الزبير : يضمن الأمل الأسفل ، ولا يضمن الأسفل الأمل . وهذا قول شريح  
والنخعي وأحمد وإسحاق . وقال مالك في رجلين جرّ أحدهما صاحبه حتى سقطا وماتا :  
على ماقلة الذي جبهته الذية . قال أبو عمر : ما أئتمن في هذا خلافا - والله أعلم - إلا ما قال  
بعض المتأخرين من أصحابنا وأصحاب الشافعي يضمن نصف الذية ؛ لأنه مات من فعله ،  
ومن سقوط الساقط عليه . وقال الحكم وأبن شبرمة : إن سقط رجل على رجل من فوق  
بعت فوات أحدهما ، قالا : يضمن الحى منهما . وقال الشافعي في رجلين يصدم أحدهما  
الآخر فماتا ، قال : دية المصدم على ماقلة الصادم ، ودية الصادم هدر . وقال في الفارسين  
إذا اصطلما فماتا : على كل واحد منهما نصف دية صاحبه ؛ لأن كل واحد منهما مات من  
فعل نفسه وفعل صاحبه ؛ وقاله عثمان البتي وزفر . وقال مالك والأوزاعي والحسن بن حي  
وأبو حنيفة وأصحابه في الفارسين يصطلمان فيموتان : على كل واحد منهما دية الآخر على  
ماقلته . قال ابن خزيمة متناد : وكذلك عندنا السفيثان يصطلمان إذا لم يكن التوقي صرف  
السفينة ولا الفارس صرف الفرس . وروى عن مالك في السفيثين والفارسين على كل واحد  
منهما الضمان لقيمة ما أُلْغِف لصاحبه كاملا .

السابعة عشرة - واختلف العلماء من هذا الباب في تفصيل دية أهل الكتاب ؛ فقال  
مالك وأصحابه : هي على النصف من دية المسلم ، ودية الجعفي ثمانمائة درهم ، ودية نسائهم



على النصف من ذلك : روى هذا القول عن حمزة بن عبد العزيز وعروة بن الزبير وعمر بن شعيب وقال به أحمد بن حنبل . وهذا المعنى قد روى فيه سليمان بن بلال عن عبد الرحمن ابن الحارث بن عياش بن أبي ربيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل دية اليهودى والنصرانى على النصف من دية المسلم . وعبد الرحمن هذا قد روى عنه الثورى أيضا . وقال ابن عباس والشعثى والتخفى : المقتول من أهل الهند خطأ لا تبال مؤمنا كان أو كافرا على عهد قومه فيه لدية كدية للمسلم ، وهو قول أبى حنيفة والثورى وعثمان التيمى والحسن بن حبه ؛ جعلوا اللديات كلها سواء ؛ المسلم واليهودى والنصرانى والمجوسى والمعاهد والذى ، وهو قول عطاء والزهرى وسعيد بن المسيب . وحجتهم قوله تعالى : « فدية » وذلك يقتضى الدية كاملة كدية المسلم . وعصدا هذا بما رواه محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس فى قصة بن قريظة والتبشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل ديتهم سواء دية كاملة . قال أبو عمر : هذا حديث فيه لين وليس فى مثله حجة . وقال الشافعى : دية اليهودى والنصرانى ثلث دية المسلم ، ودية المجوسى ثمانمائة درهم ؛ وحجتهم أن ذلك أقل مما قيل فى ذلك ، واللمة بريشة إلا يبين أو حجة . وروى هذا القول من عمرو وعثمان ، وبه قال ابن المسيب وعطاء والحسن وعكرمة وعمرو بن دينار وأبو ثور وإسحاق .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ( فَمَنْ لَمْ يُجِدْ ) أى الرقية ولا اتسع ماله لشراها ؛ ( فَيَصِيَامَ شَهْرَيْنِ ) أى فعلية صيام شهرين . ( مُتَابِعِينَ ) حتى لو أضر يوما استأنف ؛ وهذا قول الجمهور . وقال مكى عن الشعثى : أن صيام الشهرين يجرى عن الدية والعق لمن لم يجد . قال ابن عطية : وهذا القول وهم ؛ لأن الدية إنما هى على العاقلة وليست على العقول . والطبرى حكى هذا القول عن مسروق .

الثامنة عشرة — والحیض لا يمنع التابع من غير خلاف ، وأنها إذا طهرت ولم تؤخر وصلت باقى صيامها بما سلف منه ؛ لا شىء عليها غير ذلك إلا أن تكون طاهرا قبل العجز

فترك صيام ذلك اليوم مائة بطهرها ، فإن فعلت استأنفت عند جماعة العلماء ؛ قاله أبو عمر .  
واختلفوا في المريض الذي قد صام من شهرى التابع بمعضهما على قولين ؛ فقال مالك :  
وليس لأحد وجب عليه صيام شهرين متتابعين في كتاب الله تعالى أن يفطر إلا من نذر  
أو مرض أو حيض ، وليس له أن يسافر فيفطر . ومن قال يتي في المرض سعيد بن المسيب  
وسليان بن يسار والحسن والتشي وعطاء ومجاهد وقتادة وطاوس . وقال سعيد بن جبير  
والثقي والحكم بن عينة وعطاء الخراساني : يستأنف في المرض ؛ وهو قول أبي حنيفة وأصحابه  
والحسن بن يحيى ؛ وأحد قول الشافعي ؛ وله قول آخر : أنه يتي كما قال مالك . وقال ابن  
شبرمة : يقضى ذلك اليوم وحده إن كان عذر غالب كصوم رمضان . قال أبو عمر : حجة من  
قال يتي لأنه معذور في قطع التتابع لمرضه ولم يتمد ، وقد تجاوز الله عن غير المتعمد .  
وحجة من قال يستأنف لأن التتابع فرض لا يسقط لعذر ، وإنما يسقط المأثم قياسا على  
الصلاة ؛ لأنها ركعات متتابعات فإذا قطعها استأنف ولم يتي .

التاسعة عشرة - قوله تعالى : ( تَوْبَةَ مِنَ اللَّهِ ) نصب على المصدر ، ومعناه رجوعا .  
وإنما سمت حجة المخطئ إلى التوبة لأنه لم يتحوز وكان من حقه أن يحتفظ . وقيل : أى  
فليات بالصيام تخفيفا من الله تعالى عليه بقبول الصوم بدلا عن التوبة ؛ ومنه قوله تعالى :  
« وَلِمَ اللَّهُ أَنكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ » أى خفف ، وقوله تعالى : « عَلِمَ أَنَّ لِنَّ  
مُحْصَوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ » .

الموفية عشرين - ( وَكَانَ اللَّهُ ) أى فى أزاله وأبد . ( عَلِيًّا ) بجميع المعلومات .  
( حِكْمًا ) فيما حكم وأبرم .

قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا  
وَعُذِّبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٣١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَمَنْ يَقْتُلْ ) « من » شرط ، وجوابه « بِجَزَائِهِ » وسيأتي .  
وآختلف العلماء في صفة المتعمد في القتل ؛ فقال عطاء والنخعي وغيرهما : هو من قُتل  
بجديدة كالسيف والخنجر وسنان الزبح ونحو ذلك من المشحوذ <sup>(١)</sup> [المعد للقطع] أو بما يعلم  
أن فيه الموت من ثقال الحجارة ونحوها . وقالت فرقة : للمتعمد كل من قتل بجديدة كان  
القتل أو بجحر أو بصبا أو بغير ذلك ؛ وهذا قول الجمهور .

الثانية — ذكر الله عز وجل في كتابه العمد والخطأ ولم يذكر شبه العمد وقد اختلف  
العلماء في القول به ؛ فقال ابن المنذر : أنكر ذلك مالك ، وقال : ليس في كتاب الله إلا العمد  
والخطأ . وذكره الخطاطبي أيضا عن مالك وزاد : وأما شبه العمد فلا نعرفه . قال أبو عمر : أنكر  
مالك والليث بن سعد شبه العمد ؛ فإن قُتل عندهما بما لا يقتل مثله غالبا كالقصة والعلمية  
وضربة السوط والقيضب وشبه ذلك فإنه عمد وفيه القود . قال أبو عمر : وقال بقولهما جماعة  
من الصحابة والتابعين . وذهب جمهور فقهاء الأئمة إلى أن هذا كله شبه العمد . وقد ذكر  
عن مالك وقاله ابن وهب وجماعة من الصحابة والتابعين . قال ابن المنذر : وشبه العمد يُعمل  
به عندنا . ومن أثبت شبه العمد الشعبي والحكم وحامد والنخعي وقادة وسفيان الثوري وأهل  
المراق والشافعي ، وروينا ذلك عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .  
قلت : وهو الصحيح ؛ فإن الدماء أحق ما أحيط لها إذا أصل صياتها في أهيأ ، فلا تستباح  
إلا بأمرين لا إشكال فيه ، وهذا فيه إشكال ؛ لأنه لما كان مترقدا بين العمد والخطأ حكم  
له بشبه العمد ؛ فالضرب مقصود والقتل غير مقصود ، وإنما وقع بغير قصد فيسقط القود  
وتنقلب الذية . وبمثل هذا جاءت السنة ؛ روى أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « آلا إن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة  
من الإبل منها أر بعون في بطونها أولادها » . وروى الدارقطني عن ابن عباس قال قال رسول

(١) الأهب (ضمين جمع الإهاب) : الجله .

(٢) زيادة من ابن حطة .

(١١) الله صلى الله عليه وسلم : " السَّمَدُ قَوْدُ الْبَدِ وَالْخَطَأُ عَقْلٌ لَا قَوْدَ قِيَتُهُ وَمَنْ قُتِلَ فِي عِمَّةٍ نَجَحَ أَوْ عَصَا أَوْ سَوَاطِيفُ قَوْدِيَّةٍ مُنْقَطَعَةٍ فِي أَسْنَانِ الْإِبِلِ " . وَرَوَى أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ سَالِيانِ بْنِ مَوْسَى عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " عَقْلٌ شَبَّهِ الْعَمْدَ مُقْلَطٌ مِثْلُ قَتْلِ الْعَمْدِ وَلَا يَقْتُلُ صَاحِبَهُ " . وَهَذَا نَصٌّ . وَقَالَ طَاوُسٌ فِي الرَّجُلِ يَصَابُ فِي الرِّمَاءِ فِي الْقِتَالِ بِالْعَصَا أَوْ السَّوِطِ أَوْ الْقِرَافِ بِالْحِجَارَةِ : يُودَى وَلَا يَقْتُلُ بِهِ مِنْ إِبِلٍ أَنَّهُ لَا يُدْرَى مَنْ قَاتَلَهُ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : الْعِمَاءُ هُوَ الْأَمْرُ الْأَعْمَى لِلْمَصِيبَةِ لِأَنَّهُمَا تَشْتَبِهَانِ مَا وَجَّهَهُ . وَقَالَ إِصْحَاقُ : هَذَا فِي تَحَارُبِ الْقَوْمِ وَقَتْلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا . فَكَانَ أَصْلُهُ مِنَ التَّعَمُّعَةِ وَهُوَ التَّلْيِيسُ ؛ ذَكَرَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ .

مسألة — واختلف القائلون بنسبه العمد في الدية المخلطة، فقال عطاء والشافعي: هي ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة، وقد روى هذا القول عن عمرو بن ثابت والمنثري بن شعبة وأبي موسى الأشعري؛ وهو مذهب مالك حيث يقول بنسبه العمد، ومشهور مذهبه أنه لم يقل به إلا في مثل قصة المدلبي فإنه حيث ضربه بالسيف، وقيل: هي مائة: ربع بنات لبون، وربع حقائق، وربع جذع، وربع بنات غناض. هذا قول النعمان وسقوب؛ وذكره أبو داود عن سفيان عن أبي إسحاق عن حاصم بن صميرة عن علي: وقيل: هي خمسة: عشرون بنت محاض وعشرون بنت لبون وعشرون ابن لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة؛ هذا قول أبي ثور، وقيل: أربعون جذعة إلى بازل عامها، وثلاثون حقة،

(١) العية (بكسر اللين والياء) أي في حال يعى أمره ولا يتبين قاتله ولا حال قتله .

(٢) الزبيا : بكسر وتشديد زاهر، يؤذن المجيرى من الزم، مصدر يراد به المائلة .

(٣) قال أبو داود في صحيحه : « قال أبو عبيد وغير واحد : إذا دخلت الساعة في السنة الرابعة فهو حق والألف حقة ، لأنه يستحق أن يحمل عليه ويركب ؛ فإذا دخل في الخامسة فهو جنح وجذعة ، فإذا دخل في السادسة وأثنى ثوب فهو حق ؛ فإذا دخل في السابعة فهو رباع ورباعية ؛ فإذا دخل في الثامنة وأثنى السن التي بعد الرابعة فهو سدس وسدس ؛ فإذا دخل في التاسعة فطرقاه وطلع فهو بازل ؛ فإذا دخل في العاشرة فهو خلف ؛ ثم ليس له اسم ولكن يقال بازل عام وبازل عامين ، وخلف عام وخلف عامين إل ما زاد . وقال الضرير شبل : ابنة غناض لسنة وابنة لبون لسنةين ، وحقة ثلاث وجذعة لأربع والتي تسمى ورباع لست وسدس لسبع وبازل ثمان . »

وغلاقون يثبت لبون . وروى عن عثمان بن عفان وبه قال الحسن البصري وطائفة  
والزهرى . وقيل : أربع وغلاقون خيفة إلى بازل عليها ، وغلاق ، وغلاقون حقة ، وثلاث  
وغلاقون جذعة ، وبه قال الشافعي والنخعي ، وذكره أبو داود بن أبي الأحوص عن  
أبي إسحاق عن حاتم بن حنبل عن علي .

الثالثة - واختلقوا فيمن تلمزه دية شبه العمد ؛ فقال الحارث العجلي وابن أبي ليل  
وابن شبرمة وقادة وأبو ثور : هو عليه في ماله . وقال الشعبي والنخعي والحكم والشافعي  
والتوري وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي : هو على العاقلة . قال ابن المنذر : قول الشعبي  
أصح ؛ لحديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل دية الحين على عاقلة الضاربة .

الرابعة - أجمع العلماء على أن العاقلة لا تحمل دية العمد وأنها في مال الحاني ؛ وقد  
تقدم ذكرها في «البقرة» . وقد أجمعوا على أن على القاتل خطأ الكفارة ؛ واختلقوا فيها في قتل  
العمد ؛ فكان مالك والشافعي يريان على قاتل العمد الكفارة كما في الخطأ . قال الشافعي :  
إذا وجبت الكفارة في الخطأ فلا تجب في العمد أولى . وقال : إنا شرع السجود ونسوف فلان  
يُشرع في العمد أولى ، وليس ما ذكره الله تعالى في كفارة العمد بمسقط ما قد وجب الخطأ .  
وقد قيل : إن القاتل عمدا إنما تجب عليه الكفارة إنا عني عنه فلم يقتل ، فأما إذا قُتل  
قوداً فلا كفارة عليه يُؤخذ من ماله . وقيل تجب . ومن قتل نفسه فعليه الكفارة في ماله  
وقال التوري وأبو ثور وأصحاب الرأي : لا تجب الكفارة إلا حيث أوجبها الله تعالى . قال ابن  
المنذر : وكذلك قول ؛ لأن الكفارات عبادات ولا يجوز التثليل . وليس يجوز لأحد أن  
يفرض فرضاً يلزمه عباد الله إلا بكتاب أو سنة أو إجماع ، وليس مع من فرض على القاتل  
عمداً كفارة حجة من حيث ذكرت .

الخامسة - واختلقوا في الجماعة يقتلون الرجل خطأ ؛ فقالت طائفة : على كل واحد  
منهم الكفارة ؛ كذلك قال الحسن وعكرمة والنخعي والحارث العجلي ومالك والتوري والشافعي

وأحمد وإسحاق وأبو نوره وأصحاب الرأي . وقالت طائفة : عليهم كلهم كفارة واحدة ؛ هكذا قال أبو نوره، وحكى ذلك عن الأوزاعي . وقرق الزهري بين التقي والصوم ؛ قال في الجماعة يَمُوتُ بِالْمُتَجَنِّقِ فَيَقْتُلُونَ رَجُلًا : عليهم كلهم عتق رقبة ، وإن كانوا لا يجدون قتل كل واحد منهم صوم شهرين متتابعين .

السادسة - رَوَى النَّسَائِيُّ : أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمُرَوِّزِيُّ تَهَةً قَالَ حَدَّثَنِي خَالِدُ ابْنِ خِدَاشٍ قَالَ حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ بَشِيرِ بْنِ الْمُهَاجِرِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رُبَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " قَتَلَ الْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا " . وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَوَّلُ مَا يَحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ لِلصَّلَاةِ وَأَوَّلُ مَا يَقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدَّمَاءِ " . وَرَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ نَافِعِ بْنِ جَبْرِ ابْنَ مُطْعِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَأَلَهُ فَقَالَ : يَا أَبَا الْعَبَّاسِ ، هَلْ لِلْقَاتِلِ تَوْبَةٌ ؟ فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ كَالْمُتَعَبِّ مِنْ مَسَافَةٍ : مَاذَا تَقُولُ ! مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا . ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَيَحْكُ ! وَأَنَّى لَهُ تَوْبَةٌ ! سَمِعْتُ نَبِيَكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " يَأْتِي الْمَقْتُولُ مَعْلَقًا رَأْسَهُ بِأَحَدِي يَدَيْهِ مُتَلَبِّيًا قَاتِلَهُ يَبْذُرُهُ الْأُخْرَى تَسْخَبُ أَوْدَاجُهُ نَدْمًا حَتَّى يُوقَفَا فَيَقُولُ الْمَقْتُولُ اللَّهُ سَجَّامَانِ وَتَعَالَى رَبُّ هَذَا قَتَلَنِي فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْقَاتِلِ تَمَسَّتْ وَيُذْهِبُ بِهِ إِلَى النَّارِ " . وَعَنْ الْحَسَنِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَا نَازَلَتْ رُبِّي فِي شَيْءٍ مَا نَازَلَتْهُ فِي قَتْلِ الْمُؤْمِنِ قَلَمٌ يَجْنِي " .

السابعة - واختلف العلماء في قاتل العمد هل له من توبة ؛ فروى البخاري عن سعيد ابن جبيرة قال : اختلف فيها أهل الكوفة ، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسأته عنها فقال : نزلت هذه الآية « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا جَزَاءُ جَهَنَّمَ » هي آخر ما نزل وما نسخها شيء . وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْهُ قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ هَلْ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ لَا . وَقُرَأَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » قَالَ : هَذِهِ آيَةٌ مَكِيَّةٌ نَسَخَهَا آيَةُ مَدِينَةٍ « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا جَزَاءُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا » وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ . وَرَوَى

عن زيد بن ثابت نحوه ، وأن آية النساء نزلت بعد آية الفرقان ستة أشهر ، وفي رواية ثمانية أشهر ؛ ذكرهما اللساني عن زيد بن ثابت . وإلى عموم هذه الآية مع هذه الأخبار عن زيد وابن عباس ذهب المعتزلة وقالوا : هذا يخص عموم قوله تعالى : « وَيَقْرَأُوا مَا دُونَ ذَلِكَ لَعَلَّ يَسَاءُ » ورأوا أن الوعيد نافذ حتى على كل قاتل ؛ فجمعوا بين الآيتين بأن قالوا : التقدير وينقرمانون ذلك لمن يشاء إلا من قتل عمدا . وذهب جماعة من العلماء منهم عبد الله بن عمر — وهو أيضا مروي عن زيد وابن عباس — إلى أن له توبة . روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا أبو مالك الأشجعي عن سعيد بن عيسى قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال ألن قتل مؤمنا متمدا توبة ؟ قال لا ، إلا النار ؛ قال : فلما ذهب قال له جلساؤه : أهلكنا كنت تختبئ ؟ كنت تختبئ أن قتل توبة مقبولة ؛ قال : إني لأحسبه رجلا مضطربا يريد أن يقتل مؤمنا . قال : فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك . وهذا مذهب أهل السنة وهو الصحيح ، وأن هذه الآية مخصوصة ، ودليل التخصيص آيات وأخبار . وقد أجمعوا على أن الآية نزلت في مقيس ابن صباية ؛ وذلك أنه كان قد أسلم هو وأخوه هشام بن صباية ؛ فوجد هشاما قتيلا في بني النجار فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتب له الإهم أن يدفعوا إليه قاتل أخيه وأرسل معه رجلا من بني فهر ؛ فقال بنو النجار : والله لا نعلم له قاتلا ولكنا نؤذي اللذية ؛ فأعطوه مائة من الإبل ؛ ثم انصرفا راجعين إلى المدينة فعلا مقيس على الفهري فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة كافرا مرتدا ؛ وجعل يشد :

قَلْتُ بِهِ فِهْرًا وَحَمَلْتُ عَقْلَهُ • سُرَّاتُ بَنِي النَّجَارِ أَرْبَابُ فَارِعِ  
حَلَلْتُ بِهِ وَتَرَى وَأَدْرَكَتُ قَوْرِي • وَكُنْتُ إِلَى الْأَوْتَانِ أَوَّلُ رَاجِعِ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أؤتاه في حل ولا حرم » . وأمر بقتله يوم فتح مكة وهو متعلق بالكعبة . وإذا ثبت هذا ينقل أهل التفسير وعلماء الدين فلا ينبغي أن يجعل على المسلمين ، ثم ليس الأخذ بظاهر الآية بأولى من الأخذ بظاهر قوله : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُعْجِنُ »

(١) كما ورد في بعض المصادر بالمادة المهمة . وفي بعضها بالقاد المعجمة (٢) طابع : حسن بالمدينة .

الْبَيِّنَاتِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » وَقَوْلِهِ : « وَيَتَقَرَّرُ بِأَدْوَانِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وَالْأَخْذُ بِالظَّاهِرِ مِنْ مَنَاقِضِ فَلَا يَدُ مِنَ التَّخْصِصِ . ثُمَّ إِنْ جُمِعَ مِنْ آيَةِ « الْفِرْقَانِ » وَهَذِهِ آيَةِ مَكِّيٍّ فَلَا تَنْسَخُ وَلَا تَنْقُضُ ، وَذَلِكَ أَنْ يَحْمَلَ مَطْلَقَ آيَةِ « الْفِتْنَةِ » عَلَى مُقَيَّدٍ آيَةِ « الْفِرْقَانِ » فَيَكُونُ مَعْنَاهُ : بِخِزَاوَةِ كَذَا إِلَّا مِنْ تَابَ ؛ لِأَسْمَا وَقَدْ أَمَحَدُ الْمَوْجِبُ وَهُوَ الْقَتْلُ وَالْمَوْجِبُ وَهُوَ التَّوْبَةُ بِالْقَابِ . وَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَكَثِيرَةٌ كَحَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ الَّذِي قَالَ فِيهِ : « تَبَايَعُوا عَلَى أَنْ لَا تَزُكُّوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَزُنُّوا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ فَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ وَبِزْنِ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسْتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ » . وَرَوَاهُ الْأَعْمَةُ أَنُجَيْبَةُ الصَّحِيحِيانِ . وَكَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الَّذِي قَتَلَ مَائَةَ نَفْسٍ . أُخْرَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَابْنُ مَاجَةٍ فِي سُنَنِهِ وَغَيْرُهُمَا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ الثَّابِتَةِ . ثُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا مَعْنَى فِي الرَّجُلِ يُشْهَدُ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ وَيُزَكَّرُ أَنَّهُ قَتَلَ عَمْدًا ، وَيَأْتِي السُّلْطَانُ الْأَوَّلِيُّ بِمَقَامِ عَلَيْهِ الْحَدِّ وَيُقْتَلُ قَوْدًا ، فَهَذَا غَيْرُ مُتَّبَعٍ فِي الْأَحْزَانِ ، وَالْوَجْدُ غَيْرُ تَأْخُذٍ عَلَيْهِ إِجْمَاعًا عَلَى مَقْتَضَى حَدِيثِ عُبَادَةَ ؛ فَقَدْ انْكَسَرَ عَلَيْهِمَا مَا تَعَلَّقُوا بِهِ مِنْ عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا بِخِزَاوَةِ جَهَنَّمَ » وَدَخَلَهُ التَّخْصِصُ بِمَا ذَكَرْنَا ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْوَجْهُ أَنَّ هَذِهِ آيَةَ مَخْصُوصَةً كَمَا يَبَيِّنُ ، أَوْ تَكُونُ مَحْمُولَةً عَلَى مَا حُكِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : مُتَعَمِّدًا مُسْتَعْمِلًا لِقَتْلِهِ ؛ فَهَذَا أَيْضًا يَشُولُ إِلَى الْكُفْرِ إِجْمَاعًا . وَقَالَتْ جَمَاعَةٌ : إِنْ الْقَاتِلُ فِي الْمَشِيطَةِ تَابَ أَوْ لَمْ يَتَبَّ ؛ قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ . فَإِنْ قِيلَ : إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى : « بِخِزَاوَةِ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ » دَلِيلٌ عَلَى كُفْرِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَغْضَبُ إِلَّا عَلَى كَافِرٍ خَارِجٍ مِنَ الْإِيمَانِ . فَلَنَا : هَذَا وَعِيدٌ ، وَالتَّخْلُفُ فِي الْوَعِيدِ كَرَمٌ ؛ كَمَا قَالَ :

وَأَنْتَ مَتَى أَوْعَدْتَهُ أَوْ وَعَدْتَهُ . تَخْلُفُ إِصْدَاقِي وَمُتَجَزُّ مَوْعِدِي

وَقَدْ هَدَّم . جَوَابُ تَابَ - إِنْ جَزَاهُ بِذَلِكَ ؛ أَيْ هُوَ أَهْلُ ذَلِكَ وَمُسْتَحَقُّهُ لِعَظَمِ ذَنْبِهِ . نَصَّ عَلَى هَذَا أَبُو عِيْنٍ لَاحِقُ بْنُ حُمَيْدٍ وَأَبُو صَالِحٍ وَغَيْرُهُمَا . وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ



صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِذَا وَعَدَ اللَّهُ لِعِبْدٍ ثَوَابًا فهُوَ مُتَجَرِّدٌ وَإِنْ أَوْعَدَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فَلَهُ الْمَشِيئَةُ إِنْ شَاءَ عَاقِبُهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ». وفي هذين التَّوَابِلِينَ دَخَلَ؛ أما الأولُ—فقال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأن كلام الرب لا يقبل التَّلَقُّفَ إلا أن يراد بهذا تخصيص العام؛ فهو إِنْ جَاءَ فِي الْكَلَامِ. وأما الثاني—وإن رُوي أنه مرفوع فقال النحاس: وهذا الوجه التلطف فيه يَبِينُ، وقد قال الله عز وجل: «ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا» ولم يقل أحد: إن جازاهم؛ وهو خطأ في العربية لأن بعده «وغيض الله عليه» وهو محمول على معنى جازاه. وجواب ثالث—بجَزَائِهِمْ جَهَنَّمَ إن لم يقب وأصرَّ على الذنب حتى وُاقِيَ رَبَّهُ عَلَى الْكُفْرِ بِشُؤْمِ الْمَعَاصِي. وذكر هبة الله في كتاب «التاسخ والمنسوخ» أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ»، وقال: هنا إجماع الناس إلا ابن عباس وابن عمر فإنهما قالاهما مُحْكَمَةً. وفي هذا الذي قاله نظر؛ لأنه موضع عموم وتخصيص لا موضع نسخ؛ قاله ابن عطية.

قلت: هذا حسن؛ لأن النسخ لا يدخل الأخبار إنما المعنى فهو يحزبه. وقال النحاس في «معاني القرآن» له: القول فيه عند العلماء أهل النظر أنه مُحْكَمٌ وأنه مجازيه إذا لم يقب، فإن تاب فقد بين أمره بقوله: «وإِنِّي لَنَفَّارٌ لَّنَآبٍ» فهذا لا يخرج عنه، والخلود لا يقتضي الدوام، قال الله تعالى: «وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد» الآية. وقال تعالى: «يَحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ». وقال زهير:

«ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا»<sup>(١)</sup>

وهذا كله يدل على أن الخلد يطلق على غير معنى التأييد؛ فإن هذا يزول بزوال الدنيا. وكذلك العرب تقول: لأخذت فلانا في السجن؛ والسجن يتقطع ويفنى، وكذلك المسجون. ومثله قولهم في الدواة: خلد الله حلكه وأبد أيامه. وقد تقدم هذا كله انقضاءً وسقياً. والحمد لله.

(١) هذا يحزيت. ومصدره: «ألا لا أرى على المراتب بقايا»

(٢) راجع نفاص ٢٤١ طبع ثانية أمانة.

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَنِينُوا  
وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا فَعَنَدَ اللَّهُ مَغَافِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ  
فَتَنِينُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٠﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأول — قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَنِينُوا ) هذا متصل  
بذكر القتل والجهاد ، والضرب : السير في الأرض ، يقول العرب : ضربت الأرض ، دون « في » إذا قصدت  
سرت لتجارة أو غزو أو غيره ، مقترنة بـ « في » ، تقول : ضربت الأرض ، دون « في » إذا قصدت  
قضاء حاجة الإنسان ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يخرج الرجلان بضربان النائط  
يحمذان كاشفين عن فرجهما فإن الله يفتي على ذلك » . وهذه الآية نزلت في قوم من  
المسلمين مروا في سفر رجل معه جمل وغنمة يبيعها فسلم على القوم وقال : لا إله إلا الله محمد  
رسول الله ؛ فحمل عليه أحدهم فقتله . فلما ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم شق عليه  
ونزلت الآية . وأخرجه البخاري عن عطاء عن ابن عباس قال قال ابن عباس : كان رجل  
في غنمة له فلحقه المسلمون فقال : السلام عليكم ؛ فقتلوه وأخذوا غنيمته ؛ فأنزل الله في ذلك  
إلى قوله : « عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » تلك الغنيمة . قال قرأ ابن عباس « السلام » . في غير  
البخاري : وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم دينه إلى أهله ورد عليه غنياته . واختُف  
في تعيين القاتل والمقتول في هذه النازلة ؛ فالذي عليه الأكثر وهو في سير ابن إسحاق ومصنف  
أبي داود والاستيعاب لأبن عبد البر أن القاتل علم بن جثامة ، والمقتول عامر بن الأضيض  
فدما عليه السلام على علم فبا عاشر بعد ذلك إلا سيما ثم دفن فلم تحمله الأرض ثم دفن فلم  
تحمله ثم دفن ثالثة فلم تحمله ؛ فلما رأوا أن الأرض لا تحمله ألقيوه في بعض تلك الشعاب ؛ وقال  
عليه السلام : « إن الأرض لتقبل من هو شر منه » . قال الحسن : أما إنها تحبس من هو

شُرِّهٖ وَلَكِنْ وَضَعَ الْقَوْمَ إِلَّا يَهُودًا . وَفِي سَنَةِ ابْنِ مَاجَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ : بَشَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَشْرِكِينَ قَتْلَهُمْ قَتَالًا شَدِيدًا ، فَنَحَرُوهُمْ أَكْثَرَهُمْ . فَجَلَّ رَجُلٌ مِنَ الْحَمَاقَةِ مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْمَشْرِكِينَ بِالرَّحِمِ فَلَمَّا غَشِيَهُ قَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، إِنْ بَشَّرَ مُسْلِمٌ ، فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَنَكْتُ ! قَالَ : «رُومًا الَّذِي صَنَعْتُ» ؟ مرةً أو مرتين ، فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي صَنَعَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «فَهَلَّا شَقَقْتَ عَنْ بَطْنِهِ فَمَلَيْتَ مَا فِي قَلْبِهِ» ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ شَقَقْتُ بَطْنَهُ أَكُنْتُ أَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ ؟ قَالَ : «لَا ، لَأَنْتَ قِيلَتْ مَا تَكَلِّمُ بِهِ وَلَا أَنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ» . قَالَ : فَسَكَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَلِثَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ فَدَفَنَاهُ ، فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ ؛ فَقُلْنَا : لَعَلَّ صَدْرًا نَبَشَ ، فَدَفَنَاهُ ثُمَّ أَمَرْنَا غُلَامَانَا بِحِرْصُونِهِ فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ ؛ فَقُلْنَا : لَعَلَّ النَّعَامَانَ نَفَسُوا ، فَدَفَنَاهُ ثُمَّ حَرَسْنَاهُ بِأَفْئِسَةٍ فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ ، فَالْقِيَاءُ فِي بَعْضِ ذَلِكَ الشَّعَابِ . وَقِيلَ : إِنَّ الْقَاتِلَ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَالْمَقْتُولَ مَرْدَاسَ بْنَ نَيْكٍ النَّطْفَانِي ثُمَّ التَّزَارَى مِنْ بَنِي مُرَّةٍ مِنْ أَهْلِ فَتَكَ ، وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ . وَقِيلَ : كَانَ مَرْدَاسٌ هَذَا قَدْ أَسْلَمَ مِنَ اللَّيْلَةِ وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَهْلَهُ ؛ وَلَمَّا عَظَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَمْرَ عَلَى أَسَامَةَ حَقَّقَ عِنْدَ ذَلِكَ أَلَّا يَاقَاتِلَ رَجُلًا يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِيهِ . وَقِيلَ : الْقَاتِلُ أَبُو قَتَادَةَ . وَقِيلَ : أَبُو الدَّرْدَاءِ . وَلَا خِلَافَ أَنَّ الَّذِي لَقِظْنَاهُ الْأَرْضَ حِينَ مَاتَ هُوَ عِلْمُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ . وَلَعَلَّ هَذِهِ الْأَحْوَالُ جَرَتْ فِي زَمَانٍ مُتَقَارِبٍ فَتَرَلَّتْ الْآيَةُ فِي الْجَمِيعِ . وَقَدْ رُوي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدَّ عَلَى أَهْلِ الْمُسْلِمِ الْغَنَمَ وَالْجَلَّ وَحَلَّ دِينَهُ عَلَى طَرِيقِ الْاِئْتِلَافِ . وَاهُ أَهْلُ . وَذَكَرَ التَّطَلُّيُّ أَنَّ أَمِيرَ تِلْكَ السَّيْرِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ غَالِبُ بْنُ فُضَالَةَ اللَّيْثِي . وَقِيلَ : الْمُقَدَّادُ ؛ حِكَاةُ السَّهْلِي .

التَّائِيَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوا ﴾ أَيْ قَاتِلُوا . «وَتَيَّنُوا» قِرَاءَةُ الْجَمَاعَةِ وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي حَبِيدٍ وَأَبِي حَاسِمٍ ، وَقَالَا : مِنْ أَمْرِ بِالْيَقِينِ فَقَدْ أَمَرَ بِالتَّيَّنِ ؛ يُقَالُ : تَيَّنْتُ الْأَمْرَ وَتَيَّنْتُ الْأَمْرَ بِنَفْسِي ، فَهُوَ مُتَعَدٍّ وَلَا زَمَ . وَقُرْأَ حَزْرَةُ «قَاتِلُوا» مِنَ التَّيَّنِ بِالتَّاءِ مُثَلَّةً وَسَدَّهَا بِوَاءٍ وَاحِدَةٍ .

« وتينوا » في هذا أوكد؛ لأن الإنسان قد يثبت ولا يقين . وفي « إذا » معنى الشرط،

فلذلك دخلت الفاء في قوله « وتينوا » . وقد يحايز بها كما قال :

« وإذا تُصِيبُ خصامة فتجمل <sup>(١)</sup> »

والجيد ألا يحايز بها كما قال الشاعر :

والنفس راضية إذا رغبها • وإذا تُردَّ إلى قليل تنزعُ

والثين التثبت في القتل واجب حضرا وسفرا لاخلاف فيه ، وإنما خص السفر بالذكر لأن الحادثة التي فيها نزلت الآية وقعت في السفر .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَى إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا ) السَّلام والسَّلم والسلام واحد؛ قاله البخاري . وقرئ بها كلها . واختار أبو حيد القاسم بن سلام « السلام » . وخالفه أهل النظر فقالوا : « السَّلم » ههنا أشبه لأنه بمعنى الاقبياد والسلم ، كما قال جل وعز : « فَاتَّقُوا السَّلامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ » فالسَّلم الاستسلام والاقبياد . أي لا تقولوا لمن آتى بيده واستسلم لكم وأظهر دعوته لست مؤمناً . وقيل : السلام قوله السلام عليكم ، وهو راجع إلى الأول؛ لأن سلامه بجهة الإسلام مؤذن بطاعته واتباعه ، ويحتمل أن يراد به الانحياز والترك . قال الأخفش : يقال [فلان] سلام إذا كان لا يخالط أحدا . والسَّلم (شد السنين وكسرها وسكون اللام) الصفع .

الرابعة - وروى عن أبي جعفر أنه قرأ « لَسْتَ مُؤْمِنًا » بفتح الميم الثانية ، من آمته إذا أبرته فهو مؤمن .

الخامسة - والمسلم إذا لقي الكافر ولا عهد له بجاهله قتله ؛ فإن قال : لا إله إلا الله لم يميز قتله ؛ لأنه قد أحصم بمصام الإسلام المانع من دمه وماله وأهله ؛ فإن قتله بعد ذلك قتل به . وإنما سقط القتل من هؤلاء لأجل أنهم كانوا في صدر الإسلام وغايلوا أنه قالما متعونا وخوفا من السلاح ، وأن العاصم قولها مبطنها ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه طامص

(١) هنا مجزيت ومعه : • واسعن ما أغناك وبك بالنبي •

كيفاً قالها ؛ ولذلك قال لأسامة : " أفلا شقت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا " أخرجه مسلم .  
 أى تنتظر أصادق هو فى قوله أم كاذب ؛ وذلك لا يمكن ، فلم يبق إلا أن يبين عنه لسانه . وفى هذا  
 من الفقه باب عظيم ، وهو أن الأحكام تناط بالمظان والظواهر لاعل القطع وإطلاع السرائر .  
 السادسة — فإن قال : سلام عليكم فلا ينبغي أن يقتل أيضاً حتى يعلم ماوراء هذا ؛  
 لأنه موضع إشكال . وقد قال مالك فى الكافر يوجد حيث مُستأنس أطلب الإيمان :  
 هذه أمور مشككة ، وأزى أن يُرد إلى مأمته ولا يُحكم له بحكم الإسلام ؛ لأن الكفر قد ثبت  
 له فلا بد أن يظهر منه ما يدل على قوله ، ولا يكفى أن يقول أنا مسلم ولا أنا مؤمن ولا أن  
 يصلّى حتى يتكلم بالكلمة العاصمة التى علّق النبيّ صلى الله عليه وسلم الحكم بها عليه فى قوله :  
 " أمّرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله " .

السابعة — فإن صلى أو فعل فعلا من خصائص الإسلام فقد اختلف فيه علماءنا ؛  
 فقال ابن العربي : نرى أنه لا يكون بذلك مسلماً ، أمّا أنه يقال له : ماوراء هذه الصلاة ؟  
 فإن قال : صلاة مسلم ، قيل له : قل لا إله إلا الله ، فإن قالها تبين صدقه ، وإن أبى علينا  
 أن ذلك تلاعب ، وكانت عند من يرى إسلامه ريبة ؛ والصحيح أنه كُفّر أصليّ ليس بريّة .  
 وكذلك هذا الذى قال : سلام عليكم ، تكلف الكلمة <sup>(١)</sup> ، فإن قالها تحقق رشاده ، وإن أبى تبين  
 عناده وقُتل . وهذا معنى قوله « فبينوا » أى الأمر المشكل ، أو تبينوا ولا تسجلوا ؛ المنيان  
 سواء . فإن قتله أحد فقد أتى منياً عنه . فإن قيل : فتخليط النبيّ صلى الله عليه وسلم على  
 عُلم ، ونبذه من قبره كيف خرجته ؟ قلنا : لأنه علم من نيته أنه لم يبال بإسلامه فقتله متعمداً  
 لأجل الحجة التى كانت بينهما فى الجاهلية .

الثامنة — قوله تعالى : ( تَبَيَّنُوا عَرَضَ الدُّنْيَا ) أى تبينوا أخذ ماله . ويسمى  
 متاع الدنيا عَرَضاً لأنه عارض زائل غير ثابت . قال أبو عبيدة : يقال جميع متاع الدنيا عَرَضٌ  
 بفتح الراء ؛ ومنه : " الدنيا عَرَضٌ حاضراً كل منها البر والفاجر " . والعَرَض ( يسكون الراء )

(١) تكلف النبيّ : تجشمه على مشقة وعمل خلاف حاجته .

ما يسرى الدانير والدرهم؛ فكل عرض عرض، وليس كل عرض عرضاً. وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس الثني عن كثرة العرض إنما الثني عن النفس". وقد أخذ بعض العلماء هذا المعنى فتنظموه:

تفتح بما يكتفيك وأستعمل الرضا • فإني لا تسدري أن تصبح أم عبي

فليس الثني عن كثرة المال إنما • يكون الثني والفقر من قبل النفس

وهذا يصح قول أبي عبيدة: فإن المال يشمل كل ما يؤخذ. وفي كتاب العين: العرض ما ينال من الدنيا؛ ومنه قوله تعالى: «يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا» وجمعه عروض. وفي المجمل لابن فارس: والعرض ما يعرض للإنسان من مرض. وعرض الدنيا ما كان فيها من مال قل أو كثر. والعرض من الإثبات ما كان غير قديم. وأعرض الشيء إذا ظهر وأمكن. والعرض خلاف الطول.

التاسعة - قوله تعالى: (فَعَسَىٰ أَمْرُهُمْ كَثِيرٌ) حجة من الله تعالى بما يأتي به على وجهه ومن حله دون أن تكتب محظور، أي فلا تهاقوا. (كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ) أي كذلك كنتم تخفون إيمانكم عن قومكم خوفاً منكم هل أنفسكم حتى من الله عليكم بإعزاز الدين وقلبة المشركين، وهم الآن كذلك كل واحد منهم في قومه مترقب أن يصل اليكم، فلا يصلح إذ وصل اليكم أن تقتلوه حتى تتيقنوا أمره. وقال ابن زيد: المعنى كذلك كنتم كفره (فَنَافَعُ لَّكُمْ) بأن أسلمتم فلا تتكروا أن يكون هو كذلك ثم يسلم لحبه حين لقيكم فيجب أن تتجنبوا في أمره.

العاشرة - استدلت بهذه الآية من قال: إن الإيمان هو القول؛ لقوله تعالى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَن آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا». قالوا: ولما منع أن يقال لمن قال لا إله إلا الله لست مؤمناً منع من قتلهم بمجرد القول. ولولا الإيمان الذي هو هذا القول لم يحب قتلهم. قلنا: إنما شك القوم في حالة أن يكون هذا القول منه تموزاً فقتلوه، والله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله". وليس في ذلك أن الإيمان هو الإقرار فقط؛ ألا ترى أن المنافقين كانوا يقولون هذا القول

وليسوا بمؤمنين حسب ما تقدم بيانه في «البقرة» وقد كشف البيان في هذا قوله عليه السلام :  
 « أفلا شققت عن قلبه » . فثبت أن الإيمان هو الإقرار وغيه ، وأن حقيقته التصديق بالقلب  
 ولكن ليس للعبد طريق إليه إلا ما سمع منه فقط . واستدل بهذا أيضا من قال : إن الزنديق  
 تقبل توبته إذا أظهر الإسلام ؛ قال : لأن الله تعالى لم يفرق بين الزنديق وغيه متى أظهر  
 الإسلام . وقد مضى القول في هذا في أول البقرة<sup>(١)</sup> . وفيما رد على القدرية ، فإن الله أخبر أنه  
 من على المؤمنين من بين جميع الخلق بأن خصهم بالتوفيق ، والقدرية تقول خلفهم كلهم  
 للإيمان ؛ ولو كان كما زعموا لما كان لاختصاص المؤمنين بالمنة من بين الخلق معنى .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَبِّبُوا ﴾ أعاد الأمر بالتيين للتأكيد . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
 بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ تحذير عن مخالفة أمر الله ؛ أى أحفظوا أنفسكم وجنّبوا الزلل الموقر لكم .

قوله تعالى : لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ  
 وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ  
 بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ  
 الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا<sup>(٢)</sup> دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً  
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا<sup>(٣)</sup>

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : لا يستوى  
 القاعدون عن بدر والخارجون إليها . ثم قال : ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ والضَّرَرُ الزمانة . روى  
 الأئمة واللفظ لأبي داود عن زيد بن ثابت قال : كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 فعشيت السكينة فوقعت فغد رسول الله صلى الله عليه وسلم على غنذى ، فاجلست يقول شئ .

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٢ طبة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ١ ص ١٩٨ طبة ثانية أو ثالثة .

(١) أَقْبَلَ مَنْ نَفَذَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَقَالَ: «كُتِبَ» فَكَتَبْتُ فِي كَيْفٍ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قَامَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ - وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى - لَمَّا سَمِعَ فَضِيلَةَ الْمُجَاهِدِينَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَيْفَ بِنَ لَا يَسْتَطِيعُ الْجِهَادُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَلَمَّا قَضَى كَلَامَهُ غَشِيَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّكِينَةُ فَوَقَعَتْ تَغْذَهُ عَلَى نَحْضِي، وَوَجَدْتُ مِنْ هَلْهَلَا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ كَمَا وَجَدْتُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِقْرَأْ يَا زَيْدُ» فَقَرَأْتُ «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ» الْآيَةَ كُلَّهَا. قَالَ زَيْدُ: فَاتَّزِمْنَا اللَّهُ وَحْدَهُمَا فَالْحَقْتُهَا؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُلْحَقِهَا عِنْدَ صَدْعٍ فِي كَتِفٍ. وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ مِقْسَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» عَنْ بَدْرِ بْنِ الْحَارِثِ إِلَى بَدْرِ. قَالَ الْعُلَمَاءُ: أَهْلُ الضَّرَرِ هُمْ أَهْلُ الْأَعْذَارِ لِأَنَّهُ قَدْ أَضْرَبَتْ بِهِمْ حَتَّى مَنَعَتْهُمْ الْجِهَادَ. وَصَحَّ وَثَبَتْ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ وَقَدْ قَتَلَ مِنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رَجُلًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا وَلَا سِرْتَمَ سِيرًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ أُولَئِكَ قَوْمٌ جَحِيمٌ الْمَذْرُوءُ». فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ صَاحِبَ الْمَذْرُوءِ يُعْطَى أَجْرُ النَّازِي؛ فَقِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَجْرُهُ مَسَاوِيًا، وَفِي فَضْلِ اللَّهِ مَتَّعَ، وَثَوَابِهِ فَضْلٌ لَا اسْتِحْقَاقَ؛ فَيُثِيبُ عَلَى النِّيَّةِ الصَّادِقَةِ مَا لَا يُثِيبُ عَلَى الْقَعْلِ. وَقِيلَ: يُعْطَى أَجْرُهُ مِنْ غَيْرِ تَضْعِيفٍ فَيَفْضُلُهُ النَّازِي بِالتَضْعِيفِ لِلْبَاشِرَةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

قلت: والقول الأول أصح - إن شاء الله - للحديث الصحيح في ذلك «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رَجُلًا» ولحديث أبي كَيْشَةَ الْأَنْمَارِيُّ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ» الْحَدِيثُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ «آلْ عِمْرَانَ». وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى مَا وَرَدَ فِي الْخَبَرِ «إِنَّا حَرَّضَ الْعَبْدَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أُمْتُكَ الْعَبْدَى مَا كَانَ يَعْمَلُهُ فِي الصَّبَةِ إِلَى أَنْ يَرَى أَوْ أَقْبَضَهُ إِلَيَّ».

(١) الكُتِفُ: عظم عريض يكون في أسفل كتف الحيوان من الناس والحيوانات كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم.



الثانية - وقد عسك بعض العلماء هذه الآية بأن أهل الديوان أعظم أجراً من أهل المطوع؛ لأن أهل الديوان لما كانوا متمكين بالمطاء، ويصرون في الشدائد، وتروهم البحوث والأوامر، كانوا أعظم من المطوع؛ لسكون جاشه ونعمة باله في الصوائف الجار ونحوها . قال ابن حجر: أصحاب المطاء أفضل من المطوعة لما يروعون . قال مكحول: رومات البحوث شفى رومات القيامة .

الثالثة - وتعلق بها أيضاً من قال: إن الفنى أفضل من الفقر؛ لذكر الله تعالى المال الذى يوصل به إلى صالح الأعمال . وقد اختلف الناس فى هذه المسألة مع اتفاقهم أن ما أخرج من الفقر مكره، وما أطر من الفنى مذموم؛ فذهب قوم إلى تفضيل الفنى لأن النبى مقتدر والفقر عاجز، والقدرة أفضل من العجز . قال الماوردى: وهذا مذهب من غلب عليه حب التباهة . وذهب آخرون إلى تفضيل الفقر؛ لأن الفقر تارك والفنى ملابس، وترك الدنيا أفضل من ملابستها . قال الماوردى: وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة . وذهب آخرون إلى تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج عن حد الفقر إلى دنى مراتب الفنى ليصل إلى فضيلة الأمرين، وليسلم من مذمة الحالين . قال الماوردى: وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وأن خير الأمور أوسطها . ولقد أحسن الشاعر الحكم حيث قال :

ألا عائذا بالله من عدم الفنى • ومن رغبة يوماً إلى غير مرغب

الرابطة - قوله تعالى: ( قَرَأُوا الْقُرْآنَ ) قراءة أهل الكوفة وأبو عمرو « غير » بالرفع؛ قال الأخفش: هو نعت للقاعدين؛ لأنهم لم يُقصد بهم قوم باعيتهم فصاروا كالنكرة بخاز وصفهم بغير؛ والمعنى لا يستوى القاعدون غير أولى الضرر؛ أى لا يستوى القاعدون الذين هم غير أولى الضرر . والمعنى لا يستوى القاعدون الأصحاء؛ قاله الزجاج . وقرأ أبو حية « غير » جعله نعتاً للذين؛ أى من المؤمنين الذين هم غير أولى الضرر من المؤمنين الأصحاء .

وقرأ أهل الحرمين « غير » بالنصب على الاستثناء من القاعدين أو من المؤمنين ؛ أى إلا أولى الضرر فانهم يسترون مع المجاهدين . وإن شئت على الحال من القاعدين ؛ أى لا يستوى القاعدون من الأصحاء أى فى حال صحتهم ؛ وبازت الحال منهم لأن لفظهم لفظ المعرفة ، وهو كما تقول : جاني زيد غير مريض . وما ذكرناه من سبب التزول يدل على معنى النصب ، والله أعلم .

الخامسة - قوله تعالى : ( فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ) وقد قال بعد هذا « درجات منه ومغفرة ورحمة » فقال قوم : التفضيل بالدرجة . بالدرجات إما هو مبالغة وبيان وتأكيد . وقيل : فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر درجة واحدة ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير عذر درجات ؛ قاله ابن جريج والسدي وغيرهما . وقيل : إن معنى درجة علو ، أى أعلى ذكرهم ورفعتهم بالثناء والممدح والتعظيم . فهذا معنى درجة ، ودرجات بمعنى فى الجنة . قال ابن حجر : سبعين درجة بين كل درجتين حصر الفرس الجواد سبعين سنة . « ودرجات » بدل من أجر وتفسيره ، ويجوز نصبه أيضاً على تقدير الظرف ؛ أى فضلهم بدرجات ، ويجوز أن يكون توكيداً لقوله « أَجْرًا عَظِيمًا » لأن الأجر العظيم هو الدرجات والمغفرة والرحمة ، ويجوز الرفع ؛ أى ذلك درجات . و « أَجْرًا » نصب بفضل ، وإن شئت كان مصدراً وهو أحسن ، ولا يتنصب بفضل ؛ لأنه قد استوفى مفعوله وهما قوله « المجاهدين » و « على القاعدين » ؛ وكذا « درجة » . فالدرجات منازل بعضها أعلى من بعض . وفى الصحيح من النبي صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة مائة درجة أصحها الله للمجاهدين فى سبيله بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » . ( وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى ) « كلا » منصوب بومد ، و « الحسنى » الجنة ؛ أى وعد الله كلا الحسنى . ثم قيل : المراد ( بكل ) المجاهدون خاصة . وقيل : المجاهدون وأولو الضرر . والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٧٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٧٩﴾

المراد بها جماعة من أهل مكة كانوا قد أسلموا وأظهروا للنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان به ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم أقاموا مع قومهم وكن منهم جماعة فأقتنوا ، فلما كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار؛ فزلت الآية . وقيل : إنهم لما استحقوا عدد المسلمين دخلهم شك في دينهم فارتدوا فقتلوا على الرقة؛ فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكبروا على الخروج فاستغفروا لهم؛ فزلت الآية . والأول أصح . روى البخاري عن محمد ابن عبد الرحمن قال : قُطِعَ على أهل المدينة بث فاكتُبت فيه عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته فتهاى عن ذلك أشد التهاى ، ثم قال : أخبرني ابن عباس أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرّون سواد المشركين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل ؛ فانزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » .

قوله تعالى : ( تَوَفَّاهُمْ ) يحتمل أن يكون فعلا ماضيا لم يستند بعلامة تأنيث ، إذ تأنيث لفظ الملائكة غير حقيقى ، ويحتمل أن يكون فعلا مستقبلا على معنى توفاهم ؛ فحذفت إحدى التامين . وحكى ابن قُورَك عن الحسن أن المعنى تحشرهم إلى النار . وقيل : قبض أرواحهم ، وهو أظهر . وقيل : المراد بالملائكة ملك الموت ؛ لقوله تعالى : « قُلْ يَتَوَفَّاهُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَكُمْ عَنْهُ » . ( وَظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ) نصب على الحال ؛ أى في حال ظلمهم .

(١) أى الزمر بتراج جيش قتال أهل الشام في خلافة عبد الله بن الزبير على مكة (عن شرح القسطلاني) .

أنفسهم ، والمراد ظالمين أنفسهم فحذف النون استخفافاً وأضاف ؛ كما قال تعالى : « هَذَا بَالِغُ الْكَفَرَةِ » . وقول الملائكة : « فِيمَ كُنتُمْ » سؤال تفرغ وتوبيخ ، أى اكنتم فى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أم كنتم مشركين ؛ وقول هؤلاء : « كُنَّا مُسْتَضْمِّقِينَ فِي الْأَرْضِ » يعنى مكة ، اعتذار غير صحيح ؛ إذ كانوا يستطيعون الحيل ويبتدون السبل ، ثم وقفتهم الملائكة على دينهم بقولهم « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً » . ويفيد هذا السؤال والجواب أنهم ماتوا مسلمين ظالمين لأنفسهم فى تركهم الهجرة ، وإلا فلو ماتوا كافرين لم يقل لهم شئ من هذا ، وإنما أُخرب عن ذكرهم فى الصحابة لشدة ما واقعوه ، ولعدم تعيين أحدهم بالإيمان ، واحتمال رذته . والله أعلم . ثم استثنى تعالى منهم من الضمير الذى هو الله ، والميم فى « مَاوَاهُمْ » من كان مستضعفاً حقيقة من زنى الرجال وضَمَفَةُ النساء والولدان ؛ كعياض بن أبى ربيعة ومسلمة ابن هشام وقيرهم الذين دعا لهم الرسول صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : كنت أنا وأُمّى ممن عَنِ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ ؛ وذلك أنه كان من الولدان إذ ذاك ، وأُمّه هى أُمّ الفضل بنت الحارث وأسمها لُبَابَةٌ ، وهى أخت ميمونة ، وأختها الأخرى لبابة الصغرى ، هن تسع أخوات . قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهن : « الْأَخَوَاتُ مُؤْمَنَاتٌ » . ومنهن سلمى والصماء وحفيدة ويقال فى حفيدة أم حفيد ، واسمها هنيلة . وهن ست شقائق وثلاث لأم ، وهن سلمى ، وسلامة ، وأسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبى طالب ، ثم امرأة أبى بكر الصديق ، ثم امرأة على رضى الله عنهم أجمعين .

قوله تعالى : ( فِيمَ كُنتُمْ ) سؤال توبيخ ، وقد تقدم . والأصل « فِيمَا » ثم حذفت الألف فرقاً بين الاستفهام والخبر ، والوقف عليها فيم ؛ لئلا تحذف الألف والحركة . والمراد بقوله : ( أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ) المدينة ؛ أى ألم تكونوا متمكنين قادرين على الهجرة والتباعد ممن كان يستضعفهم ! وفى هذه الآية دليل على هجران الأرض التى يُعمل فيها بالمعاصى . وقال سعيد بن جبير : إذا عَمِلَ بِالْمَعَاصِى فى أرض فأنجس منها ؛ وتلا « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ

(١) فى تهذيب التهذيب حرف اللام : ( الأخوات الأربع مؤمنات ) .

وَإِسْمُهُ قُتَيْبٌ رُؤُوسًا فِيهَا . . . وَرَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : «مَنْ تَزَيَّدَ مِنْ  
أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ وَإِنْ كَانَ شِبْرًا اسْتَوْجِبَ الْجَنَّةَ وَكَانَ رَفِيقَ إِبْرَاهِيمَ وَنُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . . .  
( فَأُولَئِكَ مَتَّوْنٌ بِهِمْ ) أَيْ مَتَّوْنٌ الْتَار . وَكَانَتِ الْمِجْرَةُ وَاجِبَةً عَلَى كُلِّ مَنْ أَسْلَمَ . ( وَسَمِعْتُ  
مُصَيْبًا ) نَصَبَ عَلَى التَّصْيِيرِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ( لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ) الْحِيلَةُ لَفْظٌ عَامٌّ لِأَنْوَاعِ  
أَسْبَابِ التَّخْلُصِ . وَالسَّبِيلُ سَبِيلُ الْمَدِينَةِ ؛ فِيمَا ذَكَرَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا ، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ عَامٌّ  
فِي جَمِيعِ السُّبُلِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ( فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَمُوتَ عَنْهُمْ ) هَذَا الَّذِي لَا حِيلَةَ لَهُ  
فِي الْمِجْرَةِ لَا ذَنْبَ لَهُ حَتَّى يُمَيِّتَ عَنْهُ ؛ وَلَكِنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ قَدْ يَمُوتُ أَنَّهُ يَجِبُ تَحْمِلُ غَايَةَ الْمَشَقَّةِ  
فِي الْمِجْرَةِ ، حَتَّى أَنْ مَنْ لَمْ يَحْمِلْ تِلْكَ الْمَشَقَّةَ يَمَاقِبُ فَازَالَ اللَّهُ ذَلِكَ الْوَجْهَ ؛ إِذْ لَا يَجِبُ تَحْمِلُ  
غَايَةَ الْمَشَقَّةِ ، بَلْ كَانَ يَجُوزُ تَرْكُ الْمِجْرَةِ عِنْدَ قَدْرِ الزَّادِ وَالرَّاحِلَةِ . - فَعْنَى الْآيَةِ : فَأُولَئِكَ  
لَا يَسْتَقْصِي عَلَيْهِمْ فِي الْحَاسِبَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ( وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا ) وَالْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلُ  
فِي حَقِّهِ تَعَالَى وَاحِدٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

قوله تعالى : وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا  
وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ  
فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٥﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ ) شَرْطُ وَجْوَابِهِ . ( فِي الْأَرْضِ  
مُرْعًا ) اُخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِ الْمُرْعَةِ ؛ فَقَالَ مُجَاهِدٌ : الْمُرْعَةُ الْمَتْرَحُ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ  
وَالْبَرِيقُ وَغَيْرُهُمْ : الْمُرْعَةُ الْمَتَحَوَّلُ وَالْمَذْهَبُ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْمُرْعَةُ الْمُهَاجِرُ ؛ وَقَالَ أَبُو عِيْدَةَ .  
قَالَ النَّحَّاسُ : فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ مَتَقَّةُ الْمَانِي . فَالْمُرْعَةُ الْمَذْهَبُ وَالْمَتَحَوَّلُ فِي حَالِ هَجْرَةٍ ، وَهُوَ  
اسْمُ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُرَاقَمُ فِيهِ ، وَهُوَ شَقٌّ مِنَ الرِّقَامِ . وَرَقِمَ أَتَى فُلَانٌ أَيْ لَبِيقَ بِالْتُّرَابِ .  
وَرَاغَمَتْ فُلَانًا هَجْرَتُهُ وَعَادِيَتُهُ ، وَلَمْ أَبَالْ إِنْ رَقِمَ أَفْعُ . وَقِيلَ : إِنَّمَا سُمِّيَ مُهَاجِرًا وَمَزَانِمًا

لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه وهجرهم فسُمي خروجهم مراغما ، وسُمي مضجعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم هجرة . وقال السدي : المرائم المبتنى للعيثة . وقال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : المرائم الذهب في الأرض . وهذا كله تحصيل بالمعنى ، وكله قريب بعضه من بعض ، فأما الخاص باللفظة فإن المرائم موضع المراغمة كما ذكرنا ، وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه بأن يبله على مراده ؛ فكأن كفار قريش أرغموا أنوف المؤمنين بمكة ، فلو هاجر منهم مهاجر لأرغم أنوف قريش لحصوله في منعة منهم ، تلك المنعة هي موضع المراغمة . ومنه قول النابغة :

صَلَّوْهُ بِلَادَ إِرْكَانِهِ • عَزِيزُ الْمُرَائِمِ وَالْمَهْرَبِ

الثانية - قوله تعالى : ( وَسَعَةً ) أى في الرزق ؛ قاله ابن عباس والربيع والضحاك . وقال قتادة : المعنى سعة من الضلالة إلى الهدى ومن العيلة إلى النسي . وقال مالك : السعة سعة البلاد . وهذا أشبه بفصاحة العرب ؛ فإن بسعة الأرض وكثرة المعاول تكون السعة في الرزق ، واتساع الصدر لموسمه وفكره وغير ذلك من وجوه الفرج . ونحو هذا المعنى قول الشاعر :

وَكُنْتُ إِذَا خَلِيلُ رَامَ قَطْلِي • وَجَدْتُ وَرَائِي مَغْسَعًا عَرِيضًا

آخر :

لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَإِسْعٌ • فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطَّوْلِ وَالْعَرْضِ

الثالثة - قال مالك . هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المقام : أرض يسب فيها السلف ويُسَلَّم فيها بغير الحق . وقال : والمرائم الذهب في الأرض ، والسعة سعة البلاد على ما تقدم . واستدل أيضا بعض العلماء بهذه الآية على أن القتلى إذا خرج إلى القبر ثم مات قبل القتال له سهم وإن لم يحضر الحرب ؛ رواه ابن أبي حنيفة عن يزيد بن أبي حبيب عن أهل المدينة . وروى ذلك عن ابن المبارك أيضا .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ) الآية . قال عكرمة مولى ابن عباس : طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته . وفي قول

عِزَّةً هَذَا دَلِيلٌ عَلَى شَرَفِ هَذَا الْعِلْمِ قَدِيمًا ، وَأَنَّ الْاِخْتِيَاءَ بِهِ جَسَنٌ وَالْمَعْرِفَةُ بِهِ فَضْلٌ ، وَيُخَوِّدُهُ  
 قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ : مَكَثْتُ سِتِينَ أَوْ يَدِ أَنْ أَسْأَلَ عَمْرَ عَنِ الرَّائِيَيْنِ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ  
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَنْبَغِي إِلَّا مَهَابَتُهُ . وَالَّذِي ذَكَرَهُ عِزَّةً هُوَ ضَمْرَةُ بْنُ الْعِيسِ  
 أَوْ الْعِيسِ بْنِ ضَمْرَةَ بْنِ زَيْنَابٍ ، حَكَاهُ الطَّبْرِيُّ عَنْ مَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ . وَيَقَالُ فِيهِ : ضَمْرَةُ أَيْضًا ،  
 وَيَقَالُ : جُنْدَحُ بْنُ ضَمْرَةَ مِنْ بَنِي لَيْثٍ ، وَكَانَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ وَكَانَ مَرِيضًا ، فَلَمَّا سَمِعَ  
 مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِي الْمَجْرَةِ قَالَ : أَخْرِجُونِي ، فَنُفِيَ لَهُ فِرَاشٌ ثُمَّ وُضِعَ عَلَيْهِ وَخُجِرَ بِهِ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ  
 بِالنِّعَمِ<sup>(١)</sup> ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهْجَرًا » الْآيَةَ ، وَذَكَرَ أَبُو عَمْرٍاهُ أَنَّ قَدِيلَ فِيهِ :  
 خَالِدُ بْنُ حَزَامٍ بْنُ خُوَيْلِدِ بْنِ أُنَيْسٍ خَدِيجَةً ، وَأَنَّهُ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَهَشَتَهُ حَيَّةٌ فِي الطَّرِيقِ  
 فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ أَرْضَ الْحَبَشَةِ ، فَتَرَلَتْ فِيهِ الْآيَةَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَحَكَى أَبُو الْفَرَجِ الْجَوْزِيُّ :  
 أَنَّهُ حَبِيبُ بْنُ ضَمْرَةَ . وَقِيلَ : ضَمْرَةُ بْنُ جُنْدَبِ الضَّمْرِيُّ ، عَنْ السُّدِّيِّ . وَحَكَى عَنْ عِزَّةً  
 أَنَّهُ جُنْدَبُ بْنُ ضَمْرَةَ الْجُنْدَعِيُّ . وَحَكَى عَنْ ابْنِ جَابِرٍ أَنَّهُ ضَمْرَةُ بْنُ بَيْضَ الَّذِي مِنْ بَنِي لَيْثٍ ،  
 وَحَكَى الْمُهَذَّبِيُّ أَنَّهُ ضَمْرَةُ بْنُ ضَمْرَةَ بْنِ نُعَيْمٍ . وَقِيلَ : ضَمْرَةُ بْنُ نِزَاعَةَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَرَوَى  
 مَعْمَرُ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِي أُنْفُسِهِمْ » الْآيَةَ ، قَالَ رَجُلٌ  
 مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ مَرِيضٌ : وَاللَّهِ مَا لِي مِنْ عَذْرِ ! إِنْ لَدَّلِي فِي الطَّرِيقِ ، وَإِنِّي لَمُوسَى ، فَاحْلُونِي  
 لِحْمَلُوهُ فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فِي الطَّرِيقِ ، فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ بَلَغَ الْإِنْسَانُ أَجْرَهُ ،  
 وَقَدْ مَاتَ بِالنِّعَمِ . وَجَاءَ بَنُوهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرُوهُ بِالْقِصَّةِ ، فَتَرَلَتْ هَذِهِ  
 الْآيَةَ « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهْجَرًا » الْآيَةَ . وَكَانَ اسْمُهُ ضَمْرَةُ بْنُ جُنْدَبٍ ، وَيَقَالُ : جُنْدَبُ  
 ابْنِ ضَمْرَةَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ . ( وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ) لَمَّا كَانَ مِنْهُ مِنَ الشَّرْكِ . ( رَحِيمًا ) حِينَ قِيلَ  
 تَوْبَتُهُ .

الْحَامِسَةُ — قَالَ ابْنُ أَبِي الْعَرَبِيِّ : قَسَمَ الْعُلَمَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذَّهَابَ فِي الْأَرْضِ  
 قَسَمَيْنِ : هَرَبًا وَطَلَبًا ، فَالْأَوَّلُ يَنْقَسِمُ إِلَى سِتَّةِ أَقْسَامٍ : الْأَوَّلُ — الْمَجْرَةُ وَهِيَ الْخُرُوجُ مِنْ

(١) النِّعَمُ : مَرَضٌ بِمَكَّةَ .

دار الحرب إلى دار الإسلام ، وكانت فريضة في أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة ، والتي آتت من الفتح حتى القصص إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان ؛ فإن بقي في دار الحرب عصي ، ويختلف في حاله . الثاني - الخروج من أرض البدعة ؛ قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يُسب فيها السلف . قال ابن العربي : وهذا صحيح ؛ فإن المنكر إذا لم يقدر أن يتغير فزل عنه ، قال الله تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » إلى قوله « الظالمين » . الثالث - الخروج من أرض غلب عليها الحرام ؛ فإنا طلب الحلال فرض على كل مسلم . الرابع - الفرار من الأذية في البدن ؛ وذلك فضل من الله أرخص فيه ؛ فإذا خشي على نفسه فقد أذن الله في الخروج عنه والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المذنب . وأول من فعله إبراهيم عليه السلام ؛ فإنه لما خاف من قومه قال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي » ، وقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ » . وقال عزرا عن موسى : « فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » . الخامس - خوف المرض في البلاد الوثمة والخروج منها إلى الأرض النيرة . وقد أذن صلى الله عليه وسلم للرعاة حين استوتخوا المدينة أن يخرجوا إلى المسرح فيكونوا فيه حتى يصحوا . وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون ؛ فنعى الله سبحانه منه بالحديث الصحيح عن نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ وقد تقدم بيانه في « البقرة » . <sup>(١)</sup> بيد أن علماءنا قالوا : هو مكروه . السادس - الفرار خوف الأذية في المال ؛ فإن حرمة مال المسلم بحكمة دمه ، والأهل مثله وأوكده . وأما قسم الطلب فيقسم قسمين : طلب دين وطلب دنيا ؛ فاما طلب الدين فيمتد بتعدد أنواعه إلى تسعة أقسام : الأول - سفر العبادة ؛ قال الله تعالى : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وهو كثير . ويقال : إن ذا القرنين إنما طاف [ الأرض ] ليرى عجائبها . وقيل : ليغذ الحق فيها . الثاني - سفر الحج . والأول وإن كان

(١) كذا في الأصول . والذي في ابن السري : « حيث كانت أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام » . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٢٠ طبة أول أو ثانية . (٣) الزيادة عن ابن العربي .



تدباً فهذا فرض . الثالث - سفر الجهاد وله أحكامه . الرابع - سفر المعاش ؛ فقد يتعذر على الرجل معاشه مع الإقامة فيخرج في طلبه ليزيد عليه ، من صيد أو اختطاب أو احتشاش ؛ فهو فرض عليه . الخامس - سفر التجارة والكسب الزائد على القوت ، وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى ؛ قال الله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » يعني التجارة ، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج ، فكيف إذا انفردت . السادس - في طلب العلم وهو مشهور . السابع - قصد الوقاع ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ » . الثامن - الثغور للرباط بها وتكثير سوادها للذب عنها . التاسع - زيارة الإخوان في الله تعالى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زَارِ رَجُلًا أَخَاهُ فِي قَرْيَةٍ فَأَرْصِدْ لَهُ مَلَكًا عَلَى مَدْرَجَتِهِ فَقَالَ أَيْنَ تَرِيدُ فَقَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ قَالَ هَلْ لَكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرَبَّاهَا عَلَيْهِ قَالَ لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فَأَيُّ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكَ بَانَ اللَّهُ قَدْ أَحْبَبَكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيهِ » . رواه مسلم وفيه .

قوله تعالى : وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٢٥﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (ضَرَبْتُمْ) سافرتُم ، وقد تقدم . واختلف العلماء في حكم القصر في السفر ؛ فروى عن جماعة أنه فرض . وهو قول عمر بن عبد العزيز والكوفيين والشافعي وإسماعيل وحامد بن أبي سليمان ؛ واحتجوا بحديث عائشة رضی الله عنها « فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ وَرَكْعَتَيْنِ » الحديث ، ولا حجة فيه لخالفها له ؛ فإنها كانت تيمُّ في السفر وذلك يؤيده . وإجماع فقهاء الأمصار على أنه ليس بأصل يستبرأ في صلاة المسافر خلف المقيم ؛ وقد قال غيرها من

(١) أَرَصَدَ : أَعَدَّ يَحِدُّ . وَالْمَدْرَجَةُ (يَفْتَحُ الْمَاءَ وَالرَّابِ) : الطَّرِيقُ .

(٢) وَيَتِ الْأَمْرَ : أَمَلَهُ وَخَتَهُ .

الصحابة كهمز وابن عباس وجبير بن نفيم : « إن الصلاة فُرضت في الجسر أربعا وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة » . رواه مسلم عن ابن عباس . ثم إن حديث عائشة قد رواه ابن عجلان عن ضاحك بن كيسان عن عروة عن عائشة قالت : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة ركعتين ركعتين . وقال فيه الأوزاعي عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت : فرض الله الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ركعتين ؛ الحديث ، وهذا اضطراب . ثم إن قولها : « فرضت الصلاة » ليس على ظاهره ؛ فقد خرج عنه صلاة المغرب والصبح ، فإن المغرب ما زيد فيها ولا نقص منها ، وكذلك الصبح ، وهذا كله يضعف عنه لاسنده . وحكى ابن الجهم أن أنسب روى عن مالك أن القصر فرض ، ومشهور مذهبه وجعل أصحابه وأكثر العلماء من السلف والخلف أن القصر سنة ، وهو قول الشافعي ، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه إن شاء الله . ومذهب عامة البغداديين من المالكيين أن الفرض التخفيف ؛ وهو قول أصحاب الشافعي . ثم اختلفوا في أيهما أفضل ؛ فقال بعضهم : القصر أفضل ؛ وهو قول الأبيري وغيره . وقيل : إن الإتمام أفضل ؛ وحكى عن الشافعي . وحكى أبو سعيد الفريسي المالكي أن الصحيح في مذهب مالك التخفيف للمسافر في الإتمام والقصر .

قلت — وهو الذي يظهر من قوله سبحانه وتعالى : « فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ » إلا أن مالكا رحمه الله يستحب له القصر ، وكذلك يرى عليه الإعادة في الوقت إن أتم . وحكى أبو مصعب في « مختصره » عن مالك وأهل المدينة قال : القصر في السفر للرجال والنساء سنة . قال أبو عمر : وحسبك بهذا في مذهب مالك ، مع أنه لم يختلف قوله أن من أتم في السفر بعيد ما دام في الوقت ؛ وذلك استحباب عند من فهم ، لا إيجاب . وقال الشافعي : القصر في غير الخوف بالسنة ، وأما في الخوف مع السفر فالقرآن والسنة ؛ ومن صلى أربعا فلا شيء عليه ، ولا أحب لأعد أن يتم في السفر رغبة عن السنة . وقال أبو بكر الأثرم : قلت لأحمد بن حنبل للرجل أن يصلي في السفر أربعا ، قال : لا ، ما يجزئني السنة ركعتان . وفي موطن مالك عن ابن شهاب عن رجل من آل خنابلة بن أسيد ، أنه سأل عبد الله بن عمر

فقال : يا أبا عبد الرحمن إنما نجد صلاة الخوف وصلاة الخضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر؟ فقال عبد الله بن عمر : يا ابن أختي إن الله تبارك وتعالى بعث إلينا محمداً صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئاً، فإذا فعل كما رأيناه يفعل . ففى هذا الخبر قصر الصلاة في السفر من غير خوف سنة لا فريضة؛ لأنها لا ذكر لها في القرآن ، وإنما القصر المذكور في القرآن إذا كان سفراً وخوفاً واجتماعاً ، فلم يبح القصر في كتابه إلا مع هذين الشرطين . ومثله في القرآن : « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ » الآية ، وقد تقدم . ثم قال تعالى : « فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى فاتموا ، وقصر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أربع إلى اثنتين إلا المغرب في أسفاره كلها آمناً لا يخاف إلا الله تعالى ، فكان ذلك سنة مستوفاة منه صلى الله عليه وسلم ، زيادة في أحكام الله تعالى كما مر ما سته ويثبه ، عما ليس له في القرآن ذكر . وقوله « كما رأيناه يفعل » مع حديث عمر حيث سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القصر في السفر من غير خوف؟ فقال : « تلك صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » يدل على أن الله تعالى قد يبيح الشيء في كتابه بشرط ثم يبيح ذلك الشيء على لسان نبيه من غير ذلك الشرط . وسأل حنظلة ابن عمر عن صلاة السفر فقال : ركعتان .

قلت : فإين قوله تعالى : « إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا » ونحن آمنون؟ قال : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا ابن عمر قد أطلق عليها سنة ، وكذلك قال ابن عباس . فأين المذهب عنهما . قال أبو عمر : ولم يبق مالك إسناده هذا الحديث ، لأنه لم يسم الرجل الذى سأل ابن عمر ، وأسقط من الإسناد رجلاً ، والرجل الذى لم يسمه هو أمية بن عبد الله ابن خالد بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، والله أعلم .

الثانية : واختلف العلماء في حد المسافة التى تقصر فيها الصلاة ، فقال داود : تقصر في كل سفر طويل أو قصير ، ولو كان ثلاثة أميال من حيث توفى الجمعة ، متمسكاً بما رواه مسلم عن يحيى بن يزيد الهناتى قال : سألت أنس بن مالك عن قصر الصلاة فقال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ <sup>(١)</sup> شُبَّهَ الشَّائِكُ -  
صَلَّى رَكْعَتَيْنِ . وهذا لا حجة فيه ؛ لأنه مشكوك فيه ، وعلى تقدير أحدهما فقلله حد المسافة  
التي بدأ منها القصر ، وكانت سفرا طويلا زائنا على ذلك ، والله أعلم . قال ابن العري :  
وقد تلاعب قوم بالدين فقالوا : إن من خرج من البلد إلى ظاهره قصر وأكل ، وقائل هذا  
أعجمي لا يعرف السفر عند العرب أو مستخف بالدين ، ولولا أن العلماء ذكروه لما رضيت  
أن الله يؤخر عني ، ولا أفكر فيه بفضول قلبي . ولم يذكر أحد المسافر الذي يقع به القصر  
لا في القرآن ولا في السنة ، وإنما كان كذلك لأنها كانت لفظة عربية مستعارة عليها عند العرب  
الذين خاطبهم الله تعالى بالقرآن ، فنحن نعلم قطعا أن من برز عن الدور لبعض الأمور أنه لا يكون  
مسافرا لغة ولا شرعا ، وأن مشى مسافرا ثلاثة أيام فإنه مسافر قطعا . كما أنا نحكم على أن من مشى  
يوما وليلة كان مسافرا ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم  
الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم منها " . وهذا هو الصحيح ؛ لأنه وسط بين الحالين  
وعليه قول مالك ، ولكنه لم يحذف هذا الحديث متفقا عليه ، وروى مرة يوما وليلة ومرة  
ثلاثة أيام ، فجاء إلى عبد الله بن عمر وعول على فعله ؛ فإنه كان يقصر الصلاة إلى ريم ، وهي  
أربعة برد ؛ لأن ابن عمر كانت كثير الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم . قال غيره : وكانت  
العلماء على أن القصر إنما شرع تخفيفا ، وإنما يكون في السفر الطويل الذي تلحق به المشقة  
غالبا ، فراعى مالك والشافعي وأصحابهما والليث والأوزاعي وفقهاء أصحاب الحديث أحمد  
وإسحاق وغيرهما يوما تاما . وقول مالك يوما وليلة راجع إلى اليوم التام ؛ لأنه لم يريد بقوله  
مسيرة يوم وليلة أن يسير التهازكه والليل كله ، وإنما أراد أن يسير سيرا بيت فيه [ بعيدا ]  
عن أهله ولا يمكنه الرجوع إليهم . وفي البخاري : وكان ابن عمر وابن عباس يخطران ويقصران  
في أربعة برد ، وهي ستة عشر فرسخا ، وهذا منذهب مالك . وقال الشافعي والطبري :  
سنة وأربعون ميلا . وعن مالك في العتية فيمن خرج إلى ضيعته على خمسة وأربعين ميلا

(١) أحد رواة سنة هذا الحديث .

(٢) (كم يسير أمه) ومنه ثمانية رسله وقيل بالياء من غير همز : ولابد باليد .

قال يقصر؛ وهو أمر متقارب . وعن مالك في الكتف المشورة أنه يقصر في ستة وثلاثين ميلاً ، وهي قربة من يوم وليلة . وقال يحيى بن عمر : يعيد أبدا . ابن عبد الحكم : في الوقت . وقال الكوفيون : لا يقصر في أقل من تسعة ثلاثة أيام ، وهو قول عثمان وابن مسعود وحذيفة . وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم " . قال أبو حنيفة : ثلاثة أيام وليالها يسير الإبل ومتى الأقدام . وقال الحسن والزهرى : تقصر الصلاة في مسيرة يومين ؛ وروى هذا القول عن مالك ، وراه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسافر المرأة مسيرة ليتين إلا مع زوج أو ذي محرم " . وقصر ابن عمر في ثلاثين ميلاً ، وأنس في خمسة عشر ميلاً . وقال الأوزاعي : عامة العلماء في الفصر على اليوم التام ، وبه نأخذ . قال أبو عمر : اضطربت الآثار المرفوعة في هذا الباب كما ترى في ألفاظها ، وتحتها عندي - والله أعلم - أنها خرجت على أجوبة السائلين ، فحدث كل واحد بمعنى ما سمع ، كأنه قيل له صلى الله عليه وسلم في وقت ما : هل تسافر المرأة مسيرة يوم بغير محرم ؟ فقال لا . وقيل له في وقت آخر : هل تسافر المرأة يومين بغير محرم ؟ فقال لا . وقال له آخر : هل تسافر المرأة ثلاثة أيام بغير محرم ؟ فقال لا . وكذلك معنى الليلة والبريد على ما روي ، فأدى كل واحد ما سمع على المعنى ، والله أعلم . ويجمع معاني الآثار في هذا الباب - وإن اختلفت ظواهرها - الحظر على المرأة أن تسافر سفراً يخاف عليها فيه الفتنة بغير محرم ، قصيراً كان أو طويلاً . والله أعلم .

الثالثة - واختلفوا في نوع السفر الذي تقصر فيه الصلاة ؛ فأجمع الناس على الجهاد والجمعة وما ضارها من صلة ربح وإحياء نفس . واختلفوا فيما سوى ذلك ؛ فالجمهور على جواز القصر في السفر المباح كالتيجارة ونحوها . وروى عن ابن مسعود أنه قال : لا تقصر الصلاة إلا في حج أو جهاد . وقال عطاء : لا تقصر إلا في سفر طاعة وسبيل من سبل الخير . وروى عنه أيضاً : تقصر في كل السفر المباح مثل قول الجمهور . وقال مالك : إن خرج للصيد لا لماشه ولكن متزهاً ، أو خرج لمشاهدة بلدة متزهاً ومتلهذاً لم يقصر .

والجمهور من العلماء على أنه لا قصر في قصر المصيبة؛ كالباعى وقاطع الطريق وما في مثلهما .  
وروى عن أبي خنيفة والأوزاعي إباحة القصر في جميع ذلك، وروى عن مالك . وقد تقدم  
في «البيعة» . واختلف عن أحمد؛ فمرة قال بقوله الجمهور، ومرة قال لا يقصر إلا في حج أو عمرة .  
والصحيح ما قاله الجمهور؛ لأن القصر إنما شرع تخفيفاً عن المسافر للشقات اللاحقة فيه،  
ومعونه على ما هو بصدده مما يجوز، وكل الأسفار في ذلك سواء؛ لقوله تعالى : « وَإِذَا  
خَرَجْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ » أي إثم « أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ » نعم . وقال عليه  
السلام : « خير عباد الله الذين إذا سافروا قصرُوا وأقعدوا » . وقال الشجب : إن الله يحب  
أن يعمل برخصه كما يجب أن يعمل بزمائه . وأما سفر المصيبة فلا يجوز القصر فيه؛ لأن ذلك  
يكون عوناً له على معصية الله، والله تعالى يقول : « وَتَمَوتُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْتَّقْوَى وَلَا تَمَوتُوا عَلَى  
الْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ » .

الرأسة - واختلفوا متى يقصر؛ فالجمهور على أن المسافر لا يقصر حتى يخرج من  
بيوت القرية، وحيث هو ضارب في الأرض؛ وهو قول مالك في المدونة . ولم يحدد مالك  
في القرب حداً . وروى عنه إذا كانت قرية تجمع أهلها فلا يقصر أهلها حتى يجاوزوها بثلاثة  
أبوال، وإلى ذلك في الرجوع . وإن كانت لا تجمع أهلها قصرُوا إذا جاوزوا بساكنها . وروى  
عن الحارث بن أبي ربيعة أنه أراد سفراً فصلّى بهم ركعتين في منزله، وفيهم الأسود بن يزيد  
وغير واحد من أصحاب ابن مسعود؛ وبه قال عطاء بن أبي رباح وسليمان بن موسى .

قلت : ويكون معنى الآية على هذا؛ وإذا ضربتم في الأرض؛ أي إذا خرجتم على الضرب  
في الأرض . وانه أعلم . وروى عن مجاهد أنه قال : لا يقصر المسافر يومه الأول حتى  
الليل . وهذا شاذ؛ وقد ثبت من حديث أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
صلى الظهر بالمدينة أربعاً وصلّى العصر بذي الحليفة ركعتين . أخرجه الأئمة، وبين ذى الحليفة  
وبين المدينة نحو من ستة أميال أو سبعة .

الخامسة - وعلى المسافر أن ينوي القصر من حين الإحرام ؛ فإن افتتح الصلاة بنية القصر ثم عزم على المقام في أثناء صلاته جعلها نافلة ، وإن كان ذلك بعد أن صلى منها ركعة أضاف إليها أخرى وسلم ، ثم صلى صلاة مقيم . قال الأبهري وابن الجلاب : هذا - والله أعلم - باستحباب ، ولو بني على صلاته وأتمها أجزأته صلاته . قال أبو عمر : هو عندى كما قالوا ؛ لأنها طهر ، سفرية كانت أو حضرية وكذلك سائر الصلوات الخمس .

السادسة - واختلف العلماء من هذا الباب في مدة الإقامة التي إذا نواها المسافر أتم ؛ فقال مالك والثاقفي والليث بن سعد والطبري وأبو ثور : إذا نوى الإقامة أربعة أيام أتم ؛ وروى عن سعيد بن المسيب . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري : إذا نوى إقامة خمس عشرة ليلة أتم ، وإن كان أقل قصر . وهو قول ابن عمر وابن عباس ولا يخالف لهما من الصحابة فيما ذكر الطحاوي ، وروى عن سعيد أيضا . وقال أحمد : إذا جمع المسافر <sup>(١)</sup> مقام إحدى وعشرين صلاة مكتوبة قصر ، وإن زاد على ذلك أتم ؛ وبه قال داود . والصحيح ما قاله مالك ؛ لحديث ابن الحضرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جعل المهاجر أن يقيم بمكة بسد قضاء نسكه ثلاثة أيام ثم يصدر . أخرجه الطحاوي وابن ماجه وغيرهما . ومعلوم أن الهجرة إذا كانت مفروضة قبل الفتح كان المقام بمكة لا يجوز ؛ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم للمهاجر ثلاثة أيام لتفسيه حوائجه وتبشيره أسبابه ، ولم يحكم لما يحكم المقام ولا في حيز الإقامة ؛ وأبقى عليه فيما حكم المسافر ، ومنعه من مقام الرابع ، فحكم له بحكم الحاضر القاطن ؛ وكان ذلك أصلا معتمدا عليه . ومثله ما فعله عمر رضي الله عنه حين أجبل اليهود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجعل لهم مقام ثلاثة أيام في قضاء أمورهم . قال ابن العربي : وسمعت بعض أبحار المالكية يقول : إنما كانت الثلاثة أيام خارجة عن حكم الإقامة ، لأن الله تعالى أرجأ فيها من أزل به العذاب وتيقن الخروج عن الدنيا ؛ فقال تعالى : « تَتَمَوَّعُونَ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » . وفي المسألة قول غير هذه الأقوال ، وهو أن المسافر يقصر أبدا حتى يرجع إلى وطنه ، أو يترك وطنه . وروى عن أنس أنه أقام سنتين ببيسابور

بقصر الصلاة . وقال أبو حمزة : قلت لأبي عمر آتى المدينة فأقيم بها السبعة أشهر والثمانية طالبا  
ساجدة ، فقال : أصل ركعتين . وقال أبو إسحاق السبيعي : أقمنا سبعمائة ومائة رطل من  
أصحاب ابن مسعود ميتين وتوصلت ركعتين . وأقام ابن عمر بأذربيجان فصلى ركعتين  
ركعتين ، وكان التلح حال بينهم وبين القنول . قال أبو عمر : يحمل هذه الأحاديث عندنا على  
أن لانية لواحد من هؤلاء المقيمين هذه المدة ، وإنما مثل ذلك أن يقول : أخرج اليوم ،  
أخرج غدا ، وإذا كان هكذا فلا عزيمة ههنا على الإقامة .

السابعة - روى مسلم عن عروة عن عائشة قالت : فرض الله الصلاة حين فرضها  
ركعتين ، ثم أتمها في الحضر ، وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى . قال الزهري : فقلت لعروة  
ما بال عائشة تهم في السفر ؟ قال : لأنها تأولت ما تأول عثمان . وهذا جواب ليس بموعب .  
وقد اختلف الناس في تأويل إتمام عثمان وعائشة رضى الله عنهما على أقوال : فقال معمر عن  
الزهري : إن عثمان رضى الله عنه إنما صلى يئى أربعا لأنه أجمع على الإقامة بعد الحج . وروى  
مُنية عن إبراهيم أن عثمان صلى أربعا لأنه اتخذها وطنا . وقال يونس عن الزهري : قال :  
لما اتخذ عثمان الأموال بالطائف وأراد أن يقيم بها صلى أربعا . قال : ثم أخذ به الأئمة بعده .  
وقال أيوب عن الزهري : إن عثمان بن عفان أتم الصلاة يئى من أجل الأعراب ، لأنهم كثروا  
عند فصل الناس أربعا ليعلمهم أن الصلاة أربع . ذكر هذه الأقوال كلها أبو داود  
في مصنفه في كتاب المناسك في باب الصلاة يئى . وذكر أبو عمر في ( التمهيد ) قال ابن جرير :  
وبلغنى إنما أوقاها عثمان أربعا يئى من أجل أن أعرابيا ناداه في مسجد الخيف يئى فقال :  
يا أمير المؤمنين ، ما زلت أصلها ركعتين منذ رأيتك عام الأول ، فغشى عثمان أن يظن جهال  
الناس أن الصلاة ركعتان . قال ابن جرير : وإنما أوقاها يئى فقط . قال أبو عمر :  
وأما التأويلات في إتمام عائشة فليس منها شيء يروى عنها ، وإنما هي ظنون وتأويلات  
لا يصحها دليل . وأضعف ما قيل في ذلك أنها أم المؤمنين ، وأن الناس حيث كانوا هم  
بنوها ، وكان منازلهم منازلها ، وهل كانت أم المؤمنين إلا أنها زوج النبي أبي المؤمنين صلى الله



عليه وسلم وهو الذي سنّ القصر في أسفاره وفي غزواته وحجّه وعمرته . وفي قراءة أبي بن كعب ومصحفه « النبيّ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أَمْهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبُ الْحَمِّ » . وقال جاهد في قوله تعالى : « هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » قال : لم يكن بَنَاتُهُ وَلَكِنْ كُنْ نِسَاءً أُنْتَهُ ، وَكُلُّ نَبِيٍّ فَهُوَ أَبُو أُمَّتِهِ .

قلت : وقد اعترض هذا بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مُشْرَعاً ، وليست هي كذلك فانقصر . وأضعف من هذا قول من قال : إنها حيث أتمت لم تكن في سفر جائز ، وهذا باطل قطعاً ، فإنها كانت أخوف لله وأتقى من أن تخرج في سفر لا ترضاه . وهذا التأويل عليها من أكاذيب الشيعة المبتدعة وتشيعاتهم ؛ سبحانه هذا بهتان عظيم ! . وإنما خرجت رضى الله عنها مجتهدة محتسبة تريد أن تطفى نار الفتنة ، إذ هي أحق أن يستحيا منها ، فخرجت الأمور عن الضبط . وسيأتى بيان هذا المعنى إن شاء الله تعالى . وقيل : إنها أتمت لأنها لم تكن ترى القصر إلا في الحج والعمرة والنزوة . وهذا باطل ؛ لأن ذلك لم يُفعل عنها ولا عُرف من مذهبا ، ثم هي قد أتمت في سفرها إلى عليّ . وأحسن ما في قصرها وإتمامها أنها أخذت برخصة الله ؛ لترى الناس أن الإتمام ليس فيه حرج وإن كان غيره أفضل . وقد قال عطاء : القصر سنة ورخصة ؛ وهو الراوى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صام وأفطر وأتم الصلاة وقصر في السفر ؛ رواه طلحة بن عمر . وعنه قال : كل ذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صام وأفطر وقصر الصلاة وأتم . وروى النسائي بإسناد صحيح (١) أن عائشة اعتمدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة [حتى إذا قدمت مكة] قالت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأُمِّي ! قَصَرْتَ وَأَتَمَمْتَ وَأَنْطَرْتَ وَصِمْتَ ؟ فقال : « أَحَسِبْتَ يَا عَائِشَةُ ، وَمَا عَابَ عَلِيٌّ . كَذَا هُوَ مَقِيدُ بَيْتِ النَّاءِ الْأَوَّلَى وَضَمُّ الثَّانِيَةِ فِي الْكَلِمَتَيْنِ . وَرَوَى الثَّاقِطِيُّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْصِرُ فِي السَّفَرِ وَيَتِمُّ وَيَفْطِرُ وَيَصُومُ » قال : إسناد صحيح .

بِالتَّامَّةِ - قوله تعالى: (أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ) «أَنْ» في موضع نصب، أي في أَنْ تَقْصُرُوا. قال أبو عبيد: فيها ثلاث لغات: قَصَرْتُ الصَّلَاةَ وقَصَرْتُهَا وأَقْصَرْتُهَا. وأختلف العلماء في تأويله؛ فذهب جماعة من العلماء إلى أنه القصر إلى اثنتين من أربع في الخوف وغيره؛ لحديث يَمْلِكُ بْنُ أُمَيَّةَ عَلَى مَا يَأْتِي. وقال آخرون: إنما هو قصر الركعتين إلى ركعة؛ والركعتان في السفر إنما هي تمام؛ كما قال عمر رضي الله عنه: تمام غير قصر، وقصرها أن تصير ركعة. قال السُّدِّي: إذا مَلَيْتَ في السفر ركعتين فهو تمام، والقصر لا يَحِلُّ إِلَّا أَنْ تَخَافَ؛ فهذه الآية مبيحة أن تَصَلِّيَ كُلَّ طَائِفَةٍ رُكْعَةً لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا شَيْئًا، ويكون للإمام ركعتان. وروى نحوه عن ابن عمر وجابر بن عبد الله وكعب، وقوله حديثه بَطْرَبُتَانِ وقد سأله الأمير سميد ابن العاصي عن ذلك. وروى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم صَلَّى كَذَلِكَ فِي غَزْوَةِ ذِي قَرْدٍ رُكْعَةً لِكُلِّ طَائِفَةٍ وَلَمْ يَخْضُوا. وروى جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم صَلَّى كَذَلِكَ بِأَصْحَابِهِ يَوْمَ [غَزْوَةِ] مُحَارِبِ خَصَفَةَ وَبَنِي ثَعْلَبَةَ. وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم صَلَّى كَذَلِكَ بَيْنَ مَجْمَعَيْنِ وَخَصَفَانِ.

قلت: وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم في الحَضَرِ أَرْبَعًا وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ وَفِي الْخَوْفِ رُكْعَةً. وهذا يؤيد هذا القول ويُعْضِدُهُ، إِلَّا أَنَّ الْقَاضِيَ أَبَا بَكْرٍ الْعَرَبِيَّ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى (بِالْقَبَسِ) قَالَ هَلَاوْنَا: هَذَا الْحَدِيثُ مُرَدُّدٌ بِالْإِجْمَاعِ.

قلت: وهذا لا يصح، وقد ذكر هو وغيره الخلاف والتزاع فلم يصح ما ادَّعَوْهُ مِنَ الْإِجْمَاعِ؛ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ. وحكى أبو بكر الرازي الحنفي في (أحكام القرآن) أن المراد بالقصر ههنا القصر

(١) ذرغرد (فتح القاف والراء والهاء الهاء): موضع على نحو يوم من المدينة. (٢) وردت هذه الجملة مضطربة في الأصول، والتصويب من كتب السير والبخاري. (٣) خِصَان (بالضريك) وقيل بسكون الجيم: جبل بناحية تهامة وقيل: جبل على بريد من مكة. وقال الواقدى: بين خِصَان ومكة خمسة وعشرون ميلاً. (٤) عَصَفَان (بضم أوله وسكون ثانيه): شبهة من مناهل الطريق بين الجلفة ومكة. وقيل: قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلاً من مكة، وهي حد تهامة. (راجع معجم البلدان).

في صفة الصلاة بترك الركوع والسجود إلى الإيماء، وترك القيام إلى الركوب. وقال آخرون: هذه الآية مبيحة للقصر من حدود الصلاة وهيئتها عند المسابقة واشتغال الحرب، فأبيح لمن هذه حاله أن يصلي إيماء برأسه، ويصلي ركعة واحدة حيث توجه إلى ركعتين، على ما تقدم في «البقرة»<sup>(١)</sup>. ورجح الطبري هذا القول وقال: إنه يماذه قوله تعالى: «فَإِذَا أَمَأْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» أي بمحدودها وهيئتها الكاملة.

قلت: هذه الأحوال الثلاثة في المني متقاربة، وهي مبيحة على أن فرض للمسافر القصر، وأن الصلاة في حقه ما تزلت إلا ركعتين، فلا قصر. ولا يقال في العزيمة لا جناح، ولا يقال فيما شرع ركعتين إنه قصر، كما لا يقال في صلاة الصبح ذلك. وذكر الله تعالى القصر بشرطين، والذي يعتبر فيه الشرطان صلاة الخوف، وهذا ما ذكره أبو بكر الرازي في (أحكام القرآن) واحتج به، ورد عليه بحديث يعلى بن أمية على ما يأتي، إن شاء الله تعالى.

التاسعة - قوله تعالى: ((إِنْ خِفْتُمْ)) نزع الكلام على الغالب، إذ كان الغالب على المسلمين الخوف في الأسفار؛ ولهذا قال يعلى بن أمية لعمر: ما لنا تقصر وقد أئمتنا. فقال عمر: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: "صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته".

قلت: وقد استدلل أصحاب الشافعي وغيرهم على الحنفية بحديث يعلى بن أمية هذا فقالوا: إن قوله «ما لنا تقصر وقد أئمتنا» دليل قاطع على أن مفهوم الآية القصر في الركعات. قال الكيكا الطبري: ولم يذكر أصحاب أبي حنيفة على هذا تأويل يساوي الذكر؛ ثم إن صلاة الخوف لا يعتبر فيها الشرطان؛ فإنه لو لم يضرب في الأرض ولم يوجد السفر بل جاما الكفار وغزونا في بلادنا فتجوز صلاة الخوف؛ فلا يعتبر وجود الشرطين على ما قاله. وفي قراءة أبي: «أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» بسقوط «إن» ختم. والمعنى على قراءته: كراهية أن يفتنكم الذين كفروا. وثبت في مصحف عثمان «إن

خفتم » . وذهب جماعة إلى أن هذه الآية إنما هي مبيحة للقصر في السفر لخلاف من المدؤء .  
فمن كان أمنا فلا قصر له . روى عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول في السفر :  
أتموا صلاتكم ؛ فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقصر ؛ قالت : إنه كان  
في حرب وكان يخاف ، وهل أتم تخافون ! . وقال عطاء : كان يتم من أصحاب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم عائشة وسعد بن أبي وقاص وأتم عثمان ؛ ولكن ذلك مثل مثل يعلل تهتم  
بعضها . وذهب جماعة إلى أن الله تعالى لم يبع القصر في كتابه إلا بشرطين : السفر والخوف ؛  
وفي غير الخوف بالنسبة ؛ منهم الشافعي وقد تقدم . وذهب آخرون إلى أن قوله تعالى :  
« إن خفتم » ليس متصلا بما قبل ، وأن الكلام تم عند قوله : « من الصلاة » ثم افتتح فقال :  
« إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا » فاقم لهم بإيجاد صلاة الخوف . وقوله : « إن الكافرين  
كانوا لكم عدوا ميّنا » كلام معترض ؛ قاله الجرجاني وذكره المهدوي وغيرهما . ورد هذا  
القول القشيري والقاضي أبو بكر بن العربي . قال القشيري أبو نصر : وفي الجمل على هذا  
تكلف شديد ، وإن أطنب الرجل - يريد الجرجاني - في التقدير وضرب الأمثلة ، قال ابن  
العربي : وهذا كله لم يقتض إليه عمر ولا آتبه ولا يعمل بن أمية معهما .

قلت : قد جاء حديث عما قاله الجرجاني ذكره القاضي أبو الوليد بن رشد في مقدماته ،  
وابن حنبل أيضا في تفسيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : سألت قوم من  
التجار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي ؟ فأذن الله  
تعالى : « وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة » ثم أقطع  
الكلام ؛ فلما كان بعد ذلك بجول غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم فصل الظهر ؛ فقال  
المشركون : لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم ؟ فقال قائل منهم :  
إن لم أنرى في أثرها ؛ فأذن الله تعالى بين الصلايين « إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا »  
إلى آخر صلاة الخوف . فإن صح هذا الخبر فليس لأحد معه مقال ، ويكون فيه دليل على القصر  
في غير الخوف بالقرآن . وقد روى عن ابن عباس أيضا مثله قال : إن قوله تعالى « وإذا ضربتم

فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ « نَزَلَتْ فِي الصَّفَرِ ثُمَّ نَزَلَتْ  
 « إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا » فِي الْخَوْفِ بِهَا بِعَامٍ . فَالْآيَةُ عَلَى هَذَا تَضَمَّتْ قَضِيَّتَيْنِ  
 وَحَكِيمَيْنِ . وَقَوْلُهُ « وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ » يَبْنِي  
 بِهِ فِي الصَّفَرِ ، وَتَمَّ الْكَلَامُ ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَرِيضَةً أُخْرَى فَقَدِمَ الشَّرْطَ ، وَالتَّقْدِيرَ : إِنْ خِفْتُمْ أَنْ  
 يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ . وَالْوَاوُ زَائِلَةٌ ، وَالْجَوَابُ « فَلَقْتُمْ  
 طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكُمْ » . وَقَوْلُهُ : « إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا » اعْتِرَاضٌ . وَذَهَبَ قَوْمٌ  
 إِلَى أَنَّ ذِكْرَ الْخَوْفِ مَنسُوخٌ بِالسَّعَةِ ، وَهُوَ حَدِيثُ عُمَرَ إِذْ رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
 قَالَ لَهُ : « إِنْ هَذِهِ صِدْقَةٌ تَصَلِّقُ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكَ فَأَقْبِلُوا صِدْقَتَهُ » . قَالَ النَّحَاسُ : مِنْ جَمَلِ  
 قَصْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَيْرِ خَوْفٍ وَفَعَلَهُ ذَلِكَ تَأَخُّظًا لِلْآيَةِ فَقَدْ غَلِطَ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ  
 فِي الْآيَةِ مَنَعَ لِلْقَصْرِ فِي الْأَمْنِ ، وَإِنَّمَا فِيهَا إِجْلَاسُ الْقَصْرِ فِي الْخَوْفِ فَقَطْ .

الماشرة — قوله تعالى : ( أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ) قَالَ الْفَرَاءُ : أَهْلُ الْحِجَازِ يَقُولُونَ  
 فَتَنَتِ الرَّجُلَ . وَرَبِيعَةُ وَقَيْسٌ وَأَسَدٌ وَجَمِيعُ أَهْلِ نَجْدٍ يَقُولُونَ أَفْتَنَتِ الرَّجُلَ . وَفَرَّقَ الْحَلِيلُ  
 وَسَيَبَوِيهِ بَيْنَهُمَا فَقَالَ : فَتَنَتْهُ جَعَلَتْ فِيهِ فِتْنَةً مِثْلَ كَلْبَتِهِ ، وَأَفْتَنَتْهُ جَعَلَتْهُ مُفْتَنًا . وَزَعَمَ الْأَصْمَعِيُّ  
 أَنَّهُ لَا يَبْرَفُ أَفْتَنَتْهُ . ( إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ) « عَدُوًّا » هَهُنَا بِمَعْنَى أَعْدَاءٍ .  
 وَاللهُ أَعْلَمُ .

قوله تعالى : وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَقْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ  
 مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ  
 طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ  
 وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً  
 وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى  
 أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :  
 الأول - قوله تعالى : ( وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ) روى الدارقطني عن  
 أبي عبيد الله الزرق قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمُصَنَّانَ ، فاستقبلنا المشركون عليهم  
 خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبيلة ، فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر ، فقالوا :  
 قد كانوا على حال لو أصابت غرتهم ، قال : ثم قالوا تأتي الآن عليهم صلاة هي أحب إليهم  
 من أبنائهم وأنفسهم ، قال : قتل جبريل عليه السلام بهذه الآية بين الظهر والعصر  
 « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ » ، وذكر الحديث . وسيأتي تمامه إن شاء الله تعالى .  
 وهذا كان سبب إسلام خالد رضي الله عنه . وقد اتصلت هذه الآية بما سبق من ذكر  
 الجهاد . وبين الرب تبارك وتعالى أن الصلاة لا تسقط بسبب السفر ولا بسبب الجهاد وقتال  
 العدو ، ولكن فيها رخص على ما تقدم في « البقرة » وهذه السورة بيانه من اختلاف العلماء .  
 وهذه الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يتناول الأمراء بعده إلى يوم القيامة ،  
 ومثله قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » . هذا قول كافة العلماء . وشذ أبو يوسف  
 وإسماعيل بن علية فقالا : لا تصل صلاة الخوف بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الخطاب  
 كان خاصا له بقوله تعالى : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ » وإذا لم يكن فهم لم يكن ذلك لهم ، لأن  
 النبي صلى الله عليه وسلم ليس كغيره في ذلك ، وكلهم كان يجب أن يؤتم به ويصلى خلفه ،  
 وليس أحد بعده يقوم في الفضل مقامه ، والناس بعده يستوى أحوالهم وتتقارب ، فلذلك  
 يصلى الإمام بفريق ويأمر من يصلى بالفريق الآخر ، وأما أنت يصلوا بإمام واحد فلا .  
 وقال الجمهور : إنا قد أمرنا باتباعه والتأسي به في غير ما آية وغير حديث ، فقال تعالى :  
 « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما  
 رأيتموني أصلي » . فزعم اتباعه مطلقا حتى يدل دليل واضح على الخسوس ، ولو كان ما ذكره  
 دليلا على الخسوس لازم قصر الخطابات على من توجهت له ، ويحتج بأن تكون الشريعة  
 قاصرة على من خطب بها ، ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أطرحوا توهم الخسوس

في هذه الصلاة وعلوه إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم وهم أهل المال فأفسد بالخالف .  
وقد قال تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَبِثِ  
غَيْرِهِ » وهذا خطاب له ، وأمنه داخله فيه ، ومثله كثير . وقال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ  
صَدَقَةً » وذلك لا يوجب الاقتصار عليه وحده ، وأن من بعده يهرم في ذلك مقامه ، فكذلك  
قوله : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ » . ألا ترى أن أبا بكر الصديق في جماعة الصعابة رضى الله  
عنهم قاتلوا من تأول في الزكاة مثل ما تأولوه في صلاة الخوف . قال أبو عمر : ليس في أخذ  
الزكاة التي قد استوى فيها النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء ما يشبه صلاة من صلى  
خلف النبي صلى الله عليه وسلم وصلى غيره خلف غيره ؛ لأن أخذ الزكاة فائتها توصيلها  
للساكين ، وليس فيها فضل للمعطي كما في الصلاة فضل للصلى خلقه .

الثانية — قوله تعالى : « فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ » ) بمعنى جماعة منهم تحف معك  
في الصلاة . « وَلْيَاخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ » ) بمعنى الذين يصلون معك ، ويقال « وليأخذوا أسلحتهم »  
الذين هم يلزاهم العدو ، على ما يأتي بيانه . ولم يذكر الله تعالى في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة ،  
ولكن روى في الأحاديث أنهم أضافوا إليها أخرى ، على ما يأتي . وحذفت الكسرة من قوله  
« فَلَتَقُمْ » و « لِيَكُونُوا » لثقلها . وحكى الأخفش والقزويني والكشاف أن لام الأمر ولام  
كي ولام المحمود يفتحن ، وسيبويه يمنع من ذلك لعله موجبة وهي الفرق بين لام الأمر ولام  
التأكيد . والمراد من هذا الأمر الأقسام ، أى وسائرهم وجاء المندح حذرا من توقع حملته .

وقد اختلفت الروايات في هيئة صلاة الخوف ، واختلف العلماء لاختلافها ، فذكر  
ابن القصار أنه صلى الله عليه وسلم صلاها في عشرة مواضع . قال ابن العربي : روى عن النبي  
صلى الله عليه وسلم أنه صلى صلاة الخوف أربعاً وعشرين مرة . قال الإمام أحمد بن حنبل  
وهو إمام أهل الحديث والمقدم في معرفة علل الثقل فيه : لا أعلم أنه روى في صلاة الخوف  
إلا حديث ثابت وهي كلها صحاح ثمانية ، فعلى أى حديث صلى منها المصلي صلاة الخوف أجزاء

إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِيُّ. وَأَمَّا مَالِكٌ وَسَائِرُ أَصْحَابِهِ إِلَّا أَشْهَبَ فَذَهَبُوا فِي صَلَاةِ  
الْخُوفِ إِلَى حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَكْمَةَ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ فِي مَوْطِئِهِ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنِ الْقَاسِمِ  
ابْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ صَالِحِ بْنِ خُزَاتٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ سَهْلَ بْنَ أَبِي حَكْمَةَ حَدَّثَهُ أَنَّ صَلَاةَ الْخُوفِ أَنْ يَقُومَ  
الْإِمَامُ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَطَائِفَةٌ مُوَاجِهَةٌ الْمَدُوءَ، فَيَرْكَعُ الْإِمَامُ رُكْعَةً وَيَسْجُدُ بِالَّذِينَ  
مَعَهُ ثُمَّ يَقُومُ، فَإِذَا أَسْوَى فَأَتَمَّ ثَبِتَ، وَأَتَمُّوا لَأَنْفُسِهِمُ الرُّكْعَةَ الْبَاقِيَةَ ثُمَّ يُسَلِّمُونَ وَيَنْصَرِفُونَ  
وَالْإِمَامُ قَائِمٌ، فَيَكْرَهُونَ وَجْهَ الْمَدُوءِ، ثُمَّ يَقْبَلُ الْآخَرُونَ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا فَيَكْبَرُونَ وَرَأَى الْإِمَامُ  
فَيَرْكَعُ بِهِمُ [الرُّكْعَةَ] وَيَسْتَدْتِمُّ يَسْلَمُ، فَيَقُومُونَ وَيَرْكَعُونَ لَأَنْفُسِهِمُ الرُّكْعَةَ الْبَاقِيَةَ ثُمَّ يُسَلِّمُونَ.  
قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ صَاحِبُ مَالِكٍ: وَالْعَمَلُ عِنْدَ مَالِكٍ عَلَى حَدِيثِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ صَالِحِ  
ابْنِ خُزَاتٍ. قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ: وَقَدْ كَانَ يَأْخُذُ بِحَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى هَذَا.  
قَالَ أَبُو عَمْرٍو: حَدِيثُ الْقَاسِمِ وَحَدِيثُ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ كِلَاهُمَا عَنْ صَالِحِ بْنِ خُزَاتٍ؛ إِلَّا أَنَّ  
بَيْنَهُمَا فَصْلًا فِي السَّلَامِ، فَفِي حَدِيثِ الْقَاسِمِ أَنَّ الْإِمَامَ يَسْلَمُ بِالطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ ثُمَّ يَقُومُونَ  
وَيَقْصُونَ لَأَنْفُسِهِمُ الرُّكْعَةَ، وَفِي حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ أَنَّهُ يَنْتَظِرُهُمْ وَيَسْلَمُ بِهِمْ. وَبِهِ قَالَ  
الشَّافِعِيُّ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ؛ قَالَ الشَّافِعِيُّ: حَدِيثُ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ عَنْ صَالِحِ بْنِ خُزَاتٍ هَذَا  
أَشْبَهُ الْأَحَادِيثِ فِي صَلَاةِ الْخُوفِ بظَاهِرِ كِتَابِ اللَّهِ، وَبِهِ أَقُولُ. وَمِنْ حُجَّةِ مَالِكٍ فِي اخْتِيَارِهِ  
حَدِيثِ الْقَاسِمِ لِلْقِيَاسِ عَلَى سَائِرِ الصَّلَوَاتِ، فِي أَنَّ الْإِمَامَ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَنْتَظِرَ أَحَدًا سَبْقَهُ شَيْءًا  
مِنهَا، وَأَنَّ السَّنَةَ الْمُجْتَمِعَ عَلَيْهَا أَنْ يَقْضِيَ الْمَأْمُومُونَ مَا سَبَقُوا بِهِ بِعَدِّ سَلَامِ الْإِمَامِ. وَقَوْلُ  
أَبِي ثَوْرٍ فِي هَذَا الْبَابِ كَقَوْلِ مَالِكٍ، وَقَالَ أَحْمَدُ كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ فِي الْخُتَارِ عِنْدَهُ، وَكَانَ  
لَا يَتَّبِعُ مِنْ فَعْلٍ شَيْئًا مِنَ الْأَوْبَعِ الْمَرْوِيَةِ فِي صَلَاةِ الْخُوفِ. وَذَهَبَ أَشْهَبُ مِنْ أَصْحَابِ  
مَالِكٍ إِلَى حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْخُوفِ بِأَحَدِي الطَّائِفَتَيْنِ  
رُكْعَةً وَطَائِفَةُ الْأُخْرَى مُوَاجِهَةٌ الْمَدُوءِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَقَامُوا مَعَهُ أَصْحَابُهُمْ مُقْبِلِينَ عَلَى الْمَدُوءِ،  
وَجَاءَ أَوَّلُهُمْ ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُكْعَةً ثُمَّ سَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
ثُمَّ قَضَى هَذِهِ رُكْعَةً وَهَذِهِ رُكْعَةً. قَالَ ابْنُ عَمْرٍو: فَإِذَا كَانَ خَوْفٌ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ صَلَّى



راكبا أو قائما يومئ إيماء؛ أخرجه البخاري ومسلم ومالك وغيرهم . وإلى هذه الصفة ذهب  
الأوزاعي، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر، قال : لأنه أحسن إسنادا، وقد ورد  
بنقل أهل المدينة وبهم الحجة على من خالفهم، ولأنه أشبه بالأصول، لأن الطائفة الأولى  
والثانية لم يقضوا الركعة إلا بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة، وهو المعروف  
من سنته المجتمعة عليها في سائر الصلوات . وأما الكوفيون : أبو حنيفة وأصحابه إلا أبا يوسف  
القاضي يعقوب فذهبوا إلى حديث عبد الله بن مسعود، أخرجه أبو داود والدارقطني قال :  
صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فقاموا صفيين ، صفًا خلف النبي صلى الله  
عليه وسلم وصفًا مستقبل العدو، فصلّى بهم النبي صلى الله عليه وسلم ركعة، وجاء الآخرون  
فقاموا مقامهم، واستقبل هؤلاء العدو فصلّى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سلم، فقام  
هؤلاء فصلّوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا ثم ذهبوا فقاموا مقام أولئك مستقبلين العدو، ورجع  
أولئك إلى مقامهم فصلّوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا . وهذه الصفة والهيئة هي الهيئة المذكورة  
في حديث ابن عمر إلا أن بينهما فرقا، وهو أن قضاء أولئك في حديث ابن عمر يظهر أنه  
في حالة واحدة ويبقى الإمام كالخارج وحده، وهاتان قضائهم متفرق على صفة صلاتهم .  
وقد تأول بعضهم حديث ابن عمر على ما جاء في حديث ابن مسعود . وقد ذهب إلى حديث  
ابن مسعود الثوري — في إحدى الروايات الثلاث عنه — وأشهّب بن عبد العزيز في ذكر  
أبو الحسن النخعي عنه؛ والأول ذكره أبو عمر وابن يونس وابن حبيب عنه . وروى أبو داود  
من حديث حذيفة وأبي هريرة وابن عمر أنه عليه السلام صلى بكل طائفة ركعة ولم يقضوا،  
وهو مقتضى حديث ابن عباس «وفي الخوف ركعة» . وهو قول إسحاق وقد تقدّم في «البقرة»  
الإشارة إلى هذا، وأن الصلاة أولى ما احتيط لها، وأن حديث ابن عباس لا ينعم به حجة،  
وقوله في حديث حذيفة وغيره : « ولم يقضوا » أي في علم من روى ذلك؛ لأنه قد روى أنهم  
قضوا ركعة في تلك الصلاة بينها، وشهادة من زاد أولى. ويحتمل أن يكون المراد لم يقضوا؛  
أي لم يقضوا إذا أمنوا، وتكون فائمه أن الخائف إذا أمن لا يقضي ما صلى على تلك الهيئة

من الصلوات في الخوف، قال بجيمه أبو حمزة وفي صحيح مسلم عن جابر أنه عليه السلام صلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الثانية ركعتين . قال : فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركعات وللقدم ركعتان . وأخرجه أبو داود والترمذي من حديث الحسن عن أبي بكر، وذكر فيه أنه سلم من كل ركعتين . وأخرجه الترمذي أيضا عن الحسن عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم ركعتين ثم سلم، ثم صلى بالآخرين ركعتين ثم سلم . قال أبو داود : وبذلك كان الحسن يفتي، وروى عن الشافعي . وبه يخرج كل من أجاز اختلاف نية الإمام والمأموم في الصلاة، وهو مذهب الشافعي والأوزاعي وابن أبي عمير وأحمد بن حنبل وداود، وعرضوا هذا بحديث جابر : أن معاذا كان يصل مع النبي صلى الله عليه وسلم العشاء ثم يأتي فيؤم قومه، الحديث . وقال الطحاوي : إنما كان هذا في أول الإسلام إذ كان يجوز أن تُصلى الفريضة مرتين ثم فسخ ذلك، وإياه أعلم . فهذه أقاويل العلماء في صلاة الخوف .

الثالثة - وهذه الصلاة المذكورة في القرآن إنما يحتاج إليها المسلمون مستدبرون القبلة ووجه الصدق القبلة، وإنما اتفق هذا بذات الرقاع، فأما بسفان والموضع الآخر فالمسلمون كانوا في قبالة القبلة . وما ذكرناه من سبب التزول في قصة خالد بن الوليد لا يلائم تفريق القوم إلى طائفتين، فإن في الحديث بعد قوله : « فافتلهم الصلاة » فأمروهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا السلاح وصفتا خلفه صفين . قال : ثم ركب فركتنا جيما، قال : ثم رفع فرضنا جيما، قال : ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالصف الذي يليه، قال : والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا مكانهم، قال : ثم ختم هؤلاء في مصاف هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، قال : ثم ركب فركتنا جيما، ثم رفع فرضنا جيما، ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالصف الذي يليه، والآخرين قيام يحرسونهم فلما جلس الآخرون سجدوا ثم سلم عليهم . قال : فصلاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : مرة بسفان ومرة في أرض بني سليم . وأخرجه أبو داود من حديث أبي عياش

الزُّرْقَى قَالَ : وَهُوَ قَوْلُ التَّوْرِيِّ وَهُوَ أَحْوَطُهَا . وَأَنزِيهِ أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ بَيْنَ بَيْتَيْنِ وَعُشْفَانِ ؛ الْحَبِيثُ . وَفِيهِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَدَقَهُمْ صَدِيقَيْنِ وَصَلَّى بِكُلِّ طَائِفَةٍ رَكْعَةً ، فَكَانَتْ لِلْقَوْمِ رَكْعَةٌ رَكْعَةً ، وَلِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكْعَتَانِ ؛ قَالَ : حَدَّثَ حَسَنٌ صَاحِبُ غَرِيبٍ . وَفِي الْبَابِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَاشٍ الزُّرْقَى وَاسْمُهُ زَيْدُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَابْنُ عُمَرَ وَحَدِيقَةَ وَأَبَى بَكْرٍ وَسَهْلُ بْنُ أَبِي حَظَمَةَ .

قُلْتُ : وَلَا تَعَارُضُ بَيْنَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ ، فَلَعَلَّ صَلَاةَ كَاجَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي عَاشٍ جَمْعَيْنِ ، وَصَلَّى بِهِمْ صَلَاةً أُخْرَى مُفْتَرِقَيْنِ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَيَكُونُ فِيهِ لِمَنْ يَقُولُ صَلَاةَ الْخُوفِ رَكْعَةً . قَالَ الْخَطَّابِيُّ : صَلَاةُ الْخُوفِ أَنْوَاعٌ صَلَاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَيَّامٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَشْكَالٍ مُتَبَايِنَةٍ ، يَتَوَسَّعُ فِيهَا كُلُّهَا مَا هُوَ أَحْوَطُ لِلصَّلَاةِ وَالْبَيْتِ الْهَرَامَةِ .

الرَّابِعَةُ — وَاخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ ؛ فَرَوَى الْقَارِطِيُّ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بِالْقَوْمِ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ ثَلَاثَ رَكَعَاتٍ ثُمَّ انْتَصَرَفُوا ، وَجَاءَ الْآخَرُونَ فَصَلَّى بِهِمْ ثَلَاثَ رَكَعَاتٍ ؛ فَكَانَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتًّا وَالْقَوْمِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا ؛ وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ . وَالْجُمْهُورُ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ عَلَى خِلَافٍ هَذَا ، وَهُوَ أَنَّهُ يُصَلَّى بِالْأُولَى رَكْعَتَيْنِ وَبِالثَّانِيَةِ رَكْعَةً وَتُخَفَّى عَلَى اخْتِلَافِ أَصُولِهِمْ فِيهِ مَتَى يَكُونُ ؟ قَبْلَ سَلَامِ الْإِمَامِ أَوْ بَعْدَهُ . هَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبَى حَنِيفَةَ لِأَنَّهُ أَحْفَظُ لِهَيْئَةِ الصَّلَاةِ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يُصَلَّى بِالْأُولَى رَكْعَةً ؛ لِأَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَلَهَا لَيْلَةَ الْحَرِيرِ ، <sup>(١)</sup> وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الخَامِسَةُ — وَاخْتَلَفُوا فِي صَلَاةِ الْخُوفِ عِنْدَ التَّحَامِ الْحَرْبِ وَشِدَّةِ الْقِتَالِ وَخَيْفِ خُرُوجِ الْوَقْتِ ؛ فَقَالَ مَالِكٌ وَالتَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَعَامَّةُ الْعُلَمَاءِ : يُصَلَّى كَيْفًا أَمَكُنْ ؛ لِقَوْلِ ابْنِ عُمَرَ . فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ يُصَلَّى رَاكِبًا أَوْ قَاعًا يَوْمَئِذٍ إِيَّاهُ . قَالَ فِي الْمَوْطَأِ : مُسْتَقْبَلُ الْقِبْلَةِ وَغَيْرِ مُسْتَقْبَلِهَا ؛ وَفَدَّ تَقَدَّمَ فِي «الْبَقَرَةِ» قَوْلُ الضَّحَّاكِ وَاسْحَاقِ . وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : <sup>(٢)</sup> لَيْلَةَ الْمَرْكَاسِ مِنْ لَيْلِ (مَفِين) .

(١) الْحَيْفُ (فَتْحُ الْهَاءِ) : مَعْدِنٌ مِنْ نَصَافِرِ خُفٍّ .  
(٢) خُفٌّ : خُفٌّ يَخْتَفِ خُوفًا وَخُفًّا وَخُفًّا وَخُفًّا (بِالْكَسْرِ) .

إن كان تباً الفتح ولم يقدرُوا على الصلاة صلُّوا إيماناً كُلِّ امرئٍ لنفسه ؛ فإن لم يقدرُوا على الإيماء أَمَرُوا الصلاة حتى ينكشف القتال ويأمنُوا فيصلُّوا ركعتين ، فإن لم يقدرُوا صلُّوا ركعةً ومجديدين ، فإن لم يقدرُوا يجزئهم التكبير ويؤثروها حتى يأمنُوا ؛ وبه قال مكحول .

قلت : وحكاية اليكَّا الطبري في « أحكام القرآن » له عن أبي حنيفة وأصحابه ، قال اليكَّا : وإذا كان الخوف أشدَّ من ذلك وكان الصَّام القتال فإن المسلمين يصلُّون على ما أمكنهم مستقبل القبلة ومستدبرها ؛ وأبو حنيفة وأصحابه الثلاثة متفقون على أنهم لا يصلُّون والحالة هذه بل يؤثرون الصلاة . وإن قاتلوا في الصلاة قالوا : فسدت الصلاة . وحكى عن الشافعي أنه إن تابع الطعن والضرب فسدت صلاته .

قلت : وهذا القول يدلُّ على صحة قول أنس : حضرت مناهضة حصن أُسْتُر عند إضائة الفجر ، واشتدَّ اشتغال القتال فلم تقدر على الصلاة إلا بعد ارتفاع النهار ؛ فصليتها ونحن مع أبي موسى ففتَّح لنا ، قال أنس : وما يُسْتَرى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها ؛ ذكره البخاري . وإليه كان يذهب شيخنا الأستاذ أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد القتيبي القرطبي المعروف بابي حجة ؛ وهو اختيار البخاري فيما يظهر لأنه أَرَدَهُ بحديث جابر ؛ قال : جاءه عمر يوم الخندق يفعل يسبُّ كهار قريش ويقول : يا رسول الله ، ما صليتُ العصر حتى كالت الشمس أن تقرب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وأنا والله ما صليتها » <sup>(١)</sup> قال : فترى إلى بطلان فتوضأ وصل العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى المغرب بعدها .

السادسة - واختلفوا في صلاة الطالب والمطلوب ؛ فقال مالك وجماعة من أصحابه : هما سواء ، كُلٌّ واحد منهما يصل على دابته . وقال الأوزاعي والشافعي وقته أصحاب الحديث وابن عبد الحكم : لا يصلِّي الطالب إلا بالأرض وهو الصحيح ؛ لأن الطلب تَطَوُّعٌ ، والصلاة المكتوبة فرضها أن تصلُّ بالأرض حيثما أمكن ذلك ، ولا يصلِّيها راکب إلا خائف شديد خوفه وليس كذلك الطالب . والله أعلم .

السابعة - واخطفوا أيضا في السكر إذا راوا سوادا فظنوه مدفوا فصلوا صلاة الخوف ثم بان لم أنه غير شيء، فقلنا تافيه روايتان : أحدهما يبيدون، وبه قال أبو حنيفة. والثانية لا إعادة عليهم، وهو أظهر قول الشافعي. ووجه الأولى أنهم تبين لهم الخطأ فعادوا إلى الصواب حكم الحاكم. ووجه الثانية أنهم عملوا على اجتهادهم بظانهم كما لو اخطأوا القبلة؛ وهذا أولى لأنهم فعلوا ما أمروا به. وقد يقال : يبيدون في الوقت، فأما بعد خروجه فلا والله أعلم.

الثامنة - قوله تعالى: **(وَلْيَأْخُذُوا بِحُلِيِّهِمْ)** وقال: **(وَلْيَأْخُذُوا بِحُلِيِّهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ)** هذا وصية بالحذر وأخذ السلاح لتلا نبال العدو أملة ويذكرك فرسته. والسلاح ما يدفع به المرء عن نفسه في الحرب؛ قال عترة :

كسوتُ الجعد جعد بن أبي نبي • سلاحي بعد عري وأقتضاح

يقول : أعمره سلاحي ليتنع بها بعد عريه من السلاح. قال ابن عباس : « ولْيَأْخُذُوا بِحُلِيِّهِمْ » يعني الطائفة التي وجاء المدعو؛ لأن المصلحة لا تخارب. وقال غيره: هي المصلحة، أى وليأخذ الذين صلوا أولا أسلحتهم؛ ذكره الزجاج. قال : ويحتمل أن تكون الطائفة الذين هم في الصلاة أمروا بحمل السلاح؛ أى فتنم طائفة منهم ميمك وليأخذوا أسلحتهم فإنه أرفع المدعو. الثامن : يجوز أن يكون للجميع؛ لأنه أهيب للمدعو. ويحتمل أن يكون التي وجاء المدعو خاصة. قال أبو عمر : أكثر أهل العلم يستحبون للصلى أخذ سلاحه إذا صلى في الخوف، ويحملون قوله « وَلْيَأْخُذُوا بِحُلِيِّهِمْ » على التنب؛ لأنه تنبيه لولا الخوف لم يجب أخذه؛ فكان الأمر به ندبا. وقال أهل الظاهر : أخذ السلاح في صلاة الخوف واجب لأمر الله به، إلا لمن كان به أدنى من مطر؛ فإن كان ذلك جازله وضع سلاحه. قال ابن العربي : إذا حملوا أخذوا سلاحهم عند الخوف؛ وبه قال الشافعي وهو نص القرآن. وقال أبو حنيفة : لا يحملونها؛ لأنه لو وجب عليهم حملها لبطلت الصلاة بتركها. قلنا : لم يجب حملها لأجل الصلاة وإنما وجب عليهم قوة لهم ونظرا.

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا ﴾ الضمير في « سجدوا » للطائفة المصلية ، فليصرفوا ؛ هذا على بعض الهيئات المروية . وقيل : المعنى فإذا سجدوا ركعة القضاء ؛ وهذا على هيئة سهل بن أبي حشمة . ودلت هذه الآية على أن السجود قد يُعبر به عن جميع الصلاة ، وهو كقوله عليه السلام : « إذا دخل أحدكم المسجد فليسجد سجدتين » . أى فليصل ركعتين وهو في السنة . والضمير في قوله : ﴿ فَلْيَكُونُوا ﴾ يحتمل أن يكون للذين سجدوا ، ويحتمل أن يكون للطائفة القائمة أو لا بإزاء العدو .

العاشرة - قوله تعالى : ﴿ وَالدِّينَ كَفَرُوا ﴾ أى تنهى وأحب الكافرون غفلتكم من أخذ السلاح ليصلوا إلى مقصودهم ؛ فبين الله تعالى بهذا وجه الحكمة في الأمر بأخذ السلاح ، وذكر الحذر في الطائفة الثانية دون الأولى لأنها أولى بأخذ الحذر ؛ لأن العدو لا يؤخر قصده عن هذا الوقت لأنه آخر الصلاة ؛ وأيضاً يقول العدو قد أنقاهم السلاح وكفوا . وفي هذه الآية أدل دليل على تطاول الأسباب ، وأخذ كل ما يُنبئ ذوى الألباب ، ويوصل إلى السلامة ، ويبلغ دار الكرامة . ومعنى ﴿ مِثْلَةً وَاحِدَةً ﴾ مبالغة ، أى مستأصلة لا يحتاج معها إلى ثانية .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ إِذَى مِنْ مَطَرٍ ﴾ الآية . للعالماء في وجوب حمل السلاح في الصلاة كلام قد أشرنا إليه ، فإن لم يجب فاستحب للاحتياط . ثم رخص في المطر وضعه لأنه يثقل المبطئات وسقل ويصدا الحديد . وقيل : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم يوم بطن نخلة لما انتهزم للمشركون وغم المسلمون ؛ وذلك أنه كان يوماً مطيراً ونزع النبي صلى الله عليه وسلم لقضاء حاجته وأضما سلاحه ، فرآه الكفار متقطعاً من أصحابه فقصده غوث بن الحارث فأغدر عليه من الجبل بسيفه ، فقال : من يملك مني اليوم ؟ فقال : « الله » ثم قال : « اللَّهُمَّ اكْفِنِي النَّوْثَ بِمَا شِئْتَ » . فاهوى بالسيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليضربه ، فانكب لوجهه لركة زلحقها . وذكر الواقدي أن جبيل عليه

السلام دفعه في صدره على ما يأتي في المسألة، وسقط السيف من يده فآخذه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «من يملك مني يا غوث؟» قال: لا أحد. فقال: «تشهد لي بالحق وأعطيك سيفك؟» قال لا؛ ولكن أشهد ألا أقاتلك بعد هذا ولا أؤمن عليك عدوا؛ فبلغ إليه السيف ونزلت الآية رخصة في وضع السلاح في المطر ومريض عبد الرحمن بن عوف من جرح كما في صحيح البخاري. فرخص الله سبحانه لم في ترك السلاح والتأهب للعدو بعد المطر، ثم أمرهم فقال: «حُذِرُوا حُدْرَكُمْ» أي كونوا مستيقظين، وضمم السلاح أو لم تضعوه. وهذا يدل على تأكيد التأهب والحذر من العدو في كل الأحوال وترك الاستسلام؛ فإن الجيش ما جاءه مصاب قتل إلا من تفرط في حذر. وقال الضحاك في قوله تعالى: «وخذوا حذركم» بمعنى تفلدوا سيوفكم فإن ذلك هيئة الفزاة.

قوله تعالى: فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿٢٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٣٩﴾  
فيه خمس مسائل:

الأولى - (قَضَيْتُمْ) معناه فرغتم من صلاة الخوف. وهذا يدل على أن القضاء يستعمل فيما قد فعل في وقته؛ ومنه قوله تعالى: «إِذَا قَضَيْتُم مَّاسِكُكُمْ» وقد قلتم.

الثانية - (فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ) ذهب الجمهور إلى أن هذا الذكر المأمور به إنما هو إما صلاة الخوف؛ أي إذا فرغتم من الصلاة فادكروا الله بالقلب واللسان، على أي حال كنتم؛ قياما وقعودا وعلى جنوبكم، وأدعيوا ذكره بالتكبير والتلليل والدعاء بالنصر لا سيما في حال القتال. ونظيره «إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا»

لَكُمْ مُلْحُجُونَ . . . ويقال : فإذا قضيت الصلاة « بمعنى إذا صلّيت في دار الحرب فصلوا على الدواب ، أو قايما أو قعودا أو على جنوبكم إن لم تستطيعوا القيام ، إذا كان خوفا أو خروضا ، كما قال تعالى في آية أخرى : « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا » . وقال قوم : هذه الآية نظيرة التي في « آل عمران » ؛ فروى أن عبد الله بن مسعود رأى الناس يَضُجُونَ في المسجد فقال : ما هذه الضجة ؟ قالوا : أليس الله تعالى يقول « أَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ » ؟ قال : إنما يعني بهذا الصلاة المكتوبة إن لم يستطع قائما فقامدا ، وإن لم يَصَلَّ على جنبك . فالمراد نفس الصلاة ؛ لأن الصلاة ذكر الله تعالى ، وقد اشتملت على الأذكار المفروضة والمستنوية ؛ والقول الأول أظهر .

الثالثة - قوله تعالى : « فَإِذَا أُلْمَسْتُمْ » أي أمتهم . والعلمانية سكن النفس من الخوف . « فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أي فاتوها بآركانها وكال هيتها في السفر ، وبكال مددها في الحضر . « إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » أي مؤقتة مفروضة . وقال زيد ابن أسلم : « موقوت » منتهى ، أي تؤدونها في الجها ؛ والمعنى عند أهل اللغة : مفروض لوقت بينه ؛ يقال : وقته فهو موقوت . ووقته فهو مؤقت . وهذا قول زيد بن أسلم بعينه . وقال : « كِتَابًا » والمصدر مذكر ؛ فلهذا قال : « موقوت » .

الرابعة - قوله تعالى : « وَلَا تَهِنُوا » أي لَا تَضَعُفُوا ، وقد تقدم في « آل عمران » . ( فِي أَهْلِ الْقَوْمِ ) طلبهم . قيل : نزلت في حرب أُحُد حيث أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج في آثار المشركين ، وكان بالمسلمين جراحات ، وكان أمر ألا يخرج معه إلا من كان في الوقعة ؛ كما تقدم في « آل عمران » وقيل : هذا في كل جهاد .

الخامسة - قوله تعالى : « إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ » أي تألمون مما أصابكم من الجراح فهم يتألمون أيضا مما يصيبهم ، ولكم مزية وهي أنكم ترجون ثواب الله وهم لا يرجونه ؛ وذلك أن من لا يؤمن بالله لا يرجو من الله شيئا . ونظير هذه الآية « إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ



الْقَوْمِ قَرِحَ مِنْهُ» وقد تقدم. وقرأ عبد الرحمن الأعرج «أَنْ تَكُونُوا» بفتح الهمزة؛ أى لأن.  
 وقرأ منصور بن المعتمر «إِنْ تَكُونُوا تَأْتُونَ» بكسر التاء. ولا يجوز عند البصريين كسر التاء  
 لتقل الكسر فيها. ثم قيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف؛ لأن من رجأ شيئا فهو غير قاطع بمصوله<sup>٢</sup>  
 فلا يخلو من فوت ما يرجو. وقال الفراء والزجاج: لا يُطلق الرجاء بمعنى الخوف إلا مع النفي؛  
 كقوله تعالى: «مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» أى لا تخافون له عظمة. وقوله تعالى:  
 «لِلَّذِينَ لَا يُرْجُونَ آيَامَ اللَّهِ» أى لا يخافون. قال القشيري: ولا يبعد ذكر الخوف من غير  
 أن يكون للكلام نفي، ولكنهما أدعيا أنه لم يوجد ذلك إلا مع النفي. والله أعلم.

قوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ الْكَاسِرِ  
 بِمَا أَرَدْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْظَّالِمِينَ خَصِيماً ﴿١٠﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى — فى هذه الآية تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم وتكريم وتعظيم وتعويض إليه،  
 وتقويم أيضا على الجادة فى الحكم، وتأييد على ما رُفِعَ إليه فى أمر بنى أمية، وكانوا ثلاثة  
 إخوة: بشر وبشير وبشر، وأسير بن عروة ابن عم لهم؛ تقبوا مشربة لرفاعة بن زيد فى الليل  
 وسرقوا أدرعا له وطعاما، فعُتِرَ على ذلك. وقيل: إن السارق بشير وحده، وكان يكنى أبا طعمة  
 أخذ درعا؛ قيل: كان الدرع فى حجاب فيه دقيق، فكان الدقيق ينفثر من ثرق فى الحجاب  
 حتى انتهى إلى داره، فجاء ابن أمي رفاة وأسمه قتادة بن النعمان بشكوه إلى النبي صلى الله  
 عليه وسلم؛ فجاء أسير بن عروة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن هؤلاء  
 عمدوا إلى أهل بيت هم أهل صلاح ودين فأنابهم بالسرقة ورموهم بها من غير بينة؛ وجعل  
 يعادل منهم حتى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتادة ورفاعة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية. وأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتِمْ خَبْرَةً﴾

(١) المشربة (فتح الراء وضها)؛ القرعة.

أَوْ شَيْئًا ثُمَّ يَمُوتُ بِهِ رَيْثًا» . وَكَانَ الْيَرُبِيُّ الَّذِي دُمُوهُ بِالْبَرْقَةِ لَيْدٌ بَنُ سَهْلٍ . وَقِيلَ : زَيْدُ بَنِ السَّمِينِ .  
 وَقِيلَ : رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ . فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ مَا أَنْزَلَ ، هَرَبَ ابْنُ أَبِيقٍ السَّادِقُ إِلَى مَكَّةَ ، زَلَّ  
 عَلَى سَلَافَةٍ بَنَتْ سَعْدُ بْنُ شُعَيْبٍ ، فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يَتَا مَرَضَ فِيهِ بَهَا ، وَهُوَ .  
 وَقَدْ أَنْزَلَتْهُ بَنَتْ سَعْدُ وَأَصْبَحَتْ \* يَنَازِعُهَا جِلْدَ أَسْتَمَا وَتَنَازَعَهُ  
 ظَنَمْتُ أَنَّ يَمُوتُ الَّذِي قَدْ صَنَعْتُمُو \* وَفِينَا نَبِيٌّ عِنْدَهُ الْوَحْيُ وَأَخْبَرَهُ  
 فَلَمَّا بَلَغَهَا قَالَتْ : إِنَّمَا أَهْدَيْتُ لِي شَرَّ حَسَّانٍ ، وَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَطَرَحَتْهُ خَارِجَ الْمَتَرَلِ ،  
 فَهَرَبَ إِلَى خَيْرٍ وَارْتَدَ . ثُمَّ إِنَّهُ قَتَلَ يَتَا ذَاتَ لَيْلَةٍ لِيَسْرِقَ فَسَقَطَ الْحَالِطُ عَلَيْهِ فَمَاتَ مَرْتَمًا . ذَكَرَ  
 هَذَا الْحَدِيثَ بَكِيرٌ مِنَ الْقَاضِيَةِ الْقُرْمَذِيِّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، لِأَنَّهُمْ أَحَلُّوا أَسْنَدَهُ غَيْرَ  
 مُحَمَّدِ بْنِ سَامَةَ الْحَزَنِيِّ . وَذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالطَّبْرِيُّ بِالْفَافِ مَخْتَلَفَةً . وَذَكَرَ قِصَّةَ مَوْتِهِ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ  
 فِي تَفْسِيرِهِ ، وَالْقَشِيرِيُّ كَذَلِكَ وَزَادَ ذِكْرَ الرِّدَّةِ ، ثُمَّ قِيلَ : كَانَ زَيْدُ بَنِ السَّمِينِ وَلَيْدٌ بَنُ سَهْلٍ  
 يَهُودِيٍّ . وَقِيلَ : كَانَ لَيْدٌ مَسْلَمًا . ذَكَرَهُ الْمُهَذَّبِيُّ ، وَأَدْخَلَهُ أَبُو عَمْرٍو كِتَابَ الصَّحَابَةِ لَهُ ، فَدَلَّ  
 ذَلِكَ عَلَى إِسْلَامِهِ عِنْدَهُ . وَكَانَ بِشِيرَ رَجُلًا مُتَأَفِّقًا يَهْجُو أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُنْعِلُ  
 الشَّرَّ غَيْرَهُ ، وَكَانَ الْمَسْلُومُونَ يَقُولُونَ : وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا شَرُّ الْخَلِيقِ . فَقَالَ شَرًّا يَتَنَصَّلُ فِيهِ ؛  
 فَهَذَا قَوْلُهُ :

أَوْ كَلِمَا قَالَ الرِّجَالُ قَعْبِيدَةً \* تَحُلَّتْ وَقَالُوا ابْنُ أَبِيقٍ قَالِمًا

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْطَعَ يَدَهُ وَكَانَ مَطَاعًا ، فَجَاعَتِ الْيَهُودُ  
 شَاكِينَ فِي السِّلَاحِ فَأَخَذُوهُ وَهَرَبُوا بِهِ ؛ فَزَلَّ « هَاتِمٌ هَؤُلَاءِ » . يَعْنِي الْيَهُودَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الثَّانِيَّةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَمَا أَرَاكَ اللَّهُ ) مَعْنَاهُ عَلَى قَوَائِمِ الشَّرْعِ ؛ إِنَّمَا يُوْتَحَى وَنَصٌّ ،  
 أَوْ يَنْظَرُ جَارٍ عَلَى سَنَنِ الْوَحْيِ . وَهَذَا أَصْلٌ فِي الْقِيَاسِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
 وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى شَيْئًا أَصَابَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَاهُ ذَلِكَ ، وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنْبِيَائِهِ الْمَصْمُومَةِ ؛  
 فَمَا أَحَدُنَا إِذَا رَأَى شَيْئًا يَنْظُرُهُ فَلَا يَقْطَعُ قِيَامَهُ ، وَلَمْ يَرِدْ رُؤْيَا الْعَيْنِ هُنَا ؛ لِأَنَّ الْخَطْمَ لَا يَرَى

بالبين . وفي الكلام إضمار ، أى بما أراكه الله ، وفيه إضمار آخر ، وأمضى الأحكام على ما عرفناك من غير اعتقاد باستقلالهم .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْعَانِيَيْنِ حَصِيًّا ﴾ اسم فاعل ، كقولك جالسته فانا جلسه ، ولا يكون فعلا هنا بمعنى مفعول ، يدل على ذلك « وَلَا تُجَادِلْ » فالخصم هو المجادل ، وجمع الخصم خصماء . وقيل : خصيا مخاصما اسم فاعل أيضا . فنهى الله عن وجل رسوله عن عَصْدِ أهل التَّهم والدِّفاع عنهم بما يقوله خصمهم في الحجّة . وفي هذا دليل على أن النِّبَاة عن المبتطل والمتَّهم في الخصومة لا تجوز . فلا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه مُحَقِّق . ومضى الكلام في السورة على حفظ أموال اليتامى والناس ؛ فيبين أن مال الكافر محفوظ عليه كمال المسلم ، إلا في الموضع الذي أباحه الله تعالى .

المسألة الرابعة - قال العلماء : ولا ينبغي إذا ظهر للمسلمين غنائم قوم أن يُجَادِلَ فريق منهم فريقا عنهم ليحموهم ويدفعوا عنهم ؛ فإن هذا قد وقع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْعَانِيَيْنِ حَصِيًّا ﴾ وقوله : « وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ » . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد منه الذين كانوا يفعلونه من المسلمين دونه لوجهين : أحدهما - أنه تعالى أبان ذلك بما ذكره بعد بقوله : « هَاتِمَ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . والآخر - أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حاكما فيما بينهم ، ولذلك كان يُتَذَرُ إليه ولا يُتَذَرُ هو إلى غيره ؛ فدل أن القصد لغيره .

قوله تعالى : وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

فيه مسألة واحدة :

ذهب الطبري إلى أن المعنى : استغفر الله من ذنبك في خصامك الخائنين ؛ فأمره بالاستغفار لما هم بالذنب عنهم وقطع يد اليهودى . وهذا مذهب من جاوز الصغار على الأنبياء . قال ابن عطية : وهذا ليس بذنب ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما دافع على الظاهر وهو

يُستَقْدِرُ بَرَاءَتَهُمْ . وَالْمَعْنَى : وَاسْتَغْفَرَ اللَّهُ لِلذَّانِبِينَ مِنْ أَمْنِكَ وَالْمُتَخَافِينَ بِالْبَاطِلِ ؛ وَهَكَذَا مِنْ  
الْحَسَنِ أَنْ تَسْمَعَ مِنَ الْمُتَدَاعِينَ وَتَقْضَى بِخَوِّ مَا تَسْمَعُ ، وَتَسْتَغْفِرَ لِلذَّنْبِ . وَقِيلَ : هُوَ أَمْرٌ  
بِالِاسْتِغْفَارِ عَلَى طَرِيقِ التَّسْبِيحِ ، كَالرَّجُلِ يَقُولُ : اسْتَغْفِرَ اللَّهُ ؛ عَلَى وَجْهِ التَّسْبِيحِ مِنْ غَيْرِ  
أَنْ يَقْصِدَ تَوْبَةً مِنْ ذَنْبٍ . وَقِيلَ : الْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِنَوَائِرِقٍ ؛  
لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ آتِيَ اللَّهُ » ، « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ  
مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٥٧﴾

أَيُّ لَا تَحَاجُجْ عَنِ الَّذِينَ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ ؛ نَزَلَتْ فِي إِسْرَافِ بْنِ عُرْوَةَ كَمَا تَقْدِمُ . وَالمُجَادَلَةُ  
الْمُخَاصِمَةُ ، مِنَ الْجِدَالِ وَهُوَ الْقِتَالُ ، وَمَنْ رَجُلٌ يَجْدُلُ الْخَلْقَ ، وَمَنْهُ الْأَجْدَلُ لِلصَّقَرِ . وَقِيلَ :  
هُوَ مِنَ الْجِدَالَةِ وَهِيَ وَجْهُ الْأَرْضِ ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَصْمِينَ يَرِيدُ أَنْ يُلْقِيَ صَاحِبَهَا عَلَيْهِ ؛  
قَالَ الصَّبَاحُ :

قَدْ أَرَكَبَ الْحَالَةَ بَعْدَ الْحَالَةِ • وَأَتْرَكَ السَّابِقَ بِالْجِدَالَةِ

• مُتَقَرِّرًا لَيْسَتْ لَهُ مَحَالَةٌ •

الْجِدَالَةُ الْأَرْضُ ؛ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ : تَرَكَتُهُ مُجْدَلًا ؛ أَيُّ مَطْرُوحًا عَلَى الْجِدَالَةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ) أَيُّ لَا يَرْضَى عَنْهُ وَلَا يُؤَيِّدُهُ بِذِكْرِهِ . ( مَنْ كَانَ خَوَّانًا )  
خَائِنًا . وَخَرَّانًا أَيْ بَلِّغْ ، لِأَنَّهُ مِنْ أُنْبِيَاءِ الْمَائِنَةِ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِعَظَمِ قَدْرِ ذَلِكَ الْجَنَابَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ  
إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٥٨﴾  
هَاتَتْهُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِلِ اللَّهُ عَنْهُمْ  
يَوْمَ الْقِسْمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٥٩﴾

(١) جَدُلَ الْخَلْقَ : لَطِيفُ الْقَتْلِ •

قال الضحاك : لما سَرَقَ الدرعَ أَخَذَ حُفْرَةً فِي يَدِهِ وَجَعَلَ الدرعَ تَحْتَ التُّرَابِ ؛ فَتَلَّتْ  
 ( يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ ) يَقُولُ : لَا يَخْفَى مَكَانَ الدَّرْعِ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ،  
 أَيْ رَقِيبٌ حَافِظٌ لَهُمْ . وَقِيلَ : « يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ » أَيْ يَسْتَرُونَ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى :  
 « وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ » أَيْ مُسْتَرٌ . وَقِيلَ : يَسْتَحْيُونَ مِنَ النَّاسِ ؛ وَهَذَا لِأَنَّهُ اسْتَحْيَاءٌ  
 سَبَبُ الْإِسْتَارِ . وَمَعْنَى ( وَهُوَ مَعَهُمْ ) أَيْ بِالْعِلْمِ وَالزُّرْقَةِ وَالسَّمْعِ ؛ هَذَا قَوْلُ أَهْلِ السَّنَةِ .  
 وَقَالَتِ الْجَهْمِيَّةُ وَالْقَدَرِيَّةُ وَالْمُتَزَلَّةُ : هُوَ بِكُلِّ مَكَانٍ ؛ تَمَسَّكَ بِهِذِهِ الْآيَةُ وَمَا كَانَ مِثْلَهَا ؛  
 قَالُوا : لَمَّا قَالَ « وَهُوَ مَعَهُمْ » ثَبَّتَ أَنَّهُ بِكُلِّ مَكَانٍ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَثْبَتَ كَوْنَهُ مَعَهُمْ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ  
 قَوْلِهِمْ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ صِفَةُ الْأَجْسَامِ وَاللَّهُ تَعَالَى مُتَعَالٍ عَنْ ذَلِكَ . أَلَا تَرَى مُنَاطَرَةً بِشَرْفِ قَوْلِ اللَّهِ  
 عَنْ وَجَلٍ : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ » حِينَ قَالَ : هُوَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ .  
 فَقَالَ لَهُ خَصْمُهُ : هُوَ فِي قَلْبِنَا وَفِي حَشْوِكَ وَفِي جُوفِ جَارِكَ . تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ !  
 حَكَى ذَلِكَ وَكَبَعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَمَعْنَى ( يَبْتَغُونَ ) يَقُولُونَ ؛ قَالَهُ الْكَلْبِيُّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ  
 عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . ( مَا لَا يَرْضَى ) أَيْ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ . ( مِنْ الْقَوْلِ )  
 أَيْ مِنَ الرَّأْيِ وَالْإِعْتِقَادِ ؛ كَقَوْلِكَ مَذْهَبَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ . وَقِيلَ : « الْقَوْلُ » بِمَعْنَى الْمَقُولِ ؛  
 لِأَنَّهُ نَفْسُ الْقَوْلِ لَا يَبْتَغِي .

قوله تعالى : ( هَآؤُلَآءِ ) يريد قوم بشير السارق لما هربوا به وجادلوا عنه .  
 قال الزجاج : « هَؤُلَاءِ » بمعنى الذين . ( جَادَلْتُمْ ) حَاجَمْتُمْ . ( فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ يُجَادِلُ  
 اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) اسْتَفْهَامُ مَعْنَاهُ الْإِنْكَارُ وَالتَّوْبِيخُ . ( أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا )  
 الْوَكِيلُ : الْقَائِمُ بِتَدْيِيرِ الْأُمُورِ ؛ فَاللهُ تَعَالَى قَائِمٌ بِتَدْيِيرِ خَلْقِهِ . وَالْمَعْنَى : لَا أَحَدَ لَهُمْ يَقُومُ بِأَمْرِهِمْ  
 إِذَا أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِعُنَايَةِ وَأَدْخَلَهُمُ النَّارَ .

قوله تعالى : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ

غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾

قال ابن عباس: عَرَضَ اللَّهُ التَّوْبَةَ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا) بَانَ إِسْرَءِيلَ (أَوْ يَظْلِمْ نَفْسًا) بَانَ يَشْرِكُ (ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ) بِمَعْنَى بِالتَّوْبَةِ؛ فَإِنَّ الْإِسْتِغْفَارَ بِالسَّانِ مِنْ خَيْرِ تَوْبَةٍ لَا يَنْفَعُ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي «كَالِ عِمْرَانَ»؛ وَقَالَ الضَّحَّاكُ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي شَأْنِ وَحْيِي قَاتِلِ حِزَّةِ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَقَتْلِ حِزَّةٍ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي لَنَأْدِمُ فِعْلِي لِي مِنَ تَوْبَةٍ؟ فَتَرَى: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسًا» الْآيَةُ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْعُمُومُ وَالشُّمُولُ، لِجَمِيعِ الْخَلْقِ. وَرَوَى سَفْيَانُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْأَسْوَدِ وَمَقْلَمَةَ قَالَا: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ قُرَآئَتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ «النِّسَاءِ» ثُمَّ اسْتَغْفَرَ غُفْرَانَهُ: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسًا ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَغْفِرِ اللَّهُ غُفْرًا رَحِيمًا» «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا». وَرَوَى عَنْ حَلْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَفَنَّى اللَّهُ بِهِ مَا شَاءَ، وَإِذَا سَمِعْتُهُ مِنْ غَيْرِهِ خَالَفْتُهُ، وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ وَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ: مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ؛ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسًا ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَغْفِرِ اللَّهُ غُفْرًا رَحِيمًا».

قوله تعالى: (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ) وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾

قوله تعالى: (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا) أَيِ ذَنْبًا (فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ) أَيِ عَاقِبَتِهِ مُائِدَةٌ عَلَيْهِ. وَالْكَسْبُ مَا يَمْزُجُهُ الْإِنْسَانُ إِلَى نَفْسِهِ نَفْعًا أَوْ يُلْقِيهِ عَنْهُ ضَرَرًا. وَلِهَذَا لَا يُسَمَّى فِعْلُ الرَّبِّ تَعَالَى كَسْبًا.

قوله تعالى: (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا) قِيلَ: هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَثُرَ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظِ تَأْكِيدًا. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: إِنَّمَا فَرْقٌ بَيْنَ الْخَطِيئَةِ وَالْإِثْمِ أَنَّ الْخَطِيئَةَ تَكُونُ مِنْ عَمْدٍ وَعَنِ زَهْرِ

نَحْمَدُ، وَالْإِيمَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ حَمْدٍ، وَقِيلَ: أَلْخَطِيئَةُ نَالِمٌ تَسْتَلِدُّ كَالْقَتْلِ بِالنَّطَامِ، وَقِيلَ:  
الْخَطِيئَةُ الْقَصِيرَةُ، وَالْإِيمُ الْكَبِيرَةُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ لَقَطْعًا طَامٌ يَتَدْرَجُ حَتَّى أَمَلُ الْبَازِلِ وَفِيهِمْ.  
قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمِنْ بَيْنِهِمْ) قَدْ خَلَقَ اسْمَ الْبَرِيِّ. وَالْمَاءُ فِي «يَه» وَالْإِيمُ أَوْ الْخَطِيئَةُ  
لأن معناه الإِيم، أَرْمَأَ جَمِياً. وَقِيلَ: يَرْجِعُ إِلَى الْكَسْبِ. (قَدْ أَحْتَمَلَ بَيْتَانِ وَأَمَّا سُبَيْتُ)  
تَسْبِيهِ، إِذِ الذَّنْبُ يَمْلُ وَوَزْرُهُ يَكُونُ كَالْحَمُولَاتِ. وَقَالَ تَعَالَى: «وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَتَّخِلَا  
مَعَ أَهْقَالِهِمْ». وَبِالْبَيِّنَاتِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَهُوَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ أَخَاكَ بِأَنْ تَحْمِلَهُ بِذَنْبٍ وَهُوَ مِنْهُ  
بَرٌّ. رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْبَيِّنَةُ؟»  
قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَمْرِ  
مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ أَخْبَرْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ قَدْ جَبَتْهُ». وَهَذَا نَصٌّ  
فَرَمَى الْبَرِّ بِبَيْتٍ لَهُ. يُقَالُ: بَيْتُهُ بَيْتًا وَبَيْتًا وَبَيْتَانِ إِذَا قَالَ عَلَيْهِ مَا يَمْلُ بِهِ. وَهُوَ بَيِّنَاتٌ  
وَالْمَقْصُولُ لَهُ مَبْهُوتٌ. وَيُقَالُ: بَيْتُ الرَّجُلِ (بِالْكَسْرِ) إِذَا دَعَشَ وَغَيَّرَ. وَبَيْتُ (بِالضَّم)  
مِثْلُهُ، وَأَنْصَحَ مِنْهُمَا بَيْتٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قُبِيتُ الَّذِي كَفَرْتُ» لِأَنَّهُ يُقَالُ رَجُلٌ مَبْهُوتٌ  
وَلَا يُقَالُ بَايْتُ وَلَا بَيْتٌ، قَالَهُ الْكِسَائِيُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ  
أَنْ يُضْلَوْكَ وَمَا يُضْلَوْنَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ  
عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَيْكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ  
عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١١﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ) مَا بَعْدَ «لَوْلَا» مَرْغُوعٌ بِالْإِبْتِدَاءِ مِنْدُ  
سَبِيحَةٍ، وَالْمَرْغُوعُ مَحْذُوفٌ لَا يَظْهَرُ، وَالْمَعْنَى: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ» بِأَنْ نَبِّكَ  
عَلَى الْحَقِّ، وَقِيلَ: بِالْبَيِّنَةِ وَالْبَيِّنَةِ. (لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ) عَنْ الْحَقِّ، لِأَنَّهُمْ

مَالُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرَى ابْنُ أَبِي رَافٍ مِنَ التَّهْمَةِ وَيُحْفَظَهَا الْيَهُودُ؛ فَفَضَّلَ اللَّهُ عَنْ وَجَلٍ عَلَى رَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَنْهَى عَنْ ذَلِكَ وَأَعْلَمَهُ إِيَّاهُ . ( وَمَا يُضَلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ) لِأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ عَمَلِ الضَّالِّينَ ، قَوْلُهُ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ . ( وَمَا يُضَرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ ) لِأَنَّكَ مَعْصُومٌ . ( وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ) هَذَا ابْتِدَاءُ كَلَامٍ . وَقِيلَ : الْوَاوُ لِلْهَالِ ؛ كَقَوْلِكَ جِئْتُكَ وَالشَّمْسُ طَالِمَةٌ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

• وَقَدْ أَغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكَلَتِهَا •

فَالْكَلَامُ مُتَّصِلٌ ؛ أَيْ مَا يَضُرُّكَ مِنْ شَيْءٍ مَعَ إِنْزَالِ اللَّهِ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ . « وَالْحِكْمَةُ » الْقَضَاءُ بِالرَّحْمَةِ . ( وَمَعْلَمٌ مَالَمُ تَكُنْ تَعْلَمُ ) يَعْنِي مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ . وَ« تَعْلَمُ » فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ ؛ لِأَنَّهُ خَبَرٌ كَانَ . وَحُذِفَتِ الضَّمَّةُ مِنَ النُّونِ لِلْجُزْمِ ، وَحُذِفَتِ الْوَاوُ لِاتِّفَاعِ السَّاكِنِينَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾

أَرَادَ مَا نَفَاوَضَ بِهِ قَوْمُ بَنِي أَبِي رَافٍ مِنَ التَّدْيِيرِ وَذَكَرُوهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالنَّجْوَى : السِّرُّ مِنَ الْأَثْنَيْنِ ؛ تَقُولُ : نَاجَيْتُ فُلَانًا مُنَاجَاةً وَنَجْلًا وَهُمْ يَنْجُونَ وَيَنْجَاوُونَ . وَيَنْجُوتُ فُلَانًا إِتْمَانُهُمْ نَجْوًا ، أَيْ نَاجِيَتِهِ ؛ فَتَنْجُوُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ نَجْوَتِ الشَّيْءِ أَنْجُوهُ ، أَيْ خَلَصْتَهُ وَأَفْرَدْتَهُ ؛ وَالتَّجْوَةُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُرْتَفِعِ لِأَشْرَادِهِ بَارْتِفَاعِهِ عَمَّا حَوْلَهُ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

قَبْلَ نَجْوِيهِ كُنْ يَتَّقُوهُ • وَالْمُسْتَكِينُ كُنْ يَتَّقِيهِ بِقِرْوَانِ

فَالنَّجْوَى الْمَسَازَةُ مُصْدَرٌ ، وَقَدْ تَسَمَّى بِهِ الْجَمَاعَةُ ؛ كَمَا يُقَالُ : قَوْمٌ عُدْلٌ وَرِضًا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَإِذْ هُمْ نَجْوَى » ؛ فَعِلَ الْأَوَّلُ يَكُونُ الْأَمْرُ أَمْرًا اسْتِثْنَاءً مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ ، وَهُوَ

(١) الْبَيْتُ لِأَبِي بَرٍّ جَرَّ . وَالْمَعْنَى : السَّاحَةُ وَمَا حَوْلَ الدَّارِ وَالْحَقْلِ . وَالْقِرْوَانُ : الْبَارِزُ الَّذِي لَيْسَ بِسَهْوٍ مِنَ السَّهْوِ .



الاستثناء المقتطع وأقبلت عليهم، وتكون «مَنْ» في موضع رفع على لكن من أمر بصيغة  
أو معروفة أو اصطلاح بين الناس ودعا إليه حتى يجواه خيرا، ويجوز أن تكون «مَنْ»  
في موضع خفض ويكون التقدير: لا تخين في كثير من مجوامم إلا نجوى من أمر بصيغة  
ثم حذف، وعلى الثاني وهو أن يكون النجوى اسما للجماعة المفردة، فتكون «مَنْ» في موضع  
خفض على البدل؛ أي لا خير في كثير من مجوامم إلا فيمن أمر بصيغة. أو تكون في موضع  
نصب على قول من قال: ما حردت بأحد إلا زيدا. وقال بعض المفسرين منهم الزجاج:  
النجوى كلام الجماعة المفردة أو الاثنين كان ذلك سرا أو جهرا، وفيه بعد. والله أعلم.  
والمعروف: لفظ يعم أعمال البر كلها. وقال مقاتل: المعروف هنا الفرض؛ والأول أصح.  
وقال صلى الله عليه وسلم: «كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق».  
وقال صلى الله عليه وسلم: «المعروف كاسمه أول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله».  
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يذهبك في المعروف كفر من كفره، فقد يشكر  
الشاكر بأضاحف محمود الكافر. وقال الحطاب:

مَنْ يَفْعَلْ أَخِيرَ لَا يَتِمَّ جَوَازِيهِ \* لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وأنشد الرباعي:

يَدُ الْمَرْبُوفِ غَمٌّ حَيْثُ كَانَتْ \* تَحْمِلُهَا كُفُورٌ أَمْ شُكُورُ  
فِي شُكْرِ الشُّكُورِ لَهَا جِزَاءٌ \* وَعِنْدَ اللَّهِ مَا كَفَرَ الْكُفُورُ

وقال الماوردي: «فينبغي لمن يقدر على إسداء المعروف أن يجعله حذار فواته، ويبادره  
خيفة عجزه، وليعلم أنه من قُرس زمانه، وغناهم إمكانه، ولا جملة همة بالقدره عليه، فكما واثق  
بقدره فانت فاعقت قدما، وموئل على مكنة زالت فأورثت نجلا، كما قال الشاعر:

ما زلت أسمع كم من واثق نجمل \* حتى أبليت فكنت الواثق النجلا

ولو قطع لنواب دهره، وتحفظ من عواقب مكره لكانت مفاعله مذخورة، ومظارمه  
مجبورة؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ تَجَحَّضَ عَلَيْهِ بَابٌ مِنَ الْخَيْرِ

فَلْيَتَزَهَّ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يُفَاقِ عَمْرُوهُ <sup>(١)</sup> وَرَوَى عَنْهُ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : <sup>(٢)</sup> لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَرَةٌ وَثَمَرَةُ الْمَرْغُوفِ السَّرَاحُ . وَقِيلَ لِأَنَّهُ يَشْرَوَانِ : مَا أَعْظَمُ الْمَصَائِبَ عِنْدَكُمْ ؟ قَالَ : أَنْ تَقْدِرَ عَلَى الْمَرْغُوفِ فَلَا تَصْطَلِمَهُ حَتَّى يَغُوبَ . وَقَالَ عَبْدُ الْجَبِيدِ : مَنْ أَتَرَ الْفُرْصَةَ عَنْ وَقْتِهَا فَلْيُكُنْ عَلَى حَقَّةٍ مِنْ نَوْتِهَا . . . وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

إِذَا مَبَتْ رِيَاكُ فَاعْتَنِمِهَا • فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سَكُونُ  
وَلَا تَنْفَلْ عَنِ الْإِحْسَانِ فِيهَا • فَتَأْتِرِي السَّكُونُ مَتَى يَكُونُ

وَكُتِبَ بَعْضُ ذَوِي الْحُرُمَاتِ إِلَى وَالِي قَصْرِ قِيَاةٍ رَعَايَةَ حُرْمَتِهِ :

أَعْلَى الصَّرَاطِ تَرِيدُ رِجِيَّةَ حَرَمِي • أَمْ فِي الْحَسَابِ تَقَمُّ بِالْإِنْسَامِ  
لِلنَّعْ فِي الدُّنْيَا أُرِيدُكَ ، فَأَتَبِهِ • لِحِسْوَانِي مِنْ رَقْدَةِ النَّوَامِ

وَقَالَ الْبَاسِ : لَا يَمُتُ الْمَرْغُوفُ إِلَّا بِثَلَاثِ خِصَالٍ : تَعْجِيلُهُ وَتَصَغِيرُهُ وَسُتْرُهُ ، وَإِذَا عَجَّلْتَهُ هَنَأَتْهُ ، وَإِذَا سَتَرْتَهُ عَظَمَتْهُ ، وَإِذَا سَتَرْتَهُ أَمَتَتْهُ . . . وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

زَادَ مَرْغُوفُكَ عِنْدِي عَظَمًا • إِنَّهُ عِنْدَكَ مُسْتَوْرٍ حَقِيرٍ  
تَنْسَاهُ كُلُّ مَنْ لَمْ تَنَاهَهُ • وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ خَطِيرٍ

وَمِنْ شَرْطِ الْمَرْغُوفِ تَرْكُ الْاِكْتِنَانِ بِهِ ، وَتَرْكُ الْإِعْجَابِ بِفِعْلِهِ ، لِمَا فِيهِمَا مِنْ إِسْقَاطِ الشُّكْرِ وَإِحْطَاكِ الْأَجْرِ . . . وَقَدْ تَهَدَّمُ فِي « الْبَقَرَةِ » <sup>(٣)</sup> بَيَانُهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( أَوْ اصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ ) عَامٌّ فِي الدِّمَا وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ ، وَفِي كُلِّ شَيْءٍ يَقَعُ التَّسَادُعُ وَالْإِخْتِلَافُ فِيهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَفِي كُلِّ كَلَامٍ يَرَادُ بِهِ وَجْهٌ اللَّهُ تَعَالَى . وَفِي الْخَبَرِ : « كَلَامُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ عَلَيْهِ لَالُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٍ عَنْ مَنكَرٍ أَوْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى » . فَأَمَّا مِنْ طَلَبِ الرِّيَاءِ وَالتَّرَافُؤِ فَلَا يَنَالُ الثَّوَابَ . وَكُتِبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : رَدِّ الْخُصُومِ حَتَّى يَصْطَلِحُوا ، فَإِنْ لَمْ يَفْضَلْ يُورِثُ بَيْنَهُمُ الضُّغَائِنُ . وَسَيَأْتِي فِي « الْمَجَادِلَةِ » مَا يَحْجِمُ مِنَ الْمُنَاجَاةِ وَمَا يَحْجُوزُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَهَذَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ

رضي الله عنه أنه قال : « من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة تحقق ذنبه » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب : « ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله تصلح بين اثنين إذا تماسكوا وهرب بينهم إذا تباعدوا » . وقال الأوزاعي : ما خطوة أحب إلى الله من وجل من خطوة في إصلاح ذات البين ، ومن أصلح بين اثنين كتب الله له برائة من النار . وقال محمد بن المنكدر : تنازع رجلان في ناحية المسجد فمكت إليهما فلم أزل بهما حتى اصطلحا ؛ فقال أبو هريرة وهو يراي : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد » . ذكر هذه الأخبار أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي في كتاب التوقيعات له ، وجدته بخط المصنف في ورقة ولم يبه على موضعها رضي الله عنه . و ( استأن ) نصب على المفعول من أجله .

قوله تعالى : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۚ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٢٦﴾

فيه مسائل ثلاث :

الأولى — قال العلماء : هاتان الآيتان نزلتا بسبب ابن أبيريق السارق ، لما حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالقطع وهرب إلى مكة وأرتد ؛ قال سعيد بن جبير : لما صار إلى مكة تقب يرحبا بمكة فلحقه المشركون فقتلوه ؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » إلى قوله : « فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » . وقال الضحاك : قديم نفر من قريش المدينة وأسلموا ثم أقبلوا إلى مكة مرتدين فتركت هذه الآية « ومن يشاقق الرسول » . والمشاقة المعاداة . والآية وإن نزلت في سارق الدرع أو غيره فهي عاقبة في كل من خالف طريق المسلمين . والهدى :

الرشد والبيان، وقد تقدم قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا مَا تَوَلَّوْا﴾ فقال: فإنه نزل فيمن أردت، والمعنى: تبرك وما بعد، عن مجاهد: أي تكلم إلى الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، وقوله مقابل: وقال الكلبي: نزل قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا مَا تَوَلَّوْا﴾ في ابن أبيرق، لما ظهرت حاله وسرقته هرب إلى مكة وأرشد وهب حائطا لرجل بمكة فقال له: حجاج بن علاط، فسقط نبي في القتب حتى وجد على حاله، وأخرجوه من مكة، فخرج إلى الشام ففرق بعض أموال القافلة فرجوه فقتلوه، فزلت ﴿تَوَلَّوْا مَا تَوَلَّوْا﴾ ونصليهم جهنم وساءت مصيرا. وقرأ عاصم وحزمة وأبو عمرو ﴿تَوَلَّوْا﴾ و ﴿نُصِّلِهِ﴾ بجزم الميم، والباقون بكسرهما، وهما لفتان.

الثانية - قال العلماء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ دليل على صحة القول بالإجماع. وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ أَفْكَهُ لَا يَقْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ رد على الخوارج؛ حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة كافر. وقد تقدم القول في هذا المعنى. وروى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنْ أَفْكَهُ لَا يَقْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَقْفِرُ مَا كُنْ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [قال:] هذا حديث غريب. قال ابن فورك: وأجمع أصحابنا على أنه لا تخليد إلا للكافر، وأن الفاسق من أهل القبلة إذا مات غير تائب فإنه إن صلب بالنار فلا محالة أنه يخرج منها بشفاعة الرسول؛ أو بابتداء رحمة من الله تعالى. وقال الضحاك: إن شيئا من الأعراب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني شريك في الذنوب والخطايا، إلا أني لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وأمنت به، ولم أتحذ من دونه وليا، ولم أوقع المعاصي جراءة على الله ولا مكابرة له، وإني لنادم وتائب ومستغفر، فما حالي عند الله؟ فأقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَفْكَهُ لَا يَقْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَقْفِرُ مَا كُنْ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية.

سورة تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا

مَرِيدًا ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى بن دون الله: إلهانا . نزلت فى أهل مكة إذ عبدوا الأصنام . و «إِنْ» نافية بمعنى «ما» . و «إلهانا» أصنامنا، بنى اللات والعزى ومنات . وكانت لكل منهن يمدونه ويقولون أننى بنى فلان؛ قاله الحسن وابن عباس، وأن مع كل منهن شيطانه يراهى للسنة والكهنة ويكلمهم؛ فخرج الكلام مخرج التعجب؛ لأن الأئمة من كل جنس أحسنه؛ فهذا جهل ممن يشرك بالله جهادا فيسميه أنى، أو يمدده أنى . وقيل: «إلهانا» مؤنات لأن الموات لا روح له، كالخشب والججر . والموات يُخبر عنه كما يُخبر عن المؤنات لأتضاع المترلة؛ تقول: الأحجار تمجنى، كما تقول: المرأة تمجنى . وقيل: «إلهانا» ملائكة؛ لقولهم: الملائكة بنات الله، وهى شفاعتنا عند الله؛ عن الضحاك . وقراءة ابن عباس «إلهانا» بفتح الواو والياء على أفراد اسم الجنس؛ وقرأ أيضا «وئنا» بضم الواو والياء جمع وئن . وأوانان أيضا جمع وئن مثل أسد وأساده . النحاس: ولم يقرأ به فيها علمت .

قلت: قد ذكر أبو بكر الأنبارى - حدثنا أبى حدثنا نصر بن داود حدثنا أبو عبيد حدثنا حجاج عن ابن جريج عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقرأ «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَوْثَانًا» . وقرأ ابن عباس أيضا «إلهانا» كأنه جمع وئنا على وئان؛ كما تقول: حمل وجمال، ثم جمع وئانا على وئن؛ تقول: مثال ومثل؛ ثم أبدل من الواو همزة لما انضمت؛ كما قال جل وعز: «وَلَمَّا الرُّسُلُ أُنْقِطَتْ» من الوقت؛ فأن جمع الجمع . وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم «إلهانا» جمع أينث كغدير وغدير . وحكى الطبري أنه جمع إلهان كإلهان وغيره . حكى هذه القراءة عن النبي صلى الله عليه وسلم أبو عمرو الداني؛ قال: وقرأ بها ابن عباس والحسن وأبو حيوة .

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ يريد إبليس؛ لأنهم إذا أطاعوه فإيا سؤل لم فقد عبده؛ وظنير في المعنى «اتخذوا آجبارهم ووهبائهم آرباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» أى أطاعهم فإيا أسروهم به؛ لا أنهم عبدهم . وسيأتى . وقد تقدم اشتقاق لفظ الشيطان . والمريد

الماضي المتروك ؛ فعلى من مرَّد إذا عَا : قال الأزهري : المرَّد الخارج عن الطاعة . وقد مرَّد الرجل يمرِّد مروداً إذا عَا : وخرج عن الطاعة ، فهو مارِد ومرِيد وممرَّد . ابن عرفة : هو الذي ظهر شره ؛ ومن هذا يقال : شجرة مرءاء إذا تساقط ورقها فظهرت عيدانها ؛ ومنه قيل للرجل : أمرد ، أى ظاهر مكان الشعر من عارضيه .

قوله تعالى : لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ أصل اللعن الإبعاد ، وقد تقدم . وهو في العرف إبعاد مقترن بسخط وغضب ؛ فلعمنة إبليس — عليه لعنة الله — على التمين جائرة ، وكذلك الكفرة الموق كفرةون وهامان وأبى جهل ؛ فأما الأحياء فقد مضى الكلام فيه في « البقرة » .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴾ أى وقال الشيطان ؛ والمعنى : لأستخلصهم بغوايتي وأضلتهم بإضلالى ، وهم الكفرة والمصاة . وفي الخبر « من كل ألف واحد لله والباقي للشيطان » .

قلت : وهذا صحيح معنى ؛ يعضده قوله تعالى لأدم يوم القيامة : « ابعت النار فيقول وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعة وتسعين » . أخرجه مسلم . وبعث النار هو نصيب الشيطان . والله أعلم . وقيل : من النصيب طاعتهم إياه في أشياء ، منها أنهم كانوا بضربون للولود مسباراً عند ولادته ، ودورانهم به يوم أسبوعه يقولون ليعرفه الممار .

قوله تعالى : وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا مَنِينَ لَهُمْ وَلَا مَنِينَ لَهُمْ وَلَا مَنِينَ لَهُمْ فَلْيَتَنَزَّلِ الْأَذَلُّ  
وَلَا مَنِينَ لَهُمْ فَلْيَتَنَزَّلِ الْأَذَلُّ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ  
فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾

(١) راجع ج ٢ ص ٢٥ طبة ثانية - (٢) راجع ج ٢ ص ١٨٨ طبة ثانية .

(٣) مدار البيوت : سكانها من الجن .

فيه تسع مسائل :

الأول - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزْهُمْ ﴾ أى لا تصرفهم عن طريق الهدى . ﴿ وَلَا تَنبَذْهُمْ ﴾ أى لا تسوّل لهم من التفتى ، وهذا لا ينحصر إلى واحد من الأمتية ؛ لأن كل واحد في نفسه إنما يفتيه بقدر رغبته وقرائن حاله . وقيل : لأمتيتهم طول الحياة الخير والتوبة والمعرفة مع الإصرار . ﴿ وَلَا تَرْهَقْهُمْ ﴾ أى لا تضيقهم ﴿ أَذَانُ الْأَنْعَامِ ﴾ البتة قطع ؛ ومنه سيف ياتك ، أى أحملهم على قطع أذان البحيرة والسائبة ونحوه . يقال : بكتك وبتكتك ( غفقا ومشددا ) وفى يده بكتكة أى قطعة ، والجملع بكتك قال زهير :

• طارت وفى كفه من ريشها بكتك •

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْهَقْهُمْ ﴾ فليفتق خلق الله ﴿ الْأَلَمَاتِ كُلِّهَا الْقِسْمِ ﴾ . واختلف العلماء فى هذا التفسير إلى ماذا يرجع ، فقالت طائفة : هو الخصاص وفقه الأئمة وقطع الأذان ؛ قال مدناه ابن عباس وأنس وعكرمة وأبو صالح . وذلك كله تعذيب للحيوان وتحريم وتحليل بالطعن ، وقول بغير حجة ولا برهان . والأذان فى الأنعام جمال ومنفعة ، وكذلك غيرها من الأعضاء ؛ فلذلك رأى الشيطان أن يفتى ما خلق الله تعالى . وفى حديث عياض بن حماد الجبشعي " وأنى خلقت عبلى حنفا كلهم وأن الشياطين أتتهم فأجالتهم عن دينهم فخرمت عليهم ما أحلت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا وأمرتهم أن يفتروا خلقى " . الحديث ، أخرجه القاضى إسماعيل ومسلم أيضا . وروى إسماعيل قال حدثنا أبو الوليد وسليمان ابن حرب قال حدثنا شعبة عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن أبىه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قشفت الهيئة ، قال : " هل لك من مال " ؟ قلت : نعم . قال : " من أى المال " ؟ قلت : من كل المال ، من النخل والإبل والرقيق - قال أبو الوليد : والنفتم - قال : " فإذا أتاك الله مالا فليز عليك أثره " ثم قال : " هل تفتح إبل قومك صحاحا " .

(١) هذا مجزئ ، ومدله \* حتى إذا ما عوت كف الغلام لما \* (٢) اجتلتهم : استخفهم .

(٣) تلجيت الناقة ( من باب ضرب ) : إذا ولتها ووليت ناجها .

أَذَانِيَا فَمِئِدُ إِلَى مُوسَى قَشَقَ أَذَانَهَا وَقَوَّلَ هَذِهِ بِحَرْفٍ وَتَشَقَّ جِلْدُهَا وَقَوَّلَ هَذِهِ حَرَمَ  
لَحْرَمَتِهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ؟ قَالَ: قُلْتُ أَجَلٌ. قَالَ: فَوَكَّلْ مَا أَمَّاكَ اللَّهُ حَلَّ وَمُوسَى لَيْسَ  
أَحَدٌ مِنْ مُوسَى وَسَاعَدَ اللَّهُ أَشَدَّ مِنْ سَاعِدِكَ. قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا  
تَرَأَتْ بِهِ قَلَمَ بَقَرَةٍ فَمَ تَرَى فِي أَفْأَقَرِيهِ أَمْ أَكَاثِرُهُ؟ فَقَالَ: «بَلْ أَقْرَهُ».

الثالثة - ولما كان هذا من فعل الشيطان وأثره أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
«إِنْ تَسْتَشْرِفَ الْعَيْنَ وَالْأَذْنَ وَلَا تَصْحَى بَوْرَاءَ وَلَا مُقَابَلَةَ وَلَا مُدَابَرَةَ وَلَا خِرْقَاءَ وَلَا شِرْقَاءَ».  
أخرجه أبو داود عن عليّ: قال: أمرنا، فذكره. المقابلة: المقطوعة طرف الأذن. والمدابرة:  
المقطوعة مؤخر الأذن. والشرقاء: مشقوقة الأذن. والخرقاء التي تحرق أذنها السمة. والعيب  
في الأذن مراعى عند جماعة العلماء. قال مالك والليث: المقطوعة الأذن لا تجزئ أو جزل  
الأذن، والشق للبيسيم يجرى؛ وهو قول الشافعي وجماعة الفقهاء. فإن كانت سكة وهي التي  
سُكِّتْ بلا أذن فقال مالك والشافعي: لا يجوز. وإن كانت صغيرة الأذن أجزأت؛ وروى  
عن أبي حنيفة مثل ذلك.

الرابعة - وأما خصاء البهائم فرخص فيه جماعة من أهل العلم إذا قصدت فيه المنفعة،  
إما لئلا يفسد أو غيره. والجمهور من العلماء وجامعهم على أنه لا بأس أن يخصى بالخصى،  
واستحسنه بعضهم إذا كان آمن من غيره. ورخص في خصاء الخيل عمر بن عبد العزيز.  
وخصى عمرو بن الزبير بغللاً له. ورخص مالك في خصاء ذكور النعم، وإنما جاز ذلك لأنه  
لا يقصد به تليق الحيوان بالأنثى لصنم، ولا لرب يوحد؛ وإنما يقصد به تطيب النعم  
[فيما يؤكل]، وتقوية الذكر إذا انقطع أمه عن الأثني. ومنهم من كره ذلك؛ لقول النبي  
صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا يَقَعُ ذَلِكَ الَّذِينَ لَا يَهْلُمُونَ». واختاره ابن المنذر قال: لأن ذلك

(١) حرم (جمع حريم): وهو القطع الأذن. (٢) تشرف الشيء واستشرف: وضع يده على حاجبه كالذي يستغل من الشمس حتى يبرسه بدميته. ومعنى الحديث: أن تأمل سلامتها من أن تكون بها رقة العين عورها، وأمة الأذن قطعها. (٣) كذا في الأصول - والله، فإنه العبد: «تليق الحال بالهين». (٤) زيادة عن ابن العربي.



ثابت عن ابن عمر، وكان يقول : هو نساء خلق الله . وكره ذلك عبد الملك بن مروان . وقال الأوزاعي : كانوا يكرهون خصاء كل شيء له نسل . وقال ابن المنذر : زوفية حديثان ، أحدهما عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن خصاء الفم واليقر والإبل والحيل . والآخر حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن صبر الروح وخصاء البهائم . والذي في الموطأ من هذا الباب ما ذكره عن نافع عن ابن عمر أنه يكره الإخصاء ويقول : فيه تمام الخلق . قال أبو عمر : يعني في ترك الإخصاء تمام الخلق ، وروى نساء الخلق .

قلت : أسند أبو محمد عبد الفتي من حديث عمر بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تخصوا ما يؤتى خلق الله » . رواه عن الدارقطني شيخه قال : حدثنا عباس بن محمد حدثنا قراد حدثنا أبو مالك النخعي عن عمر بن إسحاق ، فذكره . قال الدارقطني : ورواه عبد الصمد بن النعمان عن أبي مالك .

الخامسة : وأما الخصاء في الآدمي فصية ، فإنه إذا خصى بطل قلبه وقوته ، عكس الحيوان ، واهبط نسله المأمور به في قوله عليه السلام : « تناكحوا تناسلوا فإني مكاتبكم الأمم » . ثم إن فيه ألما عظيما ربما يفضي بصاحبه إلى الهلاك ، فيكون فيه تضعيف مال وإنهاب نفس ، وكل ذلك منهي عنه . ثم هذه مثلة ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المثلة ، وهو صحيح . وقد كره جماعة من فقهاء المجازين والكوفيين شراء الخصى من المقاتلة وغيرهم وقالوا : لو لم يستروا منهم لم يخصوا . ولم يحتفظوا أن خصاء بني آدم لا يجل ولا يجوز ، لأنه مثلة وتغيير لخلق الله تعالى ، وكذلك قطع سائر أعضائهم في غير حد ولا قود ، قاله أبو عمر .

السادسة : وإذا تقرر هذا فاعلم أن الوسم والإشمار مستثنى من نهيه عليه السلام عن شريطة الشيطان ، وهي ما قدمناه من نهيه عن تذيب الحيوان بالنار ، والوسم الكي بالنار وأصله العلامة ، يقال : وسم الشيء ، يسمه إذا علمه علامة يعرف بها ، ومنه قوله تعالى : « يَسْمِئُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ » . فاليسما العلامة والميسم المِكْوَة . وثبت في صحيح مسلم عن أنس

قال : رأيت في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم الوشم وهو يسم إلى الصدقة والتي وغير ذلك حتى يعرف كآمال يؤدى في حقه ؛ ولا يتجاوز به إلى غيره .

السابعة - والوشم ناجز في كل الأعضاء غير الوجه ؛ لما رواه جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضرب في الوجه ومن الوشم في الوجه ؛ أخرجه مسلم . وإنما كان ذلك لشرفه على الأعضاء ؛ إذ هو مَقَرُّ الحسن والجمال ، ولأن به قوام الحيوان ؛ وقد سَمَّى النبي صلى الله عليه وسلم رجل يضرب عبده فقال : « أتى الوجه فإن الله خلق آدم على صورته » . أى على صورة المضرروب ؛ أى وَجْهٌ هذا المضرروب يشبه وجه آدم ، فينبى أن يُحَرَّمَ لشبهه . وهذا أحسن ما قيل في تأويله والله أعلم . وقالت طائفة : الإشارة بالتعبير إلى الوشم وما جرى مجراه من التمتع للحسن ؛ قاله ابن مسعود والحسن . ومن ذلك الحديث الصحيح عن عبد الله قال : « لعن الله الواشمات والمستوشمات <sup>(١)</sup> [والتامصات] والمتنصصات [والمُتَفَلِّجات] للحسن المغيرات خلق الله » الحديث . أخرجه مسلم ، وسيأتى بكلامه في الحشر إن شاء الله تعالى . والوشم يكون في اليمين ، وهو أن يُغرز ظهر كُفِّ المرأة ومصمها بإبرة ثم يُغشى بالكحل أو بالثور فيخضر . <sup>(٢)</sup> وقد وَشِمَتْ تَشَمَّ وَشَمًا فهى واشمة . والمستوشمة التى يفعل ذلك بها ؛ قاله الهروى . وقال ابن العربى : ورجال صِيقَلِيَّة وإفريقية يفعلونه ؛ يدل كل واحد منهم على رُجُلِيَّة في حديثه . قال القاضي عياض . وقع في رواية الهروى - أحد رواة مسلم - مكان « الواشمة والمستوشمة » الواشية والمستوشية ، (بالباء مكان الميم) وهو من الوشى وهو الترتين ؛ وأصل الوشى نسج الثوب على لوين ، وتورموشى في وجهه وقوائمه سواد ؛ أى تشى المرأة نفسها بما فعله فيها من التنميص والتفليج والأشمر . والتنصصات جمع منتصصة وهى التى تقلع الشعر من وجهها بالمناص ، وهو الذى يقلع الشعر ؛ ويقال لها التامصة . ابن العربى : وأهل مصر ينقون شعر البانة وهو منه ؛ فإن السنة خلق البانة وتنف الإبط ، فأما تنف الفرج فإنه يرخبه ويؤذيه ، ويُبطل كثيرا من المنفعة فيه . <sup>(٣)</sup> والمُتَفَلِّجات جمع متفلبة ، وهى التى تفعل الفلج

(١) الزيادة من صحيح مسلم . (٢) الثور : دخان السم .

في أسنانها ؛ أي ثمانية حتى ترجع المصنعة الأسنان خلقة فلجاء صنعة . وفي غير كتاب مسلم :  
 الواشرات ، وهي جمع وأشرة ، وهي التي تشر أسنانها ؛ أي تصنع فيها أشرا ، وهي التحزيرات  
 التي تكون في أسنان الشبان ؛ فعمل ذلك المرأة الكيرة تشبها بالشابة . وهذه الأمور كلها  
 قد شهدت الأحاديث بمن فاعلها وإنما من الكثر . واختلف في المعنى الذي سمي لأجلها ؛  
 فقيل : لأنها من باب التديس . وقيل : من باب تغيير خلق الله تعالى ؛ كما قال ابن مسعود  
 وهو أصح ، وهو يتضمن المعنى الأول . ثم قيل : هذا المنهى عنه إنما هو فيما يكون باقيا ؛  
 لأنه من باب تغيير خلق الله تعالى ، فأما مالا يكون باقيا كالكل والتزين به للنساء فقد أجازته  
 العلماء مالك وغيره ؛ وكرهه مالك للرجال . وأجاز مالك أيضا أن تثنى المرأة بينها بالحناء .  
 وروى عن عمر إنكار ذلك وقال : إنما أن تخضب بينها كلها وإما أن تدع ، وإنكر مالك هذه  
 الرواية عن عمر ، ولا تدع الخضاب بالحناء ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة لا تخضب  
 فقال : " لا تدع إحداكن يدها كأنها يد رجل " فإذ زالت تخضب وقد جاوزت التسعين  
 حتى ماتت . قال القاضي عياض : ووجه حديث بالنهي عن تسويد الحناء ، ذكره صاحب  
 النصاب . ولا تسعل ، ويكون في عتقها قلادة من سير في خبز ؛ فإنه يروى من النبي صلى  
 الله عليه وسلم أنه قال لعائشة : " إنه لا ينبغي أن تكوني بغير قلادة إما بحيط وإما بسير " .  
 وقال أنس : يستحب المرأة أن تلبس في عتقها في الصلاة ولو سيرا . قال أبو جعفر الطبري :  
 حديث ابن مسعود دليل على أنه لا يجوز تغيير شيء من خلقها الذي خلقها الله عليه زيادة  
 أو نقصان ، التماس الحسن لزوج أو غيره ، سواء قلعت أسنانها أو وشرتها ، أو كان لها من زائدة  
 فآزالتها أو أسنان طوال فقطعت أطرافها . وكذا لا يجوز لها حلق لحية أو شارب أو عتقة  
 وإن نبت لها ؛ لأن كل ذلك تغيير خلق الله . قال عياض : ويأتى على ما ذكره أن من خلق  
 بأصبع زائدة أو عضو زائد لا يجوز له قطعه ولا زعمه ؛ لأنه من تغيير خلق الله تعالى ، إلا أن  
 تكون هذه الزوائد تولد فلا بأس بقطعها عند أبي جعفر وغيره .

الثامنة - قلت : ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : " لمن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة " أخرجه مسلم . فنبى صلى الله عليه وسلم عن وصل المرأة شعرها ، وهو أن يضاف إليه شعر آخر يكثر به ، والواصلة هي التي تفعل ذلك ، والمستوصلة هي التي تستدعى من يفعل ذلك بها . مسلم عن جابر قال : زجر النبي صلى الله عليه وسلم أن تصل المرأة بشعرها شيئا . <sup>(١)</sup> وتخرج عن أسماء بنت أبي بكر قالت : جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن لي أبنة <sup>(٢)</sup> عرسا أصابها حصبة فتمزق شعرها أفأشبهه ؟ فقال : " لمن الله الواصلة والمستوصلة " . وهذا كله نص في تحريم وصل الشعر ، وبه قال مالك وجنابة العلماء . ومنعوا الوصل بكل شيء من الصوف والخرق وغير ذلك ؛ لأنه في معنى وصله بالشعر . وشذ الليث بن سعد فأجاز وصله بالصوف والخرق وما ليس بشعر ، وهذا أشبه بمنهبل أهل الظاهر . وأباح آخرون وضع الشعر على الرأس وقالوا : إنما جاء النهي عن الوصل خاصة ، وهذه ظاهرة محضة وإعراض عن المعنى . وشذ قوم فأجازوا الوصل مطلقا ، وهو قول باطل قطعا تزده الأحاديث . وقد روى عن عائشة رضي الله عنها ولم يصح . وروى عن ابن سيرين أنه سأل رجل فقال : إن أمي كانت تمشط النساء ، أتأني أكل من مالها ؟ فقال : إن كانت تصل فلا . ولا يدخل في النهي ما ربط بخيوط الحرير المتونة على وجه الزينة والتجمل ، والله أعلم .

التاسعة - وقالت طائفة : المراد بالتغير تخلق الله هو أن الله تعالى خلق الشمس والقمر والأجرام والنار وغيرها من المخلوقات ؛ ليعتبر بها وينفع بها ، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة . قال الزجاج : إن الله تعالى خلق الأنعام لتركب وتوكل فخرموا على أنفسهم ، وجعل الشمس والقمر والحجارة مسخرة للناس فعملوها آلهة يعبدها ، فقد غيروا ما خلق الله . وقاله جماعة من أهل التفسير : مجاهد والضحاك وسعيد بن جبيرة وقادة . وروى عن ابن عباس

(١) هكذا في الأصول ، وفي صحيح مسلم : « برأسا » . (٢) عرسا (بضم العين وفتح الراء وتشديد الهاء المكسورة) تصغير عرس والعريس يقع على المرأة والرجل مع المفعول بها .

« فَلْيَقْبِرُوا خَلْقَ اللَّهِ » دين الله ؛ وقاله النخعي : وأخاطره الطبري قال : وإذا كان ذلك ممنا :  
 دخل فيه كل ما نهى الله عنه من خصاء وشتم وغير ذلك من المعاصي ؛ لأن الشيطان يدعو  
 إلى جميع المعاصي ؛ أي فلينبرن ما خلق الله في دينه . وقال مجاهد أيضا : « فَلْيَقْبِرُوا خَلْقَ اللَّهِ »  
 فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ يعني أنهم ولدوا على الإسلام فأمرهم الشيطان بتغييره ، وهو معنى  
 قوله عليه السلام : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » . فيرجع  
 معنى الخلق إلى ما أوجده فيهم يوم النذر من الإيمان به في قوله تعالى : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ » .  
 قال ابن العربي : روى عن طاوس أنه كان لا يحضر نكاح سوداء ببيض ولا يضاء بأسود ،  
 ويقول : هذا من قول الله « فَلْيَقْبِرُوا خَلْقَ اللَّهِ » . قال القاضي : وهذا وإن كان يحتمله اللفظ  
 فهو مخصوص بما أفنذه النبي صلى الله عليه وسلم من نكاح مولاة زيد وكان أيضا ، بظنه بركة  
 الحبشية أم أسامة وكان أسود من أبيض ، وهذا مما خفي على طاوس مع علمه .

قلت : ثم أنكح أسامة فاطمة بنت قيس وكانت بيضاء قرشية . وقد كانت تحت بلال  
 أخت عبد الرحمن بن عوف زهرية . وهذا أيضا يحصى وقد خفى عليهما .

قوله تعالى : ( وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ) أي يطيعه ويدع أمر الله .  
 ( فَقَدْ خَسِرَ ) أي قصص نفسه وغيبنا بأن أعطى الشيطان حق الله تعالى فيه وتركه من أجله .

قوله تعالى : يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٢﴾  
 أُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا  
 وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى : ( يَعِدُّهُمْ ) المعنى يعدهم بإطليعه وتزويجه من المال والجاه والرياسة ، وإن  
 لا بهت ولا عقاب ، ويؤمهمهم الفقر حتى لا يتقوا في الخير ( وَيُؤْمِنُهُمْ ) تلك ( وَمَا يَعِدُّهُمْ  
 الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ) أي خديعة . قال ابن عرفة : التزويج ما رأيت له ظاهرا تحبه وفيه

باطن مكروه أو مجهول. والشيطان غير لأنه يحمل على محاب النفس، ووراء ذلك ما يستوء.  
(أولئك) ابتداء (مأوامهم) ابتداء ثان (جهنم) خير الثاني والجملة خبر الأول. و(محيصاً) ملجأ،  
والفعل منه خاص محيص: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) ابتداء وخبر. (قيلًا) على البيان؛  
قال قيلًا وقولًا وقالا، بمعنى لا أجد أصديق من الله. وقد مضى الكلام على ما تضمنته هذه  
الآية من المعاني والحمد لله.

قوله تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ  
سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يُجْزِ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى: (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ). وقرأ أبو جعفر المدني  
«لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ» بتخفيف الياء فيهما جميعاً. ومن أحسن ما روى  
في نزولها ما رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت اليهود والنصارى لن  
يدخل الجنة إلا من كان منا، وقالت قريش: ليس نبعت؛ فأنزل الله «لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي  
أَهْلِ الْكِتَابِ». وقال قتادة والسدي: تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب:  
نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم. وقال المؤمنون: نبينا خاتم النبيين  
وكتابنا يقضى على سائر الكتب؛ فأنزل الآية.

قوله تعالى: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ). السوء ههنا الشرك؛ قال الحسن: هذه الآية  
في الكافر، وقرأ «وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَافُرُ». وعنه أيضاً «من يعمل سوءاً يجزيه»  
قال: ذلك لمن أراد الله هوانه، فأما من أراد كرامته فلا؛ قد ذكر الله قوماً فقال: «أُولَئِكَ  
الَّذِينَ نَقَبُلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَفْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي  
كَانُوا بِوَعْدِهِ». وقال الضحاك: يعني اليهود والنصارى والمجوس وكفار العرب.  
وقال الجمهور: لفظ الآية عام؛ والكافر والمؤمن مجاز بعمله السوء؛ فأما مجازاة الكافر فالنار  
لأن كفره أوفقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيا؛ كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة

قال : لما نزلت « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِهِ » بلغت من المسلمين مبلغا شديدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاربوا وسددوا حتى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكه يساكها » . ونخرج الترمذي الحكيم في (توارد الأصول ، في الفصل الخامس والتسعين) حدثنا إبراهيم بن المستر الهذلي قال حدثنا عبد الرحمن بن سليم بن حيان<sup>(١)</sup> أبو زيد قال سمعت أبي يذكر عن أبيه قال سمعت ابن عمر من مكة إلى المدينة فقال لنافع : لا تنزلي على المصلوب ؛ يعني ابن الزبير ، قال فما فعله في جوف الليل أن صك بحمله جذعه ، ففسح عينه ثم قال : يرحمك الله أبا خبيب أن كنت وأن كنت ! ولقد سمعت أباك الزبير يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يعمل سوءا يُجْزِهِ في الدنيا أو في الآخرة » فإن يك هذا بذلك ففيه . قال الترمذي أبو عبد الله : فأما في التثريب فقد أحمله فقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » فدخل فيه البر والفاجر والمدعو والولي والمؤمن والكافر ، ثم ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بين الموطئين فقال : « يجزى في الدنيا أو في الآخرة » وليس يجمع عليه الجزاء في الموطئين ؛ ألا ترى أن ابن عمر قال : فإن يك هذا بذلك ففيه ؛ معناه أنه قاتل في حرم الله وأحدث فيه حدا عظيما حتى أحرق البيت ورمى الحجر الأسود بالمتجنين فانصدع حتى ضُرب بالفضة فهو إلى يومنا كذلك ؛ وسمع لبيت أنينا : آه آه ! فلما رأى ابن عمر فعله ثم رآه مقتولا مصلوبا ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِهِ » . ثم قال : إن يك هذا القتل بذلك الذي فعله ففيه ؛ أي كأنه جُوزى بذلك السوء هذا القتل والصلب . رحمه الله ! ثم ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر بين الفريقين ؛ حدثنا أبي رضي الله عنه قال حدثنا أبو نعيم قال حدثنا محمد بن مسلم عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي قال : لما نزلت « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِهِ » قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ما هذه بمبقية مناء ؛ قال : « يا أبا بكر إنما يجزى المؤمن بها في الدنيا ويُجزى بها الكافر يوم القيامة » . حدثنا البخارود قال حدثنا وكيع وأبو مصوية

(١) يروي بالياء والياء (القريب) . (٢) بلغ الأمر بظناه (بالكسر والفتح) ؛ هم عليه من غير أن يشعروا .

وعبد بن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي بكر بن زهير الثقفي قال : لما نزلت « من يعمل سوءا يجز به » قال أبو بكر : كيف الصلاح يا رسول الله مع هذا ؟ كل شيء عملناه جزينا به ؟ فقال : « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللاؤا<sup>(١)</sup> » قال بلى . قال : « فذلك مما تجزون به » ففسر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أجمله التبريل من قوله « من يعمل سوءا يجز به » . وروى الترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنها لما نزلت قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فحجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة » . قال : حديث غريب وفي إسناده مقال ، وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث ، ضعفه يحيى ابن سعيد القطان وأحمد بن حنبل . ومولى بن سبيح مجهول ، وقد روى هذا من غير وجه عن أبي بكر وليس له إسناده صحيح أيضا ، وفي الباب من عائشة .

قلت : تزيه إسماعيل بن إسحاق القاضي قال حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا حماد ابن سلمة عن علي بن زيد عن أمه أنها سألت عائشة عن هذه الآية « وَأَنْ تَبْذُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ » وعن هذه الآية « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ » فقالت عائشة : ما سألني أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ، فقال : يا عائشة ، هذه مبايعة الله بما يصيبه من الحنئ والنكبة والشوك حتى البضاعة بضمها في كه فيفقدنها فيفزع فيجدنها في ميته ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الثبر من الكير . واسم « ليس » مضمرة فيها في جميع هذه الأقوال ، والتقدير : لبس الكائن من أوزرك ما تفتنوه بل من يعمل سوءا يجز به . وقيل : المعنى ليس ثواب الله بآمانيسكم ؛ إذ قد تقدم « والذين آمنوا وعملوا الصالحات ستدخلهم جنات » .

قوله تعالى : ( وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ) يعني المشركين ؛ لقوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » . وقيل : « من يعمل



سواء يحزيه « إلا أن يتوب . وقراءة الجماعة « ولا يحذله » بالجزم عطفًا على « يحزيه » .  
 وروى ابن بكار عن ابن عامر « ولا يحذ » بالرفع استثناء . فإن حلت الآية على الكافر قلبي  
 له غدا ولي ولا نصير . وإن حلت على المؤمن قلبي ولي ولا نصير دون الله .  
 قوله تعالى : . وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ  
 مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝ (١١٦)

شرط الإيمان لأن المشركين أدلوا بخدمة الكعبة وإطعام الحجيج وقرى الأضياف ،  
 وأهل الكتاب لسبقهم وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه ؛ فين تعالى أن الأعمال الحسنة لا تقبل  
 من غير إيمان . وقرأ « يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » الشيطان أبو عمرو وابن كثير (بضم الياء وفتح الهمزة)  
 على ما لم يسم فاعله . الباقون بفتح الياء وضم الهمزة ، يعني الجنة بأعمالهم . وقد مضى ذكر التفسير  
 وهي النكتة في ظهر النواة .

قوله تعالى : . وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ  
 وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۝ (١١٧)

قوله تعالى : ( وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ  
 حَنِيفًا ) فضل دين الإسلام على سائر الأديان و ( أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ) معناه أخلص دينه لله  
 وخضع له وتوجه إليه بالعبادة . قال ابن عباس : أراد أبا بكر الصديق رضي الله عنه .  
 واتجهب « دينا » على البيان . ( وَهُوَ مُحْسِنٌ ) ابتداء وخبر في موضع الحال ، أى موحّد فلا  
 يدخل فيه أهل الكتاب ؛ لأنهم تركوا الإيمان بمحمد عليه السلام . والملة الدين ، والحنيف  
 المسلم وقد تامل . ۝ (١)

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ قَالَ قُلُوبٌ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا لِأَنَّهُ عَجَبَهُ تَحْتَ الْقَلْبِ فَلَا تَدْعُ فِيهِ خَلًّا إِلَّا مَلَأَهُ؛ وَأَشَدُّ بَيِّنًا: .  
 • قَدْ تَخَلَّتْ مَسْكَ الْوَجْهِ حَتَّى •

وَبِهِ سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا وَخَلِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ كَالْعَالِمِ بِمَعْنَى الْعَالَمِ . وَقِيلَ: هُوَ الْمَفْعُولُ كَالْحَبِيبِ بِمَعْنَى الْمَحْبُوبِ، وَإِبْرَاهِيمُ كَانَ عَمِيًّا لَهُ وَكَانَ مَحْبُوبًا . وَقِيلَ: الْخَلِيلُ مِنَ الْإِخْتِصَاصِ فَالَّذِي عَنْ وَجَلٍ أَعْلَمَ إِيَّاهُ إِبْرَاهِيمَ فِي وَقْتِهِ لِلرَّسَالَةِ . وَاخْتَارَ هَذَا النَّحْوُ قَالَ: وَالِدَلِيلٍ عَلَى هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وَقَدْ اتَّخَذَ اللَّهُ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا" بِمَعْنَى نَفْسِهِ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ كُنْتُ نَسْتَعِذُّ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا" أَيْ لَوْ كُنْتُ غَضَّضْتُ أَحَدًا بِشَيْءٍ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضَى اللَّهُ عَنْهُ . وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اخْتَصَّ بِبَعْضِ أَصْحَابِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الدِّينِ . وَقِيلَ: الْخَلِيلُ الْمُتَحْتَاجُ؛ فَإِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ فَقِيرٌ مُتَحْتَاجٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ كَأَنَّهُ الَّذِي بِهِ الْإِخْتِلَالُ . وَقَالَ زُهَيْرٌ يمدح هَرَمَ بْنَ سَيَّانَ: .  
 وَإِنَّ أَنَا خَلِيلُ يَوْمٍ مَسْفِيَةٍ • يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِيمٌ

أَيْ لَا مَمْنُوعٌ . قَالَ الزَّجَّاجُ: وَمَعْنَى الْخَلِيلِ: الَّذِي لَيْسَ فِي عَجَبِهِ خَلٌّ؛ بِجَائِزٍ أَنْ يَكُونَ سَمِيَّ خَلِيلًا لِلَّهِ بِأَنَّهُ الَّذِي أَحْبَبَهُ وَاصْطَفَاهُ مَحَبَّةً تَامَةً . وَجَائِزٌ أَنْ يُسَمَّى خَلِيلَ اللَّهِ أَيْ فَقِيرًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ فَقْرَهُ وَلَا فَاقَتَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى غُلْظًا فِي ذَلِكَ . وَالْإِخْتِلَالُ الْفَقْرُ؛ فَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا رَأَى بِالْمَجْدَنِ قِصَارَ فِي الْمَوَاءِ أَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: إِنَّا إِلَيْكَ فَلَا . تَخَلَّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ نَصْرَتَهُ إِذَاهُ . وَقِيلَ: سَمِيَ بِذَلِكَ بِسَبَبٍ أَنَّهُ مَضَى إِلَى خَلِيلِهِ بِمِصْرَ، وَقِيلَ: بِالْمَوْصِلِ لِيَتَّخِرَ مِنْ عِنْدِهِ طَعَامًا فَلَمْ يَمْدَحْ صَاحِبَهُ، فَلَا غَرَارَ رَمَلًا وَرَاحَ بِهِ إِلَى أَهْلِهِ حَفْظَهُ وَتَامَ؛ فَفَتَحَهُ أَهْلُهُ فَوَجَدُوهُ دَقِيقًا فَصَنَعُوا لَهُ مِنْهُ، فَلَمَّا قَدَّمُوهُ إِلَيْهِ قَالَ: مَنْ مِنْكُمْ هَذَا؟ قَالُوا: مَنْ الَّذِي جِئْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِ خَلِيكَ الْمِصْرِيِّ؟ فَقَالَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ خَلِيلِي؛ بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى خَلِيلَ اللَّهِ بِذَلِكَ . وَقِيلَ: إِنَّهُ أَضَافَ رُؤْسَاءَ الْكُفَّارِ وَأَهْدَى لَمْ هَدَايَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: حَاجَتِي أَنْ تَسْجُدُوا

لله سبحانه ؛ فسجدوا فدعا الله تعالى وقال : **اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ مَا أَمَرْتَنِي بِهُ فَاغْفِرْ لِي مَا أَفْعَلْتُ**  
 له أهل ؛ فوقفهم الله تعالى للإسلام فاتخذهم الله خليلاً لذلك . وقيل : لما دخلت عليه  
 الملائكة بنسبه الآدميين وجاء بسجل سمين فلم يأكلوا منه وقالوا : **إِنَّا لَا نَأْكُلُ شَيْئًا بِغَيْرِ عَمَلٍ**  
 فقال لهم : **أَعْطُوا عَمَلَهُمْ وَكُلُوا** ، قالوا : **وَمَا عَمَلُهُ ؟** قال : **أَنْ تَهْوِلُوا فِي أَوَّلِهِ بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي آخِرِهِ**  
 الحمد لله ، فقالوا فيما بينهم : **حق على الله أن يتخذني خليلاً بما فاتخذ الله خليلاً** . وروى جابر  
 ابن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **" اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا لِإِطْعَامِهِ الطَّعَامَ**  
**وَأَفْشَائِهِ السَّلَامَ وَصِلَاتِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا "** . وروى عبد الله بن عمرو بن العاصي  
 أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **" يَا جِبْرِيلُ لِمَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ؟ "** قال : لإطعامه  
 الطعام يا عبد . وقيل : معنى الخليل الذي يوالى في الله ويسادى في الله . والخلة بين آدميين  
 الصداقة ؛ مشتقة من تخال الأسرار بين المتخالين . وقيل : هي من الخلة فكل واحد من  
 الخليلين يُسَدُّ خَلَّةَ صاحبه . وفي مصنف أبي داود عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه  
 وسلم قال : **" الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال "** . ولقد أحسن من قال :  
 من لم تكن في الله خُلة • غلبه منه على خطر

آخر :

إذا ما كنت متخذاً خليلاً • فلا تتغن بكل أنبي إخاء  
 فإن خُيرت بينهم فالصق • بأهل العقل منهم وألبياء  
 فإن العقل ليس له إذا ما • تفاضلت الفضائل من كفاء

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

أخلاء الرجال هم صككبر • ولكن في البلاء هم قليل  
 فلا تترك خلة من قرانى • فإلك عند نائبة خليل  
 وكل أخ يقول أنا وقي • ولكن ليس يفعل ما يقول  
 سوى يخل له حسب ودين • فإلك لما يقول هو يفعل

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٧٦﴾

قوله تعالى : ( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ) ملكا واحتراما . والمعنى أنه اتخذ إبراهيم خليلا بحسن طاعته لا حاجته إلى غلاته ولا للتكثير به والاعتضاد ؛ كيف وله ما في السموات وما في الأرض ؟ وإنما إكرامه لامتثاله لأمره .

قوله تعالى : ( وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ) أى أحاط علمه بكل الأشياء .

قوله تعالى : وَیَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُولَدْنَ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُوْنَ أُنْ تَكَوْهُنَّ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٧٧﴾

نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في الميراث وغير ذلك ؛ فامر الله نبيه عليه السلام أن يقول : الله يفتيكم فيهن ؛ أى يبين لكم حكم ما سألتم عنه . وهذه الآية رجوع إلى ما أفتحت به السورة من أمر النساء ، وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا فقيل لهم : إن الله يفتيكم فيهن . روى أنسب عن مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل فلا يجيب حتى يترد إليه الوحي ، وذلك في كتاب الله « يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ » . « ويسألونك عن اليتامى » . و « يسألونك عن النحر والميسير » . « يسألونك عن الجبال » .

قوله تعالى : ( وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ) « ما » في موضع رفع ، عطف على اسم الله تعالى . والمعنى : والقرآن يفتيكم فيهن ، وهو قوله : « فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » وقد تقدم . وقوله تعالى : « وَرَغِبُوْنَ أُنْ تَكَوْهُنَّ » أى وترغبون عن أن تنكحوهن ثم حذف « عن » .

وقيل : وترغبون في أن تنكحوهن ثم حذفت «في» . قال سعيد بن جبير وعلمه : وترغب  
في نكاحها إذا كانت كثيرة المال . وحديث عائشة يقوى حذف «من» فإن في حديثها :  
وترغبون أن تنكحوهن رغبة أحدكم عن يمينته التي تكون في حجره ، وحين تكون قليلة المال  
والجمال ، وقد تقدم أول السورة .

قوله تعالى : وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا  
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ  
الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٦٧﴾  
فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَإِنْ أَمْرَةٌ) رفع بإضمار فعل يفسره ما بعده . و (خافت) بمعنى  
توقعت . وقول من قال تيقنت خطأ . قال الزجاج : المعنى وإن امرأة خافت من بعلها دوام  
النشوز . قال النحاس : الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز التبعاد ، والإعراض  
الآيكلمها ولا يأنس بها . ونزلت الآية بسبب سودة بنت زمعة . روى الترمذي عن ابن عباس  
قال : خَشِيتُ سَوْدَةَ أَنْ يَطْلُقَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : لَا تَطْلُقْنِي وَأَسْكِنِي ،  
وَأَجْعَلْ يَوْمِي مِنْكَ لِمَائِسَةً ؛ ففعلت فقالت : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا  
وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » فما اصطلاها عليه من شيء فهو جائز ؛ قال : هذا حديث حسن غريب .  
وروى ابن عينة عن الزُّعْرِيِّ عن سعيد بن المسيب أن رافع بن خديج كانت تحته خولة  
ابنة محمد بن مسلمة ؛ ففكر من أمرها إما كبيراً وإما غيره فأراد أن يطلقها فقالت : لا تطلقني  
وأقيم لي ما شئت ؛ ففرت السنة بذلك ونزلت « وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا  
أَوْ إِعْرَاضًا » . وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها « وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا  
نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا » قالت : الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يارفعها  
فتقول : أبعلك من شائي في حل ؛ ففعلت هذه الآية . وقراءة العامة « أَنْ يُصْلِحَا » .

وقرأ أكثر الكوفيين « أن يُصلحاً » . وقرأ المحدثون ومثيان النبي « أن يُصَلِّحاً » . والمعنى يصطلحاً ثم أدم .

الثانية - في هذه الآية من الفقه الرد على الزعم الجاهل الذين يرون أن الرجل إذا أخذ شباب المرأة وأسنت لا ينبغي أن يتبدل بها . قال ابن أبي مليكة : إن مسودة بنت زمعة لما أسنت أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلقها ، فأثرت الكون معه فقالت له : أمسكني واجعل يومي لمأثنة ففعل صلى الله عليه وسلم ومات وهي من أزواجه .

قلت : وكذلك فعلت بنت محمد بن مسلمة ، روى مالك عن ابن شهاب عن رافع بن خديج أنه تزوج بنت محمد بن مسلمة الأنصارية ، فكانت عنده حتى كبرت ، فتزوج عليها فتاة شابة فأثر الشابة عليها ، فنأشده الطلاق فطلقها واحدة ، ثم أهلها حتى إذا كانت تحبل راجعها ، ثم عاد فأثر الشابة عليها فنأشده الطلاق فطلقها واحدة ، ثم راجعها فأثر الشابة عليها فنأشده الطلاق فقال : إنما بقيت واحدة ، فإن شئت أستقررت على ما ترين من الأثرة ، وإن كنت فارقتك ؟ قالت : بل استقر على الأثرة . فأمسكها على ذلك ، ولم ير رافع عليه إثم حين فرت عنده على الأثرة . رواه معمر عن الزهري بقطعه ومعناه وزاد : فذلك الصلح الذي بلغنا أنه نزل فيه « وإن أمرأة خافت من بعلها نخسوا أو إعراساً فلا جناح عليهما أن يَصِلَيا بينهما صلحاً والصلح خير » . قال أبو عمرو بن عبد البر : قوله والله أعلم « فأثر الشابة عليها » يريد في الميل بنفسه إليها والنشاط لها ، لا أنه أثرها عليها في مطعم وملبس ومبيت ، لأن هذا لا ينبغي أن يُظن بمثل رافع ، والله أعلم . وذكر أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا أبو الأحوص عن سمك بن حرب عن خالد بن عرعر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رجلاً سأل عن هذه الآية فقال : هي المرأة تكون عند الرجل فتنبو عيائه منها من دمايتها أو فقرها أو كبرها أو سوء خلقها وتكره فراقه ، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له ، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج . وقال الضحاك : لا بأس أن ينقصها من حقها إذا تزوج من هي أشب منها وأعجب إليه . وقال مقاتل بن حيان : هو الرجل تكون تحته المرأة الكيرة فيتزوج عليها الشابة ، فيقول لهذه الكيرة :



فالأصل يصطلحنا ثم صار إلى يصطلحا ، ثم أبدلت الطاء صاداً وأدغمت فيها الصاد ؛ ولم تبدل الصاد طاء لما فيها من امتداد الزفير .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَالصَّالِحُ خَيْرٌ ﴾ لفظ عام مطلق يقتضي أن الصالح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خيرٌ على الإطلاق . ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصالح بين الرجل وأمرأته في مال أو وطء أو غير ذلك . ( خير ) أى خير من الفرة ؛ فإن التماذى على الخلاف والشحناء والمباغضة هى قواعد الشر ، وقد قال عليه السلام فى البغضة : " إنها الحاقلة " ببنى حاقلة الدين لا حاقلة الشعر .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ إخبار بأن الشُّح فى كل أحد ، وأن الإنسان لا بد أن يشح بحكم خلقته وبيئته حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره ؛ يقال : شَحَّ يشح ( بكسر الشين ) . قال ابن جبير : هو شَحُّ المرأة بالتحفة من زوجها و بَسْمُهُ لما أيامها . وقال ابن زيد : الشح هنا منه ومنها . قال ابن عطية : وهذا أحسن ؛ فإن الغالب على المرأة الشح بنصيبها من زوجها ، والغالب على الزوج الشح بنصيبه من الشابة . والشح الضبط على المعتقدات والإرادة والهمم والأموال ونحو ذلك ؛ فما أفرط منه على الدين فهو محمود ، وما أفرط منه فى غيره ففيه بعض المذمة ، وهو الذى قال الله فيه : « وَمَنْ يُؤَخِّرْ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . وما صار إلى حيز من الحقوق الشرعية <sup>(١)</sup> [ أو ] التى تقتضيها المروءة فهو البخل وهى رذيلة . وإذا آل البخل إلى هذه الأخلاق المنسومة والشتم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صلاح مأمول .

قلت : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأَنْصار : " مَنْ سَيِّدَمْ ؟ " قالوا : الجَدُّ ابن قيس على بخل فيه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وىء داء أدوى من البخل " ! قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : " إن قوما زلوا بساحل فكروا ليلخلهم نزول الأضياف بهم فقالوا ليعد الرجال منا عن النساء حتى يتنذر الرجال إلى الأضياف يبعد النساء ويتنذر النساء



يبعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء . وقد تقدم <sup>(١)</sup> ذكره الماوردي .

السابعة - قوله تعالى : ( وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا ) شرط « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » جوابه . وهذا خطاب للأزواج من حيث إن الزوج أن يشح ولا يحسن ؛ أى إن تحسنا وتتقوا فى عشرة النساء بإقامتكم عليهن مع كراهتكم لصحبتهن وأتقاء ظلمهن فهو أفضل لكم .  
قوله تعالى : وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا <sup>(١١٥)</sup>

قوله تعالى : ( وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ) أخبر تعالى بنفى الاستطاعة فى العدل بين النساء ، وذلك فى ميل الطبع فى المحبة والجماع والحظ من القلب . فوصف الله تعالى حالة البشر وأنهم يحكم الخلق لا يكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض ؛ ولهذا كان عليه السلام يقول : « اللهم إن هذه قسيتى فيما أملك فلا تنهني فيما تملك ولا أملك » . ثم نهى فقال : ( فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ) . قال مجاهد : لاتعمدوا الإساءة بل الزموا التسوية فى القسمة والشفقة ؛ لأن هذا مما يستطاع . وسأى بيان هذا فى « الأحزاب » مبسوطا إن شاء الله تعالى . وروى قتادة عن أنس عن بشير بن نزيك عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له امرأة فليعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » .

قوله تعالى : ( فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ) أى لاهى مطلقة ولا ذات زوج ؛ قاله الحسن وهذا تشبيه بالشئ المعلق من شئ ؛ لأنه لا على الأرض أستقر ولا معلق عليه يحمل ، وهذا مطرد فى قولهم فى النسل : « أرض من المركب بالتعلق » . وفى حرف الصحوح فى تعليق

الفضل . ومنه في حلب أم زرع في قول المرأة : زَوْجِي الْمَشَقِّ إِنْ أَطْلُقُ أَطْلُقُ وَإِنْ  
أَسْكَنْتُ أَتْلُقُ . وقال قتادة : كالمسجونة ؛ وكذا قرأ آبي « فذروها كالمسجونة » . وقرأ  
ابن مسعود « فذروها كأنها معلقة » . وموضع « فذروها » نصب ؛ لأنه جواب النهي .  
والكاف في « كالمعلقة » في موضع نصب أيضا .

قوله تعالى : **وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَكِيلًا**  
**حَكِيمًا** ﴿١٦٦﴾ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ**  
**أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ** وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ  
مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ **وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا** ﴿١٦٧﴾ **وَلِلَّهِ**  
**مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا** ﴿١٦٨﴾

قوله تعالى : **(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ)** أى وإن لم يصطلحا بل تفرقا  
فليُغْنِهما بالله ، فقد يُقِضُ للرجل امرأة تَقْرَبُها عينه ، والراء من يُوسِعُ عليها . وروى  
عن جعفر بن محمد أن رجلا شكَا إليه الفقير فأمره بالنكاح ، فذهب الرجل وتزوج ؛ ثم جاء إليه  
وشكَا إليه الفقير فأمره بالطلاق ؛ فسئل عن هذه الآية فقال : أمرته بالنكاح لعله من أهل  
هذه الآية « **إِنْ يَكُونُوا قُرَّاءَ يُضْمِنُهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** » فلما لم يكن من أهل تلك الآية أمرته  
بالطلاق فقلت : فلهذه من أهل هذه الآية « **وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ** » .

قوله تعالى : **(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ)** أى الأمر بالتقوى كان  
أما لجميع الأمم ؛ وقد مضى القول في التقوى . **(وَإِيَّاكُمْ)** عطف على **(الَّذِينَ)** . **(إِنْ أَتَوْا**  
**اللَّهَ)** في موضع نصب ؛ قل الأخفش : أى بأن اتقوا الله . وقال بعض المأرفين : هذه الآية  
من رُحِيَ آى القرآن ؛ لأن جميعه يدور عليها .

(١) المشق : الطويل المدة فتارة ؛ وأولئك أنه مظرا بلا تخير .

(٢) راجع إلى ص ١٦٦ طيبة نونية أورادة .

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا. وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ إن قال قائل: ما فائدة هذا التكرير؟ فنه جوابان: أحدهما - أنه كرر تأكيداً ليتنبه العباد وينظروا ما في ملكوته وملكه وأنه غني عن العالمين. الجواب الثاني - أنه كرر لفوائد: فآخر في الأول أن الله تعالى يفتني كلاً من سعيه؛ لأن له ما في السموات وما في الأرض فلا تتفقد نرائنه. ثم قال: أوصيتناكم وأهل الكتاب بالقوى، وإن تكفروا فإنه غني عنكم؛ لأن له ما في السموات وما في الأرض. ثم أعلم في الثالث بحفظ خلقه وتديره إياهم بقوله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ لأن له ما في السموات وما في الأرض. وقال: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ ولم يقل من في السموات؛ لأنه ذهب به مذهب الجلس، وفي السموات والأرض من يعقل ومن لا يعقل.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِيهَا النَّاسُ وَيَأْتِ الْآخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (١١٦)

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِيهَا النَّاسُ﴾ يعني بالموت. ﴿الْآخِرِينَ﴾ يريد المشركين والمنافقين. ﴿وَيَأْتِ الْآخِرِينَ﴾ يعني بنبيكم. ولما نزلت هذه الآية ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهر سلمان وقال: "هم قوم هذا". وقيل: الآية فائدة، أي وإن تكفروا يذهبكم ويأت بخلق أطوع لله منكم. وهذا كما قال في آية أخرى: «وَلَنْ تَسْأَلُوا بِسَبِيلِ قَوْمٍ غَيْرِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ». وفي الآية تحذير وتنبية لجميع من كانت له ولاية وإمارة ورياسة فلا يعمل في رعيته، أو كان عالماً فلا يعمل بعلمه ولا ينصح أناس أن يذهبوا ويأت بغيره. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ والقدرة صفة أزلية لا تنتهي مقدوراته كما لا تنتهي معلوماته، والماض والمستقبل في صفاته بمعنى واحد، وإنما خص الماضي بالذكر لئلا يتوهم أنه يحدث في ذاته وصفاته. والقدرة هي التي يكون بها الفعل ولا يجوز وجود العجز معها.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١١٧)

«...أَيُّ مَنْ عَمِلَ بِمَا اقْتَضَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِ طَلَبَ الْآخِرَةَ إِنْ آتَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ عَمِلَ طُلُبًا لِلدُّنْيَا آتَاهُ بِمَا كَتَبَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ ثَوَابٍ، لِأَنَّهُ عَمِلَ لِنَفْسِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ». وَقَالَ تَعَالَى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ». وَهَذَا عَلَى أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالْآيَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرَ، وَهُوَ اخْتِيارُ الطَّبَعِيِّ. وَرُوي أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا يَقْرِئُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِيُوسِّعَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَيَرْفَعَ عَنْهُمْ مَكْرَهُهَا؛ فَانْزَلَ اللَّهُ مِنْ وَجَلٍ «مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ شَهِيدًا بِمَا يُصِرُّ» أَيُّ يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَهُ وَيُصِرُّ مَا يُسِرُّونَهُ.

قوله تعالى: **يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهِدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْلُوا وَلَنْ تَلُورُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴿١٢٥﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى - قوله تعالى: **(كُونُوا قَوْمِينَ)** «قوامين» بناء مبالغة، أي ليذكر منكم القيام بالقسط، وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم، وشهادة المرء على نفسه إقراره بالحقوق عليها. ثم ذكر الوالدين لوجوب برهما وعظم قدرهما، ثم نعى بالأقربين لأنهم مظنة المودة والتعصب؛ فكان الأجنب من الناس أخرى أن يقام عليه بالقسط ويشهد عليه، فجاء الكلام في السورة في حفظ حقوق الخلق في الأموال.

الثانية - لا خلاف بين أهل العلم في صحة أحكام هذه الآية وأن شهادة الولد على الوالدين ماضية، ولا ينعى ذلك برهما بل من برهما أن يشهد عليهما أو يخلصهما من الباطل، وهو معنى قوله تعالى: **«قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا»** فإن شهد لها أو شهد له وهي :

الثالثة - فقد اختلف فيها قديما وحديثا؛ فقال ابن شهاب الزهري: كان من مضي من السلف الصالح يميزون شهادة الوالد<sup>(١)</sup> والأخ، ويتأولون في ذلك قول الله تعالى: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ» فلم يكن أحد يقيم في ذلك من السلف الصالح رضوان الله عليهم. ثم ظهرت من الناس أمور حلت الولاية على اتهامهم، فتركت شهادة من يقيم، وصار ذلك لا يجوز في الولد والوالد والأخ والزوجة؛ وهو مذهب الحسن والتقي والشافعي. ومخرج مالك والثوري والشافعي وابن حنبل. وقد أجاز قوم شهادة بعضهم لبعض إذا كانوا عدلا. وروى عن عمر بن الخطاب أنه أجازهم، وكذلك روى عن عمر بن عبد العزيز، وبه قال إمامنا والثوري والمزني. ومذهب مالك جواز شهادة الأخ لأخيه إذا كانت عدلا إلا في النسب. وروى عنه ابن وهب أنها لا تجوز إذا كان في عياله أو في نصيب من مال يرثه. وقال مالك وأبو حنيفة: شهادة الزوج لزوجته لا تقبل؛ لتواصل منافع الأملك بينهما وهي عمل الشهادة. وقال الشافعي: تجوز شهادة الزوجين بعضهما لبعض؛ لأنهما أجنبيان، وإنما بينهما عقد الزوجية وهو معرض للزوال، والأصل قبول الشهادة إلا حيث خص فيما عدا المخصوص فبقى على الأصل؛ وهذا ضعيف؛ فإن الزوجية توجب الحنان والمواصلة والألفة والمحبة فالتهمة قوية ظاهرة. وقد روى أبو داود من حديث سليمان بن موسى عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردَّ شهادة الخائن والخائنة ونهى النمر على أخيه، وردَّ شهادة القانع لأهل البيت وأجازها لغيرهم. قال الخطابي: ذو النمر هو الذي بينه وبين المشهود عليه عداوة ظاهرة، فتردَّ شهادته للتهمة. وقال أبو حنيفة: شهادته على المدعى مقبولة إذا كان عدلا. والقانع السائل والمستطم، وأصل القنوع السؤال. ويقال في القانع: إنه المنقطع إلى القوم يحتملهم ويكون في حوائجهم؛ وذلك مثل الأعيير أو الوكيل ونحوه. ومعنى ردَّ هذه الشهادة التهمة في جَرِّ المنفعة إلى نفسه؛ لأن القانع لأهل البيت يتنفع بما يصير إليهم من نفع. وكل من جَرَّ إلى نفسه شهادته نفعاً فشهادته مردودة؛

(١). عبارة ابن العربي: «... والوالد والأخ لأخيه... الخ».

كمن شهده لرجل على شراء دار هو شقيها ، أو كن حكم له على رجل بدّين وهو مفلس فشهد المفلس على رجل بدّين ونحوه . قال الخطّابي : ومن ردّ شهادة الغانع لأهل البيت بسبب جرّ المنفعة بقياس قوله أن ردّ شهادة الزوج لزوجته لأن ما بينهما من التهمة جر المنفعة أكثر؛ وإلى هذا ذهب أبو حنيفة . والحديث أيضا حجة على من أجاز شهادة الأب لابنه ؛ لأنه يميز به النفع لما جُبل عليه من حبه والميل إليه ؛ ولأنه يتكلم عليه ماله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " أنت ومالك لأبيك " . ومن ردّ شهادته عند مالك البدوي على القسري ؛ قال : إلا أن يكون في بادية أو قرية ، فأما الذي يشهد في الحضرة بدويًا ويدع جبرته من أهل الحضرة عندى مريب ، وقد روى أبو داود والدارقطني عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية " . قال ابن الحكم : فأول مالك هذا الحديث على أن المراد به الشهادة في الحقوق والأموال ، ولا تُرد الشهادة في الدماء وما في معناها مما يطلب به الخلق . وقال عامة أهل العلم : شهادة البدوي إذا كان عدلا يقيم الشهادة على وجهها جائزة ؛ والله أعلم . وقد مضى القول في هذا في « البقرة »<sup>(١)</sup> ، ويأتي في « براءة » تمامها إن شاء الله تعالى .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ شَهِدَاءَ اللَّهِ ﴾ نصب على التعت لقوامين ، وإن شئت كان خبرا بعد خبر . قال النحاس : وأجود من هذين أن يكون نصبا على الحال بما في « قوامين » من ذكر الذين آمنوا ؛ لأنه نفس المعنى ، أى كونوا قوامين بالعدل عند شهادتكم . قال ابن عطية : والحال فيه ضعيفة في المعنى ؛ لأنها تخصّص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط . ولم ينصرف « شهداء » لأن فيه ألف التانيث .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ ﴾ معناه لذات الله ولوجهه ولمرضاته وتوابعه . ﴿ وَلَوْ عَلَ أَنْفُسِكُمْ ﴾ متعلق بشهادته ؛ هذا هو الظاهر الذي قسّر عليه الناس ، وأن هذه الشهادة المذكورة هي في الحقوق فيقربها لأهلها ، فكذلك قيامه بالشهادة على نفسه ؛ كما تقدّم .

(١) راجع ج ٣ ص ٢٨٩ وما بعدها ، طبعه أول أرغانة .

أَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا، كَمَا قَالَ ابْنُ حِبَّاسٍ : أَمَرُوا أَنْ يَقُولُوا الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ .  
وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : « شَهَدَ اللَّهُ » مَعْنَاهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ اللَّهُ ، وَيَتَعَلَّقُ قَوْلُهُ : « وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ » بِقَوَامِينَ ، وَالتَّابُوتِ الْأَوَّلِ إِبْنِ .

السَّادِسَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ( إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ) فِي الْكَلَامِ اخْتِيارُ  
وَمَوَاسِمَ كَانَ ، أَيْ إِنْ يَكُنِ الطَّالِبُ أَوْ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ غَنِيًّا فَلَا يَرَاعِي لِقَاءَهُ وَلَا يُخَافُ مِنْهُ ،  
وَإِنْ يَكُنْ فَقِيرًا فَلَا يَرَاعِي إِشْفَاقًا عَلَيْهِ . « فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا » فَيَا اخْتِيارَ لَهَا مِنْ قَرُونِي .  
قَالَ السُّدِّيُّ : اخْتَصَمَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَنِيٌّ وَفَقِيرٌ فَكَانَ ضَلَمَهُ مَعَ الْفَقِيرِ ، وَرَأَى  
أَنَّ الْفَقِيرَ لَا يَظْلِمُ الْغَنِيَّ ، فَتَلَّتِ الْآيَةَ .

السَّابِعَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ( فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ) إِنَّمَا قَالَ : « بِهِمَا » وَلَمْ يَقُلْ بِهِمَا أَنْ كَانَتْ  
« أَوْ » إِنَّمَا تَمَلَّ عَلَى الْحَصُولِ الْوَاحِدِ ، لِأَنَّ الْمَعْنَى فَاللَّهُ أَوْلَى بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا . وَقَالَ  
الْأَخْفَشُ : تَكُونُ « أَوْ » بِمَعْنَى الْوَاوِ ، أَيْ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِالْخَصْمَيْنِ كَيْفَ  
مَا كَانَا ، وَفِيهِ ضَعْفٌ . وَقِيلَ : إِنَّمَا قَالَ « بِهِمَا » لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :  
« وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ » .

الثَّامِنَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ( فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ ) نَهَى ، فَإِنْ اتَّبَعَ الْهَوَىَّ مُرِيدٌ ، أَيْ مَهْلِكٌ ؛  
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىَّ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » فَاتَّبَعَ  
الْهَوَىَّ يَجْعَلُ عَلَى الشَّهَادَةِ بَضِيرَ الْحَقِّ ، وَعَلَى الْحُزْرِ فِي الْحُكْمِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . وَقَالَ الشَّعْبِيُّ :  
أَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْحُكَّامِ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ : أَلَّا يَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ ، وَأَلَّا يَخْشُوا النَّاسَ وَيَخْشَوْهُ ،  
وَأَلَّا يَشْتَرُوا بِآيَاتِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا . ( أَنْ تَدُلُّوا ) فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ .

التَّاسِعَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَإِنْ تَلَوْا ) قَرَأَ « وَإِنْ تَلَوْا » مِنْ لَوَيْتَ فَلَا تَحَقُّ  
لِيَا إِذَا دَفَعَتْهُ بِهِ ، وَالْفِعْلُ مِنْهُ « لَوَى » وَالْأَصْلُ فِيهِ « لَوَى » قَلَبْتَ الْيَاءَ أَلْفًا لِحَرَكَتِهَا وَحَرَكَةُ  
مَا قَبْلَهَا ، وَالْمَصْدَرُ « لِيَا » وَالْأَصْلُ لَوِيًّا ، وَلِيَانًا وَالْأَصْلُ لَوِيَانًا ، ثُمَّ ادْغَمْتَ الْوَاوَ فِي الْيَاءِ .

وقال القتيبي: «تَلَوْا» مَنْ أَلَى فِي الشَّهَادَةِ وَالْمِيلَ إِلَى أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ . . . وَقَرَأَ ابْنُ حَاضِرٍ  
وَالْكُرَيْبِيُّونَ «تَلَوْا» أَرَادَ قَمَّ بِالْأَمْرِ . وَقِيلَ : إِنْ مَعْنَى «تَلَوْا» الْإِعْرَاضُ . فَالْقِرَاءَةُ بضم  
اللام تَفِيدُ مَعْنَى : الْوَلَايَةَ وَالْإِعْرَاضُ ، وَالْقِرَاءَةُ بِوَاوَيْنِ تَفِيدُ مَعْنَى وَاحِدًا وَهُوَ الْإِعْرَاضُ .  
وَزَعَمَ بَعْضُ الصَّوِّمِينَ أَنَّ مَنْ قَرَأَ «تَلَوْا» فَقَدْ لَحَنَ ؛ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِلْوَلَايَةِ هَهُنَا . قَالَ  
النَّحَّاسُ وَضَرَهُ : وَلَيْسَ يَلْزَمُ هَذَا وَلَا تَكُونُ «تَلَوْا» بِمَعْنَى «تَلَّوْا» وَذَلِكَ أَنَّ أَصْلَهُ «تَلَّوْا»  
فَاسْتَقْلَلَتِ الضَّمَّةُ عَلَى الْوَاوِ بَعْدَهَا وَأَوَّأَتْ أُخْرَى ، فَالْقِيَتِ الْحَرَكَةُ عَلَى اللَّامِ وَحُذِفَتْ إِحْدَى الْوَاوَيْنِ  
لِانْتِفَاءِ السَّاكِنَيْنِ ؛ وَهِيَ كَالْقِرَاءَةِ بِسَاكِنِ اللَّامِ وَوَاوَيْنِ ؛ ذَكَرَهُ مَكِّي . وَقَالَ الزَّيْجَالِيُّ :  
الْمَعْنَى عَلَى قِرَائَتِهِ «إِنْ تَلَّوْا» ثُمَّ هَزَّ الْوَاوِ الْأَوَّلَى فَصَارَتْ «تَلَّوْا» ثُمَّ خَفَفَتْ الْمِزْمَةُ بِالْقَاءِ  
حَرَكَتَهَا عَلَى اللَّامِ فَصَارَتْ «تَلَّوْا» وَأَصْلُهَا «تَلَّوْا» . فَتَنَفَّقَ الْقَرَاءَتَانِ عَلَى هَذَا التَّغْدِيرِ . وَذَكَرَهُ  
النَّحَّاسُ وَمَكِّي وَابْنُ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُمْ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ فِي الْخَصْمَيْنِ يَحْلِسَانِ يَنْبِذُ الْقَاضِي  
فَيَكُونُ عَلَى الْقَاضِي وَإِعْرَاضُهُ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ ؛ فَالْقِيَتُ عَلَى هَذَا مَطْلُ الْكَلَامِ وَجَرَّ حَتَّى  
يَفُوتَ فَصَلَ الْقَضَاءِ وَإِنْفَادَهُ لِذَلِكَ يُعِيلُ الْقَاضِي عَلَيْهِ ؛ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَقَدْ شَاهَدْتُ بَعْضَ  
الْقَضَاةِ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ ، وَابْنُ حَسِبِ الْكَلِّ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَالشَّيْءُ وَابْنُ زَيْدٍ  
وَالضَّحَّاكُ وَبِجَاهِدٍ : هِيَ فِي الشُّهُودِ يُلَوِّى الشَّهَادَةَ بِلِسَانِهِ وَيَمَرُّهَا فَلَا يَقُولُ الْحَقَّ فِيهَا ،  
أَوْ يَمُرُّ عَنْ أَدَاءِ الْحَقِّ فِيهَا . وَلَقَطَ الْآيَةُ يَمُّ الْقَضَاءِ وَالشَّهَادَةِ ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ مَأْمُورٌ بِأَنْ  
يَعْدَلَ . وَفِي الْحَدِيثِ : «لِي الْوَاجِدُ يُعِيلُ مَرَضَهُ وَعَقُوبَتَهُ» . قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : عَقُوبَتُهُ  
حِسْبُهُ ، وَعَرَضُهُ شَكَايَتُهُ .

العاشرة - وقد استدلل بعض العلماء في رد شهادة البعد بهذه الآية ؛ فقال : جعل تعالى  
الحاكم شاهدا في هذه الآية ، وذلك أدل دليل على أن العبد ليس بأهل الشهادة ؛ لأن المقصود  
منه الاستقلال بهذا المهم إذا دعت الحاجة إليه ، ولا يتأتى ذلك من العبد أصلا فلذلك  
ردت الشهادة .



قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ  
الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ  
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ؕ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا  
بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾

نزلت في جميع المؤمنين؛ والمعنى : يا أيها الذين صدقوا أقيموا على تصديقكم وآتوا عليه .  
( وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ) أى القرآن . ( وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ ) أى كل  
كتاب أنزل على النبيين . وقرا ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « نزل » و « أنزل » بالضم .  
الباقون « نزل » و « أنزل » بالفتح . وقيل : نزلت فيمن آمن بن محمد هذا صلى الله عليه  
وسلم من الأنبياء عليهم السلام . وقيل : إنه خطاب للناقلين ؛ والمعنى على هذا يا أيها الذين  
آمنوا في الظاهر أخلصوا لله . وقيل : المراد المشركون ؛ والمعنى يا أيها الذين آمنوا باللات  
والعزى والطاغوت آمنوا بالله ؛ أى صدقوا بالله وبكتبه .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا  
كُفْرًا لَّيَكُنَّ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٦٨﴾

قيل : المعنى آمنوا بموسى وكفروا بغيره ، ثم آمنوا بغيره ثم كفروا بهيمى ، ثم ازدادوا  
كفرا بحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الذين آمنوا بموسى ثم آمنوا بغيره ، ثم كفروا  
بعد غير بالنسبة ، وكفرت النصارى بما جاء به موسى وآمنوا بهيمى ، ثم ازدادوا كفرا بحمد  
صلى الله عليه وسلم وما جاء به من القرآن . فإن قيل : إن الله تعالى لا يغفر شيئا من الكفر  
فكيف قال : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَّيَكُنَّ اللَّهُ  
لِيَغْفِرَ لَهُمْ » فالجواب أن الكافر إذا آمن غفر له كفره ، فلما رجع فكفر لم يغفر له الكفر  
الأول ؛ وهذا كما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله قال قال أناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

[يا رسول الله] <sup>(١)</sup> أو اخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «أنا من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤخذ بما ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام». وفي رواية «ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». الإساءة هنا بمعنى الكفر؛ إذ لا يصح أن يراد بها ارتكاب سيئة، فإنه يلزم عليه ألا يهدم الإسلام ما سبق قبله إلا لمن يعضم من جميع السيئات إلى حين موته، وذلك باطل بالإجماع. ومعنى: «ثم ازدادوا كفرا» أصروا على الكفر. (لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَفْقِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهِدِمَهُمْ) يرشدهم. (سبيلا) طريقا إلى الجنة. وقيل: لا يخصهم بالتوفيق كما يخص أولياءه. وفي هذه الآية رد على أهل القدر؛ فإن الله تعالى بين أنه لا يهدي الكافرين طريق خير ليعلم العبد أنه إنما ينال الهدى بالله تعالى، ويحرم الهدى بإرادة الله تعالى أيضا. وتضمنت الآية أيضا حكم المرتدين، وقد مضى القول فيهم في «البقرة» <sup>(٢)</sup> عند قوله تعالى: «وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ».

قوله تعالى: بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا <sup>(٣)</sup>

التبشير الإخبار بما يظهر أثره على البشارة، وقد تقدم بيانه في «البقرة» ومعنى التفريق.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَخْتَدُونَ الْكُفْرَيْنَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ <sup>(٤)</sup>

أَيَسْتَفِئُونَ عِنْدَهُمُ الْغُرَّةَ فَإِنَّ الْغُرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا <sup>(٥)</sup>

قوله تعالى: (الَّذِينَ يَخْتَدُونَ الْكُفْرَيْنَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) «الذين» نعت للتافقين. وفي هذا دليل على أن من عمل معصية من الموحدين ليس بمنافق؛ لأنه لا يتولى الكفار. وتضمنت المنع من موالاة الكفار، وأن يختدوا أعوانا على الأعمال المتعلقة بالدين. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا من المشركين لحق بالنبي صلى الله عليه وسلم يقابل معه؛ فقال له: «ارجع فإننا لنستعين بمشرك». «الغرة» أى الغلبة؛ وعزه يزهو.

(١) الزيادة عن صحيح مسلم. (٢) راجع ج ٢ ص ٤٧ طبة ابد اورتانية.

(٣) راجع ج ١ ص ١٩٨ و ٢٢٨ طبة ابد اورتانية.

عَزَّاءَ عَلَيْهِ (وَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) أَيِ الثَّلَاةِ وَالْقُوَّةِ لِلَّهِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « يَتَنَوَّنُونَ »  
يُرِيدُونَ عَبْدَ بَنِي قَيْصِقَاق . قَالَ ابْنُ أَبِي : كَانَ يُؤَالِيهِمْ .

قوله تعالى : وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ  
إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١١٠﴾  
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُفْرٍ فَإِنْ كَانَ لَكُمُ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ  
وَأِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ عَلَيْهِمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى  
الْمُؤْمِنِينَ مِثِيلًا ﴿١١١﴾

قوله تعالى : (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا)  
الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من محقق ومناقض؛ لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمثل  
أوامر كتاب الله . فالتمثل قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ  
حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » . وكلاب المناقضون يحسبون إلى أجبار اليهود فيسخرون  
من القرآن . وقرأ عاصم ويعقوب « وقد نزل » ففتح النون والراء وشدها ؛ لتقدم اسم الله  
جل جلاله في قوله تعالى : « إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » . وقرأ حميد كذلك ، إلا أنه خفف الراء .  
الباقون « نزل » غير مسمى الفاعل . (أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ) موضع « أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ »  
على قراءة عاصم ويعقوب نصب بوقوع الفعل عليه . وفي قراءة الباقر رفع ؛ لكونه اسم  
حالم يسم فاعله . (يُكْفَرُ بِهَا) أي إذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله ؛ فأوقع السماع  
على الآيات والمراد سماع الكفر والاستهزاء ؛ كما تقول : سمعت عبدا لله يلام ، أي سمعت  
اللام في عبدا لله .

بقوله تعالى : ( فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ) أى غير الكفر .  
 ( إِنَّكُمْ أَنْتُمْ مِثْلُهُمْ ) فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصى إذا ظهر منهم منكراً  
 لأن من لم يجنبهم فقد رضى فعلهم ، والرضا بالكفر كفر ، قال الله عز وجل : « إِنَّكُمْ  
 إِذَا مِثْلُهُمْ » . فكل من جلس فى مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم فى الوزر سواء ، وينبغى  
 أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها ، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغى أن يقوم منهم  
 حتى لا يكون من أهل هذه الآية . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوماً يشربون الخمر ،  
 فقيل له عن أحد الحاضرين : إنه صائم ، فعمل عليه الأدب وقرأ هذه الآية « إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ »  
 أى إن الرضا بالمعصية معصية ، ولهذا يؤخذ القائل والراضى بمقوبة المعاصى حتى يهلكوا  
 بجمعهم . وهذه المسألة ليست فى جميع الصفات ، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة ؛  
 كما قال :  
 • فكل قرين بالمقارن يقتدى •

وقد تقدم . وإذا ثبت تجنب أصحاب المعاصى كما بينا فجنب أهل البدع والأهواء  
 أولى . وقال الكوفي : قوله تعالى « فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » نسخ  
 بقوله تعالى : « وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » . وقال عامة المفسرين : هى  
 محكمة . وروى جوير عن الضحاك قال : دخل فى هذه الآية كل حديث فى الدين مبتدع  
 إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ ) الأصل « جامع » بالنون حذف استخفافاً ؛  
 فإنه بمن يجمع . ( الَّذِينَ يَخُوضُونَ بِكُمْ ) يعنى المنافقين ، أى يتخفرون بكم الدوائر .  
 ( فَإِنْ كَانَ لَكُمْ قِتَالٌ ) أى غلبة على اليهود وضميمة . ( قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ) أى أعطونا من  
 النعمة . ( وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ) أى ظفر . ( قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ ) أى ألم تغلب  
 عليكم حتى هابكم المسلمون وخذلناهم عنكم . يقال : استحذ على كذا أى ظلب عليه ؛  
 ومنه قوله تعالى : « اسْتَحْذَوْا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ » . وقيل : أصل الاستحذاء الحوط ، حاذيه يحوذه  
 حوذاً إذا حاطه . وهذا الفعل جاء على الأصل ، ولو أعزل لكان ألم نستحذ ، والفعل على

الإعلال استعاضةً بـسُخْذٍ، وعلى غير الإعلال استخوذ يستخوذ. (وَعَمَّكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى يتخذنا إياهم عنكم، وتقرئنا إياهم مما يزيدونه منكم. والآية تدل على أن المنافقين كانوا لا يطمئنونهم النعمة ولهذا طلبوها وقالوا: ألم تكن معكم! ويحتمل أن يريدوا بقولهم «ألم تكن معكم» الامتنان على المسلمين؛ أى كما فعلكم بأخبارهم وكما أنصركم ١٠

قوله تعالى: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا» للعلماء فيه تأويلات خمس: أحدها - ما روى عن يَئِجُجَ الحَضْرَمِيِّ قال كنت عند عليّ فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أرايت قول الله: «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا» كيف ذلك، وهم يقولوننا ويظهرون علينا أحياناً! فقال عليّ رضى الله عنه: معنى ذلك يوم القيامة يوم الحكم. وكذا قال ابن عباس: ذلك يوم القيامة. قال ابن عطية: وهذا قال جميع أهل التأويل. قال ابن العربي: وهذا ضعيف؛ فأنخر الحكم إلى يوم القيامة، لعدم فائدة الخبر فيه وإن أومع صدر الكلام معناه؛ لقوله تعالى: «فَاللَّهُ يَجْعَلُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وجعل الأمر في الدنيا دُولًا تَقْلِبُ الكفار تارة وتُقَلِّبُ أخرى؛ بما رأى من الحكمة وسبق من الكلمة. ثم قال: «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا» فوهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله، وذلك يسقط فائدته؛ إذ يكون تكراراً.

الثاني - أن الله لا يجعل لهم سبيلاً يحو به دولة المؤمنين، ويُنهب آثارهم ويستبيح بيضتهم؛ كما في صحيح مسلم من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وإني سألت ربي ألا يهلكها بسنة عامة ولا يُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يردّ وإني قد أعطيتك لأنتك ألا أهلكهم بسنة عامة ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو أجمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم بهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً».

(١) اضطربت الأصول وبعض المصادر في ضبط هذا الاسم؛ واتفق في القاموس وغيره أنه «أئيج» كبير أو «يئيج» قلب المزياه.

الثالث - أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا إلا أن يتواصروا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر ويتعاضدوا عن التوبة فيكون تسليط العدو من قبلهم كما قال تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا تُكَذِّبُون » قال ابن العربي : وهذا نقيض جدا .

قلت : ويدل عليه قوله عليه السلام في حديث ثوبان " حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا " وذلك أن « حتى » غاية ؛ فيقتضي ظاهر الكلام أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض ، وسبي بعضهم لبعض ، وقد وجد ذلك في هذه الأزمان بالفتن الواقعة بين المسلمين ؛ فنظمت شوكة الكافرين وأستولوا على بلاد المسلمين حتى لم يبق من الإسلام إلا أقله ؛ فنسأل الله أن يتداركا بعفوه ونصره ولطفه .

الرابع - أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعا ؛ فإن وجد فيخالف الشرع .

الخامس - « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » أي حجة عقلية ولا شرعية يستظهرون بها إلا أبطلها ودحضت .

الثانية - ابن العربي : ونزع علماؤنا هذه الآية في الاحتجاج على أن الكافر لا يملك العبد المسلم ؛ وبه قال أشهر والشافعي ، لأن الله سبحانه قى السبيل فليس للكافر عليه بالشراء سبيل . فلا يُشرع له ولا ينقذ العقد بذلك . وقال ابن القاسم عن مالك ، وهو قول أبي حنيفة : إن معنى « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » في دوام الملك ؛ لأننا نجد الابتداء يكون له [ عليه ] وذلك بالإرث . وصورته أن يُسلم عبد كافر في يد كافر فيلزم التقضاء عليه ببيعة ، فقبل الحكم عليه ببيعة مات ، فبطل العبد المسلم [ وأرث ] الكافر . فهذه سبيل قد ثبت قهرا لا قصد فيه ، وأن ملك الشراء ثبت بقصد النية ، فقد أراد الكافر تملكه باختياره ، فإن حكم بعقد ببيعة وثبت ملكه فقد حقق فيه قصده ، ويعمل له سبيل إليه . قال أبو عمر : وقد أجمع المسلمون على أن عتق النصراني واليهودي لعبد المسلم صحيح نافذ عليه . وأجمعوا أنه إذا أسلم عبد الكافر فبيع عليه إن ثمنه يدفع إليه . فدل على أنه على ملكه بيع (١) زيادة عن ابن العربي .

وعلى ملكه ثبت المتق له، إلا أنه ملك غير مستقر لوجوب بيعه عليه؛ وذلك والله أعلم لقول الله عز وجل: « ولَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا » يريد الاسترقاق والملك والعبودية ملكاً مستقراً دائماً .

واختلف العلماء في شراء العبد الكافر العبد المسلم على قولين : أحدهما - البيع مفسوخ .  
والثاني - البيع صحيح ويباع على المشتري .

الثالثة - واختلف العلماء أيضاً من هذا الباب في رجل نصراني دبر عبداً له نصرانياً فأسلم العبد؛ فقال مالك والشافعي في أحد قوليه : يحال بينه وبين العبد، ويخارج على سيده النصراني، ولا يباع عليه حتى يتبين أمره . فان هلك النصراني وعليه دين فغنى دينه من ثمن العبد المدبر، إلا أن يكون في ماله ما يحل المدبر فيمتق المدبر . وقال الشافعي في القول الآخر: إنه يباع عليه ساعة أسلم؛ واختاره المازني، لأن المدبر وصية ولا يجوز ترك مسلم في يد مشرك أيثله ويخارجه، وقد صار بالإسلام حراً له . وقال الليث بن سعد : يباع النصراني من مسلم فيعتقه ويكون ولاؤه للذي اشتراه وأعتقه، ويدفع إلى النصراني ثمنه . وقال سفيان والكوفيون : إذا أسلم مدبر النصراني قوم قبته فيسقى في قبته، فإن مات النصراني قبل أن يفرغ المدبر من سعيته عتق العبد وبطلت السعاية .

قوله تعالى : **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَاللَّهُ يَبْصُرُ مَا هُمْ لَا يَلِيدُونَ** (١١)

قوله تعالى : ( **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ) قد مضى في « البقرة » معنى الخداع . والخداع من الله مجازاتهم على خداعهم أوليائه ورسله . قال الحسن : يفتعل كل إنسان من مؤمن ومنافق نور يوم القيامة فيقرح المنافقون وظنون أنهم قد نجوا ؛ فإذا جاءوا إلى الصراط طُفئ نور كل منافق، فذلك قولهم : « **أُنْظِرُونَا قَتَيْسَ بْنِ نُوَيْرَةَ** » .

قوله تعالى : (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتْلًا) أى يُصَلُّونَ مُرَاعَاةً وَهُمْ مُتَكَاسِلُونَ متناقلون ، لا يرجون ثوابا ولا يمتنعون على تركها عقابا . وفي صحيح الحديث : " إن أثقل صلاة على المنافقين التَّسْبُحُ والصَّبحُ " . فإن التَّسْبُحَ أتى وقد أتمهم عمل النهار فيقتل عليهم القيام لها ، وصلاة الصبح أتى والنوم أحب إليهم من مفروح به ولولا السيف ما قاموا .

والرياء : إظهار الجليل ليراه الناس ، لا لاتباع أمر الله ؛ وقد تقدّم يسأله . ثم وصفهم بقلة الذكرك عند المראה وعند الخوف . وقال صلى الله عليه وسلم ذاكما لمن أتم الصلاة : " تلك صلاة المنافقين - ثلاثا - يجلس أحدهم يقرب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان أو على قرني الشيطان قام فقرأ بها لا يذكر الله فيها إلا قليلا " رواه مالك وغيره . فقيل : وصفهم بقلة الذكرك لأنهم كانوا لا يذكرون الله بقراءة ولا تسبيح ، وإنما كانوا يذكرونه بالتكبير . وقيل : وصفه بالقلة لأن الله تعالى لا يقبله . وقيل : لعدم الإخلاص فيه . وهذا مسائلان :

الأولى - بين الله تعالى في هذه الآية صلاة المنافقين ، وبينها رسوله عُدَّ صلى الله عليه وسلم ؛ فمن صلى كصلاتهم ودَّكرهم لحق بهم في عدم القبول ، وخرج من مقتضى قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » . وسأيت ، اللهم إلا أن يكون له عذر فيقتصر على الحسن حسب ما علمه النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي حين رآه أخذ بالصلاة فقال له : " إذا كنت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر ثم اقرأ ما تيسر منك من القرآن ثم أركع حتى تطمئن رأكما ثم أرفع حتى تمتد قائما ثم أجد حتى تطمئن ساجدا ثم أرفع حتى تطمئن جالسا ثم أفضل ذلك في صلاتك كلها " . رواه الأئمة . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بآم القرآن " . وقال : " لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صُلبه في الركوع والسجود " . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم ، يرون أن



الرجل يقيم صلاته في الركوع والسجود . قال الشافعي وأحمد وإسحاق : من لا يقيم صلاته في الركوع والسجود فصلاته فاسدة ؛ لحديث النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلاته في الركوع والسجود » . قال ابن العربي : ونعجب ابن القمام وأبو حنيفة إلى أن الطمانينة ليست بفرض . وهي رواية عراقية لا ينبغي لأحد من السالكين أن يستعملها . وقد مضى في « البقرة » هذا المعنى .

الثانية — قال ابن العربي : إن من صلى صلاة ليراها الناس ويرونها فيها فيشهدون له بالإيمان أو أراد طلب المتلة والظهور لقبول الشهادة وجواز الإمامة فليس ذلك الرياء المنهي عنه ، ولم يكن عليه حرج ؛ وإنما الرياء المعصية أن يظهرها صيدا للناس وطريقا إلى الأكل ، فهذه نية لا تجزئ وطيه الإعادة .

قلت : قوله « وأراد طلب المتلة والظهور لقبول الشهادة » فيه نظر . وقد تقدم بيانه في « النساء » فتأمله هناك . ودلت هذه الآية على أن الرياء يدخل القرض والتغل ؛ لقول الله تعالى : « وإذا قاموا إلى الصلاة » يعم . وقال قوم : إنما يدخل التغل خاصة ؛ لأن القرض واجب على جميع الناس والتغل عرضة لذلك . وقيل بالعكس ، لأنه لو لم يأت بالتوافل لم يؤخذ بها .

قوله تعالى : مُذْهِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٢٤﴾

المذنبين للتردد بين أمرين ؛ والذبذبة الاضطراب . يقال : ذبذبت فذبذب ؛ ومنه قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة \* ترى كل ملك دونها يتذبذب

آخره :

خيال لأم السليل ودونها \* مسيرة شهر للمريد المذنب

كما روى بكسر الهمزة الثانية . قال ابن جني : أي المتر القلق الذي لا يثبت ولا يتجمل .  
وهؤلاء المناقون متذبذبون بين المؤمنين والمشركين ، لا غلصين الإيمان ولا مصرحين بالكفر .  
وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المناق كمثل الشاة  
العائرة <sup>(١)</sup> بين الغنمين تبع إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى » وفي رواية « تكبر » بدل « تبع » .  
وقرأ اليهود « متذبذبين » بضم الميم وفتح الذالين . وقرأ ابن عباس بكسر الهمزة الثانية .  
وفي حرف أبي « متذبذبين » . ويحوز الإدغام على هذه القراءة « متذبذبين » بتشديد الهمزة  
الأولى وكسر الثانية . وعن الحسن « متذبذبين » بفتح الميم والذالين .

قوله تعالى : يَتَّبِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ  
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا <sup>(١١)</sup>  
مفعولان ، أي لا تجعلوا خاصتكم وطلائعكم منهم ، وقد تقدم هذا المعنى : ( أَتُرِيدُونَ أَنْ  
تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ) أي في تعذيبه إياكم بإقامة حجته عليكم إذ قد نهاكم .  
قوله تعالى : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَدَ  
لَهُمْ نَصِيرًا <sup>(١٢)</sup>

قوله تعالى : ( فِي الدَّرَكِ ) قرأ الكوفيون « الدرك » بإسكان الراء ، والأولى أنصح ؛ لأنه يقال  
في الجمع : أدراك مثل جبل وأجبال ، قاله النحاس . وقال أبو علي : هما لفتان كالشع والشمع  
ونحوه ، والجمع أدراك . وقيل : جمع الدرك أدرك ، كقلس وأقلس . والنار دركات سبعة ، أي  
طبقات ومتازل ؛ إلا أن استعمال العرب لكل ما تسافل أدراك . يقال ليثر : أدراك ، وليأ تعالى  
درج ؛ فلجنة درج ، والنار أدراك . وقد تقدم هذا . فالمنافق في الدرك الأسفل وهي  
الهاوية ؛ لفظ بكفره وكثرة غوائله وعكثه من أدنى المؤمنين . وأعلى الدرجات جهنم ثم لظى

(١) العائرة : الرقعة بينطين لا تحصى أيها تبع .

(٢) رابع جزء من ٢١٤ طبة أول أو ثانية .

يُمَّ الحُطْمَةُ ثُمَّ السَّعِيرُ ثُمَّ سَقَرُهُمْ الْجَحِيمُ ثُمَّ الْمَاوِيَّةُ؛ وقد يسمى جميعها باسم الطبقة الأولى،  
 أعطانا الله من عذابها بَمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ . ومن أين مسعود في تأويل قوله تعالى : « في الدَّرَبِ  
 الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » قال : توأيت من حديد مقفلة في النار تطبق عليهم . وقال ابن عمر :  
 إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون ،  
 تصديق ذلك في كتاب الله تعالى ، قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » .  
 وقال تعالى في أصحاب المائدة : « فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » . وقال  
 في آل فرعون : « أَذِخُّوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

قوله تعالى : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ  
 لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٦﴾

استثناء بمن نافي . ومن شرط التائب من التفاق أن يصلح في قوله وصله . ويستعمل بالله  
 أي يجعله ملجأ ومعاذا ، ويخلص دينه لله ؛ كما نصبت عليه هذه الآية ، وإلا فليس بتائب .  
 ولهذا أوقع أجر المؤمنين في التسوية لانضمام المنافقين إليهم . والله أعلم . روى البخاري  
 عن الأسود قال : كنا في حلقة عبد الله يخاف حذيفة حتى قام علينا فلم ثم قال : لقد نزل  
 التفاق على قوم خير منكم ؛ قال الأسود : سبحان الله ! إن الله تعالى يقول : « إن المنافقين  
 في الدرك الأسفل من النار » . فبسم عبد الله ، وجلس حذيفة في ناحية المسجد ؛ فقام عبد الله  
 فنزق أصحابه فرماني بالحصى فأتيته ، فقال حذيفة : عجبت من ضحكك وقد عرف ما قلت :  
 لقد أنزل التفاق على قوم كانوا خيرا منكم ثم تابوا فتاب الله عليهم . وقال القراء : معنى « فأولئك  
 مع المؤمنين » أي من المؤمنين . وقال القتيبي : حاد عن كلامهم غضبا عليهم فقال « فأولئك  
 مع المؤمنين » ولم يقل هم المؤمنون . وحذفت الياء من « يؤت » في الخط كما حذفت في اللفظ ؛  
 لسكونها وسكون اللام بعدها ، ومثله « يَوْمَ يَأْتِي الْمُنَادِي » و « سَدْعُ الزَّيْنَبِ » و « يَوْمَ يَدْعُ  
 الْبَايِعِ » حذفت الواو لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

استفهام بمعنى التقرير للتأنيدين . التصدير : أى منفعة له في عذابكم إن شكرتم وآمنتم ؛ فبأنه تعالى لا يعذب الشاكر المؤمنين ، وأن تعذيبه عباده لا يزيد في ملكه ، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا ينقص من سلطانه . وقال مكحول : أربع من كن فيه كن له ، وثلاث من كن فيه كن عليه ؛ فالأربع التي له : فالشكر والإيمان والدعاء والاستنار ، قال الله تعالى : « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ » وقال الله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » وقال تعالى : « قُلْ مَا يَدْعُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ » . وأما الثلاث الآتى عليه : فالمكر والبنى والنكث ؛ قال الله تعالى : « قَدْ نَكَثَ فِيمَا بَعَثْتُ عَلَى نَفْسِهِ » قال تعالى : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » وقال تعالى : « إِنَّمَا يَنْفِئُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » .

( وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ) أى يشكر عباده على طاعته . ومعنى « يشكرهم » يشيهم ؛ فيقبل العمل القليل ويعطى عليه الثواب الجزيل ، وذلك شكر منه لعباده . والشكر في اللغة الظهور ؛ يقال : دابة شكور إذا أظهرت من السمن فوق ما تُعطى من العلف ، وقد تقدم هذا المعنى مستوفى <sup>(١)</sup> . والعرب تقول في المثل : « أَشْكُرُ مِنْ بَرُوقة » لأنه يقال : تَحْضَرُ وَتَضْرِبُ بَطْلَ السحاب دون مطر . والله أعلم .

(١) راجع ج ١ ص ٢٩٧ طبة ثانية أوالثالثة .

(٢) البرق : ما يمسو الأرض من أول غمرة ليليات . وقيل : هو نبت معروف .

قوله تعالى : لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ  
وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١١﴾ إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ  
سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوفًا قَدِيرًا ﴿١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ) وتم الكلام . ثم قال  
جل وعز : ( إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ) استثناء ليس من الأول في موضع نصب ؛ أي لكن من ظلم  
فله أن يقول ظلمي فلان . ويجوز أن يكون في موضع رفع ويكون التقدير ؛ لا يحب الله  
أن يجهر أحد بالسوء إلا من ظلم . وقراءة الجهور « ظلم » بضم الظاء وكسر اللام ؛ ويجوز  
إسكانها . ومن قرأ « ظلم » بفتح الظاء وقع اللام وهو زيد بن أسلم وآبن أبي إسحق وضميرها  
على ما يأتي ، فلا يجوز له أن يسكن اللام خلفه الفتحة . فعل القراءة الأولى قالت طائفة :  
المعنى لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول إلا من ظلم فلا يكره له الجهر به . ثم اختلفوا  
في كيفية الجهر بالسوء وما هو المباح من ذلك ؛ فقال الحسن : هو الرجل يظلم الرجل فلا يدع<sup>(١)</sup>  
عليه ، ولكن ليقول : اللهم أعني عليه ، اللهم أستخرج حقى ، اللهم حل بينه وبين ما يريد<sup>(٢)</sup>  
من ظلمي . فهذا دعاء في المدافعة وهو أقل منازل السوء . وقال ابن عباس وغيره : المباح  
لمن ظلم أن يدعو على من ظلمه ، وإن صبر فهو خير له ؛ فهذا إطلاق في نوع الدعاء هل  
الظالم . وقال أيضا هو والسدى : لا بأس لمن ظلم أن يقتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه ويجهر له  
بالسوء من القول . وقال ابن المستنير : « إلا من ظلم » معناه ؛ إلا من أكره على أن يجهر  
بسوءه من القول ككفر أو نحوه فذلك مباح . والآية على هذا في الإكراه ؛ وكذا قال قطرب :

(١) كذا في الأصول : تهي ، والتاخر ثبوت الرواد : خبر . (٢) في ر ٤ : حل بينى .

« إِنْ مِنْ ظُلْمٍ » يريد المكره؛ لأنه مظلوم فذلك موضوع عنه وإن كفر؛ قال : ويجوز أن يكون المعنى « إلا من ظلم » على البدل؛ كأنه قال : لا يجب الله إلا من ظلم، أى لا يجب الله الظالم؛ فكانه يقول : يجب من ظلم أى يأجر من ظلم . والتقدير على هذا القول : لا يجب الله إذا الجهر بالسوء إلا من ظلم، على البدل . وقال مجاهد : نزلت في الضيافة فرخص له أن يقول فيه . قال ابن جرير عن مجاهد : نزلت في رجل ضاف رجلاً بقلعة من الأرض فلم يضيفه فنزلت « إلا من ظلم » ورواه ابن أبي نجیح أيضاً عن مجاهد؛ قال : نزلت هذه الآية « لَا يُجِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » في الرجل يمر بالرجل فلا يضيفه فرخص له أن يقول فيه : إنه لم يحسن ضيافته . وقد استدل من أوجب الضيافة بهذه الآية؛ قالوا : لأن الظلم ممنوع منه فدل على وجوبها؛ وهو قول الليث بن سعد . والجهور على أنها من مكالم الأخلاق وسبأى بيانها في « هود »<sup>(١)</sup> والذي يقتضيه ظاهر الآية أن الظالم أن ينصرف من ظالمه — ولكن مع اقتصاد — إن كان مؤمناً كما قال الحسن ؛ فاما أن يقابل القسوف بالقسوف ونحوه فلا؛ وقد هُتِمَ في « البقرة »<sup>(٢)</sup> . وإن كان كافراً فأرسل لسانك وأدع بما شئت من الملكة وبكل دعاء؛ كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « اللهم أشدد وطأتك على مضر وأجعلها عليهم سنين كئيبين يوسف » وقال : « اللهم عليك بفلان وفلان » سماهم . وإن كان مجاهراً بالظلم ادعى عليه جهراً، ولم يكن له عرض محترم ولا بدن محترم ولا مال محترم . وقد روى أبو داود عن عائشة قال : سرق لها شيء فبغلت تدعو عليه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُسْخِي عنه » أى لا تخفني عنه العقوبة بدعائك عليه . وروى أيضاً عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لى الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته » . قال ابن المبارك : يحل عرضه ينظف له ، وعقوبته يحبس [ له ]<sup>(٣)</sup> . وفي صحيح مسلم « مطل النني ظلم » . فالمراد المتمكن إذا طولب بالأداء ومطل ظلم ، وذلك يبيع من

(١) راجع ج ٩ ص ٦٤ (٢) راجع ج ٢ ص ٣٦٠ (٣) في جز ٢ : دما .

(٤) أى السابق . (٥) فى : المني . (٦) الى : الحبل . الواجد : القادر

(٧) من جز ٢ : دما .

مرضيه أن يقال فيه : فلان يظلم الناس ويحبس حقوقهم ويبيع للإمام أدبه وتزوره حتى يرتدع عن ذلك؛ حكى معناه عن سفيان، وهو معنى قول ابن المبارك رضى الله عنهما .

الثانية — وليس من هذا الباب ما وقع في صحيح مسلم من قول العباس في علي رضى الله عنهما بمحضرة عمر وعثمان والزيير وعبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين أقض بيني وبين هذا الكاذب الآثم النادر الخائن . الحديث . ولم يرد عليه واحد منهم ؛ لأنها كانت حكرمة ، كل واحد منهما يعتقدها لنفسه ، حتى أخذ فيها عليهم عمر الواجب ؛ قاله ابن العربي . وقال علماءنا : هذا إما يكون فيما إذا استوت المنازل أو تقاربت ، وإما إذا تفاوتت ، فلا يمكن النفع من أن تستطبل على الفضلاء ، وإما تطلب حقها بمجرد الدعوى من غير تصريح بظلم ولا غضب ؛ وهذا صحيح وعليه تدل الآثار . ووجه آخر — وهو أن هذا القول أخرجه من العباس الغضب وصولة سلطة السومة ! فإن العلم <sup>١٦٦</sup> صنو الأب ، ولا شك أن الأب إذا أطلق هذه الألفاظ على ولده إنما يحمل ذلك منه على أنه قصد الإغلاظ والردع مبالغة في تأديبه ، لا أنه موصوف بتلك الأمور ؛ ثم أضاف إلى هذا أنهم في حاجة ولاية دينية ؛ فكان العباس يعتقد أن مخالفته فيما لا يجوز ، وأن مخالفته فيها تؤدي إلى أن يتصف المخالف بتلك الأمور ؛ فاطلقها بيوادر الغضب على هذه الأوجه ؛ ولما علم الحاضرون ذلك لم ينكروا عليه ؛ أشار إلى هذا المأزى والقاضى عياض وغيرهما .

— الثالثة — فإما من قرأ « ظلم » بالفتح في الظاء واللام — وهي قراءة زيد بن أسلم ، وكان من العلماء بالقرآن بالمدينة بعد محمد بن كعب القرظي ، وقراءة ابن أبي إسحق والضحاك وابن عباس وابن جبير وعطاء بن السائب — فالمعنى : إلا من ظلم أو قتل أو قتل فاجهر واه بالسوء من القول ؛ في معنى النهي عن فعله والتوبيخ له والرد عليه ؛ المعنى لا يجب الله أن يقال لمن تاب من التناقى : الست ناقصة ؟ إلا من ظلم ، أى أقام على التناقى ؛ ودل على هذا قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » . قال ابن زيد : وذلك أنه سبحانه لما أخبر عن المنافقين

أنهم في الدرك الأسفل من النار كان ذلك جهرا بسوء من القول ، ثم قال لم بعد ذلك :  
 « مَا يَقُولُ اللَّهُ بِمَدَائِكُمْ » على معنى التأنيس والاستغناء إلى الشكر والإيمان . ثم قال للؤمنين :  
 « لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » في إقامته على النفاق ؛ فإنه يقال له :  
 ألسنت المنافق الكافر الذي لك في الآخرة الدرك الأسفل من النار ؟ ونحو هذا من القول .  
 وقال قوم : معنى الكلام : لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول ، ثم استثنى استثناء  
 مقطوعا ، أى لكن من ظلم فإنه يجهر بالسوء ظاهرا ومعدونا وهو ظالم في ذلك .

قلت . وهذا شأن كثير من الظلمة ودأبهم ؛ فإنهم مع ظلمهم يستطيلون بالاستهم وينالون  
 من عرض مظلومهم ما حرم عليهم . وقال أبو إسحق الزجاج : يجوز أن يكون المعنى « إلا من  
 ظلم » فقال سواه ؛ فإنه ينبغي أن تأخذوا على يديه ؛ ويكون الاستثناء ليس من الأول .

قلت : وبديل على هذا أحاديث منها قوله عليه السلام : « خذوا على أيدي سفهائكم » .  
 وقوله : « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » قالوا : هذا تنصره مظلوما فكيف تنصره ظالما ؟  
 قال : « تكفه عن الظلم » . وقال الفراء : « إلا من ظلم » بمعنى ولا من ظلم .

قوله تعالى : ( وَكَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلِيمًا ) تحذير للظالم حتى لا يظلم ، وللمظلوم حتى لا يتمدى  
 الحقد في الانتصار . ثم أتبع هذا بقوله : ( إِنَّ بُدْءُوا خَيْرًا أَوْ خُفِّفُوا أَوْ تَغْفُوا عَنْ سُوءٍ ) فندب  
 إلى العفو ورغب فيه . والغفو من صفة الله تعالى مع القدرة على الاستقام ؛ وقد تقدم  
 في « آل عمران » فضل المأفين [ عن الناس ] . ففى هذه الألفاظ البيعة معان كثيرة لمن  
 تأملها . وقيل : إن عفوت فإن الله يغفوك . روى ابن المبارك قال : حدثني من سمع  
 الحسن يقول : إذا جئت الإثم بين يدي رب العالمين يوم القيامة نودى ليتم من أجره على الله  
 فلا يقسم إلا من عفا في الدنيا ؛ بصلى هذا الحديث قوله تعالى : « قَنِّ عَفَا وَأَصْلَحَ  
 فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » .



قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝** (١٥١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ)** لما ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب، اليهود والنصارى، إذ كفروا بحمد صلى الله عليه وسلم، وبين أن الكفر به كفر بالكل، لأنه ما من نية إلا وقد أمر قومه بالإيمان بحمد صلى الله عليه وسلم ويحجب الأتباع عليهم الصلاة والسلام . بمعنى **(يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ)** أى بين الإيمان بالله ورسوله ، فنص سبحانه على أن التفريق بين الله ورسوله كفر، وإنما كان كفرا لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على السنة الرسل ، فإذا جحدوا الرسل ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم ، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التى أمروا بالتزامها ، فكان بحمد الصانع سبحانه ، وبحمد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية . وكذلك التفريق بين رسله فى الإيمان بهم كفر، وهى :

المسئلة الثانية — لقوله تعالى : **(وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ)** وهم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بيسى ومحمد، وقد تقدم هذا من قولهم فى « البقرة » . ويقولون لمواتهم : لم نجد ذكر محمد فى كتبنا . **(وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)** أى يتخذوا بين الإيمان والمجد طريقا، أى دينا مبتدعا بين الإسلام واليهودية . وقال : « ذلك » ولم يقل ذلك ؛ لأن ذلك تقع للاثنين ولو كان ذلك بلحاظ .

الثالثة — قوله تعالى : **(أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا)** تأكيد يزيل التوهم فى إيمانهم حين وصفهم بأنهم يقولون نؤمن ببعض ، وأن ذلك لا ينفعهم إذا كفروا برسوله ، وإذا

كفروا برسوله فقد كفروا به عز وجل ، وكفروا بكل رسول مبشّر بذلك الرسول ، فذلك صاروا الكافرين حقاً . و (لِلْكَافِرِينَ) يقوم مقام المفعول الثاني لأعتدنا ، أى أعتدنا لجميع أصنافهم (عَذَابًا مُهِينًا) أى مُذَلًّا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٦﴾  
يعنى به النبي صلى الله عليه وسلم وأتته .

قوله تعالى : يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ فَأَبِيتُ غَفُورًا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٧﴾

سألت اليهود محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتابًا مكتوبًا فيأيدع به على صدقه دفعة واحدة ، كما أتى موسى بالثورة ، فتنازل الله عليه وسلم ، فأعلم الله عن وجل أن أباعهم قد عتوا موسى عليه السلام بأكثر من هذا (فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) أى عياناً ، وقد تقدم في « البقرة » . و « جهرة » تمت لمصدر محذوف أى رؤية جهرة ، فعوقبوا بالصاعقة ليظلم ما جابوا به من السؤال والظلم [من] بعد ماراوا من المعجزات .

قوله تعالى : (ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ) في الكلام حذف تقديره : فأحييناهم فلم يبرحوا فأخذوا العجل ، وقد تقدم في « البقرة » و أتى ذكره في « طه » [إن شاء الله] . (مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) أى البراهين والدلائل والمعجزات الظاهرات من اليد والمصا وفلق البحر وغيرها

(١) راجع ج ١ ص ٤٠٣ - (٢) من ز (٣) راجع ج ١ ص ٢٩٦

(٤) راجع ج ١١ ص ٢٢ - (٥) من ز .

بأنه لا معبود إلا الله عز وجل . ( فَتَقَوُّوا عَنْ ذَلِكَ ) أى عما كان منهم من التعت .  
( وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ) أى حجة بينة وهى الآيات التى جاء بها ، وسميت سلطانا لأن من  
جاء بها قاهر بالهجة ، وهى قاهرة للقلوب ، بأن تعلم أنه ليس فى قوى البشر أن يأتوا بمثلها .

قوله تعالى : وَرَفَعْنَا قَوَّحَهُمُ الْطُورَ يَمِيشُفِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا  
الْبَابَ مُجَدًّا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥١)

قوله تعالى : ( وَرَفَعْنَا قَوَّحَهُمُ الْطُورَ يَمِيشُفِهِمْ ) أى بسبب نقضهم الميثاق الذى أخذ  
منهم ، وهو العمل بما فى التوراة ، وقد تقدم رفع الجبل ودخولهم الباب فى « البقرة » .  
( وَجَدْنَا ) نصب على الحال . وقرأ ورش وحده ( وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ) ففتح العين  
من عدا يعلمو عدوا وعدوانا وعدوا وعداء ، أى بأقتناص الميثاق كما تقدم فى « البقرة » .  
والأصل فيه تعدوا أدغمت التاء فى الدال ، قال النحاس : ولا يجوز إسكان العين ولا يوصل  
إلى الجمع بين ساكنين فى هذا ، والذى يقرأ بها إنما يروم الخطأ ( وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا )  
بمعنى العهد الذى أخذ عليهم فى التوراة . وقيل : عهد مؤكد باليمين فسمى غليظا لذلك .

قوله تعالى : فَمَا نَقِضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْهُمْ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ  
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ  
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٢) وَيَكُفِّرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بِهَتْنًا عَظِيمًا (١٥٣)

قوله تعالى : ( فَمَا نَقِضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ) « فَمَا نَقِضِهِمْ » خفض بالياء و « ما » زائدة  
مؤكد كقوله : « فَمَا رَحْمَةٌ مِنْ اللَّهِ » وقد تقدم ، والياء متعلقة بمحذوف ، التقدير :  
فبنقضهم ميثاقهم لعناهم ، عن قتادة وغيره . وحذف هذا لعل السامع . وقال أبو الحسن  
على بن حمزة الكاساني : هو متعلق بما قبله ، والمعنى فأخذتهم الصاعقة بظلمهم

(١) راجع ١ ص ٤٤١ ، ٤٣٦ (٢) راجع ١ ص ٤٣٩ (٣) أى فأتوا به ورش .  
(٤) فز : بضمه . (٥) راجع ٢ ص ٢٤٨

إلى قنزل : « قَيَّا قَصِيْمُ مِيثَاقُهُمْ » قال : قفسر ظلمهم الذي أخذتهم الصاعقة من أجله  
 بما بعده من تقصير الميثاق وقتلهم الأنبياء وسائر ما بين من الأشياء التي ظلموا فيها أنفسهم .  
 وأنكر ذلك الطبرى وغيره ؛ لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى ، والذين  
 قتلوا الأنبياء ورموا صريع البهتان كانوا بعد موسى بزمان ، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم  
 برميهم صريع البهتان . قال المهدوى وغيره : وهذا لا يلزم ؛ لأنه يجوز أن يخبر عنهم والمراد  
 آبائهم ؛ على ما تقدم في « البقرة » . [ قال الزجاج : المعنى فيقتضهم ميثاقهم حرمانا عليهم طيبات  
 أحلت لهم ؛ لأن هذه القصة ممتدة إلى قوله : « فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا » . وتقضهم  
 الميثاق أنه أخذ عليهم أن يدينوا صفة النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى فيقتضهم ميثاقهم  
 وفعلهم كذا وفعلهم كذا طبع الله على قلوبهم . وقيل : المعنى فيقتضهم لا يؤمنون إلا قليلا ؛  
 والفاء مقحمة . و ( كُفِّرِهِمْ ) عطف ، وكذا و ( قَتَلِهِمْ ) . والمراد ( يَا أَيُّهَا اللَّهُ ) كتبهم  
 التي حرمتها . و ( عُلِّقُ ) جمع غلاف ؛ أى قلوبنا أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى علم سوى  
 ما عندنا . وقيل : هو جمع أغلف وهو المغطى بالثلاث ؛ أى قلوبنا في أغطية فلا نفقه ما نقول ؛  
 وهو كقوله : « قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ » وقد تقدم هذا في « البقرة » وغرضهم بهذا دره حجة  
 الرسل . والطبع الختم ؛ وقد تقدم في « البقرة » . ( يَكْفُرِهِمْ ) أى جزاء لهم على كفرهم ؛ كما  
 قال : « إِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » أى إلا إيماننا قليلا أى بعض الأنبياء ،  
 وذلك غير نافع لهم . ثم كرر ( وَيَكْفُرِهِمْ ) ليخبر أنهم كفروا كفرا بعد كفر . وقيل : المعنى  
 « وَيَكْفُرِهِمْ » بالمسيح ؛ غذف لدلالة ما بعده عليه ، والعامل في « يَكْفُرِهِمْ » هو العامل  
 في « يَتَّقِيهِمْ » لأنه معطوف عليه ، ولا يجوز أن يكون العامل فيه « طَلَعَ » . والبهتان العظيم  
 رميا بيوسف التجار وكان من الصالحين منهم . والبهتان الكذب المفرط الذي يتعجب منه  
 وقد تقدم . [ والله سبحانه وتعالى أعلم ] .

- |                          |               |                    |
|--------------------------|---------------|--------------------|
| (١) راجع ج ١ ص ٢٤٦       | (٢) من ك      | (٣) راجع ج ١ ص ٢٣٩ |
| (٤) راجع ج ٢ ص ٢٥        | (٥) في ج : رد | (٦) راجع ج ١ ص ١٨٥ |
| (٧) راجع ج ٥ ص ٢١٢ و ٢٨١ | (٨) من ز      |                    |

قوله تعالى : وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٨﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : ( وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ) كسرت «إنا» لأنها مبتدأة بعد القول وفتحها لغة . وقد تقدم في «آل عمران» اشتقاق لفظ المسيح . ( رَسُولَ اللَّهِ ) بدل ، وإن شئت على معنى أعي . ( وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ) رد لقولهم . ( وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ) أى الذى شبهه على غيره كما تقدم في «آل عمران» . وقيل : لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذى قتلوه وهم شاكون فيه ؛ كما قال تعالى : ( وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ) . والإخبار قيل : إنه عن جميعهم . وقيل : إنه لم يختلف فيه إلا عوامتهم ؛ ومعنى اختلافهم قول بعضهم إنه الله ، وبعضهم هو ابن الله . قاله الحسن : وقيل اختلافهم أن عوامهم قالوا قتلنا عيسى . وقال من حارب رفعه إلى السماء . ما قتلناه . وقيل : اختلافهم أن السطورية من النصارى قالوا : صلب عيسى من جهة نأسوته لامن جهة لأهوته . وقالت الملكانية : وقع الصلب والقتل على المسيح بكمال ناسوته ولاهوته . وقيل : اختلافهم هو أنهم قالوا : إن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وقيل : اختلافهم هو أن اليهود قالوا : نحن قتلناه ؛ لأن يهوذا رأس اليهود وهو الذى سعى في قتله . وقالت طائفة من النصارى : بل قتلناه نحن . وقالت طائفة منهم : بل رفعه الله إلى السماء ونحن ننظر إليه . ( مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ) من زائدة ؛ وتم الكلام . ثم قال جل وعز : ( إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ) استثناء ليس من

الأول في موضع نصب، ويجوز أن يكون في موضع رفع هل البدل؛ أي ما لم به من علم  
إلا أتباع الظن . وأشد سيويه :

وبلدة ليس بها إيس . <sup>(١)</sup> إلا الباعير وإلا العيس

قوله تعالى : (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) قال ابن عباس والسدي : المعنى ما قتلوا ظنهم يقينا ؛ كقولك :  
قتلته علما إذا علمته علما تاما ؛ فالهاء عائدة على الظن . قال أبو عبيد : ولو كان المعنى وما قتلوا  
عيسى يقينا لقال : وما قتلوه فقط . وقيل : المعنى وما قتلوا الذي شبه لم أنه عيسى يقينا ؛  
فالوقف على هذا على « يَقِينًا » . وقيل : المعنى وما قتلوا عيسى ، والوقف على « وَمَا قَتَلُوهُ »  
و « يَقِينًا » نعت لمصدر محذوف ، وفيه تقديران : أحدهما — أي قالوا هذا قولا يقينا ،  
أو قال الله هذا قولا يقينا . والقول الآخر — أن يكون المعنى وما علموه يقينا ، النحاس :  
إن قدرت المعنى بل رضى الله إليه يقينا فهو خطأ ؛ لأنه لا يعمل ما بعد « بل » فيما قبلها  
لضعفها . وأجاز ابن الأثير الوقف على « وَمَا قَتَلُوهُ » على أن ينصب « يقينا » بفعل مضممر  
هو جواب القسم ، تقديره : ولقد صدقتم يقينا أي صدقا يقينا . (بل رضى الله إليه) ابتداء  
كلام متناقض ؛ أي إلى السماء ، والله تعالى متعال عن المكلف ؛ ولقد تقدم كيفية رضى  
في « آل عمران » . (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا) أي قويا بالنعمة من اليهود فسلط عليهم بطرس <sup>(٢)</sup>  
ابن استبانوس الرومي قتل منهم مقتلة عظيمة . (حَكِيمًا) حكم عليهم باللعنة والفضب .  
قوله تعالى : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ <sup>ط</sup>

وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا <sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : (وَأَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) . قال ابن عباس  
والحسن ومجاهد وعكرمة : المعنى ليؤمنن بالمسيح « قبل موته » أي الكتابي ؛ فالهاء  
الأولى عائدة على عيسى ، والثانية على الكتابي ؛ وذلك أنه ليس أحد من أهل الكتاب

(١) الباعير : أولاد الظبا . واحدا يفرور . والبس بفر الوحش لياشها ، والمعص الياش ، وأصله في الإبل  
استناره بالقر . (٢) رابع ج ٤ ص ٩٩ وما بعدها (٣) في ج ٤ ، ز ٤ ، ك : خلوس بن استبانوس .

اليهود والنصارى إلا يؤمن بعيسى عليه السلام إذا عين الملك، ولكنه إن عان لا ينفع؛ لأنه إيمان عند اليأس وحين التلبس بحالة الموت؛ فاليهودى يقتر في ذلك الوقت بأنه رسول الله، والنصرانى يقتر بأنه كان رسول الله. وروى أن المجاح سال شهر بن حوشب عن هذه الآية فقال: إني لأوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأمر بضرب عنقه، وأنظر إليه في ذلك الوقت فلا أرى منه الإيمان؛ فقال له شهر بن حوشب: إنه حين عاين أمر الآخرة يقتر بأن عيسى عبد الله ورسوله فيؤمن به ولا ينفعه؛ فقال له المجاح: من أين أخذت هذا؟ قال: أخذته من محمد بن الحنفية؛ فقال له المجاح: أخذت من مينا صانية. وروى عن مجاهد أنه قال: ما من أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موته؛ قيل له: إن غرق أو احترق أو أكله السبع يؤمن بعيسى؟ قال: نعم! وقيل: إن الهامين جميعا لعيسى عليه السلام؛ والمعنى ليؤمنن به من كان حيا حين نزوله يوم القيامة؛ قاله قتادة وابن زيد وغيرها وأخبرته الطبري. وروى يزيد بن زريع عن رجل عن الحسن في قوله تعالى: «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته» قال: قبل موت عيسى؛ والله إنه لحق عند الله الآن؛ ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون؛ ونحوه عن الضحاك وسعيد بن جبير. وقيل: «ليؤمنن به» أى بحمد عليه السلام وإن لم يحمر له ذكر؛ لأن هذه الأقاصيص أنزلت عليه والمقصود الإيمان به، والإيمان بعيسى يتضمن الإيمان بحمد عليه الصلاة والسلام أيضا؛ إذ لا يجوز أن يفترق بينهما. وقيل: «ليؤمنن به» أى بالله تعالى قبل أن يموت ولا ينفعه الإيمان عند المماتة. والتاويلان الأولان أظهر. وروى الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليقرن ابن مريم حكا عدلا فليقتل الدجال وليقتل الخنزير وليكسر الصليب وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين» ثم قال أبو هريرة: وأقترأوا إن شتم «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته» قال أبو هريرة: قبل موت عيسى؛ بيدها ثلاث مرات. وتقدير الآية عند سيبويه؛ وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به. وتقدير الكوفيين: وإن من أهل الكتاب إلا من ليؤمنن به، وفيه فبح، لأن فيه حذف الموصول، والصلة بعض الموصول فكأنه حذف بعض الأسم.

قوله تعالى: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا) أى يتكذب من كذبه وتصديق من صدقه .

قوله تعالى: (فَيُظْلَمُ مَنْ آلَيْنَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَتٌ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَّتْهُمُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ) فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى: (فَيُظْلَمُ مَنْ آلَيْنَ هَادُوا) قال الزجاج : هذا بدل من «تَبَا تَقْضِيهِمْ» . والطيات مانصة في قوله تعالى : «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ» . وقدم الظلم على التحريم إذ هو الغرض الذى قصد إلى الإخبار عنه بأنه سبب التحريم . (وَبَصَدَّتْهُمُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أى وبصدتهم أنفسهم وغيرهم عن اتباع عهد صلى الله عليه وسلم . (وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) كله تفسير للظلم الذى تباطوه ، وكذلك ما قبله من قضم الميثاق وما بعده ؛ وقد مضى في «آل عمران» أن اختلاف العلماء في سبب التحريم على ثلاثة أقوال هذا أحدها .

الثانية - قال ابن العربي : لا خلاف في مذهب مالك أن الكفار مخاطبون ، وقد بين الله في هذه الآية أنهم قد نهوا عن الربا وأكل الأموال بالباطل ؛ فإن كان ذلك خبرا عما نزل على عهد في القرن وأنهم دخلوا في الخطأ فيها ونعمت ، وإن كان خبرا عما أنزل الله على موسى في التوراة ، وأنهم بذلوا وحرفوا وعصوا وخالفوا فهل يجوز لنا معاملتهم والقرم قد أفسدوا أموالهم في دينهم أم لا ؟ فظنت طائفة أن معاملتهم لا تجوز ؛ وذلك لما في أموالهم من هذا الفساد . والصحيح جواز معاملتهم مع رباهم وأقتحام ما حرم الله سبحانه عليهم ؛ فقد قام الدليل القاطع على ذلك قرآنا وسنة ؛ قال الله تعالى : «وَعَلَّمَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ حِلَّ لَكُمْ»

(١) راجع ٧٢ ص ١٢٤ (٢) راجع ١٣٤ ص ١٢٤ وما بعدها . (٣) راجع ص ٧٥ من هذا الجزء .



وهذا نص : « وقد عامل النبي صلى الله عليه وسلم اليهود ومات وترعه من هوانه عند جودى في شمير أخذه ليلا<sup>(١)</sup> ، والحاسم لدهاء الشك والخلاف أفتاق الأئمة على جواز التجارة مع أهل الحرب ، وقد سافر النبي صلى الله عليه وسلم إليهم تاجرا ، وذلك من : « ره أمر قاطع على جواز السفر إليهم والتجارة معهم . فإن قيل : كان ذلك قبل النبوة ؛ قلنا : إنه لم يتدنس قبل النبوة بحرام — ثبت ذلك تواترا — ولا اعتذر عنه إذ ثبت ، ولا منع منه إذ ثبت<sup>(٢)</sup> ، ولا قطعه أحد من الصعابة في حياته ، ولا أحد من المسلمين بعد وفاته ؛ فقد كانوا يرون في فك الأسرى وذلك واجب ، وفي الصلح كما أرسل عثمان وغيره ؛ وقد يجب وقد يكره . ندبا ؛ فأما السفر إليهم لمجرد التجارة فيباح .

قوله تعالى : لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ( لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ ) استثنى مؤمنى أهل الكتاب ؛ وذلك أن اليهود أنكروا وقالوا : إن هذه الأشياء كانت حراما في الأصل وأنت تحملها ولم تكن حراما بظنا ؛ فنزل : « لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » والراشح هو المبالغ في علم الكتاب الثابت فيه ، ونزول خبر النبوت ؛ وقد تقدم في « آل عمران<sup>(٤)</sup> » والمراد عبد الله بن سلام وكعب الأحمار ونظراؤهما . ( وَالْمُؤْمِنُونَ ) أى من المهاجرين والأنصار ، أصحاب عهد عليه السلام . ( وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ) وقرا الحسن ومالك بن دينار وجعاعة : « والمقيمون » على العطف ، وكذا هو في حرف عبد الله ، وأما حرف أبي قهويه « والمقيمين » كما في المصاحف . واختلف في نصبه على أقوال ستة ؛ أحسنها قول سيويه بأنه نصب على المدح ؛ أى وأغنى المقيمين ؛ قال سيويه : هذا باب ما ينصب على التعظيم ؛ ومن ذلك « والمقيمين الصَّلَاةَ » وأشد :

(١) يلاحظ هذا على شمرة ، مع ما صح أنه صلى الله عليه وسلم أمر بغرق سبعة دنانير كانت له عنه مائة رضى الله عنها وهو في حال الاختصار . راجع نهاية الأرب ج ١٨ ص ٢٨٠ (٢) راجع ج ١٦ ص ١٦٥ .

وكل قوم أطاعوا أمر سيّهم . إلا عمرا أطاعت أمر عوجها  
ويروى ( أمر من سيّهم ) .

الطّاعين<sup>(١)</sup> ولما يظنّوا أحدا . والقائلون لمن دار تحليها  
وانشد<sup>(٢)</sup> :

لا يبعدن قومي الذين هم . ممّ المدة وآفة الجُزر  
التّازلين بكلّ مُتّرك . والطّيّوب ممّا قد الأثر

قال النّحاس : وهذا أصحّ ما قيل في « المقيمين » . وقال الكسائي : « والمقيمين »  
معطوف على « ما » . قال النّحاس قال الأخفش : وهذا بعيد ؛ لأنّ المعنى يكون يؤمنون  
بالمؤمنين . وحكى محمد بن جرير أنّه قيل له : إنّ المقيمين ههنا الملائكة عليهم السلام ؛ لدوامهم  
على الصلاة والتّسبيح والاستغفار ، واختار هذا القول ، وحكى أنّ النّصب على المدح بعيد ؛  
لأنّ المدح إنما يأتي بعد تمام الخبر ، وخبر الرّاضين في « أولئك سنّيتهم أجرا عظيما » فلا يتناسب  
« المقيمين » على المدح . قال النّحاس : ومذهب سيّويه في قوله : « المؤثّتون » رفع بالابتداء .  
وقال غيره : هو مرفوع على إضمار مبتدأ ؛ أى هم المؤثّتون الزّكاة . وقيل : « والمقيمين » عطف  
على الكاف التي في « قِيلَ » . أى من قبلك ومن قبل المقيمين . وقيل : « المقيمين » عطف  
على الكاف التي في « إِلَيْكَ » . وقيل : هو عطف على الهاء والميم أى منهم ومن المقيمين ؛ وهذه  
الأجوبة الثلاثة لا تجوز ؛ لأنّ فيها عطف مظهر على مضمّر مخفوض . والجواب السادس -  
ما روى أنّ عائشة رضی الله عنها سئلت عن هذه الآية وعن قوله : « إِنَّ هَذَانِ لَسَاجِدَانِ »  
وقوله : « والصّائتون » في « المساندة » فقالت للسائل : يا بن أخی الكُتاب أخطئوا . وقال<sup>(٣)</sup>

(١) قوله : ( الطّاعين ولما يظنّوا أحدا ) أى يظنّون من عدوّهم لقتلهم وذمهم فيظنّون ، ولا يخاف منهم  
عدوّهم فيظنّون عن دارهم خروقا منهم . وقوله : ( لمن دار تحليها ) أى إذا غدوا عن دار لم يبرفوا من يحلها بصدّم  
لخوفهم من جميع القتائل . والبيان لا ينحيط . (٢) البيتان لخروج بنت عاتق من بنى قيس ؛ وصفت قومها  
بالهجوم على العدو ، ونحو الجزر لا يخاف والملازمة للهرب ، والصفة عن القواش .

(٣) في الأصول : محمد بن زياد . (٤) راجع ج ١١ ص ٢١٥ (٥) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء .

(٦) في الطّبري ( يا بن أختي ) .

أَبَانُ بْنُ عَثَانَ : كَانَ الْكَاتِبُ يُعَلِّي عَلَيْهِ فَيَكْتُبُ فَيَكْتُبُ « لَيْكِنِ الرَّاحُوتُ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ » ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا أَكْتُبُ ؟ فَقِيلَ لَهُ : أَكْتُبُ « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » فَنَ قَمَ وَقَعَ هَذَا . قَالَ الْقَشِيرِيُّ : وَهَذَا الْمَسْلُكُ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ جَعَلُوا الْكَاتِبَ كَانُوا قُدُوةً فِي اللُّغَةِ ، فَلَا يَظُنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ يَدْرَجُونَ فِي الْقُرْآنِ مَا لَمْ يَقُولُوا . وَأَصَحُّ هَذِهِ الْأَقْوَالُ قَوْلُ سَيُوبِيهِ وَهُوَ قَوْلُ الْأَخْلَافِ ، وَقَوْلُ الْكِسَائِيِّ هُوَ اخْتِيَارُ الْقَفَالِ وَالطَّبْرِيِّ ، [ وَآلَهُ أَعْلَمُ ] .<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ( إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ) . هذا متصل بقوله : « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ » فاعلم تعالى أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم كأمر من تقدمه من الأنبياء . وقال ابن عباس فيما ذكره ابن إسحق : نزلت في قوم من اليهود - منهم سَكِينُ وَعَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ - قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أوحى الله إلى أحد من بعد موسى فكذبهم الله . والوحى إعلام في خفاء ؛ يقال . وحى إليه بالكلام يحيى وحياً ، وأوحى يوحى إيماءً . ( إِلَى نُوحٍ ) قدمه لأنه أول نبي شُرِفَ على لسانه الشرائع . وقيل غير هذا ؛ ذكر الزَّيْزُورِيُّ بْنُ بَكَّارٍ حَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْمُغِيرَةِ عَنْ هِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ السَّائِبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : أَوَّلُ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ [ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ] فِي الْأَرْضِ إِدْرِيسُ وَاسْمُهُ أَخْنُوخُ<sup>(٣)</sup> ؛ ثُمَّ انْقَطَعَتِ الرُّسُلُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ نُوحَ بْنَ لُحْ بْنِ مُتَشَلِّخِ بْنِ أَخْنُوخَ<sup>(٤)</sup> ، وَقَدْ كَانَ سَامُ بْنُ نُوحٍ نَبِيًّا ، ثُمَّ انْقَطَعَتِ الرُّسُلُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيًّا وَاتَّخَذَهُ خَلِيفًا ، وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ تَارِيخَ وَاسْمُ تَارِيخَ آدَمُ ، ثُمَّ بَعَثَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ فَسَاتَ بِمَكَّةَ ، ثُمَّ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ<sup>(٥)</sup> (١) مِنْكَ - (٢) فِي وَدُودٍ - (٣) أَخْنُوخُ : (بفتح الهزلة) وسكن صاحب تاج العروس عن شيخه (بالضم) . (٤) لُحْ : بفتحين . وقيل : (بفتح نكسكون) . (روح المعاني) . ابن هذا مع قوله تعالى : إِنْ أَمْسَلَكَ آدَمُ - وما روى أن شيث بن آدم أنزل عليه نعمون صحيفة - صحفه - (٥) مُتَشَلِّخُ (بضم الميم) وفتح طاء الهزلية والراء وسكون اللين المعجمة ؛ وقيل : بفتح الميم وضم التاء القوية المشددة وسكون الراء ولام مفتوحة ورساء معجمة (روح المعاني) .

فَنَاتِ بِالنَّامِ ، ثُمَّ لُوطُ وَإِبْرَاهِيمُ غَمَّ ، ثُمَّ يَعْقُوبُ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ ثُمَّ يَوْسُفُ  
ابْنُ يَعْقُوبَ ثُمَّ شُعَيْبُ بْنُ يُونُسَ ، ثُمَّ هُودُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، ثُمَّ صَالِحُ بْنُ أَسْفَ ، ثُمَّ مُوسَى  
وَهَارُونَ ابْنَا عِمْرَانَ ، ثُمَّ أَيُّوبُ ثُمَّ الْخَضِرُ وَهُوَ خَضِرُونَ ، ثُمَّ دَاوُدُ بْنُ إِسْهَاءَ ، ثُمَّ سُلَيْمَانُ  
ابْنُ دَاوُدَ ، ثُمَّ يُونُسُ بْنُ مَتَّى ، ثُمَّ إِلْيَاسُ ، ثُمَّ ذَا الْكِفْلِ وَاسْمُهُ عَوِيدَتَا مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا  
ابْنُ يَعْقُوبَ ، قَالَ : وَبَيْنَ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ وَمَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ أُمُّ عِيسَى أَلْفُ سَنَةٍ وَسِتِّمِائَةِ  
سَنَةٍ وَلَيْسَا مِنْ سِبْطِ ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ  
الزَّيْزُرُ : كُلُّ نَبِيٍّ ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ خَيْرٌ لِدَرَسِ نُوحٍ وَلُوطٍ وَهُودٍ وَصَاحِ .  
وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَرَبِ أَنْبِيَاءُ الْإِسْمَةِ : هُودُ وَصَالِحُ وَإِسْمَاعِيلُ وَشُعَيْبُ وَمُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ  
الْأَجْمَعِينَ ، وَأَمَّا سَمَاوُا عَرَبِيًّا لِأَنَّهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِالْعَرَبِيَّةِ فَيُرْهِمُ .

قوله تعالى : (وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَنِيهِ) هذا يتناول جميع الأنبياء ، ثم قال : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى  
إِبْرَاهِيمَ) نفخ أنفوا بالذكر تشریفاً لهم ، كقوله تعالى : «وَمَلَأْنَاهُ كَيْدَهُ وَرُسُلَهُ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ»  
ثم قال : (وَعِيسَى وَأَيُّوبُ) قدم عيسى على قوم كانوا قبله ، لأن الواو لا تقتضي الترتيب ،  
فأيضاً فيه تخصيص عيسى رداً على اليهود . وفي هذه الآية تنبيه على قدر نبينا صلى الله عليه  
وسلم وشرفه حيث قدمه في الذكر على أنبيائه ، ومثله قوله تعالى : «وَلَوْ أَدْخَلْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ  
مِثْقَالَ حَبِّ بَرَّةٍ مِنْ نَوْحٍ» الآية ؛ ونوح مشتق من النوح ؛ وقد تقدم ذكره موعباً في «آل عمران»  
وانصرف وهو اسم أعجمي ؛ لأنه على ثلاثة أحرف تخفف ، فأما إبراهيم وإسماعيل [واسحق] <sup>(١)</sup>  
فأعجمية وهي معرفة ولذلك لم تنصرف ، وكذا يعقوب وعيسى وموسى إلا أن عيسى وموسى  
يحسوز أن تكون الألف فيهما للتأنيث فلا ينصرفان في معرفة ولا نكرة ؛ فأما يونس ويوسف  
فروبي عن الحسن أنه قرأ «ويونس» بكسر النون وكذا «يوسف» يعطهما من آسن وآسف ،  
وعجب على هذا أن يصرفا ويهزأ ويكون جمعهما يآسن ويآسف . ومن لم يهزأ قال : يوايس

- (١) يوب : (بشارة يحيى وداود وموسى) يوزن بسفر . (روح المعاني) . (٢) فز : ثم خضرون .  
(٣) فز : ثم إلياس ثم بشير الخ . ولا يعرف في الأنبياء بشير . (٤) ذكرنا من أنبياء العرب حظلة  
ابن صفوان رسول آل أصحاب الرس . وخالفه بن سنان البهي . (٥) راجع ج ٢ ص ٣٦ .  
(٦) راجع ج ١٤ ص ١٢٦ (٧) راجع ج ٤ ص ٦٢ (٨) الزيادة من (إبراهيم القرآن) لتفاسد .

ويوسف . وحكى أبو زيد : يونس ويوسف يفتح النون والسين ، قال المهدوي : وكان « يونس » في الأصل فعل مبنى للفعل ، و « يونس » فعل مبنى للفعول ، فسي هما .

قوله تعالى : ( وَأَتَيْنَا دَاوُدَ ذُبُورًا ) الذبور ككلمة دلود وكان مائة وخمسين سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام ، وإنما هي حكم ومواظ . والذبور الكتابة ، والذبور بمعنى المزبور أي المكتوب ، كالرسول والركوب والحلوب . وقرأ حمزة « ذُبُورًا » بضم الزاي جمع زبر كقلس وقلوس ، وذبر بمعنى المزبور ، كما يقال : هذا الدرهم ضرب الأمير أي مضروبه ، والأصل في الكلمة التوثيق ، يقال : بئر مزبورة أي مطوية بالحجارة ، والكلمة يسمى زبوراً لقوة الوثيقة به . وكان داود عليه السلام حسن الصوت ، فإذا أخذ في قراءة الذبور اجتمع إليه الإنس والجن والطير والوحش لحسن صوته ، وكان متواضعا يأكل من عمل يده ، روى أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه قال : أن كان داود صلى الله عليه وسلم ليخطب الناس وفي يده القنقة من الخوص ، فإذا فرغ ناولها بعض من إلى جنبه يمينها ، وكان يصنع الدروع<sup>(١)</sup> ، وسأني . وفي الحديث : « الزرق في العين يمن » وكان داود أزرق .

قوله تعالى : وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ( وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ) يعني بمكة . ( وَرُسُلًا ) منصوب بإضمار فعل ، أي وأرسلنا رسلا ؛ لأن معنى « وأوحينا إلى نوح » وأرسلنا نوحا . وقيل : هو منصوب بفعل دل على أنه « قَصَصْنَاهُمْ » أي وقصصنا رسلا ؛ ومثله ما أنشد سيويه :  
أصبحتُ لا أحلُ السلاحَ ولا . أتلك رأسَ البعيرِ إن قسرا .  
والذئبُ أخشاهُ إن مررتُ به . وحدي وأخشي الزليخَ والمطرا

(١) راجع ج ١١ ص ٣٣٠ . (٢) اليانعة الربيع بن خثيم القزاري ، وهو أحد المعربين ، وصف فيها آتياه شيعة وذهب قوته .

أى وأخشى القتب . وفى جرف أبي « ورسل » بالرفع على تقدير ومنهم رسل . ثم قيل :  
 إن الله تعالى لما قص فى كتابه بعض أسماء أنبيائه ، ولم يذكر أسماء بعض ، ولما ذكر فضل  
 على من لم يذكر قالت اليهود : ذكر عهد الأنبياء ولم يذكر موسى ؟ فترأت ( وكنم الله موسى  
 تكلياً ) « تكلياً » مصدر معناه التاكيد ، يدل على بطلان من يقول : خلق نفسه كلاماً فى شجرة  
 فسمعه موسى ، بل هو الكلام الحقيقى الذى يكون به التكلم متكلماً . قال النحاس : وأجمع  
 المحررون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً وأنه لا يجوز فى قول الشاعر :  
 \* أتتلاً الحوض وقال قطبي \*

أن يقول : قال قولاً ، فكذلك لما قال : « تكلياً » وجب أن يكون كلاماً على الحقيقة  
 من الكلام الذى يعقل . وقال وهب بن منبه : إن موسى عليه السلام قال : « يارب  
 ىم آخذنى كلياً ؟ طلب العمل الذى أسعده الله به ليكثر منه ؛ فقال الله تعالى له : أتذكر إذ نذ  
 من غمك جدى فأنتبت أكثر النهار وأنتبك ، ثم أخذته وقبلته وضمته إلى صدرك وقلت له :  
 أنتبنى وأنتبت نفسك ، ولم تضرب عليه ، من أجل ذلك آخذتك كلياً .

قوله تعالى : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ  
 حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٠﴾

قوله تعالى : ( رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ) هو نصب على البدل من « ورُسُلًا قد  
 قصصناهم » ويجوز أن يكون على إضمار فعل ؛ ويجوز نصبه على الحال ؛ أى كما أوحينا  
 إلى نوح والذين من بعده رسلاً . ( لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ) يقولوا  
 ما أرسلت إلينا رسولاً ، وما أنزلت علينا كتاباً ؛ وفى التثنية « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ  
 رُسُلًا » وقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا  
 فَنُنْقِصَ آيَاتِكَ » وفى هذا كله دليل واضح أنه لا يجب شىء من ناحية العقل . وروى عن  
 كعب الأحبار أنه قال : كان الأنبياء ألفى ألف ومائتى ألف . وقال مقاتل : كان الأنبياء

(١) راجع ١٠ ص ٢٢٠ - (٢) راجع ١١ ص ٢٦٤ - (٣) فى ك : مائة .

(٤) هذه الرواية نسبها ( البحر ) و ( روح المعاني ) إلى كعب الأحبار .

ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً . وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بعثت على أثمانية آلاف من الأنبياء منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل " ذكره أبو الليث السمرقندي في التفسير له ؛ ثم أمدت عن شعبة عن أبي إسحق عن الحارث الأعور عن أبي ذر الغفاري قال : قلت يا رسول الله كم كانت الأنبياء وكل من المرسلون ؟ قال : " كانت الأنبياء مائة ألف نبى وأربعة وعشرين ألف نبي وكان المرسلون ثمانمائة وثلاثة عشر " .

قلت : هذا أصح ما روى في ذلك ؛ خروجه الأجرى وأبو حاتم البستي في المسند الصحيح له .

قوله تعالى : لَكِنَّ اللَّهَ يُشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّائِكَةُ يُشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى : ( لَكِنَّ اللَّهَ يُشْهَدُ ) رفع بالابتداء ، وإن شئت شددت التوكيد ونصبته . وفي الكلام حذف دل عليه الكلام ؛ كآفة الكفار قالوا : ما تشهد لك بأحد فيما تقول فن يشهد لك ؟ فقل « لَكِنَّ اللَّهَ يُشْهَدُ » . ومعنى ( أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ) أى وهو يعلم أنك أهل لإزاله عليك ؛ ودلت الآية على أنه تعالى عالم يعلم . ( وَاللَّائِكَةُ يُشْهَدُونَ ) ذكر شهادة الملائكة ليقابل بها حق شهادتهم . ( وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ) أى كفى الله شاهداً ، والباء زائدة .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى : ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ) يعنى اليهود [ أى ظلموا ] . ( وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ) أى عن اتباع [ الرسول ] محمد صلى الله عليه وسلم بقولهم : ما نجد صفته في كتابنا ، وإنما النبوة في ولد هارون وداود ، وإن في التوراة لما شرع موسى لا يسخ . ( قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ) لأنهم كفروا ومع ذلك منعوا الناس من الإسلام .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)**

قوله تعالى : **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا)** معنى اليهودى أى ظلموا عبدا بكتبان نعمة ، وأنفسهم إذ كفروا ، والناس إذ كسبوا . **(لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ)** هذا فيمن يموت على كفره ولم يتب .

قوله تعالى : **يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُرُّ الرُّسُولِ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ فَامْنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)**

قوله تعالى : **(يَأْتِيهَا النَّاسُ)** هذا خطاب للكل . **(قَدْ جَاءَ كُرُّ الرُّسُولِ)** يريد عبدا عليه الصلاة والسلام . **(بِالْحَقِّ)** بالقرآن . وقيل : بالدين الحق ؛ وقيل : بشهادة أن لا إله إلا الله ؛ وقيل : الباء للتعدي ؛ أى جاءكم ومنه الحق ؛ فهو فى موضع افعال .

قوله تعالى : **(فَامْنُوا خَيْرًا لَكُمْ)** فى الكلام إضمار ؛ أى وآتوا خيرا لكم ؛ هذا مذهب سيويه ، وعلى قول الفراء نعت لمصدر محذوف ؛ أى إيماننا خيرا لكم ، وعلى قول أبى عبيدة يكن خيرا لكم .

قوله تعالى : **يَأْتَاهُمْ أَلْكِتَابٌ لَا تَعْلَمُونَ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْنَاهُ الْقُنْطَرَاءَ إِكْرَامًا وَرُوحٌ مِنْهُ فَامْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)**



قوله تعالى : (بِأَعْيُنِنَا لَنْ نَسُودَ فِي دِينِكُمْ) نهي عن الفتور . والتفوت التجاوز في الحدوث ومنه غلا السر ينلو غلاء ، وظلا الرجل في الأمر غلوا ، وظلا بالجارية لها وظلمها إذا أسرعت الشباب تجاوزت ليلاتها ، ومعنى بذلك فيما ذكره المفسرون غزو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم ، وغزو النصارى فيه حتى جملوه رباً ، فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر ، ولذلك قال مطرف بن عبد الله : الحسنة بين سيئين ، وقال الشاعر :

وأوف ولا تسوف حَقَّ كَلَمٌ • وصاغ فلم يستوف قط حَكِيمٌ  
ولا تَقُلْ في شيء من الأمر واتصد • يكَلِّمُ طرق قصيد الأمور دَسِمٌ

وقال آخر :

عليك بأوساط الأمور فإنها • نَجاةٌ ولا تَرْكَبْ ذُلُولاً ولا صَعْباً

وفي صحيح البخاري عنه عليه السلام : " لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى وقولوا : حيد الله ورسوله " .

قوله تعالى : (وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ) أي لا تقولوا إن له شريكاً أو أبناءً . ثم بين تعالى حال عيسى عليه السلام وصفته فقال : (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْنَاهُ) وفيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمَسِيحُ » المسيح رفع بالابتداء ، و « عيسى » بدل منه وكذا « ابْنُ مَرْيَمَ » . ويجوز أن يكون خبر الابتداء ويكون المعنى : إنما المسيح ابْنُ مَرْيَمَ . ودل بقوله : « عيسى ابْنُ مَرْيَمَ » على أن من كان منسوباً بوالده كيف يكون إلهاً ، وحق الإله أن يكون قديماً لا محدثاً . ويكون « رَسُولُ اللَّهِ » خبراً بعد خبر .

الثانية — لم يذكر الله عز وجل امرأة وسماها باسمها في كتابه إلا مريم ابنة عمران ، فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعاً لحكمة ذكرها بعض الأئمة ، فإن الملوك والأشراف

(١) اللغات (جمع لغة كلمة) : القرب ، وهو القربى وله صك وتربى .

(٢) الاطراء : مجاوزة الحد في المدح والكلاب فيه .

لا يذكرون حرائرهم في الملاء، ولا يتنزلون أسماعهم، بل يكونون عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال ونحو ذلك؛ فإن ذكروا الإماء لم يكونوا عنهم ولم يصوتوا أسماعهم عن الذكر والتصريح بها؛ فلما قالت النصارى في مريم ما قالت، وفي ابنها صرح الله باسمها، ولم يكن عنها بالأثرة والعبودية التي هي صفة لها؛ وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إيمانها .

الثالثة - أعتقد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا نكر اسمه منسوباً للام استثمرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من قى الأب عنه، وتزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَتْ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ أي هو مكون بكلمة « كن » فكان بشراً من غير أب؛ والعرب تسمى الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه . وقيل : « كلمته » بشارة الله تعالى مريم عليها السلام، ورسائله إليها على لسان جبريل [ عليه السلام ] ؛ وذلك قوله : « إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بَكْلَةٍ مِّنْهُ » . وقيل : « الكلمة » ههنا بمعنى الآية؛ قال الله تعالى : « وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا » و « مَا نَفَعَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ » . وكان لمريم أربعة أسماء؛ المسيح وعيسى وكلمة وروح، وقيل غير هذا مما ليس في القرآن . ومعنى « ألقاها إلى مَرْيَمَ » أمر بها مريم .

قوله تعالى : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ . هذا الذي أوقع النصارى في الإخلال؛ فقالوا : عيسى جزء منه فجعلوا وضلوا؛ وعنه أجوبة ثمانية : الأول - قال أبي بن كعب : خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق؛ ثم ردها إلى صلب آدم وأسك عنده روح عيسى عليه السلام؛ فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم، فكان منه عيسى عليه السلام؛ فلهذا قال : « وَرُوحٌ مِّنْهُ » . وقيل : هذه الإضافة للتفضيل وإن كان جميع الأرواح من خلقه؛ وهذا كقوله : « وَظَهَرَ بَيْنَ اللَّطَائِفِينَ » وقيل : قد يسمى من يظهر منه الأشياء العجيبة روحاً، وتضاف إلى الله تعالى فيقال : هذا روح من الله أي من خلقه؛ كما يقال في التهمة إنها من الله . وكان عيسى يرى الآله والأبرص ويحيي الموتى فاستحق هذا الاسم . وقيل :

(١) في ج: ذكره . (٢) من ك . (٣) راجع ج: ٨٨ (٤) راجع ج: ١٨ ص ٢٣ (٥) راجع ج: ١٤ ص ٧٦ (٦) في البحر : ألقاها إلى مريم أوجدها هذا الحادث في مريم وحدها . (٧) راجع ج: ٢ ص ١١

يسمى رومًا بسبب قنعة جبريل عليه السلام، ويسمى الفتح رومًا؛ لأنه دُرعٌ يخرج من الفتح  
قال الشاعر - هو ذو الرمة - :

قُلْتُ لَهُ أَرْفَعُوا إِلَيْكَ وَأَحْبَا • يَرْوِسُكَ وَأَقْتَتَ لَهَا قِيَّةً قَدُوا<sup>(١)</sup>

وقد ورد أن جبريل فتح في دُرعٍ مريمَ فحملت منه بإذن الله؛ وعلى هذا يكون «دُرعُ  
مِنهُ» معطوفًا على المضمرة الذي هو اسم الله في «الْقَاهَا» التقدير: أتى الله وجبريل الكلمة  
إلى مريم. وقيل: «دُرعُ مِنهُ» أى من خلقه؛ كما قال: «وَسَخَّرَكُمْنَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنهُ» أى من خلقه. وقيل: «دُرعُ مِنهُ» أى رحمة منه؛ فكان فيسى  
رحمة من الله لمن أتبعه؛ ومنه قوله تعالى: «وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِنَا» أى برحمته، وقُرئ «دُروُحُ  
ورِيحَانٌ». وقيل: «دُروُحُ مِنهُ» وبرهان منه؛ وكان عيسى برهانا وحملة على قومه صلى الله  
عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿تَآمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى آمنوا بأن الله إله واحد خالق المسبح ومرسله،  
وآمنوا برسله ومنهم عيسى فلا تجعلوه إلها. ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ أَلهتنا ﴿ثَلَاثَةً﴾ عن الزجاج.  
قال ابن عباس: يريد بالثلاث الله تعالى وصاحبه وآبئه. وقال الفراء وأبو عبيد: أى لا تقولوا  
هم ثلاثة؛ كقوله تعالى: «سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً». [قال أبو علي: التقدير ولا تقولوا هو ثالث ثلاثة؛  
لخفف المبتدأ والمضاف. والنصارى مع فرقهم مجمعون على الثلاث ويقولون: إن الله جوهري  
واحد وله ثلاثة أقانيم؛ فيجعلون كل أقنوم إلها ويعتقون بالأقانيم الوجود والحياة والعلم،  
وربما يعبئون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس؛ فيعتقون بالأب الوجود، وبالروح  
الحياة، والابن المسيح، في كلامهم فيه تخطيط بيانه في أصول الدين. ومحصل كلامهم  
يشول إلى التمسك بأن عيسى إله بما كان يحرره الله سبحانه وتعالى على يديه من خوارق العادات  
على حسب دواحيه وإرادته؛ وقالوا: قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر؛ فينبغي  
أن يكون المقتدر عليها موصوفا بالإلهية؛ فيقال لهم: لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلا به

(١) يرويك: بنفخ. «دواحه لما قية»: بامر، بالفتح والفتح التليل في النار. وأن يسلها حبا قليلا قليلا.

(٢) راجع ١٦ ص ١٦٠ (٣) راجع ١٧ ص ٢٠٨ ص ٢٢٢ (٤) راجع ١٠ ص ٢٢٢

(٥) من ك.

كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرهم عنه من مقدوراته، وليس كذلك؛ فإن أعترف  
النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلا به؛ وإن لم يفعلوا ذلك  
فلا حجة لهم أيضا؛ لأنهم معارضون بموسى عليه السلام، وما كان يجري على يديه من الأمور  
العظام، مثل قلب العصاة، وفتح البحر، وإلبد اليبض، والموت والحيوة، وغير ذلك؛ وكذلك  
ما جرى على يد الأنبياء؛ فإن أنكروا ذلك فتكر ما يدعونهم هم أيضا من ظهوره على يد موسى  
عليه السلام، فلا يمكنهم إثبات شيء من ذلك لموسى؛ فإن طريق إثباته عندنا نصوص  
القرآن وهم ينكرون القرآن، ويكذبون من أتى به، فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التواتر.  
وقد قيل: إن النصارى كانوا على دين الإسلام إحدى وعشرين سنة بعد ما رفع عيسى؛  
يصلون إلى القيلة؛ ويصومون شهر رمضان، حتى وقع فيها بينهم وبين اليهود حرب، وكان  
في اليهود رجل شجاع يقال له بولس؛ قتل جماعة من أصحاب عيسى فقال: إن كان الحق مع  
عيسى فقد كفرنا، ومجدنا وإلى النار مصيرنا، ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار؛  
وإن أخطأ فهم فأضلهم فيدخلون النار؛ وكان له فرس يقال لها العقاب، فأظهر الندامة ووضع  
على رأسه التراب وقال للنصارى: أنا بولس مدوكم قد نوديت من السماء أن ليست لك توبة  
إلا أن تنتصر، فادخلوه في الكنيسة بيتا فأقام فيه سنة لا يخرج ليلا ولا نهارا حتى تعلم الإنجيل؛  
ففرج وقال: نوديت من السماء أن الله قد قيل توبتك فصداقه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت  
المقدس وأستخلف عليهم فسطورا وأعلمه أن عيسى بن مريم إله، ثم توجه إلى الزوم وعلهم  
اللاهوت والتاسوت وقال: لم يكن عيسى بإنس فأنس ولا بجم فتجسم ولكنه ابن الله.  
وعلم رجلا يقال له يعقوب ذلك؛ ثم دعا رجلا يقال له الملك فقال له: إن الإله لم يزل  
ولا يزال عيسى؛ فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحدا واحدا وقال له: أنت خالعتي  
ولقد رأيت المسيح في النوم ورضي عني، وقال لكل واحد منهم: إن غدا أذبح نفسي وأقرب

(١) في به وز غفرون . (٢) كتاب في الأصول: وافي في كتاب «الخال والخل» الملكية أصحاب  
ملك الله ظهر بلاد الزوم واستولى عليها . في (صحيح الأضواء) الملكية هم أتباع ملكان الذي ظهر ببلاد الزوم؛  
فهو ملكان أو ملكان . وسيأتي ذكر الملكية ص ١١٨

بها ، فَأَذَعَ النَّاسَ إِلَى مِحْلَتِكَ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَذْبَحَ فَذَبَحَ نَفْسَهُ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ ثَلَاثِهِ دَمَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ النَّاسَ إِلَى مِحْلَتِهِ ، فَتَبَعَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةً ، فَأَقْتَتَلُوا وَأَخْتَلَفُوا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ، فَجَنَعَ النَّصَارَى مِنَ الْفِرْقِ الثَّلَاثِ ، فَهَذَا كَانَ سَبَبَ شُرْكِهِمْ فِيمَا يَقَالُ ، وَأَقْبَلُ . وَقَدْ رَوَيْتُ هَذِهِ الْقِصَّةَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « تَاغُوتُنَا يَنْهَى بَيْنَهُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى :

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( أَتَوَّابًا خَيْرًا لَكُمْ ) « خَيْرًا » مَنْصُوبٌ عِنْدَ سَيُوبِهِ بِإِضْمَارٍ فَعَلٌ ، كَأَنَّهُ قَالَ : آسُوا خَيْرًا لَكُمْ ، لِأَنَّهُ إِذَا نَهَاهُمْ عَنِ الشَّرْكِ فَقَدْ أَمَرَهُمْ بِإِتْيَانِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَمْ ، قَالَ سَيُوبُهُ : وَمِمَّا يَنْتَصِبُ عَلَى إِضْمَارِ الْفِعْلِ الْمَرْكُوكِ إِظْهَارُهُ « أَتَوَّابًا خَيْرًا لَكُمْ » لِأَنَّهُ إِذَا قُلْتَ : أَتَنَّهُ فَأَنْتَ تَحْرَجُهُ مِنْ أَمْرٍ وَتَدْخُلُهُ فِي آخَرٍ ، وَأَنْشُد :

فَوَاعِدِيهِ سَرَحَنِي مَالِكٌ \* أَوِ الرِّبَا بَيْنَهُمَا أَهْلًا

وَمِنْهُ أَبُو عُبَيْدَةَ : أَتَوَّابًا يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ : هَذَا خَطَأٌ ، لِأَنَّهُ يَضْمُرُ الشَّرْطَ وَجَوَابَهُ ، وَهَذَا لَا يُوْجَدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ . وَمِنْهُ الْفَرَزْدَادُ أَنَّهُ نَعَتْ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ : هَذَا خَطَأٌ فَاحِشٌ ، لِأَنَّهُ يَكُونُ أَلْمَنِ : أَتَوَّابًا الْإِتْمَاءَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ( إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ) هَذَا أَبْتَدَأَ وَخَبَّرَ ، وَ « وَاحِدٌ » نَعَتْ لَهُ ، وَيَحْوِزُ أَنْ يَكُونَ « إِلَهٌ » بَدَلًا مِنْ أَسْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ « وَاحِدٌ » خَبَرُهُ ، التَّقْدِيرُ إِنَّمَا الْمَعْبُودُ وَاحِدٌ . ( سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ) أَيْ تَقَرُّبًا عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، فَلِمَا سَقَطَ « عَنْ » كَانَ « أَنْ » فِي مَحَلِّ النَّصْبِ بِنَزْعِ الْخَلْفِ ، أَيْ كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ؟ وَلَدُ الرَّجُلِ مُشْبِهٌ لَهُ ، وَلَا شَيْبَةَ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ . ( لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ) فَلَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعِيسَى [ وَمَرْيَمُ ] مِنْ جِلَّةِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِمَا مَخْلُوقٌ ، فَكَيْفَ يَكُونُ عِيسَى إِلَهًا وَهُوَ مَخْلُوقٌ ! وَإِنْ جَازَ وَلَدُ فَلْيَجْزُ أَوْلَادُ حَتَّى يَكُونَ كُلُّ مَنْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَعْرُوزَةٌ وَلَدًا لَهُ . ( وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ) أَيْ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَقَدْ تَهَدَّم .

(١) رَابِعٌ ص ١١٦ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ . (٢) الْبَيْتُ لِمُسْرِمٍ أَبِي رِيحَةَ ، ر « مَرْسَا مَالِكٍ » : مَوْضِعٌ ، وَالدَّرَسَانُ مَهْرَتَانِ شَبْرَ الْمَوْضِعِ بَيْنَهُمَا ، وَالرِّبَا : جَمْعُ رِبْوَةٍ وَهِيَ الْمُنْتَفِ مِنْ الْأَرْضِ .  
(٣) فِي السَّبِينِ : لِأَنَّ التَّقْدِيرَ إِنْ تَوَسَّطُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ خَيْرًا لَكُمْ . (٤) فِي كِتَابِهِ . (٥) مِنْ ز .



يقال : ما طيه في هذا الأمر <sup>(١)</sup> تَكْفُفٌ وَلَا وَكَّفَ أَي عَيبٌ : أَي لَنْ يَمْتَنِعَ الْمَسِيحُ وَلَنْ يَتَّقَهُ  
مِنَ الْعِبَادَةِ وَلَنْ يَتَطَّعَ عَنْهَا وَلَنْ يَمِيلَهَا .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا  
إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا <sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ) بَعْنِي عَمَّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛  
عَنِ الثَّوْرِيِّ ؛ وَسَمَاءُ بَرَاهَنًا لِأَنَّ مَعَهُ الْبَرَاهَانَ وَهُوَ الْمَحْجُوزَةُ . وَقَالَ جَاهِدٌ : الْبَرَاهَانُ هُنَا الْحُجَّةُ ؛  
وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ ؛ فَإِنَّ الْمَحْجُوزَاتِ مَحْجُوزَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالنُّورُ الْمُنَزَّلُ هُوَ الْقُرْآنُ ؛ عَنِ الْحَسَنِ ؛  
وَسَمَاءُ نُورًا لِأَنَّ بِهِ تَقْيِينَ الْأَحْكَامِ وَيَهْتَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ؛ فَهُوَ نُورٌ مَبِينٌ ، أَي وَاضِحٌ بَيِّنٌ .

قوله تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ  
فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَقُضِيَ لَهُمْ نِهَايَةُ أَصْرِهِمْ <sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ( فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ) أَي بِالْقُرْآنِ عَنِ مَعَاصِيهِ ، وَإِذَا  
أَعْتَصَمُوا بِكَلَامِهِ <sup>(٤)</sup> فَقَدْ أَعْتَصَمُوا بِهِ زِينَتِهِ . وَقِيلَ : « أَعْتَصَمُوا بِهِ » أَي بِاللَّهِ . وَالْعَصْمَةُ  
الِامْتِنَاعُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ . ( وَيَهْدِيهِمْ ) أَي وَهُوَ يَهْدِيهِمْ ؛ فَاضْمَرُ هُوَ لِيُجِبَ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ  
مَقْطُوعٌ مِمَّا قَبْلَهُ . ( إِلَيْهِ ) أَي إِلَى ثَوَابِهِ . وَقِيلَ : إِلَى الْحَقِّ لِيُغْفِرَ لَهُ . ( صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا )  
أَي دِينًا مُسْتَقِيمًا . وَهُوَ صِرَاطًا مُنْصَوِّبٌ بِإِخْتِيارِ فِعْلِ دَلِّ عَلَيْهِ « وَيَهْدِيهِمْ » التَّقْدِيرُ ؛  
وَيُغْفِرُهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَقِيلَ : هُوَ مَفْعُولٌ ثَانٍ عَلَى تَقْدِيرِ ؛ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى ثَوَابِهِ صِرَاطًا  
مُسْتَقِيمًا . وَقِيلَ : هُوَ حَالٌ . وَالْهَاءُ فِي « إِلَيْهِ » قِيلَ : هِيَ لِلْقُرْآنِ ، وَقِيلَ : لِلْفِعْلِ ، وَقِيلَ :  
لِلْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ ؛ لِأَنَّهُمَا بِمَعْنَى الثَّوَابِ . وَقِيلَ : هِيَ هُوَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ كَمَا تَقَدَّمَ  
مِنْ أَنَّ الْمَعْنَى وَيَهْدِيهِمْ إِلَى ثَوَابِهِ . أَبُو عَلِيٍّ : الْهَاءُ رَاجِعَةٌ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ اسْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،  
وَالْمَعْنَى وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطِهِ ؛ فَإِذَا جُمِلَتْ « صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » نَصَبًا عَلَى الْحَالِ كَانَتْ الْحَالُ مِنْ

(١) فِي ج : مِنْ تَكْفُفٍ . (٢) فِي ج : وَرُو . (٣) رَاجِعٌ ج : ص ١٥٦

هذا المذوق . وفي قوله : « وَفَضِّلَ » دليل على أنه تعالى يفضل على عباده بشوايه ؛  
إذ لو كان في مقابلة العمل لما كان فضلا . والله أعلم .

قوله تعالى : **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ** <sup>١</sup> **إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ**  
**لَيْسَ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَهُمْ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ**  
**لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلُّانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً**  
**رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِنْهُلْ حِظٌّ أَلَا لثْنَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَصِلُوا**  
**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** <sup>(١٦٦)</sup>

فيه ست مسائل :

الأولى — قال البراء بن عازب : هذه آتية نزلت من القرآن ؛ كذا في كتاب مسلم .  
وقيل : نزلت والتي صلى الله عليه وسلم متجهز لمحجة الوداع ، ونزلت بسبب جابر ؛ قال جابر  
ابن عبد الله : مرضت فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يهوداني ماشين ،  
فأغمى علي ؛ فوضا [ رسول الله صلى الله عليه وسلم ] ثم صب علي من وضوئه فأفاق ،  
فقلت : يا رسول الله كيف أقضي في مالي ؟ فلم يرد علي شيئا حتى نزلت آية الميراث  
« **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ** » <sup>(١٦٦)</sup> رواه مسلم ؛ وقال : آتية نزلت « **وَأَتَوْهَا يَوْمَ**  
**تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ** » <sup>(١٦٧)</sup> وقد تقدم . ومضى في أزل السورة الكلام في « الكلاله » مستوفى ،  
وأن المراد بالإخوة هنا الإخوة للآب والأم [ أو للآب <sup>(١٦٨)</sup> ] وكان لجابر سبع أخوات .

الثانية — قوله تعالى : **(إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ)** أي ليس له ولد ولا والد ؛  
فأكتفى بذكر أحدهما ؛ قال الجرجاني : لفظ الولد ينطلق على الوالد والمولود ؛ فالوالد يسمى  
والدا لأنه ولد ، والمولود يسمى ولدا لأنه ولد ؛ كالذرية لأنها من ذرا ثم تنطلق على المولود  
وعلى الوالد ؛ قال الله تعالى : « **وَأَيُّهُمُ أَتَى حَمَلًا ذَرَبْتُمْ فِي الْقُلُوبِ الْمَشْحُونِ** » <sup>(١٦٩)</sup>

(١) من ك . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٧٥ . (٣) راجع ج ٥ ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) من ج وزودك . (٥) راجع ج ١٥ ص .



الثالثة - والجمهور من العلماء من الصعابة والتأبين يجعلون الأخوات عصبة البنات وإن لم يكن معهن أخ، غير ابن عباس؛ فإنه كان لا يعمل الأخوات عصبة البنات؛ وإليه ذهب داود وطائفة؛ وجهتهم ظاهر قول الله تعالى: «إِنْ أَمْرُكَ هَٰذَا فَذَرِكْهُ» (١) وإن أمرك هـذا فذرْهُ له ولد وله أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ هـ ولم يورث الأخْت إلا إذا لم يكن لبيت ولد؛ قالوا: ومعلوم أن الأخت من الولد، فوجب ألا ترث الأخت مع وجودها. وكان ابن الزبير يقول بقول ابن عباس في هذه المسئلة حتى أخبره الأسود بن يزيد: أن مغلطا قضى في بنت وأخت بفعل المال بينهما نصفين.

الرابعة - هذه الآية تسمى بآية الصيف؛ لأنها نزلت في زمن الصيف؛ قال عمر: إني والله لا أدع شيئا أهم إلي من أمر الكلالة، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم [عنا] (١) فأغظني في شيء ما أغظني فيها، حتى طعن بإصبعه في جني أو في صدرى ثم قال: «يأمر ألا تكفيك آية الصيف التي أنزلت في آتسورة النساء». وعنه رضى الله عنه قال: ثلاث لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنى أحب إلى من الدنيا وما فيها: الكلالة والزبا والخلافة؛ خروجه ابن ماجه في سننه.

الخامسة - طعن بعض الرافضة بقول عمر: «والله لا أدع» الحديث.

السادسة - قوله تعالى: «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الْكَافِيَاتِ» (٢) قال الكشاف: المعنى بين الله لكم ثلاثا تضيوا. قال أبو عبيد؛ فحذت الكشاف بحديث رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يدعون أحدكم على ولده أن يوافق من الله إجابة» فأستحسنه. قال النحاس: والمعنى عند أبي عبيد ثلاثا يوافق من الله إجابة، وهذا القول عند البصريين خطأ [صراح] (٣)؛ [لأنهم] لا يجوزون إضمار لا؛ والمعنى عندهم: بين الله لكم كراهة أن تضلوا، ثم حذف؛ كما قال: «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ» (٤) وكذا معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي كراهية أن يوافق من الله إجابة. (فَاللهُ يَكْفِي شَيْءَ عَلَيْهِ) تقدم في غير موضع. والله أعلم تمت سورة «النساء» والحمد لله الذي وفق.













